

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي خانزاد - اربيل- كُردستان العراق

السير

پلوتارك "فلوطرخوس"

السير

پلوتارك "فلوطرخوس"

ترجمة:

جرجيس فتح الله

الجزء الأول

اسم الكتاب: السير - الجزء الأول
تأليف: پلوتارك (فلوطرخوس)
ترجمه: جرجيس فتح الله
من منشورات آراس رقم: ٤٠٣
التصحيح والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
التنضيد: نساو عبدالله
الغلاف: آراس أكرم
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود
الطبعة الأولى: اربيل - ٢٠٠٥
رقم الإيداع في المكتبة العامة في اربيل: ٢٠٠٥/٨٢٧

1005	نيكياس
1039	كراسوس
1081	سرتوريوس
1107	يومينيوس
1129	آغيلوس
1167	پومپوي
1253	الاسكندر
1323	يوليوس قيصر
1375	فوكيون
1407	كاتو الاصغر
1461	آغيس
1479	كليومينس
1509	طيريريس گراخوس
1529	كاوس گراخوس
1551	ديموستينس
1577	شيشرون
1621	ديميتريوس
1663	مارك انطوني
1737	ديون
1777	ماركوس بروتوس
1825	اراتوس
1863	ارتخششتا
1889	غالبا
1913	اوتو

الفهرس

7	توطئة
29	ثيسوس
65	روملوس
109	ليكورغوس
149	نوما پمپليوس
207	صولون
243	پوپليسكولا
271	تيميستوكلس
307	كاميلوس
349	پيريكلس
395	فابوس ماكسيموس
429	الكيبيادس
469	كريولانوس
511	تيموليون
549	ايميوليوس پاولوس
587	پيلوپيداس
619	مارچلوس
661	أريستدس
693	ماركوس كاتو
729	فيلوپمين
749	فلامينينوس
777	پيروس
815	گايوس ماريوس
859	ليساندر
887	سيللا
933	كيمون
955	لوكولوس

بعثة دبلوماسية من خيرونيا في حدود العام ٩٠م. وبقي فيها مدة طويلة اتسعت لالقاء دروس اثار اهتماماً عاماً. ولسنا ندرى هل زار ايطاليا مرة واحدة فقط أم عدة مرات.

ووصل جبل الودّ بـ«سوسسيوس سينشسيو Sosins Senecio وهو كما تؤمى كل الدلائل «سوسسيوس» الذي تقلد منصب القنصل اربع مرات. ولعل علاقتهما هذه نشأت في روما حينما كان [سوسسيوس] أصغر سناً منه بكثير^(١). ولعله تعرف به اول الامر اثناء القائه دروسه أو لعلهما تعارفا في اليونان. وعاد الى خيرونيا واليونان، ويبدو انه قضى البقية الباقية في حياته في تلك المدينة الصغيرة التي كان يكره «تقليص حجمها بنزوح ولو ساكن واحد من سكانها عنها». وساهم في شؤون المدينة وضواحيها ونُصب «ارخونا»^(٢) على المدينة وقام بأعباء الكهانة لاپوللو في دلفي عدة سنين كما يبدو.

وكان متزوجاً وأباً لما لا يقل عن خمسة اولاد، منهم ابنان على أقل تقدير بلغاً مبلغ الرجولة. وأعظم ما كتب هو مجموعة سيره هذه، يليها عدد من الكتب الفها في الفترة الأخيرة من حياته على عهد (تراجان)، ومن المشكوك فيه انه ادرك (هادريان)، وان نحن اتخذنا العام ٤٥م تاريخاً محتملاً لميلاده، فإن العام ١٢٠م الموافق للسنة الرابعة من حكم هادريان يكون أقرب تاريخ محتمل لوفاته على سبيل الافتراض، وما هو أكيد عندنا انه عاش عمراً مديداً، وانه وصف نفسه في احدى محاوراته الخيالية بالشباب اليفاع يناقش في الفلسفة مع [أمونيوس] ايام زيارة نيرون بلاد اليونان العام ٦٦-٦٧م. وانه كان حياً ناشط القلم والفكر على وجه التحقيق في الشتاء الذي عبر به تراجان الى (داقيا) بعد ان بنى جسراً على نهر الدانوب. وهو يقول في رسالته [عن مبدأ البرد] «لقد انبأنا اولئك الذين يشنون الآن مع الامبراطور على الدانوب ان انجماد الماء سيؤدي الى تحطم السفن تحطيماً».

ويمكن اضافة بعض السماء والوقائع مستمدةً من كتاباته، زيادة على ما ذكرناه. وليس لنا في هذا المجال إلا الإعتقاد الكلي على تلك الوقائع المقتضية نفسها. فلدينا حكايات واستطرادات في السير، وفي تأليفه ومقالاته ومحاوراته واحاديث مائده وغيرها من تصانيفه، وهي تزود القريحة بمادة متنوعة لمختلف الاستنتاجات الطريفة والغريبة.

(١) إلا اذا أخذت عبارة المؤلف «اولادي زملاؤك» مأخذ التندر والتفكهة.

(٢) Archon: واحد في الحكام التسعة الكبار في اثينا القديمة. وفي الأيام الأخيرة اصبح يطلق على رئيس بلدية اي مدينة يونانية. او حاكمها. او قاضيها.

توطئة

إن المجموعة الشهيرة جداً باسم «سير پلوتارخ»، ليست كما تركها لنا المؤلف لا من حيث الشكل ولا من حيث الترتيب. ففي المؤلف الأصلي دوت السير في سلسلة من الكتب، وكل كتاب يتضمن سيرة يونانية واحدة تقابلها سير رومانية، وتلحق بهما دراسة مقارنة. وقد أضيف الى هذا تراجم سير اشخاص مختلفة لم توضع موضع مقارنة. ولعل «اوتو Otho وگالبا Galba» ينتميان الى سلسلة من الأباطرة الرومان تبتدي «باغسطس Augustus» وتختتم «بقيتيليلوس Vitellius». وأما سيرتا «ارتخششتا Artaxerxes» و«اراتوس Ara-tus» السياسيين، فكلتاهما سيرة منفصلة، كسير الآخرين الذين قيل لنا أنهم وجدوا وعاشوا، مثل [هرقل Hercules وارسطومينيس Aristomenes، وهسيود Hesiod، وپندار Pindar، ودايفانتوس Daiphantus، وقراطس Crates، الهجاء، واراتوس Aratus الشاعر].

وفي السير المتعاصرة نفسها، ثغرات، فثم كتاب يشمل سيرتي «إپامنداس Epaminon das وسكيبو Scipio» الأصغر فقط. اذ لا يوجد مقارنات كثيرة، وهي إما مفقودة، او لم تكتب. وسيلحظ القاري ان التنويهات التي يذكرها المؤلف هنا وهناك عن السير التي ستتلو أو تلت تدل بأن ترتيبها في الأساس يختلف عن الترتيب الحاضر. مثال ذلك انك تجد حين تفتح الصفحة الأولى من هذا الكتاب، ذكراً لحياة «ليكورغوس ونوما» في سيرة «ثيسسيوس» على اساس كونهما مدونتين سابقاً.

وفي امكاننا ان نعرض وقائع حياة (پلوتارخ) البسيطة بفذلكة مختصرة جداً. ويرجع انه ولد في عهد «كلوديوس Claudius» في حدود العام ٤٥ أو ٥٠ ميلادية. ومسقط رأسه مدينة [خيرونيا Chaeronea] في بويوتيا Boeotia حيث استقرت اسرته قبل زمن طويل، ونالت مكانة طيبة وسمعة حميدة. درس في اثينا متتلماً على الفيلسوف امونيوس Am- monius وزار مصر وقضى في روما رداً من الزمن مبعوثاً في «مهمة رسمية» لعلها كانت

ذكر (نيكارخوس Nicarchus) جدّ أبيه عرضاً في سيرة «انطوني» اذ قال: «كان والد حدّي يقص كيف سُخرَ اهل خيرونيا في حرب انطوني الأخيرة لنقل القمح الى ساحل خليج (كورنشا) وكان قد خصص لكل منهم حملٌ معين الوزن، والجنود يحتاطونهم ويحتشونهم بالسياط...» وبعد أن كملت اول نقلة، واكتيلت النقلة الثانية لهم، وصلت ابنا هزيمة [اكتيوم Actium]^(٣). وورد ذكر جدة [لامپرياس Lamprias] ايضاً في السيرة نفسها. بصدد سماعه قصة من [فيلوطاس Philotas] الطبيب، عن حياة البذخ والإسراف التي كان «انطوني» يعيشها في مصر. وتحدث عن والده أكثر من مرة في آثاره الأخرى الصغرى دون ذكر اسمه. ويظهر اسم «امونيوس» استاذة ومثقفه الأثيني، عدة مرات في آثاره الصغرى. ونوه به مرة واحدة في هذه السير، تنويهاً خاصاً عندما ذكر ان سليلاً لتيستوكلس تتلمذ معه على أمونيوس. ونجد ذكراً لتسنم هذا الفيلسوف منصب الاستراتيجيةوس Strategus^(٤) في اثينا ثلاث دفعات^(٥)، وهو منصب هام جداً في مجرى التاريخ العالمي، واشبهه بمنصب «البيوطارخيين في بويوتيا» ظلّ يسند الى المواطنين المحليين طوال عهد الامبراطورية، ويستنتج من الرسالة الصغيرة الموسومة «في مبادئ السياسة» ان احد المناصب العليا المرتبطة بالوالي الروماني. ويحدثنا بلوتارخ «مرة، لحظ معلمنا امونيوس اثناء درس ما بعد الظهر أن بعض مستمعيه كانوا قد افراطوا كثيراً في تناول طعام الفطور فأمرَ بمحضر منا أن ينزل عقابُ بابنه لأن الشاب كما قال، أبى أن يتناول فطوره الا مع خمرة مَرّة. واخذ في الوقت نفسه ينظر شزراً الى أفراد الصف المدنيين».

والحكاية التالية كأنها تعود الى فترة متأخرة بعض الشيء عن فترة دراسته في آثينا قال: «اذكر عندما كنت انا نفسي شاباً، أني اوفدت مع شخص آخر في مهمة عامة الى الپروفنصل Proconsul^(٦) واتفق ان وقع لزميلي ما اعاقه عن اكمال الرحلة فخلفته ورائي ومضيت

(٣) لا يوجد على اية حال سبب اكيد يدفعنا للقول بان بلوتارخ. يتذكر مشاهدته والد جده وسماعه منه هذه الحكاية.

(٤) في اثينا القديمة يعتبر المنصب بمعادلة قائد الجيش، أو يكون صاحبه واحداً من أعضاء مجلس العشرة الأعلى المنتخب سنوياً فيها.

(٥) وهذا ما يثير بغض الشك حول الرواية اثبتها المؤرخ البيزنطي [يونابايوس] التي قد لا تتناقض معها تناقضاً تاماً. وهي «ان امونيوس معلم بلوتارخ الالهي، كان مصرياً...». ومن المؤكد أن بلوتارخ كان على معرفة تامة بالحكمة اليونانية المصرية، انظر رسالته الى السيدة المثقفة [كليا Clea] عن [ايزيس وازويرس]، ولعله مكث مدة طويلة في الاسكندرية ودرس هناك كثيراً.

(٦) في النظام الروماني هو حاكم ولاية رومانية. وفي عهد الامبراطورية هو حاكم اقليم سناتوري (أي تابع لمجلس الشيوخ).

لانجاز المهمة وحدي ثم عدتُ وفيما كنت أقدم حساباً عنها واسلمَ مأمورتي الى المجلس، نهض ابي وأسرَّ إليَّ بأن أحاذر كلمة «ذهبتُ» و«قلتُ» واتكلم بصيغة المثني، وأحافظ على سهم زميلي من المهمة في سائر تقريرتي».

ولا نعرف شيئاً عن زيارته ايطاليا واقامته فيها، أكثر من روايته في سيرة [ديموستينس]. وان مهام الوظيفة التي كان يتقلدها، والزوار الذين يقصدونه للجدال الفلسفي كان يستنفذ كثيراً من وقته فلم يتسن له أنذاك ان يلّم الماماً كافياً باللغة اللاتينية. ولا نشك في انه رحل كثيراً فقد قال انه شاهد تماشال ماريوس او تماشال النصفي في (رافنا)، اثناء ايراده سيرة (ماريوس). ويحدثنا في مقولته «عن الحبّ الأخوي» انه كلف اثناء وجوده في روما بمهمة التحكيم في نزاع نشأ بين أخوين يُعد احدهما من عشاق الفيلسوف تجمه من هو قبل كل صفة الفيلسوف ولا صفة الأخ قلت له اني لا أتوقع منه مسلك فيلسوف تجمه من هو قبل كل شيء عادي، لا يفخر بالعلم بالفلسفة، وهو بالدرجة الثانية أخ له، أجابني قائلاً: اما عن النقطة الأولى فلا اراك فيها إلا مصيباً. إلا اني لا أعلق أهمية كبيرة على ولادة شخصي نتيجة اتصال زوج من الاجسام. ويستنكر بلوتارخ طبعاً هذا القول الكافر الشنيع ويؤنب صاحبه. وثم حكاية أطرف من هذه، اوردها في رسالته عن «حب الاستطلاع»... فمن الوصايا الأخرى لاجتناب الخطأ، أو البرء منه «علينا ان نعود انفسنا عندما يؤتى لنا بالرسائل ألا نبادر الى فتحها بعجلة، وألا نقطع خيوطها باسناننا، كما يفصل الكثيرون عندما يعجزون عن حلها بأيديهم وألا نخفّ الى السعادة مسرعين، اذا رأيناهم مقبلين، والألا نقفز عندما يقول صديق أن لديه نبأ طريفاً، أو خصوصاً ان كان عنده نصيحة مفيدة يقدمها لنا. ومرة عندما كنتُ ألقى درساً في (رومه) كان من بين مستمعي [روسيستكوس Rusticus] الذي بطش به [دوميتيان Domition] فيما بعد غيراً من شهرته وحسداً لسمعته. كنت مستمراً في الكلام عندما دخل جندي يحمل اليه رسالة من الامبراطور فسكن الجميع، وتوقفتُ لأدع له مجالاً لقراءة الرسالة فلم يفعل، وانما القاها بعيداً عنه حتى فرغت من درسي، وانصرف المستمعون. هذا مثل على السلوك الرزين الجدير باثارة منتهى الإعجاب».

كان [ل. يونيوس ارولينوس روسيستكوس L. Junius Aralenus Rusticus] صديق [پليني Pliny وتاكيوتوس Tacitus] الخالد المجد بين شهداء الرواقيين الذين دونت اسماؤهم في معرض سيرة «اغريكولا Agricola»، كان في مطلع شبابه تلميذاً شديد التشيع [لثراسيا پاييتوس Thrasea Paetus]. وعندما فرض نيرون حكم الموت على [پاييتوس] هذا، وكان مجلس الشيوخ يوشك على ابرام الحكم بالادانة، اندفع روستيكوس بغضب دفاق من عاطفته،

«من بلوتارخ الى زوجه - تحية»

يبدو ان السعادة الذين ارسلتهم لينعوا لي طفلتنا، قد ضلوا السبيل الى اثينا، فأبلغت به عند وصولي (تناغرا) وأعتقد ان كل ما يتعلق بتشجيع الجثمان قد تم. واول ما يكون مراسيم الجنائز قد أشاعت في نفسك أعظم السلوان. وان تخلف اي شيء رغبت فيه واحجمت عنه انتظاركاً لموافقتي - وكان فيه عزاء لك فنقدته، إلا ما يشويه افراط او شعبدة وانك لأزهد الناس في هذا. حسبي يازوجي العزيزة الأمل في ان تبقي نفسك وتيقيني في حدود من الاحزان معقولة ولست بغافل قط عن مبلغ خسارتنا وجسامة فجيعتنا. وما انا «بجذع من خشب او قطعة من حجر». وأنت تشهدين على ذلك ياشريكتي في الحدب على أطفالنا العديدين الذين تولينا تربيتهم بأنفسنا في منزلنا واحداً بعد واحد. وهذه الطفلة، الإينة ولدت لك استجابة لرغبة خاصة خالجت نفسك بعد اربعة ابناء، فأتاحت ولادتها الفرصة لي لإدامة اسمك. وهي كما اعرف جيداً موضع حب خاص عندك.

ومضى يذكر ان طبع الطفلة المحبب وطرقها الجميلة عملت في زيادة آلام الشكل زيادة عظيمة، وبعدها قال «ومع هذا فلا مبرر لنا اذ نسينا النصائح التي نتقدم بها الآخرين، ولا عذر اذ انظرنا الى فاجعتنا الحاضرة وكأنها غمّت على سعادتنا السالفة وكدرت صفوها» ومن كان حاضراً ساعة الجنائز تحدثوا بأعجاب عن هدوئها وبساطة سلوكها. والجنائز نفسها كانت عاطلة عن اي مظهر من مظاهر المبالغة في النواح والندب. ولم يكن هذا مصدر عجب له فهو يدري كم كانت عيشتها البسيطة المتواضعة وثار دهشة اصدقائه الحكماء وزائريه.

وهو الذي خبر ايضاً مبلغ صبرها وجلدها عند فقدها بكر اولادها... يقول بعد هذا... «عندما تركتنا جميلتنا [شارون Sharon] اذكر ان بعض معارفي من الأجانب كانوا مقبلين عليّ من البحر لما وصلني نعي الطفلة، فسبقوا الى البيت مع بعض الاصدقاء. إلا ان النظام التام والهدوء المستتب الذي وجدوه هناك، جعلهم يعتقدون (ذكر لي ذلك فيما بعد) ان الخبر عار عن الصحة. ويختتم «رسالة العزاء» [وهو عنوانها] بعبارات تنم عن ايمانه بخلود الروح البشرية. ذاكراً أن الأبوين تحصنهما وتقوي عزائمهما تقاليد اسلافها والوحي الرباني الذي ينكشف لهما، ويبلغهما بممارسة الطرق الصوفية الديونيسية.

هنالك فقرة في الرسالة يستنتج منها ان بلوتارخ [تيموكزيننا]، كانا جديين وقت ان حلت بهما المصيبة. وان زواج ابنتهما أوتوبولس كان مناسبة لإحدى المآدب التي فصلت وقائعها في رسالته «المسائل السيمموزية» (اي احاديث ما بعد طعام العشاء). في احدي هذه المحاورات

مستعملاً حق الاعتراض (الفيتو) وهو حق ما زال آنذاك مرتبطاً شكلاً بمنصب التريبيون Trib-une^(٧) الذي كان يتقلده وقتذاك. ولم يفلح معلمه في منعه من التظاهر بما كان سيؤدي به قبل ان يحين أجله - الى اضافة اسمه الى القائمة الضحايا الامجد. كتب هذا سيرة حياة (ثراسيا) بعد ممارسته مهام منصب الپريتور^(٨) في أثناء الحروب الاهلية التي عقب موت نيرون، مثلما كتب [سينشيو Senecio] سيرة [هلثيديوس Helvidius] ودون [تاكيتوس] تاريخاً لحياة [اغريكولا] على ارجح الروايات. وكانت لغة [روسيتكوس] صريحة جريئة بحيث سببت موته. ومن المعلمين الذين تلقى الشاب ماركوس اوريليوس Marcus Aurillius علومه عليهم نقراً اسم «اورلينوس روسيتكوس» الذي قد يكون حفيداً لروسيتكوس السالف ذكره، ومعه نجد اسم [سكستوس Sixtus] الخيروني ابن أخ بلوتارخ الذي يقول الامبراطور الألمعي الفيلسوف عنه «لقد علمني بمثال نفسه، الاخلاق الحميدة والحكمة العادلة التي كان ما يفتأ يوصي بها» وظل الامبراطور يختلف الى منزله متملذماً عليه برغبة لم تضعف قط.

ولا يستنتج طبعاً من العبارة التي صيغت بها الرواية انها وقعت ايام «دوميتيان» وان بلوتارخ يشير الى رسالة دوميتيان فيها. على ان وجوده في روما ايام حكم هذا الامبراطور أو بعده يبدو مرجحاً بسبب اللهجة التي يتكلم بها عن العظمة السخيفة لقصور دوميتيان وغيرها من المباني الامبراطورية.

وكثيراً ما ينوه بلوتارخ باسم أخويه «تيمون Timon» ولامپرياس Lamprias» في مقولاته ومحاوراته، ويبدو انهما كانا تلميذين لامونيوس ايضاً وانك لتجد العبارة التالية في رسالته «الحب بين الأخوة»، يقول بلوتارخ «واما عن نفسي أنا، فمن النعم التي اشكر حظي الحسن عليها هي محبة تيمون أخي لي، في الماضي والحاضر، لأنها لمحبة عظيمة بحيث يمكن ان تعدل وحدها سائر النعم الأخرى. ولا بد ان يكون كل من خالطنا وعاشرنا مطلعاً عليها. وأصدقائنا خير العارفين بها طبعاً».

وزوجه هي [تيموكزيننا Timoxena] بنت (الكسيونا). ووقائع حياته البيتية تجد خير تصوير وادقه في رسالته الموجهة الى زوجه حول ثكلهما بنتهما الوحيدة التي ولدت لهما وهما في سن متقدمة بعد ولادة اخوتها بفترة طويلة على ما يبدو:

(٧) واحد من الضباط (في اول الاول اثنان، ثم عشرة) يختارهم الشعب بالاقتراع ووظيفة المحافظة على حقوقه ازاء مجلس الشيوخ والقناصل ومراقبة الحريات العامة من الاعتداء.

(٨) قنصل روماني يناط به قيادة جيش، وقد تطور هذا المنصب فيما بعد فهداً حاكماً ينتخب بالاقتراع العام ويقوم بوظيفة ما من وظائف القنصل.

وفي موضع آخر يقول مشيراً الى واجبات وظيفته الكهنوتية لاپوللو دلفي «وتعلم اني خدمت هذا الرب [البيثي] عدة بيثيدات^(١١) خلون، ومع هذا بانك لن تستطيع ان تقول لي: انك اسهمت كثيراً في تقديم الاضاحي والرقص الديني، والفرائض الأخرى، وقد آن الأوان يا بلوتارخ ان تنزع فلادتك الكهنوتية وتتقاعد عن العرافة مقرأً بعجزك بعد ان بلغت من العمر عتياً»

حتى في هذه العبارات والروايات القليلة، والقريبة من الحقيقة والواقع، يوجد ما يكفي من المواد لتأليف صورة من الحياة البيثية السعيدة نصف الأكاديمية، نصف العملية تنصرم بين اقرباء محبين واصدقاء معروفين، وقيل كثيراً الى الدراسات العلمية والاخلاقية، وتتصل مع هذا، بواجبات المواطن العادي واعبائه. وبانتقالنا الى أبعد من هذا، يتعذر علينا طبعاً التسليم بحقيقة مشاهد المحاورات الخيالية واعتبارها وقائع تاريخية. ومع هذا ففيها الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الصدق في التصوير إن جاز لنا هذا القول. وربما وجد الكثير مما يمكن أن يؤخذ مأخذ الحقيقة بالحرف، فما يدعى [سيمپوزياك أو مسائل ما بعد العشاء] المجموعة في تسعة كتب مهداة الى «سوسيوس سينشيو» قيل لنا أن كثيراً منها جرى بحثها بحضور [سوسيوس] ومشاركته في روما وفي بلاد اليونان كأن يكون هذا مدعواً الى حفلات زفاف [اوتوبولس]. ويظهر [لامپرياس] واخوه [تيمون] كثيري النشاط والحيوية في المناقشات، لكل منهما شخصيته واراؤه المستقلة. ترى المشهد الآن في دلفي، ثم تراه في اثينا وأحياناً يكون روما وهو نادر ويكون أناباً بمناسبة إحياء الالعباب. وكان بلوتارخ بسبب وظيفته الكهنوتية بقيم اللواتم على شرف الشاعر الفائز في الالعباب [البيثية]. وهنالک وليمة عشاء بمناسبة الالعباب [الاستمية] في كورنث، وهنالک حفلة أولمبية أخرى في [ايليس Elis]... كان بلوتارخ مواطناً اثينياً بالموالاة للقبيلة الليوننتية - ولذلك تراه موجوداً في مناسبة تكريم صديقه الشاعر الفيلسوف [سيراپيون Serapion] لفوزه. إن الاشخاص الذين شاركوا في احاديث مختلف المحاورات الصغيرة، يؤلفون زمرة واحدة متراسة فهم أكثر من ثمانين بين فلاسفة ونحويين وبلغاء، واطباء، منهم [يوتيدموس Euthydmus] زميله في الكهنوت و[الكيسون] حموه، وأربعة أو خمسة من اقربائه بحكم المصاهرة و«فافورينوس Favorinus» فيلسوف [أرليس Arles] في [پروفنس Provence] الذي لقي حظوة عند [هادريان] في ما

(١١) وهي فترات متعددة لأربع سنوات. كل مرة تنقضي بين احياء الالعباب البيثية كالالعباب الاولمبية.

نجد تنويهاً بعيداً بابن [الأوتوبولس Autobolus] لقد كتب بلوتارخ الرسالة الصغيرة في شرح [طيمائوس Timmoeus] لابنيه اوتوبولس وبلوتارخ. ولايد انهما كانا وقتذاك مكتملي الرجولة ليترقا موضوعاً صعباً كطيمائوس. وفي بحثه «عن السبيل الذي يجب أن يسلكه الشباب لقراءة قصائد الشعراء» يقول مخاطباً «ماركوس سيداتوس Sedatus» ليس من السهل ان نمنع منعاً باتاً كلاً من عزيزي سوكلاروس Soclarus وعزيزك كلياندر Cleander عن قراءة الشعر. ولكن ليس هناك ما يشير هل ان سوكولاروس ابن له، أو حفيد، أو قريب من اقرباء الأسرة، أو تلميذ وهو من المحتملات أيضاً. واما [يوريديس Eurydice] المتزوجة حديثاً بپوليانوس Polianus. فتبدو انها من أهل داره حدساً وتخميناً من رسالة «في الوصايا الزوجية» كتبها لها ولزوجها على انه لايمكن القول انها بنت له وليس من المحتمل قط أن يكون موضع [تيموكزينا] الصغيرة المتوفاة قد مليء^(٩) بأخرى.

قد تكون وظيفة الأرخون التي أشغلها بلوتارخ في مدينته وظيفه سنوية ومن المحتمل جداً انه أشغلها أكثر من مرة ويبدو انه كان يهتم بأصغر أمور المدينة وأقلها شأنًا. بل كان يتعمد مباشرة أحقر الأشغال، فبعد ان روى قصة [ابامنداس] أنشأ يمدح ويرفع من شأن وظيفة رئيس الكناسين بقوله: « وأنا أيضاً للسبب نفسه أجدني هدفاً لتندر جيراني، كما يشاهدوني - وما أكثر ذلك- في الاماكن العامة اتولى شؤوناً مشابهة لواجبات تلك الوظيفة. إلا أن القصة التي رويت عن [انتستينس Antisthenes] تأتي هنا لنجدتي.

فعندما أبدى أحدهم دهشته لرؤية هذا الرجل يحمل الى بيته سمكة بالتوابل اشتراها من السوق، أجابه قائلاً «إنها لنفسى وقياساً على هذا فإن عاب علي أحدهم وقوفي في محل عام ومراقبة قياس ابعاد الجر، ونقل الجص والحجر، أجيب بقولي «انه ليس لنفسى بل لبلدتي».

وفي المقالة المختصرة الموسومة «هل ينبغي للرجل الهرم أن يستمر في معالجة الشؤون العامة؟» كتب بحث [يوفانس Euphanes] وهو عضو قديم بارز في كل من [أريوباغس Areopagus] اثينا، والمجلس الامفكتيونى Amphyctyon^(١٠) على البقاء في منصبه قائلاً «فلنبق على زمالتنا الطويلة ولانقطعها، ولیمتنع كلانا عن اعتزال هذه الحياة التي اخترناها»

(٩) أمّا عن بلوغ ابنين له مبلغ الرجولة على أقل تقدير. فيبدو من عبارة قصد بهما ابنيه الصغيرين الآخرين بقوله انهما اطالا الجلوس في اللعب متأخرًا عن العشاء.

(١٠) اريوباغوس هو بالاصل تل من تلال اثينا. جرت العادة ان تلتئم فيه المحكمة العليا، أو مجلس الحكم الأعلى. واما المجلس الامفكتيونى فيتألف من مندوبين من جميع الدول اليونانية يجتمعون للنظر في الشؤون المتعلقة باتحادهم.

بعد، والى هذا الامبراطور اهدى واحدةً من رسائله، فأجابه بمقالة اسمها «پلوتارخوس» وهي تدور حول الفلسفة الاكاديمية. تجد سيرابيون يستضيف هذه النخبة في بستانٍ على ضفاف نهر جيفيسوسوس Cephisus ثم تراهم يتناولون عشاءهم مع طبيب صديق على مرتفعات [هيامبوليس Hyampolis] ويتقابلون في حفلة بحمامات [ايدبوسوس Aedepsus] وفي هذه المجالس كانت تبحث شتى المسائل، تجدها أحياناً جديّة أخلاقية نحوية تاريخية.

وفي احيان كثيرة تجدها مرحلة فكاهية: ماذا يقصد افلاطون في قوله ان الآلهة تستخدم الهندسة؟ لماذا يكون سمعنا أحد في الليل منه في النهار؟ لماذا تكون الأحلام أقل انطباقاً على الواقع في موسم الخريف؟ ايها وجد قبل الآخر: ألببضة أم الدجاجة؟ أي يد من يدي فينوس جرحها ديوميديس Diomedes؟ وهكذا. وينيري [لاميرياس] الجدّ ليعتب على ابنه والد پلوتارخ دعوته عدداً كبيراً من الضيفان للحفلات التي «اقمناها عند عودتنا الى الوطن من الاسكندرية». ويقيم [امونيوس] ستراتيجوس (جنرال) اثينا، مأدبة عشاء للفتيان الذين برزوا في مسابقة المهارة في النحو والمنطق والهندسة والشعر، وتروى حكايات في هذه المناسبة حول الأبيات الشعرية التي أسيء اقتباسها في المناسبات أو لم يُسأ.

ومن الآثار الثانوية الأخرى التي تركها المؤلف. ما يبدو بعضه وكأنه دروس ألقيت في روما. ثم نشر بعدئذ بمقدمة صغيرة للأشخاص المعنيين، وعندنا مقولة في «الفوائد التي يمكن ان نجنيها من أعدائنا» موجهة الى كورنيليوس پولكر Corniluis Polker ومقالة عن «القدر» الي [بيزو Piso] وعن «الحب الأخوي» مهداة الى [نيغرينوس Nigrinius] وكوينتوس Quintus، وكثير منها محاورات ومناقشات فيها قدر كبير من المشاهد المتماثلة المتنوعة والاحاديث الضاحكة التي تتخلل مناقشات المائدة.

في حديث مع امونيوس وأصدقاء آخرين «منذ عهد بعيد، عندما كان [نيرون] في بلاد اليونان»، جرى النقاش في معنى الكتابة الغريبة المنقوشة على معبد دلفي. نحت فيه حرفا E و ا. وجرى بحث في طبيعة العرافة بمناسبة قيام بعض اصدقاء پلوتارخ بإراءة المباني المقدسة في دلفي لأحد الزائرين - أثناء الفترات التي تخللت الشروح المملّة نوعاً ما التي كان الادلاء المحترفون يسردونها أثناء طوافهم بالمواقع المقدسة «حصل ذلك قبيل بدء الألعاب البييتية في عهد [كالليستراطوس Callistratus] فهنا في دلفي التقينا برحالتين قدما من أقصى ارجاء المعمورة وهما [ديمترئوس] النحوي، القادم في بريطانيا في طريقه الى موطنه [طرسوس] وكليومبروتوس Cleombrotus الليقديموني الذي عاد لتوه من رحلة ترفيهيه ثقافية - الى مصر العليا، بلغ بها نهاية البحر الارتيري». وتبدو ملامح للموضوع، ثم يتبعها محاوره في

مسألة «انقطاع النبوءات» ويتضمن فقرة فيها القصة المشهورة عن الصوت الذي انبأ بموت (پان Pan) العظيم. وتجد [اوتوبولس] يكلم [سكولاروس] زميل ابنه في مديح كانا قد سمعاه، لرياضة القنص. معلقين على ذلك بقولهما أن خير مزية تذكر لهذه الرياضة هي انها تنحرف بعيداً بالعاطفة التي تجد منطلقاً لها في مشاهدة قتال المصارعين، وتأخذها الى سبيل أقل بشاعة وهمجية. ثم يبرز في النقاش حالاً زمرة كبيرة من الفتيان المغرمين بصيد السمك وقنص وحوش البرية، ويقوم متكلمان ليطرحا على بساط البحث موضوع: ايهما أوفر حكمة وعقلاً، أحيوانات البحر أم حيوانات البر. وتروى في الجلسة حكايات عن الفيلة. ويقص ارسطوطيموس Aristotimus المدافع عن تفوق حيوان البر مستشهداً «بكلب يُقلد تأثير مسرى السم في الجسم» في مشهد تمثيلي رآه بأَم عينه في روما. كان التمثيل متقناً بحيث هز مشاعر الحاضرين ومنهم الامبراطور الشيخ (فسپيسبان) في ملعب (مارجللس Marcellus) وإنك لتكاد تحسّ من لهجة العبارة كأن پلوتارخ لا ارسطوطيموس هو الذي شاهد المنظر^(١٢).

ويظهر (اوتوبولس) مرة أخرى في محاوره عنوانها «عن الحب». كتبت تحقيقاً لرجاء صديقه فلافيانوس Flavianus وهو حديث طويل تتخلله حكايات غريبة، شارك فيه والده وهو في جبل هيليكون Helicon «منذ زمن بعيد قبل ان نولد، وعندما جاء بأمنّا لتقدم قرباناً (للحب) في عيد اقيم [بنسپايي]، بعد نزاع نشأ بين أبويهما».

إن هذا الخصام لم يكن تخريفاً بل حقيقة واقعة. وعلى وجه العموم فإن هذه الإطارات الموضوعية التي تُولف هيكل حركة المحاورات الخيالية منها وشبه الخيالية، فيها عناصر من الواقع قد ترقى الى الحدّ الذي يمكن اعتبارها من قبيل الاحداث التاريخية المسلم بها حصلت للمؤلف كما أوردها الكتاب المتأخرون، وإن لم يكن يقصد بها في الواقع أن تؤخذ بشكلها الحرفي، وان يعتبر نصّها حقيقة. بأن «سويداس Suidas» الموسوعي إنما يسرح في خيالٍ بحث عندما يقص علينا كيف خلع «تراجان» عليه منصب القنصل، وأصدر اوامره الى جميع حكام «ايلليريا»؛ بالآ يقدموا على عملٍ قبل استشارته! وكان «سينكللوس Syncellus» المؤرخ البيزنطي يبالغ مثله بل أكثر منه في ذكره تحت فصل وقائع سنة من سنوات حكم (هادريان)

(١٢) وينوه هنا بعض تنويه بطباع فسپيسبان المتميزة بالقسوة والوحشية. في قصة عنه أوردها في محاورته عن «الحب الأخوي» عن [ساينوس] الثائر [الغالي] وزوجه ايونينا Eponina. وقد ذكرها تاكيتوس أيضاً في تاريخه. كان قد ولد لهما في مخابها تحت الأرض ولدان - فقد اختفيا وعاشا تحت اطباق الأرض عدة سنين حتى أفتضح امره وقتل). يقول پلوتارخ: «احد هذين الولدين كان معنا هنا في دلفي قبل فترة قصيرة». ثم يزيد معلقاً: «ان انقراض نسل فسپيسبان يعود الى غضب الارباب لعمله هذا المجرد من الشعور والرحمة».

الأولى، ان بولوتارخ الفيلاسوف الخيروني، اقامه الامبراطور في اواخر عمره حاكماً على بلاد اليونان. ومع ان عهد [تراجان وانطونينوس Antonines] كان بمثابة العصر الذهبي للفلاسفة فقد بدا وكأن فترة اضطهادهم القصيرة وعهد (دوميتيان) أكسبتهم مدة من الزمن مكانة روحية سامية شبيهة بما نالوا بعد حكم [ديوقلتيان]. على ان هذه المنزلة انتزعت منهم بمجهود كهنة الدين الجديد.

هنالك رسالة وردت بين مؤلفات بولوتارخ المطبوعة تتضمن مجموعة من «اقوال الملوك والقادة» مهداة الى (تراجان) ومع وجود شك كبير حولها، فليس بمستبعد ايداً ان تكون من تأليف بولوتارخ نفسه. وهي ليست مما يستوقف النظر، وأكثر ما يلاحظ فيها، اختلافها الشديد في الاسلوب عن رسالة أخرى لايشك في انها منحلّة - نشرها باللاتينية جون السالسيبوري Johan Salisbury وهي موعظة حافلة بالوصايا الى «التلميذ تراجان بقلم معلمه السابق المزعوم بولوتارخ ولدينا قائمة بمؤلفات بولوتارخ، كثير من الاسماء التي تتضمنها لا وجود له الآن. يقول [سويداس] كاتبها، انه نقلها عن الامپرياس ابن بولوتارخ. كذلك يوجد رسالة قصيرة وضعت في مقدمة تلك القائمة. وجهها بولوتارخ الى صديق تعرف به في آسيا، وكان قد كتب اليه من موطنه يطلب معلومات معينة. قد تكون القائمة صحيحة إلا ان اسم «لامپرياس» لا يظهر قط في كل مؤلفات بولوتارخ بوصفه ابناً من ابناؤه. ولايسعنا إلا ان نشك بأن اسم الأسرة هذا، قد انتحله بعضهم، وان هذه الرسالة الى الصديق المجهول الآسيوي الفها احد النحويين في عصور تالية، قاصداً رفع قائمة عادية لأسماء آثار المؤلف العديدة.

اذا قرأ المرء بولوتارخ فعليه ان يتذكر النقاط التالية: إنه أخلاقي أكثر منه مؤرخاً واهتمامه بالطبائع والشخصيات والأعمال الفردية والدوافع الخاصة الى تلك الأعمال أكثر بكثير من اهتمامه بشؤون السياسة وبتغيير الامبراطوريات. فعنده ان الواجب يؤدي فيكافأ عليه مؤديه. والكبرياء تنال جزاءها، وسرعة الغضب سيئة يجب تقويمها. والنزعة الانسانية والانصاف والسماحة تنتصر في الحياة الدنيا. او تعوض في الحياة الأخرى وانك لتري فكر بولوتارخ في سيره - يتجه دائماً الى الآراء الارسطية في الاخلاق، ونظريات افلاطون السامية التي كانت مذهب الطبقة المثقفة في عصره.

هذا العصر هو نقطة ثانية يجب ان يتذكرها القاريء، انه عصر [نيرون وتراجان وهادريان]، انه مفتتح خير العصور واسعدھا من عمر الامبراطورية الرومانية العظمى، بنظامها الاجتماعي الذي ساد سواحل البحر الأبيض المتوسط كافة (وكانت ايطاليا واليونان مركزها، والشرق وأقصى ما عُرف من بلاد في الغرب طرفها) فقد وصل أعلى درجة من التقدم والكمال وسادت

قوانين روما وفلسفة اليونان رقعة من الأرض تمتد من نهر دجلة حتى الجزر البريطانية انه آخر العصور العظيمة للحضارة الرومانية - اليونانية، ولقد كان [إبيكتيتوس Epictetus] يعلم باليونانية الحكمة التي امتاز بها [ماركوس اوريليوس] عندما غدا امبراطوراً. وأعاد [ديو خريسوستم أريان Dio Chrysostom Arrian] للأذهان ذكر بلغاء [أتیکا] المشاهير الأعلام، ومؤرخيها العظام. وفيما تجد بولوتارخ يكتب من [خيرونيا]، كان [تاكسيستوس ويليبيتي الأصغر، ومارشيوال، وجوفينال] يكتبون في روما. قد يقال أيضاً - وربما لا يخلو القول من صحة - أن كتاب اللاتين في العاصمة لم يكونوا في نقل الروحية والطابع العام اللذين يميزان ذلك العصر - بمستوى صدق قلم هذا البويوتي الريف الساذج الذي كان يكتب بلغة أوسع انتشاراً، غير متقيد باي ذكريات قوية محلية لمجلس الشيوخ العتيق وللجمهورية. وربما وجدت تاكيتوس وجوفينال «أكثر أصالة رومانية» من احد مواطني امبراطورية البحر المتوسط العظيمة لأن شرور حكومة الامبراطورية كما يشعرون بها في العاصمة، صورت في الشعر والنثر الرومانيين تصويراً أدق وأقوى مما يناسب الهيئة العامة للدولة، كما تراها عيون سكان عالم الامبراطورية حتى في عهد حكم (دوميتيان) نفسه.

وهذه الأخيرة، على أية حال الناحية الأكثر هيبة؛ وان أفضل العهدين واحسنهما هو ذلك الذي تعكسه حياة بولوتارخ وكتابات، فأسلوبه أسلوب ذلك الرجل السعيد بذاته الراضي بما قسم له واحاط به.

إن الذكريات القوية الغلابة لأحداث السنين الماضية التي مرت تحت ظل الإرهاب المباشر، الناجم عن شرور الحكم الامبراطوري لم تنتقص من طبيعة بولوتارخ المستبشرة الضاحكة ولم تجرده من بساطته المرحه ولم تشب سعادته بظل من الأسى. ومع أنه كان يتذكر (نيرون)، وكان رجلاً عندما اعتلى [دوميتيان] عرش الامبراطورية، فكلما يسعنا قوله انه كان يكشف عما يجوز لنا وصفه بالسعادة الهادئة، لمن خرج من شر عظيم ليعيش في ازمان طيبة. وان قوة تلك السعادة التي يبديها، لدليل على ان جذورها كانت قد تأصلت في ظروف غير موآتية، ولا طيبة.

قيل الكثير عن عدم دقة بولوتارخ، ولا ينكر أنه كان قليل الاحتفال بالأرقام يناقض أقواله بنفسه أحياناً، وأعظم منقصة تؤخذ عليه هي تعلقه الشديد: بالحكايات، اذ لم يكن يعبر عن ايراد القصص التي كان هو اول المدركين زيفها. ومن شأنها ان تخلف انطباعاً غير منصف عن راويها. وهو بهذا الطريق لم ينصف كلاً من [ديموستينس، وپريكليس] اذ ورث عن افلاطون تحامله على ثانيهما، وهو التحامل الذي طبع به جميع الفلاسفة المتأخرين ومنهم بولوتارخ.

صحيح أيضاً ان معالجته اللاتاريخية لمواضيع سيره تجعله يبدو أحياناً غير دقيق، بل موضع انتقاد في الصور التي يرسمها. ومما هو طبيعي أن الجانب الكبير من حياة رجال الدولة العامة يمكن ان يجد تفسير في وضعهم السياسي. إلا ان بولوتارخ قليلاً ما فكر في هذا، أو عرف. فبقدر ما نجحت ابحاث المؤرخين المعاصرين في اكتشاف امورٍ عن مثل هذه العلاقات، كانت هذه السير نحتاج الى تصحيح. ولكن يكون من المناسب، بل من المفيد العودة الى الصورة التي رسمت قبل ان تسود الافكار الجديدة والنظرات الحديثة عالمنا الحالي حول الغموض الذي يعتور ولا شك الدراسات الحديثة ان لم نرجع الى احكام قابلة للأخذ والردّ كهذه. وانما بمجرد القياس على المبادئ الواسعة لقانون الأخلاق القديم في التفريق بين الخطأ والصواب.

وبغضنا بعض الطرّف عن الأمور التي اتينا الى ذكر طائفة منها. وبصبرنا قليلاً على قصة حب فيها شيء من المبالغة، ويتجاوزنا عن عداة شبه ديني للقادة الديموقراطيين الذين سخط عليهم افلاطون واذا ما وضعنا في حسابنا أيضاً، ان الحكايات من امثال ما اورده عن [تيسوس] يصعب جداً فصل الجانب الاسطوري منها عن الجانب الحقيقي كما أقرّ هو نفسه. امكننا القول أن القراء على مختلف أعمارهم سيجدون في تاريخ بولوتارخ سيراً أمينة، مثقفة لحياة عظماء الرومان واليونان. واذا كان من العبث حقاً ان نفكر بصدور سير أمينة في عصر بولوتارخ، فلدينا هنا على اية حال سجل أمين للوقائع التاريخية كما أرادها عصره. وهو ما أحبّ اليونان والرومان أن يعتقدوه عن محاربيهم وساستهم الغابرين. اما كصورة فهي تعتبر خيراً نسخة لوجهات النظر الخلقية الرومانية واليونانية، ولآرائهم في مبادئ للاخلاق. أمّا وانها تمثل حصيلة الفكر الأدبي الروماني - اليوناني، كتبت لا تحت ضغط نكبة وإنما في جوّ اعتيادي مطمئن هو جوّ الحياة الهادئة البسيطة الواقعية لسكان الريف وهم يزاولون شؤون عيشتهم اليومية - هي بلا جدال ذات قيمة عظيمة. ويمكن القول أن الطبع الذي أظهره كاتبها ينطوي على سماحة وبشر ووداد ذى سحرٍ طبيعي غير مجلوب بتطرية، ولا يمكن ان يرقى اليه اي كاتب من الكتاب الكلاسيين الذين وصلتنا آثارهم.

وهذه الترجمة الانكليزية هي نسخة منقحة للترجمة المطبوعة في أواخر القرن السابع عشر من تاريخ حياة بولوتارخ بقلم [درايدن Dryden] الذي أريد ان يُضفي اسمه الداوي أهمية ويلقى نوراً ساطعاً على أولئك الكادحين الخاملين الذكر الذي انجزوا القسط الأوفى من نقل هذا الأثر حسناً كان نقلهم أم سيئاً. وبطبيعة الحال يوجد تفاوت كبير في مجهوداتهم غير ان الترجمة التي عملها [لانگهورن Langhorne] في أواسط القرن الماضي هي والحق يقال اضعف كثيراً من الترجمة الأولى وأقل منها حيوية بمقدار كبير. انها لترجمة ممّلة ثقيلة الوقع

على النفس تعوزها الطلاوة، لذلك ولعدم وجود ترجمة جديدة اصيلة - فيؤمل ان يكون أحياء الترجمة الأولى الذي نحاوله الآن ذا فائدة. وما كانت الحاجة لتدعو الى ذلك لو أن مستر لونج... لم يقصر تعليقاته النفيسة جداً التي علقها هناك، على السير الخاصة بالحروب الأهلية الرومانية في السلسلة التي طبعها بمنشورات مكتبة [نايت شيللنغ].

والحياة التي صنفها درايدن لبولوتارخ هي مثل كثير من كتابات هذا الأديب، سريعة التأليف، لكنها جيدة السبك. تفتقر الى الدقة لكنها شيقة طليّة. أما السيرة التي كتبها (داسيبه) وطبعها في آخر مجلد من الترجمة الفرنسية التي عملها للسير، فهي جيدة جداً من نواحٍ شتى. أمّا المواد التي أعتمدها الاثنان فقد استمدها من معين واحد، وهي المراجع التي توفر الى حجمها [روالدوس] عند كتابته سيرة بولوتارخ، التي تعب فيها كثيراً، ونشرها ملحقاً من نشرة باريس الوثائقية القديمة للعام ١٦٢٤. على أن كل ما هو ذو قيمة في التراجم المذكورة أمّا استمدت من المواضيع المتوفرة «في المكتبة اليونانية لفابريشيوس Bibliotheca Greca (Fabricius) وفي الموسوعة الألمانية لياول، مع آخر الإضافات. وواضح أيضاً ان الكثير مما هو مفيد، موجود في الحوليّات الرومانية Fasti Romana بقلم كلنتون Clinton وقد اقتبسنا منها الجدول التالي.

ملاحظة: الكتاب الذين وضع في نهاية اسمائهم نجمة هم يونانيون.

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتّاب الفترة
٤١	اعتلاء كلوديوس	سينيكا
٥٤	اعتلاء نيرون، نيرون يزور اليونان،	
٦٦	تنويه بذلك في محاوره بولوتارخ عن حرفي E وا في دلفي).	لوكان
٦٧	نيرون يحتفل بالالعاب الاستمعية (تنويه بذلك في سيرة بولوتارخ عن فلاقيوس)	بيرسيوس
٦٨	«غالبا» أمبراطوراً. الحروب الأهلية.	
٦٩	فيتيلليوس. اوتو. قسپسيان.	
٧٠	الاستيلاء على اورشليم	

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتَّاب الفترة
١٣٨	اعتلاء «انطونينوس»	بطليموس. أبيان*.
١٦١	اعتلاء ماركوس اوريليوس	پاوسانياس*.
١٨١	اعتلاء كومودوس	چالبتون. لوشيان*. اثناؤوس*. ديون كاسيوس*

إن الخطأ الذي وقع فيه كل كتاب سيرة بلوتارخ ابتداءً من [روالدوس] فنازلاً، هو افتراضهم الواهم أن بلوتارخ قضى سنوات عديدة من حياته في روما قد تبلغ حوالي الأربعين. وبسبب هذا الوهم حورت حياته برمتها تحويراً جوهرياً. ولذلك ليس ثم جدوى في إيرادنا هنا سيرته التي كتبها [درايدن] وضمها الى هذه الترجمة التي نقحناها وأجرينا عليها، تعديلات قلَّت ام كثرت هنا وهناك. وبكفي أن نورد هنا مقتبساً أو اثنين من تلك السيرة. أولهما قد يلقي بعض الضوء على موضوع غامض بعض الشيء للقاريء العصري: كان (درايدن) مخطئاً في تحليل أو تعليين لا أهمية كبيرة لهما. إلا أن وجهة نظره العامة في عقيدة الارواح الشريرة Daemonic التي تظهر في كتابات بلوتارخ، قد تفي الى حد ما بالغرض. قال درايدن: «بامكاننا ان نتأثر خطي باقي ارائه، من فلسفته التي قلنا انها افلاطونية على العموم، وان لم يكن هناك مجال للتكرار أيضاً وجود صبغة من العقيدة الايلكتية^(١٢) فيها تلك العقيدة التي بدأت بداعيتها [پوتامون Potamon] في عهد امبراطورية أغسطس. والتي اختارت من كل العقائد الأخرى ما هو في رأيهم أكثر مناسبة وعقلاً غير مقيم على عقيدة معينة واحدة. غير رافضين كل شيء ما عداها. واني سأتصدى هنا لعقيدة الارواح فقط. ففي رسالتي بلوتارخ: «عن اسباب انقطاع النبوءات» و«عن عدم نزول الوحي شعراً، كما كان ينزل في السابق» يبدو أنه من مؤيدي المذهب الفيثاغوري في انتقال الأرواح من حال الى حال. لقد بينا آنفاً انه يؤمن بوحدة رئيس الأرباب الذي يسمى بعدة اسماء حسب صفاته. فهو جوبيتر من سلطانه اللامتناهي وهو اپوللو من حكمته وهكذا دواليك. إلا أن بلوتارخ يضع في الدرجة التي تلي جوبيتر، تلك المخلوقات التي يطلق عليها اسم ديمون أو الجن. وهي كائنات ذات طبيعة متوسطة بين الإله والانسان، لأنه كان لايتصور وجود ثغرة بين الطرفين القصيين: المخلوقات الخالدة والمخلوقات المائتة. وانه لايمكن أن تبقي الطبيعة مثل هذه الثغرة

(١٢) ويقصد بها [الاكلكتية] وهو الأسم الذي تعرف به الآن Eclectic.

التاريخ (ميلادي)	الواقعة التاريخية	اسماء كُتَّاب الفترة
٧٤	الفلاسفة يُنفون من روما.	
٧٩	مقتل «سابينوس» الغالي. موت فسپسيان. واعتلاء تيطس. موت پليني الأكبر. ثورة بركان فيزوف. تنويه بلوتارخ بهذه الظاهرة الطبيعية باعتبارها حدثاً قريباً لعهد في محاوراته «عن السبب في ان الوحي لم يعد ينزل شعراً»؟	كونتيليان* ستاتيوس سيلوس
٨١	اعتلاء «دوميتيان»	ايتاليكوس مارتيال
٩٠	الفلاسفة ينفون ثانيةً من روما بعد مقتل «روستيكوس»	ديوخريستوس* [ولد في حدود ٦٠م]
٩٦	اعتلاء «نرقا»	پلوتارخ
٩٨	اعتلاء تراجان	ايبكتيتوس اريان
١٠٠	تقريب پليني	پليني الأصغر [ولد في ٦١م]
١٠٣	ايبكتيتوس يعلم في نيقوبوليس. أريان احد الذين يحضرون دروسه.	جوفينال [ولد في ٥٩م]
١٠٤	پليني في «بثينيا»	فاثورينوس* سيوتونيوس
١٠٦	تراجان يشتهي في الدانوب (پلوتارخ يشير اليها في مقالته - مبدأ البرودة)	[ولد في حدود ٧٠م]
١١٣	إقامة عمود تراجان	
١١٤	انتصارات تراجان على الفرثيين (كان بلوتارخ قد كتب سيرته عن انطوني قبيل هذه الاحداث)	
١١٧	اعتلاء هادريان العرش (في السنة الثالثة لحكم هادريان كان بلوتارخ حياً على ما زعمه يوسينوس)	

مطمئنين انه لم يصب بشيء من الخرف في عمره المتقدمة جداً من محتوى الرسالة التي كتبها بعنوان «ان الرجال المتقدمين في السن يجب ألا يحجموا عن تولي الأعمال العامة». والآن يجب علينا أن نبذ فكرة انه كان يرى في الرب الذي يخدمه: كأكوديمون أو شيطاناً كما نسميه نحن. فلا شيء أبعد عن رأي وممارسة هذا الفيلسوف الجليل من هذا الإثم والفسوق. وإن قصة «بشياس» أو كاهنة ابوللو وهي القصة التي اختتم بها رسالته عن انقطاع الوحي، تدعم تأكيدي هذا أكثر من ان تدحضه. فقد راحت الى المعبد... «دَخَلْتُ بتردد عظيم الى الموضع المقدس لتتلقى الوحي ثم خرجت مزبدة الفم جاحظة العينين في صدرها زحير وصوتها حاد النبرات لا يفهم منه شيء. حتى لكأن زلزلاً يزلزل في جوفها. تجاهد لالتقاط انفاسها وتلهث. ويمختصر القول فقد كان الرب يثقل على نفسها ويزاحمها ولم تكن قادرة على احتماله حتى ماتت عذاباً وهي بليدة الحواس، بعد ايام قليلة». كان بولوتارخ قد ذكر مثل هذه الحادثة ان الكاهنة يجب أن لا تكون مضطربة الفكر نجسة العاطفة، ساعة نزول النبوءة عليها. فاذا كانت حالتها هذه، فإنها لاتصلح قط لتلقي الوحي. مثل آلة الطرب التي لم تحرق اوتارها حزقاً صحيحاً فانها لا تخرج النغمات الصحيحة المتناسقة. وقد ذكر في نهاية هذه القصة ما تركنا نشك في «ان هذه الكاهنة لم تعش عيشة طهرٍ وعفة مدةً من الزمن قبل اوان الوحي. لذلك بدأ موتها عتاباً فرضه عليها سلطان أعلى لعيشة الفجور التي عاشتها، أكثر منه عملاً شريراً لروح تستمتع بالشرٍّ فحسب». هنالك ملاحظة أخرى أقرب الى الفرض في الواقع. وسأنحرف عن موضوعي لأرويهما لأنها تتعلق ببعض الشيء ببلاد بريطانيا. يقول بولوتارخ: «هناك عدد كبير من الجزر الصغيرة منتشرة حول بريطانيا مثل انتشار جزر [سپورادس Sporades] حول بلادنا. كانت خالية من البشر وبعضها يسمى بجزر الجبابرة أو الجان. أرسل الامبراطور شخصاً يدعى (ديمثريوس) لاستكشافها (لا بد أن يكون الامبراطور كاليغولا او كلوديوس^(١٣) بحساب الزمن) فبلغ الرحالة احدى الجزر المجاورة لمجموعة الجزر المجهولة. وكانت مأهولة بقليل من البريطون (كان سائر بين قومهم يرهونهم وينزلونهم منزلة القداسة) وما ان احتوته الجزيرة حتى اظلم الجو واضطرب وظهرت اشباح غريبة فيه. وأثارت الريح عاصفة هو جاء وظهرت سحبٌ بلون ناري ودوامات ريح ترقص متجهة نحو اليابسة. وبعد ان زالت هذه المظاهر العجيبة اعلمه سكان الجزيرة بان أحد الكائنات الأثيرية التي هي اسمى من بني جلدتنا البشر، قد توقفت عن الحياة وتلاشت. فهؤلاء الجبابرة كالشمعة، في حياتها تعطي ضياءً جميلاً نافعاً أثناء اتقادها. ولكن يثور ثائرها وتضج وتقلب شراً ووبالاً

(١٣) في زمن متأخر عن هذا بكثير دون شك.

الواسعة مفتوحة دون ان تملأها بنوع وسط من الحياة يمت الى كل الطرفين القصيين. اذن فالاتصال بين النفس والجسد انما يتم فحسب عند الارواح الحيوانية كما نجد ذلك الاتصال بين العالم الالهي والعالم الانساني يتم بهذا النوع المتوسط بينهما الذي سميناه [ديمون]. فهؤلاء «الجن» كانوا في مبدأ أمرهم بشراً، اتبعوا طريق الخير والصلاح وتساموا في الفضائل حتى انسلخوا عن اجسامهم البشرية وتخلصوا من اوضاع وجودهم الأرضي وارتقوا الى مرتبة «الجن» هذه. وهنا اعتراضهم أحد أمرين، إمّا أن يستمروا في التسامي والارتقاء في سلم الحياة الأثيرية ببقائهم محافظين على طهرهم وصلاتهم، أو ان يسقطوا مرة أخرى ليعودوا الى الجسم البشري الميت ويتقمصوا اللحم والعظم بفقدتهم تلك الطهارة التي هي اساس كينونتهم الأثيرية. هذا النوع من الجن هو الذي انيط به أمر انزال الوحي والعرافة بحسب رأي بولوتارخ. إن الارواح التي تخلف فيها الكثير من عناصرها الأرضية، تكون عرضة للتأثر العاطفي، وتلعب بها الالهواء البشرية. وهي في العادة تأثيرات خيرة طيبة. وقد تكون أحياناً شريرة ضارة بالناس. وتتفاوت بين هذين المقياسين على قدر ما تكون فضائل تلك الارواح سامية، أو بقدر ما تتزايد سقطاتها وهفواتها لتنحدر بالتدرج الى حالة البشر وتكون عرضة للموت والفناء وهو يعزو انقطاع الوحي أو بالأحرى تناقصه (لأن بعض تلك الارواح كان موجوداً حتى ايام بولوتارخ) إمّا الى فناء هؤلاء الجن كما يبدو ذلك من رواية [ثاموس Thamos] المصري الذي أوحى اليه أن يعلن موت الرب العظيم (پان). وإمّا الى مغادرتهم المواضع التي كانوا قد اختاروها للوحي حين طردتهم منها طائفة من الجن أكثر قوة منهم وفتتهم على إثر تلك الثورات التي استمرت تحدث منذ عصور سحيقة. ومن امثال تلك الثورات الحرب التي نشبت بين الجبابرة والأرباب. وطرده (ساترن: زحل) بأمر جوبيتر. ونفي ابوللو من السماء، وسقوط فولكان... وغير ذلك كثير. وكلها في رأي المؤلف معارك تجري بين هؤلاء الجن (الديمون). ولكن لنفترض (ونرجح ان بولوتارخ فعل مثلنا) ان هؤلاء الجن تولوا أمور البشر تحت رقابة الكائن الأعلى. فعاونوا الاختيار، واقتصوا من الاشارات. وأحياناً حلوا في أسمى البشر نفوساً، كما كان جن سقراط يئذره دائماً بمكامن الخطر ويعلمه كيفية اجتنابها. ولا يسعني إلا أن أعجب من كل كاتب لحياة بولوتار، ابتداءً من روالدوس بصورة خاصة وهو أوسعهم اطلاعاً بها، كيف أكدوا عن ثقة أن الوحي إنمّا يتأتى من الأرواح الشريرة، ان تفكيرنا كمسيحيين ينصرف الى هذا الاستنتاج طبعاً. أما ان يكون هذا رأي بولوتارخ، فهو خطأ فاضح لا وجه للاعتذار عنه. ويكفي لإقناع رجل سوي العقل أن نذكر بأن مؤلفنا في اواخر عمره كرس نفسه للقيام بالفرائض الدينية في دلفي وأن نعلمه أيضاً انه مات وهو كاهن لأبوللو. ولنا أن نحكم

عندما تدنو من النهاية ويخبو ضياؤها. في حياتهم يضيئون لنا وينعمون علينا بالخير والبركة. ولكن ما ان تدركهم ساعة الفناء حتى يقلبوا الدنيا عاليها سافلها ويثيروا العواصف ويفسدوا الجوّ بالأبخرة القتالة. ما من شك في أن المؤلف يقصد بهؤلاء المخلوقات ما عرف عندنا با (درويد Driud) الذين هم أقرب الى الفيثاغوريين من اي طائفة أخرى. وقد يكون فكرة الجن هذه، واحدة من عقائدهم على أنه ليس من الأكيد ان كلّ «الجن» اشراراً على هذا القياس. والاشرار منهم هم أولئك الذين قضى عليهم ان يتقمصوا الأجسام البشرية بسبب سوء تصرفاتهم وهم في حالتهم الاثيرية... ولكن حان الوقت لنخلف موضوعاً حافلاً بالخيال والخرافة خالياً من المعقول. واني لأهم بان اتصور الأبخرة الطبيعية والغازات المتصاعدة من الكهف حيث كان المعبد قد بني. ربّما هي المؤثرة على نفوس كل من يدخله. كما اثرت على الراعي (كوريتاس Coretas) الذي كان اول من أكتشفها بمحض الصدفة وعزاها الى حماسة النبوة، وعرشات وحيها. حتى انه لما تضاءلت قوة هذه الأبخرة وكانت عادة تتجمع في الكهوف: ككهف موبوس، وتروفينوس، ودلفوس) صار الوحي يتناقص بالقياس نفسه وصادف ان كانت أقوى من العادة عندما قتلت كاهنة بيثياس التي شعرت بحقيقة الأمر فامتعت عن الدخول. أما وان الوحي لم يعد ينزل بصيغة شعرية فلأن الشعراء عافوا مهنة الكهانة. وان جنّي سقراط (وقد اقرّ سقراط أنه لم يره قط بل كان يسمعه من جوفه ولا يحسّ به الآخرون) فهو ليس إلا مظهراً لقوة خياله، أو هو «ملاكه الحارس» اذا استخدمنا التعبير المسيحي الافلاطوني. إن الفقرة الأخيرة من سيرة حياة المؤلف قد تصلح خاتمة لهذه المقدمة قال درايدن: «والآن وبالكبيرياء والتعظيم الذي تعودته كتاب المقدمات الهولنديون، يمكننا ان نقلد مؤلفنا آيات المديح والثناء. ذلك لأن الكتاب القدماء منهم والمحدثين، ذكروه بالتجلة والتكريم. لكن ملء الصحائف بهذا النوع من البضاعة من شأنه أن يشيع عدم الثقة في نفس القاريء فيتوهم أن بلوتارخ هو بحاجة الى هذا، إن روالدوس على أية حال جمع الوافر من هذه الأقوال وممن جمع لهم سأذكر فحسب اسماء جيلبوس ويوسيفوس وهيميريوس السوفسطائي ويونابوس وكيريللوس الاسكندراني وثيودوريت [جوهانس ساربرنسس Sohannes Sarieberiensis] وپترارك الشهير وپطرس فكتوربوس وجوستوس لپسيوس.

إلا ان [ثيودوروس غازا]، وهو رحل واسع الاطلاع في اللاتينية ومن أعظم النقلة الأغرقي الذين عاشوا قبل أكثر من قرنين، يستأهل منّا أن نثبت له هنا تقريبه الحرفي، فالآخرون اجزلوا الثناء على بلوتارخ دون الآخريين، في حين ان هذا الباحث رفعه على الجميع واليك ما كتب:

« قيل ان أحد أصدقائه طرح عليه هذا السؤال المغرق في الخيال والمبالغة: اذا تعرض التراث الفكري كله الى خطر الغرق، فأعطي له حق خيار واحد باستنقاذ آثار مؤلف واحد، فمن سيقع عليه أختياره؟ فأجاب: اختار بلوتارخ. ولعله معذور في قوله هذا. اذا بانقاذ آثار هذا المؤلف يكون قد حفظ خير مجموعة منها...»

إن مديح [اغاثياس Agathias] هو الآخر يستحق تنويهاً، لقد نبغ هذا الكاتب في حدود المائة الخامسة للميلاد على عهد الامبراطور جُستينيان والايبيات المذكورة في «الشذرات الأدبية Amthologia» وترجمتنا لها هنا أختم على كاتبنا. ولا يفوتني التنبيه بأنها نظمت لتنقش على تمثال يقيمه له الرومان احياءً لذاكره.

يا بلوتارخ الخيروي، ان تمثال الشكر هذا، اقامته روما ذات المجد العسكري العظيم تكريماً لذكراك الخالدة. فهي وبلاد اليونان شاركتنا في شهرتك معاً. (فلقد كتبت سير ابطالهما وقارنت فيما بينهما).

لكنك لم تستطع انت ان تكتب سيرتك، ان لسيرهم اقراناً اما سيرتك فما لها قرين.

ثبتت بالترجمات

النص الأصلي: الطبعة الأولى (طبعة فلورنسا. آب ١٥١٧) الطبعات التالية. [شيفر Shaefer] ١٨١٢-١٨١٨ و ١٨٢٥-١٨٣٠، [سنتينس Sintenes] ١٨٣٩-١٩٤٦ و ١٨٨٤-١٨٨٨. [دوينر Doehner] ١٨٤٦-١٨٥٥. [بكر Bekker] ١٨٥٥-١٨٥٧.

الترجمات: سر توماس نورث Sir Thomas North، من النص الفرنسي المترجم بقلم [جمس أميو James Amyot] في ١٥٧٥ و ١٥٧٩ و ١٥٩٥. (مع سير اضافية)؛ طبعات تالية، وطبعة ١٦٧٦ هي آخر ترجمة كاملة، نشرت بمقدمة لجورج وندهام G. Wind-ham. ثم ترجمة ثيودر في ١٨٩٥؛ بقلم و. ه. د. روس W. H. D. Rouse «مععيد بلوتارخ» عشرة مجلدات في ١٨٩٨ و ١٨٩٩؛ منتخبات لشرح مسرحيات شكسبير مع تعليقات وفهرست ابجدي الخ... بقلم و. و. سكيت W. W. Skeat سنة ١٨٧٥ وترجمة لجماعة من الكتاب مع مقدمة لدرايدن في سيرة حياة بلوتارخ (الترجمة تسمى عادة باسم درايدن) ١٦٨٣-١٦٨٦ وهناك طبعات عديدة تالية اهمها تلك التي عملها ونقحها كثيراً [ارثر هيو كلو Arthur Hugh Clough] ١٨٦٤-١٨٧٦. وترجمة [و. لانكهورن W. Langhorne] ١٧٧٠. طبعات تالية: [ف. رانكهام F. W. Rang-



لوحة رومانية تعود الى ٢٠٠ ق.م

[ham ١٨٤٦، [Bohn ١٨٥٣، دار كاندوس كلاسيك Chandos Classics
١٨٨٤، دار كاميلوت كلاسيك Camelot Classic (مختارات) ١٨٨٦، لوبوك من
الكتب المائة. رقم ٣٩. ترجمة بقلم [أ. ستيوارت A. Steuart] و[غ. لونج G.
Long]، مع سيرة بلوتارخ. طبعة مكتبه ستاندارد - بوهن ١٨٨٠-١٨٨٢.

الترجمة الانكليزية التي نقلنا عنها ترجمتنا العربية هي طبعة جديدة، ل[كلو] كما نشرت
في ١٨٦٤، وتتضمن مقدمته الاصلية مع اضافات من عندي نتيجة مراجعات ترجمات أخرى.
واستطرادات منقولة عن مقدمات أخرى لتراجم انكليزية وفرنسية. أخصّ منها بالذكر
اصدارات دار نشر پنگوين بأربعة اجزاء فهذه التي قام ايان سكوت كلفرت-Ian Scott Kil
vert تناولت جزءاً عنوانه «قيام وسقوط آثينا» وتضمّ سير تيسيوس وصولون وتيموستوكلس
وارستيدس وكيمون وپركليس ونيفياس والكيپاديس وليساندر. وجزءاً آخر أعطي عنوان (بناة
روما) تناول فيه سير كلّ من كريولانوس وفابيوس ماكسيموس ومارچلوس وكاتو الاكبر
وطيبيريوس كراسوس، وگايوس گراسون وسرتوريوس، وپروتوس ومارك انطوني. وكذلك ظهر
لعين المترجم مجلد آخر بعنوان (عصر الاسكندر) وضم سير اسخيلوس، وپيلوپيداس، وديون
وديموستينس وفوكيون والكساندر (الأسكندر المقدوني) وديمتريوس وپيروس. أمّا الجزء الرابع
وعنوانه (سقوط الجمهورية الرومانية) فهو من ترجمة (ريكس وارنر Rex Warner) وتناول
سير ماريوس وسوللا وكراسوس، وپومپي وپوليوس قيصر وشيشيرون. وبلغ عدد السير في
هذا المجلدات الاربعة ٣٣ سيرة من أصل ٥٠ سيرة التي تكمل بها سير المؤلف. وقد ترجمناها
جميعاً مع التعليقات.



ثيزيوس

THESEUS

عملية غريبة عقلية بحيث تأخذ شكل التاريخ الصحيح، وعلى أية حال فحيثما يوجد من الأساطير ما يستعصي على المنطق السليم، وبأبى أن يتحول الى اي شيء قريب من الحوادث المحتملة، ليس لنا إلا أن نرجو العثور على قراء كرماء يتقبلون أساطير القدماء برحابة صدر وإغضاء. ويبدو [ثيسوس] شبيها [برومولوس] من نواح كثيرة. فكلاهما لم يكن ثمره زواج شرعي، وكلاهما مطعون في نسبه، وكلاهما اشتهر بانحداره من عترة الآلهة و...

« كلاهما محاربٌ ولا احد ينكر ذلك^(٤) »

كلاهما امتاز بقوة في الجسم ومضاء في العقل متساوٍ. أحدهما بنى روما واثنيهما ملاً آثينا بالسكان، وروما وآثينا أشهر مدينتين في العالم طراً، واتهم كلاهما باختطاف النساء ولم يخلصا في وطنيهما من النوائب العائلية ولا من الكيد. وتعرضا معاً لسخط بني قومهما قبل ان ينتهي بهما العمر؛ هذا اذا اتخذنا من الحكايات الشعرية الخيالية دليلاً الى الحقيقة.

ترتفع شجرة نسل [ثيسوس] من جهة الأب حتى تصل الى [إرخثيوس Erechtheus]^(٥) والى أقدم من سكن [اتيكا Sttica] أما من جهة امه فهو سليل [پيلوپس Pelops]^(٦) وكان هذا، أقوى كل ملوك الپلويونيسوس Peloponnesus] لا بما يملك من مال، بل بكثرته ما لديه من اولاد. لأنه تزوج بنات عدد كبير من الزعماء، وولى عدداً كبيراً من اولاده حكم البلدان التي تجاور مملكته. ومن بين اولاده [پيتيوس Pittheus] جدّ [ثيسوس]، كان مؤسس المدينة صغيرة يسكنها قوم [الطرويزينيين Troezenian]^(٧). وعرف بإحاطته بكل الحكمة والمعرفة التي وصل اليها عصره. ويبدو أنها تتألف من مبادئ الأخلاق أساساً. ومنها نال [هسيود] الشاعر شهرته في كتابه «الأعمال والأيام» وبين ما يتضمنه في الواقع بيت يُعزى الى [پتيسوس] وهو «ان المكافأة التي يوعد بها صديق عزيز يجب ان تكون أكيدة

(٤) الايلاذة ٧: ٢٨١. عن تيلامون وهكتور.

(٥) فهو الجيل السادس المنحدر من صلب ارخيتوس. وقيل انه ابن فولكان ومينرفا أو كراناي Cranai حفيدة كرانوس ثاني ملك في آثينا. لذلك كان پلوتارخ محقاً في قوله انه من صلب [اوتو خوثونس]. أو ان سكان آتيكا الأوائل سموها بهذا لأنهم يدعون بولادتهم من تربة البلاد، [هيروودتس وتوكيديس].

(٦) ابن تانتالوس Tantalus من أصل فريجي هاجر الى اتيكا حاملاً ثروة كبيرة جمعها من تنقيبه في مناجم بالقرب من سپيلوس. وبفضل ثروته هذه ضمن لابنائه حكم اضعف المدن وأكبرها وكانوا أحد عشر. كما انه زوج بنيته لأميرين فكانت (ليسيديسي) زوجاً (الكثريون) أو نسطور ابن پرسیوس ملك تيرنثس. وكانت (أستيدياميا) زوجاً لـ(ستيلوس) ملك (ميسين).

(٧) ترويزينه: مدينة صغيرة ارغوليسية تقع على ساحل خليج سارون قبالة آثينا في الپلويونيس (پاوسنياس) يتفق تقريباً مع الرواية نفسها ويقول انه علم الفصاحة في ترويزينه واطاف «لقد قرأت كتاباً من تأليفه، اعطانيه رجل في ابيداروس» [ج ٢ ص ٣٠ و٣١].

أي [سوشيوس! سينشيو Socius Senecio]^(١)

تعلم اني في كتابي هذا قد فعلت كما يفعل الجغرافيون^(٢) حين يجمعون في حواف خرائطهم اجزاء من العالم لا يعرفون عنها شيئاً. فيضيفون حشوداً في الهامش مع هذا التفسير: ان وراء هذا الحد لا يوجد إلا الصحارى الرملية التي تعج بالضواري، وليس غير المستنقعات التي يتعذر اقتحامها، وأراضي الصيبيين [الصقالبة Scythians] المنجمدة، والبحر الثلجي» والآن فيتدوني كتاب السير المقارنة، قد أخذت في دياجير تلك العهود التي قد يفلح العقل المستنير في بلوغها او اي التاريخ الصحيح موطيء قدم فيها. وبامكاني القول مطمئناً عن تلك الشخصيات البعيدة جداً غداً «وراء هذا لا يوجد غير الأساطير والخرافات، وسكان تلك العهود لا يزيدون عن شعراء ومبدعي أساطير ووراء ذلك لا يوجد شيء حقيقي ثابت». لكنني فكرت بعد كتابتي سيرتي [ليكورغوس] المشتري، و[نوما] الملك، إن في وسعي الصعود حتى [رومولوس] بعد ان بلغت بتاريخه مرحلة قريبة جداً من عصره - وكان يحدوني الى هذا العمل اسباب وجيهة. ثم سألت نفسي كما تسأل [أسخيلوس]: «بهذا المقاتل البطل من يجرؤ على النزال؟ ومن أضع بمواجهته ومن يكون نداً له؟^(٣)»

ولم أجد له صنواً غير ذلك الذي عمر مدينة آثينا الجميلة الطائرة الصيت وملاًها بالناس، لأضعه مقابل أب مدينة روما الشهيرة المنبعة. ولنأمل أن تخضع الأسطورة في حديثنا الى

(١) احد الذين صادقهم پلوتارخ اثناء اقامته في روما، وأعظمهم نفوذاً. فقد تولى منصب القنصلية اربع مرات ما بين اعوام ٩٨-١٠٧. واعتاد پلوتارخ توجيه كثير من رسائله في الأخلاق اليه. وعلينا ان لانخلط بينه وبين سينشيو الذي قتله [دوميتيان] لأنه دون سيرة [هلفيديوس پريسكوس]، والى الشخص عليه وجه پلوتارخ أيضاً سيرتي ديموستينس وديون.

(٢) الجغرافيون أو المؤرخون كما ورد في الأصل. دليلاً وليلاحظ ان الجغرافيين الأوائل لم يكونوا يقنعون باثبات المواقع والمسافات، بل يبحثون في الأحداث والعادات والأخلاق وانظمة الحكم ومن أمثال هؤلاء [سترابون] و[پاوسنياس] وحول تيسوس وتاريخه فالمؤرخون على خلاف. فلوح أكسفورد مثلاً يعني اتحاد المقاطعات الايتيكية وتأسيس الالعب الاستمية في ١٢٥٩ ق.م وبلير Blair يحدد تاريخ هذين الحدثين في ١٢٣٤ ق.م اي بعد حملته على كريت بسبع عشر سنة.

(٣) «سبعة ضد ثيبه» الص ٤٣٥، ٣٩٥.

وكبيرة^(٨) أو كما جاء في ارسطو^(٩) وكذلك [يوربيدس] عن رأي الناس فيه، عندما يصف [هيپوليتوس Hippolytus] بأنه «تلميذ پتيوس الآلهي!»^(١٠).

كان [ايجيوس] ملك آثينا يصبو الى عقب، فاستخار في ذلك الكاهنة البيثية وجاءته النبوءة الشهيرة وكانت غامضة جداً، فلم يكن على ثقة بأنه ممنوع من الجماع بصورة باتة، فقصده [طراويزين] والقى على اسماع [بتيوس] صيغة النبوءة وهي كالآتي:

لا تحلّ عنق زق الخمر البارز يا زعيم الرجال العظيم حتى تعود الى آثينا مرة أخرى^(١١)

الظاهر ان بيثيوس فهم معنى النبوءة. فإما أقنعه أو اغراه بمضاجعة [إيترا Aethra] بنته، وعلم [ايجيوس] فيما بعد أن من ضاجعها هي بنت [بيتيوس] ولشكه في انها عقلت منه، ترك سيفاً وزوج نعال في محل خفاء تحت صخرة عظيمة فيها تجويف بمقدارها تماماً. ثم ودعها بعد ان أطلعها على السرّ وحدها. ووصاها في حالة وضعها طفلاً ذكراً، إن تخبره بحقيقة نسبه عندما يبلغ مبلغ الرجال ويكون قادراً على زحزحة الصخرة واستخراج ما أخفاه، وان تبعث به مع هذه التذكارات اليه وان تكتم الأمر عن كل احد وتوصيه أن يخفي أمر رحلته هذه قدر الامكان لخوفه عليه من الپاللاتيين [الدائمي الثورة عليه. فهؤلاء كانوا يزورونه لأنه بدون عقب، وكانوا هم أنفسهم خمسين أماً كلهم من صلب پاللاس^(١٢) أبيهم وأخيراً بعد توصيته هذه ترك ايثرا. ووضعت [ايثرا]^(١٣) ذكراً. وقال بعض الكتاب إنه سمي (ثيسيوس) في الحال تيمناً بالتذكار^(١٤) الذي تركه أبوه تحت الصخرة. وزعم آخرون ان هذا الاسم لحق به في آثينا بعد أن أقر ايجيوس ببنوته. ومهما يكن من أمر فإن الابن نشأ في

رعاية جده [پتيوس] حتى وعين له [كونيداس Connidas] مريباً وحارساً. والآثيون حتى يومنا هذا يقدمون له كبشاً في اليوم^(١٥) السابق للعيد المخصص لـ [ثيسيوس] ويكرمونه أكثر من [سيلانيون Silanion] و[پاراسيوس Parrhasius]^(١٦) اللذين عملاً لـ [ثيسيوس] تماثيل وصوراً منحوتة. وهم في ذلك محقون.

كان العرف السائد في بلاد اليونان يومئذ أن يقصد الشاب [دلفي] عندما يبلغ الحلم، ويقرب للرب أول ثمار شعره النامي. وكذا فعل [ثيسيوس]. (هناك موضع ما زال يحمل اسمه يقال أنه سمي كذلك خصيصاً).

وجزّ ناصيته فحسب، مثلما عمل [الأبانتيون Abantes]^(١٧) على ما يقول [هوميروس]^(١٨). وأطلق على هذه الطريقة في قصّ شعر الرأس اسمه أيضاً. على أن [الأبانتيين] كانوا قد اتخذوه زياً لهم لا تقليداً للعرب كما يتصور بعضهم، ولا للميسيين Mzians منا زعم بعضهم وإنما لكونهم قوماً محاربين تعودا القتال وجهاً لوجه وامتازوا عن سائر الاقوام بانهم يشتبكون بالأيدي من أعدائهم كما شهد لهم أرخيلوخوس Archilo-chus^(١٩) بأبياته التالية:

«لا مجال ثم لدوران المقاتل في الهواء. ولا فسحة لشدّ القوس عندما يقدم آرس المخيف يخطر ليشارك في مثار النقع هناك في السهل فهذا قتال التلاحم بالأيدي وهؤلاء الرجال هم منه اساتذته. سادة أوبويا الرماحة الذين طبق ذكهم الآفاق»
وأسلوبهم هذا في القتال أوجب عليهم ان يجزوا نواصيهم حتى لا يمكّنوا أعداءهم منها.

(١٥) ومن هنا كان المثل اليوناني «لا يمكن الوفاء بدين المعلم إلا بتقديم أعظم التكرام له».

(١٦) كان ثم صورة لتسيوس في الكابتول من عمل پاراسيوس تمثل معركته مع المونياتور بقيت حتى زمن پليني: [تاريخ الطبيعة ١٠:٣٥] هذا الرسام الشهير عاش في حدود القرن الرابع ق.م. وأما [سيلانيون] فهو مثال برونز معروف كان معاصراً لـ [الاسكندر المقدوني] تقريباً.

(١٧) الأبانتيون: سكان أوبويا إلا أن أصلهم من أباي وهي مدينة في تركيا من هذه العبارة يبدو ان پلوتارخ انما يشير الى العادة التي تعود الى زمن ابعده بكثير من زمن تيسيوس. إلا ان [يوستاتيوس] يزعم ان تيسيوس هو الذي استحدث العادة ويقول ان التقدم لم تكن في دلفي بل في ديلوس. وانها قاصرة على الترويزيين وبعد عهد تيسيوس بدا واضحاً من لوشيان ان العادة فرضت تكريماً لهيپوليتس على الجنسين بوصفها اجراءً ضرورياً لإتمام الزواج. في طور الرجولة يجز الشعر الذي يبقى ذلك الحين مرسلًا في الهيكل ويوضع في وعاء فضي أو ذهبي يحفر عليه اسم صاحبه ويكون من اوقاف (اپولو).

(١٨) الالياة ٢:٥٤٢، ٥٤١.

(١٩) شاعر أغريقي عاش في حدود منتصف القرن الثامن (ق.م.) وكان هوميروس قد تكلم بعين هذا عن الابانتيين قبله بثلاثمائة سنة. (راجع الحاشية السابقة) حيث يقول ان الابانتيين خرقوا دروع أعدائهم برماح طويلة اعني انهم التحموا معهم بالأيدي.

(٨) عاش [هسيود] في حدود خمسة قرون بعد [بتيوس] وهذا المقطع هو رقم ٣٧١.

(٩) المقطع رقم ٥٥٦.

(١٠) هيپوليتوس ١١.

(١١) المرجع السالف يوربيدس: ميديا ٦٧٤ و ٦٧٦.

(١٢) باللاس هو أخ لايجيوس. ولما كان قد حكم على ايجيوس بالآ ينسل فقد اعتبر الپالانتيدي مملكة اثينا ميراثهم الذي لانزاع فيه.

(١٣) يقول پاوسانيس انه ولد في موضع دعى آنذاك وبعده لزمان طويل بـ [جنتليون] وهو قريب من ترويزينه. واليه ارسل بتيوس ابنته لتعزو الطفل الى [بنتون].

(١٤) اليونان كالآراميين والعبرانيين وغيرهم من الشعوب القديمة، يسمون الاشخاص والاشياء بصفات الاحداث والوقائع والظروف التي يتفق وقوعها مع الطهور او الولادة. والكلمة اليونانية [بتيوس] تعني (وضع) وحملة [بتيونوك] معناها [تبنى ولداً] وقد فعل ايجيوس الشئيين وكانت مراسيم التبنى ضرورية لاعانة تيسيوس على وراثة العرش. فهو ابن غير شرعي.

والمؤرخون يذكرون أيضاً أن هذا السبب هو الذي حدا بالاسكندر المقدوني أن يأمر رؤوساء جيشه بحلق لحى المقدونيين كافة، لأنها نقطة ضعف فيهم، قد يستفيد منها العدو...

ظلت [ايشرا] تكتم حقيقة نسب [ثيسسيوس] طوال طفولته وأعلن جدّه [پتسيوس] للناس ان الوليد هو لققح نطفة الرب بوسيدون [نبتون].

لنبتون عند الطراويزيين مكانة خاصة لاتعدلها مكانة ربّ آخر فهو الآله المعلم المرشد لهم. واليه يقدمون اولى ثمارهم، وهم ينقشون على نقودهم صورة رمح ذي ثلاث شعب تكريماً له.

وأظهر ثيسسيوس قوة جسم خارقة وبأساً ومراساً وخفة وعقلاً وفهماً مساوياً لتلك القوة. وأخذته أمه الى الصخرة وهناك افضت اليه باسم أبيه وأمرته ان يزحزح الصخرة ويستخرج من

جوفها تذكاري ابيه [ايجيوس]. فأقبل على الصخرة دون تردد ولم يلق صعوبة تذكر في رفعها^(٢٠)، لكنه رفض أن يقوم برحلته بحراً وإن كانت أسلم وسيلة للسفر - ورغم رجاء أمه

وجده ففي ذلك الزمن كان الطريق البري الى اثينا محفوفاً بالأخطار والمكاره الجسام ليس فيه جزء خلا من قتلة وقطاع طرق. في ذلك العصر، نجم صنف من الرجال تميزوا بقوة الساعد

وخفة القدم وشدة العضل تفوقوا في هذه المظاهر الجسمانية على البشر العادي فلم يعرفوا للتعب معنى وأبوا استخدام هذه الطاقات العظيمة من نعم الطبيعة في غايات سامية تمت الى

الخير وتعمل لمنفعة البشر وانما اتخذوا الاعتداء والارهاب ديدنا، وجعلوهما مصدر استمتاع وتبجح. واعانتهم قواهم الخارقة على ممارسة أعمال القسوة والانسانية وصرفوا تلك الطاقات

في النهب والسلب والغضب وارتكاب كل المحرمات بحق كل من يقع في ايديهم. وفي رأيهم أن احترام الآخرين، والتمسك باهداب العدل، والمساواة والانسانية، وهو موضع اجلال الناس

العاديين، انما يعود الى افتقار اولئك الى عنصر الاقدام والقدرة على الأذية، أو الى خوفهم من التعرض الأذى. وهي مما لا شأن به لأولئك الذين بلغت قوتهم حداً تشعب به مطامعهم وترضي

غرائزهم. وكان (هرقل) قد قضى على طائفة من هؤلاء، فبسط بهم اثناء مروره في تلك البقاع، وأغفل بعضهم فهربوا وأخفوا أنفسهم عنه، فتغاضى عنهم أحتقاراً لخضوعهم الدليل.

ثم ركبت هرقل المصائب فأنشغل بها. وبعد ان قتل [ايفيتوس Iphitus] عاد الى [ليديا] وظلّ فيها عبداً رقيقاً [الأومفاله Omphale]^(٢١) بمثابة عقوبة فرضها هو على نفسه

(٢٠) منذ ذلك الحين باتت تدعى بـ(صخرة ثيسسيوس) وكانت تعرف قبلاً باسم «مذبح چوپتر ستينيوس».

(٢١) القتلة يختارون النفي لأنفسهم عادةً ويفرضون على أنفسهم نوعاً من العقوبة يمارسونها حتى تحصل لديهم القناعة بأنهم استوفوا حظهم. لقد قذف (هرقل) [ايفيتوس] ظلماً من فوق اسوار [تيرنثوس] لأن اباه [يوريتوس] نقض العهد معه ان وعده بابنته [ايولي] زوجاً بشروط معينة نكث بعهد فاستجار (هرقل) بـ(نيلوس) أولاً فلم يجره. ثم نجح في مساعاه مع [ديوفويوس]. لكنه بقي يعاني مرضاً عضالاً. فاستخار =

لارتكابه جريمة القتل تلك. وفي هذه الفترة التي قضاها هناك تمتعت بلاد ليديا بعهد من الأمن والطمأنينة لا مثيل لهما. على أن الحياة دب دبيبها في أولئك الأوغاد وانتشروا ثانية في

بلاد اليونان والاتحاء المجاورة، وانطلقوا يعيشون فيها فساداً ولم يكن هناك رادع يردعهم، ولا أحد ينزل بهم العقاب. ولذلك كانت الرحلة البرية بين اثينا وپيلوپونيسوس محفوفة بأعظم

المخاطر. وحاول الجدّ [ثيسسيوس] عن عزمه السفر برا بشرحه اعمال كل واحد من الاشرار وقطاع الطرق وبيان قوتهم وافانين قسوتهم التي يمارسونها ضدّ المسافرين، علّه يقنع بالسفر

بحراً. لكن يظهر ان ثيسسيوس كان متأثراً منذ زمن بعيد بمآثر هرقل واعماله المجيدة وكان ينزله منزلة من الاكبار لا مزيد عليها. ولم يكن يسره شيء أكثر من اصغائه الى كل من يروي

طرفاً من وقائعه، وخصوصاً أولئك الذين رأوا بأمر العين أو كانوا شاهدي عيان عمل قام به أو سامعي أي قول قاله، وتملك ثيسسيوس الشعور الذي انتاب [تيموستوكلس]^(٢٢) وبعده

باحقاب، عندما قال أن النوم يعزّ عليه إلا بعد أن يحوز شكة سلاح ملتيا داس Miltiades وبلغ أعجابه بخصال هرقل مبلغاً عظيماً حتى ان احلام ليله كانت تدور كلها حول اعمال ذلك

البطل. وفي اثناء النهار كانت رغبته المستقرة في تقليد تلك الأعمال، تدفعه دفعاً الى القيام بمثيلاتها.

زد على هذا فقد ذكر ان هذين البطلين يمتان أحدهما الى الآخر بصلة رحم. لأن [ايشرا] هي بنت [پتسيوس] و[الكمينا Alcmena] هي بنت [لسيديسي Lydice] وپتسيوس أخ للأخيرة،

وكلاهما ولدا [هيپوداميا وپيلوپس]. لذلك لم يحتمل [ثيسسيوس] أن يصل هرقل ويجول في طول البلاد وعرضها يظهر البرّ والبحر من الأشرار بينما يتهرب هو من مثل هذه المغامرات

التي جاءته منقاداً من تلقاء نفسها، ولم ير هذا مما يشرفه وانما يلحق العار بسمعة ابيه الشهير، بفراره المخزي عن طريق البحر فلايستطيع ان يقدم بمآثره وجلاتل برهاناً لأبيه الحقيقي، على عظمة ميلاده، بدلاً من برهان السيف والنعلين.

فانطلق تحدوه هذه الغاية وتملاً نفسه تلك الأفكار. عازماً على أن لايلحق بأحد سوءاً، بل ان يقاتل كل من يعترض سبيله متحدياً، وان ينتصف لنفسه ممن ينوي به شرّاً. وكان اول من

بطش به [پرفيتس Periphetes] في معركة فردية جرت بالقرب من ابيداوروس Epidaur-us^(٢٣) وكان خصمه يستخدم الهراوة سلاحاً. ومن يومها لصق بثيسسيوس لقب [كورينتس

= (دلفي) فنّبّه بأنّ عليه أن يبقى رهن العبودية ثلاث سنوات ليحقق له الشفاء. ولذلك قام (عطارد) ببيعه لـ(أفعاله) ملكة ليديا.

(٢٢) انظر سيرة تيموستوكليس.

(٢٣) منطقة في الپلويونيسس.

[Corynetes] أي حامل الهراوة وكان القتييل قد أعترض سبيله وحال بينه وبين السير. لقد راقت له تلك الهراوة فجعلها سلاحه واستخدمها كما استخدم هرقل جلد الأسد بالقائه على منكببيه ليظهر مبلغ ضخامة الوحش الذي بطش به. فحمل ثيسسيوس الهراوة لهذا السبب واصبحت اقوى سلاح في يده، وانه كان قد قهرها وهي في يد صاحبها.

ومضى في رحلته حتى برزخ [پيلوپونيسوس] وهناك فتك بالمدعو [Sinnis] المعروف بلقب. «لواء جذوع اشجار الصنوبر»^(٢٤) (مأخوذاً من طريقته في القضاء على ضحاياه الكثيرين) فقتله بالطريقة نفسها، دون أن يسبق له ممارسة ذلك من قبل. وفي هذا برهان على ان القوى الطبيعية هي فوق كل فن وخبرة. وكان (لسينيس) هذا بنت — الطول في غاية الجمال تدعى [پيريغونه Perigune] عندما سقط ابوها قتيلاً هربت لتلوي فلحق بها [ثيسسيوس] باحثاً عنها في كل مكان. وبلغ بها المطاف موضعاً تنمو فيه الشجيرات، والطرفاء والشوك، فراحت الهاربة تتضرع الى النباتات ببراءة الطفولة لكي تخفيها عن مطاردها — كأن للنبات عقلاً يدرك! — ونذرت إن نُجت، الا تقطعها ولا تحرقها إلا ان ثيسسيوس ناداها ووعداها أن يعاملها باحترام ولا يلحق بها اذية. فخرجت اليه من الدغل. وبعد اكتمال ايامها وضعت له ابناً عرف باسم [ميلانيبوس Melanippus] على انها تزوجت فيما بعد [ديونيوس Deioneus] ابن [يوريتوس Eurytus] الأوخالياني، وثيسسيوس هو الذي زوجه اياها. إن [ايوركسوس Iorxus] ابن [ميلانيبوس] ولد ثيسسيوس رافق اورنتوس Ornytus مع من رافقه من المستعمرين الى كاريا Caria وقد اعتادت أسرة الايوكسيدس Ioxids المتحدرة من صلبه ألا يحرق نساؤهم أو رجالهم شوكاً أو طرفاء اجلالاً وتكريماً لهذا النبات وايفاء بنذر أمهم.

كانت الخنزيرة المسماة^(٢٥) [فيا Phaea] وحشاً ضارياً هائل الجثة، وخصماً لا يستهان بأمره قط وقد عاثت فساداً في كرميون لكن ثيسسيوس انحرف عن سبيله قصداً ليلقاها ويقاتلها ويفتك بها^(٢٦). حتى يبرهن انه لا يقوم بكل مغامراته بدافع الحاجة. ومن رأيه ان

(٢٤) لقب بذلك كان ثني رأسي شجرتي صنوبر وشد المسافرين اليهما فاذا أطلقا ليعودا الى وضعهما تمزق مربوط بها الى اشلء. ان پاوسانياس فضلاً عن اوقيد ٧:٤٠، يسميانه (سينس) ويقول ان واحدة من هاتين الشجرتين بقيت حتى عهد الامبراطور الروماني [هادريان].

(٢٥) باليونانية تعني: ذات اللون الغامق. ويقول سترابو ان هذه الخنزيرة ولدت الخنزير الكاليدوني الذي فتك به ملياجر. وكروميون تقع على الحدود التي تفصل كورنت عن ميغارا.

(٢٦) في هذه الحادثة يبدو أن بلطانا حاد عن مبدئه الذي انطلق من أجل تحقيقه وهو ان لا يكون الجانب المعتدي في نزال. كانت الخنزيرة الوحشية على اية حال اكثر احتراماً من إحناء شجرتي الصنوبر.

معاقبة الأشرار والمعتدين الذين يعترضون سبيله، انما هو جزءٌ من واجب الرجل المقدم، وان عليه فضلاً عن ذلك البحث عن الضواري والوحوش المفترسة الهائلة والبطش بها، ان بعض الكتاب يزعمون ان (فيا) كانت قاطعة طريق تعيش في [كريميون] شديدة القسوة كثيرة الطبع، ولقبت بالخنزيرة لقدارة عيشتها وانحطاط خلقها وقد قتلها ثيسسيوس فيما بعد.

كذلك قتل [سكيرون] على حدود [ميغارا] أو قذف به الى الهاوية من فوق الصخور، وكان هذا كما زعم معظم الكتاب لصاً سيء الصيت يتعرض لكل المسافرين، وروى بعضهم انه كان يمدّ قدميه طالباً من عابري السبيل ان يغسلوهما، وفيما هم يفعلون ذلك يركلهم فيقذف بهم من الصخور الى البحر، شراً منه وشراسة، على ان كتاب (ميغارا) «يتحدون كل الأخبار القديمة» في نقض هذه الرواية ويقولون ومنهم سيمونيدس Simonides ان (سكيرون) لم يكن قاطع طريق ولا رجل شرّ وعنف بل خصماً وعدواً لهؤلاء الاشرار وصديقاً للناس الأخيار ويقولون اثباتاً لذلك إن (أياكوس Aeacus) كان رجلاً عظيم القداسة، وهو موضع احترام جميع اليونانيين، كما أن (صخريوس Cychreus) السلاميسي، يجله الآثينيون ويعبدونه عبادة الأرباب، وان فضائل (پيليوس Peleus) وتيلامون Telamon] ليست بالمجهولة من أحد، و[سكيرون] هذا، هو زوج بنت [سخيروس] وحمو [اياكوس] وجدّ [پيليوس] [وتيلامون] وكلاهما ابنا [اندياس Endeis] بنت سكيرون^(٢٧) وخاريكلو Cha-riclo وليس من المحتمل اذن، أن يصاهر خير الرجال شهرهم ويتحدوا بهم برابطة القرابة والنسب. يأخذون منه ويعطونه ما هو أغلى قيمة واعزّ شيء في الحياة. وبحسب ما روى اولئك الكتاب ان ثيسسيوس لم يبطش [بسكيرون] في رحلته الأولى الى اثينا. وانما عندما استولى على [اليوسس] المدينة التي يقطنها الميغاريون بعد أن هزم حاكمها الأكبر [ديوكلس Diogles].

تلك هي المتناقضات التي تجدها في الحكاية، وفي تلك المدينة ايضاً قتل [كركسيون Cer-cyon] الاركادي في نزال فردي فاراده في الحال^(٢٨) وسار حتى بلغ [ارينيوس Erineus] وفيها قتل داماستيس الملقّب بروكروستوس بإرغامه على جعل قبره بقدر جسمه كما اعتاد

(٢٧) ابلودورس يجعلها ابنة (خيرون) الا ان زعم پلوتارخ هو الأصدق والأصح اذ انه يدلي بحجة منطقية لهذه الرابطة ويتفق مع پاوسنياس في ذلك.

(٢٨) ظلت البقعة تسمى (سيكرون بالسترا) الى زمن پاوسنياس. كان سيكيرون أول من أستخدم الاصول الفنية في المصارعة لكن (مينرغا) ساعدت (ثيسسيوس) على الغلبة بفضل تدريبها له.

ذاك ان يفعل بكلّ ضحاياها. وبهذا سار على نهج [هرقل] الذي كان دائماً يذيق المعتدين عليه ما كانوا يقصدون ان يذيقوه لو ظفروا به. وذبح [بوسيريس] وقدمه قرباناً، وقتل [آنتيوس] في مصارعة فردية. وفتك بـ(كيكنوس Cycnus^(٢٩)) في معركة واحدة حاسمة. وقضى على [يترميروس] بتكسير جمجمته قطعاً ومنها جاء المثل السائر «بليّة تيرميروس»^(٣٠)، فالظاهر ان يترميروس كان يقتل المسافرين بأن يفتحهم برأسه نطحاً.

هكذا مضى ثيسسيوس قدماً في الاقتصاص من الأشرار. فأذاقهم ما كانوا قد أذاقوه للآخرين وجزاهم جزاءً وفاقاً عن كل المظالم التي اقترفوها.

وبوصوله نهر [كفيسوس] لقيته زمرة من قوم [قيتالدي]^(٣١) وأقروه التحية ولبوا طلبه في التطهر كما قضت عادات تلك الأيام، وقاموا بالمراسيم المعتادة طبق المرام. وبعد ان قرب قربان الرضا للأرباب استضافوه وأدبوا له في بيتهم. فكان كراماً وعظفاً منهم لم يلق مثله منذ بدء رحلته حتى وصوله اليهم.

وبلغ آثينا في الثامن من شهر (كرونوس Cronius) الذي يسمى الآن هيكتاتوميون Hec-atombeon فوجد الأحوال العامة في غاية الاضطراب والمدينة منقسمة الى حزبين وشيعتين، ولم يخلص ايجيوس واسرته من هذه الفوضى والقلق. اذ كانت [ميديا Medea] تعايش [ايجيوس] بعد فرارها من [كورنث] وقد وعدته انها ستجعله قادراً على انجاب اولاد بقوة سحرها. وهذه المرأة هي اول من وقفت على سرّ [ثيسسيوس] الذي بقي أمره مجهولاً من ايجيوس حتى ذلك الزمن، وبما انه بلغ من العمر عتياً وركبته الهواجس وتناهيه الشكّ والغيرة وملاً الخوف جوانب نفسه من كل صغيرة وكبيرة بسبب وجود الحزب المناويء له في المدينة، فقد سهل على هذه المرأة إقناعه بقتل [ثيسسيوس] بالسّم اثناء مأدبة كان سيحضرها بوصفه

(٢٩) في النص الأصلي [هرميونه] والارجح انه بپلوتارخ مخطئ هنا اذ لا يعرف ثم موضع بهذا الاسم أو ما يقرب منه. والمؤرخون بعد [فيلوخورس] يطلقون عليه اسم (ترميونه). (في ترجمتي B. P. ودرابدين، أثبتت كما اورباناها هنا في ترجمتنا العربية).

(٣٠) كتاب آخرون يعزون لهذا المثل أصولاً أخرى، فـ(كويداس) يشنقه من موقع مستحکم في (كاريا) بين (ميلوس) و(هلكارناسوس)، يدعى (ترمييوم) استخدمه الطغاة بمثابة مطبق للمسجونين. اما ابوستوليوس فيعزوه الى آخر أيام الحياة ويسمى ترميا.

(٣١) هؤلاء هم نسل فيتالوس الذي افضت اليه سيريس الرّبة، بسرّ زراعة شجرة التين والاشراف على أسرارها مكافأة له على حسن ضيافته لها في منزله لم يجد (ثيسسيوس) نفسه مهيناً لأقتبال تلك الأسرار قبل التطهر ذلك لأن يديه كانتا مغموستين بالدم وان كان دم اللصوص وقطاع الطرق. تطرّف الاقدمون في فكرة التطهر الى أقصى حدّ. حتى ان ابوللو نفسه أرغم على القيام بمراسيم التطهر بعد قتله الأفعى (بيثون) التي الحققت الدمار باليونان. وقد جرى تطهير (ثيسسيوس) في مذبح چوپتر قرب نهر (كينسوس) (انظر باوسيناس ١: ٣٧).

من الغرباء عن المدينة. وصل الى موضع المأدبة وهو يميل الى التريث في كشف أمره، حتى يتيح لأبيه فرصة اكتشافه أولاً. وجيء باللحم ووضع فوق المائدة فانقضى ثيسسيوس السيف كأنما يريد اقتطاع فلذة من اللحم. فتعرف ايجيوس على التذكار حالاً ورمى بقدر السم. وبعد أن القى بضعة اسئلة على ابنه عانقه، وجمع كل مواطني المدينة واعترف علناً بابوته له. فرحبوا هم به أيضاً لأن شهرته سبقتهم اليهم، وقيل انه لما سقط قدح السم اندلق ما فيه فوق يقعة هي الآن موضع مسور في [دلفينيوم]^(٣٢). وهي الأرض التي كان يقوم عليها منزل ايجيوس. اما تمثال [مارس] الذي هو في الجهة الشرقية من المعبد فيسمى [تمثال مارس في باب ايجيوس].

كان ابنا [باللاس] قبل ظهور [ثيسسيوس] قد أخذوا الى السكنية انتصاراً لموت ايجيوس لاستعادة الملك بدون عنف لانه لم يخلف نسلًا. فلما تقرر ان يخلفه ثيسسيوس في الحكم ثار حنقهم واجتاحتهم الثورة: فهذا ايجيوس اولاً لا يعدو أن يكون ابنا متبنّى لپاندون Pandi-on^(٣٣) ولايمت بصلة قرابة لأسرة [ارختيوس]، يضبط الملك عنوةً واقتداراً، وذاك [ثيسسيوس] الزائر الاجنبي الغريب عن الديار قدر له ان يخلفه في الملك!... لم يصبروا وأعلنوها حرباً، وقسموا جموعهم الى قسمين: الأول زحف علناً على المدينة من [سفيتوس Sphettus] بقيادة ابيهم والثاني نصب كميناً في قرية (غارغتس Gargettus) قاصداً الايقاع بالعدو من الجانبين. وكان مع هؤلاء منادي مدينة آغنوص المدعو [ليوس Leos] فأقبل على ثيسسيوس وكشف له خطة الپالانتيد فما عتم أن فأجأ اولئك الكامنين وأبادهم عن بكرة ابيهم. ولما وصل نبأهم باللاس وزمرته هربوا وتفرقوا.

ومن هذا نشأت عادة عند أهالي مدينة [بالين Pallene] على شائع القول وهي أن لايرتبطوا باي تحالف أو مصاهرة مع سكان قرية (اغنوص) وأن لايدعوا المنادين بلفظون في اعلاناتهم الكلمات الشائعة في كل انحاء البلاد وهي «اكويتي ليويء» اي «أيها الناس أسمعوا» كارهين سماع كلمة (ليو) بسبب خيانة هذا الرجل.

كان ثيسسيوس مشوقاً الى العمل، راغباً في ذبوع صيته. فترك آثينا ليقاتل ثور [ماراثون] الذي اوقع اضراراً ليست بالقليلة بسكان مدن [تتراپوليس Tetrapolis]^(٣٤). وبعد أن تغلب

(٣٢) دلفينيوم: ان موقع هذا المحراب المخصص لاپوللو دلفي ما يزال موضع تساؤل، وحدث. ويقع على العموم شرق الاولپيوم.

(٣٣) في الواقع ان (ايجيوس) ليس ابن (پاندون) بل ابن (سكيرياس).

(٣٤) من مناطق اتبكا، سميت بهذا الاسم لاحتوائها على أربع مدن وهي [زينومي، مراثون، پروبالنثس، ترايكورنثوس] بناها (كسوشس) حَتْنُ أرخيثيوس.

عليه قاده حياً ودخل به دخول الظافرين الى المدينة ثم نحره قرباناً (لاپوللو دلفي) (٣٥) وتبدو حكاية (هيكاله Hecale) واکرامها ثيسوس واستضافته في حملته هذه، وكأنها لاتخلو من الحقيقية. فقد جرت عادة أهالي المدن المجاورة ان يجتمعوا في يوم معين لتقديم قربان [لجوبيتر هيكاليوس] يطلقون عليه اسم «هيكاليسيا»، تكريماً لهيكاله ايضاً. (يطلقون عليها اسم التصغير هيكالين - والسبب في هذا يعود الى انها كانت تخاطب ثيسوس وهو شاب عندما استضافته. بمثل كلمات التحبب هذه كما يفعل كبار السن لصغارهم، وكذلك لأنها نذرت لأجله قرباناً لجوبيتر اذا عاد سالماً من القتال، لكنها ماتت قبل اوبته، فجزيت بهذا الاكرام رداً لجميلها، وذلك بأمر من ثيسوس على ما يحدثنا [ميلوخورس] (٣٦). ولم يمر زمن طويل حتى أقبل على المدينة محصلو الجزية من كريت لأخذ القسط الثالث. وكان الاثينيون يدفعونها للسبب التالي: قُتل اندروغيوس Androgeus (٣٧) قتلةً غادرة على حدود [اتيكا] فلم يكتف [مينوس] أبوه بجرّ المصائب الشداد على الأثينيين بحرويه المتتالية، بل انضم اليه الأرباب وأحدثوا الخراب في البلاد وجعلوها بلقعاً يباباً، فنزل بهم القحط وفتك بهم الوباء وجفت انهارهم، ونزلت عليهم نبوءة مفادها ان غضب الآلهة لن ينفثي إلا اذا استرضوا [مينوس Minos] وصالحوه، واذ ذاك سيزول عنهم بؤسهم ويحسر عن كواهلهم الشتاء فأرسلوا اليه رسلاً وبعد كثيرٍ من الالتماس والرجاء صالحوه أخيراً على شروطٍ وهي أن يدفعوا لكريت كل تسع سنوات جزيةً تتألف من سبعة فتيان وسبع عذارى. وهذا ما أتفق على ايراده معظم الباحثين والحكاية الأخرى التي تحفل بالشعر والخيال تضيف الى ما تقدم أن غول [مينوتاور Minotaur] (٣٨) التيه كان يفترسهم، او انهم يهيمنون على أوجههم في التيه لا يجدون فيه منفذاً للخروج فتنتهي حياتهم هناك اشنع نهاية وان هذا الغول كان على ما يصفه يوربيدس: شكلان ممتزجان، يتألفان من خلقتين مهولتين ذات طبيعتين متنافرتين: ثور ورجل مجتمعين! (٣٩)

لكن [فيلوخورس] يقول أن أهالي كريت ينفون هذه المزاعم نفيماً قاطعاً ويقولون أن التيه المزعوم ما هو إلا سجن عادي ليس فيه من صفات السوء إلا صفة واحدة وهي انه منيع يصعب على نزلائه الفرار منه. وان [مينوس] الذي أنشأ العباباً تكريماً لذكرى [اندروغوس] كان يهب هؤلاء الشبان والعداري جائزةً للفائزين. وكان هؤلاء الأسرى يودعون سجن التيه خلال تلك الفترة. وأول من فاز في تلك الألعاب كان رجلاً يتمتع بقوة عظيمة ومكانة رفيعة، يدعى [طوروس Taurus] وهو شخص قاسٍ لا تعرف الرقة والرحمة الى قلبه سبيلاً كان يعامل الاثينيين الذين اعطوا له جائزةً شرّ معاملة وأغلظها. وكان رأي [ارسطو] الصريح الذي أدلى به في معرض بحث كتبه عن دستور شكل الحكم عند [البوتيان Botiaens] (٤٠) ان مينوس لم يكن يقتل هؤلاء الفتيان، وانما كانوا يقضون بقية حياتهم عبيداً في كريت. وان الكريتيين ايفاءً بنذرٍ قديمٍ قطعوه على أنفسهم منذ زمن طويل قد اعتادوا ارسال قرايين الى [دلفي] من اول ثمار رجالهم وان بعض الذين انحدروا من سلالة هؤلاء الاثينيين العبيد كانوا يخلطون مع التقدّمات ويرسلون، ويعجزهم عن العيش هناك رحلوا أولاً الى ايطاليا، وأستقروا حول [ايابيغيا Iapygia] ثم انتقلوا منها الى [تراقيا] وأطلق عليهم اسم [البويريتيين] وهذا ما جعل فتياتهم في اثناء تقريب قرايين معينة ينشدن أغنية تبدأ بعبارة «الى اثينا فلنذهب»، هذا ما يكشف لنا الخطر الذي ينطوي عليه عدااء مدينة هي سيدة البلاغة وأميرة الغناء. كان [مينوس] دائماً ينعث بأسوء النعوت، ويمثل دائماً بالرجل الشرير على المسرح الأثيني، ولم يفلح [هسيود] (٤١) في انقاذ سمعته حين وصفه بـ«مينوس، الذي لايدانيه في ملوكيته أحد»، ولم يفده هوميروس (٤٢) الذي وصفه «صديق جوبيتر الخدين» وكلمته. وظلّ القول الفصل في هذا لكتاب التراجيديا الذي كانوا يمتطرونه بوابل من الهجاء والنقد من ارض مسارح تمثيليةتهم ويمثلونه برجل العنف والقسوة (٤٣). في حين كانت الأسانيد تدل انه ملك سوي، وواضع قوانين. وان المدعو [رادامانثوس Rhadamanthus] كان قاضياً مستقيماً يطبق قوانينه له.

لما حان أجل القسط الثالث من الجزية. ووجب على كل اب له ولدٌ شاب يصلح للإرسال أن

(٣٥) ديودورس (٥٩:٤) يعزو هذا القربان لـ(ايجيوس).

(٣٦) فيلوخورس مؤرخ أثيني (٢٠٠ ق.م) كتب مقولات ثمينة عديدة اورد (سويداس) قائمة بها لكن لم يصلنا شيء منها خلا بعض المقتطفات التي اقتبسها منه بعض الكتاب.

(٣٧) قال بعضهم ان (ايجيوس) أمر بقتله لأنه كان على اتفاق مع الپالانتيدي ويقول بعضهم ان الثور المراثوني هو قاتله.

(٣٨) اختلقها الشعراء فقالوا انه ابن (پاسيفاي) من نطفة ثور. وپاسناي هي زوج مينوس التي ابتلاها نبتون بهذا الميل الشنيع انتقاماً من مينوس لأنه رفض ان يقدم له ثوراً جميلاً كان يتوقع ان يكون قرباناً له. ان حلّ هذه العقدة التي تكتنف القصة من قبل [پاليفاتوس] ليس قوي الاحتمال.

(٣٩) مأساة الأغرقي قطع ٢. ص ٦٨٠.

(٤٠) لا وجود له. انه مفقود كغيره من المباحث التي عزيت اليه من هذا القبيل.

(٤١) افلاطون: مينوس ص ٣٢٠. هسيود ٧٤.

(٤٢) الاوديسه ١٩: ١٧٩.

(٤٣) هذا الخطأ الذي وقع فيه پلوتارخ، وقع فيه عدد من الكتاب بينهم افلاطون فهناك اثنان باسم [مينوس] احدهما ابن (چوپتر: زفس) و(اوروپه) وهو أميرٌ عادل سامي الخلق. والثاني وهو حفيده ابن (ليكاستس) الذي يقصده پلوتارخ هنا بوضعه اباً لـ(اندرغوس) وكان من الطغاة.

يشارك في عملية الاقتراع العامة لاختيار العدد، ثارت الخواطر على [ايجيوس] وبدأت اتهامات جديدة تنصب من الناس الذين امتلأوا حزناً وسخطاً، فراحوا يقولون: انه وهو سبب كل ما أصابهم من شقاء، الشخص الوحيد السالم من هذه البلوى، وقالوا أيضاً أنه اورث مملكته ابن سفاح اجنبي ولم يعد يهتم بمصيرهم ولا بخسارتهم في ابنائهم الشرعيين لأبناء السفاح، وقعت هذه الاقوال وقعاً شديداً في نفس ثيسيوس، واحتلت كل تفكيره وملكت عليه مذاهبه ورأى أن الواجب يقضي عليه المشاركة في آلام مواطنيه فعرض نفسه ليكون واحداً من الشبابة المرسلين الى كريت، دون حاجة الى اجراء قرعة بالنسبة له. فهزأ الناس نبهه هزاً وامتلاؤا أعجاباً وحباً بطبيعة عمله هذا. ووجد [ايجيوس] ابنه هذا مصراً على قراره ولم تغد معه توسلاته الكثيرة، فأستسلم وبوشر باختيار الباقيين بالقرعة، على ان هولانيكوس -Holanicus] يخبرنا ان الآثينيين لم يكونوا يستخدمون القرعة لاختيار الشبابة والعداري، وانما كان [مينوس] يأتي بنفسه ويختار من يشاء فكان ثيسيوس اول من اختاره. وتنص الشروط ايضاً على أن السفينة التي تقلّ الأسرى تكون من الآثينيين، وان الشبان المبحرين لا يحملون اسلحة حرب، وانه ثم القضاء على [المينوتاور] تلغى الجزية.

في القسطين الاول والثاني ارسل الآثينيون السفينة بقلوع سوداء اذ لم يكن لديهم اي امل في سلامة اولادهم أو عودتهم، وكانوا واثقين انهم ذاهبون الى قضاء محتوم لا يُدفع. أما الآن وبعد ان شجع ثيسيوس اباه وتكلم كلام الواثق من نفسه، بقتل [المينوتاور] فقد سلم [ايجيوس] ربان السفينة شراعاً آخر ابيض اللون وأمره ان يرفعه على صاري سفينة عند العودة اذا كان ثيسيوس حياً سالماً، واما اذا هلك فليرفع الشراع الأسود دليلاً على وقوع المصيبة. ويقول [سيمونيدس] ان الشراع الذي تسلمه ربان السفينة من [ايجيوس] لم يكن ابيض اللون بل... «قرمياً منقوعاً في عصير زهرة شجرة بلوط زاهية جداً» (٤٤)

كذلك يكون علامة فرارهم ونجاتهم، ويذكر [سيمونيدس] ايضاً أن ربان السفينة هو [فيريكولوس Phereclus] ابن [امارسياس Amarsyas]، ويقول ان [سيروس] ارسله الى ثيسيوس من سلاميس وان [ناوسطثاؤس Nausitthous] كان ملاح الدفة، و[فاياكس Phaeax] رقيب مقدمة السفينة. اذ كان الآثينيون في ذلك الزمان قليلي الخبرة بالملاحه (٤٥)

(٤٤) ليست زهرة بل هي ثمرة الشجرة المعروفة عند النباتيين باسم Quercus Ilex وهي شجرة بلوط قمينة دائمة الخضرة يغزوها دودة صغيرة يسميها العرب «قرمز» تخرج منها صبغة قرمزية وثيوفراستس يتكلم عن هذه الثمرة في كتاب نباته فضلاً عن بلييني. وهي مصدر مادة الصبغة القرمزية منذ أقدم الزمن. (٤٥) بحسب رواية هوميروس ارسل الآثينيون خمسين سفينة الى طروادة. على انها كانت سفن نقل لا سفن حرب ويؤكد (ثوكديدس) انهم لم يقوموا بأي نشاط بحري حتى بعد عشر سنوات أو اثنتي عشرة عقت =

لم يمارسوا مهنة البحر. ولم يفعل [سيروس] هذا إلا لأن [مينيتس] أحد الشبان هو ابن بنته. وثبتت هذه الواقعة بناء [ثيسيوس] هيكله [فاياكس (٤٦)] و[ناوسطثاؤس] بالقرب من معبد [سيروس]، زد على هذا أن العيد المعروف بـ(كيبيرنيسيا Cybernesia) (٤٧) اقيم تكريماً لهما.

يحدثنا معظم المؤرخين القدامى ناهيك بالشعراء، أن [أريادان Ariadne] التي وقعت في غرامه، أعطته كرة من الخيوط حال وصوله كريت وعلمته كيف يستخدمها لتقوده خلال منعطفات التيه ومنعرجاته. وبهذه الوسيلة خرج منه سليماً وقتل الغول [المينوتاور] (٤٨) واجر عائداً ومعه [أريادان] والأسرى الآثينيون. ويضيف [فركيدس Pherecydes] (٤٩) انه احدث ثقباً في قيعان سفن كريت، ليحول دون مطاردتها له. ويكتب [ديمون Demon] ما مفاده ان [طواروس] كبير قواد مينوس قتل بيد [ثيسيوس] في فم الميناء اثناء معركة بحرية جرت قبيل ابحاره الى اثينا. لكن [فيلوخوروس] يروي الواقعة كما يأتي: عندما أنشأ الملك مينوس الألعاب السنوية كان متوقفاً أن يفوز [طوروس] بجائزتها، كما فعل قبلاً. وكان موضع حسد عظيم لذلك. فأخلاقه ومعاملته للناس جعلت سلطانه مكروهاً، وهو ايضاً متهم بعلاقة مع [پاسيئي Pasiphae] ولهذا وافق مينوس في الحال عندما طلب ثيسيوس نزاله. وجرت العادة في كريت ان يسمح للنساء بمشاهدة الالعاب فكانت [أريادان] بين المتفرجين، فداخلها اعجاب شديد بجمال رجولة ثيسيوس واقدامه وقوته التي اباها في النزال مما جعله يقهر كل من يتصدى له او يتحداه. ولم يكن مينوس بأقل سروراً، سيماً وانه تغلب على

= معركة ماراثون. اي بعد حصار طروادة بسبعمئة عام تقريباً لذلك كان من قبيل المعجزات ان يحقق الآثينيون في المجال البحري هذا التقدم الخارق الذي بدأ بعهد تيسيوس بارسالهم الى طروادة هذا العدد من السفن في غضون فترة قصيرة. على كل فقد كان الفضل الأول بهذا التقدم يعود الى (تموستوكليس). (٤٦) هو بهو حكومي يجتمع في رحابه الحكام الشيوخ ويطلق عليهم اسم پرايتانس ويعيش فيه ايضاً على نفقة الدولة أولئك الذين اعتبروا بانهم يستحقون من بلادهم خير جزء» كما يستقبل فيه السفراء الاجانب وتقام في الحفلات العامة والاستقبالات.

(٤٧) الى هذه القصة تعزى على الأغلب صورة مونثفوكون لفينوس وهي فوق الأمواج مستلقية على عنزة ويدها ممسكة بشعر نقتها وبرفتها كيبيدات راكبين ظهور حيتان الخ...

(٤٨) في واحدة من أجمل الصور التي تم العثور عليها في هر كولانيوم (وهي المدينة التي غطتها حجم بركان فيزوف العام ٧٩ فأزحمت وتم الكشف عنها). وقد ظهر فيها تيسيوس وهو يطي المينوتاور (وهو حيوان خرافي برأس ثور (جسم انسان) في حين تجمع الصبيان عليه يقبلون يديه ويحتضنون ركبته.

(٤٩) من الأقدمين أشتهر شخصان بهذا الاسم، الأكبر منهما هو معلم فيثاغورس وطاليس ومن مدينة سكيروس ويلقب بالفقيه أو اللاهوتي. لأنه أول من علم حول خلود الروح في بلاد اليونان. إمّا الثاني وهو الذي يغلب الاحتمال بانه المقصود عند پلوتارخ فهو مؤرخ من جزيرة ليروس التي تقع في بحر ايجيه وقد سبق عصر هيرودوتس بقليل.

[طوروس] واخزاه. فلم يتردد في ان يدفع له بالأسرى الأثينيين، وأعاد الجزية الى أهلها.

وبروى لنا [قليديموس Clidemus] (٥٠) رواية يستغرب صدورها منه فيها حواش وشجون وذيول موعلة في القدم، يقول عقدت معاهدة بين جميع الأغرقيق تم الاتفاق فيها على أن لا يسمح لأية سفينة تحمل أكثر من خمسة أشخاص بالابحار من اي مكان. واستثنى من المنع [چاسون Jason] الذي نُصب قبطاناً للسفينة العظيمة [ارغو Argo] وسمح له بالابحار وجوب المحيطات معقباً القراصنة، لكن عندما هرب [ديدالوس Daedalus] من كريت وركب البحر الى اثينا، شرع مينوس بمطاردته بسفنه الحربية مخالفاً الاتفاق، فأجبرته العاصفة على الرسو في (صقلية) وهناك قضى نحبه (٥١). وبعد وفاته استبدت الرغبة بابه [ديوكاليون Deucalion] للتحرش بالاثينيين، فبعث يطلب منهم تسليم [ديدالوس] اليه مهدداً بقتل جميع الاثينيين الذين تسلمهم ابوه من المدينة كجزء من الجزية، ان هم رفضوا طلبه. فبعث ثيسسيوس برداً مهذباً الحاشية على هذه الرسالة الغاضبة، معتذراً عن تسليم [ديدالوس] الذي كاد يكون من اقربائه. فهو ابن خالة لان امه [ميروپه Merope] هي بنت [ارختيوس]. إلا أنه أخذ يبني عمارة بحرية في السر. جعل قسماً منها في بلاده قرب قرية [ثيميوتادي Thy-moetade] وهو موضع بعيد عن كل الطرق العامة. والقسم الثاني اودعه عند جدّه [بيثيوس] في طروزين، مستهدفاً تنفيذ خطته بأعظم السرية. وما كمل اعداد اسطوله هذا حتى أفلح به يرافقه [ديدالوس] وغيره ممن أرتهن في كريت ليكونوا ادلا. ولم يدر احد من الكريتيين بقدومه وحسبوه صديقاً وحسبوا اسطوله اسطولهم. وسرعان ما سيطر على الميناء وأسرع بالنزول وبلغ [غنوصوس Gnosos] قبل ان يلاحظ أحد زحفه وفي معركة جرت عند مزاعل التيه، أباد [ديكاليون] وكل حرسه بحد السيف فانتقل الحكم الى [اريدانه] وعقد معها حلفاً واستعاد الأسرى منها، وأتفق على عهد صداقة دائمة بين الأثينيين والكريتيين. واقسم الطرفان على الأبيدأ حرباً.

هناك روايات تاريخية أخرى حول هذه المسألة، وهناك أمثالها حول [ارديانه] وكلها متناقض ومتنازع عليه. ترى بعضهم يقول انها شنقت نفسها بعد ان هجرها [ثيسسيوس] وبعضهم يقول ان بحارته اخذوها الى جزيرة [نخسوس Naxos] فتزوجت [اوناروس Oenar-us] كاهن [باخوس] (٥٢). وان ثيسسيوس هجرها لوقوعه في حبٍ أخرى.

(٥٠) (فيوسيوس) في تاريخه يذكر مؤرخاً بهذا الإسم، كتب بحثاً عن (أتیکا) وعن العودة غير المتوقعة لأولئك الذين غابوا زمناً طويلاً. ومن الممكن ان توضع الحكاية في أي من الباحثين.

(٥١) هيروودوتس ٧: ١٧٠، ديدورس ٤: ٧٩.

(٥٢) ومن هنا جاءت ولا شك الخرافة المتداولة بانها تزوجت باخوس نفسه.

«كان حُبّه (ايگله Aegle) بنت پانويپوس يحرق صدره (٥٣) وهو بيت شعر يقول عنه [هرياس Hereas] انه كان في السابق موجوداً ضمن منظومات [هسيود] (٥٤) إلا أن [پسستراتوس Pisstratus] (٥٤) شطبه، واطاف البيت التالي الى منظومة هوميروس «جهنم الأموات» ارضاءً للأثينيين: «ثيسسيوس، وپيرثاوس، ابنا الآلهة الجباران» (٥٥). وتقول فئته أخرى ان [ارديانه] انجبت لثيسسيوس ولدين وهما [اوينويپون Oenopion] و[سطاقفيلوس Staphylus] ومن القائلين بهذا [آيون Ion] (٥٦) الشاعر الخيوسي، حين يكتب عن مدينته: «التي بناها في ذات يوم - أونويپون ابن ثيسسيوس».

لكن أشهر الروايات الاسطورية التي جرت على كل لسان هي الآتية: لدى [پايون آلاماتوسي] قصة تختلف من الباقي اذ يكتب قائلاً ان النوء دفع بسفينة ثيسسيوس الى جزيرة [قبرص] وفيها [ارديانه] وهي حامل، وفي حالة يرثى لها من المرض بسبب دوار البحر. فأنزلها الى الساحل وتركها وحيدة وعاد لمعاونة من السفينة. وفجأة دفعت بها ربح شديدة الى عرض البحر. وأبدى نساء الجزيرة عطفاً على [ارديانه] وعناية كبيرة بها وعملن ما وسعهن للتسرية عنها وتخفيف وحشتها. حتى انهن زورن رسائل ودفعنها اليها كأنما وردت من ثيسسيوس. ولما ادركها المخاض بالغن في بذل كل ما تحتاجه من رعاية إلا انها توفيت قبل ان تضع وليدها ودفنت دفنة لائقة. ثم ما لبث ثيسسيوس ان عاد وركبه هم شديد لفقدائها وترك قبل مغادرته الجزيرة عند أهلها مبلغاً من المال ينفقونه على شراء قرابين لها. وأمر بصنع تمثالين صغيرين أوقفهما عليها واحد من الفضة وآخر من النحاس. والمراسيم التالية يقوم بها أهل الجزيرة ضمن مراسيم تقديم قرابينهم في اليوم الثاني من شهر [گوريپوس Gorpiaeus] المخصص لارديانه. ان يستلقي شاب منهم على ظهره ليقلد بصوته وحركاته آلام المرأة اذ يدركها المخاض و[الآماتوسيون] يطلقون على البستان الذي ضم رفاتها، اسم «بستان فينوس ارديانه».

وذكر بعض كتاب [نخسوس] رواية تختلف عن هذه، وزعموا وجود رجلين باسم مينوس، وامرأتين باسم ارديانه احدهما تزوجت كاهن باخوس في جزيرة نخسوس، وأنجبت له [ستافيلوس] واخاه الآخر. إلا ان ارديانه الثانية التي عاشت في زمان متأخر، وهي التي

(٥٣) أنظر (أثيناوس) ص ٥٥٧.

(٥٤) طاغية أثينا كان كما صورة پلوتارخ في سيرة صولون محباً للكتابة وممارساً للادب.

(٥٥) الاوديسي ١١: ٦٣١.

(٥٦) كاتب مأساوي عاصر (پيركلس) فقدت مسرحياته كلها لكن (أثيناوس) حفظ لنا مقطوعات من مناجاته.

حملها تيسسيوس معه، وهجرها فيما بعد، نزحت الى [نخسوس] مع مرضعها [كوركينا Cor-cyna] التي ما زال قبرها قائماً. وان [ارديانه] هذه توفيت أيضاً هناك وعيها أهل الجزيرة لكن بشكل يختلف عن عبادة الأولى. فأحياء عيد هذه يتم بالافراح العامة والقصف واللهو، في حين أن عيد الثانية ينقضي بالحداد والكآبة^(٥٧).

توقف تيسسيوس في جزيرة [ديلوس Delos]^(٥٨) بطريق عودته من كريت. وقرب لرب الجزيرة، وقدم للمعيد تمثلاً لثينوس كانت [ارديانه] قد أعطته له^(٥٩)، ورقص مع الشبان الآثينيين رقصة ما زالت شائعة عندهم الى يومنا هذا احبباً لذكراه وهي تتألف من حركات تقدم وتأخر موزونة محدودة، تقليداً وتمثيلاً لمنعطفات التيه والتواءاته. ويقول [ديكوارخوس Dicoearchus]^(٦٠) ان الديلوسيين يسمون هذه الرقصة [كرانه Crane]^(٦١) وقام تيسسيوس برقصته هذه حول المذبح [الكيراتوني]^(٦٢) واسمه هذا جاء لانه بني من القرون التي تؤخذ من الاصداع اليسرى لرأس كل ذبيحة. ويقال انه انشأ العباباً في [ديلوس]. وكان اول من بدأ تقليد اهداء سعف نخل للفائزين.

لما أقتربوا من ساحل اتيكا اطار الفرح صوابهم لتكامل رحلتهم بالنجاح حتى ان تيسسيوس والقبطان نسيا رفع البشارة ودليل السلامة لايجيوس، فما كان منه إلا قذف بنفسه ياساً من الصخرة الى البحر فهلك. وما ان نزل تيسسيوس في ميناء [فاليرم Phalerum] حتى قدم القرايين التي كان قد نذرها للأرباب عندما ركب البحر. ثم انه ارسل الى المدينة بشيراً يحمل

(٥٧) احياء أعياد (اريادنه) زوج (باخوس) يتم احيائها باللهو والقصف والافراح للاعراب عن صيرورتها (ربة). في حين ان القرايين المقدمة ل(ارديانه) الثانية تشير الى سقوطها واعتبارها انساناً عادياً.

(٥٨) من هذا جاءت عادة قيام اثينا سنوياً بارسال وفد الى (ديلوس) لتقديم قربان (اپوللو).

(٥٩) كان هذا تمثلاً خشبياً صغيراً نحته (ديدالوس) بقاعدة مربعة تقوم مقام القدمين وهو اول من ابتدع القاعدة للتماثيل وقد بدت في آثاره الأخيرة. ربما كانت (اريادنه) قد تسلمت التمثال من النحات وحملته معها وان تيسسيوس قدمه لاپوللو على زعم أهل (ديلوس) اذ لم يشأ ابقاءه عنده لانه يذكره بحبيبته. (پاوسنياس ٩: ٤٠).

(٦٠) هو أحد تلاميذ ارسطو الف كتباً عدة. أشهرها تاريخ سبارطا. كانت فصوله تتلى سنوياً على شبانها بامر من الايغوري. وقد اثنى عليها شيشرون كثيراً.

(٦١) يحدثنا كاليبماخوس بانها رقصة حلقيّة. وسميت (كرينه) ربما نسبة الى طائر الكرين (الكروان) الذي يطير بشكل حلقي، يقول [بوستاثيوس] كان الناس قبل تيسسيوس يرقصون على شكل مجموعتين منفصلتين واحدة للذكور وواحدة للاناث فجاء هذا ووجد بين الجنسين عند انقاده رفاقه الشبان من التيه. ما زال هذا النوع من الرقص حياً في اليونان بعد مرور زهاء ثلاثة آلاف سنة ويُدعى (كانديوت Candiot). [انظر م. چي تاريخ الأدب اليوناني ص ١٣].

(٦٢) الكلمة مشتقة مباشرة من (قرن) ويعزى صنعه الى اپوللو. والقرون هي من ذكور غزلان (كينثوس) قتلها أخته الصيادة وقد بني كما تقول الاساطير من دون ملاط أو صمغ أو أية مادة غرائية أو لاصقة.

نبأ سلامة العودة. ولما دخل هذا، وجد معظم الأهالي في حزن وكآبة لفقدهم ملكهم، بينما أستولى الفرح على آخرين لأنباء البشير السارة (وهو ما لا سبيل لنكرانه) وأظهروا شوقاً في الترحيب به وضمفروا قلائد الزهر على رأسه، فتقبل ذلك بطبيعة الحال إلا انه رفعها عن رأسه وقلدها العكاز الذي يحمله المنادي عادةً، ورجع الى الشاطيء بهذا الشكل، فوصل قبل ان يفرغ تيسسيوس من مقدمة الخمر للأرباب، فوقف عن كذب ولم يأت بحركة لتلا ينقض صلاته ودعاءه، وما أن انتهى تيسسيوس حتى تقدم منه وأعلن له موت الملك. فهرع الجميع الى المدينة في ضجة واضطراب وندب وعويل. إن عادة عدم تنويج المنادي بل تنويج عكازه في عيد [تسوخفوريا Oschophoria]^(٦٣) نشأت عن حادث ذلك اليوم واستمرت حتى يومنا هذا. كذلك نشأت منه عادة هتاف الحاضرين وقت سكب قربان الخمر «ايليليو، آييوو آيوو Eleleu loü loü»^(٦٤) واولى هذه الكلمات تخرج عادة من افواه المستعجلين. أو تستخدم هتافاً للنصر، أما الكلمتان الاخرتان فهما لازمة من لوازم اللسان يلفظها الناس عندما يكونون في حالة غم أو اضطراب بال.

وبعد ان شيع تيسسيوس جنازة أبيه، قام بإيفاء نذوره لاپوللو في السابع من شهر [پانينيسيون] ففي ذلك اليوم دخل الى مدينة كل الشبان الذين عادوا معه من كريت سالمين. وقيل ايضاً ان عادة سلق الحمص في هذا العيد بدأت منذ ذلك اليوم، لأن كل الشبان الذين نجوا، جمعوا ما فضل من زادهم في قدر واحد وسخنوه وأكلوا منه جميعاً، كذلك نشأت عادة حمل غضن الزيتون الذي يشد عليه شيء من الصوف في المواكب [بعد ذلك استعمل في الصلوات والأدعية] وأطلقوا عليه اسم [آيرسيون Eiresione] وكان يتوج مختلف الثمار اشارة الى زوال القحط والمحل، منشدين الاغنية التالية:

«ايرسيون يأتي بأفضل التين، ايرسيون يأتي بأرغفة خبز من أفضل دقيق القمح الابيض ويأتي بالعسل في الجرار. والزيت نضمخ به اجسامنا، وبدنان من الخمر القوية ليؤوب الكل الى فراشه نشواناً».

(٦٣) عيد للخمر بيده بموكب من اثينا نحو فاليرم. ويختار عدد معين في شبان أشرف الأسر على أن يكون الابوان حيين. ويحملون اغصاناً مثقلة بالعنب ويعدون منطلقين من معبد(ياخوس) نحو هيكل (مينرقا) القريب من الباب الغاليري والسباق للوصول يشرب كأساً من الخمر ممزوجة بالعسل ويأكل جبناً وخبزاً وزيتاً ويتبع الراكضين جوق بقيادة شابين يرتديان ثياب النساء وهم يغنون ويحيط بالشابين عدد من النسوة على رؤوسهن سلال ويتم اختيارهن من أغنى الأسر في المدينة ويقود الموكب كله منادٍ يحمل قضيباً تحيط به اغصان.

(٦٤) الكلمة الأولى تدل على الشعور بالفرح والغبطة التي كان تيسسيوس يحس بها وهو قاصد (آثينا) والكلمة الثانية المرددة تنبئ عن حزنه على وفاة أبيه.

ومع أن بعضهم يرى أن انشاء هذا العيد كان لذكرى الهيراقليدي^(٦٥) الذين رباهم الآثينيون وأستضافوهم بالشكل الذي فصلناه إلا أن رأي الغالبية هو ما ذكرناه أولاً.

كانت السفينة التي أقلت تيسسيوس وصحبه الشبان الاثينيين، ذات ثلاثين مجذافاً وعادت سالمة فأبقى عليها الآثينيون حتى إيام [ديميتريوس فالبروم]^(٦٦) وعندها خلعوا عنها الالواح الخشبية النخرة، ووضعوا محلها الواحاً جديدة أقوى من سالفتها. وآضت السفينة بسبب هذا التغيير مثلاً يضرب بين الفلاسفة حول المسألة المنطقية عن الأشياء المتحولة^(٦٧)، ففريق منهم يتمسك بقوله ان السفينة بقيت كما هي، والفريق الآخر يقول انها لم تعد السفينة عينها.

إن العيد المسمّى (اسخوفوريا) أو عيد الأغصان كان تيسسيوس أول من أحتفل به وما زال الآثينيون يحفظونه حتى يومنا هذا. ويعود السبب في انشائه ان تيسسيوس لم يأخذ معه العدد الكامل لمطلوب من العذارى اللاتي وقعت عليهن القرعة بل أختار شابين يثق بهما من ذوي القوة والبأس والمظهر الأثوي والقسمات المليحة، غير من مظهرهما بالاستحمام الكثير واجتناب الحرارة وأشعة الشمس المحرقة، ودوام استعمال انواع الأدهان والعمور والغسول ووسائل الزينة لتجميل الرأس، أو نعومة البشرة، وتحسين لونها، حتى حقق التغيير المطلوب فيهما، ثم علمهما كيف يقلدان اصوات النساء، ومشية العذارى وتخطرهن بحيث ما عاد يفرق احد بينهما وبين النساء. ثم وضعهما بين الفتيات الآثينيات المرسلات الى كريت. فلما عاد سالماً، قام هو وهذان الشبان على رأس موكب ديني مهيب وهما في شكلهما النسوي، ويعين الزي الذي يتخذه الآن اولئك الذين يحملون اغصان العنب في الموكب. وهم يحملونها تكريماً لباخوس واربادنه، بسبب الحادثة التي اوردناها. أو ربما يعود ذلك الى أن اوبتهم الى الوطن وافقت موسم الخريف وهو أوان جني الأعناب. هذا وان النسوة اللاتي يطلق عليهن

(٦٥) بعد ان طرد يوريسثيوش الطاغية نسل الهيراقليدي من الپلوبيونيسس وبقية بلاد الأغرقيق التجأوا الى اهل اثينا لحمايتهم فاجاروهم وجرياً على العادة المتبعة فقد دخلوا المدينة وبايديهم الاغصان، وقد عالج موضوع هؤلاء (پوربيدس) في مسرحيته (هيراقليدي).

(٦٦) اعني حوالي الف سنة. لأن (تيسسيوس) عاد من كريت في حدود ١٢٣٥ ق.م. وكالليماخوس الذي عاصر (ديمتريس) وقد اخبرنا ان الاثينيين ظلوا يبعثون هذه السفينة المقدسة الخالدة الى ديلوس في زمانه (٢٨٠ ق.م) و(ديميتريوس) الفاليري هو الوصي المندوب عن (كساندر المقدوني) في اثينا [٣٠٧-٣١٧ ق.م] قيل انه نصب لنفسه ثلاثمائة وستين تمثالاً خلال هذه المدة وقد حطمت كلها في يوم واحد ان دمرها دعاة ابادة التماثيل Iconoclasts بعد سقوطه. وكانت وفاته في ٢٨٤ ق.م. [راجع افلاطون: فيادر].

(٦٧) في رسالته حول «بطء الانتقام الالهي» يعزو پلوتارخ استنباط هذا النوع من المعرفة الى [پيخارمس] من القرن الخامس قبل الميلاد وخلصتها أن التغيير الذي يطرء على اجزاء الجسم في الفترات المتعاقبة للنمو الجسدي ابتداء من الطفولة ثم الشباب فالرجولة والشيخوخة، من شأنه بالمقابل إحداث تبدلات كاملة في الهوية الانسانية وتنتهي المناظرة في هذا الموضوع الى وجوب ابراء المدين من واجب الوفاء بدينه السابق.

[دايپنوفيري Deipnopherae] أو حاملات طعام العشاء، يندمجن في هذه المواكب ويساعدن في تقديم القرابين أحياناً وتقليداً لأمهات الفتيات والعذارى الأسرى. فقد كُن في هذا الموقف المؤلم يتراكمضن هنا وهناك، يأتي بالخبز واللحم لاو لادهن، ويروين لهم حكايات واقاصيص مسلية ليصرفن خواطرن عن الخطر الذي ينتظرهم. ولهذا استمرت عادة رواية الخرافات والاساطير القديمة في هذا العيد. ونحن مدينون لتاريخ [ديمون] بهذه التفاصيل الدقيقة. اختيرت رقعة أرض، واقيم عليها معبد لتيسسيوس. وجمع من الأسر التي أخذ منها الشبان الرهائن ضريبة للمعبد يتفق منها على القرابين. وعين آل [فيتالدي] مشرفين على تلك القرابين. وأضفى تيسسيوس عليهم هذا الشرف تعويضاً واعترافاً بفضلهم السابق عليه.

بعد وفاة [ايجيوس] أخذ [تيسسيوس] يُنمي في ذهنه فكرة عجيبة، وتصميماً عظيماً، ولما أختمر الأمر في ذهنه جمع كل مواطني اتيكيا في مدينة واحدة، وجعلهم شعباً واحداً لمدينة واحدة. وكانوا قبلها يعيشون في فرقة وتباعد، يصعب جمع كلمتهم في اي شأن من الشؤون المتعلقة بالمصلحة العامة المشتركة، بل كانت الخصومات والحروب كثيراً ما تنشأ فيما بينهم، تمكن من ازالة ذلك بوسائل الاقناع وتنقله من بلدة الى أخرى ومن عشيرة الى عشيرة. وسارع اولئك الذين ينتمون الى الطبقة الفقيرة، أو ذوو الدخول الصغيرة المحدودة الى اعتناق افكاره الرائعة تلك، في حين وعد اولئك الذين يملكون السلطان والمال، بجمهورية لا يرأسها ملك ويحكم ديمقراطي أو حكم شعبي لا يكون هو فيه ملكاً بل مجرد قائد عسكري، وحام لقوانينهم، وفي الأمور الأخرى يكون الجميع على مستوى واحد دون تمييز أحد على الآخر. وبهذه الطريقة أفلح في اجتذاب قسم من هؤلاء الأخيرين الى صفه اختياراً. اما الباقي فتظاهروا بالاعتناع لخوفهم من سلطانه الذي كان مرهوباً جداً، ولمعرفتهم بشدة عزمه وبأسه، وعندئذ بدء بحل كل مجالس الحكم المحليّة، وبيوت الدولة العليا، وعزل الحكام، واقام مجلس عموم واحد وقاعة شورى في الموضع الذي يقوم اليوم القسم الأعلى من المدينة (الاكربوليس) وأطلق على المدينة اسم «اثينا»^(٦٨) وقرر بالمناسبة عيداً عاماً يقرب منه قربان اجماعي سمّاه [پان اثينا: أو قربان كل الاتحاد الاثيني]^(٦٩) [آتيكا] واستحدث أيضاً قرباناً آخر يدعى

(٦٨) كانت قبلاً تطلق على البلدة القديمة فحسب. وقد لاحظ المؤرخون والباحثون الثقة انه كثيراً ما أطلقت على اثينا الصفة العامة أو اسم الجنس اي (المدينة) فحسب [مثلاً كان الرومان يشيرون الى روما باسم (أريس Urbs أي المدينة) بسبب ذبوع صيتها. ان اول ملك لها وهو (ميكروبس) بنى القلعة على مرتفع وأطلق عليها اسمه ومعناه [المدينة القلعة].

(٦٩) باناثينا Panathaea. كان له وجود قبل تيسسيوس ويقام تكريماً (لمينرفا) ولم يكن يمت لاثينا بصلة. لكن تيسسيوس عظم من شأنه وجعله عيداً عاماً لكل سكان اتيكيا ولهذا سمي (باناثينا)، وهناك العيد الكبير والعيد الصغير ويقع هذا في العشرين من شهر ثارجيليون كل سنة. والأول يعيدونه كل خمس سنوات =

أيضاً عندما اقتصر على ذكر كلمة «شعب اثينا» في قائمة السنن^(٧٢) التي ذكرها، دون ان يخصّ غيرهم بهذه.

وضرب أيضاً نقوداً ونقش عليها صورة ثور، إما احبياً لذكر ثور [ماراثون] أو تذكرة بانتصاره على [طوروس] قائد مينوس أو ربّما ليذكر شعبه بوجوب الانصراف الى الزراعة. ومن هذه السكّة جاء التعبير الشائع جداً عند الأغريق حين يؤتى الى تقويم شيء من الأشياء «انه يسوى عشرة ثيران، أو يسوى مائة». وبعد ذلك ضمّ [ميغارا] الى آتيكا واقام على الخليج^(٧٣) ذلك الأسطون الشهير الذي نقش عليه كتابة تتألف من سطرين يشيران الى حدود الدولتين لأنهما تلتقيان في تلك النقطة. فعلى الجانب الشرقي تقرأ هذه العبارة:

«پيلوپونيستوس ليست هنا بل آيونيا».

وعلى الجانب الغربي تقرأ: «پيلوپونيستوس هنا، لا آيونيا!».

وأشأ كذلك ألعاباً مضاهياً بها ألعاب هرقل بدافع من طموح فيه إذ كان الأغريق برغبة من هرقل يحتفلون بالألعاب الاولمبية^(٧٤) تكريماً لجوبيتر، فلم لا يحتفلون بالألعاب [الإستمية]^(٧٥) تكريماً لبنتون، وبرغبة منه؟ لقد كانت تلك الألعاب قبل ذلك مخصصة لميليكيرتا [Melicerta] يتم احياؤها ليلاً باحتفال خاص، وهي في الواقع مراسيم دينية أكثر من كونها عيداً عاماً أو احتفالاً شعبياً. وهناك من يزعم ان الأصل في الألعاب [الإستمية] انها كانت لذكرى [سكيرون] اقامها ثيسوس على أثر موته تخليداً لاسمه لأنه أدنى اقربائه اليه. فهو ابن [كانيستوس] و[هنيوخا Heniocha] بنت پتيوس. على ان بعضهم يقول أن ابن هذين الأبوين هو [سنيس] وليس [سكيرون]، وان [ثيسوس] اقامها للأول منهما. وابرم

(٧٢) الايلاذة ٢: ٥٤٧. في تلك العبارة وصف الأخائيون بـ«شعب اريخثوس العظيم» وهي ما تشير الى مفهوم لايتفق واستنتاج بولتارخ لكن ربما أعتبر العبارة قاصرة على أولئك الذين كانوا قد أمروا عليهم «ارخيتوس» يوماً ما؟

(٧٣) هذا الأسطون اقيم بموافقة الآيونيين والپيلوپونسيين. لوضع حدّ نهائي للنزاع حول الحدود وقد بقي قائماً حتى عهد قدروس ثم نقض الهيراقليدي هذا الصرح عندما ملكوا (ميغارا) التي انتقلت بموجب ذلك من يد الآيونيين الى يد الدوريين [انظر سترابو] وقام [هادريان] فيما بعد بتقليد هذه الكتابة فقد نقش على النصب الذي أقامه بين أثينا الجديدة وأثينا القديمة كتابتين، فمن جانب تقرأ عبارة: «هذه أثينا مدينة تيسوس العتيقة: ومن الجانب الآخر تقرأ هذه العبارة «هذه مدينة هادريان وليست مدينة تيسوس».

(٧٤) لا بد وان يكون نشوء هذه الألعاب قبل التاريخ الذي اثبت لزمان هرقل بوقت طويل. فقد اثبت (سترابو) بانها لم تكن معروفة أيام (هوميروس) وربما وجدت قبله ولكن عفى عنها وطواها النسيان حتى احياها (ايفيتوس) وهو التاريخ الذي اثبت لتأسيسها.

(٧٥) سميت كذلك نسبة الى برزخ (اسموث) پيلوپونيستوس حيث تجرى ثمة.

[ميتوشيا Metocia] او عيد الهجرة^(٧٠)، ويقع في السادس عشر من شهر [هيكاتومبيون] وتنازل عن عرشه وسلطاته الملكية كما وعد، ومضى قدماً في تقنين دستور الجمهورية الشعبية بعد استشارة الأرياب والاستعانة بهم. اذ ارسل يستخير عرافة دلفي بخصوص مستقبل حكومته الجديدة ومدينته، ونزلت عليه النبوءة كالآتي:

أي ثيسوس سليل خط الملكي بنت پيتوس. لقد أعطى ابي مدينتك، مقادير وأمور دول عديدة. فلاتقلق ولا تخش شيئاً ولكن استشر فقط بثقة ويعزم الطحلب لن يكف عن العوم فوق الامواج التي تخف به.

ويقال أن آخر أبيات هذه النبوءة، كررته الكاهنة سيليل Silyl للآثينيين بعد زمن طويل، بالصيغة التالية:

«قد يغطس الطحلب، لكنه لن يغرق وهذا ما تقرر له^(٧١)».

بعد هذا انصرف الى توسيع رقعة مدينته، ودعا كل الأجانب للقدوم اليها، والتمتع بامتيازات مواطنة متساوية مع أهاليها، وقيل ان العبارة الشائعة «تعالى الينا أيتها الشعوب كافة» هي العبارة التي نطق بها ثيسوس عندما أقام صرح الجمهورية على شكل ائتلاف أممي على أنه لم يدع نظام حكمه الجديد ينقلب الى فوضى يتدقق جموع الأقوام الى المدينة فينبت حبل النظام وينفرط عقد الأمن والاستقرار، وكان اول من قسم سكان الجمهورية الى ثلاث طبقات متميزة: النبلاء، المزارعين، الصناع. وأسند للطبقة الأولى رعاية الشؤون الدينية وحق اختيار القضاة، والتصرف في شؤون التعليم والاشراف على تنفيذ القوانين، وتفسير كل الأمور المتعلقة بالعقائد المقدسة، وعلى هذا الأساس سادت مساواة دقيقة في المدينة، فالنبلاء يتقدمون الباقي في الشرف والمكانة والمزارعون يتقدمون الجميع في الفائدة والمال. والصناع يتفوقون على الجميع بقوة العدد. يقول [ارسطو] مظهرأ ميله الى الحكم الجمهوري ان ثيسوس كان أول ملك تنازل عن حكمه المطلق طوعاً، ويبدو ان [هوميروس] شهد له بذلك

= في الثالث والعشرين من شهر هيكاتومبيون وفيه يسير موكب حاملاً حجاب (ميرزا) أو ما يدعى (بيلون) وقد نقش عليه صورة انتصار الآلهة على الجبابرة. الى جانب مناظر لأعظم مآثره ابطالهم. (٧٠) احبياً لذكرى تركهم الدساكر واجتماعهم في مدينة واحدة. ويسميه ثوكيديدس ٢: ١٥٠ [سيوشيا] إلا ان السبب واحد. وبهذه المناسبة انشأ تيسوس أو حافظ على الألعاب الاستمية إكراماً لـ(نبتون) وقد رمي من ذلك الى اجتذاب الغرباء وتشجيعهم على سكنى اثينا منحهم حقوق المواطنة كاملةً.

(٧١) عندما استولى [سيللا] على أثينا لم يبق نوع من أنواع القسوة الأرتكبه وهناك قصد بعض الآثينيين معبد (دلفي) للاستشارة في هل ان ساعة مدينتهم الأخيرة قد حانت؟ فأجابت الكاهنة على حدّ قول [پاوسيناس ١: ٢٠] «ما يتعلق بالطحاب له نهايته». منوهة كما يبدو بالنبوءة القديمة التي صدرت هناك.

(سيوس) في الوقت نفسه معاهدة مع أهالي كورنث، ليسمحوا للقادمين من أثينا برؤية الألعاب الاستيمية، بموضع شرف يتصدر النظارة. وقدرت مساحة هذا الموضع بقدر ما يغطي من الأرض شراع السفينة^(٧٨) التي أقلت المتفرجين مبسوطاً بكامل ابعاده. وهذا ما اثبتته كل من [هيللانتيكوس، وأندرو Andro هاليكارناسوس].

واما عن رحلته الى البحر الأسود Euxine، فقد كتب فيلوخوروس وآخرون انه قام بها مع هرقل عارضاً عليه خدماته في الحرب ضد الامازونات^(٧٧) وكافأه بـ [انتسيوبيا Antio-pea]^(٧٨) على شجاعته. إلا ان القسم الأكبر ومنهم [فيريكيدس Pherecydes] وهيللانتيكوس وهيرودوروس، يقولون انه قام بالرحلة بعد هرقل بسنين عديدة وهو يقود عمارة بحرية خاصة به، وانه أخذ الامازونة [انتسيوبه] أسيرة، وهي القصة الاقرب احتمالاً. على اننا لانجد اي شخص آخر غيره ممن رافقه في هذه الحملة، يقول انه أسر أي امازونة. ويضيف [بيون Bion] قوله، ان ثيسيوس لجأ الى الخديعة لأسرها ويعدها أقلع عن الساحل في الحال. فالامازونات على حدّ قوله شبقات جداً محبات للرجال بطبعهن، فلم يصبرن على وجود ثيسيوس عند ارسائه على سواحلهن. بل يادرن الى ارسال الهدايا السنّية، فدعا [انتسيوبه] التي حملت الهدايا الى صعود السفينة، وما أن فعلت ذلك حتى أطلق سفينته للريح. ويضيف كاتب من بثينيا هو [مينيقراطس Menecrates] صاحب تاريخ نيقية، أن ثيسيوس بعد اصعاده انتسيوبه وإطلاق سفينته للريح، تجول مدة من الزمن بمحاذاة السواحل، وكان يوجد في السفينة اخوة ثلاثة من شبان اثينا رافقوه في رحلته وهم [يونيبوس Euneos] و[ثاوس Thaos] و[صوليوس Solous]، والاخير منهم وقع في حبّ [انتسيوبه] وبغفلة عن البقية كشف عن سرّه الى صديق عزيز وطلب منه ان يتوسط بمصارحة انتسيوبه بما يعتمل في نفسه من عاطفة. ففعل إلا انها لم تشأ مبادلته العاطفة ورفضت حبه رفضاً باتاً، وعالجت الموضوع معالجة هادئة حكيمة ولم تنه الأمر الى ثيسيوس ولم تذكر له شيئاً. لكنّ اليأس الذي ركب [صوليوس]

(٧٦) كانت ترسل هذه السفينة سنوياً الى ديلوس وفاءً لنذر تيسيوس وهي مزدانة باغصان الزيتون المقدس ومملوءة بالفرايين المخصصة لاپوللو. ومنذ فترة تزيينها حتى عودتها، تدخل المدينة في فترة تطهر ويوقف تنفيذ احكام الموت الرسميّة. ولذا نذكر القاريء هنا بفترة الايام الثلاثين التي مرت ما بين الحكم على سقراط واستشهاده. والى فترة التحريم هذه ندين بالمناظرات الرائعة التي نقلها لنا تلاميذه والوقائع التي تخللت تلك الفترة بينه وبين مستمعيه.

(٧٧) ليس هناك خرافات ورجم بالغيب بقدر ما يتعلق بموضوع [الامازونات] ويقول [سترابو] أن أكثر مؤرخي الاسكندر المقدوني أهلاً للثقة لم يطرّقوا حتى لذكرهن. ولو كنّ حقاً جزءاً من الشعب الصيحي فكيف اتفق أن حملن اسماء يونانية؟

(٧٨) يقول [يوسيتين] ان هرقلأ أعطى تيسيوس (هيبوليتو) وأحتفظ لنفسه بـ(انتسيوبه).

جعله يلقي بنفسه في نهر قريب من الساحل. ولما علم ثيسيوس بموته وحبه العاثر الذي اورده المنية، ادركه حزن شديد، وفي تصاعد كآبته تلك تذكر نبوءة كانت قد نزلت له في دلفي. اذ أنهت اليه كاهنة [اپوللو پيتوس] بأن عليه ان يبني مدينة وقمتما ينتابه اعظم الحزن. واينما كان موجوداً، وعليه ان يترك بعض اتباعه حكماً لها. فبنى مدينة [بثيوبولس] مشتقاً اسمها من صفة [اپوللو] واحياءً لذكرى الفتى المنكود الخائب في حبه، أطلق اسمه [صوليوس So-lois] على النهر الذي يجري بمحاذاتها. وعهد لأخوى الغريق بادارة المدينة وتنفيذ قوانينها وضم اليهما [هرموس Hermus] احد أفضل نبلاء اثينا. ومن اسم هذا الأخير عرف اسم حيّ من احياء المدينة [بمنزل هرموس] وبخطأ في نطق الاسم^(٧٩) اظن المقصود به [بيت هرميس] اي الاله مارس وهكذا انتقل الى الربّ ذلك التكريم الذي اريد به [هرميس - عطارد].

هذا هو سبب واساس الغزو الأمازوني لآتيكا. ذلك الغزو الذي لايمكن ان يبدو قطّ عملاً انثوياً صغير الشأن. ويكاد يكون من المتعذر أنهن عسكرن في المدينة نفسها ودخلن المعركة قرب (پنيكس Pnyx)^(٨٠) عند التل المسمى [ميوزيوم Museum]^(٨١). إلا اذا كن قد استولين على كلّ البلاد المجاورة للمدينة ووجدت الجراءة والسلامة الكافيتين للزحف عليها. ويصعب الوثوق بما زعمه [هيللانتيكوس] عن قيامهن بهذه الرحلة الطويلة برأ، ومرورهن بالبوسفور الكيمري^(٨٢) عندما كان منجمداً. أما أنهن عسكرن في مكان آخو غير المدينة فهذا مؤكّد، ويمكن اثباته بما يكفي من الاسماء التي ما زالت تطلق على المواقع في تلك الانحاء، وبقيام القبور والاضرحة والأنصاب للاتي سقط منهن في سوح القتال.

لما غدا الجيشان على قيد النظر أحدهما من الآخر، سادت فترة هدوء وشك في ايهما سيبدأ الهجوم؟ وأخيراً قرب ثيسيوس قربانا لرب (الخوف)^(٨٣) اطاعة لأمر نبوءة نزلت عليه، ثم بدأ القتال. وكان ذلك في شهر [بيويدرميون Boedromion] وفيه يحتفل الآثينيون الى يومنا هذا بعيد [بيودروميا]. ويريد [قليديموس] ان يكون أكثر تفصيلاً واسهاباً فيكتب قائلاً ان

(٧٩) حرفياً giving it the cicumflex accent.

(٨٠) كان موضعاً قرب القلعة اعتاد أهل اثينا الاجتماع لسماع الخطباء يبحثون في الأمور العامة. وسمي كذلك للمحلات المزدحمة في ذلك الحي، وقال آخرون انه من اجتماع Conflex الجمعيات العامة فيه.

(٨١) يقوم الراميزيوم) فوق اكمة صغيرة مقابل الحصن وفي أعلى جزء من الاكمة. وربما اسمه من وجود هيكل الميوزات هناك أو ربما من اسم الشاعر ميوزيوس الذي كان ينشد فيه اشعاره وقد دفن هناك ايضاً (انظر پاوسنياس ٢٥:١).

(٨٢) البرزخ الذي هو بين بحر پالوس موتس وبين البحر الأسود.

(٨٣) يدخل الوثنيون في عداد آلهتهم فضلاً عن العواطف، الاحساسات المزعجة، والظواهر الطبيعية المخيفة ويعبدونها انقاء شرها.

ميسرة الامازونات حركت نحو موضع ما زال يعرف باسم [أمازونيوم] وتقدمت ميمنتهن نحو [پنيكس] قرب [خريسا] والتحم الأثينيون الذين خرجوا من خلف تل [ميوزيوم] بهذا الجناح. وان قبور تانك اللاتي صُرعن، تُرى شاخصة في الشارع المؤدي الى مدخل [پيريكاكا Piriaca] قرب هيكل البطل [خلقدون Chalcaedon] وان الأثينيين حاقت بهم الهزيمة في هذا الموضع، وهربوا من وجه النساء حتى معبد [فيوريس Furies] (٨٤) لكن امدادات جديدة وصلت ميسرتهم من [الپلاديوم ومن اللقييوم ومن ارديتوس Palladium, Ardetlus, Lycium] (٨٥) فكروا علي جناحهن الأيمن ودحروهن حتى ألقوا بهنّ الى مخيماتهنّ. وسقط في هذه المعركة عدد كبير من الأمازونات وغدت الحرب سجلاً، ثم وبعد أربعة أشهر عقدت الهدنة بين الطرفين، وأبرم الصلح بوساطة من هيپوليتا (يطلق المؤرخون هذا الاسم على الامازونة التي تزوجها ثيسسيوس، ولايسمونها انتيبوه)، على أن بعضهم كتبوا أن [مولپاديا Molpadia] قتلتها بطعنة رمح اثناء ما كانت تقاتل الى جانب ثيسسيوس. وان النصب القائم جوار هيكل «الارض الاولمبية» (٨٦) إنما اقيم فوق قبرها تخليداً وعلينا ان لانعجب اذا وجدنا التاريخ يخبط خبط عشواء في حوادث موعلة في القدم كهذه، فقد قيل لنا أن الأمازونات اللاتي جرحن في المعركة، أرسلتهن انتيبوه سراً الى (خلقيس) فشفي كثير منهن بفضل سهرها وعنايتها. لكن بعضهن توفي وقبر في موضع يطلق عليه الى يومنا هذا [امازونيوم]. واما ان الحرب انتهت صلحاً فهذا واضح أكيد من اسم الموضع الملاصق لمعبد ثيسسيوس فهو معروف بـ[هوركوموزيوم Horcomsium] (٨٧) من العهد الموثق الذي ابرم هناك. وكذلك من الأضحية الغابرة جداً التي جرت العادة على تقديمها للامازونات في اليوم السابق لعيد ثيسسيوس. كذلك يريك [الميفاريون] بقعة في مدينتهم على الطريق الممتدة من السوق الى موضع يدعى [روس Rhus] (٨٨) تضم رفات بعضهن، حيث يقوم «البناء المعيني Rhomboid» وشبيه بهذا ما

(٨٤) في الواقع لم يكن هذا المعبد موجوداً آنذاك، اذ انه بني على أثر محاكمة اورستس [پاوسنياس ٢٥:٧]. على ان الموضع الذي قصده پلوتارخ لك يكن بالامكان تحديده بغير ذلك.

(٨٥) كان الپلاديوم المكان المخصص لمحاكمة المتهمين بجرائم القتل. (ارديتوس) نسبة الى البطل الاثيني الذي فض نزاعاً قائماً بين مواطنيه المختصين فيما بينهم واقنعهم بربط انفسهم بقسم جماعي متبادل على الاتحاد والتعاون.

(٨٦) بهذا يقصد (القمر) وقد سمي بهذا لأنها كما يزعم پلوتارخ نفسه في رسالته عن «انقطاع النبوءات» - تشبه الجن أو الشياطين وليست لها كمال الآلهة ولا نقصان فيها كالبشر لكن، لما كان بعض الفلاسفة الفيتاغوريين قد توصلوا فيما بعد ان نتائج فلكية كافية للاستنتاج بان الشمس هي مركز المجموعة فيعترض انه تراعى للمفكرين الاوائل بانه «جسم ارضي». ولذلك سمي القمر أحياناً بالنجم الأرضي.

(٨٧) من الأقسام التي ادبت توثيقاً للعهد المقطوع.

(٨٨) «مجرى» لأن المياه المنحدرة من الجبال المشرفة على المدينة كانت قد اتخذت مجراها مرة (پاوسنياس =

قيل ان بعضهن قتل قرب [خيروينا] ودفن على ضفة نهير كان يعرف سابقاً باسم [ثرمودون Thermodon] والآن يدعى [هيمون Haemon] ذكرنا شيئاً عنه في سيرة [ديموستينس]. ويبدو أن مرور الامازونات عبر [تسالي] لم يخل من مقاومة. اذ يوجد ثم عددٌ من قبورهن قرب [سكوتوزا Scotussa] و[كينوسفاليا Cynoscephalae].

هذا غاية القصد في الامازونات. وهناك رواية عن اوردها ناظم ملحمة [ثسياد Theseid] هي محض خيال مختلف. يقول ان انتيبوه على سبيل الانتقام من ثيسسيوس لأنه هجرها وتزوج [فيدرا Phaedra] انحدرت الى المدينة بمجموع من امازوناتها، ففضى عليهن هرقل!

الحق يقال ان ثيسسيوس تزوج [فيدرا] إلا انه فعل ذلك بعد موت انتيبوه التي انجبت له ولداً دعاه [هيپوليتوس] أو [ديموفون] على حدّ زعم [پندارا] (٨٩). أمّا النكبات التي حلت [بفيدرا] وابنه فلا سبيل لنا إلا الافتراض بأنه وقعت كما اتفق على روايتها جميعهم. لأنه لم يبق احد من المؤرخين بالاعتراض على الشعراء التراجيديين الذين كتبوا عنها.

هناك روايات أخرى أيضاً عن زيجات ثيسسيوس لاتشرفه مناسباتها ولا تُسعده في وقائعها، لم تتطرق اليها التمثيليات الاغريقية. فلقد قيل انه خطف (اناكسو) الطروزينية، وقتل كلاً من [سينيس Sinnis]، و[سركيون] ليغتصب ابنتيهما. وتزوج [پيروبا] أم [أجاس Ajax]، ثم [فيروبا Pheriboea] ثم [آيوپه Iope] بنت [ايفكليس Iphicles] فضلاً عن اتهامه بهجر (اريدانه) مخالفاً مبادئ الشرف والاخلاق كما أوردنا - عندما وقع في حبّ [ايكله] بنت [پانوپيوس Panopeus] بدون وجه حق، أو اعتبار لكرامة. وأخيراً قيامه بخطف [هيلين]، وهو العمل الذي قلب اتيكا كلها الى ساحة حربٍ تمور بالدماء، وكان بالأخير سبباً لنفيه وموته وهذا ما سنروى وقائعه الآن.

يرى [هيروودروس] انه وان كان يوجد ثم الكثير من الحملات العسكرية الشهيرة التي قام بها أشجع رجال عصر ثيسسيوس، فانه هو نفسه لم يقدر إلا واحدة، وهي معركة الابيثيين مع

= ٢:٤١٠). وربما كان الروميويد تلاً تريبياً غير منتظم.

(٨٩) يخطيء [پندارا] في قوله ان [ديموفون] هو أحد ولديه اللذين انجبهما من [فيدرا]. [الثاني هو أكاماس]. عند زواج ثيسسيوس من فيدرا أرسل هيپوليتوس لأمه إيثاراً ملكة طروزين لتتولى لتربيته. وبعد زمن عاد لحضور الالعب الاثينية فوقعت (فيدرا) في حبّه وراودته عن نفسها عبثاً. وفي نوبة من انفعالها وبأسها شكته لثيسسيوس زاعمة انه حاول النيل من شرفها وتقول الأسطورة ان (ثيسسيوس) دعا [نبتون] ليذيقه ميتة عنيفة عقاباً له فاستجيب دعائه. اذ فيما كان هيپوليت يقود عربته على ساحل البحر ارسل نبتون عجلي بحر ارعيا الخيل فانقلبت العربة به وتمزق جسده، ويذكر الشعراء ان الملكة شنقت نفسها حزناً وان [ديانا] التي هرّتها عفة هيپوليت، وألتهتها نهايته المفجعة، أقنعت (ايكولاييوس) باعادته الى الحياة وجعلته مرافقاً لها في سائر نزهاتها.

(السنطورس) إلا أن بعضهم يقول انه رافق [جاسون] الى [خُلقيس]^(٩٠) و[ملياجر - Meleag] لقتل الخنزير الوحشي الكليدوني. ومن هنا جاء المثل السائر «لا شيء بدون ثيسسيوس»، وثابت أيضاً أنه حقق بنفسه دون معونة من أحد مآثر مجيدة لا تحصى، من هذا جاء القول المأثور «هرقل آخر، او هرقل ثان» ولقد شارك ايضاً [أدراستوس Adrastus] في استعادة جثث أولئك الذين صرعوا امام قادفيا قلعة (ثيبسة) لكن ليس بالشكل الذي صوره [يوريبيدس] في مأساته^(٩١)، اي ليس عنوة واقتداراً بل بالتفاهم والإقناع والاتفاق، وهو ما أستقر عليه معظم المؤرخين. ويضيف [فيلوخورس] ان هذا الاتفاق هو الأول من نوعه في التاريخ، (لكن يظهر في تاريخ هرقل، انه اول من سمح لاعدائه ينقل جثث قتلائهم) وان المقابر التي تضم رفات معظمهم مازالت ظاهرة في قرية [اليوثيري Wleutherae]^(٩٢) اما قبور القادة فتتوي في [اليوسيسس] حيث خصص لهم ثيسسيوس رقعة من الأرض اكراماً لحاظ [دراستوس]. ورواية [يوريبيدس] التي اوردها في مسرحية «المتضرعين» يدحضها [اسخيلوس] في مأساته المسماة [الايلوسينون Eleusiniand]^(٩٣) حيث يقوم ثيسسيوس برواية الوقائع كما اثبتناها هنا^(٩٤).

والصدافة الشهيرة التي ربطت بين [ثيسسيوس وبيرتاوس] قيل انها بدأت على النحو الآتي: ذاع صيت ثيسسيوس، وعلم الناس بقوته وبأسه في أقصى بلاد اليونان، ورغب [بيرتاوس] ان يختبر الأمر بنفسه، فقام تحديه هذه الغاية بضبط قطع من الشيران يعود لثيسسيوس، وبينما كان يستأفه من ماراثون، أبلغ بأن ثيسسيوس يقصّ أثره وهو بكامل سلاحه فلم يسرع في فراره، بل انقلب عائداً لملاقاته. ولما تفرّس احدهما في الآخر امتلاً هيبيةً واحتراماً متبادلاً، ونسبوا كل نية في القتال. وسبق [بيرتاوس] فمدّ يده لثيسسيوس وطلب منه ان يكون حكماً في النزاع. ووعد ان يخضع لأيّ عقوبة يفرضها بملء الرغبة فلم يكتف ثيسسيوس بالصفح عنه، بل عرض عليه صداقته واخوته في السلاح. وأشهدا على صداقتهما وعززأها بالأيمان المغلظة. وبعد زمن، تزوج بيرتاوس [ديداميا Diedamia]^(٩٥) ودعا ثيسسيوس الى

(٩٠) ربما بحثاً عن جزّة الصوف الذهبية.

(٩١) وهذا أيضاً ما يزكبه ايزوقراطس في مقاله حول (هيلين) وان كان يرى في موضع آخر ان (ثيسسيوس) أرسل سفراء الى ايتوكليس. إلا ان هذا التناقض الواضح أزاله معاصره (ليسياس) بذكره ان (ثيسسيوس) بعد مفاوضة غير ناجحة حصل بالقوة على نتيجة أفضل. مأساة [المتضرعون]: ص ٦٥٣ وما بعدها.

(٩٢) مدينة في اتيكا على حدود بويوسيا [پاوسنياس ٢:١].

(٩٣) الابيات ١٢١٣ وما بعدها.

(٩٤) مفقودة.

(٩٥) كل الكتاب الآخرين يسمونها (هيبوداميا) ما عدا [يريوتيس] الذي يسميها [ايسخوماخه] ٢:٢:٩ =

حفلة العرس، ولمشاهدة بلاده بهذه المناسبة والتعرف بقومه اللابيثيين^(٩٦) كما دعا في الوقت نفسه قوم [السنطورس]. وفي الحفلة لعبت الخمر برؤوس هؤلاء، وأظهروا شراسة وسوء أدب، وطفقوا يتحرشون بالنساء ويهينونهن. فأسرع اللابيثيون يثارون منهم وبتشوا بعدد كبير منهم في اثناء الوليمة. ثم نشبت معركة فيما بينهم فهزمهم وطردوهم من أرضهم جميعاً وكان ثيسسيوس يقاتل الى جانب الابيثيين إلا ان لهيروودروس قصة أخرى عن هذه الأحداث. فهو يقول أن (ثيسسيوس) لم يسرع الى معاونة اللابيثيين إلا بعد نشوب الحرب. وان اول مشاهدته لهرقل كان في طريق ذهابه اليهم. اذ كان قصده أن يجده في [تراخيسن]^(٩٧) التي أختارها هرقل موطناً بعد كل مغامراته واسفاره وان هذه المقابلة تمت بشكل مشرف لهما، وباحترام وود لا مزيد عليهما. ولكن القول الاكثر احتمالاً واعتماداً هو ما زعمته طائفة أخرى من المؤرخين بان لقاءات أخرى كثيرة كانت قد جرت بينما، انه بسعي من ثيسسيوس مُنح هرقل في [ايلوسيسس] حق المواطنة وقبل اجراء المراسيم اسرار كسيريس Ceres قام بالتطهر بسبب النجاسات التي حفلت بها حياته الماضية^(٩٨).

يقول [هيللانيكوس]: اختطف ثيسسيوس هيلين عندما كان في الخمسين من عمره. وهي وقتذاك طفلة ليست في سن زواج. ويقول بعض الكتاب - يقصدون جبّ تهمة تتضمن واحدة من اكبر الجرائم - انه لم يسرق هيلين بشخصه، وان الفاعلين هما [ايداس Idas] و[لينكيوس Lynceus] خطفاها وجاء بها اليه ووضعها أمانة عنده. ولهذا رفض اعادتها الى اخويها [كاستور Cadtor] و[پولوكس Pollox] عندما طلباها منه. أو يقولون ان أباهما [تنداريوس Tandarus] كان قد بعث بها اليه ليحافظ عليها من [انباروفوروس Enarophorus] ابن [هيبكيون Hippocöon] وكان يحاول اختطافها وحملها بالقوة وهي طفلة. لكن أقرب

= وهي بنت [داراستوس].

(٩٦) يطلق هوميروس على «اللابيثي» صفة الأبطال. واثر عن السناطير بانهم انصاف بشر وانصاف خيل وصورون عموماً راكبين خيلاً اما بسبب وحشيتهم أو لصفتهم الحيوانية ان لم يعز اليهم استعمال الخيل وسياستها.

(٩٧) موضع صغير يقع بالقرب من جبل اوتيا.

(٩٨) قبل التكريس للأسرار الكبرى في اليوسيس لأبد من اجراء مراسيم التطهير في الأسرار الصغرى على المرشح (وتقام في أعرا بالقرب اليوسيس) وبعد ان يعد المرشح نفسه بالصيام والتأمل يجب عليه ان يضطجع على جلد خنزيرة حامل سبق أن ضحيت لـ(چوپتر). ثم عليه أن يغتسل بماء البحر الذي يمازحه الملح والغار والشعير وبعدها يمر عبر النار ثم يكلل بالزهر. ويقضى المقبول في الأسرار السنة التالية يدرس المراسيم للبعث الجديد وبعد هذا كله (باستثناء مراسيم وخاصة جداً قاصرة على رتبة الكهنوت) يتم تكريسه نهائياً بارتداء الثوب الذي كُرس فيه لاينزعه عنه حتى يهتريء ويغدو خرقاً فيوقفه على [سيريس] أو [پروسپيرين] أو يحفظه لاولاده.

الروايات احتمالاً وأغناها بالشهود، هي الآتية: ذهب ثيسسيوس وبيرتاوس الى سبارطا، وبعد ان خطفا الصغيرة اثناء ما كانت ترقص في معبد [ديانا اورثيا] (٩٩)، هربا بها فخرج رجالٌ مسلحون لتعقيبهم، إلا أنهم لم يمشوا في مطاردهم أبعد من [تيجيا Tegea] ولما أمن الخاطفان المطاردة وفي اثناء مرورهما ببلاد الپيلوپونيسوس وصلا الى اتفاق فيما بينهما، وهو ان يقتربا على هيلين، فمن خرجت له اتخذها زوجاً، والظافر بها يجب ان يساعد الخاسر في الحصول على أخرى. وسحبت القرعة وفاز ثيسسيوس فأخذ هيلين الى مدينة [افيدني Aphid-nae] (١٠٠) ولم تكن تصلح للزواج - وادعها لدى واحد من حلفائه المدعو [افيدنوس]، ثم بعث بأمه [ايشرا] لتعني بها هناك وطلب من حليفه هذا ان يكتن سرهما لئلا يعرف احد موضعهما. بعد أن فرغ من هذا عاد الى صديقه للوفاء بالوعد ورافقه الى [ايبروس Epirus] ليخطفا بنت ملك المولوسيين [Molossians] المدعو [ايدونيوس Aidonius] أو [پلوتو] وكان هذا الملك قد جمع زوجه [پروسپرينا Prosprina] (١٠١) وابنته [كوراي Corae] وكتباً هاتلاً عنده يدعى [سيربيروس] وطلبت من كل خاطب لابنته ان ينازل هذا الكلب فاذا تغلب عليه فاز بها ولكن لما ابلغ ان قصد پيرتاوس ورفيقه، هو اختطافها (١٠٢) لا خطبتها أمر بالقاء القبض عليهما وطرح پيرتاوس الى كلبه فمزقه تمزيقاً وألقى ثيسسيوس في السجن وأبقاه.

في هذا الزمن نبغ [مينيسثيوس Menestheus] ابن پيتيوس وحفيد [اوريندس]، وابن حفيد [ارختيوس] وهو اول خطيب جماهيري في التاريخ، ممن اشتهر بالمقدرة على خطب ودّ الجماهير واثارتهم وتزعم جموعهم. هذا الرجل اثار حفاظ وموجدات كبار القوم في المدينة، ومنهم عدد كبير ممن كان يضمّر لثيسسيوس حقداً دفيناً لأنه جردهم من اقطاعياتهم وسلطانهم وحشرهم جميعاً في مدينة واحدة، واستخدمهم كالرعية أو العبيد، ومن ناحية ثانية دفع هذا المشاغب أحط الناس واوزاعهم الى الهياج والفتنة، قائلاً لهم انهم خدعوا بمجرد حلم بالحرية،

(٩٩) اعتاد السبارطيون جلد اولادهم فوق مذبح معبد ديانا اورثيا هذا - جلداً مبرحاً باشد واقسى ما يتصوره العقل لتعويدهم على الاحتمال. كانت هيلين التي عرفت بانها بنت (چوپتر) من (ليدا) زوج [تنداروس] في العاشرة من العمر عندما اختطفها ثيسسيوس وبيرتاوس.

(١٠٠) مدينة تقع بالقرب من أثينا.

(١٠١) پروسپونيا أو [كوراي] اسمان لشخص واحد هو ابنة [ايدونيوس] بعل [سيرس] وپلوتارخ يحدثنا في كتاب (الاخلاق) قائلاً ان المقصود بـ(پروسپرين) هو القمر الذي يقوم (پلوتو) اله الظلام بخطفه أحياناً. والواقع ان كوراي لاتعني الا «فتاة أو بنت» فيقال «بنت ايبروس» كما يقال بنت لبنان أو بنت الصين الخ...

(١٠٢) رغب افلاطون (الجمهوريّة ٣٠) أن يستر حلة ابناء الآلهة هؤلاء ويبرئهم من تلك التهم التي تفتقر الى اثبات فنفي الحكاية من اساسها.

في حين انهم في الحقيقة جردوا من تلك الحرية ومن بيوتهم الحسنة، وعقائدهم الدينية، وبدلاً من ملوكهم الطيبين الصالحين، استسلموا وخضعوا لاستبداد شخص اجنبي طفيلي. وفيما هو ماض في إفساد عقول المواطنين زودته الحرب التي شنها [كاستور وپولوكس] بفرصة ثمينة ليزيد من حجته قوة وأثراً. وزعم بعضهم ان تحريضه واثارته كان السبب الأساس لهجومهما على أثينا. على أنهما لم يقتربا شيئاً في اول زحفهما ولم يبدئ منهما اعتداء، وانما طلبا [هيلين] أختهما بصورة ودية مسالمة فنفي الأثينيين وجودها في المدينة واكدوا جهلهم بموضع اخفائها، فتأهبا للهجوم. وهنا خف [اكاديموس] لنجدتها اذ عرف بوسيلة ما مخبأ المخطوفة، فدلها عليهما ولهذا السبب اغدق عليه [كاستور وپولوكس] النعم والعطايا ما أغناه طول حياته وكان اللقيديميون اثناء اجتياحهم المتكرر لأتيكا والبلاد المجاورة وايقاعهم الخراب بها، لايمسون [الاكاديمي] (١٠٣) بأذى لأجل ذكرى [اكاديموس] إلا ان [ديكيارخوس Di-caearchus] يقول بوجود شخصين أركاديين في جيش [كاستور وپولوكس] أحدهما يدعى [اخيديموس Echedemus] والثاني يدعى [ماراتوس Marathus] ومن اسم الأول أشتق ما يعرف الآن بالأكاديميا، التي سميت فيما بعد (اخيديميا) ومن اسم الثاني استمدت (ماراثون) القرية اسمها. فقد عرض هذا الرجل نفسه ضحيةً للآلهة قبل المعركة، تحقيقاً لنبوءة ما.

ويلغ [كاستور وپولوكس] مدينة [آفيدنيا] وتغلبا عليها في معركة فاصلة واستوليا على المدينة. وفيها قتل (اليگوس) ابن [سيرون] وهو من جماعة الديوسكوري (اي كاستور وپولوكس)، على ما قيل. ويوجد في (ميغارا) موضع دُفن فيه ما يزال يدعى [اليكوس] ويكتب [هيرياس] ان ثيسسيوس هو الذي قتله، ويستشهد على ذلك بالبيتين الآتين عن اليكوس:

«وقتل اليكوس في سهل افدنيا.

قتله ثيسسيوس، في سبيل هيلين الشقراء»

على انه لا يوجد ما يؤيد وجود ثيسسيوس هناك عندما استولي على المدينة واسرت أمه. ومهما يكن من أمر، فقد بسط كاستور وپولوكس سلطانهما على [افيدنيا]. واستبد القلق بمدينة أثينا. وافلح [مينيسيتوس] في اقناع الأهالي بفتح ابوابها واستقبالهما بكل مظاهر الصداقة قائلاً: إن عدوهما الوحيد هو ثيسسيوس الذي كان الباديء بالشر. وانهما سيتقدان الأهالي. وكان سلوك الفاتحين مصداقاً لهذا فبعد أن استتب لهما الأمر في المدينة لم يطلبوا (١٠٣) موضع تحفّ به الأشجار بالقرب من نهر كفسوس يبعد بحوالي ميل واحد شمال غرب أثينا، وهنا كان افلاطون وتلاميذه يجلسون للدرس (انظر سيرة كيمون).

أكثر من منحهما حتى القبول في الاسرار، لان صلة قرابتهما بها لا تقل عن صلة هرقل^(١٠٤). وكان قد نال التكريم نفسه من قبل. فحقق لهما مطلبهما وتبناهما [أفيدنوس Aphidnus] مثلما تبني [پيلوس Pylus] (١٠٥) هرقل. واحتفى بهما كما يحتفي بالالهة. وسيما بالاسم الجديد [اناكسيس] وهو اما مأخوذ من الهدنة Anoché التي تلاها أو من تدابير الرعاية التي اتخذها كيبلاً يلحق بأحدٍ مكروه، بوجود جيش كبير داخل المدينة. ذلك لأن جملة «أناكوس واخين êkhein, Anakös» تطلق على أولئك الشديدي الاهتمام بكل شيء، ولهذا تجد ملوكاً يلقبون «أناكتس». ويقول بعضهم أن تسميته هذه من اناكيس Anakes مظهر في الفلك. ففي اللهجة الاتيكية يقترب هذا الاسم اقتراباً شديداً من الكلمات التي تعني «فوق» او عالٍ فالاثينيون يستعملون كلمتي انيكاس Anekas وانيكاثن Anekathen بدلاً من أنو Anō وانوثين Anōthen.

وقيل ان [ايشرا] والدة تيسسيوس أسرت هناك. وحملت الى لقيدييون، ومن هناك ذهبت الى طروادة مع هيلين. ويستندون في زعمهم هذا الى بيت للشاعر هوميروس حين يذكر من رافقها: «اثيرا وكليمينه الحوراء الجميلة اللين وكدتا لپيثيوس»^(١٠٦). لإثبات أنها كانت ترعى شؤون [هيلين]. ويسقط آخرون هذا البيت ولا يعدونه من شعر هوميروس^(١٠٧)، كما ينبذون كأسطورة [مونيخوس] الذي كان كما تقول الحكاية - إبنا [لديوفون Demophon] ولاوديكة [Laodice] انجابه سراً، وقامت [ايشرا] على تربيته في طروادة لكن [ايستر Ister] يتحفنا برواية أخرى عن [ايشرا] في الكتاب الثالث عشر من تاريخه عن آتيكا، وهي تختلف عن الباقيات. يقول ان [آخيل، وياتروكليس] تغلباً على [الكساندر: باريس Paris] في تسالي قرب نهر [سپيرخيوس Sperchius] لكن [هتكورا] استولى على مدينة طروزين ونهبها وأسر (ايشرا) هناك... والظاهر أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة.

في اثناء مرور هرقل [بالمولوسيين]، حلّ ضيفاً على [ايدونيوس] الملك فنوّ هذا عرضاً برحلة تيسسيوس [وپیرتاؤوس] الى بلاده، وقصّ عليه ما كان يريدانه وما حلّ بهما نتيجة

(١٠٤) ذلك لأنهما ابنا لجوپتر ايضاً وهو الاله الذي يدعى الاثينيون بأنهم جاؤوا من صلبه. لذلك كان من الضروري أن يمنح حقوق المواطنة قبل قبولهما في الأسرار. وعلى هذا الأساس تم منحهما الجنسية عن طريق التبنّي.

(١٠٥) ملك ثسپي Thespie في بويوسيا.

(١٠٦) الايلاذة ٣: ١٤٤.

(١٠٧) يبدو ذلك بعيد الاحتمال. فمن غير المنطق أن تكون حماة هيلين وصيفتها أو أن تكون وصيفة هيلين ملكة! ومع هذا فإن حكاية أسر (اثيرا) تطابق كثيراً الصورة التي كانت تشاهد في دلفي. إذ بدت (اثيرا) ورأسها يخلق كالعبيد وحفيدها يشاهد وهو يتوسط في الافراج عنها (پاوسنياس ١٠: ٢٥).

ذلك. فاغتم هرقل غمّاً عظيماً للموت المخزي الذي لاقاه أولهما والوضع المرزي الذي آل اليه ثانيهما ولما كان من العبث أن يبحث في موضوع الأول لموته، فقد توسط في أمر الثاني فنال بغيته ولبي الملك طلبه. واسرع تيسسيوس الى اثينا بعد اطلاق سراحه، وكان في انصاره ومؤيديه بقية.

وهناك اوقف على هرقل كل الاماكن المقدسة التي كرستها له. وغير اسماءها من [يئسپيا] الى [هرقليا] (١٠٨) اعترافاً بفضله، إلا أنه استثنى اربعة فقط كما حدثنا [فيلوخورس]. ويدافع من رغبته في البقاء محتلاً المكان الأول في الجمهورية، وتصريف شؤون حكمها كالسابق، ما ليث ان وجد نفسه مشتتاً مع الاحزاب في صراع، والمتاعب تحفّ به من كل جانب فأولئك الذين طالما ابغضوه، أضافوا الى بغضائهم احتقاراً، وبلغ فساد خواطر الشعب مبلغاً من التفسخ بحيث ما عادوا يطيعون الاوامر بصمت، وانما صاروا يدفعون الى اداء واجباتهم بالملق والمداهنة. ومال به الفكر الى استعمال القوة لإخضاعهم، ولكن الاحزاب ومثيري الشعب من الديماغوغيين كانوا أقوى نفوذاً. وأخيراً ادركه اليأس من التوصل الى اي نجاح مجدٍ في اثينا، فبعث باولاده سراً الى [يويوا] ووضعهم في رعاية (اليفينور Elephen- or Scy) ابن خلدون، ثم لعن شعب أثينا في قرية [گارگيتس] حيث مازال يوجد فيها موضع يدعى [اراطيريون Araterion] أو موضع اللعان أو الدعاء، أبحر الى [سكيروس Scy-ros] (١٠٩) وفيها أراض خلفها له أبوه، وصدقات توهم وجودها بين الأهالي، وكان [ليقوميدس Lycomedes] ملكاً على الجزيرة يومذاك، فقصد تيسسيوس وانهى اليه رغبته في تمكينه من اراضيه لأنه قرر السكن والاستقرار في الجزيرة. وهنا يختلف الكتاب فبعضهم يقول انه اتصل به طالباً منه العون على الاثينيين، وان [ليقوميدس] أما حسداً لمجد رجل عظيم، او أرضاً [لمينيسيتوس] (١١٠)، قاده الى أعلى جرف في الجزيرة، بدعوى مشاهدته الأراضي من موقفه ذلك. وقذف به من حائق، وقتل، ويقول آخرون: لا بل سقط قضاءً وقدرًا حينما زلت قدمه أثناء سيره هناك كعادته يومياً بعد العشاء. ولم يلحظ أحد موته، يومذاك ولم يهتم به أحد، وتمكن [فيستسيوس] من بسط سلطانه على مملكة اثينا يهدوء، ونشأ اولاد

(١٠٨) أظهر يورپيدس تيسسيوس في مسرحية [هرقل في تجواله] وهو يعد منقذه بالقيام بهذا العمل على السبيل الوفاء.

(١٠٩) تقع هذه الجزيرة مقابل يويويا. اصبح الاثينيون الناكرو الجميل يشعرون بمرور الزمان بآثار هذه اللعنة. حتى انهم قرروا تهدئة لطيفة لزائر ان يقدموا له قرابين عامة وان يحيوا ذكراه بتكريم كتكريم الالهة.

(١١٠) أو كما قال بعضهم: بعد ان تبين له ان يريد افساد رعيته عليه واغواء زوجته.

ثيسيوس نشأة خصاصةٍ وفقر، وصحبوا [اليفينورا] في حروب طروادة لكنهم عادوا الى آثينا بعد موت [مينستيسوس] في تلك الحملة، واستعادوا الملك. وفي العصور التالية نجحت عدة ظروف حملت الآثينيين على تكريم ثيسيوس وانزاله منزلة نصف إله. ومن تلك الظروف ما حصل في المعركة التي خاضها الآثينيون في [ماراثون] ضد الميديين. فلقد اعتقد كثيرٌ من الجنود انهم شاهدوا شبح [ثيسيوس] وهو بدروعه وسلاحه يتقدمهم في الهجوم على البرابرة^(١١١).

وبعد الحرب الميدية عندما كان [فيدو Phaedo] آرخوناً لآثينا^(١١٢)، استخار الآثينيين عرافة دلفي، فأمرها بجمع عظام ثيسيوس ودفنها في موضع لائق بمقامه، وأعتبرها من ذخائر المدينة المقدسة. إلا أن جمع بقاياها، كان في غاية الصعوبة، واصعب منها التوصل الى موضعها فقد ضاع الموقع عن الأذهان بعد سكنى البرابرة المتوحشين الغلاظ في الجزيرة^(١١٣). ومرت الأيام ثم أستولى [كيمون Cimon] على الجزيرة (كما اوردنا ذلك في سيرته) وكان شديد الرغبة والحماسة في العثور على الموقع الذي يضم جسد ثيسيوس وتشاء الصدفة، أن يلمح نسرأً جاثماً على نشز من الأرض ينقر التراب بمنقاره وينبشه بمخالبه. وفجأة قدحت فكرة في رأسه بما يشبه الوحي الرباني. بأن يحفر هناك ويبحث عن عظام ثيسيوس، ففعل ووجد في ذلك الموقع تابوت رجل جسمه اكبر من المعتاد، ووجد سنان رمح نحاسي، وسيفاً مسجى معه، فرفع الجميع وحمله الى سفينة وقدم الى آثينا، فاستبد الفرع بالآثينيين وخرجوا للقاء الذخائر الكريمة واستقبالها بما يليق من المواكب الفخمة والقرايين، حتى لكأن ثيسيوس يعود الى

(١١١) پاوسنياس (٤:١٥:١).

(١١٢) هو الملك السابع عشر لآثينا معاصر الملك الاسرائيلي شاؤول. ضحى نفسه في سبيل بلاده اثناء القتال مع الدوريين والهيرقليديين العام ١٠٧٠ ق.م اذ علم ان النبوءة وعدت بالنصر لاي طرف يسقط قائده قتيلاً وبسبب ذلك عظمه مواطنوه تعظيماً يفوق الوصف حتى اعتبروا ان ليس بعده من يستحق ان ينصب ملكاً فالفوا المنصب ووضعوا السلطة بيد مجلس من الحكام باسم الأراخنة (ج: ارخون) يتم اختيار اعضاءه بالاقتراع كما أختار لرئاسة المجلس (ميدون) أكبر ابناء الملك الصريع. وكان الارخون يحكم طول الحياة في مبداء الأمر وقد تعاقب ثلاثة عشر منهم في ظرف ٣١٦ سنة، وبعد موت (الكيمون) اخرهم جعلت الفترة محدودة بعشر سنين وبقيت منحصرة في اسرة الملك قدروس حتى موت (ارخياس أو ثيسياس) على قول بعضهم وهو السابع في الطبقة الثانية من الحكام الأعلى. وبه ختم حكم اسرة (قدروس) عندها استن الآثينيون مبدأ حكم الأرخون السنوي وصاروا يختارون تسعة بدلاً من واحد سنوياً (سنعود الى شرح ذلك بتفصيل اكثر في حياة صولون). حكم فيديون ما بين ٤٧٦ و ٤٧٥ ق.م.

(١١٣) لا يمكن القبول بهذه الروايات عن (سكيروس) ولا سيما من أولئك الذين يتذكرون بأن (أخيل) كان قد ارسل قبل عصر (كيمون) بسبعة قرون الى بلاط (ليقوميدس) وان سكيروس لقرىها من يوبويا يجب ان تكون ذات علاقات مع بلاد الأغرقيق.

المدينة بلحمه ودمه، حياً. انه اليوم يرقد في وسط المدينة قرب (الجمنازيوم) الحالي^(١١٤). وقبره ملجأ وملاذ للعبيد والفقراء والملهوفين الهاربين من اضطهاد ذوي السلطان. جعل كذلك اعترافاً بسجايا ثيسيوس وغيرته في معاونة المظلومين، ووقايتهم من السوء، وعدم تقاعسه مرة واحدة عن اجارة مستجير او اغاثة مضطهد يلود بحماه. ان أعظم واجل قربان يقدمه له الآثينيون، هو في الثامن من شهر [پيانپسيون Pyanepsion] وهو اليوم الموافق لعودته من كريت مع الشبان الآثينيين. وهم ايضاً يضحون له في اليوم الثامن من كل شهر على مدار السنة، إما لانه كان قد عاد من [طروزين] في الثامن من شهر [هيكاتومبيون] كما ذكر [ديودوروس Diodorus] الجغرافي، وإما لانهم يعتبرون عدد (٨) هو العدد الملائم له، اذ قيل انه ولد (لبنتون) وانهم ليقربون الى نبتون في اليوم الثامن من كل شهر. ورقم ثمانية الذي هو أول مربع لعدد زوجي، ومضاعف اول مربع^(١١٥) يبدو وكأنه شعار قوة جبارة ثابتة لهذا الرب الذي لقب منذ ذلك الحين [اسفاليوس Asphalius] و[غيوخوس Gaeiochus] اي مؤسس الأرض ومثبتها.

(١١٤) يقصد جمنازيوم بطليموس [پاوسنياس ١:١٧:٢].

(١١٥) لمبدء الاعداد المستمد من المصريين القدماء عن طريق فيثاغوراس منزلة عالية جداً عند پلوتارخ.



روملوس

روملوس

ROMULUS

رومولوس

بالغي الطيبة، فزادوا في اكرام السيدة (روما) باطلاق اسمها على المدينة التي كانت هي سبباً في وجودها. ومن هنا جاءت -على ما قيل- العادة الشائعة في روما، وهي ان تحيي النساء الرومانيات ذوي قرياهن وازواجهن بالعناق والقبل، لأن النسوة بعد احراقهن السفن استخدمن هذا الاسلوب من التدليل والتحبب لتهدئة خواطر ازواجهن.

ويقول بعض الكتاب ان [روما] التي أخذت المدينة اسمها منها هي بنت [ايطالوس Ital-us] و[ليوكاريا Leucaria] أو كما يزعم آخرون انها ابنة [تيلافوس Telaphus] ابن هرقل، وقد تزوجت [اينياس Aeneas] أو [اسكانيوس Ascanius] ابن اينياس على حد زعم آخرين. ويحدثنا بعضهم ان [رومانوس Romanus] ابن [أوليسوس Ulysses] و[چيرجه Circe]، هو الذي بناها. ويقول آخرون ان بانيها هو [روموس Romus] ابن [ايماتيون Emathion] الذي ارسله [ديوميديا] من طروادة. ويقول آخرون بل هو [روموس] ملك اللاتين، بناها بعد ان طرد [الترينيين Tyrihenians] (٥) الذين قدموا الى ليديا من تسالي ثم انحدروا الى ايطاليا.

أما الكتاب الذين يجعلون اسم [رومولوس] مصدر اسم المدينة، فهم يختلفون فيما بينهم حول ظروف ولادته. فبعضهم يقول انه ابن اينياس و[دكزيتيا Dexithea] بنت [فورباس Phorbas] وانه وأخوه ريموس حملًا الى ايطاليا في حدثهما. وكانا على صفحة النهر عندما فاضت مياهه وطغت فأغرقت كل المراكب الطافية الا السفينة التي تقلهما، فقد رست بهما برفق على الضفة وكتبت لهما نجاة غير متوقعة. ومن اسميهما جاء اسم الموضع (رومه) ويقول بعضهم ان [روما] هي بنت السيدة الطروادية صاحبة الاقتراح بحرق السفن، تزوجت [لاتينوس] ابن [تيلماخوس Telemachus] وانجبت [رومولوس] ويقول آخرون ان [اميليا Aemilia] بنت [اينياس] و[لافينيا Lavinia] زوجته، ولدته للرب [مارس]. ويتحفاك آخرون بأساطير مماثلة عن اصل الرجل، فعند [طارخيتيوس Tarchetius] ان ملك [ألبا Alba] الذي كان شر الناس وأقساهم ظهر في بيته شيخ غريب خرج من موقد النار على هيئة رجل، وبقي هناك عدة ايام وكان ثم عرافة لـ [تيشيس Tethys] في توسكابا (٦)، استخارها طارخيتيوس في شأنه فكانت النبوءة هي ان تهب عذراء من العذارى نفسها للشبح، وستنجب منه ولداً يكون شأنه عظيماً وبأسه شديداً، ويسمو به جدّه ويرتفع سعوده. فأسر طارخيتيوس

(٥) هو اسم آخر لشعب التوسكان. وهؤلاء هم غير البلاسجي الذين ورد ذكرهم ولم يكونوا مستوطنين أقبلوا من [ليديا] كما يزعم [ديون] بسبب اختلاف لغتهم وعاداتهم ودينهم وقوانينهم.
(٦) ليس ثم نبوءة بخصوص [تيفس] على ان هناك نبوءة حول [ثميس]. وكان مع كارمنتا المنوه بها فيما بعد.

عمن اخذت (روما) (١) اسمها وفي اي ظروف عُرف هذا الاسم المؤثر الشهير على افواه البشر؟ ان الكتاب يختلفون في هذا فبعضهم يرى ان [الپلاسجي Pelasgi] (٢) في اثناء تجوالهم خلال كل العالم المعمور واخضاعهم شعوباً لا تحصى، آثروا الاستقرار هنا، وسميت مدينتهم (روما) (٣) لبأسهم العظيم وقوتهم الحربية. ويزعم آخرون أن زمرة من أهالي (طروادة) تمكنوا من النجاة بعد الاستيلاء على مدينتهم ويسرت الاقدار لهم سفناً ابحروا بها، فدفعت بهم الريح حتى سواحل [توسكانيا] وأرسوا على مقربة من مصب نهر التيبير Tiber. وهناك عقدت نساؤهم المنهوكات المريضات بنوء البحر - عزمهن على احراق السفن (٤) بناءً على اقتراح تقدمت به واحدة منهن اسمها (روما) وهي ذات نسب رفيع وفكر راجح. ففعلن ذلك وثار غضب الرجال اول الأمر، لكنهم اضطروا الى البقاء قرب [پالاتيوم Palatium] وانصلحت امورهم بعد زمن قصير بشكل فاق آمالهم. اذ وجدا الأرض خصبة جداً والمواطنين

(١) من أجل استنادنا الى أقرب تاريخ لظهور صاحب السيرة، علينا أن نفترض العام ٧٥٣ ق.م تاريخاً لتأسيس روما وان نفترض العام ٧١٦ ق.م تاريخاً لوفاة روملوس. وهما حدثان لا يبعدان زمنياً بكثير عن عام الميلاد فأنهما والحالة هذه يحيط بهما الغموض والجهالة، ويراهما بعض من قبيل الرجم بالغيب أو التقدير الفلكي. ويحدد آخرون غموض تاريخ روما بفترة حكم ملوكها السبعة الذين حكموا طوال ٢٢٤ عاماً. وتسلم طبقة ثالثة من المحققين بالقليل المؤكد مما ورد عن اية وقعة خلال القرون الخمسة التي تلت تأسيس روما. وكتاب الاغريق وهم على الأغلب شعراء ومدونو اساطير لم يهتموا بما كان يحصل في ايطاليا. كما ان [نوما] لم يترك لنا شيئاً غير ما يتعلق بالدين أو الفلسفة. ولم يبرز مؤرخو الرومان الى عالم الوجود الا بعد الحرب الفيونانية.

هذا هو الغموض الذي يحف بأصول روما في عهد الاباطرة وشأنها في ذلك شأن معظم المدن والشعوب القديمة الا ان الغموض هنا أكثر وأظهر لأن أول من سكنها لاجئون وخارجون على القانون ينتمون الى شعوب أخرى ولا ينتظر منهم ان يتركوا لنا تاريخاً، الا ان [ليفي] وغيره من مؤرخي اللاتين يتفقون بان روملوس هو باني روما وان المدينة وأهلها اتخذوا لهما اسمه. في حين نرى كبرياء كتاب الاغريق وخیلاهم تدفعانهم الى ان يبنسوا لأنفسهم كل شيء بما في ذلك روما نفسها.

(٢) هؤلاء - واصلهم من اركاديا - هم اول سكان بلاد الاغريق. ومن هناك طردوا فسكانوا (بساليا) وازيخوا الى (پيروس) ثم الى مقدونيا وايطاليا وكريت وآسيا.

(٣) الكلمة تدل على القوة.

(٤) انظر الاينباد [٦٩٩:٦٠٤:٥].

بالنبوءة لأحدى بناته وأشار اليها أن تسلم نفسها للشبح فاستنكرت الأمر وابت وارسلت خادمتها بدلاً عنها، ولما سمع طارخيتيوس بما فعلت استنشأ غضباً وأمر فألقي بالبنات والخادم في السجن وكان ينوي قتلها، إلا أن الربة (نستا) منعت، إذ ظهرت له في الحلم، ففرض عليهما عقوبة: أن يحيكا نسيجاً وهما مكبلتان بالاغلال، فإذا اكملتاها أجزرتا على الزواج بمن يختاره لهما، ولكنه كان يأمر اتباعه ان ينقضوا في الليل ما نسجته في النهار.

وفي غضون ذلك وضعت الحامل وليدين، فسلمهما طارخيتيوس لشخص يدعى [تيراتيوس Teratius] وأمره باهلاكهما، فحملهما ووضعهما قريباً من ضفة النهر. وأقبلت ذئبة وراحت ترضعهما، في حين قدمت طيور مختلفة جاملة بمنقرها قطعاً صغيرة من الطعام لتضعها في فيهما. الى أن لمحهما راعي بقر، فانتابته الدهشة، لكنه تجرأ على الاقتراب منهما ورفعهما الى حضنه، وهكذا كتبت لها النجاة، ولما بلغا اشدهما هاجماً طارخيتيوس وتغلباً عليه هذه الاسطورة يوردها [پروميثيون Promethion] في تاريخ إيطاليا.

إلا أن القصة الأقرب الى التصديق، وهي التي يقرّ بصحتها أكبر عدد من الثقات، كان ديوكليس [الپيپاريثوس Peparuthus] أول من اذاعها بين الأغريق بوقائعها الرئيسية، وجاراه في معظم تفاصيلها [فابيوس پكتور Fabius Pictor] (٧) ايضاً، لكن الروايتين لا تخلوان من اختلاف. إما الشكل العام لهما فهو كما يأتي:

«كان ملوك [إلبا] (٨) يتوارثون الحكم على طريقة التسلسل العمودي، اعتباراً من جدهم الأعلى [اينياس] الى أن رست الخلافة أخيراً على الأخوين [نوميستور Numitor] و[امبوليوس Amulius] (٩)، فاقترح ثانيهما تقسيم الميراث الى قسمين متعادلين (١٠)، وجعلت المملكة معادلة للذهب والكنوز التي جيء بها من طروادة. وأختار [نوميستور] المملكة.

(٧) پيپاريثوس هي مجموعة من الجزء في بحر ايجة. أشتهرت بخمرها. ولا يعرف عن [ديوكليس] شيء اما [فابيوس پكتور] الذي ينعتة [ليفي] «بأقدم الكتاب الرومان» فهو أحد أعضاء الوفد الذي ارسل الى دلفي بعد معركة (كاناي) السيئة الصيت. للسؤال عن الوسائل التي يمكن بها استجلاب رضا الآلهة. وقد اتهمه [پوليبيوس] في حواريته بأنه اساء معاملة القرطاجين.

(٨) بين اينياس حتى نوميستور داميلبيوس ثلاثة عشر ملكاً من السلالة ذاتها إلا اننا نكاد لا نعرف شيئاً عنهم أكثر من اسمائهم وسني حكمهم. وآخرهم (اميلبيوس) الذي فاق اخاه شجاعة وعقلاً طرده من العرش. وقتل ايجستوس ابن نوميستور الوحيد وكرس ابنته (ريا سلفيا) لعبادة فستا ليؤمن بقاءه في السلطة.

(٩) ليفي ١: ٣.

(١٠) لم يذكر [ديون] ١: ٧ عن هذه القسمة شيئاً. ولكنه يذكر بحسب انه اميلبيوس انتزع العرش بالقوة وطرد اخاه ظلماً وعدواناً وهو أحق بالعرش. وايد هذا فقرة اوردها ليفي (٦: ١) ان قال «لما كان ريموس ورومولوس توأمين فليس ثم وسيلة لترجيح احقية احدهما في الحكم على الآخر بمقتضى قانون الأقدمية.

وبحيازة امولبيوس المال والذهب غداً قادراً على أن يفعل كل ما يقصر عنه [نوميستور] وآل به الامر الى انتزاع مملكة اخيه بسهولة. ولخوفه ان تنجب ابنته اولاداً جعلها (قستاله) (*) وبهذا رسم لها ان تعيش عذراء الى الأبد ولا تتزوج. وبعض الكتاب يسمى هذه المرأة [السيدة ايليا Illia] وبعضهم يسميها [ريا Rhea] وآخرون [سلفيا Silvia] وعلى كل حال، فانه لم يمرّ طويل زمن حتى أكتشف انها حامل خلافاً لقوانين القستال الصارمة (١١). ووجب ان يحل بها افطع عقاب. إلا أن [أنثو Antho] بنت الملك تدخلت وتوسطت لها عند ابيها. فأودعت سجناً منفرداً ومنعت من اي رفقة لثلاث تضع وليدها دون علم من الملك. وفي الوقت المحدد لها وضعت وليدين يزيد حجمهما عن حجم الوليد الاعتيادي ويفوقانه جمالاً فزاد هذا في غضب الملك [أمولبيوس] وأمر خادماً أن يحملهما ويغرقهما، هذا الرجل يسميه بعض الكتاب [فاوستولوس] وبعضهم يقول لا بل أن [فاوستولوس] هو الرجل الذي قام على تربيتهما. ووضع الخادم الولدين في صندوق صغير وقصد النهر عازماً على القائهما في مائه. لكنه خشى التقدم منه والقي بهما على الضفة وقفل راجعاً. وكان ماء النهر الفاض يتعالى، حتى بلغ الصندوق. وحملته الامواج وعمّته برفق ولين، حتى انزلته في ارض سهلة متطامنة يطلقون عليها اليوم اسم [جرمانوس Cermanus]، وكان اسمها قبلاً «جرمانوس» ولعلها من كلمة [جرماني Germani] اي الأخوة.

والى جوار هذه الأرض كان يوجد شجرة تين بريّ اطلقوا عليها اسم [روميناليس Ruminant- is] إمّا من [رومولوس] (وهو تعليل ضعيف) وإمّا من [روميناتينغ Ruminant] لأن

(*) عندما اوجد رومولوس شعلة النار الخالدة اوقفت على العناية بها عذارى يسهرن على ابقائها مشتعلة في كل مجتمع روماني وتحول هؤلاء النسوة الى كاهنات لهن حقوق خاصة وعليهن واجبات صارمة وأطلق عليهن اسم عذارى [قستال] نسبة الى ربة النار. وكان في العادة يخترن من بنات اعرق اسر روما وان تتراوح سن الواحدة بين السابعة والثامنة وان تضطلع بتأدية رسالتها ثلاثين عاماً تلتزم خلالها بالصفة، ويحكم سهرهن على النار التي تعتبر اهم رمز للبلاد كن يحيطين من الشعب وحكامه بمركز يقرب من التقديس ويخلع عليهن اعظم الامتيازات وتحجز لهن في الملاعب العامة مقاعد الشرف ويتقدم مواكبهن ضباط الحرس. واذا صادفن مجرماً يساق للموت فبإمكانهن اطلاق سراحه حالاً. وبمقابل ذلك يخضعن الى قوانين صارمة فاذا اهلن النار وانطفأت جلدن بلا رحمة واذا فرطن في عفافهن يرحمن بالحجارة في عهد [نوما]، ثم وجد هذا العقاب غير كاف فصرن يجلدن أولاً ثم يدفن أحياناً بعد ان يترك في قبورهن مقدار من الطعام ويسجل التاريخ ان ثمانية عشر منهن لقين حتفهن على هذه الشاكلة. وبسبب ذلك لم يسمح الاباء لبناتهن بالانخراط في هذا السلك وبعد ان كان الاختيار قاصراً على أعرق الأسر سمح لبنات الطبقة المتوسطة والعيبد المعوقين وأبطل هذا كله الامبراطور ثيوروسيوس المسيحي بعد تغلبه على خصمه اوجينيوس الوثني في العام ٢٩٤م وأصدر أمراً بالغاء كل المعابد وبضمنها معبد قستا. واطفاء النار فيه. (١١) ليفي ١: ٤ و ١-٥.

الماشية تستظل بفيئها عادة وتقصدها تخلصاً من حرارة النهار لاجترار طعامها، والتعليل الأقرب من هذا انها جاءت من عملية ارضاع الطفلين هناك، لأن القدماء يطلقون كلمة [روما] على التناقم الثدي، او الإرضاع، وهناك ربّة مختصة برعاية الاطفال وتربيتهم ما زالوا يسمونها [روميليا]^(١٢) وهم لا يستخدمون خمراً في التقريب اليها^(١٣)، وانما يستعيضون عنه بالحليب. والتاريخ يحدثنا ان ذئبة ارضعتهم^(١٤) طوال وجودهما هناك، وان طير نقار الخشب كان يزودهما بالطعام بصورة مستمرة ويتولى حراستهما، ومنزلة الذئبة والطير مقدسة عند الرب [مارس]، واللّاتين مازالوا يعبدون هذا الطائر ويكرمونه اكراماً خاصاً دون باقي الطيور. وهذه دلائل تقف في مقدمة الأسباب التي تدعم ما قالته والدّة الطفلين، ان اباهما هو الربّ [مارس] نفسه وان قال بعضهم انه وهم اوقعها فيه [اميلوس] الذي أتاها هو بنفسه ليلاً مرتدياً دروعه وسلاحه. ويظن آخرون ان اول ظهور لهذه الأسطورة جاء من اسم مريض الطفلين ويتضمن معنى مزدوجاً فاللاتين لا يقتصرون على تسمية الذئب بـ(لوبي lupae) وانما يطلقون الكلمة نفسها على العاهرات. وكانت زوج فاوستولوس (أكا لارنتيا Acca La- rentia) التي ربتهما، امرأة قليلة التمسك بالعقّة. ويقدم لها الرومان عدة قربانين. ويقوم كاهن الرب مارس بارساله القربانين هناك في شهر نيسان بمناسبة العيد اللارنتي.

كذلك يكرمون [لارنتيا]^(١٥) أخرى للسبب التالي: لم يدر حارس معبد هرقل كيف يقضي وقت فراغه الكثير، فأقترح علي ربّ معبده لعبة نرد على رهان: إن غلب الحارس اخذ شيئاً ثميناً من الرب وإنه غلب الرب، يتعهد الحارس أن يبسط له مائدة حافلة بانفس الطعام ويؤمن له رفقة امرأة جميلة. ثم القى بالنرد نيابة عن الرب، ثم القاه لنفسه فكان الرب هو الرايح. ولاعتقاده انه مرتبط بعهد يجب الوفاء به، أدب للرب عشاءً فخماً ودفع مالاً [للارنتيا] وكانت في عزّ جمالها وان لم تشتهر بعد^(١٦) - وجاء بها الى المأدبة في المعبد وبسط فراشاً وبعد ختام العشاء خرج وأغلق الباب عليها، كان الرب سيّطاً حقاً. وقيل انه جاءها فعلاً

(١٢) ليقي: «الرومان لا يسمون تلك الربّة [روميليا] وانما [رومينيا]» على ان كتاباً آخرين يرفضون اشتقاقاً كهذا كما يرفضون اسطورة الذئبة ويرونها من قبيل التلفيق والتصنيع. ويرون أن احتمال الألب هو أن المدينة أخذت اسمها من (رومون) وهم أسم نهر التّيبير الأول.

(١٣) لأنها كانت ضارة في تلك الفترة من عمر الطفل.

(١٤) ليقي ج ٤:١ و ٧-٦.

(١٥) هذه المرأة حسب قول [م. ريكارد] يجب ان تدعى [إكّا] رونيتا نسبة الى معاشرها. والمفروض ان يكون شأنها شأن [فلور] التي أوقفت ثروتها التي جمعتها من حياة الفسق والفجور على الشعب الروماني. فكّرمت مقابل ذلك باحياء العاب سميت باسمها وهي العاب يشوبها التخلل والاباحية.

(١٦) في كتابه عن [الاخلاق] يقول بلوتارخ انها كانت تعرف (بالعاهرة الشعبية).

وامرّها ان تنزل الى السوق صباح اليوم التالي وتسير الهوبنا وتحّي أول رجل تلقاه وتتخذة خليلاً. ففعلت ولقيت رجلاً يدعى [تاروتوس Tarrutius] وكان متقدماً في السن طائل الغنى أعزب بلا عقب، فضّم [لارنتيا] اليه وعلق بحبها وترك لها عند وفاته كل ثروته وجعلها وارثته الوحيدة في كل ممتلكاته الواسعة فكتبت وصيّة موثقة أوقفت بموجبها معظم الثروة على النفع العام. وذكر انها أختفت فجأة بالقرب من الموضع الذي يضمّ بقايا [لارنتيا] الأولى، ذلك لأنها اشتهرت وذاع صيتها لكونها محظية الربّ. والبقعة تسمى [فيلابروم Velabrum] الى يومنا هذا لأن النهر كثيراً ما يفيض ماؤه فيضطر الناس القادمون الى [الفورم Forum] من المحلات المجاورة، الى ركوب الزوارق والأطواف. والكلمة اللاتينية لفعل التنقل بالطوف هي [فيلاتورا Velatura]^(١٧). ويشتق آخرون الاسم من [فيلوم Ve-lum] اي شرّاع، لان متعهدي حفلات الملاعب العامة اعتادوا ان يعلقوا شرعةً على طول الشارع المؤدي الى الملعب الاكبر [سركس ماكسيموس Circus Maximus] ابتداءً من الفورم حتى هذه البقعة. ولهذه الأسباب تكرّم [لارنتيا] الثانية في روما.

قام [فاوستولوس] راعي خنازير امولوس بتربية الاخوين سراً: ويقول آخرون^(١٨) علم بتلك من الاول وكان يدخلنهم ويساعدهم دون ان يدري به احد. وقيل ايضاً انها ارسلت الى [غابي Gabii]^(١٩) للدراسة وبرزت في الاداب وغيرها من فنون الثقافة مما يليق بارومتها. وانهما سميا [رومولوس وريموس] من [روما Roma أي الرضع] لأنهما وجدوا وهما يرضعان من أئداء الذئبة على ما تقدم بيانه. وكانت ضخامة جسديهما وجمالهما منذ الحداثة مناسبين لتفوقهما الطبيعي، ولما بلغا أشدهما اثبت مدى شجاعتهما ورجولتهما بمعاناتهما أخطر المغامرات والمهالك. وكان يبدو ان [رومولوس] كثير الثروي لا يقدم على شيء قبل التفكير فيه، وان له حكمة رجال السياسة والحكم، وكان يبدو وكأنه خلق ليلقي بالأوامر لا ليتلقاها في كل علاقاته مع المجاورين سواء مايتعلق منها برعي الحيوانات أو الصيد ولذلك تعلق

(١٧) ايد هذا الأصل اللغوي (فارو de L. L. Varro = 4-7) الذي يشتق كلمة Velabrum من Velo بوصفها مختصر Vehelabrum أو الاستنتاج الثاني يرى انه مشتق من Velum فهو خطأ لاشك فيه. فالعادة المشار اليها [نشر خيمة في الحفلات العامة] بدأت قبل تاريخ وجود اسم [فيلابروم] وقت قيام (كاتولوس) بتكريس الكابيتول [بليبي: التاريخ الطبيعي ١:١٩].

(١٨) ربما أحيا هذا أمل نوميستور في العودة الى الحكم. على ان معرفته بالموضع الذي كان الطفلان فيه يتلقيان علومهما، وامدادها باسباب العيش يتناقض تماماً والطريقة التي ادت الى اكتشافهما عندما بلغا اشدهما وهذا اهم جزء من الرواية.

(١٩) احدي اقدم المستعمرات الألبانية تبعد باثني عشر ميلاً الى جنوب شرقي روما ويقول [ديون الهيلكارناسوسي] ١:١٩٠ انهما درسنا هناك الاداب اليونانية وفن الخطابة والتدرب على استخدام السلاح.

بحبهما رفاقهما واتباعهما. وكانا يحتقران ويزدربان خدم الملك ووكلاءه وحجابه، ولا يجدان اي ميزة يمتازون بها عليهما، ولا يهتمان قلامة ظفر باوامرهم وتهديدهم. وكانا يقضيان أوقاتهما في المفيد من الأعمال والدرس الكثير، ولم يجدا في الكسل والتعطل فائداً او فضيلة، وانصرفا الى مختلف الرياضات كالعدو والقتص ومطاردة قطاع الطرق، والقبض على اللصوص، وانقاذ المضطهدين والمظلومين من الأذى وبسبب مآثرهما هذه اشتهر أمرهما.

نشأ خصام بين رعاة ابقار [نوميستور واملوريوس] ولم يحتمل الأخوان رعاة الأخير وضبط مواشيهم باعتداء رعاة الاول منهما فحملوا عليهم واجبروهم على الهزيمة واستعادوا القسم الاكبر من الغنيمة، فغضب [نوميستور] غضباً شديداً، فلم يبالوا به وكانت الخطوة الاولى التي أقدموا عليها بهذه المناسبة ضمها الى زمرتها عدداً من العبيد الآبقين والفقراء المدقعين - وهو عمل يعادل المرحلة الأولى للعصيان والثورة. واتفق أن [رومولوس] الشديد التمسك بفرائضه الدينية كان يقدم قرباناً، عندما التقى رعاة [نوميستور] بأخيه [ريموس] وهو مع قلة من أصحابه يقومون برحلة، فهاجموه ودار قتال بينهم واخذوه أسيراً وجاءوا به الى [نوميستور] وكالوا له التهم جزافاً، لكن [نوميستور] لم يشأ معاقبته بنفسه خشية ان يثير غضب أخيه امولوريوس المعروف بقسوته الشديدة، واتصل به وطلب منه ان يأخذ بيده أمر تطبيق العدالة بوصفه أخاً اهانه رعايا خدمه. على ان اهل [ألبا] كانوا ناقلين على عمل خدم امولوريوس، كما كانوا يعتقدون ان [نوميستور] قد عومل معاملة غير طيبة. وهكذا اضطر أميلوريوس الى إبقاء [ريموس] بيد نوميستور ليعمل به ما يحلو له، فجاء به هذا الى دياره وتزايد إعجابه بشخصية الفتى وجمال أعضائه وقوة جسمه التي لا مثيل لها بين الرجال. وتبين من وجهه آيات الشجاعة ومضاء العقل. وهي سجايا بقيت شامخة غير متصاغرة رغم الظرف العصيب الذي يعانیه صاحبها. ثم بلغت انباء كل المغامرات والمآثر التي اقدم عليها، وكلها دلائل على ما توسمه فيه. ولاسيما القوة الالهية التي تقود اولي الخطى إلى اعظم المصائر. وتمكن [نوميستور] من وضع يده على الحقيقة باطاعته فكرة عابرة خطرت بباله عرضاً فدفعته الى سؤاله بلهجة رفيقة عمن يكون؟ ومن اين جاء؟ فتشجع [ريموس] واجاب قائلاً «لن أخفي عنك شيئاً، اذ يظهر لي ان طبعك اقرب الى طبع الملوك من امولوريوس، لانك سمحت بالتحقيق في امري وفحص قضيتي قبل ان تفرض عقاباً علي^(٢٠)»، في حين ان اخاك يعاقب قبل أن

(٢٠) البيتان التاليان للشاعر الروماني فرجيل [١٩-٧٠ ق.م: الايناياد الكتاب السادس: ٥٦٦] وفيهما يصف محكمة قاضي جهنم فيقول: «يعاقب أولاً، ثم يسمع الدفاع. وبالأخير يرغم المتهم على الاعتراف. ويفسر القانون ويصوره بالشكل الذي يحلو له». - Gmosius hoe shadanthus habet durissima regna Casti-gatque, auditque dolos, subigi it que fateri

يعرف كنه المسألة. كُنَّا في السابق نعتقد نحن التسوامين، بأننا ابنان [لفاوستولوس] و[لارنتيا] خادمي الملك، ولكن منذ ان الصقت بنا التهم واكتفتنا النوائب وحاقت الأخطار بحياتنا هنا امامك - ونحن نسمع اشياء كثيرة عن انفسنا، ومما يشهد بهذه الحقيقة الخطر الحالي المحقق بنا الآن^(٢١). قيل ان مولدنا يكتنفه الغموض والسرّ، واغرب منه تربيتنا منذ الحداثة، فالطيور والوحوش التي القينا بينها هي التي اطعمتنا فاغتنمنا بحليب الذئبة وبلقيمات طائر نقار الخشب، ونحن مُضجعون في صندوق صغير ملقى على ضفة النهر ان الصندوق مازال موجوداً كما خلفناه وهو مصفح برقائ من نحاس عليها كتابة كادت حروفها تمّحي. وهذه كلها تذكارات حقيقية لأبويننا بعد أن نموت ونغادر الدنيا». وبعد ان تأمل [نوميستور] بهذه الأقوال، وبحسابه التواريخ ومقارنتها بمظهر سنّ الشاب، لم يضعف الأمل الذي راوده، بل أخذ يفكر كيف يتصل بابنته سرّاً ويحادثها عن هذه الأمور، لأنها مازالت رهن السجن.

ولما سمع [فاوستولوس] نبأ القبض على [ريموس] وتسليمه الى [نوميستور] استنجد برومولوس لانقاذه. وصارحه في تلك الساعة بتفاصيل سرّ ولادتهما وان كان قبل هذا قد ابدى له تلميحات عنها وكشف ما يكفي الذكي السريع الخاطر للاستنتاج الكثير، ودفعه الخوف والقلق من تأخره في العودة الى ان يحمل الصندوق ويسرع به الى [نوميستور] في الحال. إلا ان بعض حراس الملك شكوا في أمره ونظروا اليه بعين الريبة. واريكته اسئلتهم، فلم يسعه إلا ان يكشف عن الصندوق المخبأ تحت عباة، واتفق ان كان بين الحراس شخص من الاشخاص الذين شاهدوا القاء الطفلين^(٢٢)، فعرف الصندوق من شكله ونقشه الكتابي. وادرك الغرض حالاً فأسرع الى الملك وأخبره بالحقيقة فأدخل فاوستولوس لانتزاع الحقيقة منه، ولم يكن ليحتاج الى جلد، ولم يكن بالرجل الذي يصمد أم التهديد كما لم يلق عنقاً أو اكرهاً فاعترف بان الطفلين هما في قيد الحياة يعيشان في مكان يبعد كثيراً عن البيا، ويمتهنان الرعي. وانه قصد اخذ الصندوق الى [إيليا] التي طالما اشتاقت الى رؤيته ولمسه بيدها، ليتأيد لها ان

(٢١) لايد وانهما سمعا حكاية غامضة عن كيفية بقائهما العجيب في قدر الحياة زمان الطفولة. ولهذا استنتج (ريموس) بطبيعة الحال ان الارباب الذين رعايها هكذا، سينقذونه من الخطر الحالي في حالة ما كانت قصة طفولتهما حقيقية.

(٢٢) يبدو هذا مناقضاً لما ذكره بلوتارخ في الاول ان أفاد انه يكن ثم غير خادم واحد هو (فاوستولوس) الذي استخدم في هذه المهمة الغربية على ان [ديون الهالكارناسوسي] يصرح بغير لبس بان عدداً من الخدم قد شاركوا في العمل.

طفلها على قيد الحياة. وفي تلك الاثناء انتاب [اموليوس] ما ينتاب المضطربين عقلياً فيعلمون إما بدافع من خوفٍ وإما بدافع من ثورة عاطفية، فأسرع يرسل الى [نوميتورا] رسولاً تربطه به صداقة متينة وزوده بأوامر تقضي أن يعلم من أخيه عن وصول ما يؤيد وجود الطفلين على قيد الحياة^(٢٣). فجاء الرسول وشاهد بأمر عينه كم كان [ريموس] قليل الرغبة في ان يحضنه [نوميتورا] ويضمه الى كنفه. وهذا ما جعله أكثر ثقة في نجاح مهمته ومسعاها فنصحهما بمباشرة العمل وعرض عليهما معاونته. ولم يكن الوقت يسمح لهما بالتردد لو شاء ان رومولوس كان قد اقترب كثيراً بقوة عظيمة، وراح المواطنون ينضون تحت لوائه سراعاً بدافع الكره والخوف من [اموليوس] وقسم [رومولوس] قواته الى سرايا، الواحدة منها تعدد مائة رجل. وكان كل أمر سرية يحمل قطباً خشبياً شديداً فوقه حزمة من العشب الصغير واللاتين يظلقون على هذه الحزم [مانيسپولي Manipuli] ومن هذا جاءت تسميتهم [مانيسبولارس Manipulares] لقادة جيوشهم واخذ [ريموس] يثير الناس ويحرضهم على الثورة من الداخل، وشرع يهاجم من الخارج ولم يدر الطاغية ماذا يصنع واي حيلة يحتال لسلامته حتى قبض عليه وهو في حيرته وقتل.

إن معظم تفاصيل هذه الرواية التي اوردها [فابيوس، وديوكليس البيپاريثوسي] وهما على ما يبدو أول من ارتخا تأسيس روما، مشكوك فيها بسبب ما يحيط بها من خيال ومبالغة، لكن ينبغي الا ننبذها بكاملها. لو تذكر الناس الى اي حد من الخيال يسمو اليه الشاعر احياناً واذا ما فكر بأن العظمة الرومانية ما كان يتسنى لها أن تبلغ هذه الذروة دون ان يكون للمشيشة الالهية ارادة فيها. ولو لم تساعدها ظروف عجيبة فائقة للعادة.

بعد ان هلك [اموليوس] وعادت الأمور الى الاستقرار والهدوء، لم يشأ الاخوان البقاء في (البا) دون ان يكونا حاكيمها، ولا أن يستوليا على الحكم وجدهما في قيد الحياة. فسلما مقاليد الأمور اليه، وكرما والدتهما الإكرام اللائق، وقررا الذهاب والعيش وحدهما وبناء مدينة في الموضع الذي تركاه وعاشا وهما طفلان. وكان هذا أشرف سبب لرحيلهما، وهو يبدو ضرورة لا سبيل لها الى دفعها بسبب التفاف جموع غفيرة من العبيد واللاجئين حولهما فوجدا ان أمامها سبيلين لا ثالث لهما، إما أن يفرقا الجموع الملتفة ويعودا كما كانا قبلاً، وإما أن يأخذوها للعيش معاً في بقاع أخرى، إن أهالي [البا] لم يرغبوا في ضم هؤلاء اليهم والاختلاط بهم، وبدت نيتهم هذه في قضية خطف النساء وهو عمل لم يأت به هؤلاء بدافع

(٢٣) ما يعزو پلوتارخ الى (اميليوس) من موقف، لا يمكن ان يقبله العقل والمنطق لاسيما اذا قارناه بالحكاية التي اوردها [ديون: المرجع السالف] بهذا الشأن.

الشهوة، بل بحكم الضرورة والحاجة، اذ لم يكن في مقدورهم الحصول على زوجات طوعاً. وهذا ما أثبتته الوقائع، فقد أظهروا للنسوة اللاتي خطفوهن اشد الرعاية وأعظم الاحترام والتجلة.

لم يمرّ طويل زمنٍ على انشاء المدينة حتى اقاموا ملجأ يلوذ اليه اللاجئون واسموه معبد الرب [آسبلاؤوس Asylaesus]^(٢٤) وكانوا يبسطون حمايتهم على كل قادم ولا يردون مستجيراً قط، لا خادماً الى سيده ولا مديناً الى دائته ولا قاتلاً الى قاضيه متعللين بقولهم ان هذه البقعة اصطفتها الالهة، ولذلك يمكنهم المحافظة على اللاجي ء بقوة النبوءة. وغدت المدينة مكتظة بالسكان^(٢٥)، ولم تكن تحوي في مبدأ امرها غير الف بيت على ما قيل... إلا ان هذا سيكون موضوع حديثٍ تالٍ وانصرفوا الى البناء انصرفاً كلياً، وما لبث أن ظهر شيء من الخلاف حول اختيار المواقع. تخير رومولوس ما يسمى الآن [روما كوادراتا] اي روما الربعة وأصر ان يكون موضع اقامة المدينة وحدد [ريموس] مساحة من الأرض على جبل [آفتنين Aventine] حصنته الطبيعة خير تحصين وأطلق عليه [ريمونيوم Remoniuam] تميئاً باسمه إلا ان اسمه الحالي [ريجنايوم Rignarium]^(٢٦) واستقر الرأي أخيراً ان يحسما خلافهما باستخارة الطير وهي سانحة وبارحة^(٢٧)، فوقفوا في موضعين متباعدين. وقيل ان [ريموس] شاهد ستة من النسور وان رومولوس شاهد ضعف هذا العدد، وقال آخرون ان ريموس كان صادقاً في عدده، لكن [رومولوس] كذب في عدد ما شاهد منها، إلا ان العدد اصبح اثني عشر عندما وصل ريموس اليه. ومن هنا جاءت عادة الرومان في مراقبتهم النسور أكثر من سواها عند استخارة الطير.

وروى [هيرودورس پونتيكوس] ان هرقل كان يستبشر كثيراً عندما يسبح له الطائر وهو يهتم بعمل ما. لأن النسور هو أقل الحيوانات اذى لا يقرب الزرع النبات، ولا ثمار الشجر ولا

(٢٤) لا يعرف على وجه التحديد من يكون ربّ اللاجئین هذا. فبعض الشراح ومنهم [داسيه] يقول انه [اپوللو] امّا [ديون] فيخبرنا بأن الموضع الذي كان يقوم عليه الملجأ في زمانه، قد كرس (لجوبيتر). في مبداء الأمر لم يقبل رومولوس بدخول الملتجئين والخارجين على القانون. إلا انه اعطاهم مرتفع (ساتورينوس) الذي سمي فيما بعد كاپيتولينوس ليتخذوه مسكناً. [ليفي ج ٨:١ و ٥].

(٢٥) معظم الطرواديين (ولم يكونوا يزيديون عن خمسين أسرة زمن أغسطس) اختاروا أن يربطوا مصائرهم بمصائر الأخوين كما حذا حذوهم سكان پلانتينوم وساتورينا وهما قصبستان جوار [البا].

(٢٦) لا نجد ذكراً للاسمين اللذين وردا هنا عند اي مؤرخ أو كاتب ويذكر (فستوس) ان قمة جبل [آفتنين] كانت تدعى [ريموريا] منذ ان عزم [ريموس] على بناء المدينة هناك. إلا ان [ديون] يتكلم عن جبل [آفتنين]

وعن [ريموريا] أنهما محلان مختلفان. ويزعم [ستتانس] ان [ريموريا] هي بلدة قريبة من روما.

(٢٧) ليفي ج ٧:١، ١٢.

الماشية وهو يقتات ابدأ على الجيف والرخم. ولايفترس ولايؤذي كائناً حياً، واما عن بني جنسه الطير، فهو لايمسّ أحداً منها ولو كانت ميّسة، وكأنا هي من فصيلته^(٢٨)، في حين ترى العقبان والبومة والصقور تأكل وتقتل بعضها بعضاً او كما يقول اسخيلوس^(٢٩): «اي من الطير يكون طاهراً اذا ما افترس من بني جنسه؟».

زد على هذا ان سائر اجناس الطير الأخرى كثيرة الملازمة لنا لا تغيب عن انظارنا ولكن النسور قليلاً ما تعرض نفسها للرؤية. ويندر ان تجد رجلاً رأى صغار هذا الطائر، وندرتهما وقلة ظهورها ادّى ببعضهم الى القول أنها تأتي من عالم ثانٍ مجهول، مثلما يعزو الدجالون اصلاً لكل الاشياء التي تكون الطبيعة ولا هم مصدرها.

عندما انكشف الغش لريموس استنشاط غيظاً^(٣٠). وبينما كان رومولوس يروم الخندق المقرر ان يكون فوقه اساس سور المدينة، تعتمد احداث خلل في جانب من العمل وعوق آخرين، وأخيراً بينما كان ينطّ فوقه مستهتراً مستخفاً، قيل ان رومولوس فتك به^(٣١)، وقيل لا بل سيلير Celer أحد اصحابه هو الفاتك، فخرّ صريعاً وحدث اشتباك قتل فيه [فاوستولوس] و[پلستينوس Plinius] الذي عاون على تربية [رومولوس] وهو أحمّ لفواستولوس كما ورد في الحكاية. وعلى أثر ذلك هرب [سيلير] الى توسكانيا، والرومان يطلقون اسمه [سيليرس]. على أسرع العدائين. وقد لقب [كوينتوس ميتلوس Quintus Metellus] «سيلير» لأنه هياً بمناسبة تشييع جثمان ابيه عرضاً عاماً للمصارعين - في غضون ايام قليلة، فكانت سرعته مصدر عجب.

بعد ان دفن رومولوس اخاه مع ابويه بالتبني في جبل [ريمونيا Remonia] باشر في بناء

(٢٨) لا نعتقد ان دارسي طبائع هذا الحيوان يوافقون پلوتارخ على رأيه هذا. فمع ان الجبن والخوف يذفعان النسور على تفضيل الجيف إلا أنّ طباع الضواري فيها تدفعها أحياناً الى مطاردة الأحياء من الحيوان. هذا الى أن ندرة هذه الطيور الجارحة هو برهان آخر يعزّز اقتناع هذه القصة الى الصحة.

(٢٩) «المتضرعون» ٢٢٦.

(٣٠) ليقى ج ١، ٢٠٧.

(٣١) اختلف الشقيقان حول موضع المدينة الجديدة. فأحالا الأمر الى جدّهما فنصح بأن يستخيرا. فكانت النتيجة لصالح [رومولوس] وقرر أن تكون هضبة (پالاتينا) موقعاً للبناء. وانقسم البناؤون الى فريقين مختلفي الرأي عندها ففز [ريموس] من فوق الى الخندق وهو يقول ساخراً: «هكذا سيقفز العدو من فوقه» وهنا اصابه (چيلير) بضربة قاتلة وهو يقول «وهكذا سيصد ابناء مدينتنا صولة العدو». وتقول المصادر ان (رومولوس) حزن حزناً شديداً على شقيقه وكاد يبيع نفسه لو لم تحل [لارنسيا] دون ذلك. ويقول [ديون] ان الرومان قفزوا من فوق الجدار عندما تمّ بناؤه في حين ان ذلك يشير بالتأكيد الى الخطّ الدائري الذي احترفوا ليس إلا نجد پلوتارخ هنا يخلط بين قصتي موت (ريموس) اللتين اوردهما (ليقي) بشكل منفصل وان ذكر ان قصة موته بيد (رومولوس) اثناء نشوب القتال هي الأرجح والاكثر شيوعاً.

المدينة وبعث يطلب من توسكانيا^(٣٢) رجلاً يرشدونه على اسس من الطقوس المقدسة والشرائع المدونة، الى المراسم التي ينبغي مراعاتها، والأحكام الدينية التي يجب اتباعها. فقاموا أولاً بحفر خندق مستدير حول ما هو الآن [الكوميسيوم]^(٣٣) وساحة الاجتماع وفيها القوا باحتفال مهيب اول ثمار كل الاشياء التي هي إما جيدة بحكم العادة، او ضرورية بحكم الطبيعة وأخيراً تناول كل رجل قطعة صغيرة من تربة ارضه والقيت دفعة واحدة^(٣٤) وأطلقوا على هذا الغور اثناء قيامهم بذلك اسم (موندس Mondus) اي السماء وبعد أن جعلوه مركزاً؛ خططوا حدود المدينة دائرةً حوله ثم ركب المؤسس شفرة نحاسية في رأس محراث وربط في نير واحد ثوراً وبقرة^(٣٥) وساقهما بنفسه وشقّ خطاً عميقاً حول تلك الحدود، وكان واجب الذين يتبعونه ملاحظة كل التراب الذي ينقلب الى الجانب الخارجي وردّه الى الداخل نحو المدينة وعدم ترك اي قطعة منه خارجها. وبهذا الخط رسموا مكان السور، وسموه اختصاراً [پوموريوم]^(٣٦): أعني پوستموروم Postmorum أي ما بعد السور، أو ما يليه. وفي المواضع التي تقرر احداث ابواب المدينة رفعوا الشفرة النحاسية من رأس المحراث وساقوا الفدان بدونها تاركين فسحة غير مشقوقة. اذ لو اعتبروها مقدسة أيضاً، لما تمكنوا من السماح بدخول وخروج ضروريات الحياة منها واليها بحرية، وبعض هذه الضروريات غير طاهرة بذاتها. والآن سقطوا في الخطيئة.

واما عن اليوم الذي بوشر فيه ببناء المدينة فهناك إجماع بين الكتاب، وهو اليوم الحادي والعشرين من نيسان الذي يقده الرومان في كل سنة ويطلقون عليه اسم «يوم ميلاد

(٣٢) يخبرنا [قستوس] ان للتروسكانيين تقليداً حول ما يجب اتباعه في مراسم عند بناء المدن والهيكل والاسوار والابواب. وهم يطلبون ارشادهم الى نوع الطقوس التي يجب مباشرتها من نبوءة (تاكيس) الذي قيل ان (عطارد) كان معلمه.

(٣٣) هي ساحة مجاورة للفورم. فيها تعقد الاجتماعات العامة. والموندوس اي مركز العرافة في المدينة هو مما يلي پالاتينا - انظر ما بعده.

(٣٤) (اوڤيد) لا يقول انها حفنة تراب جاء بها كل من بلده، بل حفنة تراب جاء بها كل واحد من عند جاره. وهي اشارة الى ان روما لن تلبث أن تخضع لحكمها الشعوب المجاورة لها. الا ان [ايسيدورس ٢:٢٥] يرى ان القاهم أولى الثمار مع حفنة تراب في الخندق إنما يقصد منها تذكير رؤوساء المستوطنات بان اول واجب هؤلاء هو توفير كل اطيب الحياة لابناء وطنهم والمحافظة على الاتحاد والسلام بين اقوام يتقاطرون من مختلف ارجاء العالم ليصيروا كتلة واحدة وعصبة لا تنفصم عراها.

(٣٥) اشارة الى الخصوبة. واما ردّ التراب الى الداخل المدينة فيعني ان المدينة ستبقى خالدة ولن يحلّ بها الخراب.

(٣٦) أو پوميريوم أو موروم، وتعني استناداً الى ليقى. فسحة غير مسكونة بين السور وبين أقرب البيوت في الداخل. عرضها مساوٍ لتلك الفسحة التي تترك خارج السور. ويحرم زراعتها بحكم القانون.

ميلاده فكان في الحادي والعشرين من [توث Toth] = ايلول في حوالي شروق الشمس، وكان أول صخرة وضعها في بنيان روما - اليوم التاسع من شهر [فارموتشي Pharmuthi] = نيسان : بين الساعة الثانية والثالثة منه. هؤلاء المنجمون يرون ان لطالع المدن اوقاتها الثابتة المعينة كما كان الشأن في طالع الناس، ويكون بالامكان جمعها والتنبؤ بها من مواضع النجوم وارصادها ومعرفة ما يتعلق بها منذ زمن بنائها... لكن هذا البحث واشباهه قد لاتلذ القاريء طرفتها وغرابتها قدر ما تضجره بخيالها ومبالغاتها.

بعد ان بنيت المدينة قام رومولوس باحصاء كل القادرين على حمل السلاح وتنظيمهم في كتائب عسكرية كل كتيبة تضم ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس^(٤٣)، وأطلق على الكتيبة [ليجيون Legion] لأنها كانت تتألف من الصفوة المنتخبة من أشد المحاربين. وسمى باقي الشعب [بالعامية]. وانتخب مائة من ابرزهم ليكونوا مستشارين وسماهم [پاتريشيان: آباء] Patricians^(٤٤) وأطلق على مجلسهم [سنات (مجلس الشيوخ) Senate]. وقال بعضهم ان الپاتريشيان سمو هكذا لكونهم اباة لابناء شرعيين. وقال آخرون لا بل لكونهم قدموا الدلائل القوية على ان آباءهم ليسوا من الخليط المجهول، والصعاليك الذين تدفقوا الى المدينة^(٤٥) في اول أمرها، ولم يكن بإمكانهم اثبات بنوتهم وأنسابهم. وزعم آخرون ان الصفة جاءت من [الحماية] وهي اللفظة التي يطلقونها على «عمل حماية الضعيف»، ويردون أصلها الى [پاترون Patron] وهو اسم احد أولئك الذين جاؤوا مع [ايغاندر Evander] اعظم محام ومدافع عن الضعفاء والمضطهدين. ولعل اقرب التعاليل احتمالاً هو الآتي: لما رأى رومولوس ان الواجب الأساسي لأغنى الناس هو الرعاية الأبوية والاهتمام بشؤون افقرهم، وان من واجب العامة ألا يكرهوا أو يترددوا في تكريم سادتهم بل لن يحبوهم ويحترمهم وان يعتبروهم اباة لهم وينادوهم بهذا اللقب، فقد إرتأى ان يطلق عليهم اسم [پاتريشيان]. بينما كانت الاقطار

(٤٣) وبمقابل هذا يعلمنا [ديون] بأن المستوطنة كلها كانت تضم (٣٢٠٠) رجل وان [روموس] قسمهم الى ثلاثة اقسام متساوية وأطلق على كل قسم اسم (قبيلة) أو (ثلاث) يقوم على رأس كل قائد Prefect أو تريبيون Tribune. وقسمت القبيلة الواحدة الى عشر أفخاذ (كيورائي Curiae) ان عدد البيوت أو الاكواخ الذي لم يكن يتعدى الألف الواحدة يقوم دليلاً على زعم (ديونسيوس) هذا. إلا ان الصعاليك الذين دخلوا لاجئين واستؤمنوا والذين قد يكونون كثيرون العدد على ما يحتمل - لم يحسبوا مع المستوطنين الاصليين وان منحوا فيما بعد حق المواطنة.

(٤٤) الملك لا يختار هؤلاء الرجال المائة. بل تقوم كل قبيلة باختيار ثلاثة شيوخ، ويقوم كل كيوربي من الثلاثين باختيار عدد مماثل فيكون المجموع (٩٩) ولم يعين (روموس) إلا الشيخ المائة وهو رئيس او أمير مجلس الشيوخ والحاكم الأعلى للمدينة عند غياب الملك في حملة عسكرية.

(٤٥) انظر رأياً مختلفاً لديون الهيكارناسوسي. (٤:٢) وأنظر ليقي أيضاً.

الوطن»، وقيل انهم لم يكونوا في مبدأ الأمر يضحون في هذا اليوم بالذبايح، اذ وجدوا هذا اليوم الذي ولد منه وظنهم جديراً بالبقاء طاهراً لا تشينه قطرة دم واحدة، غير انه كان يوجد قبل انشاء المدينة عيد للرعاة وأصحاب المواشي يحتفل به في مثل هذا اليوم ويدعى (پاليليا Palilia)^(٣٧) ان الاشهر اليونانية والرومانية تكاد لا تتفق فيما بينها قط. والمقول الشائع ان اليوم الذي شرع فيه رومولوس بالبناء هو الثالث عشر من الشهر بالتأكيد وقد صادف فيه كسوف شمسي^(٣٨). وذكرنا ان [انتيماخوس Antimachus] الشاعر التياني Teian شاهده وكان ذلك في السنة الثالثة من الاولمبياد السادس^(٣٩). كان للفيلسوف [فارو Varro] المطلع اطلاعاً عميقاً على التاريخ الروماني صديق اسمه [طاروطيوس Tarrutius]^(٤٠) الذي كان الى جانب معرفته بالفلسفة والرياضيات قد درس طرق استخراج الطوالع والأزياج الفلكية لمجرد حب الاطلاع واشتهر بتبحره في هذه الصناعة مما جعل صديقه [فارو] يطلب منه استخراج طالع [رومولوس] الى حد أول يوم وأول ساعة، وان يعمل حسابه على ضوء وقائع حياته العديدة التي هو على بينة منها. وان يقوم بهذا مثلما يحل مشكلاً هندسياً فعلى حد قوله أن كلاً من الكشف عن مستقبل امرءٍ بمعرفة يوم ميلاده، ومن استخراج يوم ميلاده بما يعلم من وقائع حياته هما مما يمتان الى علم واحد، فقبل (تاريتوس) المهمة وتأمل أولاً في أعمال الرجل والأخطار التي حلت به وزمن حياته وكيفية موته ثم قارن كل هذه المعلومات بعضها ببعض وعلن بكل ثقة واطمئنان ان رومولوس حبلت به امه في السنة الأولى من الاولمبياد الثاني^(٤١) في الساعة الثالثة بعد مغرب شمس اليوم الثالث والعشرين في الشهر المصري المسمى [خويك Choeac] وفي ساعة الحبل به كان هناك كسوف كلي^(٤٢) واما

(٣٧) الپاليليا أو عيد پاليس ربّة القطعان. ويسمى احياناً پاريليا من اللفظة اللاتينية [پاريري] اي التقدم. لان الصلوات كانت ان ذاك تتلى من أجل إخصاب الأغنام. ويقول (اوفيد) ان الرعاة يحيون بهذه المناسبة مهرجاناً ليلياً عظيماً يختمونه برقصات حول النار التي يشعلونها في الحقول من أكوام القش.

(٣٨) هو كسوف ٧٥٣ ق.م الثابت فلكياً.

(٣٩) حصل في العام ٧٥٤ ق.م.

(٤٠) كان هذا المنجم البارع وثيق الصلة ب (شيشرون) لكن لما لم يحصل كسوف في اليوم الذي عينه فليس في امكاننا ان نقر له باية براعة. ان الأشهر المصرية التي لا تتفق بداياتها تماماً مع أشهرنا استخدمت فيما يلي اعتباراً لبلدها التي اتخذ نظامها الفلكي قاعدة.

(٤١) اي في العام ٧٧٢ ق.م.

(٤٢) لم يكن ثم كسوف كلي في السنة الأولى من الاولمبياد الثاني، بل حصل في السنة الثانية منه فان كان الحبل ب(رومولوس) قد وقع في السنة التي ذكرناها فانه يتفق والراي المجمع عليه بأنه كان ابن ثماني عشرة سنة عندما باشر ببناء روما. وهذا هو رأي (كاتو) يسانده في ذلك كل من [ديون] و[سوليوس] و[يوسيبوس] وعدد كبير من المؤرخين المتأخرين والمعاصرين. في حين نجد كلاً من [فارو] و[شيشرون] يثبتون الحدث في السنة التي سبقت.

الأخرى تلقب شيوخها بالقاب الأسياد العظام. وهكذا تجد الرومان قد اتخذوا لقباً أكثر شرفاً وأقل ابهة وهو « باترس كونسكربتيتي [Patres Conscripti] ^(٤٦) وكان في مبدأ الأمر [پاتروس] فحسب ثم اضافوا اليه اللقب الثاني في زمن تال، وبهذا اللقب الأكثر جلالاً تميّز الشيوخ عن العامة، وانفصل النبلاء عن سواد الشعب بطريقة أخرى اي بتسمية الأولين [پاترون] ^(٤٧) وتسمية الآخرين الاتباع او الموالي، وبهذه الوسيلة اوجد علاقة حبّ وصداقة ما بين الفئتين أثمرت قدراً كبيراً من العدل في التعامل فيما بينهم، فالپاترون هو مستشار مواليه في القضايا القانونية ومحاميهم في سوح القضاء والمحاكم، ومجمل القول. شاورهم ومعاونهم في كل المسائل. والموالي بدورهم يخدمون الپاترون لا بتقديم الاحترام والتكريم، بل بمساعدتهم المادية في حالة افتقاره، كصهر بناتهم بالمهر أو دفع الديون عنهم ^(٤٨)، وليس من قانون أو قاض يجبر الپاترون على الشهادة ضدّ تابعه، ولا التابع ضدّ پاترونه، وبعد مرور حين من الزمن وُجد أن أخذ المال من الموالي مما لا يشرف قط طبقة الپاترون فأبطلت العادة مع بقاء الواجبات الأخرى سارية... وفي هذا القدر الكافي...

في الشهر الرابع لبناء المدينة، وقعت حادثة خطف النساء واغتصابهن ^(٤٩) وهذا ما يزعمه [فابيوس]. واما آخرون فيقولون ان رومولوس نفسه وهو محارب عسكري ارادها ان تكون علةً لشنّ الحرب، ربما تحذوه في هذا نبوءة جعلته يؤمن ان رفعة شأن روما وعظمتها تتوقفان على الإفادة من الحرب ولهذا تحرش اولاً [بالساين Sabine]، ولم ينهب منهم غير ثلاثين عذراء وهو عدد قليل قد يصلح ذريعة للحرب، من كونه رغبة النساء فحسب. على ان هذا

(٤٦) أعني الآباء المسجلين. والمنحدرون من هاتين الطبقتين ميّزوا فيما تلا من الزمان باسمي الآباء الكبار Patre Majorum والسادة الأدين Minorus Ganlium.

(٤٧) هذه الأبوة توازي بقوتها رابطة الدم والتحالف. وقد كان اثرها عجيبةً في استمرار الوحدة والرابطة الوثقى بين الرومان طوال (٦٢٠) عاماً لم يقع خلالها نزاع أو خصام أو تنازع بين الآباء والأبناء حتى في الأيام الجمهورية حيث كثيراً ما كانت طبقة العامة تتمرد على اصحاب السلطة العليا في المدينة. بالأخير أخلّ بهذا الانسجام تلك الفتنة الكبرى التي اثارها [كايوس كراخوس] (انظر السيرة). وكان التابع الذي لا يؤدي واجبه ازاء (پاترونه) يعدّ خائناً خارجاً على القانون ويستهدف الى أن ينفذ به اي شخص عقوبة الموت (ديون) ومما يجدر ذكره هنا هو أن اختيار ال(پاترون) لم يكن قاصراً على أفراد العامة. بل تعداهم الى المدن والدول التي أخذت تضع نفسها تحت هذا النوع من الحماية بمرور الزمن.

(٤٨) ويضيف ديون قوله (٤:٢) انهم يدفعون عنهم مصاريف الدعاوى التي يخسرونها ويدفعون عنهم كذلك اجور محاميهم وغير ذلك.

(٤٩) ينقل (ديون) عن (كيلليوس) ان ذلك وقع في السنة الرابعة ويؤكد (فاستي كاپيتوليني) ذلك باثباته تاريخ الحروب مع الكيانيسيين التي وقعت بعد هذه الحادثة مباشرة. ويذكر (ليقي) ايضاً (٩:١) ان الرومان صاروا يملكون من القوة ما أهلهم لمقارعة جيرانهم.

القول ليس الارجح. والذي يبدو، ان رومولوس وجد مدينته تكتظ بالوافدين من الأجانب والأخلاق وقليل منهم من كان ذا زوج وان هذا المجتمع الذي يتألف معظمه من فقراء، منقطعين، سيّدب فيه الانحلال حتماً ويسوده الإنقسام والتناحر ولن يبقى على تلاحمه طويلاً كما أمل ايضاً ان تهدأ خواطر النساء المخطوفات بعد حين، ليسجعل من الاعتداء تعةً للتحالف والتبادل التجاري مع [الساين] وعلى هذا الاساس قام بالمغامرة هكذا:

أولاً أعلن انه اكتشف هيكل أحد الارباب مدفوناً تحت أطباق الأرض ^(٥٠) ويسمى [كونسوس Consus] وهو إمّا آله الشورى (لأنهم مازالوا يستعملون للشورى كلمة [كونسيليوم Consilium] ويسمون كبار حكاهم [كونسول Consule] اي مستشار] وإمّا أن يكون [نبتون الفارس]، ذلك لأن الهيكل أبقى مستوراً في الملعب الأكبر ^(٥١) لا يكشف للجُمهور الا بمناسبة سباقات الخيل. ولا يزيد آخرون على القول ان هذا الرب شاء ان يجعل معبده مدفوناً تحت الأرض لأن من طبع المشورة ان تكون سريةً مكتومة. عند اكتشاف الهيكل أعلن رومولوس انه قرر أحياء يوم حافل لتقديم قرابين، مشفوعة بالعاب وتشيليات للعموم، من قبيل الترفيه والتسرية، فتقاطرت جموع غفيرة الى المدينة وجلس رومولوس في صدر الملعب يحفّ به عظماء قومهم ونبلاؤهم متشجّحاً بالأرجوان، وكانت اشارة الانطلاق هي نهوضه وجمع اطراف رداءه والقائه على كتفيه. ووقف رجاله على اهبة الاستعداد شاكي السلاح واعينهم شاخصة اليه وانظارهم مركزة به ولما أعطى الاشارة صاحوا صيحة هائلة وامتشقوا سيوفهم ووقعوا على بنات [الساين] يخطفوهن، ووكى الساين الأديار بدون مقاومة. وقيل ان ما سبي لايزيد عن الثلاثين ^(٥٢)، وسميت اسماء [اركيبوري Curie] الثلاثين بهنّ إلا ان [فاليريوس أنتياس Valerius Antias] يرفع عدد المخطوفات الى خمسمائة وسبع وعشرين، ويزيد [يولا Jula] ^(٥٣) العدد الى ستمائة وثلاثة وثمانين، وخير عذر يمكن ان يتمسك به رومولوس في عمله هذا هو ان المخطوفات كلهن كن عزباوات. اي ان اتباعه لم يتعرضوا للمتزوجات باستثناء واحدة وهي [هيرسيليا Hersilia] وهذه خطفت بمحض خطأ ولم يعرف حقيقة أمرها، هذا يدل على انهم سبوهم لا بدافع الشهوة، بل لايجاد تحالف ورابطة جوار

(٥٠) ابقى المذبح مدفوناً اشارةً الى عمل الطبيعة الخفي في انتاج القمح والخضار لان (كونسون) هو الرب الايطالي القديم للزراعة.

(٥١) أعني في القصر. حيث بنى (اتكوس مارجيوس) فيما بعد الملعب الكبير لسباق الخيل والعجلات.

(٥٢) رواية ليقى: ٣:١، تورد هذا العدد أيضاً. الا أنه كان يأخذ برأي [فاليريوس انتياس] في أماكن أخرى.

(٥٣) هو ابن (جوبا) ملك الموريتانيين جيء به الى روما وهو صبي وقد وقع في الأسر، فدرس العلوم الاغريقية واليونانية واصبح مؤرخاً شهيراً. ويذكر ليقى أن أغسطس اعاد اليه جزءً من أملاك ابيه وزوجه (كليوباترا) بنت مارك انطوني. ويتفق (ديون) مع ليقى في هذا.

باضمن الوسائل وامتنها. وقال بعضهم ان [هوستيليوس Hostilius] تزوج هرسيليا هذه، وهو من ابرز رجال الرومان، وزعم غيره ان رومولوس هو الذي تزوجها وانجبت له بنتاً سميت [پريما Prima] أي الأولى لأنها بكره، وابنا سُمي [أفيلليوس Avillius] بسبب تعلق المواطنين الشديد به في ذلك الحين. ثم تغير اسمه بعد احقاب الى [بيليليوس] هذا ما يرويه [زينودوتوس Zenodotus] الطروزيني وكثيرون لا يتفقون معه في ما ذهب.

قيل انه كان يوجد كثير من الأراذل والدهماء بين الذين ساهموا في خطف العذارى، وشوهدت طائفة تحمل أنسة فاقت الأخرىان جمالاً وجاذبية ورشاقة، فأعترضتهم زمرة من سرااتهم وحاولت انتزاعها فاحتجوا قائلين انهم يحملونها الى [تالاسيوس Talasius] وهو والحق يقال شابٌ فتّي لكنه غير معروف بصفات الشجاعة واللباقة. ولما سمعوا منهم ذلك ايدوهم واستحسنوا ما يفعلون بهتافات عالية، وانضم بعض الزمرة الى هؤلاء الدهماء طرباً ولعباً وراحوا يهتفون باسم [تالاسيوس]. من هذه الحادثة نشأت عادة عند الرومان ما زالت متبعة الى يومنا هذا فهم في حفلات اعراسهم، يتنادون بلفظة [تالاسيوس] بوصفها الكلمة التي تقوم مقام [العرس]. مثلما هي [هيميانيايوس Hymenas] لدى الأغرقي. لكنهم يقولون أن تالاسيوس هذا كان سعيداً للغاية في زواجه إلا أن [سكتوس سيلا Sextius Sylla] القرطاجني وهو رجل لا تعوزه سعة الاطلاع ولا نفاذ البصيرة قال لي ان رومولوس نطق بهذه الكلمة كإشارة لبدء عملية الاختطاف، ولذلك هتف بها كل من ظفر بفتاه لنفسه ومن هنا جاءت العادة في الأعراس. لكن معظم الكتاب (ولاسيما يوبا) يرى ان الكلمة كانت تستخدم للمتزوجات حديثاً كوسيلة لحثهن على القيام باعمال البيت على خير الوجه، وتطلق كلمة [تالاسيا Talasia] على الغزل كما نلفظها نحن باليونانية^(٥٤)، لأن الالفاظ اليونانية كانت شائعة وقتذاك ودونها شيوعاً الالفاظ الايطالية، واذا كان الأمر كذلك، واذا كان الرومان في ذلك الزمن يستعملون كلمة [تالاسيا] بالمعنى الذي تدل عليه عندنا، فعلى المرء اذن ان يبحث عن سبب آخر لهذه العادة. اذ عندما صولح السابين بعد الحرب التي نشبت بينهم وبين الرومان، اتفق على شروط بخصوص معاملة نساءهم؛ وهي ان لايجبرن على اداء اعمال منزلية شاقة فيها صفة العبودية ما عدا الغزل. لذلك جرت العادة ان يردد كلمة تالاسيوس اولئك الذين يقدمون يد العروس أو يصحبونها أو يكونون حاضرين وقت الزفاف - للتذكير بان العروس لن تقوم من الآن فصاعداً بعمل إلا الغزل واستمر تطبيق العادة التالية الى هذا اليوم

(٥٤) من لفظه (تالروس) الاغريقية. والملاحظ ان كل سيدات روما يحكن ثياب ازواجهن وأولادهن حتى أغسطس نفسه كان يشهر مرتدياً الثياب التي تصنعها زوجه وآل بيته.

وهي ان العروس لاتتخطى عتبة باب زوجها، وانما تُرفع فوقها رفعاً دون ان تطأها، وهي تذكرة بأن عذارى السابين كن قد حملن الى بيت الزوجية قسراً ولم يدخلن بمحض اختيارهن. ويقول بعضهم ايضاً أن عادة فرق شعر رأس العروس من الوسط بسنان رُمح، تذكرة بأن مبدءاً زواج الرومانيات كان بالحرب والقتال، وهو ما اشتبهت في شرحه في كتابي «المسائل»^(٥٥).

وقعت عملية الاختطاف هذه في الثامن عشر من شهر [سكستيليس Sextilis] الذي يدعى الآن [اغسطس: أب] وفيه تقام احتفالات [الكونسواليا Consualia]^(*).

كان السابين قوماً محاربين اشداد كثيري العدد. عاشوا في قرى غير محصنة وهو على ما يظنون يناسب مستعمرة ليقديمونية^(٥٦) جريئة لانتهاج أحداً ولما وجدوا انفسهم مكتوفي اليد بتلك الرهائن النسائية التي تضمن سكوتهم وحسن سلوكهم، ولشدة تعلقهم بناتهم آثروا ارسال سفراء الى رومولوس يحملون طلبات عادلة منصفة وهي ان يعيد اليهم بناتهم وينهى اثر هذا الاعتداء ثم يسعى بالاقناع والوسائل الشرعية الى انشاء علاقة صداقة بين الشعبين. لكنه ابي النزول عن البنات واقترح عليهم الدخول في حلف. وهنا أخذ بعضهم يتردد وانثوا يتداولون فيما بينهم ولم يقطعوا برأي، إلا ان [اكرون] ملك [سيوننسيا Coeninen-sia]^(٥٧) وهو رجل جريء ومحارب مقدام، مدفوعاً بما يكفه من حسدٍ طويل الأمد لرومولوس لماآثره العظيمة، ولاسيما لما وجد خصمه هذا قد علا شأنه وعظم خطره بمغامرة خطف النساء، وان الاقتصاص منه أمرٌ واجب، فأعلنها حرباً على رومولوس وزحف بجيش جرار فاستعد رومولوس له^(**)، ولما تقابل الجيشان وقفاً وهما شاكيا السلاح لا يلتحمان وانما فضلاً مبارزة فردية. فنذر رومولوس اذا تغلب على خصمه، ان يحمل بنفسه سلاح المغلوب ويقربه الى [جوپتر] زيادة في التعظيم. ونزل حومة الوغى وقهر عدوه ثم تلت ذلك معركة هزم بها جيش الخصم المقهور واستولى على مدينته، لكنه لم يلحق اي اذى بسكانها وانما امرهم بتقويض بيوتهم. وان يتبعوه الى روما فيمنحهم كل حقوق المواطنة^(٥٨). الحق يقال ان عظمة روما

(٥٥) في الفقرة المشار اليها حذف پلوتارخ واحدة من اهم الملل الطبيعية المعزوة الى (فستوس) وهو ان الرمح بوصفه شعار السلطان قد يفرض على المرأة واجب الخضوع لبعها (الاخلاق: السؤال رقم ٨٧).

(*) عيد الحصاد (من كونسوس Consus).

(٥٦) ومن هؤلاء عددٌ كبير من اللقديمين هربوا تخلصاً من قوانين ليكورغوس الجائرة فتركوا سيارطه واستقروا في ايطاليا وأخذ عنهم المواطنون الاصلاء عاداتهم. [هذا كما يبدو عند ديون ٢: ١١].

(٥٧) سگان لاتيوم Latium القديمة.

(**) ليقى ١: ١٠.

(٥٨) يختلف پلوتارخ مع المؤرخين اختلافات كثيرةً وبعضها جوهرية، حول تفاصيل الحملة. وليس في الامكان ايراد هذه الاختلافات وتمحيصها ومضاهاتها في حاشية تعريف مقتضبة. فلترجع عند ليقى وديون.

وسؤدها لم يكن مديناً لشيء قدر ما هو مدين إلى مزجها وتوحيدها كل ما تفتحه من البلدان. ولأجل ان يبر رومولوس يندوره [الجوبيتر] بأحسن ما يمكن ولأجل أن يجعلها مصدر استمتاع لأهل المدينة عمد إلى قطع بلوطة باسقة وجدها نامية في المعسكر فهندمها على شكل تمثال، ثم كساها دروع [اكرون Acron] كما يكتسبها المحارب ولم أطراف ثيابه على جسده وحمل التمثال وشعره يتماوج خلف اذنيه في النسيم بلطف أسرٍ واسنده على كتفه الايمن بصورة عمودية ثم ساربه وهو ينشد اناشيد النصر يتبعه كل جيشه فاستقبله الأهالي بهتاف الاعجاب والفرح. وكان موكب ذلك اليوم المثل المحتذى لكل مواكب النصر الرومانية التالية.

هذه الخشبية المنحوتة أوجدت نوعاً جديداً من القربان [الجوبيتر فيرتيريوس] (جاءت من فيريري Ferire^(٥٩) وتعني باللاتينية: الضرب) لأن رومولوس رجا الاله ان يضرب عدوه ويهزمه. وسميت الغنائم [اوپيما Opima]^(٦٠) أو الأسلاب الملكية، على زعم [فارو] لأنها كانت قيمة جداً، كما تدل عليه كلمة [اوپيس Opes] وإن يذهب الظن بالمرء الى انها مشتقة من [اوپوس: Opus] أي «عمل»، ودرجت العادة أن لا يخلع شرف اعطاء «الغنائم الملكية» إلا على قائد الجيش الذي يقتل بيده قائد جيش العدو^(٦١). ولم ينل مثل هذا الشرف غير ثلاثة من قادة الرومان اولهما رومولوس لقتله (اكرون) السينينيسي، وثانيهما [كرينليوس كوسوس Cornelius Cossus] لقتله [طولمونيوس Tolumnius] التوسكاني^(٦٢)، وثالثهما [كلوديوس مارچلدس Claudius Marcellus] لبطشه ب[فيريدومارنوس Viridomar-

(٥٩) هذه الكلمة لم تكن مستعملة في ذلك الحين والارجح انها مشتقة من لفظة Ferire وهو الحمل. لأن رومولوس حمل بنفسه الدرور الى هيكل جوبيتر. أو لعلها على أغلب الاحتمال مشتقة من الكلمة الاغريقية فيرترون التي يفسرها ليقى (١٠:١) باللاتينية Ferculum ومعناها غنيمة حرب.

(٦٠) فستوس يشق أوپيما من كلمة Ops وتعني «الأرض وثرواتها» و Opima spolia بحسب راي الكاتب تترجم بـ«الأسلاب الثمينة». ولم تكن كلمة opus كثيرة الاستعمال في ذلك الحين مثل كلمة Ferire على أغلب الاحتمالات.

(٦١) هذا ما اثبته ليقى حول الموضوع كذلك. إلا ان (فارو) الذي ينقل فستوس عنه، يخبرنا انه ربما كان للروماني الحق في «الأسلاب الثمينة» حتى ولو كان جندياً بسيطاً miles manipularis شريطة ان يقتل قائد جيش العدو ويستولي على شكة سلاحه. ولهذا نجد (كورنيليوس كوسوس) يغتتمها عند قتله (تولينوس) ملك التوسكان ولم يكن أكثر من (تربيون) تحت أمرة (اميليوس). وعلى أغلب الاحتمال لم يدخل (كوسوس) روما راكباً عربية النصر وانما تبع قائده وهو يحمل «الأسلاب» على عاتقه. ولا يقطع ليقى برأي حول رتبة (كوسوس) وقت ان حقق نصره. رغم تأكيد (اغسطس) له بأنه وجده يسمى بالقنصل في السجلات. وانه ما فعل هذا إلا احتراماً لسيدة الامبراطور. ولأن شهادة (فارو) يجب ان تدحض اسطورة مشكوكاً فيها وان وجدت حقاً فمن الممكن جداً ان اللقب قد استعير من واقع رفع كوسوس الى مرتبة القنصل.

(٦٢) كان هذا العام ٤٢٦ ق.م، حسبما اورده ليقى ٩:٤، ١-٥.

[nus^(٦٣)] ملك الغاليين والثاني والثالث دخلا المدينة في موكب النصر وهما راكبان عجلة حاملان اسلابهما بنفسهما. وقد اخطأ [ديونيوسوس]^(٦٤) في التأكيد بأن رومولوس استخدم عجلة في هذه المناسبة^(٦٥). وينبئنا التاريخ ان [تارقينيوس Tarquinnius] ابن [داماراتوس Damaratus] كان اول من بلغ بمواكب النصر الى هذه الدرجة من الروعة والجلال. ويقول آخرون ان [پوبيليكولا Publicola] هو اول من استخدم العجلة في مواكب النصر هذا وان تماثيل رومولوس التي تمثله في موكب النصر، لا يوجد منها ما تظهره راكباً في كل ما هو موجود منها في روما.

بعد ان تغلب رومولوس على السينسينين، أخذ السابين الآخرون يترصون الفرص ويستعدون الزمن، ثم وحد اهل [فدينيا Fedena] و[كروستوميويوم Crustomerium] و[انتما An-temna] قواهم ضد الرومان^(٦٦) لكنهم منوا بهزيمة نكراء، ونزلوا عن مدنهم لرومولوس فاستولى عليها وضبط اراضيهم وتخوفهم فوزعها واستاقهم جميعاً الى روما. إن الاراضي التي استولى عليها رومولوس، قسمها بين الرومانيين، إلا انه استثنى اراضي اباء الفتيات المخطوفات وابقاها لهم. وثار غضب سائر السابين لهذا العمل وأمرؤا عليهم [طاطيوس Ta-tius] قائداً وزحفوا الى روما. وكانت المدينة منيعة يكاد يتعذر اقتحامها، فمن تحكيماها ما يعرف اليوم بالكايتول، وهو حصن وضع فيه كتيبة قوية من الحرس على رأسها [تارپيوس Ta-tius] لا [تارپيا Tarpia] العذراء على ما زعمه بعضهم ليظهروا رومولوس بمظهر الأحمق. لكن [تارپيا] التي هي بنت قائد الحصن كانت مغرمة بالأساور الذهبية والحلي التي يتحلّى بها العدو، ولذلك عرضت تسليم الحصن الى السابين إن كوفئت على خيانتها بكل الحلي التي تحلى اذرعتهم اليسرى. فوافق [طاطيوس] وفتحت لهم احد الابواب ليلاً وادخلتهم. لم يكن [انتيجونوس Antigonus] وحيداً في قوله انه أحب الخونة، لكنه كره الذين كانوا. ولا القيصر الذي قال محدثاً [ريميتاقليس] التراقي انه ليحب الخيانة ولكنه يكره الخائن، هذا هو الشعور العام لمن اتفق له وحظي بخدمات الخونة وشارر الناس، وهو نفس ما يرى الناس في

(٦٣) وفي نسخ أخرى يكتب «بريتومارتس Britomartus» وقد كان هذا في العام ٢٢٢ ق.م. (انظر سيرة مارجلوس في الكتاب).

(٦٤) روما القديمة ١١:٣٤.

(٦٥) المرجع نفسه: پوبليكولا ٩:٥٠.

(٦٦) [ليقي] المرجع السالف ١:١١. أو بحسب اقوال غيره من المؤرخين فقد كان كل منهم يحارب على انفراد كلما اكمل استعدادده. وبالشعار نفسه Dum singuli pugnant inversi vincuntur (توكيديس: جرمانيا) ولك يكن لأهل [فدينيا] علاقة بهذا التحالف فهم توسكان تابعون لـ(قيبي) ولانزاع ثم بينهم وبين الرومان طبعاً حتى وفاة (طاطيوس).

سمّ الحيوانات، فهم راضون عنها ما دامت ذات نفع لهم، لكنهم يفتنون شرها وخبثها حين ينفضون أيديهم منها. وهذا هو المسلك الذي سلكه [طاطيوس] مع [تاريبا] بعد تسليمها الحصن. فقد أمر السابين بايفاء الشرط وبألاً يضمنوا عليها باي جزءٍ من حلي اذرعتهن اليسرى، وكان هو أول من خلق اساوره والقهاها عليها واتبعها بدرع صدره^(٦٧) وحذا الباقون حذوه وارتفع المذوف من الحلي فوقها حتى دفنت تحت أكداس الذهب والدروع ففاضت روحها تحت الثقل والضغط. وحاكم رومولوس، القائد تاريپوس وادانه بالخيانة. على حدّ قول (يوبا) الذي نقله لنا [سولپيشيوس غالبا Sulpicius Galba] واما من كتب بخلاف ذلك عن تاريبا زاعماً انها كانت بنت [طاطيوس] وان رومولوس احتجزها بالاكراه، وانها فعلت ما فعلت وجازاها ابوها على نحو ما قدمناه، هؤلاء انما يخبطون خبط عشواء. ومنهم [انتيغونوس]^(٦٨). اما [سميلوس] الشاعر الذي يرى ان تاريبا لم تسلم الكاپيتول للسابين سبل للغال لوقوعها في حب ملكهم، فهو اكثر تخريفاً من أولئك، حين يقول:

كانت (تاريبا) التي تسكن قريباً من الكاپيتولي

هي التي فتحت ابواب روما للعدو.

هي التي سلمت الكاپيتول، حصن المدينة الأمتع

لأنها وقعت في حبّ المهاجم الغالي!

فغدرت بمنازل ابائها

وبعدها بقليل يتكلم عن موتها فيقول:

إن الجموع الغفيرة من الأعداء الغاليين والبوي Boü

لم يرضوا أن تبقى حية تعيش على ضفاف البو Po

فالقوا بتروسهم فوق الفتاة.

وبهداياهم الثمينة قتلوها ودفنوها في الحال.

دفنت (تاريبا) هناك. وأطلق اسمها على التل المعروف [بتاريپوس] وظلّ يعرف به حتى

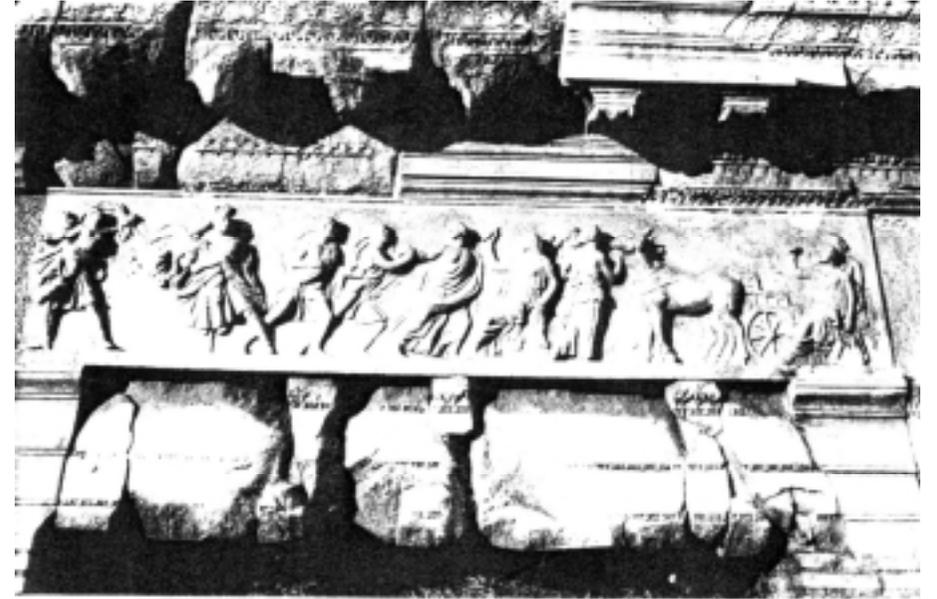
(٦٧) يذكر (بيو) ومؤرخون آخرون أن طاطيوس عاملها بهذا الشكل لأنها قامت بدور مزدوج فعملت على خيانة

السابين من أجل رومولوس في حين جاهرت بخيانة الرومان من أجل السابين. (ديون ٢: ١٠) وبرهاناً على

هذا التكريم الذي نالته من الرومان بعد وفاتها وليقي (١: ١١) يسجل ذلك ولا يعارض فيه.

(٦٨) كتب (انتيغونوس كاريستوس) تاريخاً لايطاليا، وجمع جملة من «الحكايات العجيبة» في عهد [بطليموس

فلادلفوس] وأماً [سميلوس] فقد نظم تاريخاً شعرياً لايطاليا.



اغتصاب نساء السابين



عهد الملك (تاركوين Tarquine) الذي أوقف الموضوع على جويتير فنقل رفاتهما وضاع اسمها، إلا في ذلك الجزء من الكايبيتول الذي مازالوا يسمونه «الصخرة التاريخية»، وهي الصخرة التي اعتادوا القاء المجرمين منها الى الهاوية.

بعد ان سيطر السابين^(٦٩) على المرتفع، ثارثائر رومولوس واشتباك معهم في معركة، وكان [طاطيوس] واثقاً من نفسه فلم يتحاش الاشتباك، مدركاً انه لن يخسر شيئاً في حالة هزيمته فخلفه مواقع حماية منيعة وكان السهل في الوسط وهو ميدان القتال، تحيط به آكام عديدة صغيرة يبدو وكأنها ستملي على الفريقين قتالاً مريراً عنيفاً بسبب وعورتها. وعدم وجود منافذ كثيرة فيها وصعوبة الكر والفر. وأتفق أيضاً أن النهر الغائض كان قد غمر ساحة المعركة قبل مدة ليست بعيدة. ولما انحسر عنها ترك خلفه (حيث يقوم الفورم اليوم) موحلة عميقة عمياء خادعة لا تعرف حدودها ولا يظهر مدى خطورتها للعين المجردة. ويصعب اجتيازها، وصادف السابين حسن حظ نادر، بينما هم يهيمون بدخولها دون حذرٍ او ارتياب. اذ كان [كورتيسوس Curtius] وهو رجل مقدم مستشوق الى كسب الشرف في القتال، ذكي سريع الخاطر، يخب بجواده امام الآخرين^(٧٠)، اذ باقدام حصانه تغوص في الطين، فحاول اخراجه بالسوط والمهماز والسياح، وبعد فترة ادركه العجز فتركه وانقذ نفسه. ومنذ ذلك اليوم وهذه البقعة تعرف ببحيرة [كورتيسوس]. وبعد أن نجا السابين من هذا الخطر راحوا يقاتلون احسن قتال ويبلون خير بلاء، وظلت نتيجة معركة ذلك اليوم غامضة، في حين سقط كثير من القتلى، ذكر بينهم [هوستيليسوس] زوج [هرسيليا]، وجد [هوستيليسوس] الذي حكم بعد [نوما]. ثم حصلت اشتباكات قصيرة عديدة إلا ان أعظمها وعلى الارجح، أوقعها في النفس وابعدها أثراً هو الاشتباك الأخير، فيه اصيب رأس رومولوس حجرة من حجرة شجته، فكاد يسقط صريعاً ويعجز عن متابعة الحرب... وتخاذل الرومان وبدت عليهم علائم الهزيمة وراحوا

(٦٩) ليفي: المرجع السالف ١:١٢.

(٧٠) ليفي [١٣:١] وديون [١١:١٠] يثبتان خلاف ذلك. اذ يذكران (كورتيسوس) صد هجمة الرومان أولاً إلا انه غلب على أمره بكرة من رومولوس وبمحاولته الانسحاب المنظم فقد سقط سقطاً لا نجا منها في البحيرة التي سميت باسمه منذ ذلك الحين: Lacus Curtius حتى عندما جفت وكادت تكون وسط الفورم. ويقول [بروجيليسوس] ان الأرض قد تشققت. وصرح الارسيبيجي بانه من الضروري أن تحشد قوى المدينة لمنفعة المدينة فتقدم هذا الشاب المدعو كورتيسوس (ليفي ٧:٦) الذي عرف بالبسالة والصبر على القتال وهو على سهوة حصانه وتحت اثن السرج وقذف بنفسه في البركة يكامل دروعه فالتحمت شقوقها في الحال. وكانت هذه البركة قبل فتح قنوات المجاري اشبه بالبالوعة تصب فيها كل مياه روما القذرة. ويرى بعض الكتاب انها أخذت اسمها من القنصل [كورتيسوس] زميل ماركوس جينوشيسوس في الحكم لأنه أمر بتسويرها بناء على نصح الارسيبيجي بعد ان ضربتها صاعقة.

يفرون باتجاه [الپالاتيوم]، وفي تلك الاثناء استجمع رومولوس بعض قواه واستدار لتجديد سعار المعركة وواجه قومه المنهزمين مشجعاً بصوت جمهوري حاثاً اياهم على الصمود والقتال هذا العدو يتكاثر عليه عددياً وجنوده يحجمون عن الثبات ومواجهة الخصم. فبسط يديه نحو السماء متضرعاً الى [جويتير] لا يقف فرار الجيش ورعاية حق روما والعناية بأمرها في أعظم خطر تجابهه. وما أن أنهى صلاته حتى صد الخجل منه والاحترام له كثيراً من المنهزمين عن الفرار، وأنقلب خوفهم الى ثقة. إن أول المواضع التي ثبتوا فيها كان المحل الذي يقوم عليه الآن معبد [جويتير ستاترا] (قد يمكن ترجمته بجويتير اللأبث) وفيه انتظمت صفوفهم ثانية، وكروا على السابين ودفعوا بهم الى موضع يعرف الآن بـ(ريجيا)^(٧١) ثم الى معبد (قستا).

تأهب الفريقان لحوض معركة ثانية فحال بينهم وبين ذلك مشهد عجيب يقصر عنه الوصف. فقد أسرع بنات السابين المخطوفات، ومهورلات في اضطراب عظيم، بعضهن من هذه الجهة وبعضهن من تلك كأن بهن مساً من الجن. حتى صرن في وسط الجيش بين جثث القتلى. وبلغن مواقع ازواجهن وابائهن، بعضهن يحملن اطفالهن، وبعضهن محلولات الشعر والريح تعبت به، بنادين السابين مرةً، والرومان مرةً بأرق الكلمات وأكثرها حناناً. وهنا غلبت العاطفة نفوس الفريقين فانكفأوا الى الورا ليفسحوا لهن سبيلاً بين الجيشين.

أحدث منظر النسوة حزناً وألماً عميقاً في قلوب الجميع، لكن عباراتهم التي بدأتها بالوم والتفيف، وانهيها بالضراعة والعتاب، كان لها التأثير الأقوى. وهذا ما قلن لهم:

«اي أذى نالكم منا لنستحق منكم هذا العنت والعذاب في الماضي والحاضر؟ لقد جرى خطفنا بظلم وعدوان، وبالقوة والاكره، خطفنا أولئك الذين ترتبط بهم الآن برابطة الزوجية. وبعد ان تم ذلك أهمل أبأونا وأخوتنا وبنو قومنا أمرنا زمناً طويلاً، والآن ونحن مرتبطات بأوثق رباط مع أولئك الذين كُنَّا نكرهم كراهة الموت في الماضي، لا نملك أنفسنا من الرجفة للخطر، والبكاء لموت أولئك الرجال الذين أعتدوا علينا، انكم لم تنتصفوا لشرفنا من المعتدين عندما كُنَّا عذارى. ولكنكم جئتم اليوم لتنتزعوا بالقوة العاشمة، نساءً من أزواجهن، وأمهات من اطفالهن، وهي جريمة أعظم خطراً بنواياها الوضيعة من أهمالكم السابق لهن وغدركم بهن. فأيهما أشنع؟ أمضاجعة هؤلاء لنا، أم اشفاقكم علينا؟ إن كنتم اردتم حرباً لأب سبب آخر من الأسباب فالواجب يقضى عليكم لأجلنا أن ترفعوا ايديكم عن أولئك الذين جعلوكم اجداداً لا اولادهم، وأحماءً لهم. وان كانت حربكم هذه لأجلنا، فهذا

(٧١) هو منزل الكاهن الأعظم في الازمنة التاريخية الأولى.

نحن اولاء، خذونا وخذوا معنا أختانكم وأحفادكم، اعيدونا الى ابائنا وبنينا قومنا ولا تحرمونا أزواجنا وأولادنا. نتوسل اليكم ألا تجعلونا مسبيين مرتين».

تكلمت [هرسيليا] بكثير من هذا، وراحت الأخباريات يتوسلن بكل حرارة. ولم يعد ثم سبيل إلا الى الهدنة، واجتمع الزعماء الكبار للمداولة. وجاءت النسوة بابنائهن وأزواجهن الى ابائهم واشقاهن، وجلبن اللحم والشراب لمن يحتاج، ونقلن الجرحى الى منازلهن لتريضهم، وهنا أظهرن لذويهن مبلغ سيطرتهن على منازلهن. وكم يحترمنهن أزواجهن، ويبدون لهن ضروب التجلة والاحترام ويحيطونهن بكل ما يتصور من العطف والود. وأتفق الجانبان على الشروط التالية: للنساء الراضيات بحالهن ان يبقين حيث هنّ على أن يعفين -كما ذكرنا- من كل الأعمال الذليلة المتعبة، باستثناء الغزل وان يسكن السابيين والرومان المدينة معاً. وأن تسمى المدينة روما من [رومولوس، وتسمى [كويريتيس Quirites] (٧٢) من مواطن [طاطيوس]، وان يحكم هذان الزعيمان معاً ويمارسان القيادة بالتساوي، وكان محلّ المعاهدة يدعى [كوميتيوم Comitium] (٧٣) من [كويري Coire] اي اللقاء أو الاجتماع.

وهكذا تضاعف عن عدد سكان المدينة. وأنتخب مائة من السابيين (٧٤) (شيوخاً) وزيد ملاك الكتائب العسكرية الى ستة آلاف راجل، وستمائته فارس (٧٥)، ثم قسم الشعب الى ثلاث

(٧٢) الكلمة كويرس في لغة السابيين معنيان. فهي «رمح»، وهي أيضاً «أله محارب يحمل رمحاً» وليس بالإمكان التحقق من ايهما أعطى اسمه للأخر. ومهما يكن فالرب كويرس أو كورينوس هو إما (مارس) أو هو أله حرب آخر كان يعبد في روما حتى وفاة رومولوس الذي كُرمت ذكره بلقب كويرتوس عليه. ويقول [ديون] ان الشخص كان يدعى (رومانوس) والشعب كان يطلق عليه (كويرتيس). إلا ان القسم الأول من دعواه تلك ستخالف الصيغة القديمة لإعلان الدفن Ollus Quiris letho datus est.

(٧٣) يقع الكوليسيوم عند قدمة تل پالاتينا مقابل الكابتول. غير بعيد عن الموضع الذي بنى فيه الملك هيكل (فولكان). حيث كانا يجتمعان عادة مع مجلس الشيوخ لأخذ رايه في المسائل العامة. هذا الاسم فرض نفسه بعد عهد رومولوس وبقي زمناً طويلاً.

(٧٤) يناقض پلوتارخ نفسه هنا عندما يذكر في سيرة (نوما) بأن عدد اعضاء مجلس الشيوخ كان مائة وخمسين. أو لعل رومولوس بسبب استبداده في آخر ايامه لم يهتم بملء المقاعد الشاغرة في ذلك المجلس! (٧٥) اكتشف المؤرخ روالد Ruald في تعليقاته على پلوتارخ، خطئين كبيرين هنا. أولهما قوله ان رومولوس ضم ٦٠٠ فارس الى الفرقة العسكرية في حين لم يضم مثل هذا العدد الكبير الى الفرقة في اي رقت من الاوقات. فقد كان ملاكها مائتين أولاً ثم ارتفع الى ثلاثمائة ثم بلغ أخيراً الاربعمائة وبقي كذلك. وأما الخطأ الثاني فقوله ان رومولوس جعل فرقة الرجالة في حين لم تتعد في زمانه نصف هذا العدد. وقال بعضهم ان (ماريوس) كان أول من رفع ملاك الفرقة الى ستة آلاف. لكن (ليقي) يخبرنا، ان ذلك حصل قبل عهد (ماريوس) بزمن بعيد، وقد احدثه سكيبيو افريقانوس. وبعد طرد الملوك جعل ملاك الفرقة ما بين ٣٠٠٠ و٤٠٠٠ ثم ارتفع الى ٥٠٠٠ حتى جعلها (سكيبيو) ٦٠٠٠ ولم يلجأ الى هذا الأ في الحالات الخاصة وعند الضرورة القصوى فملاك الفرقة الرسمي هو أربعة آلاف راجل ومائتا فارس. إلا ان [م. ريكارد] يتفق مع پلوتارخ بايراده هذا العدد الذي اثبتته النص وباعتباره فرقة رومانية - سابينية =

قبائل: سميت الأولى [رامنينسيس Ramnenses] (٧٦) من رومولوس، والثانية [طاطينسيس Tatinses] من طاطيوس، والثالثة [لوجيرنسيس Lucerenses] من لوكوس، اي البستان، حيث يقوم الملجأ الذي شيّد ليلوذ به كل هارب أو لاجيء فيلقى الأمان المنشود، ويقبل مواطناً في المدينة. ومما يدل ان القبائل كانت ثلاثة ما يظهر من الصفة «تربيه Tribe» و«تربيون Tribune». وكل قبيلة تتألف من عشرة [كويريات Curiae] أو أفخاذ، والاسم مأخوذ من اسم المرأة السابينية على ما يقوله البعض. لكن لا أساس لهذا التعليل فكثير من النساء يسمين باسماء امكنة مختلفة. وان كانوا يحق يقال كثيرى الاكرام نسائهم لطالما احيوا ذكراهن بوسائل مثل هذه. كانوا يفسحون لهن طريق المرور كلما التقوا بهن. ولا ينطقون بكلمة نابية في محضرهن، ولا يظهرن عراً امامهنّ واذا قتلن شخصاً لايحاكمن امام القضاة العاديين (٧٧). وان يتحلّى اطفالهنّ بحلية تسمى لولاً (٧٨) (لأنها شبيهة بفقاعة الماء) يحطن بها أعناقهم. ويلبسنهم הפרتكستا Praetexta وهو رداء ذو حواش ارجوانية.

لم يجتمع الزعيمان للمشاورة في الحال. وإنما اجتمع كل منهما بشيوخه المائة على حدة أولاً، ثم اجتمعوا سوياً. وسكن [طاطيوس] حيث يقوم اليوم معبد [مونيتا Moneta] وسكن رومولوس بالقرب من درجات «الساحل الجميل» (٧٩) وهو الموقع القريب من منحدر جبل [پالاتين Palatine] المتجه نحو الملعب الأكبر. ويقال ان شجرة توت مقدسة نمت هناك، وذكر

= مختلطة اي فرقتين في الواقع.

(٧٦) اختلف الباحثون في أصل هذا الاسم. وثم عدة افتراضات ف[ليقي ٣:١] يقر باستحالة التحقق من اصله. في حين يستقّه [فستوس] من لفظة ليجروس Lucerus وهو ملك ارضيا Ardea ويشتقّه قارو من لفظة لوكومو Lucumo وهي اسم زعيم إتروري شهير رومولوس في حروبه. وأماً (الرائيسي) فأغلبهم من (ألبا) سكنوا تلي پالاتينا وجيليا. وأماً التاتينسي) فهم سابيين خصص لهم تلاً كابتولين وكورينال. وأما القبيلة الباقية فتشمل اللاجئين من اتروريا ولاسيوم وقد سكنت الفسحة الواقعة بين القبيلتين المشار اليهما آنفاً.

(٧٧) وانما امام مندوبين يعينهم مجلس الشيوخ من بين اعطاءه.

(٧٨) عندما يرتدي الشبان «الرداء الرجولي Toga Virilis» فانهم يخلعون (الپولاً) وهي خلية ذهبية على شكل كرة جوفاء ويقدمونها لآلهة البيت Dü Lares. فاذا توفي الشاب قبل بلوغه السادسة عشرة، فان الحليه توضع في الوعاء الذي يحوى رماد الميت. ويقول ساتورنينوس ٦:١ ان هذه الحلية لا يقتصر التحلي بها على الاحداث بل أنها تزين أولئك الذين يكرمون بموكب نصر اذ تقوم بتقليد واحدة كبيرة منها كبيرة الكاهنات القستالات كعلامة من علامات التكريم. كما ان النسوة يفضها الى ما يتزين به الطي. وأماً بخصوص الجلاب ذي الحاشية الارجوانية فان الفتيات العازبات يرتدين حتى يتزوجن. كما يرتديه الشبان حتى يبلغوا السابعة عشرة. إلا ان ما كان اشارة تكريم لأولاد نساء السابيين في عهد رومولوس اصبح شائعاً بين الجميع حتى شمل اولاد العبيد العتقاء.

(٧٩) ربما كان النص اليوناني [خاخون] محرفاً، ولا شك ان المقصود هنا «Scalae Caci»: درجات كاكي».

(٨٠) أو لأجل تحديد فسحة للعرافة على حدّ زعم (سرفيوس).

عن كيفية نموها ان رومولوس اراد مرة أن يجرب قوته^(٨٠) فقذف من جبل آفتنتين برمح قناته مصنوعة من خشب تلك الشجرة فطار بعيداً ثم انغرز عميقاً في الأرض ولم يفلح أحد في انتزاعه رغم تعاون الكثرة وبقي في موضعه وكانت التربة خصبة فامتد الحشبة بالغذاء فمت وافرعت وازهرت واستوت جذعاً كبير الحجم. وتولى السلف الشجرة بالعناية وأكرموها وعبدوها وعدوها من أقدس الذخائر واحاطوها بجدار. فاذا بدت لأي ناظر قليلة الاخضرار والازدهار مائلة الى الذبول والاصفرار فزع حالاً الى اي مستطرق يلقاه لتهيئة الماء فتقوم ضجة حتى لكان بيتاً يحترق ويهرع الناس من كل صوب بأوعية الماء ليستقوا الشجرة... وعندما كان (كايسوس قيصر Caius Caesar) يرمم الدرجات المحيطة بها، اتلف بعض العمال جذورها عندما كانوا يحفرون بالقرب منها فيبيست.

واتخذ السابين الأشهر الرومانية؛ وقد ذكرنا في سيرة [نوما] كل ما هو مهم في هذا الباب. واتخذ رومولوس تروسهم الطويلة ونبذ دروعه ودروع الرومان كافة واتخذ دروعهم، فقد كان الرومان يثبتون فوق صدورهم درقات مستديرة على الطراز [الاركيثي Argive] وكانت اعيادهم وقرايبتهم مشتركة، ولم يبلغ عيد من أعياد الشعبين. واستحدثوا أعياداً جديدةً منها عيد [ماتروناليا Matronalia] الذي انشيء تكريماً للنساء وأعتبرافاً بجهودهن في أطفاء نار الحرب، وأحدثوا أيضاً عيد [كارمنتاليا Carmentalia]،^(٨٢) ويخيل لبعضهم ان [كارمنتا Carmenta] هذه هي ربة تشرف على ولادة البشر، لذلك تكرمها الامهات كثيراً. ويظن بعضهم انها زوج [ايثاند] الأركادي. وهي كاهنة عرافة ترسل نبوتها شعراً، وقد أسميت [كارمنت] من (كارمن: اي شعراً). واسمها الحقيقي نيقوستراتا، ويرى بعضهم أن أقرب الاحتمالات في اسم الكاهنة هو اشتقاقه من لفظ [كارنس - منتي] ومعناه مختل العقل^(*)، اشارة الى الحركات الجنونية والتشنجات التي تعربها اثناء نزول الوحي عليها.

(٨١) في اثناء هذا العيد يتوجب على كل الرومانيات المتزوجات القيام بخدمة عبيدهن على المائدة. وان يقبلن الهدايا من أزواجهن مثلما يقدم الأزواج لهن من هدايا في عيد [ساتورناليا]. ولم يكن عيد [ماتروناليا] قاصراً على تكريم النساء السابينيات بل هو مخصص لـ (مارس) ولـ(جونو لوكانيا) الى حد ما. ويقع في الاول من شهر آذار على خلاف ما ذكره بعض المعلقين الآخرين.

(٨٢) وهو عيد كبير يقع في ١١ من كانون الثاني وتقام مراسيمه في اسفل الكابيتول بالقرب من باب كارمنتال. ويرفع الدعاء والصلاة للربة (كارمنتا) من أجل اخصاب نساء روما ولساعة ولادة سهلة (أوقيد ١: ٦١٧) وپلوتارخ أيضاً في (أسئلة رومانية) فانه يجعل (كارمنتا) أما لـ(ايثاند) ان قصة هذه السيدة وقصة لوبركاليا التي تتلوها في المتن هي من نسج الخيال المحض.

(* Caurc «مختل او مسلوب» و Mens «عقل».

أما عيد [پاليليا] فقد سبق لنا الكلام عنه. والذي يبدو ان عيد [لوپركاليا -Lapercal-ia] ^(٨٣) هو عيد التطهر، لأنه مأخوذ من الزمن الذي يقام فيه وهو غير ايام السفاد Dies Nefasti من شهر شباط واسم (شباط February) نفسه يعني التطهر. والعيد نفسه كان يدعي في قديم الزمان [فبرواتا Februata] إلا أن اسمه مرادف للاسم اليوناني (لكيا Ly-caea) ويبدو انه موغل في القدم جاء به الاركاديون الذين صحبوا [ايثاند] ^(٨٤). على ان كل هذا رجمٌ بالغيب وتخمين، اذ قد يأتي أيضاً من «الذئبة» التي ارضعت رومولوس، وأنا لنشاهد الكهان [اللوپيركي Luperci] ^(٨٥) يبدأون طوافهم من الموضع الذي قيل ان رومولوس ترك فيه. لكن المراسم التي تتم فيه تجعل من أصعب الأمور التوصل الى الحقيقة. فثم ما عرُ ينحرو، ومن ثم يؤتى نبيلين صبيين ويقوم بعضهم بوسم جبهتيهما بالسكين الدامية، ثم يقوم آخرون بمسح ما خلفته السكين من دماء بقطع من الصوف مغموسة بالحليب، وعلى الصبيين أن يضحكا بعد مسح جبهتيهما وبعد هذا تقطع جلود الماعز سيوراً يسك بها الصبيان ويهرولان وهما عاريان إلا مما يستر عورتيهما، يضربان بها كل من يصادفهما، ولا تتجنب الزوجات الصغيرات تلك الضربات لأنها تساعدن على الحمل كما يشاع بينهن. أو ثم شيء آخر غريب في هذا العيد، وهو ان [اللوپيركي] يضحون بكلب. هذا وان شاعراً من الشعراء كتب تفاسير خرافية للعادات الرومانية على شكل قصائد تقرىض فيقول في هذا الصدد، انه رومولوس وريموس بعد ان حققا النصر على اموليوس، ركضاً فرحين الى الموضع الذي ارضعتهم فيه الذئبة. وأحياناً لهذه الحادثة انشيء هذا العيد، ولذلك يركض الصبيان النبيلان...

«وهما يضربان كل من يصادفهما. حين أقبل التوأمان الشهير ان من مدينة [ألبا] مسرعين والسياف في يد كل منهما».

أما إمرار السكين الدامية على جبهتيهما، فهي اشارة الى الأخطار التي حفل بها ذلك اليوم، وما جرى فيه من سفك دماء. واما مسحهما بالحليب فهو ذكر اطعامهما وتغذيتيها. ويكتب [كايسوس اچيليووس Caus Acilius] ^(٨٦) ما مفاده أن قطيع ابقار لريموس ورومولوس شتتت في القلاة، قبل ان تبني روما، صلبا لرب [فونوس Faunus] ثم خرجا للبحث عنها

(٨٣) يحتفل بهذا العيد في الحادي عشر من شباط تكريماً للرب (پان) وبسبب عداية يكتن للذئب فقد سمي [لوپركوس]: من ذئب Lupa.

(٨٤) ليفي ١: ٥ و ٢-١.

(٨٥) اي كهانة الرب (فاونس) الذي هو (پان) عند الرومان مثلما ذكر.

(٨٦) هو مفوض الشعب (Tribune) كتب بالاغريقية في بعض الحوليات. ويخبرنا ليفي ان (كلوديوس) ترجمها الى اللاتينية وأقتبس منه شيشرون.

وهما عاريان لئلا يعرقلهما العرق الناضح منهما. وهو الذي جعل [اللوپيريكي] يتراكون عراة. أما إذا كان القربان للتطهر فحسب فتضحية الكلب أمر واجب لأن اليونانيين كانوا يضحون بالجراء كما يشاهد ذلك في نقوشهم ومنحوتاتهم. وهم كثيراً ما يزاولون هذه المراسيم التي يسمونها [پريسكلاسيزموس Periscylacismus] (٨٧) أما إذا كان القربان لشكر الذئبة التي أطعمت رومولوس وحفظت حياته. فثم سبب وجيه للتضحية بكلب لأنه عدو الذئب. إلا إذا كان سبب قتله عقاباً له على عرقلته اللوپيريكي أثناء ركضهم. وقيل أيضاً أن رومولوس هو أول من استحدث فريضة النار المقدسة. وعين عذارى مقدسات للابقاء عليها مشتعلة (٨٨)، سمين فستالات. ويقول آخرون أن [نوما بومپيليوس] هو موجد هذه الفريضة. وهم يتفقون على كل حال أن رومولوس كان تقياً شديداً التدين، ماهراً في إقامة الفرائض ولهذا كان يحمل عصاً معقوفة [ليستوس Littuus] مما يستخدمه السحرة لرسم أركان السماء عندما يجلسون لمراقبة الطير، ظلت عصا [رومولوس] محفوظة في الپالاتيوم، وضاعت عندما استولى الغاليون على روما، ثم عثر عليها بعد طرد هؤلاء البرابرة في الأطلال والخرائب مدفونة تحت كومة عظيمة من الرماد (٨٩)، ولم تمسها النار بضر في حين أتت على ما كان حولها. واستن رومولوس قوانين، تميز أحدها بالصرامة وهو يقضي بآلاً تهجر المرأة زوجها، ويحول الزوج حق طلاقها في حالة تسميمها أولادها أو تزييف مفاتيح الزوج، أو إذا زنت (٩٠). وإذا

(٨٧) أو [بيرسكو لاكيزموي Perisku Lakismo]، ويتم ذلك بأن يدور كلب أو جروه حول الشخص المراد تطهير وبعد انتهائ الطواف يقتل الحيوان. وهذه المراسيم شائعة جداً عند الأغريق.

(٨٨) ما زال معبد قستا الرئيس قائماً في روما. وهو على شكل دائرة يتألف محيطها من عشرين اسطوانة - رخامية يعلوها افريز نو نقوش بديعة ويتألف سقف من قرص مدب أعلى في وسطه مثل قبعة الصينين وإطاره يرتكز على تيجان الأعمدة العشرين بني ليكون محراباً لشعلة النار المقدسة، التي كان الرومان يعتقدون انها ترمز الى قوة روما وعظمتها والتي كانت ترعاها الربة قستا في عرفهم. وتتناوب عذارى قستا السهر على الشعلة الدائمة ليل نهار، كما كان من واجباتهن رفع الصلاة للربة لتكفل رفاهية الشعب والدولة ونصر جيوش روما في الحروب وكان يعهد اليهن أيضاً ببعض محفوظات الدولة ووصايا الأباطرة والوثائق الهامة التي يتوقف على سريتها كيان البلاد. ولذلك كن يعتبرن حاميات روما وحارسات مجدها [م. ت].

ولا بد وان بولتارخ يقصد بان (رومولوس) الأول هو أول من استحدث النار المقدسة في روما. وأما عن وجود العذارى الفستالات قبله في صاحية (ألبا) فهذا مؤكد لأن أمه كانت واحدة منهن. أما النار المقدسة الخالدة فلم تكن مقصورة على روما بل هي شائعة في مصر وبلاد الفرس وما بين النهرين واليونان ولدى كل الشعوب تقريباً. أخذها الاغريق عن الشرق وهي النتيجة الطبيعية لعبادة الشمس أو النار كما في الدين الجوسي.

(٨٩) يذكر شيشرون في رسالة النبوءات. انها أكتشفت في معبد كهنة ساليا في اعلى قمة تلّ بالاتينا. (٩٠) مع هذا، فان الامتياز الذي اعتبره بولتارخ تعسفاً بحق المرأة، كان موسى النبي قد اباحه للرجال بدرجة واسعة. على ان حرية النساء عند الرومان كانت تبلغ حدّ أعطائهن الحق في تطبيق ازواجهن كما يظهر =

سرحها زوجها لسبب اخر غير هذه الأسباب الثلاثة، يصادر منه ملكه، ويعطي نصفه للمطلقة ويوقف النصف الآخر على الربة [چيريس Ceres] (٩١) وعلى كل من طلق امرأته كفارة، وهي ان يضحي لآلهة الأموات. ولوحظ في رومولوس أنه انفرد عن غيره بعدم وضعه عقوبة ما لجرمة قتل الأب أو الأم الحقيقي (٩٢)، ولكنه ادمج الجريمة مع غيرها من القتل وفرض حكماً عاماً معتقداً أن القتل عامة اعمال شنعاء وأن هذا القتل مستحيل لا يقدم عليه أحد وثبت أنه كان مصيباً في حكمه هذا، فقد مرت ستمائة سنة متواصلة ولم يرتكب مثل هذه الجريمة في روما. وذكر ان [لوشيسوس هوكتيوس Lucius Hoccius] كان أول قاتل لأبيه وقد وقع ذلك بعد حروب [هانيبال]. وفي ما ذكرنا الكفاية.

في السنة الخامسة لحكم [طاطيوس] كان بعض اصدقائه وبني قومه قد صادفوا سفراء موفدين من [لورنتوم] (٩٣) الى روما فحاولوا سلبهم اموالهم ولما قاومهم هؤلاء بطشوا بهم جميعاً، وكان غدرافاً فظيماً حمل رومولوس على الاستعجال في انزال العقاب بالمجرمين، إلا ان [طاطيوس] حال دون ذلك. وكان هذا مبدءاً الخصام العلني الذي نشأ بينهما. ولم يظهر شيئاً منه في اثناء تصريفهما الشؤون العامة وكانا شديدي الحذر من الاصطدام وظهر بمظهر المودة والتفاهم. أما ذوو القتلى فبعد ان حبل بينهم وبين الانتصاف الشرعي لقتلهم بسبب تدخل طاطيوس. تربصوا به اثناء ما كان يقدم قرباناً برفقة رومولوس في [لافينيوم]، ووثبوا عليه وذبحوه (٩٤)، إلا انهم لم يتعرضوا [لرومولوس] بل رافقوه الى بيته باحترام وهم يثنون عليه لما ابداه من عدالة، ودقن رومولوس جثمان [طاطيوس] دفنة فخمة جداً في جبل أفنتين، قرب

= من جوفينال ومارچيال (٤١:١٠) وفي الوقت نفسه يجب ان يلاحظ انه لم يعرف عن طلاق واحد وقع في روما خلال خمسمائة وعشرين عاماً وهو دليل على فضائل الرومان ومثانة أخلاقهم ولذلك يخص بالذكر [كارفيلوس كيبوريوس] بوصفه اول من طلق زوجه من الرومان.

(٩١) وهذا هو النص القانوني اللاتيني:

Familiam ad aedem Clreis; ispe sacer esto.

(٩٢) في هذا غرابة كبيرة. كما يلاحظ المؤرخ داسييه أن تعبير «القتل الابوي» كان موجوداً قبل ان يرد ذكر لارتكاب مثل هذا الجرم.

(٩٣) ليفي ١: ١٤ و ١-٣. ويقول [ديون] انهم كانوا سفراء قدموا من [لافينيوم] في السنة السادسة لحكم (طاطيوس)، لرفع الشكوى من الاعتداءات التي ارتكبتها اصدقائه له في موطنهم. وانهم وقعوا اثناء عودتهم في كمين نصبه لهم السابين في الطريق فسلبوهم وقتلوا بعضهم. وكلتا المدينتين متجاورتان ومن اعمال (لاسيوم).

(٩٤) ربما كانت هذه ذبيحة للرب الأسيومي المسمى (ايريديكس) وروما تشارك فيه أيضاً لأن المهاجرين الطروادين استقروا في ذلك الموضع. على ان (لوچينيوس) يقول ان [طاطيوس] لم يذهب الى هناك برفقه رومولوس. بل لم يذهب من أجل تقديم الذبيحة وانما خرج وحده محاولاً اقناع الأهالي بالعفو عن القتل.

موضع يدعي [ارمیلوستريوم Armilustrium] (٩٥) ولم يحاول الاقتصاص لمقتله. وذكر بعض الكتاب ان مدينة لورنتوم خافت العواقب فأسرعت بتسليم قتلة [طاطيوس] إلا ان رومولوس أطلقهم قاتلاً: لقد جَبَّ القتلُ القتلَ. وبهذا أحدث اسباباً للتقولات والتخرصات وثرثرة السنة الحساد اذ راحت تذيع انه ارتاح من ازاحة زميله وشريكه في الحكم، على ان مثل هذا الكلام لم يؤثر في السابين ولم يثر ضغينة فيهم واستمروا يعيشون بسلام. وبقي اعجابهم واحترامهم له، إما حب حقيقي يكنه له بعضهم، وإما خوفاً من بطشه، وأما لاعتباره في منزلة الأرباب، وأظهرت الأمم الأخرى اجلالها لرومولوس ايضاً وارسل اللاتين عدة سفراء اليه ودخلوا في حلف اتحادي معه. وأستولى على [فديني Fidenae] (٩٦) وهي مدينة مجاورة لروما بكوكبة من الفرسان فقط سبقوه على ما قيل، مزودين بأمر تقضي بكسر رتاجات ابوابها. وبعدها هجم بنفسه على غير انتظار. وقال آخرون ان سكان المدينة بداؤا العدوان وراحوا ينهبون الريف ويدمرون ما فيه فكمّن لهم رومولوس، وبعد أن قتل عدداً كبيراً منهم أقتحم مدينتهم إلا انه لم يهدمها أو يقوضها بل جعلها مستعمرة رومانية وارسل اليها في الثالث عشر من نيسان الفين وخمسائة مستعمر روماني.

ويعيد هذا انتشار وباء الطاعون، وأخذ يهلك الناس دون سيق مرض، فأمحل الزرع وجفّ الضرع وامطرت السماء دماً على المدينة (٩٧)، فأضيف الى البؤس الذي يعانونه، الخوف من غضب الآلهة. وعندما حلت المصائب نفسها [بلارنتوم] حكم الجميع أن النقمة السماوية حلت بالمدينتين لأنهما لم تسلكا سبيل العدل في مقتل طاطيوس والسفراء. فما أن سلّم القتلة وعوقبوا حتى خفت وطأة الوباء بصورة ملحوظة. وطهر رومولوس المدينتين بفرائض الغسول المقدسة، وقد بقيت تمارس على ما يقال في غابة تدعى [فرنتينا Ferentina]. وقبل ان تزول آثار الطاعون غزا الرومان قوم [الكامرتين Camertine] واجتاحوا البلاد متوهمين ان النوائب أعجزت اعداءهم عن المقاومة. إلا ان رومولوس مال بث أن عاجلهم القتال واستظهر عليهم بفتكه بستة آلاف فيهم والاستيلاء على مدينتهم وسوق ما وجده فيها من الأهالي الى روما.

(٩٥) سمي بهذا بسبب الاحتفال المعروف بهذا الاسم. ويقام في ١٩ من تشرين الأول كل سنة وفيه تستعرض الوحدات العسكرية صفوفاً ويجرى تطهيرها بتقدمة القرابين.

(٩٦) في هذا يتفق پلوتارخ مع ليفي (١٤:١) إلا أن [ديون ١٣:٢] يقول: عندما ارسل أهالي (كريستوميريوم) ارزاقاً لأغائة الرومان الذين أضرت بهم المجاعة أو... الوباء، كمن أهالي (فديني) للقافلة وسلبوها.

(٩٧) هذه الرّخات المنذرة الحافلة بالوعيد، يعزوها م. ريكارد الى الحشرات والابخرة القرمزية ويقول انها لم تكن نادرة في الأيام المتأخرة واننا لنقرأ عن أمثال هذه الخوارق فيما غير من الزمان. ولدينا ما يشبهها في ايامنا الحالية كسقوط حجارة برشقات.

ونقل الى [كاميريوم Camerium] (٩٨) من الرومان ضعف العدد الباقي فيها، وكان ذلك في اليوم الأول من شهر آب.

إن عدد من عفا عنهم من الناس خلال السنوات الست عشر الأولى من بنائه روما كان كبيراً جداً. ومن بين الغنائم التي استولى عليها من [كاميريوم] عجلة نحاسية تجرها أربع خيول وضعتها في معبد [قولكان] ونصب فوقها تمثالاً له مفتوحاً بصورة إله النصر.

هكذا صارت قوة روما تتنامى يوماً بعد يوم، وضعف أمر جيرانها وخمل شأنهم وقنعوا أن يُتركوا بما لديهم. إلا أن الأقوام الأقوى منهم، بدافع من الحسد أو إباءً عن الخضوع الى رومولوس، والسكوت على تعاظم سلطانه، قرروا الوقوف في وجه طموحه، وأول تلك الأقوام ال[فينيتس Veinets] (٩٩) وهم شعب من توسكانيا كثير المال والرزق يسكن مدينة عامرة. فأختلقوا سبباً للحرب خلاصته ان [فيديني] تعود لهم وهو ادعاء فضلاً عن كونه غير معقول، فهو سخيف، فهم الذين تركوا أهلها لشأنهم في أشدّ المواقف حرجاً ولم يمدّوا اليهم يدالعون فهلك كثير منهم، وهم الآن يدعون بملكية اراضيهم ومساكنهم عندما آلت الى أيدي الآخرين.

كان جواب رومولوس على طلبهم هذا، حازماً هازئاً. فقسّموا قواتهم الى قسمين وهاجموا بالأول منهما حامية [فيديني] وزحف الثاني لقتال رومولوس، ونال الأول نصراً وقتل الفين من الرومان. أما القوات الثانية فقد هزمها رومولوس وقتل منها ثمانية آلاف. ثم جرت معركة أخرى قرب [فيديني] وهنا يتفق جميع الكتاب ان الفضل الرئيس في نصر ذلك اليوم يعود الى مجهود رومولوس فقد أبدى مهارةً فائقةً وشجاعةً لا تبارى. وبدت القوة والسرعة اللتين اظهرهما وكأنهما ليستا من طبع البشر. أما قول بعضهم ان أكثر من نصف الأربعة عشر ألفاً الذين قتلوا في ذلك اليوم كان هلاكهم بيد رومولوس فهو حديث خرافة ووهم لا يقبله العقل ابداً، فحتى [الماسينيين] بالغوا كثيراً في ادعائهم ان [ارسطومينيس Aristo-menes] قدم ثلاثة قرابين متوالية لقتله مائة فقط من أعدائه اللقديميونين (١٠٠).

بعد أن هزم رومولوس جيش عدوه، وترك فلوله تنجو يجلدها وجه قواته نحو المدينة وكان

(٩٨) تلك المدينة في (لاسيوم) كان رومولوس قد أستولى عليها من قبل. وقد انتهز أهاليها الاصليون هذه الفرصة للعصيان فانقضوا وذبوا الحامية الرومانية.

(٩٩) فيي Veii هي عاصمة بلاد التوسكان وتقع على صخر جبلي وتبعد عن روما زهاء مائة فرسخ. ويصاهاها (ديون) بأنثينا من جهة غناها وحجمها.

(١٠٠) يؤيد [ياوسنياس ١٩:٤٣] هذه الرواية وينوه بالزمان والمكان فضلاً عن ذكره الهيكتومب المقدم ل[چوپتر اتيوماتس]. هذه الحروب بين المسينيين والسيارطين كانت قد جرت على عهد (تولولوس هوستيلوس).

العدو قدمني بخسائر جسيمة فلم يفكر في ابداء مقاومةٍ وأما أعلن استسلامه وأبرم معاهدة حلفٍ وصداقةٍ أمدها مائة عام، وتنازل أيضاً عن مساحة كبيرة من الأرض تدعى [سپتيميايوم Septempagium] ^(١٠١) اي المنطقة ذات المدن السبع، كذلك نزلوا له عن مملكتهم التي تقع على ضفاف النهر، ودفعوا اليه بخمسين رهينة من نبلائهم، ضماناً لتطبيقهم شروط الصلح، ودخل المدينة في موكب نصر - في الخامس عشر من تشرين الأول ^(١٠٢)، ومن بين الأسرى الذين ساروا فيه قائد جيش الفينيتس وهو رجل طاعن السنّ، لم يعمل على ما يبدو بما تمله حكمة السنّ. وتصرف ينزق ومن هذا جاءت عادة ظلت تطبق في كل مناسبة تقرب لقرابين النصر، وهي ان يقاد رجل كبير السن خلال السوق حتى الكاڤيتول، متشحاً برداء الأرجوان ومتقلداً لعبة الاطفال (بوللاً) والمنادي ينادي قائلًا «السارديون سيتم بيعهم الآن!» ^(١٠٣) اذ يقال ان توسكانيا هي إحدى مستعمرات السارديين، وان [فينيتيس] هي مدينة توسكانية.

كانت هذه المعركة آخر ما خاضه رومولوس من معارك. وبعدها أقدم على ما يقدم عليه معظم الرجال لا بل كل الرجال الذين ارتفعوا الى ذروة المجد والسؤدد بفضل ظروف معجزة فائقة العادة. (باستثناء القليل جداً) نقول أقدم على ما أقدم معتمداً على رصيده من جلال الاعمال والمآثر.

... ازداد تيهاً بنفسه وغروراً، واستبدل بسلوكه الشعبي المتواضع، الكبرياء الملكية الكريهة من الشعب، وتزيا بزى بغيض جداً الى قلوب العامة، فلبس القرمز وفوقه رداء مطرز الحاشية بالارجوان ^(١٠٤). وكان يقابل الناس وهو جالس على عرش يحيط به دوماً زمرة من الشبان عرفوا باسم [چيليرس] ^(١٠٥) اي العدائين لسرعتهم في قضاء المهام. وكان يسير امامه آخرون سيوراً من الجلد لتقييده من يأمر بتقييده حالاً. وللاتين يستعملون كلمة (الليكارى Alligre)

(١٠١) تمتد من مدينة فيي حتى ضفاف نهر اليبتر.

(١٠٢) للمرة الثالثة كما يزعم (ديون) وبشكل افخم من السابق بكثير.

(١٠٣) الفينيتس والاتوريون الآخرون هم مستوطنون قدموا من ليديا. وكانت مدينة (سارديس) مسقط رأسهم. ويؤرخ [فستوس] نقلاً عن [سينيچيوس كاپيتو] هذه العادة من وقت فتح جزيرة سردينيا من قبل [طبييريس سمپيتوس كراخوس] عند جلبه هذا العدد من أسرى تلك الجزيرة. حتى لم يبق من يشاهد في سوق النخلة من بضاعة غير العبيد السارديين.

(١٠٤) يطلق عليه Sagum أو «الزّي العسكري» وفوقه بسيط ال[البالودانتوم] أو معطف الجنرال ويشدّ فوق الكتف على ان ما جعله مكروهاً بالدرجة الأولى هو قسوته المتناهية في عقاب المجرمين. ومن ذلك اتهم عدد من الشبان الاشراف بقيامهم باعتداءات غير مسموح بها على اراضٍ مجاورة فحكم عليهم بالموت بالقائم من أعلى الصخرة التاربية (ديون: ١٤:١١).

(١٠٥) ليقي ١:١٥ و ٨. أمر رومولوس الأفخاذ (كيبوراي) الثلاثين بأن يختاروا له حرساً يتألف من ثلاثمائة رجل اي عشرة من كل فخذ وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم بولتارخ «چيليرسي».

الحالية، ومنها جاء لقب [ليكتورس Lictors] لهؤلاء الحرس. وكلمة [پاكيولا Bacula] اي صولجان للعصي التي يحملونها (فاچي Fasces)، لأن القضبان كانت شائعة آنذاك. ولعلمهم كانوا يستعملون اول الأمر لفظة [ليتورس] اليونانية، ثم زيدت حرف C فصارت (لكيتورس) أو (ليتورغي لائيتوس Liturgi Leitos) باليونانية «خدام للشعب» لأن كلمة «لائيتوس» اليونانية تعنى «العامة» و«لاوس Laös» تستخدم للجمهور عموماً.

إلا انه عندما توفي جده [نوميستور] في [ألبا] وآل العرش اليه، وضع الحكم في ايدي العامة لأجل ان يخطب ودّهم، وعين حاكماً على أهالي [ألبا] ^(١٠٦) يستبدل سنوياً. وهذا ما لقن رجال روما العظام درساً في ان يفضلوا دولة حرةً على الملكية، حيث يكون الكل رعية وحكاماً في الوقت نفسه. اذ حال بين الپاتريشيان وبين الاسهام في سياسة الدولة، ولم يبق لديهم غير الاسم واللقب. تراهم يجتمعون بحكم العادة وحفظاً للمظاهر أكثر من ابداء المشورة، ولا يفضلون عن العامة إلا بأنهم اسبق الى معرفة ما يجري، ولم تكن هذه المسائل ذات بالٍ أو قيمة، ولكن عندما عمد رومولوس الى توزيع الأراضي التي غنمها على الجنود من تلقاء نفسه، وعندما اعاد الى مدينة فينتيس رهائنها، أعتصب مجلس الشيوخ ولم يوافق ولم يقره على ذلك - وكان قبلاً يجتمع ليستمع صامتاً الى أوامر الملك ثم يتفرق. الظاهر انهم عدوها اهانةً عظيمة لهم. وغدا المجلس موضع شكٍ وريبة عندما أختفى رومولوس اختفاءً الغريب المفاجيء بعد زمن قصير من هذا. غاب في السابع من تموز [يولي الذي كان يسمى آنذاك كونتيلس Quintilis] غير تارك شيئاً مادياً يروى عن موته، إلا يوم اختفائه. وفيه ما تزال تقام عدة احتفالات تمثل ما وقع ^(١٠٧) وعلينا الآن نعتبر هذا الغموض مما يستغرب له اذا تذكرنا كيفية موت [سكيبيو افريقانوس] ^(١٠٨) فقد قضى نحبه في داره بعد العشاء ولم يكن في موته ما ينفي سبباً أو يثبتته، فبعضهم يقول انه موته كان طبيعياً لعلّة مزمنة كان يشكو منها. وبعضهم قال أنه تجرع السم، وذكر آخرون أن أعداءه فاجأوه ليلاً وخنقوه. مع هذا كله فان جنته عرضت للملأ وراح الجميع يستنتجون ويخمنون، في حين لم يترك رومولوس أثراً عند غيبته، ولو جزءً صغيراً من جسمه أو خرقه من ثيابه. لذلك مال الظنّ الى أن الشيوخ

(١٠٦) أو السابقين. هناك بعض المؤرخين ممن يفضل اطلاق اسم ألبان عليهم.

(١٠٧) امثال ما يدعى: Monae Carproliam أو Popeal ipagima أو Festum Amcillarum.

(١٠٨) هو سكيبيو افريقانوس ابن پاولس ايجيلبيوس - تبناه سكيبيو الاكبر وبما انه كان دائم المعارضة لمشاريع الشقيقين (كراخوس) فقد ظن أن زوجه سمپورينا وهي اختها - قد دست له سماً وقتلته. وبحسب زعم [قاليريوس ماكسيموس] لم يفتح تحقيق قضائي لمعرفة اسباب موته. ويحدثنا (فكتور: ٥٨) ان الجثة حملت وقد قنع الوجه بقماش من الكتان لئلا يظهر الوجه وقد اسود.

فتكوا به في معبد [قولكان] وقطعوا جثته اجزاء صغيرة أخفى كل واحد منهم جزءاً في طيات ثيابه وتخلصوا منها. وفي رأي آخرين أن غيبته هذه لم تكن لا في معبد قولكان ولا بفعل مجلس الشيوخ، وان حقيقة ما حدث هو انه كان يخطف في الناس خارج المدينة قرب موضع يدعى [مستنقع الماعز]^(١٠٩) فاكفه الجو فجأة وحصلت ظواهر عجيبة في السماء وأظلم وجه الشمس^(١١٠) وانقلب النهار ليلاً مضطرباً حفل بالرعود والصواعق المهولة والرياح الهوج تهب من كل صوب. فتفرق الناس وهربوا لايلون. إلا أن الشيوخ بقوا في موضعهم كتلة واحدة. ولما سكنت العاصفة وانكشف الظلام واجتمع الناس ثانية افتقدوا ملكهم ولم يجدوه وسألوا عنه فقال الشيوخ لهم لا تبحثوا عنه ولا تشغلوا انفسكم بأمره. وامروهم أن يكرموه ويعبدوه لأنه ارتفع الى مصاف الالهة. وانه مزع ان يكون لهم رباً كريماً رحيماً بعد ان كان لهم ملكاً صالحاً باراً فأمن الناس بما سمعوا ورجعوا فرحين في آمالهم بنوال خير الأمور منه. إلا انه وجد بينهم من أخذ يكلل القضية بسؤ نية وأخذ يتهم الپاتريشيان ويغتابهم، ويقول انهم خدعوا الناس واغروهم بحكايات سخيفة، لتغطية الحقيقة وهم الذين قتلوا الملك في الواقع.

قالوا: ولما أخذت الأمور تنحدر من سيء الى أسوء وملات الاشاعات الجو، قام [يوليوس پروكولوس Juluis Proculus]^(١١١) أحد الشيوخ الپاتريشين عرف بالخلق الحميد وبصداقته الحميمة لرومولوس^(١١٢)، ويكونه ممن جاء معه من البا كما كان ينحدر من اسرة نبيلة، ووقف متكلماً في الفوروم. أقسم باغلظ الايمان وامام الناس جميعاً انه رأى رومولوس قادماً نحوه وهو مسافر في طريق، وكان يبدو اطول قامته وأبهى منظراً ويرتدي دروعاً براقّة تشع ناراً. فادركته الرهبة من الشبح فابتدره قائلاً: أيها الملك ما الذي دعاك الى تركنا؟ ولماذا جعلتنا نتخبط في ظنون سيئة زائفة. والمدينة كلها في حزن وترح لا نهاية له؟ «فأجاب يقول: «كانت مشيئة الارباب، اي پروكولوس - ان نبقي نحن الذين انحدرنا من صلبهم. بين البشر هذه المدة من الزمن. ويعد ان بنينا أعظم مدن العالم بمجدها وجبروتها أن لنا ان نعود الى السماء،

(١٠٩) انظر ليفي المرجع السالف ١٦ و ٤٠١.

(١١٠) نوه [شيشرون] بهذه الظاهرة العجيبة ايضاً في «الجمهورية: الكتاب السادس» ويبدو من تدقيق الازياج الفلكية، انه كان ثم كسوف كلي طويل، في عام وفاة رومولوس ويقع في ٢٦ من آذار فإن قارنا ذلك بالتقويم الروماني المستخدم وقتذاك فانه يوافق شهر تموز. او لعل الرومان هم أكثر اطمئناناً من زمن موته من وقت ميلاده.

(١١١) ليفي: المرجع السالف ١٦:١، ٨-٥. وهو سليل ايولوس أو أسكانيوس.

(١١٢) من هنا جاء الاحتمال الغالب بان الشيوخ اختاروه ليحمل للناس ابناء الرؤيا المختلقة وهو ما كان مسموحاً به باعتباره فتناً قريباً مزيداً في اختلاق المعجزات تعظيماً للأقدمين!

فوداعاً وقل عني للرومان، انهم لن يبلغوا أعلى مراحل السلطان البشري بغير الوحدة والتمسك بحميد الخصال. وسنكون نحن لهم الآلهة الشفيع [كويرينيوس Quirinaus].

ومال الرومان الى تصديق هذا القول لما عرف عن المتحدث من امانة واخلاص، ولمسحة من الحقيقة والحماسة كانت تشويه لهجته كأنها نفحة آلهية نزلت عليه أو كان آلهاً تقمصه، ولم يعارض قصته أحدٌ ونبذوا كل دعوى واعتراض، ورفعوا أكف الدعاء لكويرينيوس وأقراؤه تحية الرب. ما اشبه هذه الحكاية ببعض الخرافات اليونانية التي رويت عن كل من [ارستياس Aresteas البروكونيزي Proconnesian]^(١١٣) و[كليوميديس Cleomedes الاستيالي Asty-palaeam]^(١١٤) إذ رووا أن [ارستياس] توفي في دكان دباغة، ولما جاءه اصداقائه لم يجدوا جثته. ويعد فترة من الزمن قدم بعض معارفه من الخارج وزعموا أنهم شاهدوه سائراً في الطريق المؤدي الى [كروتون Croton] وروي عن [كليوميديس] الذي كان جباراً هائل الخلقه ذا قوة فائقة، يخالط عقله جنون، وطباعه وحشية، ارتكب كثيراً من أعمال العنف كان آخرها أنه وجه بقبضة يده لكمة الى عمود في مدرسة كان بدعم سقفها، فكسره من منتصفه فخر السقف على من بداخل المدرسة من اطفال فقتلوا جميعاً^(١١٥)، فطورد، فهرب واختبأ في صندوق كبير وأغلق عليه الغطاء وامسكه من الداخل فحاول عدد كبير من الرجال فتحه فلم يوفقوا فلجأوا الى كسره قطعاً قطعاً ولكنهم لم يجدوا كليوميديس داخله، ودفعهم العجب والحيرة الى استخارة عرافة دلفي منزل الوحي فأجابتهم بالجواب التالي: «كان كليوميديس الاستيالي آخر الجبابرة». وقيل أيضاً ان جثمان [ألكميني] تلاشى اثناء ما كانوا يحملونه الى القبر ولم يجدوا في التابوت غير قطعة من حجر. ويقصّ كتاب الخرافات كثيراً من هذه الحكايات غير المعقولة، متحدين مبدأ موت البشر الطبيعي. فمع ان تجريد الفضيلة البشرية من اي صفات ربانية تجريداً تاماً هو كفر وضعة، فكذلك يكون من السخف والهذيان مزج السماء بالأرض، ولنؤمن [بيندار] القائل:

اجسام البشر كلها تخضع لحكم الموت. والروح تبقى خالدة مدى الدهر.

فهي وحدها من صلب الأرباب منهم جاءت واليهم تعود، وحدها لامع الجسم، وذلك بعد انفصالها عنه وفك ارتباطها به. عندما تكون طاهرة نظيفة تماماً خالية من اضرار اللحم. وفي

(١١٣) للاستزادة راجع [هيروdotus ٤:١٣-١٥].

(١١٤) انظر [پاوسنياس ٩:٦] وما بعدها.

(١١٥) يقول [پاوسنياس] ٩:٤ وقعت هذه الفاجعة لأنه لم يعط الجائزة بعد فوزه في نزال مصارعة على (ايكوس) الايباري. وصار يعبد كاله للمائة البطولية التي حققها. واستياليا هي جزيرة من جزر الكيكلاوس بالقرب من (كريت).

عرف [هيراكليطس] ان الروح الطاهرة، هي السامية الى ما لا نهاية تندفع من الجسم، كما يخرج البرق من السحابة. إلا ان الروح التي تبقى اسيرة الشهوات والغارقة في الأحاسيس فهي تشبه البخور الفاسد الثقيل يصعب ايقاده وتصعيده ابخرة».

فيتبقى علينا والحالة هذه ألا نسارع الى ارسال اجسام الناس الصالحين الى السماء خلافاً لمباديء الطبيعة واحكامها! بل يجب أن نؤمن بأن فضائلهم وارواحهم تنتقل من الحالة البشرية الى حالة الجبابرة بحسب طبائعهم الالهية وبمقتضى سنة الأرياب تم ينتقلون من حالة الجبروت هذه الى أنصاف ارياب ويعد ان يمروا في مرحلة القداسة والتطهر الأخير، كما في السنن المعروفة. ويحررون انفسهم من كل ما يربطهم بالبشر والشعور البشري، يرتفعون الى مصاف الآلهة لا بحسب نظام بشري مقنن وانما بحسب حكم العقل السليم^(١١٦). وهناك يتمتعون بالكمال الأعظم وما فيه من قداسة وبركة.

يقول بعضهم ان لقب [كويريتيوس] الذي عرف به رومولوس، مرادف ل(مارس)، ويقول غيرهم بل أطلق عليه لأن المواطنين الرومان عرفوا بهذا الاسم Quiritus، وزعمت طائفة أخرى أن الأقدمين سموه الرمح أو قناة الرمح (كويريس Quiris). فيكون اسم تمثال يونو Juno. المستقر على رمح، [كويريتيس] والرمح المحفوظ في الريجيا، بمثابة [مارس]. ومن يبرز في القتال من المحاربين يهدى اليه الرمح في العدة. ولأن رومولوس آله حرب، أو آله الرماح فقد سمي [كويريتيوس] ولابد أن معبداً ما، بني تكريماً له على جبل [كويرينالييس Quirinalis] وهو مأخوذ منه:

أما اليوم الذي غاب فيه رومولوس فقد أطلق عليه «يوم فرار الناس»، أو «سابوعاء الماعز» لأن الناس يخرجون فيه الى ظاهر المدينة ويقدمون القرابين في «مستنقع الماعز» وينادي احدهم الآخر وهم خارجون من المدينة، باسماء رومانية كقولهم [مركوس، لوستيوس! كايوس! مقلدين ما جرى اثناء هروب الناس في ذلك اليوم، وكيف كانوا ينادي احدهم الآخر في ذعرهم وعجلتهم. ولكن بعضهم بنفي ان يكون هذا تقليداً لما جرى، ويزعم انه تمثيل الهجوم مباغت سريع يعزى الى الحادثة التالية: بعد ان طرد [كاميلوس Camillus] الغالين من روما، والمدينة تقاسي الامرين مما حل بها وتتحامل على نفسها لتستعيد قواها انتهزت

(١١٦) كان هسيود أول من فرق بين الطبائع الأربع: الإنسان، الجبار، الجنّي، الآله. ويظهر انه رأى امكان التحول الدائم والتقدم الى حالة الخلود. وعندما يقول لنا عبدة الاوثان ان الكائن الحي قبل وصوله الى الطبيعة الأخيرة (طبيعة الآله) يمكن ان يقذف به ثانية الى الظلام البدائي الأول، لا يسعنا الا التصور بأن الاوائل سمعوا بدون شك شيئاً عن الملائكة المغضوب عليهم المطرودين من الجنة!

جموع اللاتين هذه الفرصة وزحفت عليها بقيادة [ليفيوس پوستيميوس Livius Postimius] وعسكرت قواتهم في موضع غير بعيد عنها وأرسل القائد منادياً للمدينة يعلم السكان ان اللاتين يحبذون تجديد حلفهم القديم واتحادهم (بعد ان ادركه الانحلال وكادت تنبت عراه) وان هذا لا يتم الا بعقد روابط مصاهرة جديدة بين الشعبين. فان ارسل الرومان عدداً مناسباً من عذارهم واراملهم فسيكون ثم سلم وصدقة بين الشعبين، وهو ما ناله السابيين من قبل بشروط مشابهة. واصغى الرومان الى هذا وكانوا من جهة يخشون الاشتباك في حرب ومن جهة أخرى فإن النزول من نسائهم هكذا، يعني الرضا بحالة تكاد لا تختلف عن الاسترقاق. وفيما هم يقبلون الأمر من شتى وجوهه قامت خادمة بيت تدعى فيلوتيس Philotis (بعضها يسميها توتولا Totola) وأشارت عليهم ان يتربشوا في الاقدام على أحد الأمرين، وان يلجأوا الى الحيلة لاجتنابهما وكانت خطتها ان يبعثوا بها مع عدد من الخادמות الجميلات بعد ان يرتدين ثياب العذارى الحرات. وأن تقوم هي عندما يجن الليل، يقاد نار كاشارة الرومان فيخرجون على اثرها ويباغتون العدو النائم. وانطلقت الحيلة على اللاتين. وأوقدت [فيلوتيس] مشعلاً في شجرة تين برية وسترتها من جهة العدو بستارٍ واغطية وكشفتها للرومان فخرجوا حالاً وكانوا في عجلتهم ينادي احدهم الآخر، وهكذا باغتوا العدو على حين غرة وانتصروا عليه. ولهذا اقاموا عيد النصر وسموه «تاسوعاء الماعز» لأن شجرة التين تسمى عند الرومان [كابينيكوس: أو تين الماعز] وهم يكرمون النساء به، باحتفالات تقام خارج المدينة وفي خمائل مصنوعة من اغصان التين. وتجتمع الخادومات معاً ويتراكن ويتلاعبن جذلات ويمثلن معركة زائفة فيما بينهن ويتقاذفن الحجارة دليلاً على أنهم عاون رجال الرومان في حربهم تلك. إن هذه الرواية لا يؤيدها الا قلة من الكتاب، لأن التنادي بالاسماء نهائياً والخروج الى مستنقع الماعز لتقديم القرابين يبدو انه يستقيم مع الرواية الأولى أكثر من الثانية إلا اذا افترضنا وقوع الحدثين في يوم واحد من عامين مختلفين.

في العام الخامس والاربعين من عمر رومولوس وفي العام الثامن والثلاثين لحكمه غادر^(١١٧) هذه الدنيا على ما قيل لنا.

(١١٧) [ديون] وبلوتارخ نفسه يذكر في اول سيرة [نوما] ان رومولوس ودع الحياة في العام السابع والثلاثين لبناء روما. ولعلهما لا يجانبان الحقيقة ولا يتناقضان. لأن أولهما يقول ان عمر رومولوس كان عند موته (٥٥) سنة وثانيهما يذكر (٥٤).

المحافظة على حياة تيسسيوس. وليس لنا والحق يقال ان نلومها على حبه بل ان نقر بكونها جدية^(٢)، لأن الرجال والنساء لن يكونوا سواسية في شكل عاطفتهم تجاهه، واذا كانت اريادنه الوحيدة في هذا، فيقيناً انها تستحق حبّ آله، هذه التي كانت قد احبت الفضيلة والصالح واشجع الرجال طراً.

ومع ان كلاً من تيسسيوس ورومولوس كانا رجلي دولة بطبعهما إلاّ انهما لم يحافظا حتى الأخير على اخلاق الملك فقد انحرف كلاهما عنها، وتغيّراً. فأولهما مال الى الديمقراطية. وثانيها انحدر الى مهالك الطغيان وانتهى بهما السبيل الى غلظة واحدة وان اتبعا طريقين مختلفين. ذلك ان الحاكم يجب ان يحافظ قبل كل شيء على كيان البلاد وهذا يتم بالإمتناع عن الاتيان بما لا يليق بقدر ما يتم بالتمسك بما هو لائق. إلاّ ان ذلك الذي يحدّ من سلطانه أو يوسّعه عمداً فهو لا يصلح كملك ولا كحاكم بل هو أماً غوغائي وأماً طاغية وكلاهما انما يشيعان الكره والاحتقار في قلوب الرعية ومهما يكن فان خطأ الأول فهما يبدو نابغاً من الحنان والمشاعر الانسانية النبيلة. أماً الثاني فمصدره الانانية والفظاظة.

وان لم يكن من الجائر أن تعزى مصائب الناس الى سوء الطالع، بل بالأحرى الى اختلاف الطبائع، فمن يبزيء تيسسيوس من غضبه الجائح الذي خرق حدود المعقولات - على ابنه، ومن يبزيء رومولوس من جريرة قتله أخاه؟ لو نظرنا الى الحوافز لسهل علينا الصلح من غضبٍ مأتاه سببٌ أقوى من سبب تيسسيوس، كالعضب الذي تشيره ضربة شديدة مفاجئة. ولما كان رومولوس قد أختلف مع أخيه عمداً وتقصداً في امور عامة فمن الحمق أن يصلح هذا الخلاف فجأة الى مرتبة الثورة العارمة القتالية. إلاّ أن الحبّ والغيرة واتهام^(٣) الزوج وهي مما لا يستطيع الخلاص من تأثيره غير قلة من الرجال - هي التي دفعت بتيسسيوس الى ارتكاب ذلك الجرم بحق ابنه. زد على هذا أن رومولوس ارتكب في فورة غضبه عملاً ذا أثر فاجع في حين انتهى غضب تيسسيوس عند حدود الكلام، اي عبارة أئمة، ولعنة اب طاعن في السن... وأماً مصائب الشاب الباقية فيبدو أن سببها كان سوء طالعها. والى هذا الحدّ لا يسع المرء إلاّ ان ينحاز الى جانب تيسسيوس.

(٢) هنا يتفق بولتارخ مع سقراط. الذي يُعلّم بان حبّ الفضيلة التسامي هما وحدهما القادران على تحقيق اتحادنا بالكائن الأسمي. لكن مع أن هذا المبدء هو من أحسن المبادئ لكنه غير ممكن التطبيق هلى [أريادنه] فاين الفضيلة من هذه الأميرة التي وقعت في حب اجنبي من أول نظرة وسارعت الى تحقيق لبانتها بدمار اقربائها وبلادها.

(٣) لا ينوه بولتارخ في سيرة تيسسيوس بشيء عن هذه التهم. مع انها يجب ان تكون بدرجة من الخطورة بحيث ادت به الى تلك المأساة المفجعة.

أوجه المقارنة بين رومولوس وتيسسيوس

هذا ما وصل الى علمي من اخبار عن كلّ من رومولوس وتيسسيوس، مما يستحق التدوين. والظاهر مبدئياً أن تيسسيوس كان يبحث عن المغامرات وجلائل الأعمال بحثاً بمحض اختياره في حين كان بوسعه ان يحكم آمناً مطمئناً في [طروزين] بلاداً واسعة. أما رومولوس فلأجل التخلص من عبودية كان يزرع تحتها، ودفعاً لما كان يتهدده، أصبح شجاعاً من فرط الخوف (على قول افلاطون)، ولخشيته من النوائب الكبار اقدم على أجلّ الأعمال، تدفعه الحاجة ليس إلاّ، هذا وان اعظم مأثرة له هي قتله ملك البيا، أما تيسسيوس فبوسعه ان يسمّى [سكيرون، وسينييس، وبروكرونوس، وكورينتييس] وكلها وقائع على الهامش ومقدمات لأعمال اضخم وأجلّ، فبقتله هؤلاء خلص بلاد اليونان من شر الطغاة قبل ان يدري هؤلاء المساكين من هو مخلصهم وفضلاً عن هذا فقد كان اسهل عليه السفر الى اثينا بحرّاً. فاشرار البرّ ولصوصه لم يأتوا عملاً ضده، في حين لم يكن رومولوس آمناً مادام اموليوس حياً. زد على هذا أن تيسسيوس كان يتعرض للأوغاد لا لأذى ألحقوه به، يل في سبيل الآخرين. اما ريموس ورومولوس فلم يعترضوا اعمال الطاغية ماداما في نجوة منه. واذا كانت الاصابة بجرح في معركة السابين، وقتل الملك اكرون والاستظهار على كثيرٍ من الأعداء. مآثر جليلة فلنا ان نضاهي بها معركة تيسسيوس ضد السنطورس، وضروب البطولة ضد الامازونات، لكن المرء يعجز حقاً عن وصف عمل تيسسيوس، بانضمامه طوعاً الى الشبان والعذارى المرسلين الى كريت إمّا ليقع فريسة في براثن الغول، واما ان يضحى به على قبر [اندروغيسوس] وإمّا كأهون الشربّين أن يعيش عيشة الاراذل المحتقرين في عبودية أشدّ الرجال قسوة وغلظة، أيوصف بالشجاعة؟ ام بسمو النفس؟ أم بحبّ انصاف الناس، أم التعلق بالشرف أم بالاقدام أو البأس؟ ولذلك أرى ان الفلاسفة قد اجادوا في تعريف الحبّ بأنه علاج الآلهة تزود به الصغار لتحميمهم وترعاهم^(١). فحبّ [أريادنه] يبدو أساساً من عمل آله شاءت ارادته

(١) انظر ليقي ٢ : ١٢.

إلا ان لرومولوس ارجحيةً ممتازة على قرينه، وهي أن أعماله الكبار نبطت من براعم ويدايات صغيرة جداً. فكللا الأخوين عرفاً بكونهما ابنين لراعي خنازير، وخادمين، وقبل أن يعتقا منحاً الحرية لجميع اللاتين تقريباً ونالا فجأة كل القاب التعظيم والتكريم، فسميا بالقاهرين اعداء بلادهما، والحاديين على اصدقائهما وابناء قومهما، وزعيمي الشعب، وبنائة المدن لامهدميها كثيسسيوس، الذي بنى بيتاً واحداً فقط من بين البيوت العديدة التي قوضها وهدم عدة مدن تحمل اسماء الملوك والابطال الاقدمين. ألحق يقال ان رومولوس هذا حذوه في ايامه الأخيرة، وارغم اعداءه على تقويض وتهديم منازلهم ومساكنة قاهريهم. إلا انه لم يحز لنفسه اراضي وبلاداً ومملكة وزوجات واطفالاً واقرباء بازالة مدينة من الوجود أو بتوسيع مدينته، بل نالها كلها باستحداث مدينة جديدة عظيمة. ولم يقتل أحداً في عمله هذا وأما نفع أولئك الذين كانوا في حاجة الى المأوى والمسكن، ورغبة في تكوين مجتمع ترعى لهم حق المواطنة فيه. ولم يبطش باللصوص والمجرمين بل اخضع امما وقهر مدناً. وأنتصر على الملوك والقادة.

اماً عن قضية ريموس فليس من يدري باي يد قتل. وعلى الارجح يُعزى قتله الى آخرين وليس ثم من شبهة في انه انقذ امه من موت محتوم ونصب ملكاً على عرش [اينياس] القديم، ورفع من شأنه بعد خمول وضعة وانحطاط الى منزلة التابع الخانع. وقدم له خدمات جليلة. ولم يلحق به أذى ولو بصورة غير مباشرة. لكن نسيان ثيسسيوس أوامر والده برفع الشراع الأبيض لا يبرئه من عقاب جريمة قتل الأب لا في رأي ولا في رأي أي قاض مهما بلغت سماحته. وأدرك أحد الكتاب [الاتيكيين] صعوبة الاعتذار لهذا العمل، فزعم كذباً ان ايجيوس أسرع يعدو عند اقتراب السفينة متجهاً نحو الاكروبوليس ليستطلع الأنبياء فولقت به قدمه وسقط... وكأني به قد سار وحيداً ليس معه خادم أو حارس يمشي في ركابه!

والحق يقال ان خطيئات خطف النساء التي ارتكبتها ثيسسيوس، لاتسمح له بأي عذر مقبول، أولاً لتكراره الجريمة عدة مرات فقد خطف [اربادنه] ثم [انتيوب] ثم [اناكسو] الطروزينية، وأخيراً سرق [هيلين] وهي طفلة لم تبلغ سن الزواج الشرعي وثانياً من ناحية السبب، فان عذارى الطروزينين واللقيديمونيين والامازون فضلاً عن كونهن غير مخطوبات له، فلسن أكثر جدارة بالنجاب اولادله من الاثينيات اللاتي ينحدرن نسلًا من [ارخيتيوس] و[كيسكرويس Cecrops] إلا أن دافعه الى هذا كان الشهوة لا الحاجة. اما [رومولوس] فعندما خطف زهاء ثمانمائة امرأة لم يتخير لنفسه كما قالوا إلا امرأة واحدة هي [هرسيليا] وفرق الباقيات على رؤوساء المدينة. وأثبت بضرور الاحترام والتجلة ومظاهر العطف والعدل التي عامل بها هاته النسوة، ان هذا الاعتداء لم يكن إلا عملية سياسية حسنة القصد غايتها تكوين مجتمع،

وتوحيد شعبين، وجعلها ينبوعاً يفيض بالصدقة والاستقرار العام. وكدليل على ما احده هذا الرباط الزوجي من حب واحترام وتلاحم، لم يحصل خلال مائتين وثلاثين سنة تالية أن طلق رجل امرأته، أو هجرت^(٤) امرأة تزوجها والزمن شاهدٌ. ولكن كما أن أول قضية قتل يرتكبها أحد بامه أو أبيه، هي من الأمور الغريبة النادرة عند الأغريق، كذلك يدري الرومان جيداً أن [سپوريوس كارفيليووس Spurius Carvilius] كان اول من طلق زوجته مستهماً اياها بالعقم^(٥). والنتائج المباشرة كانت متشابهة فعلى اساس هذه الزيجات تقاسم الزعيمان [رومولوس وطاطيوس] الحكم فيما بينهما، وخضع الشعبان للحكومة واحدة. ولكن لم ينجم عن زيجات ثيسسيوس صداقة أو تحالف او تبادل تجاري، بل نشأت عنها عداوات وحروب وسببت قتل المواطنين وألت أخيراً الى خسارة مدينة [افيديني] التي لم ينقذ أهلها من مصير طروادة إلا سلوك أهلها تجاه العدو^(٦). ومقابلته بالضراعة والتوسل، ولم تتعرض أم تيسوس للخطر وحده، بل عانت كذلك ما عانت [هيكوبا] من هجر الأبن وإهماله. الا اذا كانت حكاية أسرها مختلفة كما هو بودي ان يكون ذلك مع مسائل أخرى، ولقد قيل ان ظروف تدخل الآلهة التي سبقت او وافقت ولادة رومولوس وتيسسيوس كانت مختلفة فأولهما عاش بنعمة خاصة من الأرباب. ولكن النبوءة نزلت لايجيوس محظرة عليه مضاجعة النساء، أوضحت كما يبدو أن ولادة ثيسسيوس لم تكن محل رضى الأرباب أو ارادتهم.

(٤) يخبرنا [ديون ٨:٢] بدقة أكثر أن ذلك حصل في العام ٥٢٠ ق م ايام كان [يومپونيوس ماثو وپاپيريوس ماسو] قنصلين.

(٥) اقسام [كارفيليووس] يميناً أمام الجنسورين، بانه يكن لزوجه اعظم احترام وانه لا يطلقها إلا لأن انجاب الاولاد كان من ضمن الاتفاق المقدس عند زواجهما. إلا أن ذلك يجنبه الاستنكار والكره من الجميع الذين وجدوا ان يختط مسلماً قبيحاً بعمله هذا [Aul Gell] ١٧ : ٢١ و [٣:٤].

(٦) كاستور وپولوكس.

ليكورغوس

LUKOUGUS

دوّن پلوتارخ حياة ليكورغوس قبل تدوينه سيرة تيسيوس. كما ذكر هو نفسه عند سرده حياة الأخيرة. والظاهر انه كان شديد الكلف بالسيارطين عظيم التقدير لهم ولعاداتهم. فقد ترك لنا الى جانب هذه السيرة وسيرة غيره من عظماء السيارطين - رسالة حول قوانين اللقيديمين وتقاليدهم وأخرى حول الحكم اللقيّة. لقد جعل من ليكورغوس بطلاً مثالياً وعلل سلوكه ليقدمه كدليل على ان الحكيم الذي اتى الفلاسفة الى اعطاء اوصاف له كثيراً، ليس مجرد شخصية مثالية لا يمكن ان ترتفع اليها الطبيعة البشرية.

ويظن [طيماتوس]، أنه يوجد شخصان بهذا الاسم عاشا في زمنين مختلفين، ولأن أحدهما كان أشهر من الثاني فقد اسند اليه الناس مجد الإثنين وعلى تظنيبه، أن أسبقهما عاش في زمن يداني عصر [هوميروس]. وأسهب بعضهم وافراطاً في التفاصيل الى الحد الذي زعموا فيه أنه التقى بالشاعر. أمّا وأنه عاش في عصر بعيد فهذا ما يمكن استخلاصه من فقرة وردت في كزينفون Xenaphon اذ جعله معاصراً للهيراكليدي Heraclidae والحقيقة هي أن آخر ملوك سبارطا^(٥) هم هيراكليديون نسباً. لكن كزينفون يبدو في هذه الفقرة وهو يتكلم عن خلفاء هرقل المباشرين الأوائل.

وان ضربنا صفحاً عن هذا الاضطراب والغموض، فبإمكاننا محاولة تأليف تاريخ لحياته معتمدين على أقل النصوص تناقضاً ومياليين الى اولئك الكتاب الأجدر بالثقة من غيرهم.

وعند الشاعر [سيمونيدس] أن ليكورغوس هو ابن پريتانيس [Prytanis] لا ابن [يونوموس]، على انه كان أوحد رايه في هذا، لأن الباقيين كافة يرتبون سلالة نسبهما على الشكل التالي:

اريسطوذيموس Aristodemus

پاتروكلس Patrocles

سوييس Soüs

يوريبون Eurypon

[ليكورغوس] من زوجه الثانية ديوناماسا Dionassa ويولينكتس من زوجه الأولى]

ويقول [داخيداس Dieuchidas] أنه النسل السادس من پاتروكلس والحادي عشر من الهراقليدي^(٦).

(٥) يقول (سترابو) لن ليكورغوس عاش بالتأكيد في الجيل الخامس بعد [الثيمينس] الذي قاد حملة استيطان الى (كريت) والثيمينس هذا هو ابن (كيسوس) الذي بني مدينة (ارغوس) في الوقت الذي قام (پاتروكلس) جد ليكورغوس الخامس بوضع أسس سبارطا وعلى هذا يكون ليكورغوس قد عاش بعد (صولون) بوقت قصير وفي حدود العام ٩٠٠ ق.م. وان ظن بعض المؤرخين المتأخرين انه عاش في عصر الهيراقليدي.

ان هذه الفقرة اقتبسها پلوتارخ من رسالة (كزينفون) الممتازة عن «جمهورية سبارطا». كما اقتبس من تلك الرسالة اهم ما اورده عن سيرة ليكورغوس.

(٦) من [ارسطو زيموس] خرج التوأمان يورستينس وپروكلس ومنهما نبغ الخطان الملكيان الاكبر والأصغر في سبارطا. وهما الخط الأغيذي والأفريتيتيدي. و[ارسطو زيموس] هذا هو ابن (هيلوس) ابن (هرقل) [انظر پاوسينياس ٣:١٠-١٠] و[هيرودوتس ٧:٤٠ و ٨:١٣١].

في الروايات التي تركها لنا المؤرخون عن ليكورغوس واضع قوانين سبارطا Sparta كثير من الخبط والتخمينات والرجم بالغيب، وقل أن ذكر أحد شيئاً لم ينقضه الباقيون أو يشككوا فيه. وتختلف وجهات نظرهم حتى حول شؤون الأسرة التي نبغ منها. أو الرحلة التي قام بها، أو موضع وفاته وكيفية موته، ويأتي أعظم الخلاف حين يبحثون عن القوانين التي استحدثها، والجمهورية التي انشأها. ويتعذر اتفاهم تماماً حول العصر الذي عاش فيه، اذ يقول بعضهم انه عاش في أيام [إيفيتوس Iphitus]^(١) وأنهما تعاونوا معاً على سنّ شريعة إيقاف الحروب^(٢) اثناء احياء الالعاب الاولمبية، ومن هؤلاء ارسطو. وتثبيتاً لقوله زعم وجود كتابة على قرص من الأقراص النحاسية التي تستخدم في تلك الالعاب نقش عليها اسم ليكورغوس وأن هذه الكتابة كانت مقرؤة في ايامه. إلا أن [راتوستينس Eratosthenes] و[پولودورس Apollodorus]^(٣) وغيرهما من المؤرخين يحاولون بحساب الوقت على أساس تعاقب الملوك السبارطين - ان يثبتوا انه عاش في زمن أبعد كثيراً من تاريخ منشأ الالعاب الاولمبية^(٤)،

(١) ملك (إيليس) الذي قيل أنه أنشأ أو بالأحرى أحياء الالعاب الاولمبية قبل مائة وثمانين سنوات من قيام أول أولمبياد معروف في العام ٧٧٦ ق.م وعرف بنسبته الى كوربوس. كما جرت عادة الولىبيادات التالية بنسبتها للفائزين الآخرين.

بدء [إيفيتوس] بتقديم ذبيحة لهرقل الذي كان الالبانيون يعتقدون انه ساخط عليهم لسبب ما. وبعدها أمر بالالعاب الاولمبية لتعلن في سائر بلاد اليونان. ووعد بالحرية والأمان لكل الواردين لمشاهدة الالعاب وخذ موعداً لها - وكانت قد انقطعت بسبب نقشى الوياء على ما قيل. كذلك نصب نفسه رئيساً لها وحكماً. وهذا امتياز كان اهل (بيزا) كثيراً ما يتنازعون عليه مع خلفائه الذين انحصر فيهم طوال ما كانوا ملوكاً. وبعد انقراض الأسرة عين الالهون رئيسين حكمين ثم ارتفع العدد الى عشرة ثم الى اثني عشر بمرور الزمن.

(٢) في اثناء احياء الالعاب الاولمبية (فضلاً عن الالعاب البيثية والإستمية والنيمية) تفرض دائماً وكمبدء عام، هدنة في سائر بلاد اليونان يصدر بها بيان رسمي وتنتم اذاعته (پاوسينياس ٥:٢٠) فاذا دخلت وحدة عسكرية [إيليس] بعد هذا البيان. فتفرض غرامة قدرها ميناان على كل جندي [توكيدس ٥:٤٩].

(٣) لقب [ايراستينوس] بافلاطون الثاني لسعة مداركه وأطالعه وهو مؤرخ شهير وشاعر وفيلسوف نبغ وتمتع برعاية [إطليموس فيلواطر] اذ كان والده [إطليموس سورگيتيس] قد دعاه من اثينا ونصبه أميناً مشرفاً على مكتبة الاسكندرية الشهيرة. ومعاصره [پولودوروس] كتب كتاباً عن الميتولوجيا، ما زال موجوداً، ويحتوي على مختصر لتاريخ الآلهة والابطال الاقدمين. الى جانب آثار أخرى له مفقودة.

(٤) الولىبياد الأول كان في ٧٧٣-٧٧٦ ق.م.

واياً كان الأمر فان [سويوس] كان بالتأكيد أشهر اسلافه، فبقيادته اخضع السبارطيون الهيلوت Helot^(٧)، و اضافوا الى بلادهم بقوة الفتح جزءاً كبيراً من أركاديا، وهناك قصة تروي عن [سويوس] وهي ان الكيتورين^(٨) ضربوا حصاراً حول جيشه وهو في موضع صخري قاحل ليس فيه قطرة ماء واضطر الى ان يتفق مع اعدائه على ان يعيد اليهم كل ما استولى عليه من املاكهم إن شرب الماء هو وكل جنوده من أقرب ينبوع. وبعد حلف اليمين على الاتفاق، جمع جنوده وعرض مملكته كلها على أي واحد منهم هدية منه، إن تمكن من ضبط نفسه ولم يشرب ماءً. ولما لم يصبر واحد منهم على العطش، أو بعبارة أخرى لما شرب جميعهم وارتوا، تقدم هو الى الينبوع في اعقابهم ومد رأسه وأصاب وجهه برشاش من مائه دون ام يدخل فمه قطرة واحدة ثم سار عنه مبتعداً امام اعين اعدائه، رافضاً ان تنازل عن فتوحاته، لأن الاتفاق نص على أن يشرب من مائهم (هو) وكل رجاله.

ومع ذبوع اسمه واستطارة شهرته لهذا العمل البطولي، إلا ان أسرته لم تتخذ اسمه لقباً. وانما لقبت باسم ابنه [يوربيون] (عرفوا باسم الاثريپونتيذ Eurypontids)^(٩). ويعزى هذا الى أن [يوربيون] أرخى من قبضته على المحكومين متطلعاً الى خطب ودهم ورضاهم.

فكثرت مطالبهم بعد هذه الخطوة الأولى. وكره العامة الملوك المتعاقبين بعده وسخطوا عليهم بعض الشيء لأنهم حاولوا استخدام القوة، أو لاعطائهم تنازلات أخرى وإظهارهم الضعف اما لخور في نفوسهم او لنيل المزيد من حب الناس. وسادت الفوضى سبارطا زمناً طويلاً ومما سببته، موت والد ليكورغوس. اذ بينما كان يحاول تهدئه شغب، طعن بسكين جزار فقضى نحبه وخلف الملك لابنه الاكبر پولندكتس Polydectes.

(٧) سكان (هيلوس) وهي مدينة بحرية من مدن لاقونيا فتحها اللقيديميون واستعدوا أهاليها وأطلقوا اسم الهيلوت لا عليهم وحدهم بل على كل عبيدهم الآخر. وعلى اية حال فمن المؤكد ان نسل الهيلوت الاصلاء وان كانوا قد لقوا اسوء ما يتصور من المعاملة (بعضهم أعتيل) فانهم مكثوا في لاقونيا عصوراً.

(٨) الكليتوري Clitori شعب من اركاديا، اسمهم جاء من مدينتهم التي استمدت اسمها من اسم ملوكهم. يوجد بالقرب من هذه المدينة نبع ماء يثير الشرب منه اشمزازاً وصدوداً في النفس عظيماً عن الخمر. [ارسطو: ميتافزقا ١٥: ٣٢٢].

(٩) من المفيد هنا تقديم للقارئ فذلك عن نظام الحكم الملكي اللاقوني على عهد الأسرة الهيراقليدية. هذه الأسرة طردت [تيسامينيس] ابن [اورستس]. وحل يورستينس وپروكس ولداً [أرسطو نيموس] محلّه. واتخذ حكمهما منحىً جديداً فكان ثم ملكان بدلاً من واحد سلطتهما متساوية ولم يقسم الأخوان المملكة بينهما ولم يتفقا على المناوبة في الحكم بل حكماً معاً وفي ان واحد ومما يدعو الى العجب انه يصرف النظر على المحاسدة والمنازعة. فان هذه الملكية الثنوية لم تنته بنهاية هذين الأخوين بل استمرت في تعاقب ثلاثين ملكاً من فرع يورستينس، وسبعة وعشرين ملكاً من صلب پروكس. [يورستينس] خلف [أغيس] وبه سمي نسل هذا الفرع (أغيدي) في حين اتخذ الفرع الثاني اسم (أثريپونتيدي) نسبة الى (أثريپون) حفيد [پروكس]. [انظر پاوسنياس، سترابو، هيرودوتس وغيرهم].

وتوفي هذا بعد فترة قصيرة، فأل حق العرش (كما خيل للجميع) الى ليكورغوس، وملك فعلاً، حتى تبين ان زوج أخيه المتوفى حامل، فسارع ليعلن ان الملك يعود لعقب أخيه ان ولد ذكراً. وانه سيمارس تبعات الحكم وصلاحياته بالوصاية فحسب. والاسم السبارطي للوصاية هو پروديكوس Prodicus بعد ذلك عرضت عليه الملكة الحامل ان تسقط جنينها بصورة من الصور شريطة ان يتزوجها عندما يعتلي العرش. ماستنكر شر المرأة ومحيطه نفسه إلا انه لم يرفض اقتراحها صراحةً وانما تظاهر بقبوله وأرسل رسولاً لابلاغها شكره وفرحه ولكنه أصرّ مشدداً بالآ لتجأ الى اسقاط جنينها لما ينطوي عليه ذلك من الأذى، هذا إن لم يتضمن خطراً على حياتها قائلاً انه سيقوم هو نفسه بالتخلص من الوليد حال وضعه. وبامثال هذه الوسائل والحيل أمكنه أن يحوز ثقة المرأة ويبلغ بها نهاية أيام حملها. ولما سمع انها في المخاض ارسل اشخاصاً ليكونوا قريبين منها وليلاحظوا كل ما يجري. وزودهم باوامر تقضي ان يتركوا الوليد لأمه إن كان بنتاً وان يأتوا به اليه حالاً أينما وجد ومهما كان يفعل، إن ولد ذكراً، وأتفق انه كان يتناول عشاءه مع كبار القضاة عندما وضعت الملكة ابناً. فجيء به اليه وهو جالس الى المائدة فتناول به بيديه وقال لمن حوله: «يا رجال سبارطا هوذا ملك ولد لكم» ثم وضعه على سرير الملك وسمّاه [خاريلوس Charilaus] أي «فرحة الشعب» لأن الجميع تملكم الاعجاب والغبطة لما راؤوا من روح ليكورغوس النبيلة العادلة.

لم يطل به الحكم غير ثمانية أشهر، إلا أن الشعب أكبره وأحبّه لأسباب أخرى غير الملك. واطاعه العديد لفضائله السامية لا لأنه وصي على العرش بيده الحل والعقد. إلا ان بعضهم حاول غمز نفوذه المتعاطم وقت شبابه. لاسيما اصداقاً الملكة الأم واقرباؤها فقد زعموا أنه لم يعدل في معاملتهم وكثيراً ما الحق به الأذى. وفي نقاش حاد جرى بين [ليكورغوس] وبين [ليونيداس Leonidas] أخ الملكة لم يتورع ان يشتمه بقوله: انه لعلى يقين تام بأنه لم يمر زمن طويل حتى يراه ملكاً! يريد من قوله هذا أن يزرع الشك في النفوس، ويهيء الاذهان الاتهام [ليكورغوس] باهلاك الطفل في حالة موته ولو بصورة طبيعية. ونشرت الملكة الأم واتباعها امثال هذه الحكايات من عمد، وتصميم فأتتبه قلق شديد، وأصبح وهو في خوف مما سيحيى به المستقبل. ووجد خير سبيل لأجتنب الشر هو النفي الاختياري والانتقال من بلاد الى أخرى حتى يبلغ ابن أخيه سن الزواج، ويضمن ولي عهد له.

فركب البحر إذن يحدوه هذا العزم وبلغ (كرت) أولاً، وفيها درس مختلف أجهزة حكمهم وتعرف بأعلامهم، وأستحسن بعض قوانينهم^(١٠) ورأى ان يفيد منها في بلاده، وأهمل طائفة

(١٠) يرى اقدم الكتاب (امثال افورس، كاللتينس، ارسطو افلاطون) ان ليكورغوس اقتبس كثيراً من شريع =

كبيرة منها إذ لم ير فيها جدوى وصلاً وكان [طاليس Thales] ^(١١) من أشهر الرجال الذين عرفوا بالحكمة، والعلم، والوقوف على شؤون السياسة والحكم، فاقنعه [ليكورغوس] بحكم صداقته وبالجاحة الشديد، ان يسافر معه الى [لقيدميون] ومع أن مظهر طاليس الخارجي ومهنته الخاصة لا ترفعه الى أكثر من درجة شاعر غنائي، إلا أنه قام والحق يقال بمهمة مشترحة من أقدر واكفأ المشتريين في العالم. فاناشيده التي تدفع وتحث النفوس على الطاعة والتعاضد، وقوافيه واوزانه التي تحمل في طياتها فكرة النظام والهدوء، كان لها تأثير عظيم على عقول المستمعين تلين طباعهم وتهذب نفوسهم فلا يشعرون، إلا وقد نبذوا الحزازات والأحقاد واتحدوا معاً في اعجابهم وحبهم بالفصيلة. ان [طاليس] مهد السبيل للنظام الذي ابتدعه [ليكورغوس].

وانتقل من كريت الى آسيا عازماً - كما قيل - على تأمل أوجه الخلاف بين قواعد وأساليب حياة أهل كريت الجدوية الرزينة جداً، وبين عادات الآيونيين ^(١٢)، الرقيقة المرفهة. ليبني له من ذلك رأياً - كما يقارن الاطباء بين المرضى والاصحاء. ووقع نظره هنا ربما ^(١٣) لأول مرة على ملاحم هوميروس وقد حفظتها أيدي أسلاف [كريوفيلوس Creophus] بلا شك. ولما وجد أن الدروس السياسية الرضية والمبادئ الخلقية والحكم تشيع في تلك الاشعار حتى تكاد تغفو على التعابير المتبذلة والأمثال السيئة التي توجد فيها ^(١٤)، شرع حالاً في نقلها وتنسيقها

= جزيرة كريت إلا ان يوليبيوس (٦) يصّر على تخطئتهم جميعاً ويقول «في سبارطا، الأراضي كلها موزعة على المواطنين، ولا وجود للثروة، والحكم وراثي في حين ان الامر خلاف ذلك في كريت» على ان هذا لا يدل بان ليكورغوس لم يأخذ بطائفة من الاحكام الجيدة والاعراف السائدة في كريت، واغفال ما لا يصلح. على انه ثم تشابها عظيماً بين شرائع ليكورغوس وشرائع (مينوس) ملك كريت بحيث وجب علينا ان نشابع سترابو [١٦] في ايمانه بان الواحدة كانت أساساً للأخرى. أيهما!!!

(١١) كان طاليس شاعراً وموسيقياً ويجب ألا يخلط بينه وبين (طاليس الملبسي) الذي عد من حكماء اليونان السبعة. وقد عاش الشاعر قبل الفيلسوف بمائتين وخمسين عاماً تقريباً.

(١٢) ارسل الآيونيون من اتيكيا مستعمرين الى جزء من آسيا الصغرى يقع بين ليديا وكاريا في حدود العام ١٠٥٠ ق.م اي قبل عصر ليكورغوس بقرن واحد ونصف قرن ومع انهم يقطعوا اواصرهم مع الوطن خلال هذه الفترة القصيرة. إلا ان مشترينا استطاع الحكم على التأثير المناخي والانتاجي لآسيا، حتى ان هؤلاء المستعمرين اصبحوا مضرب المثل في الخنوة والميوعة.

(١٣) ويضيف كلمة «ربما» لأن بعض الكتاب الاغريق أكدوا ان ليكورغوس التقى ب(هوميروس) بالذات وكان انذاك يعيش في (خيدس). على ان پلوتارخ هو صاحب الرأي المعتمد هنا، فقد مات هوميروس قبل ميلاد ليكورغوس ولم تكن اليونان قبل عهد ليكورغوس تعرف شيئاً عن هوميروس خلا مقطوعات متفرقة عرفت بعناوين موضوعاتها مثل «بطولة ديوميدي» أو «فدية هكتور» وغير ذلك.

(١٤) ان حكم افلاطون في هذا الموضوع يختلف تماماً عن رأي ليكورغوس فحين استبعد الشعراء من «جمهوريته» لم يستثن حتى هوميروس نفسه الذي وجده اديباً مفسداً للشباب لأنه لم يقدم صورة لائقة للآلهة كما يراها افلاطون. في عدائه هذا لهوميروس يقف افلاطون وحيداً لاناصر له.

بنظام لطيف لما رأى فيها من فائدة لبلده. كانت هذه الملاحم في الحقيقة قد حظيت ببعض شهرة بين الاغريق، ووصلت شذرات واجزاء مقتضبة منها قبله الى أيدي بعض الأفراد بحكم الصدفة إلا ان ليكورغوس هو أول من نشرها واذاعها.

يقول المصريون أنه رحل الى مصر ومكث فيها، وأعجب كثيراً بأسلوب تمييز الطبقة العسكرية عن بقية السكان ^(١٥)، فنقل هذا النظام الى سبارطا. لأن إبعاد هذه الطبقة عن الذين يمتهون الأعمال الجسدية يكسب الدولة روعة ومهابة عظمتين. ولقد دون ذلك أيضاً بعض الكتاب الاغريق. وأما عن رحلاته في اسبانيا وافريقيا والهند، ومناقشاته مع [الجنموسوفسيين Cymnosophist] ^(١٦)، فمصدر كل الروايات الوحيد عنها كما وجدت - هو ارستوقراطس Aristocrates السبارطي ابن هيپارخوس Hipparchus.

واشتاق أهل سبارطا الى ليكورغوس كثيراً. والحوأ عليه بالعودة مراراً قائلين. «حقاً ان لدينا ملوكاً، يرتدون شارات الملك ويتخذون ألقاب الجلال والسلطان، أما عن مداركهم وسعة عقولهم فليس فيها ما يميزها عن عقول أفراد رعيتهم.» وزادوا قائلين ان فيه وحده تظهر أرومة السيادة الحققة، والطبع الذي خلق ليحكم، والإرادة التي وجدت لتطاع. ولم يكن الملكان نفسهما بالكاهنين عودته، لأنهما كانا يعتبران وجوده سداً واقياً لهما من غائلة شعبيهما.

وطالعته هذه الحقيقة عند عودته، فانصرف حالاً دون، أن يضيع وقتاً - الى الاصلاح الشامل، عزم أن يغير وجه الجمهورية بأسره اذ ما فائدة قوانين قليلة وتغييرات جزئية؟ كان عليه أن يعمل كالطبيب الواسع العقل عندما يجابه مريضاً تكالبت عليه الاسقام وأختلخت فيه، فبقوة الأدوية ينهكه ويضعفه، ويغير من كل مزاجه ثم يخضعه بعد ذلك الى نظام حمية

(١٥) المصريون لم يميزوا العسكريين والكهنة (وهما غالباً من الأشراف) عن بقية طبقات الشعب لكنهم ميزوا ذوي المهن الأخرى كالرعاة، ومربي البقر، والتجار، والبشارة والمترجمين وهم ينحدرون من قبائل وطبقات مخصوصة يأخذ فيها الابن عن الأب حرفته. ويرى هيروودوتس (١٨٦:٢) ان النظام المذكور استمدته ليكورغوس من مصدر أقرب الى موطنه من مصر، فقد كان سارياً عند التراقيين، والصيثيين وغيرهم.

(١٦) فلاسفة الهنود القدماء هي طائفة منصرفه الى التأمل والصمت، يكاد أهلها لا يرتدون شيئاً من الثياب يعيشون في الغابات. والبرهميون فصيلة من الطائفة نفسها وهم يكرهون البطالة كراهة تحريم. ويحدثنا اپوليوس انهم اوجبوا على تلاميذهم تقديم حساب يومي عن عمل طيب قاموا به أو بالتأمل بعمل أقدموا عليه قبل السماح لهم بالجلوس لتناول العشاء. وهم يؤمنون بالتناسخ ويحياة أخرى أفضل وأطيب حتى انهم ما كانوا ليترددوا قذف أنفسهم الى النار عندما يشبعون من الحياة. أو تصيبهم مصيبة. ونخشى ان يكون الخيلاء والاعتداء بالنفس، الدافع الذي دفع أحدهم الى احراق نفسه امام اسكندر الكبير، وآخر الذي قضى حرقاً امام اغسطس قيصر. وما يزال الخلاف قائماً حول صحة زيارة ليكورغوس الهند من عدمه - بين مترجمي پلوتارخ الفرنسيين امثال (داسيه وريكارد).

دقيق جديد تماماً. ويعد ان صوراً لنفسه مشاريعه المقبلة، قصد دلفي لاستخارة ابوللو^(١٧) هناك ويعد أن نال بغيته، وقدم قربانه عاد بالنبوءة الشهيرة التي سُمِّي فيها «حبيب الله» و«الاقرب الى الآله منه الى البشر» وان صلاته استجيبت وان قوانينه ستكون خيراً ما وجد، وأن الجمهورية التي ستسير عليها وستكون اشهر جمهورية في الدنيا. كل هذا شجعه على كسب وجهاء سبارطا الى جانبه وأقنعهم بمدد العون له في مشاريعه العظيمة، وأسر بالمسألة اولاً لأقرب اصدقائه وكسبوا هم أنصاراً آخرين بالتدريج، والهيب حماساً الجميع لتنفيذ مآربه، ولما حانت ساعة العمل، أمر ثلاثين من سراة سبارطا، أن ينزلوا سوق المدينة بسلاحهم فجر اليوم التالي، ليبيت الرعب في نفوس الحزب المناوئ. وذكر [هرميپوس Hermippus] اسماً اشهر وبرز عشرين منهم. إلا أن [ارثميادس Arthmiades] كان أسم ابرز الجماعة كافةً، وأقربهم الى ثقة ليكورغوس وسره، وأكثرهم نفعاً له في سنّ قوانينه ووضع التطبيق. اضطربت الخواطر، وساد الهياج وتوهم الملك [خارپلاوس] أن مؤامرة تحاك ضده، فاسرع يحنى بمعبد البيت النحاسي^(١٨)، ولكن بعد أن تبين انه وهم، واخذ العهود والمواثيق منهم بأنهم لا ينوون به شراً، ترك ملجأه وانضم هو نفسه اليهم. كان [خارپلاوس] إنساناً من ارقّ والطف الناس وأكثرهم سماحة. حتى ان [ارخيلالوس Archelaus] أخاه في الملك يقول فيه عندما كانت طبيبته تمدح أمامه: «من يستطيع القول عنه أنه طبيب؟ وهو لا يعرف الصرامة حتى مع الأشرار».

من التغييرات الكثيرة والاصلاحات التي عملها ليكورغوس، اولّها وأعظمها أهمية انشاء مجلس للشيوخ. سلطاته مساوية لسلطات الملك في الأمور الهامة جداً، ليحد من سلطات الملك، ويعدّل ويلطف من اندفاعاتها النارية^(١٩)، وبذلك يشيع الثبات والاطمئنان في بناء

(١٧) اقنع (مينوس) أهل كريت بان قوانينه نزلت عليه وحياً من (چوپتر) وقلده في ذلك ليكورغوس تحذوه الرغبة في اقناع أهل سبارطا بأن فعل ما فعل بتوجيه وأمر من (ابوللو). هناك مشترعون آخرون وجدوا من الأفضل كثيراً ان يضحوا هذه الفكرة القائلة بأن شرائعهم ونظمهم انما جاءتهم من الأرباب. لأن حبّ النفس في الطبائع البشرية الذي لا يتسامح ولا يتحمل تقوفاً عبقرياً تمثل في مشترع لم يعاونه أحد في عمله، يجد راحة وسهولة في تطبيق احكام ذلك المشترع عندما يقال له انها أوحيت اليه في السماء ولهذا نجد واضعي الشرائع القديمة يعزونها الى الارادة الالهية دائماً لأن في ذلك تعزيزاً لسانها ورفعاً من قدرهم كما يضمن لهم فضلاً عن ذلك قيام الأهالي بالدفاع عنها ومعاونته ضميرياً في تطبيقها والتقدير باحكامها.

(١٨) اي خاليوكس وهو هيكل الربة اثينا، وكان شاخصاً في ايام (پاوسنياس) المعاصر لماركوس انطونيوس. (١٩) الفقرة التي يشير اليها المؤلف هي في كتاب افلاطون الثالث حول الشرائع حيث نجده يبحث في أسباب سقوط الدول ويضع الكلام التالي على لسان اثيني قائلاً يخاطب القليدييين: «في اعتقادي إن ألهاً من الالهة مدفوعاً بغيرته على دولتكم ولمعرفته بما سيأتي به المستقبل أعطاكم ملكين من أسرة واحدة =

الجمهورية» على ما يقول [افلاطون]. لأن الدولة قبل ذلك لم تكن تستند على قاعدة ثابتة فمرة تميل الى الملكية المطلقة لفترة من الزمن، عندما يستظهر الملوك، ومرة تميل الى الديمقراطية الصرفة عندما ترجح كفة الشعب وتكون لارادته الكلمة العليا. فكان مجلس الشيوخ هذا بمثابة قطب الرحي. كالمثقلة في السفينة فانها تحفظها دائماً في توازن تام، ينحاز اعضاؤه الثمانية والعشرون دائماً الى جانب الملوك لمقاومة التيار الديمقراطي، ويساندون الشعب من الجهة الثانية ضد اي محاولة لقيام ملكية مطلقة. واما بخصوص تحديد العدد بثمانية وعشرين فيقول [أرسطو] عزى سببه الى ان اثنين من المؤتمرين الثلاثين الأصليين عدلاً عن المساهمة في الخطّة لجن اعتبارهما ولكن [سفيروس Sphaerus] يؤكد لنا ان العدد المؤتمرين كان ثمانية وعشرين بالأصل، ولعل هناك سرّاً في العدد الذي يتضمّن سبعة مضروبة في أربعة والسبعة هو أول عدد تام بعد الستة ولذلك كان متساوياً في كل اجزائه^(٢٠). وأما رأيي الخاص فهو ان ليكورغوس حدّد العدد بثمانية وعشرين على أن يعدّ الملكان بين الاعضاء فيكمل العدد ثلاثين.

ولقد كان شديد الاهتمام بإنشاء هذا المجلس حتى أنه راح ينشد نبوءة عنه من دلفي. فأنزل عليه ما سمي بمرسوم [الريترا Rhetra] وهو كالاتي: «بعد أن تقوم ببناء معبد [چوپتر هيليانوس Helianus] و [مينرقا هللانيا M. Hellania] أن تقوم بتنظيم الشعب في «فيليس Phyles» وترصمهم في «أوبس Obes» عليك أن تؤسس مجلس شورى من ثلاثين شيخاً بضمينهم الزعيمان، وعليك أن تجمع الشعب بين فترة وأخرى في ايبيللازين Apellaze-

= ليحكم بعدالة أكثر عند ممارستهما الحكم وبذلك تتمتع سبارطة باعظم الاستقرار. وبعد هذا عندما تنزع الملكية الى الاستبداد والحكم المطلق تقوم روح الالهة متقمصاً جسداً بشرياً (هو ليكورغوس) بوضع اسباب الحكم ضمن حدود العدل والمساواة عن طريق سلطة مجلس الشيوخ الحكمة المساوية لسلطة الملكين». ويقوم ارسطو [السياسة ٢:٧] بتخطة هذه الفكرة من ناحية بقاء الشيوخ في مناصبهم طوال العمر فيقول: «من السخف إن تودع مصائر المواطنين ايدي رجال قد يحول تقدمهم في السن دون دقة التمييز. فالعقل يهرم مع هرم الجسد. كذلك ليس معقولاً أن يكون هؤلاء معصومين لا يمكن محاسبتهم على اجراءاتهم واحكامهم». لكن يبدو ان حلاً مجدياً تم الوصول اليه للمشكلة الأخيرة بابتداع نظام الايغوري فيما بعد. وقد استحدث بصورة رئيسة للدفاع عن حقوق الشعب ولذا يضيف افلاطون قوله: «والعنة الثانية التي حظيت بها سبارطة هو ذلك الأمير الذي رأى ان السلطان الشيوخ وسلطان الملكين مفرطان في التحكم والاستبداد ويستحيل وضع رقابة عليهما. فابتدعت سلطة الايغوري كبح جماحهما».

ان اعجب ما في النظام هو وجود ملكين لكن وبعد ان فقدت أجهزة حكم ليكورغوس نفوذها الأول حطمت الاحزاب التي خرجت في هذه المنازعات، كيان سبارطة. ومع هذا فإرسطو في [السياسة ١:٥] يعزو دوام تلك الدولة الى توزيع السلطات!

(٢٠) على أغلب الاحتمال لم يكن ليكورغوس على علم بقانون الاعداد. كما كان ابعد من ان يضع قوانينه على أساس التفكه واللعب الفكري.

in، ما بين [بايكا Babyca] و[كناسيون Cnacion] (٢١). وهناك يقترعون وتؤخذ اصواتهم، ان للشعب الكلمة الأخيرة والقرار النهائي». ويقصد بكلمتي Obes & Phyles طبقتا الشعب، وبالزعمين يقصد الملكان، وبأبيلازين يشير الى ابوللو البيثي، ويقصد بها الاجتماع، وببايكا وكناسيون هما الآن [اونوس Oenus] على ان ارسطو يقول أن [كناسيون] هو نهر، و[بايكا] جسر، وبين هذا النهر والجسر كان يتم الاجتماع اذ لم يكن لديهم بيت شوري، ولا بناية يجتمعون تحت سقفها. وكان ليكورغوس يرى أن البهرجة والزخرفة في مجالس الاجتماعات لا تفيدهم في شيء، وانما قد تغدو عائقاً لانه يصرف المجتمعين عن الشؤون التي اجتمعوا لها الى التماثيل والتهاويل والسقوف المزخرفة المنقوشة، وغيرها من التوشية الفنية التي تحفل امثال هذه البنايات عند الاغريق الآخرين في هذه الاجتماعات العامة تعقد في الهواء الطلق لا يسمح لاي فرد ان يعطي رأيه بل يحق له إما أن يصادق أو ان يرفض ما يعرضه عليهم الملك أو مجلس الشيوخ. ولكن عندما أخذت العامة تشوه وتحرف مدلولات المبادئ عن معانيها الاصلية باضافة كلمات معينة أو حذفها، أدخل الملكان [بوليدوروس Polydorus وثيوپومپوس Theopompus] الفقرة التالية الى [الرتيرا العظمى] أو الميثاق الاعظم: «يحق مجلس الشيوخ والزعماء أن ينقضوا اي قرار أخطأ اتخذته العامة». أي أن يرفضوا ابرامه ولهم أن يحلوا جمعية الشعب بحجة أنها أخطأت وحادت عن جادة الصواب في مشورتها.

وتمكنوا بالخداع والحيلة أن يلقوا في روع الجمهور بأنها مساوية لبقية الرتيرا في درجة صحتها كما يبدو ذلك من أبيات الشاعر [ترتيوس Tyrtaeus] التالية (٢٢):

هذي النبوءات الصحيحة التي سمعوها من [ابوللو] وجاءوا بأقوالها الصادقة من معبد [پيتو Pytho]:
«الملوك الذين عينتهم السماء، واحببوا الأرض،
يكونون اوائل في مجلس شوري البلاد.
ويأتي الشيوخ في المحل الثاني، ويأتي العامة أخيراً.
ألا فلتسدد شريعة ريترا صحيحة بين الجميع!

ومع ان ليكورغوس اتخذ كل الاحتياطات الممكنة لتلطيف جهاز حكمه الجمهوري فان اولئك

(٢١) لعلها اسماء روافد صغيرة لنهر افروتاس.

(٢٢) شاعر غنائي اربله الاثينيون بعد منحه رتبة جنرال - على رأس قوة لجنده السبارطيين. نصرأ على المسينيين. عندما حمسهم واستنهضهم بقصيدة انشدها وهو على رأس قواته العسكرية.

الذين عقبوه وجدوا ان التيار الاوليغارشي (*) «مرغياً ومزبداً ولأجل أن يكبح مزاجه الحاد وصولته الجائحة، «وضعت لُقمة في فمه» على حد قول افلاطون (٢٣)، هذه اللقمة هي إحداهن سلطة الايفوري Ephorie (٢٤) التي أنشئت بعد موت ليكورغوس بمائة وثلاثين سنة. وكان [ايلاتوس Elatus] وزملاؤه أول من أسندت اليهم هذه الوظيفة في زمن حكم الملك [ثيوپوپوس]، الذي اجاب زوجه الملكة عندما عيرته يوماً ما، بأنه سيخلف سلطة الملك لأولاده وهي أقل مما تسلمها من أسلافه؛ قال «كلاً بل أكثر، لأنها ستدوم وقتاً أطول». ذلك لأن الملوك السبارطيين بعد أن رسمت لسلطاتهم حدود معقولة، تحرروا تماماً في الأخطار، والمآمرات ولم يعانون قط المصائب التي انصبت على جيرانهم في مسيني Messene وآرغوس Argos، أولئك الذين حرصوا على سلطاتهم، وابوا التنازل للشعب عن قليل منها، فخرسوها كلها.

(*) Oligarchy: هو حكم الأقلية أو الصفة المنتخبة [م. ت.].

(٢٣) افلاطون: القوانين ٦٩٢.

(٢٤) هيرودوتس (١: ٦٥) و[كزينفون: جمهورية لقيديمية ٨] يقولان ان ليكورغوس هو الذي عين الايفوري شخصياً. إلا ان التفاصيل التي يبسطها المؤلف مقتبساً من ارسطو (السياسة ٧) وغيره، باعتبار انها لم تستحدث إلا بعده بزمن طويل، يبدو اقرب الى المعقول. اذ لا يحتمل مطلقاً ان ليكورغوس الذي ساند الاستقراطية بكل قواه ولم يترك للشعب شيئاً الا حق القبول أو الرفض - انه يعين نوعاً من مفوضين شعبيين ويجعلهم سادة مساوين للملك ولجلس الشيوخ. بعض المؤرخين يرون ان الايفوري كانوا في مبداء الأمر خلصاء للملك ينتدبهم لممارسة سلطته عندما يذهب للحرب. لكن المعروف الاكيد ان الشعب كان يختارهم عن طريق الانتخاب من مجموع الدهماء وأحياناً من بين ادنى طبقة من الدهماء حيث ان اجراً المواطنين وأصلبهم يكون أكثر حظاً للفوز بهذه الوظيفة - كائناً ما كانت صفته. فهي وظيفة القصد منها الحد من سلطة الملكين وسلطة الشيوخ، وعدد الايفوري خمسة. في جمهورية قرطاج ويجرى انتخابهم كل سنة. وقد رسم ان تكون قراراتهم بالاجماع لتغدو سلطاتهم ذات تأثير. كانت سلطاتهم محددة بشكل جيد. إلا انها تحررت بمرور الزمن من كل قيد. فصاروا يرأسون الاجتماعات العمومية ويقومون باحصاء الاصوات في الاقتراع. ويعلنون الحرب ويعقدون معاهدات السلم ويتفاوضون مع الدول، ويقررون عدد القوات المجنّدة، مع تحديد مصروفاتها ويوزعون المكافآت ويفرضون العقوبات باسم الدولة. ويعقدون مجالس قضاء ويحققون في سلوك الحكام والقضاء ويشرفون على تعليم الشباب وتوجيه سلوكهم. كما زودوا بسلطة خاصة على الهيلوت، وبمختصر القول انهم حصروا كل السلطات الادارية والتفذيذة بايديهم شيئاً فشيئاً ومضوا الى الحد الذي قاموا بتنفيذ حكم الموت بالملك [اغيس] بزعم انهم ينفذون حكم العدالة. أخيراً قتلهم [كليومنيس] صبراً.

يرى (بارثلمي) في كتابه (رحلات اناخارسيس) ان صلاحيات الايفوري كانت حتى عهد ليكورغوس قاصرة على الحكم الداخلي حين أثار والشعب وحرصوه على مقاومة الشرائع الجديدة. وكان لأهالي كريت الذين اقتبس عنهم - ضباط يقارنهم ارسطو بالايفوري، يعرفون باسم (كوزمي). على ان معظم الكتاب لا يذكرون الايفوري بوصفهم بدعة من بدع النظام أوجدها [ثيوپوپوس] بل اعتبارهم جهازاً من شأنه الحد من سلطة الملك وكبح جماحه. فالاحتمال ان هو ان ليكورغوس ابقى لهم بعض الامتيازات. وان ثيوپوپوس زودهم بسلطات أخرى مما جعل النظام يبدو نوعاً من الاوليغارشية.

والحق يقال ان كل من يتأمل في الفتن والثورات وسوء الادارة التي حلت في هاتين الدولتين الجارتين اللتين تتصلان بالدم فضلاً عن صلة الجوار لا يسعه إلا أن يجد خيراً سبباً للاعجاب بحكمة ليكورغوس وبعد نظره. فهذه الدول الثلاث من أول نشأتها كانت متساوية، أو اذا كان هناك اي امتياز فقد اختصت به دولتا [مسيين وارغوس] اللتين اعتبرتا أسعد خطأ من الثالثة (سپارطا) (٢٥) في أول القسمة. وكانتا يمتلكان اراضي أفضل (٢٦) ومع هذه لم تطل سعادة البلدين طويلاً، بسبب طغيان ملوكهم من جهة، وبسبب صعوبة حكم الشعبين من جهة، وسرعان ما سادتهما الفوضى، وانهارت صروح اجهزة الحكم والمجتمع فيهما، مما أظهر بكل وضوح مبلغ الخطوة التي نالها السپارطيون من لدن الآلهة بانعامها عليهم بوضع قوانينهم الحكيم الذي منح حكومتهم استقراراً وتوازناً سعيداً.

بعد تعيين الشيوخ الثلاثين، كانت مهمته التالية التي باشرها هي أخطر المهام طراً. أعني القيام بتوزيع جديد للأراضي الزراعية. حيث كان يوجد تفاوت عظيم في هذا بين الناس، والدولة ترزح تحت عبء الشكوى والسخط العام الذي يثيره الفقراء والمحتاجون في حين كانت الثروة كلها مركزة في أيدي قلة ضئيلة، فلأجل أن يزيل من مجتمع الدولة التحاسد والتباغض، والاجرام والترف، وتلك الأمراض المتأصلة المزمنة، الفقر، والغني الفاحش، حملهم على التنازل عن ملكياتهم جميعاً، والرضى بتقسيم جديد للأرض، وأقنعهم بأن يعيشوا معاً على قدم المساواة، وان تكون الجدارة والأهلية هي السبيل الوحيدة الى التقدم والشهرة؛ وتقييح الشر، وحسن الجزاء للأعمال الطيبة يكونان معيار الخلاف الوحيد بين انسان وانسان.

بعد موافقتهم على مقترحاته هذه، باشر في الحال بوضعها موضع التطبيق فقسم بلاد [لاقونيا] مبدئياً الى ثلاثين ألف سهم متساوٍ وقسم الجزء المرتبط بمدينة سپارطا الى تسعة آلاف سهم وزعها على السپارطيين، كما وزع السهام الأولى على باقي المواطنين الريفيين. ويقول بعضهم أنه خصص للمواطنين السپارطيين ستة آلاف سهم فقط وان الملك [پوليدوروس] أضاف إليها ثلاثة آلاف أخرى. وقال: آخرون ان [پوليدوروس] اضاف مثل عدد السهام التي حددها ليكورغوس بأربعة آلاف وخمسمائة فصارت تسعة آلاف وكانت قطعة الأرض الواحدة تنتج سنوياً (بأخذ معدل سنتين متتاليتين). حوالي سبعين بوشلاً* من القمح

(٢٥) هذه الدول الثلاث تدعي انحدارها من دولة واحدة هي دولة الهيراقليدي (فارغوس ومسيني) تردان اصولها الى (تمينيس) (وكرسفونتس وسپارطا) تُردان الى اقرستينس وپروكلس ابني اريسطو ذيموس.

(٢٦) تغطي الجبال ارض سپارطا لتجعلها غير صالحة للزراعة تقريباً في حين نجد (سترابو) يصف سهول ارغوس ومسيني بالخصوبة وكثرة المياه ويجعلهما اخصب جزء من بلاد الاغريق.

(* ميكال للقمح تعادل سعته ثمانية غالونات [م.ت.].

لرب الأسرة، وأثنى عشر بوشلاً لامرأته. مع مقدار مناسب من الزيت والخمر، وهو ما يكفي في اعتقاده لبناء الأجسام قوية صحيحة، أما الفائض عن الحاجة فلا خير فيه لهم. وروي أنه كان عائداً من رحلة له، بعد تقسيمه الأراضي بزمين وجيز، وصادف ان كان وقت الحصاد والأرض قد حصدت لتوها. فأبتسم إذ شاهد اكوام القمح قائمة وكلها متساوية وقال لمن حوله «أرى لاقونيا كلها تبدو مثل مزرعة اسرة واحدة، قسمت بين عدد من الأخوة».

ولم يقنع بهذا، وقرر أن يجري توزيعاً في اموالهم المنقولة أيضاً. حتى لا يبقى اي فرق أو تفاوت كبير بينهم. ووجد أن تطبيق ذلك بصورة صريحة، ينطوي على أعظم المخاطر، فسلك سبيل الحيلة (٢٧) وتغلب على حرصهم بالخطوة التالية: أمر أن يُلغى التعامل بالنقد الذهبي والفضي الغاء تاماً. وان لا يسمح إلا بنوع من النقود الحديد وهي ذات حجوم كبيرة وثقل عظيم، وقيمة تافهة جداً. فلأجل حفظ ما قيمته مئائتين* يتطلب خزنة واسعة جداً. ولأجل نقل هذه الكمية يحتاج الى ما لا يقل عن زوج من الشيران. وتداول هذه النقود أختفى في الحال عدد من الرذائل وزالت من لقيديمونيا. إذ من يخطر بباله أن يسرق مثل هذه النقود؟ ومن يمسك شيئاً بدون لا تكون قيمة له، ولا فائدة فيه حتى لو قطع اجزاءً. إذ انهم كانوا يغطون السكة وهي محمرة في الخلل وبهذه الوسيلة يتلف معدنها ولا تعود صالحة لشيء.

ثم انه أصدر أمراً بعدم قانونية مزاولة كل الفنون غير المفيدة، المترفة، وما كان الأجدر به هنا أن لا يصدر مثل هذا الأمر، فهذه الفنون ماتت من تلقاء نفسها ولحقت بالذهب والفضة، لأن النقود الجديدة لم تعد ثمنناً صالحاً ومناسباً للتحف الفنية. لكونها من الحديد ولا يمكن تداولها بين سائر الأغريق الذين سيهزأون بها - هذا إن أمكن تصديرها ونقلها. وهكذا لم يعد ثم وسائل لشراء بضائع أجنبية وكماليات صغيرة، ولم يعد التجار يرسلون سفنهم المحملة بالبضائع الى المواني [اللاقونية] أما أساتذة البلاغة، وقارئو الخط المشعبدون، وتجار البغايا، ونقاشو الفضة، وصاغة الذهب، والجواهريون، فلم يعودوا يرون جدوى في زيارة بلاد ليس فيها

(٢٧) ظل السپارطيون بعد ليكورغوس ردياً طويلاً من الزمن ينفرون نفرة شديدة من زيادة الحرص وحب الاقتناء الى حد ان شاباً اشترى ضيعة بفائدة عظيمة فاستدعي ليؤدي حساباً على ذلك وفرضت عليه غرامة. فقد وأراً انه عظيم الجشع الى جانب جرية في شراء حاجة باقل من قيمتها لانه استخدم عقله من اجل الربح وهو في العمر الذي يجب ان يفكر الناس في الاتفاق. لكن عندما لم يعد السپارطيون قانعين بحدود بلادهم واردوا التوسع خلافاً لما كان ليكورغوس ينهاهم عنه، فقد اشتبكوا في حروب خارجية. ولم تقبل نقودهم في البلاد الأخرى. ووجدوا انفسهم مرغمين على التوجه نحو الفرس الذين بهرتهم فضتهم وذهبهم. وازداد جشعهم الى حد شنيع حتى ضرب بهم المثل الذي ذكره افلاطون وهذا هو «يرى المرء قدراً كبيراً من النقود يدخل الى لقيديمون، لكنه لا يرى منها شيئاً يخرج».

(* حوالي ٤٠ باوناً استرلينياً.

نقود وهكذا أخذ الترف يزول ويتلاشى وهو يتجرد شيئاً فشيئاً مما يقويه وينعشه، حتى قضى عليه تماماً ومات. لم يعد للاغنياء هنا افضلية على الفقراء لأن غناهم وثرأهم الواسع فقد سبيله الوحيد الخارجي، فظل حبيساً في الداخل لا يفعل شيئاً. وبهذا السبيل نبغ من الناس صناع مهرة وفنانون في عمل الأشياء المفيدة للعموم، كالكراسي، والأسرة، والموائد، ومختلف ادوات الاسطبل في حدود حياة الأسرة. وكانت تلك الحاجات موضع اعجاب من يراها لدقتها. وتذكر بصورة خاصة طاس الشراب السمي كوثون Cothon^(٢٨) فقد شاع أمره وتسابق الناس على اقتنائه. ولاسيما الجنود، على قول [كريتياس Critias]. فلونه يحول دون ملاحظة الشارب للماء العكر أو المشوب الذي قد يضطر المرء الى شربه بدافع الحاجة والضرورة. فقد جعلت هيئته بحيث يعلق الطين بجوانبه فلا يبلغ فم الشاب إلا الماء النقي. ولهذا أيضاً عليهم ان يشكروا واضع قوانينهم الذي أطلق منهم كوامن مهاراتهم وابداعاتهم في اصفاء صفة الجمال على الأدوات الضرورية ذات الاستعمال اليومي، بإراحة الصناع الفنانين من متاعب صنع الأشياء غير المفيدة. أما الضربة الثالثة، الأشد وقعاً والأمضى حداً التي انزلها واضع القوانين العظيم هذا بالترف والشهوة الى الغنى فهو المرسوم الذي قضى بأن يأكل الجميع من مائدة عامة^(٢٩). فيتناولون الخبز واللحم وكلّ الوان الطعام المقررة دون تفضيل، وأن لا يقضوا حياتهم في البيوت، مستقلين على الأرائك الوثيرة جالسين الى الموائد الحافلة باطياب الطعام، مستسلمين الى ايادي طهاتهم وحشمهم ليُسْمَنُوهم في الزوايا مثل الحيوانات النهمّة، وليتلفوا لا عقولهم وحدها، بل أجسامهم التي سيدركها بلا شكّ الخمول للاقراط في الملذات، فتظل في حاجة مستمرة الى النوم الطويل والحمام الساخن، والراحة والابتعاد عن الجهد، وبعبارة أخرى ستكون بحاجة الى العناية والرعاية قدر ما يحتاج دوو الأسقام والزمنى إنه في الواقع لمعجزة خارقة ان يتم الوصول الى هذه النتائج.

(٢٨) اقرأ وصفاً لهذا الكأس الفخاري في الفقرة التي كتبها «كريتياس» وهي في الآثينوس ١١: ١٠.

(٢٩) تعمق كزينفون في تحليل اسباب ذلك فراح ابعدها مما ذهب اليه بولتارخ وغيره اي انها ترمي الى قمع الرغبة بالترف. فقال ان المائدة الجماعية تقوم مقام مدرسة أو هي بمثابة معهد علمي يقوم فيه الكبار على تهذيب الصغار بان يقصّوا عليهم قصص الاحداث العظمى التي علقّت بذكرايتهم وبهذا يثيرون في نفوس الجيل الجديد حبّ المعالي والشوق للاتيان بأشرف العمل. لكن وجد ان هذا لا يمكن اني يتحقق فعلاً بالنسبة لجميع المواطنين عندما زاد عددهم على عدد قطع الأراضي المقرر توزيعها لذلك انتقد المؤرخون ليكورغوس وقالوا: كان عليه ان يجعل هذه الموائد الجماعية على حساب الدولة مثلما جرى ذلك في (كريت) وبعد ان اقتبس معظم شرائعه منها (ارسطو: السياسة ٢: ٨). لكن علينا ان نتذكر بأنهم كانوا قد أحتاطوا لتلك الزيادة في السكان بارسال مستوطنين الى الخارج لذلك لم ينقل الفقراء عبء ليقيديمون الى أن اصيبت الحكومة بالانحلال.

على أن «أعظم ما يمكن أن يُسلب من الغنى ليس مجرد الشهوة الى التملك، وإنما طبيعة الغنى نفسها» على ما لاحظته [تيوفراستوس Theophrastus]، فبارغام الاغنياء على مجالسة الفقراء لتناول الطعام من مائدة واحدة، لا يسعهم ان يفيدوا من ثرائهم ولا أن يستمتعوا به ولا ان يرضوا كبرياءهم بالنظر اليه أو عرضه على الأناظر. ولذلك لا توجد بقعة في الدنيا يصدق فيها المثل السائر بالحرف الواحد «پلوتوس Plutus آله الغنى، أعمى» مثلما يصدق في سيارطا. وهو هنا ليس أعمى فحسب، بل مثل صورة لا حياة فيها ولا حركة.

ولا يسمح لأحد أن يتناول طعاماً في بيته أولاً ثم يحضر الموائد العامة فكل امرء هناك يراقب أولئك الذين لا يأكلون ولا يشربون كالباقين ويعيرونهم بالتخث والرقّة.

هذا القانون الأخير اغاظ الاغنياء واستنفذ صبرهم بنوع خاص فاجتمعوا كتلة واحدة تائرة على ليكورغوس، وانتقلوا من الكلمات الجارحة الى رجمه بالحجارة. حتى اضطر الى ترك السوق هارباً واتجه الى ملاذ مقدس لاتقاذ حياته وشاء حسن حظّه ان يسبقهم جميعاً إلا شاب يدعى [الكندر Alcander] لم يكن فظاً بطبعه، وأن عرف عنه التسرع والصف، فقد لحق به وحاذاه ولما التفت ليكورغوس نحوه ليرى من المطارد عاجله بضربة عصا على وجهه. ففقاله عينا. فتوقف ليكورغوس دون أن تؤثر هذه الحادثة فيه أو تغلّ من غراب عزمه. وكشف عن وجهه المشوّه وعينه الجاحظة لانظار بني قومه فأدركهم الأسف والخجل، ودفعوا بالضارب اليه ليقتنصّ منه وصحبوه الى بيته وهم في غمّ شديد لاعتدائهم عليه وبعد ان شكرهم ليكورغوس على اهتمامهم بأمره صرفهم جميعاً واستبقى [الكندر] وأدخله بيته ولم يوجه اليه كلمة غاضبة، أو عملاً عنيفاً. ولكنه صرف أولئك الذين يجالسونه على المائدة، وطلب من [الكندر] أن يقوم على خدمته. وكان الفتى طيباً بطبعه فقام بما طُلب منه دون تدمر أو شكوى، وسمح له أن يشاطره العيش فاتيحت له الفرصة ليتبين فيه رقتة الماثورة، وهدهو طبعه فضلاً عن راحة عقله الفاتقة وجلده على العمل الذي لا يعرف وهناً وما الى ذلك. فأنقلب من عدوّ له، الى أشدّ المعجبين به تحمساً ومشايعة. وأخبر اصدقاءه وأقرباءه ان ليكورغوس ليس بذلك الشخص الجهم السيء الطبع الذي توهمه الكثيرون من قبل بل يمتاز بالطف وأرق طباع في الدنيا. وهكذا جعل ليكورغوس من شاب أهوج مندفع، واحداً من أكثر المواطنين السيارطيين اتزاناً ورجاحة، بدل أن يعمد الى عقابه عن خطأه.

واحياناً لذكرى هذه الحادثة أقام معبداً لمينرثا، سمّاه [اوپيتيليتيس Optiletis]. إن كلمة [أوپتيلوس Optilus] هي اللفظة الاغريقية الدارجة في تلك الأتحاء ومعناها «عين» [اوفتالموس Ophthalmus] ويقول بعض الكتاب الذين كتبوا رسالة عن جمهورية سيارطا،

ومنهم [ديسكوريدس Dioscorides] أنه جرح حقاً، ولكنه لم يفقد عينه نتيجة الضربة. وأنه بنى المعبد اعترافاً بفضل شفائه. ومهما يكن من أمرٍ ومهما بلغت هذه الروايات من الحقيقة، فبعد هذا الاعتداء، استأن اللقيديميون لأنفسهم مبدأ حمل ما لا يزيد عن عكازٍ في اجتماعاتهم العمومية.

ولنعد الآن الى وجبات الطعام العامة؛ إن لها عدة أسماء باليونانية فأهالي كريت يسمونها [أندريا Andria] لأنها للرجال فقط. والليقديميون يسمونها [فيديتيا Phiditia] بقلب «اللام» الى «دال» في كلمة [فيليتيا Philitia] ومعناها «الحب في المآذب» لأن الطعام والشراب المشترك يعقد حبال الود. أو لعلها جاءت من [فيدو Phido]، أي الشح والتقيير، لأنها بمثابة مدارس عديدة للاعتدال وربما كان الحرف الأول زيادة في الكلمة التي هي بالأصل [إيديتيا Editia] أي الأكل من [Edode]. وهم يجتمعون زمراً من خمسة عشر أو نحوها. وعلى كل فردٍ منهم أن يساهم في اداء بوشل واحدٍ من الخبز، وثمانية غالونات من الخمر، وخمسة پاوندات من الجبن وپاوندين ونصف پاوند من التين ومبلغ طفيف جداً من المال لابتياح سمك أو لحم شهرياً للمائدة العامة. والى جانب هذا إذا قدم أي واحدٍ منهم قرباناً للأرباب فهم يرسلون على الدوام صدقة الى القاعة العامة. كذلك عندما يصطاد احدهم قنينة «فانه يرسل الى الجهة نفسها، شيئاً من قنيصته. وفي هاتين المناسبتين فقط يسمح للمرء أن يتناول طعامه في بيته. وقد بقيت عادة الطعام الجماعي سارية المفعول بكلّ دقة زماً طويلاً بعد ليكورغوس. حتى أن [آغيس Agis] الملك نفسه بعد أن هزم الاثينين أرسل عند عودته الى بلاده يطلب الحصّة المعينة من المائدة العامة معتذراً بأنه يرغب في تناول طعامه مع الملكة في خلوة^(٣٠) فرفضها [الپوليمارخوس^(*)]. وهو الرفض الذي أحق الملك واحفظه حتى انه الغى مراسم صباح اليوم الثاني الخاصة بتقدم القرابين الواجبة لكلّ حرب طيبة الختام، فما كان فهم إلا وحكموه بتأدية غرامة.

وكانوا يرسلون صغارهم الى هذه الموائد كأنما يرسلونهم الى مدارس تهذيب وتشقيف. فيلقنون فيها شؤون الحكم وادارة والدولة باصغائهم الى رجال السياسة المجريين. وفيها يتعلمون كيف يطرزون احاديثهم بالنوادير وأن يتبادلوا المزاح والتندر دون حدّ الإيلام وان يتقبلوها برحابة صدرٍ وفي هذه النقطة من حسن التربية فاق اللقيديميون غيرهم بصورة خاصة.

(٣٠) كان الملوك اسبارطا حق دائم في تناول وجبتين من الطعام. ليس للسماح لهم باظهار مزيد من الشهوة. بل لتتاح لهم فرصة مشاركة حصتهم من الغذاء مع رجل مشهود له بالشجاعة يختار لينال هذا الشرف.

(*) البوليمارخوس السبارطيون هم الذين يقودون الجيش تحت امرة الملوك. انهم كبار رجال الدولة وهم دائماً يوزعون الطعام على المائدة.

ولكن ما أن يُبدي المرء ضجراً منها حتى يكف الجميع عن توجيه القول له بعد اشارة خفيفة جداً. وجرت العادة ايضاً أن يقول أكبر الزمرة سنّاً لكلّ منهم مشيراً الى الباب عند دخولهم: «لا تخرج كلمة واحدة من هذا الباب». واذا رغب أحد في الانضواء الى احدى هذه الزمر الصغيرة فعليه ان يفوز في الاختبار التالي: يأخذ كل عضو من أعضاء الندوة كرة صغيرة من العجين. ويلقونها كلُّ بدوره في آنية عميقة يطوف بها عليهم نُدل وهي فوق رأسه فمن يرغب في انضمام المرشح الى ندوتهم يلقي كرتة في الآنية دون أن يغير من هيئتها ومن لا يريد يضغطها بين أصبعيه ويجعلها مسطحة وهذا ما يعادل التصويت بالرفض. وإن وجدت عجينة مدحاة واحدة فقط لا يقبل المرشح، إذ يشترط الإجماع عليه، ليكون كل أعضاء الزمرة متفاهمين بعضهم مع بعض، ويطلق على الآنية [كاديخوس Caddichus] ومنه اشتق اسم المرشح المرفوض^(*). وأشتهر لون من الطعام عندهم هو العصيدة السوداء وهي ذات قيمة غذائية كبيرة بحيث كانت طعام كبار السن الوحيد، فهؤلاء كانوا يتحسّونها ويتركون اللحم لمن دونهم سنّاً. ويقال أن ملكاً من ملوك^(٣١) [الپنطوس Pantus] سمع الكثير عن عصيدتهم السوداء تلك فبعث يستقدم طاهياً ليقدّمونياً ليعمل له شيئاً منها. ولما ذاقها استقبحها ولم تعجبه قطّ وكان الطاهي يرقبه فقال له «لأجل أن تجعل هذه العصيدة شهية عليك يا مولاي أن تغتسل في نهر ايروتاس Eurotas!».

وينصرف كل رجل الى داره بعد أن يشرب خمراً باعتدال ولا يستخدم نوراً لأن استخدام النور ممنوع مهما كانت احلك الظروف، والسبب في هذا هو أن يعودوا أنفسهم على السير بجراة في الظلام^(٣٢)، تلك هي القواعد العامة المتبعة في وجبات طعامهم.

لم يضع ليكورغوس قوانينه في مدونات، ومع أنه لا يوجد في أي [ريترا] ما يمنعه صراحةً لأعتقاده بأن أكثر النقاط فائدة، ومعظم ما هو أكثر تعلقاً بالمصلحة العامة، انما ينطبع في قلوب الشباب بالضبط والربط الجيدان. ويبقى بالتأكيد، ويجد مكاناً أحفظ له وضمن من أي شكل من أشكال الإرغام، هذا هو التشقيف، أي مبدأ العمل الذي وضعه أعظم المشترعين وأفضلهم. وإمّا عن المسائل الأقل أهمية، كالعقود المالية والتجارية وأمثالها التي تتغير أشكالها وصيغها بتغير الظروف والأحوال فقد رأى من الأوفق الآ يضع لها قاعدة ثابتة، أو

(*) ولعل كلمة Candidate التي تطلق على كل مرشح لأية انتخابات مأخوذة من هذه.

(٣١) سرد پلوتارخ الحكاية في موضع آخر وعزاها الى (ديونيسيوس) طاغية صقلية ويؤكد شيشرون ايضاً بانه الشخص المقصود. وأفروتاس هو نهر سبارطا.

(٣٢) يقصر كزنيفون هذا المنع على الشبان. ويقول ان الغرض منه هو بقاؤهم بحيث لا يخطئون طريقهم الى منازلهم!

صيغة معينة، متوقعاً أن أشكالها ونصوحها خاضعة لتقلبات الأزمان وإرادات الناس ذوي الأحكام الصائبة، وفي عرفه أن الثقافة هي غاية كل قانون وهدف كل نظام.

لذلك كان من مبادئه أن لا تدون تلکم القوانين. وشرع قانوناً موجّهاً بصورة خاصة ضدّ الترف والبذخ، فقد رسم به أن لا تهدم سقوف البيوت بأكثر من الفأس، وأن لا تسوّى ابواب المنازل بغير المنشار، ويمكن القول أن ليكورغوس كان يهجن بصحة قوله [إپامنداس] عن مائده «الحيانة، وعشاء كهذا لا يمكن ان يجتمعا معاً»^(٣٣). الترف وبيت كهذا لا يمكن أن يكونا صاحبين. اذ لا بد أن يكون المرء مأفوناً أحق ليفرش منزلاً بسيطاً وكهذا وغرفاً عادية ارائك ذات ارجل مفضضة وبسط عليها أغطية ارجوانية، ويزوقها بصفائح الذهب والفضة. لاشك ان لديهم الادراك ما يجعلون أسرتهم مناسبة لبيوتهم وأعطيتهم مناسبة لأسرتهم وباقي ادواتهم المنزلية وأثاثهم مناسبة للأغطية. ويروى أن الملك [ليوتخيدس Leotyichises] الأول. كان يجهل تقريباً وجود اشياء غير هذه الأثاث البسيطة، ولما دعي الى كورنث، وأدخل غرفة فخمة أدركته الدهشة الشديدة لرؤيته خشب الاعمدة والسقف منحوتاً نحتاً بديعاً ومكفناً فسأل مضيفه أتنمو الأشجار في بلاده مربعةً هكذا؟^(٣٤) وكان المبدأ الثالث (الريترا الثالثة) أن لا يشنوا الحرب كثيراً وان لا يجعلوا الحرب الطويلة مع العدو الواحد. لئلا يفيد منها تدريباً، ويتعلم فنونها باضطراره الى الدفاع المستمر عن نفسه. وهذا ما كان مصدر لوم كثير لأغيسلاوس Agislaus بعدها بزم من طويل اذ وجد أن هجماته المستمرة على (بيوسيا)^(٣٥) جعل الليثيين اقرباً أكفاء لليقديميين ولذلك معندما رآه [انتالكيداس Antalcides] جريحاً يوماً ما، قال له: لقد أجزل لك العطاء عن الجهود التي بذلتها في جعل الليثيين جنوداً اكفاء، شأوا أم أبوا». هذه القوانين سميت (ريترا) للدلالة على انها نبؤات أو قوانين إلهية مقدسة تقف في منزلة الوحي^(٣٦).

ولأجل أن يشفق شبابهم ثقافة حسنة (وهو في رأي ليكورغوس أهم وأنبل عمل للمشترع كما قلتُ آنفاً)، فقد ذهب تفكيره ابعده مذهب حتى بلغ به الى الاهتمام بهم من وقت الحمل بهم وولادتهم، مبتدئاً بتنظيم الزواج. لقد كان [ارسطو] مخطئاً في قوله ان ليكورغوس بعد

(٣٣) جوفينال ٢٦:١٠ Nulla aconita libuntin Fictilibus.

(٣٤) يجب ان لا يعتبر ملقي هذا السؤال غيبياً أو جاهلاً بالتجارة الى هذا الحد. فهو في الحقيقة نوع من السخرية بينايات كورنث الفخمة.

(٣٥) كما ظهر ذلك واضحاً في معركة (ليوكترا) اذ هزم (إپامنداس) اللقيديميين ففسروا ملكهم كليوبرتس وزهرة مقاتلي جيشهم.

(٣٦) أو ربما لأنها لم تكن مكتوبة، تنتقل من فم الى أذن الى فم.

تجربته كل الطرق لردّ النساء الى الرزاة والدمائة، اضطر أخيراً الى تركهن على ما هن فيه. ذلك لأن زوجات الرجال الذين يقضون معظم ايام حياتهم في الحروب يكونون مضطرين الى تركهن اثناء غيابهم سيدات البيت المطلقات فينهين ويأمرن ويتصرفن على هواهن، ويعاملن باحترام فيه كثير من الافراط ويطلق عليهن لقب السيدات والأميرات. هذا ما يقوله ارسطو والحقيقة أنه بذل في مسألتهم أكثر ما امكنه من الجهود. فأمر أن تمارس الفتيات رياضات المصارعة والعدو ورمي القرص وقذف الرمح حتى تنمو ثمرات أحشائهن في أجسام قوية صحيحة وتتخذ جذوراً أثبت وتجد وسطاً للنمو أفضل، وتكون النتيجة أنهن يكنّ أقدر على تحمل متاعب الحمل والآمه بهذه القوة التي اجتمعت لهن. ولأجل أن يزيل منهن رقتهم المفرطة، وخوفهن من التعرض لتقلبات الجو وكُل ما هو من طبيعة الأنثى أمر بأن تخرج الفتيات في المواكب العامة عاريات الشبان وان يرقصن أيضاً بهذا الوضع في بعض الأعياد الدينية وينشدن أناشيد معينة. في حين يقفك الشباب حوالينهم يسمعونهم ويشاهدونهم. وفي هذه المناسبات يعرضن بأسلوب المزاح تعريضات مناسبة بأولئك الذين لم يبلوا بلاءً حسناً في القتال كما ينشدن أناشيد الثناء والإشاعة بأولئك الذين أظهروا البطولة وبهذه الوسيلة يرفعن من معنويات الشباب للمنافسة في حلبة المجد والفخار، وينصرف الممدوحون وقد أمتلاؤا اعتزازاً ورضىً بالمكانة التي كسبوها عند الفتيات. أما أولئك الذين عرضن بهم فإن التأثير الذي يحدثه فيهم لا يقل وقعاً عن التوبيخ الرسمي والأنكى من هذا كله أن ذلك يتم بمسمع ومرأى من الملوك والشيوخ وكل سكان المدينة.

وليس في تعريّ الفتيات على هذه الشاكلة ما يخجل أو يجلب العار. فالعفة تحوطنهن، وكلّ عوامل الشهوة والفجور لا محلّ لها. ان ذلك يعلمهن البساطة والاهتمام بالصحة وكسبهن ذوقاً خاصاً للمشاعر والأحاسيس السامية، لأنه يفسح لهن السبيل الى ميدان الأعمال النبيلة والمجد. ولذلك كان من الطبيعي أن يفكرن، ويتكلمن مثل [گورگو Gorgo] امرأة [ليونيدياس]. فقد قيل أن سيدة أجنبيّة قالت لها على ما يظهر أن النساء اللقيديمونيّات، هن الوحيديات في الدنيا اللاتي يحكمن الرجال، فأجابتها: «ولسبب وجيه، لأننا النساء الوحيديات اللاتي يلدن رجالاً».

ان هذه المواكب والمسيرات النسائية العامة وظهور الأناث عاريات في اثناء رياضاتهن ورقصهن، لهي من محرّضات الزواج، «لأنها تعمل في نفوس الشبان بشدة الحبّ وصدقه، إن لم يكن بدقة الرياضيات وصدقها» - كما يقول افلاطون(*) . ثم زاد على هذا بعدد من

(*) في الجمهورية.

الإنجاب^(٣٨)، مستخفين بأولئك الناس الذين يرون ان هذا النوع من المُلْك مما لا نصح المشاركة فيه، محتقرين سفك الدماء واثارة الحروب في سبيله. وسمح ليكورغوس للطاغين في السن ان يختاروا شاباً معروفاً بحسن الخلق والسييرة لمضاجعة نسوانهم الصغيرات السن حتى يكون لهم ابناء من هذا الوصال، يرثون سجايا الوالد الطيبة، واذا وقع رجلٌ مستقيم السيرة في حب امرأة متزوجة، بسبب حشمتها، وحسن تربيتها لأولادها فله أن يطلب من زوجها وصالها بكل بساطة، حتى يُنبت له من قطعة الأرض الطيبة هذه أولاداً صالحين، كان ليكورغوس يعتقد أن أولادهم ملك للدولة قبل ان يكونوا لأبويهم، ولذلك لم يكن يريد أن يولد المواطنون من نطفة أول مواصلٍ للمرأة، بل باختيار أفضل الرجال. لقد بدت له قوانين البلاد الأخرى سحيقة عقيمة لاتلائم العصر، فالناس هناك شديداً الحرص على أنسال كلابهم وخيولهم يبدون اهتماماً كبيراً بها ويبدلون مالاً كثيراً ليحصلوا على نسلٍ محسنٍ منها، في حين يستأثرون وحدهم بزوجاتهم ويحبسونهن لأنفسهم فقط ويستولدونهن، وقد يكونون ضعفاء العقل مرضى، سقيمي الاجسام. كأنما لا يدرون أنهم أول من سيعاني مغبةً إستيلاد أطفالٍ عليلين لأنهم سيضطرون الى تربيتهم والعناية بهم. والأمر خلاف ذلك لو كان الأطفال حسني الصفات. هذه القواعد التي اقيمت على أسس طبيعية واجتماعية، لا صلة لها قط بالحرية الفاجرة التي اتهمت نساؤهم بها فيما بعد، ذلك لأن الزنا كلمة لا معنى لها قط عندهم. وقد روي مثلاً عن [جيراداس Geradas]^(٣٩) وهو من السبارطيين الأقدمين، أن أحد الأعراب سأل:

- ما هي العقوبة التي فرضتها قوانينهم على الزناة؟ فأجاب:

- لا يوجد في بلادنا زناة.

فقال الغريب:

- ولكن هب أنهم وجدوا.

فأجاب:

- عند ذلك يجب على المدعى عليه أن يقدم على سبيل الغرامة، ثوراً يبلغ عنقه من الطول ما يجعله قادراً على شرب الماء من نهر اقروتاس تحته وهو واقف في رأس تاغتوس Tay-

getus^(٤٠)، فتعجب الرجل من هذا وقال:

(٣٨) وستى الملوك من ذلك. اذ لا يسمح لهم باعارة نسائهم.

(٣٩) في كتابه «الاخلاق» يشبه: جيراداتوس.

(٤٠) أعلى جبل في سبارطا. ومنه يمكن البلوبوتيس كلها.

الاجراءات فجرد اولئك الذين آثروا حياة العزوبة^(٣٧) الى درجة ما من حقوق المواطنة بحكم القانون، فقد استثنوا من مشاهدة المواكب العامة حيث الشبان والشبايات يرقصون عراة. وفي ايام الشتاء يرغمهم الضباط على السير وهم عراة حول ساحة السوق ينشدون نشيداً فيه هجاء وتحقير لأنفسهم يتضمن ما معناه أنهم يستحقون هذه العقوبة لتمردهم على القوانين. زد على هذا انهم محرومون من مظاهر التجلة والاحترام التي يقابل بها الفتيان كبار قومهم وشيوخهم. فمثلاً لم يحب أحد ما قيل لدركيليداس Dercyllidas وهو قائد شهير بارز، عندما دنا يوماً من شاب، فلم يقم هذا احتراماً له بل بقي جالساً وقال «لن يفسح ولدك مكاناً لي».

وفي الزواج يحمل الزوج عروسه بما يشبه القوة والإكراه، لا لأن العرائس صغيرات السن ضعيفات الجسم، بل يكن عادة في شرح شبابهن وتما نضوجهن وبعد ذلك تأتي المرأة المشرفة على مراسيم الزفاف وتقص شعر العروس جمعاً حول رأسها وتلبسها ثياب الرجال وتتركها فوق مطرح في الظلام فيأتي العريس وهو مرتد ثيابه الاعتيادية زينة هادئة، بعد أن يكون قد تناول عشاء على المائدة العامة ويدخل غرفة العروس وحده ويحل رباط منطفة عذرتها ويفتضها ويعد ان يبقى فترة من الوقت معها يعود بهدوء الى مسكنه لينام كالعادة مع الشبان الآخرين، ويستمر على هذا المنوال: يقضي ايامه بل لياليه مع اصحابه، يزور عروسه بين الفينة والفينة زورات الرجل الخجل مستعيناً بالكتمان، إذ ينبغي أن لا يشاهده أحد وعلى المرأة نفسها أن تستخدم ذكاءها وحيلتها لايجاد فرص حسنة للقائهما عندما تكون زمرة الشاب منشغلة عنهما. ويعيشان على هذه الشاكلة زمناً طويلاً وقد يرزق الأزواج باولاد قبل أن يشاهدوا وجوه زوجاتهم في ضوء النهار. إن اجتماعاتهما النادرة العسيرة تفيد لا لتمرين انفسهما عن ضبط الإرادة، وأخذ النفس بالحزم فقط، بل لتجمعهما معاً بجسدين قويين صحيحين وبعاطفة متجددة حيّة نشيطة لم يخدمها ويذبلها الافراط في الشهوة والجماع المستمر ويكون افتراقهما مبكراً على الدوام بحيث يترك في نفس كل منهما بقية نارٍ مشتعلة من الشوق واللذة المتبادلة. وبعد احاطة الزواج بمثل هذه الحشمة والتحفظ، أهتمم بازالة الغيرة النسوية الفارغة اهتماماً مساوياً. فحرم كل انواع الفجور، ولكنه اعتبر مما يُشرّف الرجال أن يسمحوا لأولئك الذين يتوسمون فيهم النجابة والخير - بمضاجعة نسوانهم لأجل

(٣٧) يحدد الوقت للزواج. وان لم يتزوج الرجل في سن البلوغ فانه يتعرض للعقاب كما يعاقب كل من يتزوج من كان عمره ازيد أو أقل. ومن كان ابا لثلاثة اولاد فانه يتمتع بامتيازات كثيرة. ومن كان ابا لأربعة أعفي من الضرائب. والعداري يتزوجن من غير بائنة لأن الحاجة لا تمنع الزواج ولا الغنى يحث عليه. ويضيف (كليارخوس) تلميذ ارسطو ان هناك عيداً في سبارطة يسمح فيه النساء بجلد العزاب حول المذبح ليرغموا بشعور من الخجل والالء على الزواج!

- محال أن يوجد ثور كهذا.

فأجاب [غيراذاس] باسمًا:

- ممكن بقدر ما هو ممكن العثور على زانٍ في سيارطة.

وفي هذا الكلام عن الزواج الكفاية.

ليس في مقدور الأب أو سلطته أن يربي أبنه كما يشاء. وعليه أن يعرضه على خبراء مختصين في موضع يدعى [ليسكه Lesche] وهؤلاء هم شيوخ القبيلة التي ينتمي إليها الطفل ومهمتهم أن يفحصوا الطفل فحصاً دقيقاً فإن وجدوه قوياً حسن التركيب اصدروا قرارهم بتنشئته وبتربيته ويمنح سهماً من سهام الأرض التسعة الآف التي أسلفنا ذكرها: لأجل الانفاق عليه منها. وإذا وجدوه سقيماً ضئيلاً سيء التركيب أمروا بأخذه الى ما مُسمّي [أپوثيتي Apothetae] وهو يشبه غوراً من الأرض يقع تحت [تايگيتوس]. فهم لا يرون من مصلحة الطفل ولا من مصلحة المجتمع أن يبقى في الحياة إن لم يظهر من فجر حياته ما يدل على انه سيكون متين البيان صحيح الجسم. ولهذا السبب نفسه لاتغسل النساء الوليد بالماء، كما جرت العادة في البلاد الأخرى، بل يغسلنه بالخمير ليعجمن عود الأجسام وقابليتها. إذ انهن يعتقدن بأن الأطفال الذين يولدون بداء الصرع، أو بكيان سقيم، سيموتون بحمام الخمر هذه، بخلاف ما لو كانوا اقوياء اصحاء فأنها تقوي وجودهم وتشد من عضلهم وتجعلها كالحديد المسقي. وتستخدم المرضعات فنوناً وضروباً من العناية بهم، فلا يشدونهم بالاقمطة والأريطة فتنشأ أجسامهم حرّة ولا تنضغط اعضاءهم وتشوه، ولا يكونون منتنعين في اختيار طعامهم. ولا يخشون الظلام أو يخافون البقاء وحدهم، بدون تهيب أو قلق أو بكاء (٤١).

ولهذا تتسابق البلاد الى استقدام واستئجار المرضعات السپارطيات وذكر أن مرضع [الكبياديس Alcibiades] سپارطية. وإذا كان محظوظاً في مرضعته، فإنه لم يكن كذلك في معلمه، إذ يخبرنا افلاطون ان وصيّه [پريكليس Pericles] اختار لهذه الوظيفة خادماً اسمه [زوپيروس Zopyrus] لايفضل اي عبد عادي في شيء.

كان رأي ليكورغوس مختلفاً، فلم يسمح أن يؤتى بالمعلمين لصبيان السپارطين عن طريق شرائهم من السوق. ولايعطي لهم أجراً على اتعابهم ولم يجز شرعاً أن يقوم الآباء على تربية أولادهم كما يحلو لهم. ولكن ما أن يبلغوا السابعة من العمر حتى يُضمّوا الى فصائل وصفوف مدرسيّة في ظلّ نظام وضبط واحدٍ يؤدون تمارينهم ويلعبون معاً. ومن يبرز منهم في

(٤١) يجيز ارسطو البكاء للاطفال (السياسة ١٧:٧) بوصفه نوعاً من انواع الرياضة فيه فائدة للصحة والنموا.

الجسارة ويظهر احسن السلوك بعين رئيساً لهم: فيتابعونه بانظارهم ويطيعون أوامره ويتحملون بصبر اي عقاب يفرضه عليهم. وهكذا يكون كل مناهج ثقافتهم وتربيتهم تمريناً مستمراً للطاعة التامة السريعة. ويكون كبار السنّ في موضع الرقباء على ما يعملون. وكثيراً ما يثيرون بين الصغار خصاماً وشجاراً حتى تسنح لهم منها فرصة لمراقبة طباعهم المختلفة، وليتبينوا الجسور من الجبان عندما يبلغون مرحلة التعرض الى المخاطر الجسام. ولا يلقتونهم من القراءة والكتابة الا بقدر ما يحتاجون اليه في حياتهم المدرسيّة، والاهتمام الرئيس منصبّ على جعلهم مواطنين صالحين، وتعليمهم كيفية احتمال الألم، والنصر في المعركة، تمرّب بهم الأعوام وهم يزدادون ضبطاً وخضوعاً للنظام. وتراهم برؤوسهم الحليقة، يسيرون حفاة بدون نعال، ويلعبون أغلب لعبهم وهو عراة.

ولما يبلغون الثانية عشرة، لايسمح لهم بارتداء ثياب داخلية وكساؤهم الوحيد هو عباءة واحدة تكفيهم سنة كاملة. وأجسامهم جافة صلبة لاتعرف الحمامات ولا الأدهان، فهذا الترف البشري لا يسمح لهم به إلا في ايام قليلة معينة من السنة ويسكنون معاً في زمير صغيرة، وينامون على فراش من بنات القش الذي ينمو على ضفاف نهر [بيروتاس]. وهم يكسرونه ويسوونه بأيديهم بدون سكاكين، وإذا كان الزمن شتاء خلطوا به شيئاً من الحسك اذ يعتقدون ان في هذا النبات صفة اشاعه الدفء.

وفي الوقت الذي يبلغون هذه السن لا تجد أحداً من الصبيان المبرزين فيهم إلا ولديه محبّ يصاحبه ويعاشره. ويهتّم الرجال الكبار بهم أيضاً وكثيراً ما يتون الى ميدان الالعاب ليسمعوهم ويشاهدوهم يتبارون بعضهم مع بعض إمّا بالحديث أو بقوة العضل. ويرقبون الأمر بجدّ واهتمامٍ عظيمين كما لو كانوا اباءهم او مدرسيهم، أو محكميهم. ويندر ان تجد ملعباً خالياً من شيخ واحد على الأقل في اي وقت أو مكان، لينبئهم الى واجبهم أو ليعاقبهم أن وجد اهمالاً فيهم.

والى جانب هذا، يعينون شخصاً من أكثر رجال المدينة صلاحاً واستقامة للإشراف عليهم وإدارة شؤونهم. فيقوم بتنظيمهم في عدة فصائل ويُعين رئيساً لكل فصيلة، يختاره منهم متميزاً بالجرأة وحسن الخلق ويسمّي [ايرين Iren] ويكون عمر الايرين عشرين عاماً، أي يزيد عن أعمار مرؤسيه سنتين عادةً أمّا أكبر الفتيان عمراً فهم [ملّ - ايرين Mell - Iren] أو كما لو قلت، «شرف للرجولة». اذن يكون هذا الشاب رئيسهم، عندما يقاثلون، سيداً لهم في زمن السلم يستخدمهم في شؤون بيته، ويبعث بأكبرهم سنّاً للاحتطاب. ويرسل أضعفهم وأقلهم قابلية لجمع الأعشاب والحضروات. فإمّا عادوا خالي الوفاض، وإمّا عمدوا الى

سرقته، ويتم ذلك بأن يدخلوا البساتين زحفاً، أو يتسللوا بخفة وسعة حيلة الى غرف الطعام. فإذا قبض عليهم متلبسين جلدوا بلا رحمة. لقيامهم بالسرقة على هذا النحو الفاضل الخالي من المهارة. ويسرقون أيضاً ما تقع عليه ايديهم من اللحم وهم متربصون متحينون كل فرصة عندما ينام الناس أو يغفلون على غير عاداتهم. فإن قبض عليهم لا يكتفى بجلدهم بل تجوعهم، بابقائهم على حصتهم الاعتيادية من الطعام وهي لا تسدّ رمقاً. ويكون ذلك التجويع عن قصد لتضطرهم الحاجة الى وضع نشاطهم وحيويتهم موضع التطبيق^(٤٢). وهذا هو الغرض الأساس المتوخى من اعطائهم وجبات غير كافية ينضاف اليها غرض آخر لا يقل اهمية وهو أن تطول قاماتهم. لأن حيوية الروح ترتفع بخفة الجسم الطبيعية، في حين انها تنوء تحت ثقل الكميات الفائقة الحد من الغذاء الذي لا يجد له منصرفاً إلا في البدانة والسمنة، والجسم يزداد طولاً وينمو ويترعرج اذا كان لدنا^(٤٣). والجسم الجاف العود، اللدن هو خيرها تعرضاً لعناصر الطبيعة، أما الاجسام الضخمة المفرطة في التغذية فتكون ثقيلة وأقل صلاحاً للتعرض للطبيعة. وخير مثال نجد في النساء الحاملات اللاتي يتعاطين الحمية في غضون أشهر الحمل، فهن يضعن أطفالاً ارق جسماً واصغر حجماً، ولكنهم يكونون احمل وجهاً وابدع تكويناً. لأن المادة التي صيغوا منها الين وأسهل تكويناً. اما السبب في كل هذا، فأترك تقديره لغيري.

ولنعد الآن الى موضوعنا الذي بترناه - يهتم أطفال الليقديمين بشؤون السرقة اهتماماً جدياً، حتى أن شاباً سرق ثعلباً واخفاه تحت عباءته فراح هذا الحيوان يمزق احشاه تمزيقاً والشاب صابر على ما تعمل فيه مخالبه واسنانه ومات لساعته ولم يكشف المسروق. وما يجرى تطبيقه اليوم في [ليقديمون] يكفي للبرهان على صدق هذه الحكاية. فقد شاهدت انا نفسي عدداً من الفتیان يجلدون حتى الموت تحت درجات مذبح [ديانا] الملقبه [اورتيا]^(٤٤).

[الاييرين] أو مساعد الرئيس، يمكث وقتاً قليلاً مع الشبان بعد العشاء ويطلب من أحدهم أن يغني أغنية، ومن آخر ان يطرح سؤالاً يقتضى جواباً دقيقاً وإعمال فكر. مثلاً: من هو خير

(٤٢) من هذا يتضح ان القصد ليس تشجيعهم على السرقة أو تعويدهم عليها بخفة ومهارة. بل القصد الحقيقي هو تعويدهم السرعة والحذر في اوقات الحرب والازمات.

(٤٣) لعل المقصود هنا [دياناتوريكا] التي جلب اورستوس تمثالها الى لقيديمون على ما قيل، ومان البشر قرابينها، يزعمون ان ليكورغوس ابطل هذا النوع من القرابين واستبدلها بجلد الشبان حتى يلطخ المذبح بدمائهم على الأقل.

(٤٤) اعل المقصود هنا [دياناتوريكا] التي جلب اورستوس تمثالها الى لقيديمون على ما قيل. وكان البشر قرابينها، يزعمون ان ليكورغوس ابطل هذا النوع من القرابين واستبدلها بجلد الشبان حتى يلطخ المذبح بدمائهم على الأقل.

الرجال في المدينة؟ ما هو رأيه في العمل الفلاني الذي قام به الشخص الفلاني؟ وهكذا يدربونهم في هذه السن المبكرة ليصدروا أحكاماً صائبة على الأشخاص والاعمال وليكونوا على علم ومعرفة بقابليات ومواطن ضعف ابنا قومهم ومن لا يملك جواباً أنياً عن سؤال من هو المواطن الصالح ومن هو المواطن الطالح، ينظر اليه وكأنه مخلوق غيبي قليل الاهتمام. لا يملك شعوراً بالشرف والفضيلة، أو قل ما يملك منه، وفضلاً عن هذا يجب أن يعللوا اجوبتهم بالأسباب الوجيهة المعقولة وبعبارات مقتضبة خالية من الاطناب، كثيرة المعنى. ومن يفشل في هذا، أو لا يكون جوابه موفياً بالعرض، يعرض الرئيس إبهام يده! وينفذ الايرين هذه العقوبة أحياناً في محضر من الشيوخ والمحكمين حتى يتبينوا هل يعدل في تنفيذ العقوبة حسبما يستحق صاحبها. فاذا أخطأ في ذلك لا يعنفوه امام الفتیان ولكنه يستدعى بعد انصرافهم ليقدم حساباً على خطاه وليؤدب أقياساً كان في تطبيق العقوبة، أم رحيماً.

ولعشاقهم، ومصطفبهم سهم أيضاً في تكريم الفتیان أو تعزيرهم وهناك قصة تروى أن حكماً غرم أحدهم لأن الفتى الذي يحبه، بكى كالانثى أثناء ما كان يقاتل. وهذا النوع من الحب لا غبار عليه فيما بينهم بحيث ان معظم الأمهات الفاضلات لا يتحرجن في الكلام عنه امام الفتيات الصغيرات، والمنافسة فيه لا وجود لها. واذا اصطدمت رغبات عدة رجال في شخص واحد يتفق الجميع معاً على ارضاء رغباتهم بخير ما يمكن الاتفاق عليه.

ويعلمونهم أيضاً أن يتحدثوا بأسلوب طبيعي طلي ساخر. وأن يضمّنوا اكثر المعاني بأقل ما يمكن من الألفاظ. فليكورغوس الذي توخى كما رأينا، أن يفرض أزهدي قيمة لأكبر قطعة من النقود، عكس الآية في الكلام ولم يسمح إلا بالأحاديث التي تصاغ بأقصر العبارات وأقل الالفاظ وتحوى أكثر ما يمكن من المعاني وألطفها. ولاعتياد أطفال سبارطة الصمت الطويل والزهد في الكلام، تمت فيهم قابلية اعطاء أجوبة محكمة بليغة، وكالأفان المتشردين الذين لا يعيشون حياة مستقرة نادراً ما كانوا كثيري الأولاد، كذلك الثرثارون، كثيرو الكلام فنادراً ما تخرج من افواههم كلمات رصينة بليغة. عندما سخر اثيني بسبب سبارطين القصار قائلاً أن الحواة على المسرح يتلعونها بكل سهولة اجابه الملك [أغيس] بقوله: «نحن نراها من الطول بحيث تكفي للوصول الى قلوب اعدائنا». ويبدو لي أن شيئاً ما في اسلوب كلامهم الموزج فهو يبلغ حالاً الهدف المقصود، ويخلف تأثيره العميق في عقل السامع معاً.

ويظهر ان ليكورغوس نفسه كان يليغ العبارة سريع البديهة، إن صدقنا ما روي عنه. هذا ما يدل عليه جوابه لذلك الذي كان متحمساً لإقامة نظام ديمقراطي في لقيديمون قال له: «إبدأ أيها الصديق فأقمها في اسرتك». وسأله آخر لماذا يسمح بتقريب هذه القرابين الزهيدة التافهة

للآلهة. فأجابه «حتى يكون بالامكان أن نقدم شيئاً لها بصورة مستديمة». وسُئل أي شكل من التمارين العسكرية أو المعارك يُفضل فأجاب «كل الأشكال، إلا تلك التمارين التي تقتضي منك مدّ يديك الى الأعلى^(٤٥)» وعزيت اليه أجوبة أخرى وجهها الى بني قومه خطياً. فقد سئل عن أفضل وسيلة لمقاومة غزو العدو، فأجاب «بالاستمرار في بقائكم فقراء، وبأن لا يطمع الرجل في ان يكون أعظم شأننا من زميله». كذلك استشير في هلاً كان ضرورياً احاطة المدينة بسور؟ فبعث بالجواب التالي: «المدينة الجديدة التحصين هي التي تملك سوراً من الرجال لا من الأجر». ولكن يصعب القول بأن هذه الرسائل حقيقية وليست منحولة.

وأما عن كرههم الثرثرة فيان اجويتهم اللاذعة شاهد: انفرد شخص بالملك [ليونيداس] يحدثه في مسألة مفيدة، ولكن ليس في الزمان والمكان المناسبين. فقال الملك «ما أكثر الفائدة يا سيدي، ولكن في غير هذا المكان». وسئل الملك [خاريلوس] ابن أخ ليكورغوس لماذا استنّ عمّه هذا المقدار الصغير من القوانين فأجاب «قليلو الكلام لا يقتضي لهم غير قوانين قليلة». ومرة دعي المدعو [هيكاتيوس Hecatarus] السوفسطائي الى واحدة من تلك الموائد العامة، فلم ينطق بحرف واحد طوال العشاء، ولهذا جاب [أرخيداميداس Archidamidas] ببر مسلكه ويزكيه: «ذلك الذي يعرف كيف يتكلم، يعرف ايضاً متى يتكلم».

أما الأجوبة المسكنة اللاذعة والحادة التي نوهت بها، فدونك طائفة منها: وجه أحد الرجال الكثيري اللجاجة الى [ذاماراتوس] سؤالاً بأسلوب استفزازي مزعج: «من هو خير رجال ليقديونيا فرد عليه أخيراً «أقلهم شهباً بك». وراح بعض الناس الذين كان بصحبة [أغيس] يشنون على الايليائين Eleans لأشرفهم الدقيق وتنظيمهم العادل الشريف للألعاب الاولمبية. فأجاب [أغيس]: «بلا شك، ينبغي أن يمدحوا كثيراً لأنهم تمكنوا من أن يعدلوا يوماً واحداً في غضون خمس سنوات^(٤٦)». وأجاب [ثيومسيوس] أجنياً تمادى في اظهار حبه للقيديونيين قائلاً أنه بني قومه لقبوه [فيلولاقون: أي محب اللاقونيين]:

- كان يشرفك كثيراً لو لقبوك [فيلوپوليتس: أي محب بني قومه].

ولما قال احد الخطباء الآثينيين أن الليقديونيين لا ثقافة لديهم، اجابه [پلستواناكس Plis-toanax] ابن [پاوسانياس Pausanias] «اصبت يا سيدي فنحن من دون سائر الأغريق لم

نثقف بأي شيء من سوء طباعكم». وسأل أحدهم [ارخيداميداس] كم يعد السبارطيون يا ترى؟ فأجابه «ما يكفي لردّ غائلة الأشرار يا سيدي».

وتبين ايضاً طباعهم من نكاتهم ومزاحهم، لأنهم لا يرسلونه جزافاً واعتباطاً، بل أن عنصر الفكاهة فيه يستبطن ويستند الى شيء يدعو الى التفكير والتأمل فمثلاً سئل شخص لماذا لا يذهب ويشاهد رجلاً يقلد صوت العنديلب تقليداً متقناً، فأجاب «سيدي! إنني سمعت العنديلب نفسه»^(٤٧). وآخر قرأ الكتابة التالية على أحد القبور:

راموا أن يطفئوا نار الطغيان القاسي

في [سيلنيوس] فخرنا ضحايا آله الحرب مارس

فقال معقياً «يستأهلون الموت، اذ بدلاً من محاولتهم إطفاء الطغيان كان الاجدر بهم أن يتركوه يحترق». وعرض على صبيّ ديك قتال لا ينكص حتى يموت في مكانه فقال: وما شأنني بالديكة التي تموت. أريد ديكاً يعيش ويقتل الآخرين!« وآخر شاهد فريقاً من الناس يريحون انفسهم على مقاعد فقال: «معاذ الله ان اجلس في مكان لا أستطيع القيام منه لتحية كبار قومي». ويمختصر القول ان اجويتهم بلغت حداً كبيراً من البلاغة والنكتة الحادة. وصدق من قال أن الاتجاه الذهني في الطبع السبارطي أكثر ظهوراً منه التمرين الرياضي، والحق يقال.

ولا تقلّ عنايتهم بالثقافة الموسيقية والشعر عن اهتمامهم الكلام وطهارته واتقانهم فن الحديث. وتمتاز اغانيهم بالحيوية والنشاط بحيث تثير نار الحماسة والثورة في نفوس رجال وتشيع روح الاقدام فيهم. ووازنها بسيطة خالية من الصنعة الفنية. ومواضيعها أخلاقية جدية دائماً وأغلبها عادة يدور حول تمجيد الرجال الذي قتلوا دفاعاً عن بلادهم، أو هجاء أولئك الذين أظهروا جنباً، ترفع اولهم الى أعلى درجات التمجيد، والسعادة في حين تصف ثانيهم بالضعة والحقارة. وثم ايضاً أناشيد أفتخار بما سيقدر لهم من أعمال، وتعظيم لما فعلوه، وتختلف الأناشيد باختلاف السنّ فمثلاً كان لديهم ثلاثة اجواق في حفلاتهم الدينية. الأول يتألف من كبار السنّ والثاني من الشبان والثالث من الأحداث، فيبدأ الجوق الأول بالمصراع التالي:

كنا ذات يوم صغاراً، شجعاناً، اقوياء».

فيرد عليهم جوق الشباب منشداً:

(٤٧) هذه الحكاية عزاها پلوتارخ الى اغيسيلوس في سيرة حياته. فلترجع.

(٤٥) هذا هو الشكل الذي يطلب فيه التسليم اثناء المعركة.

(٤٦) ان «موزعي الجوائز: هيلانوديك» على الفائزين في الألعاب الاولمبية يجهدون انفسهم الى أقصى حدّ خلال الأشهر العشرة السابقة على الالعاب (پارسنياس ٦: ٢٤) ليكونوا أهلاً للوظيفة، بدراستهم الدقيقة لكلّ البيانات واللوائح المتعلقة بالمراسم ليكونوا أهلاً للقيام بمهمتهم خير قيام.

«ونحن الآن كذلك، فتعالوا وجربوا»

ويأتي جوق الاحداث بالأخير فيقول:

«لكننا سنكون أقوى من كليكما عما قريب» (٤٨).

وإذا نحن تعنينا التأمل في أصولها وتأليفها. وبعضها ما زال شائعاً حتى يومنا هذا، وفكرنا في الالحان التي تنفخ في الناي (وعلى ايقاعها يتقدمون الى ميدان القتال) فسجد أن [تيرپاندر Terpander] (٤٩) وپنار سيباً وجيهاً للقول بأن الأناشيد الدينية والحماسية صنوان وحليغان. ويقول أولهما عن بلاد ليقيديونيا:

«الرمح وأغاني الميوزات الرائعة فيها يلتقيان.

والعدل الصارم يسير متجولاً في شارعها».

ويقول [پنار] هنا تجد مجالس الشيوخ الحكماء

ورماح الشبان التي عقدت عليها ألوية النصر

وتشاهد الرقص والغناء والطرب.

وكلاهما يصفان السپارطيين بأن تعلقهم بالموسيقي لا يقل عن تعلقهم بالحرب، بكلمات واحد من شعرائهم:

مع الحديد الصلب المرهف

يأتي العزف على القيثارة!

فقبل أن يشتبك السپارطيون في القتال، يقوم الملك أولاً بالتقريب الى الميوزات -Mus-es (*، تذكرة لهم بما نشأوا عليه ودربوا، وتنوياً بالحكم الذي سيصدر على ما يقومون به من عمل، ولدفعهم الى البطولات وانجاز جلائل الأعمال التي تستحق التدوين.

(٤٨) هذه الردة من الأبيات انما هي جزء من نشيد ربما كان ناظمه ترتيوس.

(٤٩) شاعر وموسيقي (كل شعراء ذلك الزمن كانوا موسيقيين تقريباً). عزي اليه اضافة ثلاثة اوتار الى المعزف Harp وكان ذا اربعة. عاش بعد عصر هوميروس بمائة وعشرين سنة في (لسبوس) ثم استدعي الى سپارطا بحكم نبوة - لتهدئة فتنة. قيل انه نظم شرائع ليكورغوس شعراً.

(*) الميوزات [مفردها ميوز Muse]. ربّات تسعة هن بنات جوبيتر (زفس) وزوجه [منيموسين Mnemosyne] ويعتبرن في الميثولوجيا اليونانية موحيات بالفنون التسعة المعروفة: [كاليوب Calliope] لشعر الملاحم، و[كليو Clio] للتاريخ و[ايراتو Erato] للشعر الغنائي، و[ايتيريه Euterpe] لشعر الغزل و[مليومين Mel-pomen] للتراجيديا، و[پوليهمينا Polyhymnia] للأغاني الدينية، و[ترپسيخوري Terpsichore] للرقص، و[ثاليا Thalia] للكوميديا واورانيا Urania] للتاريخ.

في تلك المناسبات يخفف الليقيدييون قليلاً من صرامة عاداتهم وانظمتهم، ويسمحون للشباب ان يطيلوا شعر رؤوسهم ويشذبوه. وأن يقتنوا الأسلحة الثمينة والثياب الفاخرة. وكان السرور والغبطة يتملكان السپارطيين وهم يشاهدون شبانهم يخطرون مندفعين الى الحلبة كالجياذ العتاق تصهل وتحمم. فما أن يبلغ الفتى أشده ويصلب عوده حتى ينصرف الى العناية شديدة بشعر رأسه فيهبه ويشذبه ويفرقه ويصنفه، ولاسيما يوم المعركة تطبيقاً لوصية واضع قوانينهم المدونة «إن لمة كثيفة من الشعر فوق الرأس تزيد في الوجه الجميل جمالاً. وتضفي على الوجه المنفرّ رهبة وتشيع في النفس رعباً».

وعند وصولهم ميدان القتال، تخفّ تمارينهم الرياضية كثيراً ويطرأ تحسّن على ارزاقهم، وترتخي قبضة الضباط الصارمة عنهم. ولذلك كانوا الشعب الوحيد الذي يجد راحته في الحرب. ولما ينتظر صفوف جيشهم للقتال امام العدو القريب، يضحيّ الملك بمعزة (٥٠). ويأمر الجنود أن يحيطوا رؤوسهم بقلائدهم، ويشير على النافخين بالسرناي ان ينفخوا نشيد (٥١) [كاستور] العسكري ويبدأ هو نفسه بانشاء [پايان Paean] (*) التقدم الى الأمام. ويلوح للنظر فجأة منظر مهيب رهيب، كتلة قراصة تزحف الى الأمام على انغام السرنايات، لا يختل لها نظام، ولا يعتور اذهان اعضائها تردد أو تهيب، ولا يطرأ أيّ تغيير على ملامح وجوههم وهم يتقدمون بنفوس هادئة مطمئنة منشرحة الى القتال الدموي على انغام الموسيقي. رجال في مثل هذا التكوين قليلاً ما عرفوا معنى الخوف أو التهيب من الشدة. وانما يملأهم الإقدام والبأس الذي يدفعه الأمل والثقة. كأن ربّاً من الارباب يرعاهم ويقود خطاهم. ويلازم جانب الملك دائماً شخص توجّ بالغار في الألعاب الاليمبية. وعلى هذا الأساس قيل أن لا قانونياً رفض هدية كبيرة جداً شريطة أن يخرج من قائمة اللاعبين المتسابقين وعندما تمكن من خصمه في السباق وغلبه بكل سهولة صاح به المتفرجون «والآن ما الفائدة التي جنيتها من انتصارك أيها السيد الليقيديوني؟» فأجابهم باسماً «سأقاتل مع الملك جنباً لجنب».

وبعد ان يلحقوا الهزيمة بالعدو. يطاردونه حتى يشبت لهم النصر تماماً، ثم يصدر أمر التقهقر. لأنهم يرون من الضعة والحقارة لشعب أغريقي أن يفتك ويذبح رجالاً أستسلموا وانتهت كل مقاومتهم. وهذا الاسلوب في معاملة اعدائهم يفصح عن كرم نفس عالٍ فضلاً عن

(٥٠) يقول (كزينفون) ان الملك الذي يقود الجيش كان عليه ان يضحيّ لكل من جوبتر ومينرفا عند حدود مملكته. وربما خمت (الميوزات) الى مينرفا بوصفها حامية للعلوم والفنون.

(٥١) كذا كان يدعى. وربما نظمه البطل نفسه او لعله يتضمن تفاصيل عن مآثره.

(*) بالاغريقية Paian وهو نشيد لاپولو الپاياني، وقد يكون موجهاً الى الربة [ارطميس] أخذه الرومان عن الأغريق. وأصبح مرادفاً لاي نشيد أو شكر على نجاة.

كونه سياسة حكيمة فعندما يعلم العدو انهم لا يقتلون إلا من يبدي مقاومة، ويؤمنون الباقي على أرواحهم، يجد عادةً في الفرار خير طريق للنجاة.

ويزعم [هيببوس Hippius] السوفسطائي أن ليكورغوس نفسه كان جندياً عظيماً وقائداً محنكاً. ويعزو اليه [فيلوستيفانوس Philostephanus] أول تقسيم للخيلة الى كوكبات تتألف من خمسين وتسير على شكل مربعات. إلا أن [ديميتريوس] الفاليرياني يخالفه تماماً بقوله أن كل القوانين التي وضعها كانت لإغراض السلم والحق يقال إن الهدنة الالومبية المقدسة. أو إيقاف القتال التي وجدت بمساعيه ومجهوداته، تميل بي الى الاعتقاد بأنه رجل عطف رقيق القلب، بحب السلام والاستقرار، بصرف النظر عن كل ما يرويه لنا [هرميپوس Hermippus] عنه بخصوص الهدنة. وزعمه أنه لا فضل له فيها، ان [ايفيتوس] وحده هو الذي أوجدها، وان ليكورغوس كان أحد الحاضرين عند عقدها وبحض الصدفة ليس إلا. فقد كان هناك وسمع صوت رجل من خلفه يلومه ويعجب منه لأنه لم يشجع بني قومه على المشاركة في الاجتماع. فالتفت ولم ير أحداً، فاستنتج أنه صوت السماء ولذلك أسرع حالاً الى [اينيتوس] وياشر في مساعدته على إقامة احتفالات ذلك العيد الذي كان بمساعيه ومجهوداته أثبت بناءً، وأعظم شهرة من السابق.

ولنعد الى اللقيديميونيين، بقى النظام سارياً عليهم حتى بعد بلوغهم مبلغ الرجال لا يسمح لأي منهم أن يعيش على هواه، وكانت المدينة أشبه شيء بمعسكر فيه لكل شخص سهمه من الرزق وأسباب المعيشة والعمل مجدد ومقنن والمواطن لا ينظر الى نفسه كفرد ولد ليعيش لذاته وفائدته الخاصة، بقدر ما يعيش لبلاده ولأجلها. لذلك إن لم يؤمروا بعمل شيء ما، تراهم يذهبون لرؤية الصبيان وهم يقومون بتمارينهم كي يعلموهم شيئاً مفيداً أو ليتعلموا ممن هم أخير به منهم والحق يقال أن من أعظم وأرفع النعم التي حياهم بها ليكورغوس هو كثرة ساعات الفراغ التي نجت عن منعه ممارسة أي حرفة أو تجارة رخيصة وضيعة. فأما عن مهنة جمع المال وهي تعتمد على كثرة الحركة المتعبة والمزعجة ومقابلة الناس وعقد الصفقات فلم يكونوا بحاجة اليها في دولة لا يلقى الغني فيها أي احترام أو تحلة وكان قوم (الهيلوت) يستنبتون الأرض لهم ويدفعون لهم سنوياً الكمية المتفق عليها عيناً، دون أي متاعب. وفي هذا الصدد تروى حكاية عن لقيديموني اتفق وجوده في اثينا اثناء انعقاد المحكمة وأخبروه عن حكم أحد المواطنين باداء غرامة لأنه كان يعيش عاطلاً لا يعمل شيئاً وأن أصدقاءه رافقوه الى منزله للتسرية عنه وهو في أشد حالات الألم والتعاسة، فأدرك اللقيديموني العجب من هذا ورغب من صديقه أن يريه ذلك الشخص الذين أدين لكونه يعيش عيشة المواطن الحر. كانوا

يعدون الاحترام التافه للوقت، والاهتمام بالفنون اليدوية، وجمع النقود، أعمالاً أقلّ قدرًا منهم بكثير. ولسنا بحاجة للقول أن خطر التعامل بالذهب والفضة أدى الى زوال الدعاوى القضائية حالاً، اذ لم يعد يوجد في مجتمعهم فقر ولا حرص، بل ساد العدل؛ وراح كل فرد ينال ما هو في حاجة اليه، وعلى وجه الإستقلال لأن تلك الحاجات محدودة قليلة وكانوا ينفقون كل أوقاتهم - ما عدا ساعات تمارين الميدان والحرب - في اجواق الرقص، والمواكب والصيد والقنص، أو مشاهدة التمارين الرياضية في ساحات اللعب. وأولئك الذين تقلّ اسنانهم عن الثلاثين^(٥٢) لا يذهبون الى السوق أبداً وإنما يقضى حاجتهم من المون والارزاق أقربائهم وأصدقائهم وليس مما يشرف كبار السن أن يروا متسكعين هناك باستمرار بدلاً من قضاء القسم الأكبر من النهار في ساحة التمارين التي يطلق عليها [لسخاي Leschai] اذ لو انهم اجتمعوا هنا لقضوا وقتاً مستمراً، واحدهم مع الآخر.

لا بخصوص كسب المال، أو السؤال عن أسعار السوق بل في الحكم على عمل من الأعمال يستأهل تبادل الرأي فيه على الأغلب. مكبرين في الأخيار مآثرهم عائبين على الاشرار مثالهم بأسلوب يمتاز الفكاهة، ويخلو من القسوة، وتتخلل احاديثهم التي لا تحمل الكثير من الطابع الجدي - دروساً في النصيحة، والارشاد الى طريق التقدم. ولم يكن ليكورغوس بذلك الرجل المتشدد الصارم الفائق عن الحدّ، فهو الذي اقام تمثال [الضحك] الصغير على ما يذكر [سوسيبيوس Sosibius]، الذي يقول أيضاً، إن المرح المقبول يشيع بينهم في أوقات العشاء، وفي محلات اللائم العامة، فيكون بمثابة حلوى ومقبلات يطف من حياتهم الخشنة الصارمة. والإجمال نرى أن ليكورغوس صاغ السبارطيين بشكل ما عادوا يستطيعون أو يقبلون العيش كل لنفسه على وجه الانفراد. لقد انقلبوا فهم كياناً واحداً موقوف على النفع العام، تراهم يتجمعون حول قائدهم مثل دبّ النحل. وقد أنسلخوا انسلاخاً تاماً عن «أنيتهم» بدافع الحماسة وروح الجماعة التي سادتهم، فتفانوا في خدمة بلادهم وتسابقوا اليها. وأقوالهم هي خير ما يظهر به أحاسيسهم ومشاعرهم في هذا المأل.

لم يُقبل دخول [بيديراتوس Paederatus] في قائمة الثلاثمائة فعاد الى بلده ضاحك السنّ مسروراً لأن في سارطة ثلاثمائة من الرجال كلهم خير منه^(٥٣). وكان بوليقراتيداس

(٥٢) يقولون انه سنّ البدء بالخدمة العسكرية. لكن لما كان القانون يقضي ببقائهم في الخدمة حتى سن الاربعين فالمعقول هو ان سنّ الخدمة العسكرية لم يكن ثابتاً.

(٥٣) يقول كزينفون ان الايفوري اعتادوا تعيين ثلاثة ضباط. وكل ضابط ينتقي مائة من أفضل ما يجده والشخص المنتقى يعتبر اختياره شرفاً عظيماً.

Polycratidas من ضمن وفدٍ أرسل في سفارة لنواب ملك الفرس. فسألوه هل كان قدومهم بصفتهم الشخصية. أم بصفة رسمية عامة؟

فأجاب: «بصفة عامة أن نبحث سفارتنا، وبصفة شخصية إن فشلنا وسألت [ارغيليونيس Argileonis] بعض القادمين من [امفيبوليس Amphipolis]. هل مات ابنها [براسيداس Brasidas] (٥٤) ميتة الشجاع كما هو جدير بالسيارطي؟ ولما بدأوا يشنون عليه أعظم الثناء قائلين «لم يبق له نظير في سبارطا» ردّت عليهم قائلة «دعكم من هذا القول، كان [براسيداس] رجلاً شجاعاً طيباً، ولكن هناك الكثير ممن يفوقه في سبارطا».

قلت سابقاً أن مجلس الشيوخ تألف من أعوان ليكورغوس ومساعديه الأصيلين في خططه واصلاحاته. أما الشواغر فقد أمر أن تملأ بخير الرجال وأكثرهم استحقاقاً ممن جاوز الستين من عمره وليس ثم مدعاة للعجب أن كانت العضوية فيه مصدر تنافس عظيم. فأى تنافس بين الرجال أسمى من التنافس لا على من هو أسرع عدواً من أسرع العدائين، أو أقوى جسماً من الأقوياء، بل على من هو أوفر حكمة بين كثير من الحكماء ومن هو الأصلاح من الصلحاء، والانسب ليعهد إليه بالسلطة العليا في الجمهورية وبالسلطان على حياة، وحقوق ومصالح بني قومه العليا كمكافأة على سجايه وقابلياته؟ أمّا الطريقة التي يجرى بها انتخابهم فهي كما يلي يدعى الشعب لاجتماع عام، ويختار منهم عدد، ويؤخذون الى غرفة قريبة من مكان الانتخاب ويغلق عليهم بابها فلا يرون أحداً ولا يراهم أحد^(٥٥)، ولكن يسمعون أصوات الاجتماع في الخارج لأنهم يقررون الأمر من هتافات الجمهور، كما يقررون معظم شؤون الساعة الخطيرة. وبعد ان يتم ذلك، لا يؤتى بالمرشحين المتنافسين ويقدمون للجمهور معاً بل يتقدم واحد بعد آخر بموجب قرعة، فيشخص المرشح أمام الجمهور بدون أن ينطق بحرف. ويزود الأشخاص في الغرفة، بمناضد للكتابة، ليدونوا كل هتاف، ويقدروا قوته ويسجلوها دون أن يدروا لمصلحة من كان ذلك الهتاف. بل مجرد كتابتهم انه الهتاف الفلاني بالشدة وبمقدار كذا هو للأول أو للثاني أو الثالث وهكذا. فمن يكون قد حاز أكثر وأعلى الهتافات والتشجيع

ينصب شيخاً في الحال. وعندئذ يوضع أكليل غار على رأسه. ويسير في موكب حافل ليزور كل المعابد ويقدم شكره للأرباب. يتبعه عدد عظيم من الفتيان وهم يهتفون له، والنساء وهن ينشدن الشعر تكريماً وتعظيماً لفضائله، متمنيات السعادة له في الحياة. ويسيره على هذا الشكل خلال المدينة. يبسط كل صديق أو قريب له، مائدة طعام ويقول: «المدينة تكرمك بهذه المأدبة». أما هو فبدلاً من قبولها - ينصرف عنها الى المائدة العامة التي أعتاد انه يتناول عليها طعامه سابقاً، وتعطى له وجبته باضافة شيء إليها فيتسلمها ويضعها أمامه. وبعد ختام العشاء تتجمع قريباته النسوة عند الباب. فيختار من بينهن، أعظمن مكانة عنده، ويقدم لها الوجبة الاضافية التي نحّاها. وهو يقول انها كانت دليل تكريم له، وهي الآن دليل تكريم لها. وبهذا تنال منزلة كبيرة في البيت ويقوم سائر النسوة على خدمتها.

ويصدد دفن الموتى استحدث ليكورغوس نظاماً ينطوي على حكمة كبيرة، فلأجل القضاء أولاً على جميع الخرافات سمح لهم ان يدفنوا موتاهم داخل المدينة بل سمح ان تقام انصابهم حتى حول المعابد وقصده من هذا أن يتعود الفتيان هذه المناظر. وان لا يخافوا رؤية الجثة^(٥٦). وان يتصوروا أن لمس جثة أو وطء قبر يصيبهم بالنجاسة. وأمر ثانياً - أن لا يدفن شيء مع الجثث إلا بعض اوراق من الزيتون إن شاءوا مع الكفن الأحمر الذي يلفون الجثة به^(٥٧) ولم يسمح بنقش اسماء الموتى على الاضرحة إلا لأولئك الذين سقطوا في الحرب صرعى. أو للنسوة اللاتي يقمن بالواجبات الدينية. وحدد وقتاً جداً قصيراً للحداد، لا يزيد عن أحد عشر يوماً، وفي اليوم الثاني عشر يقربون للرب [كيريس Ceres] وينتهي كل شيء وهكذا نرى في الوقت الذي وضع حداً لكل التوافه من الأمور بدت الأمور الهامة الضرورية وليس فيها صغير أو زهيد إلا ويعبر عن إكبار للفضيلة، وشجب للزذيلة. لقد ملأ بلاد لقيديونيا كلها بدلائل وأمثلة عن أحسن السلوك. تلازمه فكرة واحدة وهي أن افراد الشعب منذ عهد الشباب فصاعداً لا يمكن أن يقفوا حيث هم في مجال الفضيلة والصلاح وانما يتقدمون بالتدرج المطرد.

ولهذا السبب منعهم في السفر الى الخارج، والانتقال في البلاد الأخرى للتعرف بأجهزة الحكم الاجنبية، والاخلاق السائدة فيها، واكتساب عادات الناس السيئ التهذيب، وذوي

(٥٤) انتصر هذا الجنرال اللقيديمي على الأثينيين في معركة بالقرب من امفيبولس المقدونية الواقعة على ضفاف نهر ستريمون. لكنه خر صريعاً في المعركة (توكديدس ١٠:٥).

(٥٥) كانت هذه الطريقة مشوشة غير مؤكدة للتوصل الى من فاز بأغلبية الاصوات فكثيراً ما كانوا يضطرون الى فصل الناس وعد الاصوات والدليل على هذه الصعوبة ما حصل في احدى المناسبات للانيورس المدعو سثينلايداس [توكديدس ٨:١٧]. يظن ارسطو أن على الناس عدم ترشيح انفسهم في مثل هذه الأحوال ولا ان يطلبوا المنصب أو العمل بل يجب ان يطلب منهم بدعوة، بسبب كفاءاتهم أو اهليتهم (السياسة ٧:٢).

(٥٦) جرت العادة في عموم بلاد اليونان والرومان ان يدفن الموتى على جانبي الطرق الخارجية. والسبب في ذلك هو المحافظة على الصحة العامة. ومهما يكن السبب الخرافي الذي قرن بهذا. فاننا نجد ليكورغوس يرفض كل ما يتعلق بالعدوى. وقد جاء من هنا عادة حرق جثث الموتى ووضع الرماد المتخلف في أوعية. ولم يبق ليكورغوس بالغائها.

(٥٧) يخبرنا ايليان (٦:٦) ان الكفان الاحمرء واوراق الزيتون انما هي للموتى من المواطنين البارزين في مجال الخدمة العامة ولاسيما في الحرب وليست مباحة للجميع بدون تفريق.

الأراء المختلفة في أسلوب الحكم. وكذلك نفى كل الأجانب الذين لا يتمكنون من عرض سبب وجيهه مقنع لمجئتهم، لا لخوفه من مدارستهم شكل حكومته وتقليدها كما يزعم (ثوسكيديدس)، أو أن يتعلموا شيئاً ينفعهم، بل لئلا ينشروا أموراً مضادة للأداب العامة. فوجود غرباء، يجب التسامح في الكلمات الغريبة، وتلك البدع تنتج بدعاً فكرية، ويستتبع ذلك آراء ومشاعر تتلف صفاتها الشاذة قوام الدولة المتناسق. كان مهتماً بانقاذ مدينته من العدوى بالأخلاق السيئة الأجنبية، قدر ما يهتم الناس عادة بدفع الطاعون عنهم.

والى هنا لا أجد أنا شخصياً أي شيء ينم عن ظلم وعدم مساواة في قوانين ليكورغوس. مع أن بعض الذين يقرون أنها صالحة للغاية لتربية خير الجنود، يرونها معيبة من ناحية العدالة. وربما كانت شريعة «الكريتيا Cryptia»^(٥٨) (هذا إذا كانت قانوناً من قوانين ليكورغوس كما يقول ارسطو)، تجعل ارسطو وافلاطون على السواء يريان هذا الرأي في ليكورغوس ونظام حكمه. فبمقتضى هذا القانون يرسل الحكام بصورة سرية عدداً من أقدر الشبان الى انحاء البلاد بين الفينة والفينة وليس معهم من سلاح غير خناجرهم، ولا من القوات الا الضروري القليل. فيخفون أنفسهم ليلاً في مواضع بعيدة أعين الرقباء وبيقون هكذا حتى يجنّ الليل فيخرجون من مكائهم وينبشون في الطرق العامة ليقتلوا اي هيلوتي يصادفونه واحيان يشبون عليهم نهاراً وهم في اعمال الحقل منشغلون ويذبحونهم، وعلى ما روى لنا (ثوكيديدس) في تاريخه عن حرب الپيلوبونيس، إن عدداً كبيراً من هؤلاء بعد أن اتم

(٥٨) كلّ المؤلفين كتبوا مستنكرين قسوة اللقيديمين على الهيلوت. وان حاول بليوتارخ المعجب الكبير بالسيارطيين التخفيف من وطأة ذلك جهد ما امكته. ان هؤلاء المساكين البائسين ميزوا بالعبودية في شتّى مظاهر حياتهم اليومية حتى في ثيابهم وحركاتهم. فقد رسم لهم ان يغطوا رؤوسهم بجلود الكلاب ويرتدوا صدرًا من جلود الغنم. ويحظر عليهم تعلم اي فنّ من الفنون الحرة. او الاقدام على اي هو من لياقة اسياهم ويضربون مرة في اليوم بالسياط لئلا ينسوا بانهم عبيد. فضلاً عن هذا منهم معرضون (الكريتيا) وتلك عقوبة لاينجو منها مطلقاً كل من يتكلم أو ينظر أو يمشي أو يتحرك مثل الانسان الحر! يحاول بليوتارخ ان يثبت لأعمال القسوة والوحشية تاريخاً ابعث بكثير من عهد ليكورغوس فيزعم، انها ما طبقت الا بسبب انضمام الهيلوت الى المسيينيين بعد الزلزال المدمر الذي وقع في ٤٦٧ ق.م. فهدم جزء كبيراً من لقيديمون، وفتك باكثر من عشرين الف سپارطي. لكن ايليان يذكر بكل وضوح ان الرأي السائد في بلاد الاغريق هو أن هذه الهزة الارضية المدمرة كانت حكماً سماوياً عقب به السيارطيون لمعاملتهم اللانسانية للهيلوت.

ويقول م. بارتلمي في [رحلات اناخارسييس] ان الكريتيا كما فرضها ليكورغوس لم تكن الا نوعاً من التمهيد للعمليات الحربية، حيث يقوم الشبان بنصب كمائن وشن هجوم ليلي خارج المدينة. غير قاصدين ان يكون ذلك ضد الهيلوت. وان اعمال القتل فيهم ربما بدء في زمن كتابة رسالة افلاطون في الشرايع. بسبب مقاومة الهيلوت لتلك الغارات الليلية. فاذا بالتمارين تغزو قاصرة على مطاردة هؤلاء العبيد المساكين وتتوسى الغرض الاصلي منها.

السيارطيون اختياريهم لبعالتهنم، توجهوا بأكاليل الغار ومنحوا امتياز المواطنة وحقوقها وطيف بهم كل المعابد تكريماً لهم وتعظيماً. ما لبثوا أن اختفوا جميعاً بصورة فجائية. وكان عددهم يقارب الألفين. ولم يستطع أن يتوصل أحد لا في حينه ولا بعده، الى كيفية موتهم. ويضيف ارسطو الى ذلك قوله أن «الايغوري» ما أن تسلموا مقاليد الحكم حتى أعلنوا الحرب عليهم واتقوا بأن ذبحهم حلال لا يحرمه الدين. ويجمع الكتاب قاطبة» أن السيارطيين عاملوهم بأشدّ القسوة، اذ كان من الأمور الاعتيادية ارغامهم على أن يتناولوا قدراً كبيراً من الخمر حتى يثملوا فيفقدونهم وهم في هذا الوضع الى قاعاتهم العامة حتى يشاهد الأحداث ماذا يفعل السكر في الانسان ويجبرونهم على أداء رقصات خليعة وضيعة وغناء مقطوعات مضحكة قبيحة ويمنعونهم من انشاء أناشيد جيدة منعاً صريحاً حتى انه لما غزا الثيبينون لاقونيا^(٥٩) وأسروا عدداً كبيراً من الهيلوت حاولوا عبثاً أن يحملوهم على انشاد قصائد من [ترياندر^(٦٠)] أو [الكمان Alcman] أو [سپندون Spondon]. وكانوا يجيبون قائلين: «لا، ان سادتنا لا يريدون!» وصدق من قال: «في سپارطه. الحرّ يملك أعظم الحرية، والعبيد فيها أتعس العبيد في العالم». وفي رأيي ان هذه المظالم والاضطهادات بدأت تمارس في سپارطة في زمن متأخر جداً لاسيما بعد حصول الزلزال العظيم^(٦١) وقيام الهيلوت بانتفاضة عامة، فقد ضموا قواتهم الى المسيينيين واجتاحوا البلاد وخربوها والحقوا الخطر الجسيم بالمدينة. لأنني لا أستطيع اقناع نفسي الى إسناد سلوك بربري شرير كهذا لليكورغوس، لما عرف به في اللطف والدمائة وحب للعدل في كل المناسبات الأخرى، وهو ما تشهد به النبوءة أيضاً.

عندما تأكد أن تنظيماته الاكثر أهمية قد رسخت جذورها في عقول بني قومه وان العادة جعلتها سهلة المتناول محبوبة، وان جمهوريته باتت ثابتة رصينة لا نحتاج الى معين، ويمكنها أن تمضي في سبيل التقدم وحدها «عندئذ شعر بالسعادة كما شعر خالق الأرض بالارتياح وهو يراها كائنة متحركة» على حدّ قول افلاطون. اجل شعر ليكورغوس بالفرح وهو يتطلع الى عظمة بنائه السياسي وجماله وهو يعمل ويتحرك. وتملكته فكرة وهي أن يجعل نظامه هذا باقياً ما بقي الجنس البشري ينقله الخلف عن السلف. وعقد اجماعاً عاماً استثنائياً حضره

(٥٩) في عهد ايبامنداس. بعد معركة ليوكترا في ٣٧١ ق.م.

(٦٠) شاعر غنائي شهير ولد في حدود الاولبياد السابع والعشرين في (سارديس) من اعمال (ليديا) لكن جيء به وهو صغير الى لقيديمون وأستغل عبداً إلا ان عبقريته الشعرية أمنت له العتق والحرية.

(٦١) وقع هذا الزلزال في عهد [ارخيداموس] في حدود المائة الخامسة ق.م فدمر المدينة وابتلع عشرين الف سپارطي ورجّ جبل (تايغتوس) رجاً عنيفاً. ويعزو بليوتارخ هذه النكبة في موضع آخر الى سلك السيارطيين ازاء بنات [السبوس] يخالف ما يراه ايليان من ان ما حلّ بهم كان بسبب معاملتهم السيئة للهيلوت.

الشعب جميعاً، وقال لهم. إنه يرى الأمور قد استقرت بشكل مناسب معقول لأجل سعادة الدولة وصلاحها. على أن شيئاً في غاية من الأهمية كان يراه ناقصاً ولم يشأ التصريح به حتى تنزل عليه نبوءة فيه. وأنه يرغب منهم في الوقت عينه أن يطيعوا القوانين ويطبّقوها دون أي تغيير حتى عودته وعندئذ سيفعل ما تأمر به الآلهة. فأسرع الجميع للموافقة ورجوه أن يعجل في رحلته. وقبل أن يفارقهم جعل الملكين واعضاء مجلس الشيوخ والعامّة جميعاً يقسمون ميمناً بالابقاء على أسلوب الحكم الراهن حتى عودته. ولما تمّ ذلك انطلق الى [دلفي]، وقرباً لاپوللو ثم سأله هل أن القوانين التي وضعها جيدة، كافية لسعادة الشعب وصلاحه؟ فجاءت النبوءة بأن القوانين ممتازة جداً وأن الشعب بالخضوع لها سيبلغ أعلى مراقي التقدم والرخاء فقام ليكورغوس بكتابة النبوءة وبعث بها الى سبارطا ثم قرب لاپوللو ثانية. وأستأذن من أصدقائه وأبنة وغادروهم وهو على يقين بأن السبارطيين لن يحثوا بالقسم الذي أدوه، وأنه لذلك يجب أن يختتم حياته العامة بالشكل الذي يجده مناسباً وهو لا يزال في السن التي تكون فيه^(٦٢) الحياة عبثاً والموت مرغوباً فيه وفي حين كان كل ما حوله في حالة طيبة راضية، فأنهى حياته بالامتناع عن تناول الطعام معتقداً أنه واجب السياسي أن يجعل في موته. إن أمكن - خدمة للدولة. وأن يقدم حتى في ختام حياته مثلاً من أمثلة الفضيلة، ويحقق غرضاً مفيداً. أنه من ناحية يتوج ويختتم سعاداته الخاصة بموت جدير يمثل هذه الحياة الكريمة ومن ناحية أخرى يضمن لبنى قومه التمتع بالمنافع التي انفق حياته كلها في سبيل كسبها لهم بعد أن أقسموا الايمان المغلظة على البقاء امناء مخلصين لتنظيماته حتى عودته. ولم يكن مخطئاً في أماله. لأن مدينة ليقديمون بقيت المدينة الرئيسة في كل بلاد الاغريق زهاء خمسمائة عام. وظلت تحافظ محافظة دقيقة على قوانين ليكورغوس. وخلال هذه المدة كلها لم يحصل فيها شيء من التغيير اثناء حكم اربعة عشر ملكاً ختموا (بأغيس) ابن [ارخيداموس Archidamus] فإن استحداث منصب «الايفوري» وان كان قد ظن أنه لمصلحة الشعب، إلا أنه زاد من ملامح الحكم الارستوقراطية^(٦٣) وبرزها الى اقصى حد بدلاً من أن يخفف من غلواتها.

وفي اثناء حكم [أغيس]، بدأ الذهب والفضة لأول مرة يتدفقان الى سبارطا، ومعها جاء كلّ الودائل والشُرور التي تصاحب الرغبة المفرطة في الثراء. وزاد [ليساندر] من هذه الفوضى

(٦٢) ومع هذا يقول لوسيان ان ليكورغوس كان في الخامسة والثمانين عندما قبض.

(٦٣) ينكر ارسطو ذلك [السياسة ١٧:٢] والواقع أنه غير ممكن وليس معقولاً ان يقوم الضباط المزودون بمثل هذه السلطة العظيمة بابطال الجزء الديمقراطي من الدستور الذي كان له الفضل في توليهم تلك السلطة.

بحلبه الاسلاب والغنائم الحربية الثمينة فملاً بلاده بمظاهر البذخ والتزف وان كان هو نفسه رجلاً مستقيماً^(٦٤)، وأبطل قوانين ليكورغوس ومراسيمه. اذ ما دامت تلك القوانين نافذة المفعول في سبارطا فقد كانت تبدو أقرب الى حياة رجل حكيم ذي خلق حميد منها الى حكومة سياسية لشعب من الشعوب. وكأسطورة الشعراء التي ألفوها عن هرقل، وهي تجواله في البلاد معاقباً الطفاة القساسة، والأشرار المجرمين بجلد اسده وهراته، كذلك ما قيل عن اللقيديمونيين بأنهم تمكنوا من كسب خضوع كل الاغريق الطواعي الودود، بعكاز بسيط وبرداء خشن واستمروا طوال الوقت يحاربون الطغيان والفساد والعدوان، ويتدخلون كوسطاء لفض الحروب، وانهاء النزاعات المدينة. ولم يكلفهم هذا في أغلب الأحيان تحريك جندي او درع واحد بل بمجرد إرسال مندوب واحد، يخضع الجميع لتوصياته دونما اعتراض. ذلك هو الرصيد من النظام والمساواة الذي وجد في دولتهم وكان يفيض على الآخرين بالكثير من النعم والخيرات.

ولذلك لايسعني إلا أن أعجب من أولئك الذي يقولون ان السبارطيين خير الرعايا، واسوء الحكام، وبرهاناً على هذا، ينسب قول الى الملك [ثيويوميوس]. عندما قال أحدهم أمامه: «أن سؤدد سبارطا ما بقي هذه المدة الطويلة إلا لأن ملوكها كانوا من القادة المحنكين.» اجابه قائلاً: «كلاً بل لأن الشعب يعرف جيداً كيف يطيع.» ذلك لأن الشعب لايطيع حكامه إلا اذا أتقنوا فن القيادة والحكم. والطاعة هي درس يلقيه القادة. والزعيم الحقيقي يخلق بنفسه طاعة اتباعه، وكما أن الغاية الأخيرة لفن ركوب الخيل هي تذليلها وكسر شكيמתها، كذلك هو فن الحكم، فانه يهدف الى اشاعة وايحاء الرغبة في الطاعة بين الناس، واللقيديمونيون لم يكتفوا بالايحاء بهذه الرغبة، بل تعدّوها الى كسب رغبتهم المطلقة ليكونوا رعايا خاضعين لهم. ولم يكن هؤلاء يطلبون من السبارطيين ارسال سفن ومال ونجدات عسكرية لهم. بل كانوا يطلبون قائداً سبارطياً واحداً فحسب. وهم ينزلون هذا القائد ارفع منزلة من التجلة والاحترام. وهو ما كان موقف الصقليين في [غيلپوس Gulippus] وموقف [الخلقيديين Chalcidians] من [پراسيداس] وموقف كل اغريق آسيا^(٦٥) من [ليساندر وأغيسلاوس وكالليكراتيداس Cal-]

(٦٤) يذكر [سبستوس] نقلاً عن [ديودورس ١٨:١٠٦] أنه جلب الى سبارطا ألفاً وخمسمائة تالنت من الذهب فضلاً من غيره من النفائس ويخبرنا كزنيون أيضاً انه عند استيلائه على اثينا بعث الى سبارطا بالكثير من الغنائم الثمينة ومن بيتها (٤٧٠) تالنت من الفضة.

(٦٥) ارسل السبارطيون [غليوس] للدفاع عن [سيراقوز] عندما غزاها الاثينيون بقيادة [الكبيداس]. واما الخلقيدون الذين صرّح (براسيداس) اثناء ما كان في خدمتهم فلم يكونوا من [خلقيس] [يويويا] بل من جوار [امفيبوليس]. وبأغريق اسيا يعني كل سكان اسيا الصغرى وايونيا والجزر المجاورة. و[كالليكراتيداس] هو أمير بحر ليقديموني في نهاية حروب الپلويونيسي.

[Iacratidas] ولم يبخل عليهم الأقسام أو الأمراء الذين أرسلوا لهم بالقاب «البناء والمقتصين». وكانت انظارهم دوماً شاخصة الى مدينة سبارطا نفسها بوصفها اكمل نموذج للسجاياء العالية والحكم الصالح في حين أعتبر باقي الاغريق مجرد علماء واساتذة وقد أشار الى هذا [ستراتونيكوس Stratonicus] بنوع من الفكاهة، عندما اقترح مازحاً أن يُسنَّ قانونٌ يدير الآثينيون بموجبه شؤون المواكب الدينية والطقوس المقدسة الخفية، ويشرف الاليائيون على الالعباب الاولمبية، وإذا هفا واحداً منهما أو اخطأ فيجب أن يُعاقب اللقيديميون بالضرب^(٦٦). وقال أنتسيستنس بلهجة جدية (وهو أحد متتلمذي سقراط) عن [اليثيين] عندما استخفهم الطرب بانتصارهم في [ليوكترا Leuctra]^(*)، أنهم أشبه بصيبيان المدرسة الذين ضربوا معلمهم.

ومهما يكن من أمر، فإن ليكورغوس لم يرد لمدينته أن تحكم عدداً كبيراً من المدن الأخرى. بل كان يرى أن سعادة الدولة كسعادة الفرد من البشر، هي في ممارسة الفضائل أساساً، وفي وحدة السكان. لذلك كان هدفه في كل تنظيماته أن يجعل قومه أحراراً بالفكر، مستقلين بالنفس، أقوياء الارادة. لذلك، فإن كل أولئك الذين أجادوا الكتابة في السياسة امثال افلاطون وديوجينيس Diogenes وزينو Zeno، أتخذوا ليكورغوس نموذجاً لهم. لقد ترك هؤلاء وراءهم كلمات وأفكاراً فحسب في حين أن ليكورغوس كان منشئ نظام حكم لا كتابةً بل حقيقة واقعة، حكومة قصر الآخرون عن تقليدها واستنساخها^(٦٧). وفي الوقت الذي اعتبر الناس الطبيعة الفلسفية الفردية شيئاً لا يمكن بلوغه، نجده بالمثل الذي ضربه من دولة ذات فلسفة كاملة، قد ارتفع وسما فوق كل واضعي القوانين في بلاد الأغرريق. ولهذا قال ارسطو أن الإكرام الذي اكرمته في لقيديمونيا بعد وفاته كان أقل مما يستحق. مع أن لديه هناك معبداً يقدمون فيه القرابين اليه سنوياً كأنه اله.

(٦٦) لأن المعلمين يحاسبون على اخطاء تلاميذهم ان أصل النكته ولبابها هو هذا: أعتاد اللقيديميون انزال العقاب بالوالدين أو المتبنين ولذا إذا ارتكب ابنتهما أو ابنتهما خطأ أو ضلوا سواء السبيل. ولما بات اللقيديميون الآن معلمين للشعوب الأخرى فقد وجب عليهم تحمل القصاص الواقع عليهم جراء اخطاء تلاميذهم!

وستراتونيكوس هو موسيقار أثيني، مدحه (أثينيوس، ٨:٨) لجمال تأليفه، وقابليته على التكتيت. إلا ان تعلق ابناء وطنه بالخرافات والاهام أضفى مسحة غلابة على سحره.

(*) في السنة ٣٧١ ق.م بقيادة ايبامنداس.

(٦٧) يختلف افلاطون وارسطو عن بلوتارخ في هذا حتى بوليبيوس نفسه الذي كان شديد الإعجاب بنظام الحكم السبارطي، نجده يقول ان السبارطي وان كان صاحب انصاف وفضيلة لكن الجماعة قليلو الاهتمام بنشر العدل لا يكثرثون بمكارم الأخلاق.

وذكروا ان صاعقة سقطت على الضريح الذي ضم رفاته بعد نقلها الى سبارطا ودفنها، وهي حادثة لم تحصل لرجل عظيم سواه، باستثناء [أثريديس] الذي دفن في مدينة [اريثوسا Are- thusa] بمقدونيا^(٦٨). وقد تكون هذه الظاهرة للمعجبين بالشاعر، برهاناً ودليلاً على انه حظي بعين ما حظي به ذلك الرجل القديس مصطفى الآلهة، يقول بعضهم ان ليكورغوس توفي في [كيررا Cirra]^(٦٩)، ويزعم (اپوللوثيميس Apollothemis] انه توفي بعد مجيئه الى [ايليس Elis]، ويقول [طيمائوس] و[ارسطوكزينس Arstoxenus] ان حياته انتهت في كريت، ويضيف ثانيهما أن قبره عند الكريتين قائم في منطقة [پرغاموس] بالقرب من «درب الغرباء». وترك ابناً واحداً هو [انتيوروس Antiorus] الذي مات بلا عقب فأنقرضت الأسرة، إلا أن أصدقاءه وأقرباه ظلوا يقيمون له حفل ذكرى سنوياً لوقت طويل، وسميت ايام الاجتماع [ليكورغوس] ويقول [ارستوقراطس] ابن [هيبارخوس]^(٧٠) انه توفي في (كريت) وان اصدقاءه الكريتيين بناء على طلب منه أحرقوا جثته وذروا رماها في البحر، خوفاً من أن تنقل عظامه الى لقيديموني، وعندئذ يتخذونها حجة وتعلل ليحلوا انفسهم من القسم، ويقوموا باجراء تجديد، في أصول الحكم.

وفي هذا الكفاية عن حياة وأعمال ليكورغوس.

(٦٨) هذا اذا كان عاد الى بلاط [ارخيلاوس] على أن ثم ضريحاً له في أثينا.

(٦٩) بلدة بالقرب من دلفي.

(٧٠) مؤلف كتاب في تاريخ لقيديموني. أقتبس فيه أثينيوس ٧:٣.

نوما پمپولیس

NUMA POMPOLIUS

715-672 ق.م

وذكروا أنهم مستعمرة لقيديونية. والتاريخ على العموم غامض، ولاسيما عندما يحقق على ضوء قوائم الفائزين في الألعاب الاولمبية التي نشرها في زمن متأخر [هيبياس Hippias] الإليائي، وهي لا تستند الى مرجع ثقة. وبابتدائها من نقطة مناسبة سنباشر في عرض أهم الوقائع المدونة عن حياة [نوما] وأجدرها بالملاحظة.

كانت السنة السابعة والثلاثين (محسوبةً من يوم بناء روما) عندما قام رومولوس الحاكم آنذاك - بتقديم قربان عام في «مستنقع المعز» في الخامس من شهر تموز - المسمى [كابروتين نونس Caprotine Nones] بحضور الشيوخ وأهالي روما. فأظلمت السماء فجأة وخيمت على الأرض سحب كثيفة صحبها كثير من العواصف والمطر. وفرّ العامة هارين وقد تملكهم الذعر وتفرقوا أيدي سباً. وفي هذه العاصفة أختفى رومولوس ولم يعثر على جسمه حياً أو ميتاً. وثار شك خبيث في أن غيبته من عمل الپاتريشيان وأنتشرت اشاعات بين الناس بأنهم تأمروا عليه وازالوه من الوجود بعد ان ضاقوا ذرعاً بالحكم الملكي، ونفذ صبرهم في الآونة الأخيرة من المسلك الاستبدادي التحكيمي الذي اتخذوا اذاءهم. وانهم ارادوا أن يستحوذوا على السلطة وادارة دفة الحكم بأنفسهم. وقد حاولوا تبديد هذه الشكوك وازالتها من الاذهان بالافراط في تكريم رومولوس وجعله في مصاف الآلهة فقالوا لم يمت بل عرج الى السماء وانتقل الى حالة اسمى من حالة البشر وأقسم [پروكلوس] وهو رجل محترم الكلمة بارز الشخصية - بانه رأى رومولوس يصعد الى السماء لابساً ثيابه الملكية وبكامل شكة سلاحه وسمعهم يقول وهو يصعد، بأن على الرومان من الآن فصاعداً أن يطلقوا عليه اسم [كويرينوس].

بعد أن هدأت الحواظر وخدمت الفتنة، ظهرت مشكلة أخرى حول انتخاب الملك الجديد، لأن عقول الرومان الأصلاء والسكان الجدد لم تبلغ بعد ذلك المبلغ من وحدة الاتجاه، بل كان ثمّ أحزاب تختلف وجهات نظرها اختلافاً بينا - وكان ثمّ تنافر وتباغض ما بين الشيوخ أنفسهم. ومع أنهم اتفقوا جميعاً على ضرورة اختيار ملك، إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم على شخصه. فأولئك الذين بنوا المدينة مع رومولوس، وسبق لهم أن نزلوا عن جانب من أراضيهم ومسكنهم [للسابين]، كانوا يستنكرون أي اقتراح يقضي بخضوعهم لحكم من كان موضع احسانهم ورعايتهم. والسابين يزعمون من الجهة الثانية أنهم خضعوا لحكم رومولوس وحده، بعد وفاة ملكهم [طاطيوس] دون شكوى أو تدمر، وقد حان دورهم الآن ليكون الملك من بني جنسهم. ولم يكونوا يعتبرون أنفسهم أدنى منزلةً من الرومان، ولا يعدون مساهمتهم في توسيع روما أقل من مساهمة الرومان. فلولا جموعهم الكبيرة ولولا مساعدتهم لكان من العسير أن

مع أن شجرة الأسرة النبيلة تصل بشكل متسلسل دقيق حتى [نوما پوميوليوس] باتفاق المؤرخين جميعاً، فهناك تناقض كبير بين المؤرخين بخصوص زمن حكمه، فثم كاتب يدعى [كلوديوس Clodius] يذكر في كتاب له بعنوان [تعليقات على التاريخ] أن سجلات روما القديمة فقدت عندما نهبها الغاليون^(١)، وان كل ما هو موجود منها الآن هو مزيف، قصد بتزييفه ارضاء ومجاملة بعض الناس الذين يرغبون في ان يتوهموا أنفسهم بأنهم من نسل عريق نبيل في حين أنهم ليسوا كذلك. ومع أن الشائع المعروف أن [نوما] كان من تلاميذ [فيثاغوراس]^(٢) الحميمين، إلا أن آخرين ينفون ذلك ويؤكدون أنه لم يكن واقفاً على اللغة اليونانية ولا علومها. وأنه كان رجلاً ألمعيّ الذهن بظفرته، وهب قابليات طبيعية بلغت به مراقبي الفضائل العليا، أو انه عشر على معلم من البرابرة يفوق فيثاغوراس علماً ويؤكد بعضهم كذلك، ان فيثاغورس لم يكن معاصراً لنوما. وانما عاش بعده بخمسة اجيال على الأقل^(٣). وان هناك فيثاغوراس آخر وهو مواطن سبارطي، نال جائزة في سباق أولمبي، في الاولمبياد السادس عشر^(٤)، الموافق للسنه الثالثه من اختيار [نوما] ملكاً. ربما تعرف به في رحلته الى ايطاليا وعاونه على انشاء مملكته ومن هنا كان السبب في ظهور عدة عادات وقوانين [لاقونية] بين الأنظمة الرومانية. وعلى أية حال كان [نوما] من نسل سابيني^(٥)،

(١) ٢٩٠ ق.م.

(٢) لم يزر فيثاغوراس الفيلسوف ايطاليا حتى الاولمبياد الحادي والخمسين اي بعد اربعة اجيال مرت على عصر (نوما) ويضيف (ديون ٢:١٥) الى هذا بأنه لم يهتم بالدراسات الفلسفية في كروتونا وقت انتخابه فان تلك المدينة لم تبنى الا في السنة الرابعة من تاريخ اعتلائه العرش.

(٣) ليقي (١٨:١) يجعله في عهد سرقيلوس ثلبيوس. وشيشرون في الخطب (٢:٣٧) يجعله في وقت متأخر مؤكداً انه قدم ايطاليا على عهد تاركوينوس سوپربوس.

(٤) ٦٥٤-٦٥٧ ق.م.

(٥) أكتشف [ديون ٢:١١] في تاريخ السابين أنه بينما كان ليكورغوس وصياً على ابن أخيه اثومس (خاريلوس بلا شك) هرب بعض اللقيديمين الذين لم يستطيعوا احتمال صرامة قوانينه واتجهوا الى ايطاليا فاستقروا أولاً في (بوميتيا) ثم انتقل عدد منهم الى ارض السابين وامتزجوا بهم ولقنوهم عاداتهم لاسيما تلك التي تعلق بالحرب. ودرّبوه على الجلد والصبر وشطف العيش. وعلى هذا الأساس تكون هذه الدفعة من اللاجئين قد استقرت في ايطاليا قبل ميلاد [نوما] بمائة وعشرين عاماً.

تستحق اسم المدينة. وظل الحزبان يتنازعان ويتجادلان على هذه الصورة. وخشية أن يسبب الاختلاف فوضى عامة - بغياب أي شكل من أشكال الحكم والقيادة اتفق على أن يقوم أعضاء مجلس الشيوخ المائة والخمسون دورياً^(٦) - بوظيفة الحاكم الأعلى ويكون لكل واحد منهم عندما يحين دوره حق استعمال شارات الملك وتقديم القرابين الدينية الرسمية وتصريف شؤون الحكم لمدة قدرها ست ساعات نهاراً وست ساعات ليلاً، وهذا الانتقال السريع في السلطة والتوزيع العادل لها، سيزيل كل آثار المنافسة بين الشيوخ والتحاسد بين الشعب لما يرون شخصاً يرتفع إلى مرتبة الملك، لينخفض إلى متسوى فردٍ عادي خلال يوم واحد. وسمي هذا الشكل من الحكم عند الرومان بالملكية الدورية (Interregnum).

على أن هذا الشكل البسيط الساذج من الحكم ما كان يمنع شكوك العامة وتنديدهم، كأنما وجدوا فيه تغييراً في شكل الحكومة ومفضياً إلى حكم الأقلية [أوليغارشي] وأن الشيوخ ينتهون إبقاء السلطة العليا في أيديهم عن طريق نوع من الوصاية. دون أن يباشروا في اختيار الملك. أخيراً اتفق الحزبان على أن يختار السابيين ملكاً من بين الرومان. ووجد أن هذا هو خير حلٍّ لأنها روح الحزب والتكتل. وأن الأمير الذي سينتخب سيكون موضع رضى وتعلق أولئك الذين انتخبوه وأولئك الذين انتخب منهم على حدٍ سواء. وترك السابيين حق الاختيار للرومان الأولين. وهؤلاء بدورهم كانوا أكثر ميلاً إلى قبول ملك سابيني ينتخبونه هم، في أن يروا ملكاً رومانياً يختاره السابيين ويشايعونه، فعقدت مجالس مشاورة ورشح [نوما پومپوليوس] من شعب السابيين^(٧). وهو شخص بلغت أخلاقه السامية من الشهرة حداً عظيماً، فما أن ذكر اسمه حتى وافق عليه السابيين بحماسة تفوق حماسة الذين انتخبوه. وكان يسكن خارج روما. ويعد أن أعلن الانتخاب للجمهور عين عدد من كبار ووجهاء الحزبين لزيارة المرشح وعرض الحكم عليه. وكان [نوما] يسكن في مدينة سايبينية مشهورة تدعى [كيوريس Cures] ومنها أطلق السابيين والرومان على أنفسهم الاسم المشترك [كيوريسيس]. وكان أبوه [پومپونيوس Pomponius] رجلاً فاضلاً، ونوما أصغر بنيه الأربعة وُلد (كما

(٦) بحسب دعوى المؤلف كان عدد الأعضاء في عهد روملوس مائتين. على أن [ديون] يقول أن الكتاب يختلفون في هذه النقطة. فبعضهم يؤكد إضافة مائة عضو على اتحاد السابيين والرومان. وبعضهم يؤكد إضافة خمسين. وأما حول شكل حكم النواب الملكيين (لبيقي) يزودنا باقرب التفاصيل احتمالاً إذ يقول أن الشيوخ انفسهم انقسموا إلى مجموعات عشيرة واقترعوا على من يحكم أولاً وثانياً الخ... بحسب ترتيب الاقتراع على أن يكون لشخص واحد فحسب من كل عشيرة حاكمة، امتياز حمل شعار السلطة.

(٧) في ذلك الوقت دعا نواب الملك الأهالي ووجهوا اليهم الكلام التالي «أيها الرومان. انتخبوا أنفسكم ملكاً. إن مجلس الشيوخ موافق. وإن انتم أختارتم ملكاً خليفاً بخلافه (روموس) فإن المجلس سيصادق على انتخابكم». وقد سر الشعب جداً بتنازل الشيوخ وعدم استخدامهم صلاحياتهم.

شأت العناية الربانية) في الحادي والعشرين من نيسان وهو يوم بناء [روما]، وقد وهب نفساً نادراً ما هذبت الطبيعة مثلها، تعلقت بالفضيلة والصلاح، وأخضعها بالنظام وأخذها بالتثقيف والحياة الصارمة ودراسة الفلسفة وهي وسائل من شأنها أن تطرد النزغات الحقيرة والعواطف الوضيعة فضلاً عن قمعها حدة الطبع، وعنف المزاج. وهي صفات لها مكانة عالية بين البرابرة. وكان رأيه أن الشجاعة الحقيقية تكمن في اخضاعنا عواطفنا للعقل.

كان قد جرد منزله من كل مظاهر الترف والنعومة. وفي حين كان المواطنون والأجانب على حدٍ سواء يجدون فيه قاضياً نزيهاً ومستشاراً لا يرقى إلى مشورته شك، فإنه انصرف في حياته الخاصة إلى عبادة الأرباب الخالدين لا إلى اللهو والفسوق. وعكف على التأمل العقلي في قوى الطبيعة، والمقدرة الإلهية. وبلغ من شهرته أن [طاطيوس] زميل رومولوس في الحكم زوجته ابنته الوحيدة وجعله ختنه، لكن هذا لم يُغر كبرياءه بالرغبة في العيش مع حميته في رومه. وفضل الحياة مع السابيين، والعناية بأبيه في آخر عمره. وفضلت (طاطيا) أيضاً عيشة زوجها البسيطة الخاصة على حياة الفخفة والترف التي كانت تتمتع بها وهي مع والدها. وقيل أنها توفيت بعد حياة زوجية دامت ثلاث عشرة سنة.

وعندئذ ترك [نوما] ضوضاء المدينة ونزع إلى حياة الريف. يتجول في البساتين والحقول، ويؤدي فرائضه الدينية، ويقضي جل أوقاته في الأماكن الخلوية وحده وهذه الوحدة كانت سبباً في حكاية اتصاله بالربة. خلاصتها أن نوما لم يعتزل المجتمع بسبب حالة من السويداء اعترته، أو لإضطراب عقلي انتابه، وإنما لأنه ذاق مسرات وصال أسمى كثيراً من الوصال البشري، وسمح له بالزواج من الآلهة لما احبته الربة [إيجيريا Egeria]^(٨) وأختصته لنفسها وبذلك نال البركة والحكمة الألهية.

هذه الحكاية تشبه الاساطير الموغلة في القدم كما هو واضح. تلك الأساطير التي انحدرت إلى الفريجيين وما زالت تروى عن [أتيس Attis]^(٩) وما انحدر للبيثيين عن [هيروودتس]،

(٨) ان ميل [نوما] إلى العزلة. واعتياده الانزواء في أمكنة غير معروفة من غابة [أريشيا] كان سبباً في شائعات مختلفة راجت بين الناس. وظن بعضهم أن الحورية (إيجيريا) هي التي أملت عليه الشرائع الدينية والمدنية التي قام بسنها. وأكد ذلك هو نفسه كي يؤمن المصادقة الربانية عليها ولكن لما لم يكن ثم من يخلو من سوء الظن والنزغات فقد ظن بعضهم أن ما يجتذبه إلى الغابات والكهوف شيء لا يمت إلى العفة بصلة. وهذا ما حدا بجوقينال إلى السخرية عند ذكره بستان [إيجيريا] ليقول (١٥:٣) Hic, ubi nocturnae Numa Constituebat amieae ويعقب أوقيد بقوله: ان ديانا من أجل ان تنسى حزنها على فقدان [نوما] حولتها إلى نبع ما زال يدعى باسمها (١٥) المسوخ وهو وپولوتارخ الذي تبنى الرأي نفسه هما الوحيدان اللذان ذكرا انها كانت زوجه (انظر أيضاً ديون ١٥:٢).

(٩) قيل ان (أتيس) كان موضع حب الربة (كيبيله) وان (ديانا) عشقت انديميون. وأما هيروودتس هذا =

وللاركاديين عن انديميون Endymion، ولا نذكر عدداً آخر ممن ظن أن الآلهة اصطفتهم واسبغت عليهم حبها. وليس يبدو غريباً أن لا تنزل آلهة شاعت ان تحب رجلاً، لا طيراً ولا حصاناً وتعيش مع نفس فاضلة وتتبادل الحديث مع حكيم ذي خلقٍ رفيع. وان كان يصعب حقاً الاعتقاد بأن للآلهة والجن قابلية على الحب الحسي والجسماني والتوكله في جمال انسي أو جسم بشري. على أن حكماء المصريين لا يقرون حقاً بهذه التفرقة، وهي: من الممكن لروح إله ان تتقمص طبيعة انثى من البشر، لتحمل في أحشائها نطفة أوليئة لجيل بشري، في حين يرون من الوجهة الثانية أنه يستحيل على جنس الذكر من البشر أن يتصل جنسياً، أو يمتزج جسمانياً بربة من الربّات، غير معتبرين على ما يبدو أن ما هو قابل الحصول في شق، يفترض وجوب حصوله في الشق الثاني، والمنطق يفرض ان التزواج ذو طبيعة تبادلية. وليس يصحح إلا الافتراض بان الآلهة تتجاوب لحب البشر، أو انها تحبهم على شكل الرعاية والاهتمام بهم وبفضائلهم. ولم يخطئ أولئك الذين زعموا أن (أبوللو) عشق [فورياس]، و[هياسينثوس Hyacinthus] و[ادمتوس Admetus] (١٠٠)، أو أن [هيبوليتوس السيكينيوني Sicyoiuon] كان ذا حظوة عندهم، مشمولاً برعايتهم. فطالما كان يبحر من [سيكيون] إلى [سيريا]، كانت العرافة البيثية نشد هذا البيت الملحمي المعبر عن اهتمام الربّ وحبّه:

الآن رجع هيبوليتوس مرة أخرى يخاطر بحياته العزيزة في غمار البحر

وذكروا أيضاً أن [بان] وقع في عشق [پندار] وأشعاره (١١١). وأن القوى الالهية كرمت [هسيود، واركيلوخوس] (١١٢) بعد وفاتهما، لأجل [المبوزات]. وثم رواية أخرى هي أن

= [يسميه داسييه: رودوتس] فلم يذكر في اي موضع آخر على ما نعتقد.

(١٠) كان (فورياس) ابن (تريوياس) ملك أرغوس قد انقذ الروديين مما لا يحصى من الافاعي التي عاثت في جزيرتهم ومن تنين هائل على الأخص، كان قد ازدر عدداً كبيراً من الناس. ولذلك اعتبر مقرباً من [أبوللو] الذي قتل (البيثون). وقد وضع مع البيثون في السماء بعد موته في برج الثعبان. كذلك هياسنتوس ابن اميكلاس باني مدينة اميكي القريبة من سيارطا فقد كان محبوباً من أبوللو و[زفيروس] فقتله الأخير في نوبة من الغيرة. وعندها تحول الى زهرة الهياسنتا التي سميت باسمه. [پاوسنياس - لقيديمون ١٩:٣، أوفيد المسوخ ١٠:١٠٥]. اما (ادمتوس) فهو ابن (فيريس) ملك تيتاليا. تقول الاساطير ان أبوللو حفظ له غنمه.

(١١) كان ل[بان] منزلة عبادة خاصة عند پندار. ولذلك نجده يسكن بالقرب من هيكل (ريا) و[بان]. ونظم تلك الاشعار التي غنتها عذارى ثيبه في عيد تلك الربّة. وقيل ان سعدً بسماع صوت الاله نفسه وهو يتلو إحدى مقطوعاته الشعرية.

(١٢) قتل (اركيلوخس) بيد الجندي كالكوندس أو أرخياس النخسوسي. أرغمته كاهنة الأولى على تأدية فريضة الكفارة لقتله رجلاً مكراً للمبوزات. ولعنت نبوءه دلفي «الرجل الذي فتك به» لأنه «قتل خادم المبوزات». وأما عن (هسيود) فقد كان ضحية شك ظلوم والقي في نهر [دافنيس] فحمله التيار الى البحر ونقلته الدلافين الى ريوم وهو لسان من خليج كورنث. فأمر الارخومينيون وهم من سكان بويوتيا الذي =

[ايسكولاپيوس Aeaculapius] لازم [سوفوكليس] طوال حياته وتبرك بالحديث معه وما زالتته توجد عدة براهين على ذلك، منها أنه لما توفي، قامت آلهة أخرى بمراسيم جنازته (١١٣). وإن نحن أقمنا أي وزن لهذه الوقائع، فلماذا نعد من قبيل السخف والتخريف - القول بأن روحاً مماثلة من ارواح الآلهة كانت تعتمد الى ملازمة [زالوكس Zaleucus] و[مينوس]، و[زرادشت Zoroaster] (١١٤)، و[ليكورغوس]، و[نوما]، أولئك الذين وضعوا دساتير الممالك، واشترعوا أنظمة الجمهوريات؟ بل ومن المعقول أن نعتقد أن الآلهة بدافع من أغراض سامية، تمديد المساعدة لهؤلاء الرجال، فتوحي اليهم بالرأي الصواب في اثناء التشاور وتبادل الآراء بالأمور الهامة، كما تزور الشعراء والموسيقين، ان لم يكن دائماً ففي أوقات ابداعهم... وأختلاف الآراء في هذا الموضوع كبير و«الطريق فيه لاجبة» كما يقول [باخيليدس Baechylides] (١١٥)، وليس ثم أي سخف في التعليل الذي روي أيضاً عن [ليكورغوس ونوما] وغيرهم من مشاهير المشترعين وعظمائهم فقد زعموا هم أنفسهم أنهم مزودون بسلطان من الآلهة، لأن مهمتهم كانت ازالة الشر وسياسة الجماهير الصعبة القيادة، وفرض أنظمة وقوانين جديدة على مجتمعاتهم... حتى لو كان ادعاؤهم هذا كاذباً، فهو بالتأكيد مفيدٌ لصالح أولئك الذين فرضت الاصلاحات عليهم فرضاً. ولأجل ان تكمل الحكاية:

كان نوما في حدود الأربعين عندما أقبل الوفد يعرض المُلْك عليه. وكان المتكلمسان [پروكولوس] و[فيلسوس Velews] (وهما أول من رُشح للمُلْك. فنشب الخلاف حول من يكون منهما وكان الرومان الأصائل يميلون الى [پروكولوس]، والسابين الى [فيلسوس]). فالتقيا كلمة قصيرة جداً نيابة عن الوفد لاعتقاد ان عرض الملك لا يستلزم الكثير من القول لاقتناع المرشح ولكنهما وجدا - خلافاً لما حسباه - بأن عليهما أن يتوسلا بمختلف وسائل

= فتك بهم الطاعون فتكاً ذريعاً، أمروا بنبوءة ان يرفعوا رفاته وينقلوها الى بلادهم وقد جاء في النبوءة «العلاج الوحيد هو اعادة عظام هسيود من أرض ناوياكتس الى أرض أرخومينس» وبعد ان نفذوا ما جاء في النبوءة، انقشعت غيمة الوباء عنهم.

(١٣) توفي سوفوكس في اثينا اثناء ما كان ليساندر يشد الحصار عليها. وقيل ان [باخوس] أو [ديونيسوس] أمر القائد السبارطي في حلم «بان يسمح للطائر الاثيني الجديد بان يدفن في (دليكي) مقبرة اسلافه وبعد تكرار هذا الأمر لم ير ليساندر مندوحة من الرضوخ له [پاوسنياس ٢١:١] [إيليني التاريخ الطبيعي ٢٩:٧].

(١٤) استن زالوكس شرائعه للوكريين في بلاد الاغريق الكبرى زاعماً ان (مينرثا) هي التي أوحى له بها. واما زرادشت فهو النبي المجوسي (تذكره المآثر اليونانية بأنه ملك باختياريا) الذي استن الشرعة التي عرفت باسمه. ومينوس الملك هو مستن الشرائع الكريتية.

(١٥) اشاد هذا الشاعر بفوز هيرو كينذار في الالعاب الاغريقية وانه بز منافسه العظيم أحياناً. وكان الامبراطور يوليان من أشد المعجبين به وكثيراً ما تمثل باشعاره.

الإقناع والمنطق مع شخص عاش في هدوء ودعة - ليقبل بحكم مدينة بنيت وتأسست وتوسعت بالحرب، فأجاب [نوما] بحضور ابيه وقريبه [مارشيووس Marcius] بما يلي: «كل تبدل في حياة المرء، خطر عليه، وان الجنون وحده يستطيع أن يحمل شخصاً لايحتاج الى شيء، قانع بكل ما هو حوله، على ترك الحياة التي اعتقدها، فمهما كانت نقائص تلك الحياة فلها على أية حال افضلية الحقيقة الواقعة ومزياتها على حياة مجهولة، يحف بها الشك. وان كانت مصاعب هذا الحكم في الواقع لا يمكن ان تنعت بالمجهولية. فرومولوس الذي كان أول الحكام لم ينج من الشكوك، والتخرصات في أنه تأمر على حياة شريكه [طاطيوس] ولم يخلص مجلس الشيوخ من مثل هذه التهمة في أنه قتل رومولوس غدراً. على أن رومولوس امتاز بالفكرة العامة السائدة عنه وهو أنه ولد من الآلهة، وعاش بمعجزة. في حين ان ولادتي كانت طبيعية وقد ربّاني وانشأني أناسٌ معروفون لديكم. وإن الصفات الموجودة في طبعي وشخصيتي هي أفضل دلالة على عدم صلاحي للملك. - حبّ الوحدة، والدراسات التي لا علاقة لها بشؤون الحياة المادية، ميل فيّ الى السلام والهدوء تمكّن في فلا اطيع التخلي عنه، انشغالي في اعمال لا تمت الى الحرب والعنف؛ اندماجي باناسٍ لا يلتقون إلا في العبادة وفي صلات رقيقة متعاطفة، قضا حياتهم كلها في حقولهم ومزارعهم وأظنني سأكون مبعث سخرية عامة إذا طغتُ حائثاً على عبادة الآلهة، مبشراً وخطيباً في التمسك بالعدالة، وكره العنف والحرب في مدينة هي أحوج الى قائد جيش منه الى ملك.

ويادراك الرومان من كلامه هذا أنه يرفض قبول المنصب الملكي زاد الحاحهم واصرارهم قائلين: لايجدر به أن يتركهم ويخيب رجاءهم في هذا المطلب، وبذلك يضطرهم الى العودة بلا شك الى الاختلاف والنزاع فيما بينهم، إذ لا يوجد شخص غيره، يكون موضع قبول الفريقين المتناحرين. وأخيراً انتحى به ابوه ومارشيووس جانباً واقنعوه بقبول هبة كريمة ومنحة كانت السماء مصدرها أكثر مما كان من البشر وقالوا: «مع أنك عازف عن الغنى، راض بما لديك، لا تبحث وراء شهرة السلطان بعد أن نلت شهرة الفضيلة التي هي أثنى من الأولى. إلا أنه يجب أن تعدد الحكم خدمة الهيئة. فالله الآن شاء أن يفيد من اعمال فضائلك وحكمتك وعدالتك. وهي سجايا لن يُقدر لها أن تبقى عاطلة مهملة. فأرجع عن اصرارك على ورفضك هذا لمنصب هو لحكام الرجال ميدان لممارسة الاعمال الشريفة العظيمة، ولعبادة الالهة عبادة لائقة ممتازة، وبث العادات الصالحة الخيرة التي لاتستطيع نشرها بين الناس إلا السلطة. كان [طاطيوس] محبوباً وان كان اجنبياً، وذكرى رومولوس اضفت عليها الآلهة مختلف النعم والبركات، ومن يدري؟ لعل هذا الشعب المنتصر ابدأ قد اتعبته الحرب وقنع بالأسلاب والغنائم التي غنمها، قد يكون

راغباً أكثر من اي شيء آخر بملك مسالم وادعٍ محب للعدل، يقود خطاهم الى الاستقرار والسلام؟ واذا كانت عواطفهم تنزع الى الحرب بما لا قبل بدفعه، أفليس من الأفضل أن تكون الأئنة بيد معتدلة قادرة على تحويل شدة الحرب الى مسلك آخر وان مدينتك وكل شعب السابين سيجعلان منك رابطة صداقة ودليل حسن نية لهذه السلطة الفتية المتنامية؟

ورافق هذا الإقناع والالحاح عددٌ من العلامات الالهية السعيدة، على ما قيل. كذلك حماسة بني جلدته الذين بعد ان فهموا مضمون الرسالة التي حملها اليه الوفد الروماني، رجوه أن يرافقهم ويقبل بالملك كعامل من عوامل الوحدة والأئتلاف بين الشعبين.

فرضح [نوما] لهذا الاحاح، ورحل الى روما بعد أن انجز تقديم قربانه للآلهة. وأستقبله في الطريق الشيوخ والعامة الذين خرجوا للترحيب به برغبة لا تكبح. واستقبلته النساء ايضاً بهتاف الفرح وقدمت القرابين عنه في كل المعابد وكان الفرح عاماً حتى لكأنهم يستقبلون مملكة جديدة لا ملكاً جديداً. وعلى هذه الصورة أرتقى درج [الفورم] حيث كان [سپوريوس فيتيوس Spurius Vettius] في تلك الساعة الملك الوقتي؛ فقام هذا بأخذ الاصوات، وأعلن [نوما] ملكاً، وجيء اليه بشارات واوشحة السلطة. ولكنه أبى أن يتقلدها قبل أن يستشير الآلهة ويحظى بموافقتها ورضاها. فأخذ الكهنة والعراقون [Ougur] (*) الى الكايبيتول وكان الرومان في ذلك العهد يسمونه (التل التاريخي). ثم قام رئيس العرافين بتغطية رأسه (١٦) وتحويل اتجاهه الى الجنوب ووقف خلفه باسطاً ذراعه اليمنى على رأسه وأخذ يصلي وهو يدير له رأسه الى كل الجهات توقعاً لإشارة خير من الآلهة. وكان المنظر عجيباً رائعاً، والصمت والخشوع يهيمنان على الجموع المحتشدة في الفورم. وهم في عين التوتر والتوقع. حتى ظهرت الطيور السانحة ومرت من جهة اليمين. وعندئذ اتشح [نوما] بالرداء الملكي وانحدر من التل الى الجماهير، فقابلته بالتهاني وبالتهتاف، والصراخ، وحيته ملكاً مقدساً، ذا حظوة عند الآلهة. وأول ما فعله عند توليه الحكم، انه حلّ كتيبة الرجال الثلاثمائة الذين كانوا حرس رومولوس الشخصي وقد عرفوا باسم [كيليرس] (١٧)، قائلاً إنه لن يظنّ سوءً في أولئك الذين

(*) موظف ديني روماني واجبه ينحصر في التنبؤ بالحوادث المقبلة بدلائل من حركات الطير، أو من حالة احشاء الدبائح، أو من الظواهر السماوية. وربما كان الاسم تركيباً مزجياً من الكلمتين الرومانيتين [Ovis = طير] و[Gar = كلام] (م.ت).

(١٦) هذا هو النص الحرفي الذي اورده المؤلف. لكن يظهر من [ليفي ٨:١] ان العراف لم يغط وجه [نوما] بل غطى وجهه Augar ad laevam yejus capite velato sedem cepit velato. وهذا هو الوقع لأن العراف يلف دوماً برداء خاص يدعى Laena عند قيامه بالعرافة.

(١٧) يقول [ديون الهاليكارناسوسي ١٦:٢] ان [نوما] لم يحدث اي تغيير في الأجهزة التي أوجدها رومولوس. لذلك ومع انه لم يستخدم الجليس بمثابة حراس لكنه ابقاهم باعتبارهم من صغار الكهنة وواجبهم =

وضعوا ثققتهم فيه، ولا يحكم شعباً ليس له ثقة به. وثاني ما فعله انه اضاف الى كاهني جويترو ومارس، كاهناً ثالثاً، تكريماً لرومولوس وأطلق عليه اسم [فلامين كويرينالس Flamen Quirinalis] ^(١٨). كان الرومان القدماء يسمون كهنتهم [فلامينس Flamines] بتصحيفهم كلمة [پيلامينس Pilamines] اليونانية من كلمة [پيلوس Pileus] وهي القبعة او القلنسوة التي كانوا يلبسونها. وفي تلك الأيام كانت الألفاظ اليونانية أكثر امتزاجاً باللغة اللاتينية من الوقت الحاضر ^(١٩). ويجرى مجرى هذا أيضاً «الرداء الملكي» الذي يُسمى [لينا Laena] [فجوبا] يقول أنه [خلينا Chlaena] وهي الكلمة اليونانية المطابقة له. وان اسم [كاميللوس Camillus] ^(٢٠) الذي يطلق على الصبي الخادم في معبد جويترو حين يكون ابواه على قيد الحياة، فهو مأخوذ من الإسم الذي يطلقه بعض الاغريق على مارس مشيرين الى وظيفته وهي قيامه بخدمة الآلهة الباقين.

وعندما فاز [نوما] بمودة وحبّ الشعب، بهذه الاجراءات، باشر حالاً بهمة تحويل الطبايع الرومانية الصلبة الحديدية الى طبائع تمتاز بالرقّة والوداعة، وليس أدق من وصف افلاطون بـ«المدينة التي تحتاحها حُمى محرقة» - لروما في ذلك الحين. فقد انشأتها بالأصل نفوس ما عرفت إلا الجراءة والاقدام سبيلاً وعجمت عودها المخاطر والمواقف الصعبة وجاءت بهم اليها صروف الدهر من كل فجّ عميق، وهكذا لم تر الوجود إلا بالحروب الدائمة مع جيرانها كانت، والغزوات سبيلاً لبقائها ونفوسها والتعرض للأخطار مصدراً لكلّ قوة جديدة لها مثل اوتاد اثبتتها في الأرض إلا ضربات المطارق لأجل أن يحقق [نوما] غرضه العسير - تحويل طباع هذا الشعب العنيدة الاعتدائية الى طباع هادئة مسالمة رقيقة، بدأ بمهمته عن طريق الدين. فأكثر من تقديم القرابين والمواكب والرقص الديني وكان يترأس معظمها بشخصه. محاولاً بهذه المظاهر الدينية التي تمازجها صنوف من الملاهي ووسائل التسلية الانسانية الرقيقة، التغلب على امزجتهم القتالية العنيفة والتخفيف منها. وكان يملأ بين الفينة والفينة أيضاً اذهانهم بالمخاوف الدينية، مدعيّاً ظهور اشباح غريبة، وسماع اصوات مرعبة. ليخضع عقولهم

= الاهتمام بالقرابين والعمل تحت اشراف التريونات ضباطهم القدماء.

(١٨) وعلى هذا الأساس يكون Flamin Martialis كاهن مارس و Flamin Dialis كاهن جويترو وعلى هذا فقس.

(١٩) مؤلفة أصلاً وبشكل رئيس من الأغريقي الايولي القديم. وان كان الزمن والصيانة والتحسين المتدرج قد اكسبها المظهر الأخير المختلف جداً.

(٢٠) كاميلوس مشتقة من كلمة (كادميلوس) البيوثية ومعناها في الغالب (خادم) في هيكل في العادة يوجد شاب حسن الخلق وظيفته خدمة الكاهن. من الضروري ان يكون ابواه على قيد الحياة ولذلك استخدم پلوتارخ الكلمة التي تقابل باللاتينية لفظي Matrium e, Patrium اي الأبوة والأمومة.

وبذلها، بمشاعر الخوف من خوراق الطبيعة.

هذه الطريقة التي استخدمها [نوما] أدت الى الاعتقاد بأنه على صلة كبيرة [فيثاغورس]، ففي فلسفة الأخير منهما وفي سياسة الأول. تحتلّ علاقات الإنسان بالآلهة منزلة عظيمة وقيل أيضاً أن هيبة وجلال مظهره وثيابه إنما استمدتها من شعوره الشبيه بشعور فيثاغورس. اذ روي عن هذا، انه درّب نسرأ على الهبوط اليه كلما ناداه، أو الميل نحوه اثناء طيرانه. وانه كان في اثناء مروره بين الناس المجتمعين لمشاهدة الالعاب الأولمبية، يريهم فخذة الذهبية الى جانب معجزات وغرائب أخرى كان يقوم بها. مما دعا [تيمون الفيلاسي Phila-sian] ^(٢١) الى كتابة البيت التالي: «إنه ذلك الذي كان معتزلاً بمجد المشعبد بكلامه المهييب الذي يلقيه الى سمع الجمهور»

وعلى هذه الشاكلة تحدث [نوما] عن ربة معينة، أو حورية من حوريات الجبل تعلقت بحبه، وراحت تقبله سرأ كما سبق لنا ذكره، كما ادّاع أنه كان كثير اللقاء بالميوذات ومحادثتهن وعزا الى تعاليمهن معظم الوحي الذي نزل عليه. ومن بينهن واحدة اوصى الرومان باكرامها بنوع خاص وهي [تاجيتا Tacita] اي الصامتة، وربما فعل ذلك تقليداً وتكريماً للصمت الفيثاغوري. ورأيه في الصور يوافق جداً مبدأ فيثاغورس. الذي يعتبر أول مبدأ للكينونة شعوراً وعاطفة تسمو على الحسّ البشري، ولا يمكن الوصول اليها إلا بالتفكير المطلق التجريدي. ولذلك منع [نوما] الرومان ان يمثلوا الآلهة بهيئة انسان أو حيوان. وأنك لا تجد اي صورة مرسومة أو منحوتة لربّ من الأرباب لفترة طولها مائة وسبعين عاماً فقد بقيت هيكلهم ومعايدهم خالية من الصور والتماثيل. وشاع الاعتقاد بينهم أن هذه الأشياء الوضيعة، أرذل من أن تشبه أرفع الكائنات واسماها. والوصول الى الاله مستحيل إلا بالذهن الطاهر النقي. وقرابينه تشبه بتفاصيلها قرابين فيثاغورس شبهأ كبيراً، فالدم لا يسفك فيها، بل يكتفى بتقديم الازهار والخمر وما اليها من أرخص التقدّمات وهناك براهين واضحة أخرى تثبت ارتباط [نوما] بفيثاغورس هذا وان الكاتب الفكه القديم [إپيخارموس Epicharmus] وهو من المدرسة الفيثاغورية ذكر في كتاب له مهدي الى [آنتينور Antenor] أن فيثاغورس جعل مواطناً حراً من مواطني رومه، وسمّى نوما أحد اولاده الأربعة ^(٢٢) [ماميركوس Mamer-

(٢١) كاتب سلي Silli وهو نوع من الهجاء، سمي كذلك نسبة سيلاموس الذي كان يشهد في نقده للفلاسفة بسبب تمسكهم بالمبادئ.

(٢٢) على سبيل اكرام الكتاب بعض الأسر الرومانية عمدوا الى ربط نسبها بنسب (نوما) وعزوا اليه اربعة اولاد. لكن المعروف عموماً انه لم يخلف غير ابنة واحدة اسمها [پومپيليا] واسرة [إميلي] هي واحدة =

[cus] وهو اسم أحد اولاد فيثاغورس. ومنه جاءت (كما قالوا) الأسرة الپاتريشيه العريقة [ايميللي Aemilli]، اذ أن اباه الملك لقبه على سبيل المزاح [ايميلوس Aemilius] لأسلوبه اللطيف الطلي في الحديث، وسمعت اثناء وجودي في روما، انه عندما نزلت نبوءة تأمر باقامة تمثالين^(٢٣) أحدهما لأعظم الناس حكمة بين الاغريق وثانيهما لأعظمهم بسالة، أقاموا تمثالين من النحاس أحدهم [اللسكيبيازييس]، والآخر [لفيناغوراس]. ومهما يكن من أمر فلننتحول عن هذه الأمور التي يكتنفها الكثير من الأوهام، فضلاً عن كونها من قلة الأهمية بحيث لا تستحق صرف وقت أكثر من هذا. والى نوما يعزى انشاء رتبة الكهنة المعروفين باسم [بونيفيجيس Pontifices]^(٢٤). وقيل أنه كان أولهم. وأن الكلمة مشتقة من [پوننس Po-tens] أي «ذا القوة» لأنهم يقومون بخدمة الآلهة ذوي الحول والسلطان على الجميع. ويزعم آخرون ان الكلمة تشير الى «استثناءات من قضايا مستحيلة» فالكهنة عليهم أن يقوموا بكل الواجبات الممكنة. فان وجد أمر يفوق طاقتهم وحدود إمكاناتهم فينبغي الأيثار احتجاج على قصورهم فيه. وأكثر الآراء شيوعاً هن أصل الكلمة هي أكثرها سخافة^(٢٥) يشتهقون الكلمة من [پونس Pons] و[الجسر باللاتينية هو Pontem] وتمنح الكهنة لقب بناء الجسور! القدماء، وحراسة الجسر وترميمه مناط بالكهنة كأى واحدة من الوظائف العامة المقدسة أخرى الذي يرونه اقدس وأقدم المراسيم الدينية. هؤلاء الكهنة أيضاً يقال أنهم حولوا العناية بالجسور بوصفه اهم عمل في وظيفتهم الكهنوتية. وعُدَّ هدم الجسر الخشبي^(٢٦)، وكسره من قبيل

= من أشهر الأسر الرومانية يتفرع منها فروع الپاولي Pauli والپاپي Papi. وكلمة اميلوس بالاغريقية تعني الرقيق أو الجميل.

(٢٣) بحسب رأي پليني (تاريخ الطبيعة ٥:٢٤) انه كان اثناء حربهم مع السانيين (٢٢٩-٢٣٤ ق.م) حين أمر ابولو الپيثي الرومان باقامة التمثالين فتم نصبهما في الكوميسيوم وبقياً ثم حتى دكتاتورية سيللا ٧٨-١٣٨ ق.م ولعل الأمر الذي ورد في النبوءة كان يشير على الرومان بأن يتزودا بحكمة الاغريق ويتحلوا بشجاعتهم إن اردوا النص.

(٢٤) نصب [نوما] أربعة وكلهم من الپاترشيين. ولكن اضيف اليهم في العام ٤٥٣ أو ٤٥٤ ق.م اربعة من الپلبيين. وفي عهد (سيللا) بلغ عددهم خمسة عشر. والملك نفسه يؤكد هنا انه كان يتراسهم، أو ما يدعى بالكاهن الأعظم على ان [ليقي ١:٢٠] يعزو ذاك الشرف الى شخص آخر بنفس الاسم هو [نوما مارشوس] ابن احد الشيوخ. وربما كان پلوتارخ قد التبس عليه الاسم. ومن المحتمل جداً ان [نوما] احتفظ لنفسه بهذا المنصب لشدة تدينه. فالملوك في العالم القديم كانوا يسرون على هذا الخط. وقد حدا حذوهم اباطرة الرومان في فترة متأخرة كما سنرى.

(٢٥) ومع هذا فان [قارو الأول] منهمما على الأخص بان پونس سوليشيوس بنيت اولاً ثم جرت عليها ترميمات عديدة تحت اشرافهم. ان هذا العمل الشعبي الممتاز كان يستبق دائماً بتقديم الذبائح والدعوات لرب النهر وقد نقل هذا الواجب من اختصاص الكهنة الى (الكستور) في عهد اغسطس قيصر.

(٢٦) ما زال موجوداً ينظر اليه باحترام ومهابة وهو يربط يانيكولوم بالمدينة [انظر ديون ٣:١٤] كذلك الكتاب المتأخرون حول روما الحديثة.

الكفر والاثم الديني لا مجرد جريمة ممنوعة قانوناً. وقيل فضلاً عن هذا أن بناءه كان من الخشب يشد اجزائه مسامير خشبية لا مسامير أو عضادات حديدية، اطاعةً لنبوءة^(٢٧). ولم يبن الجسر الحجري إلا بعد زمن متأخر جداً، عندما كان [ايميلوس] أميناً للخزانة العامة -Quaes-tor*]. وقالوا أيضاً أن الجسر الخشبي لم يسبق عصر [نوما] وأنما أكمل بناءه [انكوس مارشيوس Ancus Marcius] لما ملك، وهو حفيد [نوما] من بنته.

إن وظيفة [پونطيفيكس ماكسيموس] أو الكاهن الأعلى، أستحدثت لأجل تفسير الشريعة الالهية أو بالأحرى للهيمنة على الفرائض المقدسة وليست وظيفتها قاصرة على مراقبة قواعد الاحتفالات الدينية العامة بل على تنظيم تقديم قربان الأفراد ومراقبتها لئلا تخرج عن العرف الجاري وتقديم المعلومات لكل شخص، عما هو مفروض في العبادات والصلاة وكذلك يكون الكاهن وصياً حارساً على عذارى قستا. ويعزى الى [نوما] انشاء وظيفتهن^(٢٨) هذه الى جانب استحداث النار الخالدة التي يرعينها. ولعلّه تصور انه من المناسب جداً أن يعهد بالنار الطاهرة غير النجسة الى اشخاص ذوي عفة وطهارة. أو ان النار التي تضطرم ولاتنتج شيئاً حتى تخمد، فيها وجه شبه بحياة العذراء^(٢٩) وفي بلاد اليونان، يعهد بأمر النار المقدسة الخالدة اينما وجدت -كما في دلفي وأثينا- لا الى العذارى بل الى الأرامل اللاتي فات أوان زواجهن. وقد يحدث بمحض الصدفة أن تنظفي هذه النار كما أنظف المصباح المقدس في اثينا على عهد طغيان [ارسطيون Aristion]^(٣٠)، وفي دلفي عندما أحرق الميديون المعبد^(٣١)، وكذلك في أيام الحروب الالهية الرومانية^(٣٢) والحروب الميثريداتية Mithridatie حيث هدم

(٢٧) اسلوب البناء هذا يعزوه پليني (١٥:٣٥) لا الى النبوءة بل للصعوبة التي جابهت الرومان عند كسره (وكان موصولاً بخطافات حديدية) في حروبهم ضد [پورسينا].

(* سنة ١٧٩ قدم مسألة معرفة نوما بفيثاغورس مسألة يكتنفها الغموض كانت موضع أخذ وردطولين وهي اشبه بجداول الاطفال.

(٢٨) بالأحرى بناء معبد قستا لأن [رياسلفيا] والدة روموس كانت قستا له ألبا.

(٢٩) هناك تناقض بين هذه العبارة والعبارة التي اوردها المؤلف بالذات في سيرة كاميلوس فلترجع.

(٣٠) بقي ارسطيون (٨٦-٨٨ ق.م) صامداً مدة طويلة لحصار (سيللا) مدينة أثينا وكان قد استولى عليها اثناء حروب (ميثريدات) وكان ارسطيون هذا قد ارتكب أعمالاً شنيعة عديدة بحق المدينة. كما كان السبب في القاء الحصار عليها ونهبها بالأخير. كانت النار المقدسة تحفظ في معبد مينرفا.

(٣١) في عهد كيخسرو الفارسي.

(٣٢) يحدثنا پليني (المحقق ٦:٨٦) ان ما حدث والحرب الالهية بين ماريوس وسيللا تكاد تشرف على نهايتها - هو ان (ميوتيس سكيولا) الكاهن أعتيل عند مدخل معبد قستا. لكننا لم نجد النار المقدسة مطفاة. إلا ان (لوكان) يقول انه سقط بالقرب من المعبد وان دماءه كادت تطفئ النار المقدسة. بل عندما احرق هذا المعبد عند نهاية الحرب الپونية ٥١٢ ق.م. فإن الكاهن چيچليوس متلوس اندفع خلال النيران وانقذ الپلاديوم وغيره من المقدسات وقد دفع بصره ثمناً لذلك. كذلك أحترق الهيكل مرة أخرى عند نهاية حكم =

الهيكل أيضاً، في هذه الحالة كان يعد من قبيل الإثم والنجاسة أن توقد هذه النار ثانيةً من لهيب اية نارٍ اعتيادية، أو شرارة رمادٍ أو من أي شيء آخر إلا أشعة الشمس النقية غير النجسة. ويتم ذلك عادة بالعدسات اللامة^(٣٣) وهو جسم يتألف من منشور مستطيل مثلث كلّ خطوطه من أسطحه تلتقي في مركزٍ واحد ويكون دائم الدوران فبتعريضه الى الشمس يتمكنون من جمع أشعة الشمس فيه وتركيزها كلها في نقطة التقاء تلك (البؤرة) فيغدو الهواء ساخناً وتلتهب كل مادة خفيفة جافة قابلة للاشتعال حالما تُقرب من الأشعة التي تتطلب المادة والقوة الفاعلة للنار، ويرى بعضهم أن وظيفة هالة الفستالات هي حفظ النار ليس غير، إلا أن آخرين يقولون انهم يحافظون على اسرار مقدسة أخرى^(٣٤) كتمت عن الجميع. وقد آتينا في سيرة كاميلوس الى ذكر كل ما تصح روايته، أو السؤال عنه من تلك الاسرار.

وقد ذكر ان [جيجانيا Geganina] و[فيرينيا Verenia] كانتا أول كاهنتين رسمها [نوما] لوظيفة الفستالات. ثم اعقبهما [كانولييا Canuleia] و[تاريبيا] ثم أضاف [سرفيوس Servius] اثنتين، وظلّ العدد أربعة حتى يومنا هذا...

إن النظام الذي استنته [نوما] للفستالات هو كما يلي: يجب ان يندرن عذريتهن لمدة ثلاثين عاماً. يقضين العشرة الأولى منها في تعلم واجباتهن، والعشرة الثانية في مزاولتها، والعشرة الباقية في تعليمها للاخريات وتدريبهن عليها. وبعد أن تنتهي المدة، يكنّ حرات في أن يتزوجن. ولكن يقال أن قليلات منهن إخترن مزاوله هذا الامتياز وقد لوحظ أن حياتهن الجديدة بعد تقاعدهن عن وظيفتهن، لم تتميز بالسعادة، وانما وافقها الأسف والندم والكآبة ولذلك تجدد القسم الأكبر يؤثرن البقاء والاستمرار حتى أرذل العمر والموت محافظات بأشد ما يمكن على حياة العزوبة بدافع من الخوف الديني، وضغط الضمير.

وبمقابل تلك الصرامة عوّضن بامتيازات وسلطات كبيرة. فلهنّ أن يوصين في حياة آبائهم، ولهنّ حق ادارة شؤونهم بدون وصي أو قيم. وهذا امتياز لا يمنح إلا للمرأة متزوجة أم أولاد ثلاثة. واذا خرجن لشأن، سار امامهن حملة الفاجي^(٣٥)، واذا لقين في سيرهن مجرماً يساق

= (كومودوس) ولعل پلوتارخ كان يخلط هنا بينه وبين الكابتول.

(٣٣) العدسات الحارقة التي تجمع الأشعة في البؤرة، هي من مخترعات أرخميدس الذي عاش بعد (نوما) بخمسة قرون.

(٣٤) كتلك التي تتعلق بـ(البلاديوم) والتماثيل وغيرها لآلهة ساموثراكي [انظر ديون ١٧:٢].

(٣٥) حزمة العصي في وسطها فأس، يحملها [اللكثور] امام الحكام الكبار الرومانيين اشارة الى السلطة. وهي من كلمة [Fascis] اللاتينية ومعناها [حزمة] ومنها جاء اسم الحزب الفاشي (الفاجي) الذي اسسه [موسوليني] في ايطاليا الحرب العامة الأولى، ولم يخصهم [نوما] وحده بهذا الامتياز بل حباهم به =

الى حتفه امكنهن انقاذ حياته بعد أن يُقسمن^(٣٦) بان اللقاء كان بمحض الصدفة وليس مُدبراً. وإذا احتك أحد بالكرسي الذي يحملن عليه يحكم بالموت، وإن أقترفت أحدهن خطأ بسيطاً عاقبها الكاهن الأعظم وحده بجلدها بالسياط (عاريةً أحياناً) في مكان مظلم وبينهما ستار مسدل، ومن تفرط بنذرهما تدفن حية^(٣٧) قرب باب في المدينة اسمه [كولينا Collina] حيث يقوم كثيب من التراب داخل المدينة ويمتد بعض مسافة، ويدعى باللاتينية (Agger)، فتبنى في جوفه غرفة صغيرة. ينزل المرء اليها بدرجات. وبهيتون في تلك الغرفة فراشاً ويشغلون مصباحاً ويتركون كمية زهيدة من الطعام تتكون من الخبز والماء وانا من الحليب. وشيء من الزيت. حتى لا يقال أن ذلك الجسم الذي كُرس ونُذر لأقدس خدمة في الدين، قد هلك جوعاً^(٣٨). وتوضع المذبة في محفة، وتغطى تماماً وتربط بالحبال حتى لا تسمع الأذن شيئاً مما قد تقول، ثم ينقلونها الى الفورم، وينسحب كل المارة عن سبيلها صامتين اثناء مرور المحفة ويتبع النعش زميلاتهن بألم صامت كئيب ولعمري ليس ثم منظر أشد ايلاماً من هذا المنظر، ولا يوم مثل هذا اليوم تعيشه المدينة بأعظم الأسى والكآبة. وعندما يبلغ الموكب ساحة التنفيذ يحلّ الضباط الحبال ثم يرفع الكاهن الأعلى يديه الى السماء ويتمتم ببعض الأدعية المخصوصة قبل المباشرة. ثم يأتي بالمحكومة وهي مستورة ويضعها على الدرج المؤدي الى الحجرة ثم يدير رأسه جانباً مع الكهنة الباقي. ثم يرفع الدرج بعد أن تقذف الى اعماق الغرفة ثم يهال مقدار من التراب فوق الفتحة وتسوى حتى لا يمكن تمييزها عن باقي سطح الكثيب. ذلكم هو عقاب تانك اللاتي يكسرن نذر عفتهن.

وقيل أيضاً أن نوما بنى معبد فستا. ليكون مذكراً للنار المقدسة وهو على شكل دائري، لايمثل هيئة الأرض كأنها مثل فستا تماماً. بل ليمثل عموم الكون. ففي الوسط يضع الفيشاغوريون عنصر النار^(٣٩) ويطلقون عليه اسم فستا والوحدة، ولم يكن من رأيهم أن

= ايضاً ثلاثي الحكم في ٧١٢ ق.م وأعطى اغسطس ما دعى بـ Juo trium libesorum بتشجيع المواطنين بعد الدمار الذي أحدثته الحروب الأهلية.

(٣٦) لايجزؤ كاهن لـ(چوپتر) أو لـ(فستا) على تأدية قسم. فهو مصدق بكلامه. ولو شأوا فهم مختارون في تأكيد أقوالهم وتوثيقها باليمين لكن يندر ان طلب منهم ذلك. وان حلفوا فهم يحلفون بربتهم فستا فحسب.

(٣٧) في البيا يجلدن بالسياط بسبب ما يقترفن ولا أكثر [ديون ١٧:١]. إلا ان [نوما] شدد العقوبة الى حدّ الرجم. أخيراً جعلها تاركوينوس پريسكوس الدفن حيةً.

(٣٨) هناك أمر يجافي العقل والمنطق. ان ما فائدة الطعام للفستالة المقبورة حية بعد انقطاع الهواء عنها بسدّ القبر؟ أو لعل ما قصده پلوتارخ من استخدامه كلمة ارزاق - هو بعض مواد القرابين؟

(٣٩) معروف جداً انها نظرية فيلولايوس وغيره من الفيشاغوريين إلا ان ثيوغينس ليثريتوس يذكر لنا ان فيثاغوراس نفسه يرى الأرض هي المركز.

الأرض ثابتة أو أنها تقع في مركز دائرة الكون وإنما هي مستمرة الدوران حول مجلس النار وليست في عداد العناصر الأولية. وهم في هذا يتفقون مع فكرة افلاطون الذي قال في أواخر حياته (على ما زعموا) بأن الأرض تحتل مركزاً ثانوياً وأن الفضاء المركزي المهيمن احتجزه جسم آخر أسمى من الأرض.

وهناك وظيفة أخرى للكهنة، هي أن يشرفوا يرشدوا الناس الى المراسيم المتبعة في مراسيم الجناز. وقد علمهم [نوما] أن لا ينظروا الى هذه الأعمال نظرة تقزز واشمئزاز، بل كواجب محتم للأرباب السفليين الذين ينتقل الى ايديهم خير جزء منّا، وكذلك أوجب عليهم ان يعيدوا الرية [ليبييتينا Libitina] التي تشرف على كلّ مراسيم الدفن. وسواء أقصدوا بها [پروسپوينا Prospuina] أو [فينوس] (كما يرى معظم الرومان المطلعين)^(٤٠)، فليس مما لا يتسق منطقياً أن يعزى بدء حياة امرءٍ ونهايتها الى مسعى ربّ واحدٍ.

وعين [نوما] أيضاً قواعد تتوخى تنظيم ايام الحداد، بموجب اوقات مخصوصة وبحسب الأعمار. فمثلاً طفل في الثالثة من عمره لا يقيم له حداد مطلقاً فاذا زاد سنه عن هذا حتى العاشرة يكون الحداد عليه شهراً لكلّ سنة زيادة في عمره. ومهما بلغ سن الميت فيجب الا يزيد أقصى فترة للحداد عن عشرة أشهر. وهو الزمن المعين للنسوة اللاتي مات عنهن أزواجهن لمواصلة حياة ترملهن حتى تنقضي المدة. وان تزوجت الأرملة قبل انقضاء هذه العدة، فعليها بمقتضى شريعة [نوما] أن تصحى ببقرة مع عجل^(٤١).

وأحدث [نوما] أيضاً اصنافاً أخرى من مراتب الكهنوت، وسأتكلم ان عن اثنين منها. هما

(٤٠) ان [فينوس ليبييتينا] هذه هي [بروسپرينه] بعينها. وقد اطلق عليها في دلفي اسم [فينوس اپيتوفقيا] ويلوتو هو رئيس آلهة الظلام السفلي كما ان لديهم ايضاً (عطاردهم).

(٤١) قربان غير طبيعي كهذا، يقصد به ردع الارامل عن الزواج ثانية قبل ختام عدة الحداد. ان السنة التي اشترعها [رومولوس] تمتد عشرة أشهر لا أكثر. وعندما اضاف (نوما) شهرين آخرين فيما بعد، لم يغير من الفترة المقررة سابقاً للحداد. ولذلك فنحن كثيراً ما نجد ما يسمى بسنة الحداد Lutus Annus بعد الزمن المحدد. وهي في الواقع سنة (رومولوس) ان لون ثياب الحداد المعتاد الذي يستخدمه الجنسان اظهاراً لحزنهم هو الأسود الصرغ دون ان يخالطه لون آخر. لكن الموضة التي سادت البلاد بعد قيام الامبراطورية شملت الواناً عديدة من الثياب. وصار الأبيض الساذج المحلي مبتدلاً الى الحد الذي صار النسوة تستخدمه لثياب الحداد [پلوتارخ: مسائل رومانية] والملاحظ في يومنا هذا ان الابيض هو لون الحداد عند الصينيين.

هناك أحوال وأحداث توجب انتهاء فترة الحداد العام أو وقف الحداد الخاص قبل انصرام الفترة التي عينها العرف كتدشين هيكل، او الاحتفال بالعباب عامة، أو أعياد، أو التظهر الذي يقوم به الجنسور، أو حل قسم قاض أو جنرال. وتنزع ثياب الحداد أيضاً عند عودة أب أو أخ أو ابن من الأسر أو عندما تسند وظيفة الى احد افراد الأسرة، أو يرقى.

[السالي Sali] (٤٢) و [الفشيساليس Feciales] (٤٣) مقدماً بهما اسطع برهان على تقواه وقداسته. هؤلاء [الفشيسال] أو القيمون على السلام، يبدو أن أسمهم مشتق من طبيعة وظيفتهم، وهي وضع حدّ للخلافات بالنصح ومجالس الصلح، اذ لا يسمح باللجوء الى السلاح إلا بعد أن يعلنوا هم أن كلّ أمل في التفاهم قد زال. ونحن أيضاً نطلق باليونانية كلمة سلام عندما تُحلّ الخصومات بالكلام لا بالقوة. يرسل الرومان عادة [الفشيسال] أو السعاة الى أولئك الذين اعتدوا عليهم أو أضروا بهم بطلب الاتصاف والتراضي، فاذا رفض هؤلاء. دعوا الآلهة ليشهدوا فعلهم ونادوا بالويل لهم ولبلادهم إم كانوا الظالمين، ثم أعلنوا الحرب عليهم. ولا يجوز للجندي ولا للملك أن يلجأ الى السلاح ضدّ رغبة هؤلاء الكهنة أو دون موافقتهم. والحرب تبدأ بإشارة منهم فان ابلغوا القائد بأن الحرب التي سيسئنها هي حرب عادلة فتكون مهمته تقرير كيفيتها ووضع خططها.

ويعتقد أن المذبحة التي أوقعها الغاليون بالرومان والدمار الذي انزلوه ببلادهم كان عقاباً للمدينة لإهمالها هذه الإجراءات الدينية. فعندما غزا هؤلاء البرابرة [الكلوينيين Cluinians]. أوفد [فابيووس امبوستوس Ambustus] الى معسكرهم للتفاوض في صلح مع المحاصرين فكان جوابهم خشناً فظاً، فتصور فابيووس أن مهمته كسفير أنتهت والتحم معهم بمعركة منحازاً الى صفّ الكوسيينين، متحدياً أشجع محارب من العدو لمبارزته في نزال ثنائي. وحالفه الحظ فقتل خصمه وأخذ سلاحه غنيمته. ولما عرف الغاليون بما حصل بعثوا الى رومه برسول يشكون أمره، لأنه نقض قانون الحرب الدولي وأخلّ بالسلام قبل أن تشهر الحرب. فنوقش الموضوع في مجلس الشيوخ وكان من رأي [الفيسيسال] أن يُسلم [فابيووس] الى أيدي الغاليين. ولسبق انذاره بالقرار، قرّ الى عامة الشعب ونجا من العقوبة بحمايتهم ووقوفهم الى جانبه. فما كان من الغاليين إلا وزحفوا بجيشهم على رومه، واستولوا على الكاپيتول ونهبوا المدينة؛ وإن تفاصيل هذه الحادثة مثبته في سيرة حياة [كاميللوس].

ومنشأ كهانة [سالي] هو كما يلي: في السنة الثامنة من حكم [نوما] ظهر وباء فظيع

(٤٢) السّالي هم حرس الأنجيليا، اي الدروع الاثني عشر المعلقة في هيكل مارس. لصق هذا الاسم بهم من عادة رقصهم عند الاحتفال بالعيد السنوي المقام تخليداً لذكرى الدرع العجائبي الذي ادعى [نوما] انه هبط عليه من السماء. ولا يزيد عدد هؤلاء الحرس عن اثني عشر يتم اختيارهم من الشباب الباتريشي الذين يمتازون بالرشاقة وجمال القوام (ديون ١٨:٢).

(٤٣) ديون: يراه من الاروميين (السكان الأصليين) ويقال ان [نوما] استعار هذا من اهل لاسيوم. اذ عين عشيرين [فيسيسال] بعد اختيارهم من اعرق الأسر في روما ووضعهم في معهد خاص. وان ما يدعى پاتر پاتراتوس وهو الذي يعلن الحرب وينهيها ربما كان احد اعضاء هذه الجمعية يختار لهذه الغاية شريطه ان يكون ابوه وابنه في قيد الحياة [ليفي ٢٤:١ و ٢٢] [ديون ١٩:٢] [جيلوس ١٦:١٤].

اجتاحت إيطاليا كلها وغزا رومه أيضاً وملكت الرهبة والكربة قلوب الناس. وقيل أن درقة نحاسية سقطت من السماء بين يدي [نوما]. فأنهى الى الناس عنها الرواية التالية: إن [ايجيريا] و[الميوذات] أكدن له بأن الدرقة هي هبة سماوية لشفاء أهل المدينة وخلصهم. ولأجل الأبقاء عليها أمرته الربات بأن يصنع إحدى عشرة درقة أخرى تماثل الاصلية في حجمها وشكلها بحيث لا يمكن لأي لص أن يفرق بين الأصلي والمقلد. كما أنه أعلن نيته في تكريس الموضوع الذي يلتقي فيه مع [الميوذات] ووقفه عليهن مع الحقول المحيطة به، كذلك النبع الذي يروي تلك الحقول، جعله مقدساً ووقفاً على استعمال العذارى الفستالات. ليقمن بغسل وتنظيف قدس الأقداس في هيكلهن بتلك المياه المقدسة، وكانت سرعة زوال الطاعون برهاناً دامغاً على صواب اجراءاته هذه وعرض [نوما] الدرقة على ارباب الصنعة ورجا منهم ابداء مهاراتهم في عمل أشباه لها. ولم يفلح في ذلك أحد، حتى توصل صانع ماهر اسمه (ماموريوس فيتوريوس Mamurius Veturius) الى ما قصر عنه باع الآخرين وعمل نسخاً من الدرقة لم يستطع نوما نفسه أن يميز الأصيلة منها وعهد بحفظ هذه الدرقات الى كهنة مخصوصين يسمون [سالي] وهؤلاء لم يأخذوا اسمهم هذا من [ساليوس Salius] استاذ الرقص، كما يدعي بعضهم زاعماً أنه ولد في [ساموثراكة Samothrace] أو [مانتينيا Mantinea]. وكان يعلم الرقص بالسلاح. وإنما اشتق على أغلب الاحتمال من الرقص بالقفز وهو ما يزاوله [السالي] أنفسهم عندما يحملون الدرقات المقدسة في شهر آذار ويطوفون بها في انحاء المدينة. وهم في هذه المواكب يرتدون قمصاناً قصاراً من الارجوان ويتمنطقون باحزمة عريضة مكفتة بالنحاس ويضعون على رؤوسهم لامات نحاسية ويشبهون خناجر قصاراً.

ويقومون بين الفينة والفينة بتمثيل عملية التحام وطعان بالدرقات إلا أن المظهر الرئيس في الموكب هو الرقص. فيتمايلون ويتأودون برشاقة ويمثلون بسرعة ولمحات خاطفة بعض الحركات المعقدة بكثير من مظاهر القوة والخفة. ويطلق على الدرقات اسم [انكيليا Ancilia] لأنها ليست دائرية الشكل ولا كاملة الاستدارة كالدرقات الاعتيادية، وإنما مقرنصة متعرجة تثني حوافها بعضها الى بعض نحو الداخل في أثنى المواضع منها.

وبهذا تكون ذات شكل مقوس أو ما يُسمى بالاغريقية [انكيلون Ancylon] أو لعله جاء من كلمة [انكون Ancon] أي المرفف فيه تعلق، وهو ما يقوله [جوبا] الشديد الرغبة في ان يجعلها اغريقية الأصل. ومن المحتمل أنها جاءت من (Anecathen) اي النزول من فوق. لأنها هبطت من السماء، أو من [اكيسيس Akesis] لما لها من قابلية الشفاء. أو من [أوخمون ليسيس Auchmon Lyusis] لأنها وضعت حداً للمحل والجفاف. أو من

[اناسخيسيس Anaschesis] أي الخلاص من النأبات. وهي اصل الإسم الآثيني [أناسيس Anaces] الذي منح [لكاستورو ولوكس] إذا كان علينا أنه نردها الى أصل اغريقي. وكانت مكافأة الصانع [ماموريوس] على مهارته أن اسمه بات يذكر بالثناء في القصائد التي يغنيها كهنة السالي وهم يرقصون بسلاحهم في شوارع المدينة على أن بعضهم يزعم أن السالي لايلفظون «فيتوريوم ماميوم Yeturium Mamwium» بل [فيتيرم ميموريام Veterem Ma-moriam] أي الذكر القديمة.

بعد أن أستحدث [نوما] هذه الرتب الكهنوتية المختلفة أقام بالقرب من معبد قستا، ما يسمى حتى يومنا هذا «ريجيا» أو بيت الملك. حيث كان يقضى جل أوقاته في التعبد وخدمة الأرباب، مرشداً الكهنة أو متحدثاً معهم في مواضيع دينية مقدسة. وكان لديه منزل آخر فوق جبل [كويريناليس] ما زالت آثاره باقية الى يومنا هذا. وكان المنادون يخرجون قبل أن يبدأ أي موكب ديني، أو صلاة، ينادون الناس بوجوب تركهم عمالهم والخلود الى الراحة. ويقولون ان الفيثاغوريين ما كانوا يسمحون للناس بأن يتعبدوا ويصلوا الى آلهتهم على هواهم وكلما سمحت لهم الظروف بل أن يخرجوا من بيوتهم واذهانهم متهيئة لاداء الفريضة. ولذلك رغب [نوما] تبعاً لذلك أن لا يرى مواطنوه المراسيم الدينية أو يسمعوها وهم غافلون غير خاشعين، بل أن يتركوا ما بأيديهم من اعمال وان ينصرفوا بجماع نفوسهم الى الدين بوصفه أرفع عمل للبشر وأكثر جدية. وأن تزول الضوضاء من الشوارع. وتقل ضجة الأعمال الجسدية وينقطع مرور السابلة إفساحاً لسبيل الموكب الديني. وقد بقيت آثار لهذه العادة في رومه حتى يومنا هذا، اذ عندما يبدأ الفئصل باستخارته بمراقبة الطير، أو بتقديم قربان. ينادى في الناس Ha-cage أي انصتوا لهذا!». وهو تحذير للحاضرين بأن يضبطوا أنفسهم ويخشعوا. وكثير من هذه التنظيمات تشابه ما وصفه الفيثاغوريون. فمن اقوالهم «لا تجعل المكيال بمثابة مقعد تجلس عليه^(٤٤). لا تحرك النار بالسيف^(٤٥). عندما تخرج الى سفر فلا تنظر خلفك^(٤٦). فلتكن أضحياتك لألهة السماوات بعدد وتري، ولتكن اضحياتك لألهة الأرض بعدد شفعي^(٤٧)». إن مدلولات كل هذه الوصايا لم تكشف للعامة، وكذلك بعض مبادئ [نوما] لا

(٤٤) بمعنى ان لانستسلم لدواعي الكسل.

(٤٥) اي «لا تزيد في غيظ من كان مغتاضاً».

(٤٦) في موضع آخر اثبت پلوتارخ الوصية بهذا الشكل «لا تكر من الحدود راجعاً» والمعنى واحد وهو «مت رجلاً، ولا تنحصر على الحياة وهي تتركك، ولا تتمن ان تعود صغيراً».

(٤٧) يرى الاقدمون العدد الوتري اكثر كمالاً، ويعتبرونه رمز الاتحاد اذ لا يمكن قسمته الى نصفين متساويين كالعدو الشفعي. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد للتفضيل اي باعتبار الشهر الثاني لالهة الارض على انه نجم عن ذلك آلاف من الرسوم الخيالية ما زال بعضهم يحتفظ بها الى يومنا هذا.

فقيراً، وعندما جلس الضيوف بدأ يحدثهم ان الآلهة التي أعتادت محادثته، قد زارته الآن. وعلى حين غرة ظهرت في القاعة انواع مختلفة من أثنى الأقتراح وحفلت المائدة بأنفس الطعام واللحوم. إلا أن المحاوراة التي قيل انها جرت بينه وبين [جوبيتر] تفوق كل الأساطير الخيالية التي صنفت عنه. قيل أن آلهين نصفين هما بيكوس Picus وفاونس Faunus كانا يختلفان الى ينابيع وحمائل « جبل أقتنين » قبل أن يصبح مأهولاً ويدخل في المدينة، وربما كانا من جماعة المسوخ Satyr أو الپان Pan خلا انهما كانا يتجولان في كل ارجاء ايطاليا ويقومان ببعض انواع الحيل والخوراق عن طريق السحر والعقار، كما عزا الأغرقيك ذلك الى ما يسمونهم ائيدي داكتيلي Idae Dactyli^(٥٢)، وعزم نوما يوماً أن يفاجيء هذين الآلهين النصفين بسكب مزيج من الخمر والعسل، في مياه النبع الذي يشربان منه عادة. وعندما وجدا انهما وقعا في الفخ خرجا عن هيتتيهما الحقيقيتين واتخذا مختلف الاشكال وتزيماً بكل زي بشع ومظهر غير عادي. ولكن لما وجدا أن لا فكاك لهما من الفخ، ولا أمل في تحرير نفسيهما، اضطررا الى أن يكشفوا له عن مختلف الأسرار، وما سيحصل من المستقبل. وخصوصاً تعويذة للبرق والرعد ما زالت مستعملة، ويقتضي لها بصل، وشعر، وسمك الپلشارد، ويقول بعضهم انهما لم يكشفوا له سرّ التعويذة. إلا انهما استدعيا جوبيتر من السماء بسحرهما. فراح يقول لنوما بلهجة غاضبة انه اذا أراد أن يسحر الرعد والبرق فعلياً أن يفعل ذلك بالرؤوس فسأله نوما:

- كيف؟ أبرؤوس البصل؟

فأجاب جوبيتر

- لا، برؤوس الرجال

واراد [نوما] أن يصرفه عن قسوة هذه الوصفة فحوّل الموضوع الى جهة أخرى. بقوله

- قولك يعني، شعر رؤوس الرجال.

فأجاب جوبيتر:

(٥٢) يخبرنا ديودورس نقلاً عن ايفوروس بأن [الأيدي داكتيلي] هم أصلاً من جبل (ايدا) في (فريجيا) وقد عبروا منها الى اوروبا مع (مينوس) الملك واستقروا أولاً في [ساموثراقي] حيث علموا سكانها الممارسات الدينية. ويظن ان (اورفيوس) هو تلميذهم وهو أول من جاء الى اليونان بنوع ما من انواع العبادة. ويقال كذلك ان ألكتيلي هم اول من استخدم النار وعرف خصائص الحديد والنحاس ولقنوها سكان البلاد الذين يسكنون قرب جبل پيريكتوس. كما علموهم طرق الإفادة منها ومن أجل هذا ولكن من مكتشفاتهم الأخرى عبدوا كما تعبد الآلهة بعد ماتهم واسمهم باليوناني [داختيلوس] وهي اصبع (عشر اصابع) يستخدم كتعويذة ضد المخاطر وتلبس حجارة معينة كتعويذة، تحمل اسمهم.

ترى لها معنى واضحاً كقولهم « لا تقدم قربان خمر الى الآلهة من خمر فطيرة، لا تقدم اية أضحيات بدون خبز^(٤٨). قم بالدوران لما تؤدي صلاتك للآلهة^(٤٩). اجلس بعد أن تكمل فريضتك » إن الوصيتين الأوليين تشيران الى أن فلاحه الأرض واصلاحها هما جزء من الدين. واستدارة المصلين اثناء قيامهم بالفرائض انما يمثل دوران الأرض على ما زعموا. وفي رأيي: إنه لما كانت المعابد تستقبل جهة الشرق، فإن المؤمن يدخلها وظهره مستدبر القبلة اي مشرق الشمس بينما وجهه يستقبل الآلهة فبدورانه يؤدي صلاته للربين معاً. هذا إلا اذا كان في تغيير الإتجاه في الصلاة معنى غامض مثل « العملة المصرية »^(٥٠) التي تشير الى تقلبات حظوظ الانسان ووجوب الرضى بكل ما قسمه الاله من حظوظ أو غيره من أحوال مهما كانت وجهتها، فهي صحيحة ومناسبة. ويقولون أيضاً أن الجلوس بعد الصلاة هو علامة على أن دعوات المصلين قد استجيبت، والبركة التي طلبوها منحت لهم. ثم كانت الأعمال المختلفة مقسمة بفترات من الراحة. فلربما كان جلوسهم بعد فراغهم من عملهم، لأجل نيل رضا الآلهة عن عمل آخر سيبدأونه. وهذا ما يتسق تماماً مع ما ذكرنا قبلاً، وهو أن المشتري يريد تعويدنا على رفع صلاتنا الى الرب لا بحسب ما تسنح به الظروف ولا بوجه العجلة لأجل الانصراف الى اعمال أخرى، ولكن بتوفير وقت فراغ لها. وبهذا التنظيم والتشقيف الديني أنتقلت المدينة دون ان تدري الى حالة من هدوء الطبع، وأمتلأت أعجاباً واحتراماً لفضائل [نوما] بحيث كانت تطيع كل ما يستنّه بثقة خالصة من أي شك وإن لم تكن مغرقة في الخيال وما وراء الطبيعية، ووجدوا به انساناً لا يعصيه شيء أو يستحيل عليه ولا يذكر عنه أمر إلا ويصدق عليه.

وهناك حكاية هي انه دعا مرة عدداً كبيراً من المواطنين الى مأدبة^(٥١) وكانت الصحاف التي وضع فيها اللحم بسيطة جداً مما يستعمل في بيوت العامة والطعام نفسه كان اعتيادياً

(٤٨) الغرض الاساس من هذا الشرط ربما من أجل صرفهم عن تقدمه الدم واستدراجهم لتقديم الكعك وتمثيل الحيوانات المصنوعة من العجين أو ربما للتدليل بان الخبز هو أفضل هدية من الطبيعة. أما الخمر الماسخة فلا قيمة لها.

(٤٩) ربما لتمثيل عظمة رئيس الآلهة.

(٥٠) يقتبس كليمنت الاسكندراني (٨:٥) فقرة من أحد نحاة تلك الدينة جاء فيها قوله: ان الكهنة المصريين كانوا يعبدون العجلة في أماكن العبادة لأنها تمثل سرعة التنقل وعدم الاستقرار. ويعبدون الزهر تذكيراً بقصر الحياة.

(٥١) يحدثنا [ديون ٢:١٥] ان [نوما] أشهد هؤلاء المدعوين الرومان بعد ان أطلعهم على كل غرف قصره صباحاً بحقارة الاثاث الذي لا ينبئ عن المأدبة العظيمة التي تعين قيامها مساء ذلك اليوم. ثم انه ابقاهم معه الجزء الأكبر من ذلك اليوم وبعد ذلك دخلوا محل العشاء فوجدوا لدهشتهم كل شيء ينطق بالفخامة والنفاسة. وربما عزا هذا كله الى صديقه وخله الخفي!

- لا بل أحياء - ...

فقاطعه نوما بقوله

- ... السمك؟

وكانت [إيجيريا قد علمته هذه الأسئلة. وعاد جويتير الى السماء وقد هدأت سورة غضبه ويات «Ileos» أي طيب النفس. ولهذا أطلق على هذا الموضع اسم اليشيوم Ilicium^(٥٣) من تلك الكلمة اليونانية، بعد أن صُحِفَ اللفظ كما اثبتناه.

هذه الروايات على قدر ما هي مضحكة سخيفة تظهر لنا مشاعر الناس تجاه الآله، تلك المشاعر التي تمكنت منهم بحكم العادة. وتظهر أن أفكار نوما الخاصة انحصرت كما قيل - في المسائل الآلهية الى حد لا مزيد عليه حتى انه عندما أبلغ بأن «الاعداء يقتربون» أجاب مبتسماً «وانا أضحي»!

وهو الذي بنى أيضاً معبدي «الايان»^(٥٤) و«الحدود Terminus»^(٥٥). وعلم الرومان أن الحلف «بالايان» هو أغلظ يمين يمكن أن يحلفوا به، وهم مازالوا يحفظونه^(٥٦). ويقومون لترمينوس اي آله الحدود، قرابين خاصة وعامة الى يومنا هذا، فوق حدود اراضيهم وشواخصها الحجرية. على أن تكون القرابين من صنف الأحياء، وإن كانت قبلاً ذبائح، فأبطلها نوما لأنه قدر أن رب الحدود الذي يحرص على السلام ويشهد للحق، لا شأن له بالدما. ومن الواضح جداً أن هذا الملك هو أول من خطط الحدود بين اراضي رومه، لأن [رومولوس] كان دائم العدوان على اراضي جيرانه، ولم يؤثر عنه انه رسم حدوداً ما. فالحدود هي في الواقع وسيلة دفاع لأولئك الذين يختارون رعايتها واحترامها. في حين انها شاهد على ظلم الذين يعتدون عليها. والحقيقة هي أن البقعة التي استأثر بها الرومان في مبدأ الأمر، كانت صغيرة المساحة للغاية فوسّعها رومولوس بحروبه وقام نوما الآن بتقسيمها وتوزيعها على أفراد العامة

(٥٣) هنا يجانب بولتارخ الصواب. وربما عُرِي ذلك الى قلة تزلّعة في اللغة اللاتينية. ويخبرنا [أوفيد ٣: ٣٢٨] ان جويتير يطلق عليه اسم (اليشيوس) من فعل (اليجري) اي الخروج، لأنه خرج من السماء بهذه المناسبة.

(٥٤) Filles.

(٥٥) الآلهة تيرميني تمثل بالحجارة التي أمر [نوفا] بوضعها على حدود الدولة الرومانية. وحول كل ارض خاصة. كما انه امر تكريماً لها باقامة عيد سنوي سماه ترميناليا في ٢٢ أو ٢٣ من شهر شباط وهو آخر يوم من أيام السنة القديمة. ولذلك ضوعف عندما قام يوليوس قيصر باصلاح التقويم. وعندها سميت السنة بيسكتال. والاضحية التي تقدم في هذه المناسبة هي امّا خنزير خنوص رضيع أو حمل. ان رفع رمز الآلهة ترمينيكان يعتبر اهانة عظيمة بحيث كان دم المجذف مباحاً ولاي شخص الحق في قتله وهو آمن من العقاب.

(٥٦) «اقسم بايماني Medius fidius» وهو يمين روماني يعادل قولنا اليوم «بشرقي!» أو «بناموسي!».

المتظلمين الساخطين، مدفوعاً برغبته في ازالة الفقر المدقع الذي يدفع الى الغواية. ولتوجيه الناس الى الزراعة لإيصالهم الى حالة أفضل من النظام والاستقرار كذلك اعاد قسمة أراضيهم نفسها. ليس هناك مهنة فاضلة مثل الزراعة. وحياة الريف تولد رغبةً وتعلقاً شديدين بالسلم والدعة وتختلف عند كل الناس مهما اختلفت صفاتهم. تلك الروح من الشجاعة والصلابة وتجعلهم مستعدين للقتال دفاعاً عن كل شبر من أرضهم في حين انها تقضي على كل اعتداء متأت من أعمال الظلم والعنف. ولهذا وزع نوما الاراضي بعد تقسيمها قطعاً مؤملاً ان تكون الزراعة تعويذة تأسر نفوسهم وتصرف إهتمامهم الى السلم، ومقدراً بأنها ستكون وسيلة للريح الأدبي فضلاً عن الكسب الاقتصادي. وسمى كل قطعة ارض [پاغوس Pagus]، وعين لكل واحدة منها رئيس رقباء، وكان يتمتع نفسه أحياناً بتفقد هذه المستعمرات شخصياً ليكون احكامه الخاصة على طبائع كل امرء من النتائج. وكان بحضوره يمدح ويكرّم ويستخدم أولئك الذين يحسن عملهم وبالتوبيخ واللوم يدفع المتكاسلين والمهملين^(٥٧) الى مضاعفة جهودهم.

إلا أجل أعماله وأعظم مآثرة له، هي تقسيم الناس بحسب حرفهم وصناعاتهم الى جمعيات أو نقابات. فقد كانت المدينة تتألف، أو بكلمة أخرى - منقسمة الى قبيلتين تعذر إزالة الخصام بينهما، في حين أن ذلك الخلاف كان يحول دون قيام أي وحدة، وبسبب نزاعات وثارات دموية مستمرة، وهده تفكيره الى أن الشعب أقرب شيء الى المواد الصلبة لا يمتزج بعضها ببعض الا عندما تكوم كومة واحدة وتسحق الى ذرات وبهذه الطريقة تمتزج، فقرر أن يقسم السكان جميعاً الى عدد من الاجزاء الصغيرة مؤملاً من استحداث تفرقة أخرى - انه يزيل التفرقة الأصلية الكبرى لأنها ستضيع في الصغرى. فميز الناس بمختلف ما يتعاطون من حرفة أو صناعة، وأسس جمعيات للموسيقيين والصاغة والنجارين والصباعين، والاسكافية والسلاخين والصفارين والفقارين. كما جمع كل أرباب الصناعات اليدوية الأخرى في نقابة أخرى. وعين لكل واحدة مجالس قضائها ومنظماتها الادارية ومراسيمها الدينية. وعلى هذه الشاكلة بدأت تضمحل كل صفوف التفرقات الحزبية لأول مرة ولم يعد يتحدث عن أي شخص بوصفه رومانياً أو ساينياً. رومولياً أو طاطياً، وغدت التقسيمات الجديدة مصدراً للتمازج العام والتالف.

ومن مآثره المددوحة جداً تغييره أو تعديله ذلك القانون الذي يمنح الحق للأباء في بيع اولادهم^(٥٨)، مستثنياً من ذلك المتزوجين ومشترطاً رغبة وموافقة الأبوين إذ يبدو من القسوة

(٥٧) ان اهمال زراعة الحقل يعتبره الرومان جرماً يستحق عقاب الجسنور Censorium Probrum.

(٥٨) منح رومولوس سلطة للاباء على ابنائهم، تزيد عن سلطة الأسياد على عبيدهم. ففي حين لا تجد السيد =

الشديدة أن تتزوج امرأة من شخص حُرٍّ، فتجد نفسها فيما بعد تعاشر عبداً.

وحاول أيضاً تنظيم تقويم سنوي وهو ان لم يكن دقيقاً للغاية، لا يخلو من الأسس العلمية. كان الرومان في أيام رومولوس لا يحددون اشهر السنة بايام معينة ومدد متساوية. فبعضها يحتوي عشرين يوماً وبعضها يبلغ خمسة وثلاثين يوماً أو أكثر. ولم يكونوا واقفين على اختلاف حركات الشمس والقمر وانما استقروا على قاعدة واحدة وهي أن السنة الكاملة تتألف من ثلاثمائة وستين يوماً. ولكن [نوما] حسب مقدار التفاوت بين السنتين الشمسية والقمرية بأحد عشر يوماً لأن القمر يكمل دورته السنوية بثلاثمائة واربعة وخمسين يوماً بينما تكملها الشمس بثلاثمائة وخمسة وستين. ولأجل أن يزيل هذا التفاوت ضاعف فرق الأحد عشر يوماً وزاد شهراً واحداً على كل سنة ثانية وأمهه اثنتان وعشرون يوماً وهو يلي شهر شباط يوسمى عند الرومان شهر [مرسيدينوس Mercedinus]، وقد اقتضى لهذا التعديل مرور الزمن، تعديلات أخرى. كذلك غير نظام تعاقب الأشهر، فوضع شهر آذار في المرتبة الثالثة بعد أن كان أول أشهر السنة. وكانون الثاني جعله الأول بعد أن كان الحادي عشر. وشباط الذي كان الثاني عشر والأخير، جعله الثاني، ويعتقد الكثيرون أن [نوما] هو الذي أضاف شهري كانون الثاني وشباط أيضاً. ففي البداية كان لديهم سنة تتألف من عشرة أشهر فقط. وهناك من اقوام البرابرة ما يعدون ثلاثة اشهر فقط في سنتهم. وسنة الاركادين في اليونان، أربعة أشهر؛ وكانت سنة المصريين في مبدأ الأمر، شهراً واحداً على ما قيل، ثم جعلت أربعة أشهر. وهكذا فمع أنهم يعيشون في أحدث بلد من البلدان^(٥٩)، تراهم معروفين بأنهم أقدم الشعوب في العالم ويعدون في شجرات سلالاتهم ارقاماً هائلة من السنين معتبرين الأشهر سنوات^(٦٠).

= قادراً على بيع عبده أكثر من مرة واحدة، نجد الاب يحل له بيع ابنه ثلاث مرات مهما كانت حالته القانونية ومهما بلغ من عمر. كان هذا العرف سائداً في بلاد اليونان الى زمن (صولون). وقد قام هذا بوضع حدود لها. فحرم بيع الابن عند بلوغه سن الرجولة، الا أنه استثنى من التحريم البنات والأخوات اللاتي يفاجآن متلبسات بالزنا. ولم يطل امد التحديد الذي وضعه [نوما] لهذا المبدأ ان ما لبث ان الغي بعده. الا ان حكم العشرة Decemvir في اللوح الرابع أحيأ هذا التقليد (ديون ٨:٢) وعدل عنه تدريجياً بالتقدم الحضاري. لكن كان يحصل تطبيق للعرف في عهد شيشرون الأمر الذي يدل على أن هذا الحق ظل سارياً بكل ما فيه من صرامة.

(٥٩) عندما جفت الدلتا. وهي على أغلب الاحتمال احدث جزء مآهول من البلاد المصرية [هيروذوتس ٩:٢ و ٥].

(٦٠) اذا افترضنا ان المصريين كانوا يسمون الشهر سنةً، فان حساباتهم وتواريخهم ستبدو أقرب الى الحقيقة نظراً الى عمر الدنيا حالياً. فهم يحسبون تسلسلاً للملوك يعود الى فترة (٣٦٠٠) سنة. على ان فرضيتنا تجعل عهود حكم ملوكهم قصيرة جداً لا يقبلها العقل. هذا مع العلم ان هيروذوتس يقول ان المصريين هم أول من بدء الحساب بالسنة الحولية وانهم أول من جعل السنة اثني عشر شهراً. ان الاسبقية التي يتباهون بها يجب ان يعزى والحالة هذه الى مدهم الجزء الخرافي من تاريخهم الى عهد =

واما ان الرومان حصروا السنة كلها بعشرة أشهر في مبدأ أمرهم. ولم يحصروها بأثني عشر، فهذا يبدو واضحاً من اسم آخرها «ديسمبر December» ومعناه «الشهر العاشر». وكون آذار March هو الأول، فهذا ايضاً واضح لأن الشهر الخامس بعده كان يدعى «كونتيليس Quintilis» والسادس يدعى [سكستيليس Sixtilis] وهكذا الى الأخير. اذ لو كان شهر كانون الثاني وشباط يتقدمان آذار، لوجب أن يكون (كونيتيليس) الخامس بالتسمية والسادس بالترتيب. وكذلك يكون طبيعياً أن آذار March. المكرس لآله مارس Mars هو الأول في تقويم رومولوس. واپريل April (نيسان) الذي أخذ اسمه من فينوس (أي أفروديت Aphrodite) هو شهره الثاني. وفيه يقربون الى فينوس، وتستحتم النساء في أول يوم «Galend» منه وهن ضافرات رؤوسهن باكاليل الزهر، ولوجود حرف (پ) في اسم الشهر، لا حرف (ف) يرى بعضهم انه غير مشتق من اسم [افروديت]، ويقولون انه من كلمة «اوپريو Operio» وهي كلمة لاتينية تعني «فُتح Opan» لأن هذا الشهر يأتي في أول الربيع، ويفتح البراعم والأزهار، وينتهي موسمها. ويليه ما يسمى أيار May من كلمة [مايا Maia] وهي اسم امّ [الرب عطارد] وهو مكرس له. ثم يتبعه حزيران June [يونو Juno]. على أن بعضهم يجعل اسميهما مشتقين من اسم موسم بقوة السنة [مويورس Majores]، اما الأشهر الأخرى فقد سموها بحسب ترتيبها فسمي الخامس [كونيتيليس]، والسادس [سكستيليس] والسابع [سپتيمبر] والثامن [أكتوبر] والتاسع [نوفمبر] والعاشر [ديسمبر]. ثم أن [كونيتيليس] تبدل اسمه باسم «يوليوس Julius» من اسم قيصر الذي هزم [پومپي]، كذلك استبدل اسم سكستيليس [بأوغسطس] وهو القيصر الثاني الذي عرف بهذا اللقب وحذا [دوميتيان] حذو هذين، فأعطى اسمه للشهرين التاليين وعرفا بـ[جرمانيكوس Germanicus] و[دوميتيانوس Domitianus] ولكن اسميهما عادا اليها بعد أن اغتيل اي سبتمبر وأكتوبر وبقيا كذلك حتى الآن دون تغيير. ومن الأشهر التي اضافها [نوما] أو نقلها عن مواضعها، شباط [فيرووري] من فبراير Februa وهو شهر التطهر وفيه يقدمون التقدمات الى الموتى ويحتفلون بعيد [لوپركالبا] وهو يشبه مراسيم التطهير في معظم تفاصيله، وكانون الثاني [جانوري] من يونيو Juno وقد قدمه [نوما] على آذار المكرس لمارس، والسبب الذي دفعه الى ذلك في اعتقادي هو رغبته الشديدة في التأكيد والايضاح بأن الفنون والعلوم في زمن السلم، لها الارجحية على فنون الحرب وصناعتها. فقد كان [يانوس Janus] هذا إما

= سحيق جداً. واما عن مقولة پلوتارخ بان مصر هي بلاد حديثة العهد فهو قول غريب من رجل له مثل هذه المعرفة الواسعة. واما عن سنتهم ذات الأشهر الأربعة فما زال المتبعون المختصون في حيرة من ذلك.

إلهاً نَصفاً أو ملكاً في العصور الغابرة السحيقة، وكان على وجه التأكيد محباً للوحدة المدنية والاجتماعية، وعرف بأنه انتشل الناس من الحياة البربرية الهمجية. ولهذا السبب مثلوه بوجه، إشارة إلى الحالتين أو الوضعين الأول منهما الوضع الذي كان عليه البشر، والثاني الوضع الذي آلوا إليه بعد أن انتشلهم.

ولمعبده في رومه مدخلان يسمونها بابي الحرب، لأنهما يبقيان مفتوحين في أيام الحرب ويغلقان في أيام السلم، والحالة الثانية كانت نادرة جداً ذلك لأن الامبراطورية الرومانية في حالة اتساعها وتضخمها كانت ابدأً محاطة باقوام البرابرة وباعداء يترصبون بها الدوائر ولهذا ما عرفت للسلم طمعاً إلا في القليل النادر. وقد أغلق هذا المعبد في أيام [اوغسطس قيصر] فقط^(٦١). بعد أن حقق انتصاره على [انطوني]، كذلك أغلق مرة ثانية عندما كان [ماركوس أتيليسوس Marcus Atilius]^(٦٢) و[تيطس مانليوس Titus Manlius] قنصلين. ثم لم تمر فترة وجيزة من الزمن مفتوحين قط طوال حكم روما وظلا مغلقين باستمرار لمدة ثلاثة وأربعين عاماً كاملة وهي مدة سلم لم يعرف مثلها من قبل ومن بعد ولم يكن الرومان الوحيدين الذين لان جانبهم، ومال بهم طبيعهم الى الدعة والسلم بحكم ملك مسالم رقيق الطبع، بل تعدتهم هذه الروح الى شعوب المدن المجاورة كأنما هبّ عليها نسيم رخي من رومه. فبدأ الجميع يعانون تغييراً في المشاعر، وشاركوا كافة في الشوق العام الى لذة السلم ونعم النظام والاستقرار. الى حياة تستغرقها اعمال استنبات التربة وتنشئة الأولاد وعبادة الآلهة. وساد ايطاليا أيام أعياد، وحفلات الالعاب والتزاور بين الاصدقاء والألفة والاستضافة والكرم. وكان حبّ الفضيلة والعدل يتدفق من حكمة روما كما يتدفق الماء من نافورة. وكان هدوء طبعه يشع بالهدوء والطمأنينة الى جميع الجهات ولذلك أصبحت مبالغت الشعراء وفقاعاتهم الكبيرة تتضامن الى الواقع البسيط بوصف ما حدث على النحو التالي: «... نسجت العناكب خيوطها فوق تروس الحديد»

أو قولهم: «الصدأ يأكل الرمح المسنون، والسيف ذا الحدين. ولا يسمع بعد صوت أبواق النحاس. ما عاد النوم الهنيء يزايل عيون الناس»^(٦٣).

(٦١) قبل مجيء اغسطس قيصر أغلق معبد (يانوس) عدة مرات وخلافاً كما ذكر في المتن (غلقه في ٧٥٠ ق.م) فقد أغلق في أيام نيرون، وفي أيام قسپاسيان بعد تغلبه على اليهود.
(٦٢) علينا ان نثبت «كايوس» بدلاً من «ماركوس». فزميله (تيتوس مانليوس) أغلق معبد (يانوس) في نهاية الحرب التيونية الأولى في ٥١٩ ق.م. وظلت روما مشتبكة في نضال مستمر منذ عهد روما حتى هذه الفترة.
(٦٣) اقتبس پلوتارخ هذه القصيدة من مجموعة قصائد (باكليديس) التي حفظها لنا [ستومبيوس] حول الإشادة بالسلم.

اذ لم تقم حرب ولا فتنة ولا انقلاب في أحوال الدولة طوال حكم [نوما] ولم يواجه بحقد أو نية سوءٍ ولم يحصل مؤامرة عليه أو تحك خطه، مبعثها الطموح ضده، فيما كان الخوف من الآلهة هو الذي يعصمه من الخطر وإما الاحترام لفضائله، أو لعلها نعم الحظ الآلهية التي كانت في ايامه ترعى البراءة الأنسانية هي التي جعلت حكمة مثلاً حياً وبرهاناً ساطعاً مهما كانت الوسائل - على ذلك القول الذي نطق به افلاطون بعد مرور زمن طويل وهو أن الوسيلة الوحيدة والدواء الناجع الوحيد للخلاص من الشرّ الانساني هو في اتساق سعيد للأحداث حين توجد في شخص واحد سلطات الملك وحكمة الفيلسوف لأجل أن ترفع الفضيلة الى سلطة مراقبة الشر والهيمنة عليه. وهذا الرجل الحكيم هو مبارك بشخصه، «ومباركون ايضاً أولئك الذين يستطيعون الاصغاء اليه والاستماع الى تلك الكلمات التي تخرج من فمه»^(*).

وربما لم يكن هناك حاجة أيضاً للاكراه أو التهديد في التأثير على الجمهور لأن الصورة بنفسها هي المثل الساطع الواضح على الفضيلة في حياة اميرهم وهي التي ستؤدي بهم طوعاً واختياراً الى جادة الفضيلة والى مواجهة حياة طاهرة مباركة تمتاز بحسن النية والتعاون المتبادل ويدعمهما الخير والعدل وهذا أعلى مكسب يمكن أن يناله سعي الانسان. ونوما هو خير حاكم يغرس هذه الفكرة في قلوب رعاياه ويحملهم على أعتناقها. إنه المديح الذي لم يستحقه أحد كما أستحقه [نوما]. وهو ما يبدو جلياً.

هناك اختلاف بين جمهرة من المؤرخين حول أولاده وزوجاته فبعضهم يزعم أنه لم يتزوج بأحد بعد [طاطيا] ولم يكن لديه منها غير بنت واحدة اسمها [پومپيليا Pompilia]، ويقول آخرون انه خلف اربعة ذكور آخرين وهم [پومپو Pompo]، و[پينوس Pinus]، و[كالپوس Cal-pus]، و[ماميروكوس Mamerocus] وقد كان واحد منهم مؤسساً للأسر العريقة الشهيرة الأربعة [پومپوني، بيناري، كالپورني ماميركي Mamerei، Pinarii Calpranu، Pomponii] وزادت هذه الأسر الى اسمائها لقب [ريكس Rex^(٦٤): ملك] أيضاً لانحدارها من [نوما]. على أن طائفة ثالثة من الكتاب تقول أن شجرات النسب تلك لم تكن غير مجاملة وتملق اختلقها الكتاب ليناووا حظوة عند هذه الأسر العظيمة، فعملوا لهم شجرات نسب كاذبة متسلسلة من روما. وقالوا أيضاً أن [پومپيليا] ليست بنت [طاطيا] بل بنت [لوكريسيا LU-creti] وهي زوج أخرى بنى بها بعد أن أختير ملكاً. ومهما بلغ أختلافهم، فكلهم يتفقون في

(*) افلاطون: الشرائع.

(٦٤) ريكس Rex هو لقب اسرة ايميلي Aemilii واسرة مارچي Marcii. ولم يكن لقب پومپوني Pomponii أو بيناري Pinarii أو مامرچي Mamerci. وقد انحدر آل بيناري من أسرة كهنة هرقل وهم أعرق وأقدم عهداً من عصر [نوما]. انظر [ليفي ١: ٢٧، ديون ١: ٩، فرجيل الاينيات ٨: ٢٧١].

الرأي بأن هذه البنت تزوجت ابن [مارشوس] وهو الشخص الذي اقنعه بتسلم مقاليد الحكم ورافقه الى رومه، فأختير عضواً في مجلس الشيوخ تكريماً له. ويعد وفاة نوما نافس [تُلوس Tullus] ابن [هوستيليوس] على الملكية. وبفشله في الانتخاب، يخع نفسه حسرةً وكمداً. إلا أن ابنه [مارشوس] الذي تزوج [پومپليا] بقي في روما. وهو والد [انكوس مارشوس] الذي عقب [تُلوس هوستيليوس] في الملك وكان عمره خمس سنوات عند وفاة [نوما].

وعاش [نوما] حتى زادت سنّه على الثمانين وبعدها لم يقض نحبه بموت الفجاءة أو بعد مرضٍ حاد وأما توفي بكبر السنّ وبتهاقت قواه وهنها التدريجي على ما قاله [پيسو PISO].

وقد أجمعت في جنازته كل أمجاد حياته كاملةً، عندما التقت كلّ الدول المجاورة وهي في تحالف وصدافة مع روما، لتكريم وتشريف مراسيم دفنه بالكاليل وبهدايا الشعوب. وحمل الشيوخ النعش الذي يضمّ جثمانه يتبعهم الكهنة، ثم موكب المشيعين المهيب، في حين ساهم الجمهور عامةً بأحداثه ونسائه وأطفاله وهم يصرخون وينتحبون كأنما يندبون موت وفقد قريب عزيز لهم أعتبط وهو في شرح شبابه لا ملكاً شيخاً بلغ ارذل العمر وقيل أن جثمانه لم يحرق، لأنه أوصى بذلك^(٦٥)، بل نحتوا ناوسيين من الرخام حسب وصيته وأدعوا جثمانه فيما دفنوهما في جبل يانيكولوم Janiculum، وكان في أحدهما جثمانه وفي الثاني كتبه المقدسة^(٦٦). التي دونت له خاصةً كما هي ألواح المشتريين اليونان. ولكن محتوياتها انطبعت في نفوس الكهنة وقلوبهم في اثناء حياته، حتى تشبعت بها اذهانهم وتشربت بروحها وغاياتها. وقد أوصى أن تدفن معه. كأنما هذه الوصايا المقدسة لا يمكن أن تبقى وتنتشر في كتابات جامدة إلا وتفقد مكانتها واحترام النفوس لها. ولهذا السبب نفسه يقال ان الفيثاغوريين منعوا أن يحتوي تعاليمهم كتابية لا روح فيها^(٦٧) بل فضلوا ان تحفظها الصدور والذاكرات القمينة بحفظها فيقولون عندما كان يتسرب بعض المعادلات الهندسية المعقدة الغربية الى شخصٍ غير جدير بها أن الأرباب تهدد بالاقتصاص من هذا العمل الشنيع والتجديف، بأشارة مخصوصة وبهيبة واسعة شاملة. ويتعاقب جملة من هذه الحوادث لتثبت

(٦٥) في الأزمان القديمة كانت جثث الموتى توارى التراب، ثم أخذ المصريون يحنطونها حفظاً لها اعتقاداً بعودة الروح اليها. اما اليونان فقد كانوا يحرقونها تقديماً لتفسيخها وما يترتب على ذلك من آثار سيئة. على ان (پليني) يزعم بأن (سيللا) هو أول روماني أحرقت جثته.

(٦٦) يبدو ذلك مناقضاً لديون (١٢:٣) الذي يقول «بعد وفاة تُلوس هو ستيليوس تسلم خلفه [انكوس مارچيوس] من الكهنة شرائع [نوما] الخاصة بالطقوس والعبادات وأمر بحفرها في الحجر وعرضها على الجمهور.

(٦٧) ذلكم ما مال اليه الكهنة المصريون. ومنهم انتقلت الى فيثاغوراس على ما يبدو ثم الى افلاطون ونوما ليُلمح الى عادات تلك البلاد، وربما استمد الأخير من نفس المصدر.

وجوه الشبه في حياتي [نوما وفيثاغورس] يسهل علينا الاعتذار لأولئك الذين يحاولون اثبات تجاوب في أفكارهما ووجود علاقة شخصية فيما بينهما فعلاً.

ويذكر [فاليريوس انتياس] أن الكتب التي دفنت في الصندوق أو الناوس المشار اليه بلغت اثني عشر مجلداً في الشرائع الدينية ومثلها من المجلدات في الفلسفة اليونانية ولما كان [پ. كونيولوس P. Cornelius] و[م. بيبوس M. Baebius] قنصلين بعد اربعمائة عام من وفاة نوما^(٦٨)، سقط مطر عزيز وجرفت السيول العرمة التراب وكشفت عن التابوتين الحجريين وقد سقط عنهما غطاؤهما فشوه أحدهما خالياً تماماً من أي اثر لبقايا جسم بشري. ووجد في الآخر الكتب التي اشرفنا اليها، فأخذت الى الپريتور [پيتيليوس Petilius] وبعد أن قرأها وتأمل ما فيها، أقسم ميمناً امام مجلس الشيوخ بأن محتوياتها لا تصلح في رأيه - للنشر بين العامة، فحملت المجلدات الى الكوميثيوم وهناك ثم احرقها.

من حظ الأختيار أن قداستهم تمجد بعد موتهم وان الحسد الذي يضطغنه لهم الأشرار لا يعيش بعدهم طويلاً، وقد يسعد الخطّ بعضهم أن يشاهدوا موته قبل أن تحين آجالهم، وفي قضية [نوما] أيضاً كانت مصائر الملوك الذي عقبوه بمثابة عاكسة تطلق نور سمعته الساطع. فقد عقبه خمسة ملوك انتهت حياة آخرهم في المنفى وهو شيخ هرم بعد أن نحي عن العرش. ومن الأربعة الباقيين ثلاثة اغتالتهم يد الخيانة والآخر وهو [تُلوس هوستيليوس]. الذي خلف [نوما]، سخر من فضائل سلفه ولاسيما تعلقه بالعبادة وأعتبرها اعمال ضعف وخور نفسيّ وحوّل عقول الشعب الى الحرب إلا أنه ألجم وكُبح جماح هذا التهور والطيش. وتردى هو نفسه في حماة الدجل والشعوذة المختلفة جداً عن تقى وتهجد نوما حين ألمّ به مرض مزمن كثير الأوجاع وعندما مات بضربة صاعقة^(٦٩)، ترك آخرين يقاسون ما قاسى من آلام.

(٦٨) هذا الحدث وقع في العام ٥٧٣ ق.م، ولعل پلوتارخ كتب (٥٠٠) يقول قارو: «ان شخصاً اسمه (ترنتيوس) كان يملك قطعة ارض بالقرب من يانيكولوم. وقد شاعت الصدق ان واحداً من رعاته مر يوماً بقطيعه فوق قبر [نوما] فانكشفت له كتب قانون كان [نوما] قد دون فيها الاسباب التي دعت الى تقنين الديانة الرومانية بالشكل الذي رسمه. فحمل الراعي هذه الكتابات الى (الپريتور) الذي أخذها بدوره الى مجلس الشيوخ. وبعد قراءة التعليق والاسباب الموجبة أمن بسلامة نية [نوما] وامر باحراق الكتب على ان يقوم (الپريتور) بقذفها الى اللهب.

(٦٩) ضربت الصاعقة قصر (تُلوس هوستيليوس) فاحرقته وهلك فيه هو وزوجه وأولاده. على ان بعض المؤرخين يقولون ان [انكوس مارچيوس] حفيد [نوما] الذي كان يطمح الى الملك. انتهر فرصة اشتداد العاصفة ففتك بالملك.

فقد بلغ به الأمر ان منح للعبد المسترق حق الجلوس وتناول الطعام مع سيده^(١) في عيد [زحل] حتى بتذوق بعض اطيب الحرية وملاذها. فهذه العادة أيضاً تعزى الى نوما. اذ يقولون أنه كان يرغب أن يُفسح لأولئك الذين ساهموا في استغلال الأرض مجالاً للتمتع بخيراتها. ويعللها آخرون، بأنها أحياء لعصر [زحل] حيث لم يكن هناك فرق بين السيد والعبد. والجميع يعيشون كالأخوة في حالة متقدمة من المساواة.

وبصورة عامة يبدو أن الأثنين كانا يسعيان الى غرض واحد وغاية واحدة. وهو الوصول بالشعبين الى حالة الاعتدال، والتكشف أما من السجايا الأخرى فقد ركز احدهما جل اهتمامه في تقوية شعبه، والآخر في العدالة. إلا إذا أسندنا أختلافهما في السبل الى اختلاف أمزجة الشعبين وطباعهما واحوالهما وقابلية تطبيق قوانينهما. فنوما لم يعمل للسلم جيناً منه أو خوفاً بل لأنه لا يريد أن يظلم فسيأثم، ولم يكن ليكورغوس بالذي يرغب في رفع الروح العسكرية في شعبه ليظلموا الآخرين، بل ليكونوا قادرين على حماية أنفسهم بها.

وفي سبيل الوصول بالأمزجة التي كوّناها في شعبيهما الى سبل واهداف عادلة وغايات سعيدة يحدان منها عندما تزيد في انطلاقتها ويقويانها في مواطن ضعفه، وجدا نفسيهما مضطرين الى استحداث ابداعات عظيمة. فشكل النظام الحكومي الذي اقامه نوما، كان ديمقراطياً جمهورياً الى أقصى حد فنقابات الصاغة والموسيقين والاسكافيين تؤلف طبقة العامة المختلفة الألوان والصور. أما ليكورغوس فكان ارستوقراطياً صارماً جامداً، في حصره كلّ المهن اليدوية والأعمال الوضيعة بطائفة الخدم والأجانب، ولم يسمح لمواطنيه من أدوات العمل، إلا بالرمح والترس اي صناعة الحرب فقط وخدمة إلهها مارس. ولم يسمح لهم بشيء من المعرفة والفهم غير اطاعة أمرهم العسكريين، والنصر على الأعداء في الحرب. ومنح اي مضاربة مالية بينهم بوصفهم رجالاً احراراً ولأجل جعلهم على هذه الصورة وابقائهم عليها تماماً طوال حياتهم، حوّل كل ما يتعلق بأموال المال والنقود الى أيدي العبيد والهيلوت بما فيها من أعمال الطهي وخدمة البيوت. إلا أن نوما لم يحدث مثل هذه التفرقة، وإنما قمع الروح

(١) افي سائرُ ناليا، وكان يعيده في الرابع عشر من شهر كانون الثاني. وتقرب القرابين تكريماً لذلك الذي جاء بسعادة ورخاء العصر الذهبي الى ايطاليا. وفيه ينعم الخدم بالحرية ويمارسون كل ضروب اللهو والمرح استعادة لذكرى المساواة الاجتماعية التي سادت ذلك العصر. وفيه يتبادل الاصدقاء الهدايا، ولا تعلن حرب ويوقف تنفيذاً احكام الموت بالجرمين. على اننا لانعلم شيئاً عن منشأ العيد. يقول (ماكروبيوس) انه كان معروفاً في ايطاليا قبل بناء روما. وقد يكون مصيباً في قوله، لأن الأغريق كانوا يحتفلون ببعين هذا العيد تحت اسم «خروثيا» [ماكروبيوس ساتورناليا ٧:١] ويؤكد (ريكارد) انه نشأ بعد حكم [نوما]، إما في عهد [تلوس هوستيلوس] واما في عهد [تاركوينيوس سوبريوس].

أوجه المقارنة بين نوما وليكورغوس

بعد انتهائنا من الكلام في سيرتي ليكورغوس ونوما، سنضع معاً نقاط اختلافهما كما هي مبسطة هنا امام اعيننا وان كان العمل صعباً. إن أوجه الشبه بينهما واضحة: اعتدالهما، تدينهما، كفاءتهما في الحكم ثم اختلافات جوهرية في شؤونهما العامة، أولها أن نوما قبل الملك وليكورغوس نزل عنه. نوما تسلمه دون رغبة فيه، وليكورغوس كان حائزاً له فتخلى عنه. الأول ارتفع من شخص عادي غريب الى منصب الملك، رفعه اليه آخرون. والثاني نزل من حالة الأمانة الى شخص عادي بمحض اختياره. إنه لمجد مؤثلاً أن تنال عرشاً بالحق، ولكن أعظم منه أن تفضل الحق على العرش فالفضيلة التي جعلت الأول يبدو جديراً بالسلطات، هي نفسها سمّت بالآخر الى درجة عدم المبالاة به. وأخيراً، فكما يحزق الموسيقيون اوتار قيثاراتهم كذلك أرخى الأول منهما روحية اهل رومه المندفعة المؤثرة الى درجة اوطأ شدها الآخر في سيارطا ورفعها الى نعمة أعلى عندما اضرت بها الفتى واصابها الانحلال والانقسام. وكان العمل الأصعب من نصيب ليكورغوس. اذ لم تكن مهمته اقناع مواطنيه بنزع دروعهم، وحل انطقة سيوفهم وانما كان يريد منهم نبذ ذهبهم وفضتهم، وترك اثارهم الغالي وموائد طعامهم الفاخرة لم تكن مهمته الوعظ والارشاد الى حفظ تعاليم الدين واعياده وتقديم القرابين للأرباب كما يجب وتخليهم عن السلاح وانما حشهم على نبذ الولايم والحفلات والشراب، وصرف أوقاتهم في التمارين العسكرية المجهدة. وهكذا فبيننا تجد الأول يحقق مسعاه كله بالاقناع ويحب شعبه له وتعلقه به، نجد الآخر بالكاد نجح في الأخير، بعد ان تعرضت حياته للخطر والمتاعب. وكانت فكرة نوما وحيماً رقيقاً ودوداً، يناسبه تماماً، وهو ان يوجه اهتمام شعبه ويميل بهم الى السلام والعدل، لترق طباعهم الوحشية النارية، وان سلمنا هنا بان معاملة [الهيلوت] وهي جزء مما قررته شرائع ليكورغوس تُعد اجراءات لا مثيل لها في القسوة والظلم، فعلينا الاقرار أن نوما كان أكثر انسانية بما لا يقاس، واقرب شهباً بالمشترعين اليونان

هؤلاء اللاتي كن مع الشبان في رائعة النهار، يخرجن من الدار وافخاذهن مكشوفة، وارديتهن تتطاير لتظهر عربيهن.

ذلك لأن الغلائل التي ترتديها الفتيات العازبات مشقوقة الجانبين من الأسفل بحيث تنكشف عن افخاذهن العارية اثناء سيرهن. وقد وصف سوفوكلس^(٤) ذلك وضعاً دقيقاً بقوله: « تلك [هرميون Hermione] الفتاة الصبية أيضاً بغلائلها التي ليس فوقها رداء، تنحس الى الخلف وتترك فخذها العاري حراً مكشوفاً»

ولهذا قيل ان نساءهن المسترجلات الجريئات مصدر ضيق لأزواجهن بالدرجة الأولى. سيدات مطلقات الأمر في بيوتهن، يدلن بأرائهن في الشؤون العامة بحرية تامة، ويتكلمن علناً دون قيد في أهم المواضيع. إلا أن الأمهات وربات البيوت في عهد روما، كن محترمات، وموضع اجلال أزواجهن، وهو من آثار ذلك التكريم الذي نلفه في أيام رومولوس بمشابة تعويض عن اختطافهن عنوة^(٥) ومع ذلك فإن الحشمة الكبيرة تسود حياتهن. وهن ممنوعات من التدخل في الشؤون الخارجة عن طبيعهن، والوقار مفروض عليهن والصمت عادة فيهن. لا يقربن الخمر مطلقاً ولا يتكلمن إلا بمحضر من أزواجهن حتى في ابسط الأمور. بحيث أنه عندما سُمح لامرأة مرةً بعرض قضيتها في ساحة القضاء، قيل ان مجلس الشيوخ ارسل يستفسر من العرافة، بماذا تنذر هذه الحادثة الخارقة^(٦)؟! والواقع أن سلوكهن العام الصالح وخضوعهن، وطاعتهم، يبرهن عليه بحق إشتهار عددٍ منهن بسوء الطبع والسلوك.

وكما يدون المؤرخون الأغريق في حولياتهم اسماء أول من امتشق السيف في الحروب الأهلية، أو قتل أخاه أو اباه أو أمه، فكذلك الكتاب الرومان يذكرون أن [سيوريوس كارثيلوس] كان أول من طلق امرأته، بوصفها حادثة لم يقع مثلها خلال مائتين وثلاثين عاماً اي منذ بناء المدينة. وان من تدعى [تاليسيا Thalaea] امرأة [پنيساريوس Pinarius]،

(٤) القصيدة ٧٨٨.

(٥) فرض (رومولوس) عقوبة الموت على الزانية أو الشاربة خمرًا. لأن الزنا - على حد قوله - يفتح باباً لكل انواع الجرائم. والخمر تفتح باباً للزنا. وجاء في المآثر [ان اغناطيوس مچينيوس] قتل زوجه بيده لأنها عاقرت الخمر فبرأه مجلس الشيوخ [پليني المرجع السالف ١٤:١٣] وهناك حادثة أخرى أفضع فقد حكم على امرأة سرقت مفاتيح مخزن بأن تُرجم فقام اقرباؤها برجمها حتى قضت نحبها. لقد خفت حدة هذا القانون بتعاقب الاجيال فأصبح عقاب المرأة التي تصرعها الخمر هو حرمانها من البانئة.

(٦) ما بدأ في ذلك الزمن غريباً، أصبح فيما بعد عادياً. حتى ان كل امرأة مزعجة عن هذا الطراز تلقب بـ(افرانيا) نسبة الى زوج أحد أعضاء مجلس الشيوخ التي أشغلت ساحات القضاء بمراجعاتها. وثم (هورتسسيا) الفصيحة بنت الخطيب المصقع (هورتسسيوس) فقد تكلت بالنجاح مرافعتها في «الدفاع عن النساء عندما فرض عليهن ثلاثي الحكام» غرامة، فقد ووفقت نحفضها الى حد كبير [٣:٨ و ٤].

العسكرية، وسمح بحرية مطلقة للحصول على الثروة بكل وسيلة شاءها الانسان. ولم يهتم بازالة الفروق الاجتماعية من هذه الناحية. وانما سمح للاغنياء بأن يزيدوا في ثرواتهم دون حد. ولم يهتم بازدياد الفقر وتفاقمه المطرد، وهو ما كان يجب عليه أن يحتاط له من البداية عندما كانت الفروق في احوال الناس المالية صغيرة، والناس ما زالوا يعيشون في احوال اقتصادية متقاربة نوعاً ما. لم يتخلص من ذلك كما فعل ليكورغوس، ولم يتخذ التدابير والاحتياط للفتن والفوضى التي تنجم عن الحرص على المال.

فتن ليست ذات خطر قليل، بل هي البذرة الحقيقية والمبدأ الأولي لكل الشرور والمكاره العظمى وفي اعتقادي أنه لا يمكن لوم ليكورغوس على اعادة تقسيم الأراضي، ولا لوم [نوما] على عدم اعادة تقسيمها، إن هذه المساواة كانت القاعدة والأساس لجمهورية واحدة. اما في رومه حيث سبق توزيع الأراضي، فلم يكن ثم ما يدعو الى اعادة تقسيمها والاخلال بالاجراءات الأولى التي كان معمولاً بها على ارجح الظن.

واما بخصوص الزوجات والأولاد واحوال المجتمع فكلاهما اتبع سياسة صحيحة لإزالة التنافر والخلاف منه. على أن ساليبهما كانت مختلفة. فعندما يجد الروماني أن لديه عدداً كافياً من الأولاد، وعندما يرجوه جاره الذي لا ولد له أن يسلفه زوجه، فليس هناك ما يمنعه شرعاً تسليفها لمن يرغب فيها لفترة مؤقتة أو بصورة دائمة. في حين نجد الزوج اللقيديوني، قد يسمح لأي رجل آخر بزوجه، اذا رغب في انجاب اولاد منها، ولكنه يبقيها في منزله، وتظل الرابطة الزوجية الأولى وواجباتها كما كانت.

لا بل رأينا كثيراً من الأزواج، يدعون رجالاً الى بيوتهم لمضاجعة نساءهم، حتى ينسلن لهم اولاداً جميلي الخلقه حسني التركيب. اذن ما الفرق بين العادتين؟ أنقول أن نظام اللقيديونين هو نظام لا يهتم قطً بالنساء وانه يسبب لأغلبية الناس ازعاجاً وقلقاً لا نهاية له، تراقفه الهواجس والأحقاد؟ وان نظام الرومان الذي يحوطه مظهر أكثر رقة وسماحة، يرخي حجاباً على هذا التغيير ويجعله أشبه بعقد زواج جديد ويتغاضى عن وضع عام اجتماعي لا يمكن احتمالها؟ كذلك كانت انظمة [نوما] حول العناية بالفتيات أكثر مناسبة لهن ولجنس الأنثوي، في حين كانت انظمة ليكورغوس غير انثوية وصارمة فسحتنا مجالاً كبيراً لتندر الشعراء عليهما [ومنهم مثلاً بيبكوس Ibycus]^(٢) إذ أطلقوا عليها «فينوميريدس Phae-nomirides» اي الفخذ العاري وعملوا كيوربيدس^(٣) على إثارة نار الغيرة في أزواجهن.

(٢) شاعر غنائي في ريحيوم.

(٣) اندروماخة.

اختصمت مع حماتها [جيفانيا] في عهد [تاركوينيوس سوپربوس Tarquinius Superbus] بوصفها أول حادثة من نوعها.

وتتسق تشريعاتهما وانظمتها بخصوص زواج البنات، مع تلك التي شرعت لتثقيفهن. ولم يسمح ليكورغوس بزواجهن إلا بعد يبلغن النضوج التام ويتوفر لديهن الميل. فالوصال الجنسي، عندما يكون متفقاً مع قوانين الطبيعة، يولد الحبّ والحنان عوضاً عن الكراهية والخوف الذي يرافق الوصال غير الطبيعي. ذلك هو رأي ليكورغوس كذلك تكون اجسامهن أكثر استعداداً لتحمل متاعب الحمل وتربية الأولاد وهو في رأيه هدف الزواج وغايته.

أمّا الرومان فيزوجون بناتهن قبل بلوغهنّ العشرين أو في السنوات الأولى بعدها. معتقدين ان اجسامهنّ وعقولهن معاً ستصل أزواجهن المقبلين وهي طاهرة لا تشوبها نجاسة. وتبدو وجهة نظر ليكورغوس من ناحية الولادة أصح وأقرب الى الطبيعة. أما نوما فيرى أن الحياة الزوجية المتواصلة أقرب الى الأخلاق^(٧)، على أن القواعد التي وضعها ليكورغوس للعناية بالاولاد والاشراف على تربيتهم وجمعهم في زمر ووضعهم تحت طائلة النظام والضبط، كذلك تنظيمه الدقيق لوجبات طعامهم ورياضاتهم، كل ذلك يُظهر [نوما] مشرعاً عادياً. فقد ترك الأمر كله لرأي الأبوين ورغباتهما وحاجاتهما. فبإمكان الأب لو شاء أن يجعل ابنه مزارعاً أو نجاراً أو صقاراً أو موسيقياً. حتى لكأنّ تدريبهم وتربيتهم منذ نعومة اظفارهم لغاية عامة مشتركة أمرٌ لا يستحق الاهتمام، فيكونون اشبه بمسافرين جمعتهم سفينة واحدة، ركبها كل واحد منهم بمحض اختياره ولغرضٍ خاص به لا وحدة عمل تجمعهم في سبيل المصلحة العامة إلا عندما يدق ناقوس الخطر، وفي حالات مخاوفهم الخاصة تراهم عموماً لا يعملون إلا وفق ما تمليه مصالحهم الخاصة.

ولا مندوحة لنا الا أن نلوم المشتريين العاديين الذين قد تعوزهم المعرفة ويفتقرون الى السلطان، ولكن عندما يتسلم رجل حكيم كنوما، مقاليد السلطة المطلقة على شعبٍ طيّع. أفهناك شيء يستحق اهتمامه أكثر من موضوع تثقيف الشئ الجديد، وتدريب الشباب. ليس خلافاً لطبيعتهم، أو ضدّ أمزجتهم بل وفق أعلى نموذج عام للفضائل ومبادئ الاخلاق مما يجب أن ينشأوا عليه منذ أظفارهم؟ وبين الفوائد الكثيرة التي جناها ليكورغوس من خطّ سيره هذا هو الثبات الذي ضمن بقاء قوانينه. ولم يكن للأيمان التي حلفها السبارطيون بان يقيموا

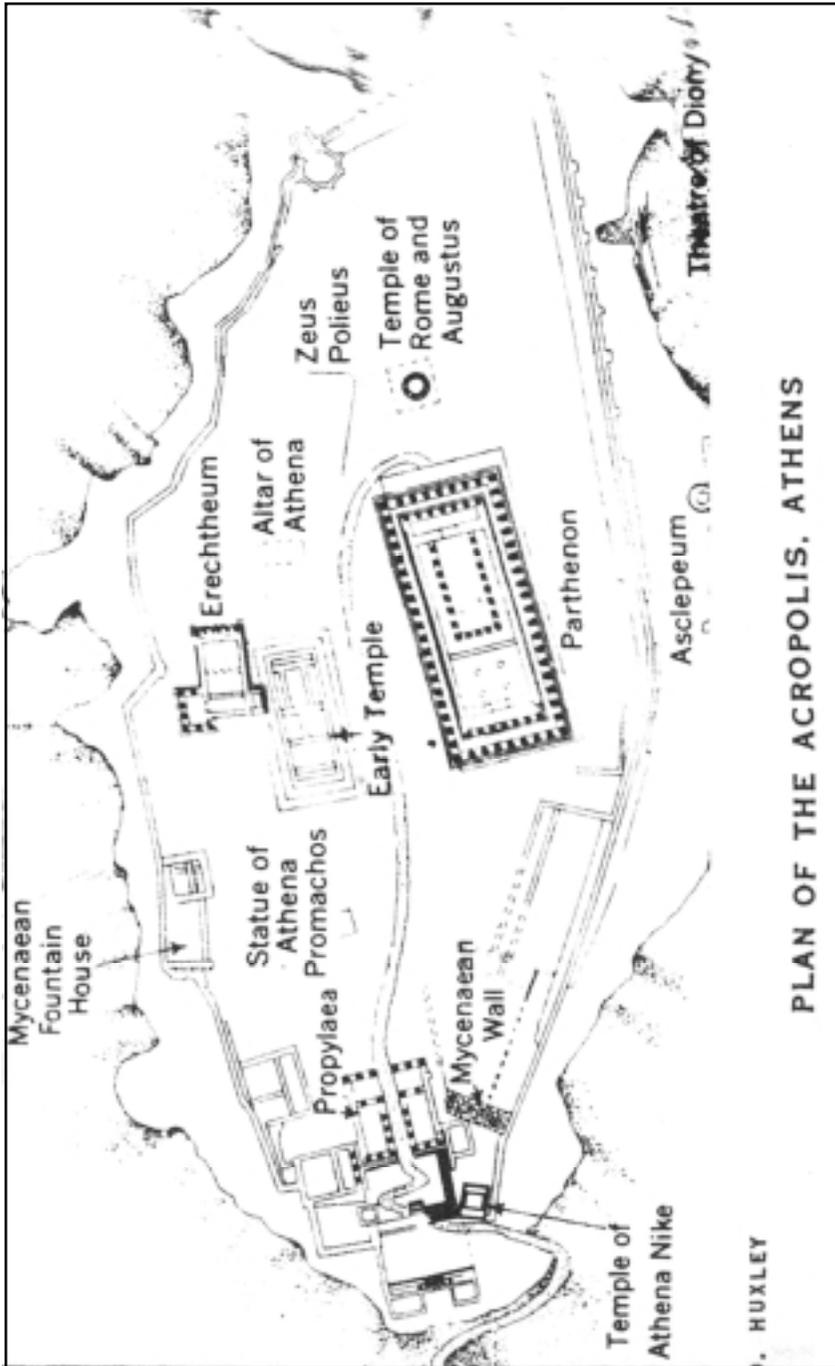
(٧) يفضل ارسطو [السياسة ١٦:٧] المبادئ السبارطية باعتبارها ذات فائدة عظيمة بآثارها ومردورها على الانسان. وكان النظام الروماني في رأيه أقرب الى تحقيق الغاية المرجوة - ويقضي بتأخير الوصال الجنسي الى أن تغدو الأنثى أكثر تفهماً لواجباته وأهميته بعامل نضوجها وتقدمها في السن.

عليها، من أثر كبير لو لم تثبت في نفوس وأخلاق الصغار بالتدريب والثقافة، ولو لم يشرب حياتهم كلها بحب الحكومة التي أقامها. وكانت النتيجة أن الأصول والأسس التي بنى عليها تشريعاته ظلّت سارية اكثر من خمسمائة سنة. بقيت مثل صبغة عميقة ثابتة جداً، تسود كتلة الشعب باسره. في حين كان كل خطة نوما وهدفه استمرار السلم وحسن النية، وقد زال كل أثر لهذا بعد وفاته. إذ ما ان قُبض ولفظ آخر انفاسه حتى انفتح بابا معبد [يانوس] على مصاريعهما. واندفعت ريح الحرب، كأنما كانت حبيسة محصورة داخل هذه الجدران تحتاج ايطاليا وتقلأ أرضها بالدماء والضحايا^(٨). وهكذا لا يكتب البقاء الطويل لاسمى الأعمال وأنبلها، لأنها تحتاج الى ذلك الجُص الذي يبقى اجزاءها ملتحمه وبنائها ثابتاً، وأعني به التهذيب والتثقيف. ولعل قائلاً يقول: ماذا اذن؟ ألم تتقدم رومه، وتزداد عظمتها بالحروب التي خاضتها؟ انه السؤال يتطلب اجابة طويلة، اذا قصدنا به ارضاء أولئك الناس الذين يرون «الحال الأفضل» في الغنى والترف والتملك. لا في الاستقرار والدعة والاستقلال. وهي جميعاً مظاهر لروح العدل. وعلى اية حال، فمما يرفع قدر ليكورغوس، ان الرومان بعد نبذهم أنظمة نوما وسياسته نمت امبراطوريتهم وتعاضمت قوتهم كثيراً بينما حمل شأن اللقيديونيين حالما ابتعدوا عن أنظمة ليكورغوس وهبطوا من أوج عظمتهم الى الحضيض. وبعد أن انحسر نفوذهم عن سائر بلاد الأغرريق، تعرضوا هم أنفسهم لخطر الزوال التام على انك في الوقت نفسه لا يسعك إلا ان تجد الظروف التي جاءت بنوما علامة غريبة جداً، تكاد تكون آلهية المصدر، فهو أجنبي، أقنع بالمجيء مكرهاً ويقبول مملكة قام هو بنفسه بتغيير جهازها تغييراً تاماً، وكان سبيله الى هذا، الإقناع فحسب. حكم مدينة لم تكن في حينه قد غدت مدينة موحدة، ولم يلجأ الى السلاح أو أي عملٍ من أعمال العنف.

(في حين استخدم ليكورغوس قوة المواطنين النبلاء، ضدّ معارضة العامة) وانما بمجرد قوى الحكمة والعدالة، فيها وحدها تمكن من تحقيق الوحدة واحلال التفاهم بين الجميع.

(٨) يقصد حروبه مع الفيدينتي واللبان واللاتين.

معلومات عن
بعض الآثار التاريخية والمباني الشهيرة
التي ورد ذكرها في الكتاب



1- الاكروبوليس [الپارثنون]

ومعنى الكلمة باليونانية (الأرض المرتفعة) وعرف باكروبوليس اثينا لوجود تمثال اثينا ومعبيدها البارثنون فيه ويقع وسط مدينة اثينا تقريباً على ارتفاع 150 قدماً تقريباً وبطول 1150 قدماً وعرض 500. ويطلق الاسم عادة على القلاع التي تبنى على نشز من الأرض ليتجمع حولها أماكن سكنى ولتغدو بمثابة قلعة حامية Citidal وكانت مسيجة وفيها اعتاد ملوك اثينا بناء قصورهم وهياكل آثينا التي تعرف باسم هيكاتومبيدون.

حينما نتحدث عن الاكروبوليس Acropolis يرد الى ذهننا في الحال الأثر الوحيد الباقي قائماً أو بالأحرى قشرته أو ما بقي من قشرته. وهو هيكل اثينا المعروف بالبارثنون وهي عند الرومان الآلهة منيرفا وكلمة اكربوليس كلمة عامة يمكن إطلاقها على أي موقع محصن وان كان خارج بلاد اليونان.

تحصينات الاكروبوليس في اثينا هدمها الفرس اثناء احتلالهم المدينة وسواها بالأرض اسوارها وهي كلها. إلا أن (كيمون) الذي سترد سيرته في واحد من الأجزاء التالية قام بتجديد معظم للسور المحيط به بعد معركة (يوريميدون) في العام 468 ق.م.

يحمنا من الاكروبوليس الذي كان في عهود طويلة مقراً لحكام آثينا وحكوماتها. نيابة البارثنون وهي أهم آثار الاكروبوليس على الإطلاق. كما بدت في الرسم التخطيطي للاكروبوليس المنقول عن دائرة المعارف البريطانية (مادة آثينا).

ابنية قليلة في العالم استخدمت امكنة عبادة لديانات مختلفة. والبارثنون بقشرته المحطمة والمشوهة ما زالت تأخذ باللب. صمم بناءه (اكتينوس Actinus) على هيئة مستطيل كما يرى في الصورة عرضه 101.34 قدماً وطوله 224.14 قدماً. بدأ معبداً للالهة آثينا وتحول الى كنيسة للعدراء مريم وانتهى بصيرورته مسجداً لنبي الله محمد. والسياح اليوم ومنذ حازت اليونان استقلالها في مطلع القرن التاسع عشر يصعدون الاكروبوليس ليتجولوا في ارجاء المعبد

ويقفوا تحت اساطينه القائمة ليلتقطوا تصاويرهم. بوصفه اروع ما أنجزه الاغريق او ربما اي نحات آخر. ان الدقة الحسابية وجمال التصميم التحما معاً ليخرجا منحوتة تنبض بالحياة، كأنها نحتت من قطعة رخامية واحدة هائلة الجرم بل حتى الرخام فيه يغير من الوانه بتغيير الضياء الواقع عليه. حتى الآن ورغم الخراب العظيم الذي نزل به فانه يمثل الميزات الرفيعة للطبع اليوناني وذوقه الغريزي كما عبر عنه منشئه الحاكم (بيركليس) بقوله «نحن نحب الجميل وان كان ساذجاً بسيطاً في ذوقنا. ونحن نهذب العقل دون خسارة الرجولة». كان ذلك في حدود 450 ق.م عندما شرع في بناء المباني الجميلة في هذه المدينة التي تحدت قوة الفرس وتسلت قيادة العالم الأغريقي وكان البارثونون ابرز تلك الابنية على الاطلاق اقيم في موضع هيكل قديم للآلهة عينها. طبق المهندس والنحات العظيم فيدياس Pheidias، تصميم اکتيونس وجري العمل وفق تصاميمه بتعاون عدد كبير من المتعهدين المحليين على أساس القطعة. ومن ضمنها الاعمال المتعلقة بالمنحوتات والأشكال. كل طاقم من النحاتين يعمل لنفسه والقطعة المنحوتة (تمثال وما اشبهه) سُقرت بستين دراخما.

انتهى بناء البارثونون في 432 ق.م. باستثناء السقف الخشبي بقي البارثونون في الاكروبوليس (بحمي) أثينا تسعة قرون سيما خلال حرب البيلوبونيس بعد الانتهاء من تحصين الاكروبوليس لعام واحد 431 ق.م وبقي البارثونون قائماً شامخاً رغم الخراب الذي أحدثته هي وما تلاها من الحروب ورغم اضمحلال مركز المدينة حوفظت قدسية الاكروبوليس لوجود البارثونون فيه عند نشوب الجرب بين المقدونيين والأغريق. وقد قام والاسكندر نفسه بتزيين واجهته.

واهمل الاكروبوليس في احيان عديدة واعتدى عليه بالسرقات خلفاء الاسكندر المتنازعين فيما بينهم، وعومل الاكروبوليس باحترام عندما ضمت اليونان الى الامبراطورية الرومانية الا ان احفاد (بركليس) غرتهم معاملة الرومان واتفقوا على حلف عسكري ضد روما مع الملك الأرمني ميثيريدات وفي 88 ق.م فحاصر جنود (سيللا) المدينة واقتحمها وأطلق عسكره يقتل وينهب ويسلب.

والظاهر من وصف پاوسنياس في القرن الثاني الميلادي ان معظم ابنية الاكروبوليس وأظهرها البارثونون - سلمت وكانت قائمة مثلما بنيت قبل ستمائة عام.

في العام 330 م أعلن الامبراطور قسطنطين المسيحية ديناً رسمياً. وفي العام 400 ميلادية أنقلب البارثونون من هيكل لأثينا الى كنيسة مسيحية للعدراء مريم (ثيودوكس) وكمل تحويل داخلها (المذبح) الى هيكل تقام فيه المراسم الدينية المسيحية مكرّسة على الطقس الارثوذكسي. وازدانت الحيطان من الداخل بصور القديسين حتى السقفوف بفن التكفيت

الرخامي (الفريسكو). وفي 1204 أقتحمت الكروبوليس غوغاء الصليبين في الحرب الصليبية الرابعة. بعد استيلائهم على القسطنطينية واقتسم الامراء والفرسان الطليان والفرنسيون الاقاليم اليونانية بينهم وكلهم عدو متحمس لمذهب الارثوذكسي. هؤلاء الرعاى لم يكونوا على اطلاع بمجد اثينا وقدسية الاكروبوليس كانوا ويعتبرون الارثوذكسية مجرد زندقة يجب انه تحارب بجميع الوسائل. فنهبوا كل ما هو ثمين في البارثونون واذابوا الأوعية المقدسة واتفقوا مكتبة الاسقفية. وأصبحت اثينا من حصنة نبيل بورغندي. وسمي الاكروبوليس باسم جديد بلغة مالكة وباسمه Château de Sathines وجعل مقراً للحاكم العسكري الفرانكي. وسيم لكاتدرائية العذراء (البارثونون) بطريك فرنسي وصادق البابا انوسنت الثالث على هذه التغييرات.

في العام 1453 دخل محمد الثاني الفاتح القسطنطينية ودانت له اثينا التي دخلها دخول الظافر، حامداً الله لأنه «رأى في حياته أم الفلاسفة» وبقي اربعة ايام يرتاد مواقعها الأثرية والتاريخية، وقال عنها «انها أعز عليه من كل مدن مملكته، وأعاد الاعتبار الى كهنة الارثوذكس والغى الطقوس اللاتينية التي عاشت فيها حوالي قرنين ونصف قرن. الأ أنه كان استثناء عن سائر السلاطين الذين عقبوه، اذ ما جاءت نهاية القرن الخامس عشر حتى تحول البارثونون الى مسجد وانتهى دور كنيسة العذراء مريم، فالأغا التركي (القائد) لحامية المدينة اتخذ مسكنه في الاكروبوليس وفي ملحقات الكنيسة بالضبط وقسمها الى دار حكومة ودار حريم وغاب الاكروبوليس في ثنايا التاريخ حتى القرن السابع عشر حيث أخذ الفضول السياح فوجهوا اهتمامهم اليه وتعاقبت الارساليات الدينية الجزويتية (في 1645، وفي 1772) وكتبت تقارير عن الزيارات وقبل انه يلحق الخراب التام بالاكروبوليس ذكر ان السفير الفرنسي في تركيا المركيزدي تواتنيل قصده بصحبة رسام فلنكي وعمل مخططاً له، وعقبه جورج ويلر الباحثة الكلاسيكي الانكليزي بصحبة رسام فرنسي بدراسة كل ما على قمة الاكروبوليس مستخدمين وصف پارسنياس.

في العام ١٦٨٧ هاجم البنادقة بقيادة فرانشسكو موروسيني الحامية التركية في الاكروبوليس بعد اجتياحهم معظم بلاد اليونان فتحصن الاتراك فيه واخترنوا بارودهم في البارثونون. وفي ٢٦ من ايلول ١٦٨٧ اسقط المهاجمون قنبرة وسط البارثونون فانفجر الباورد وأحدث تخريباً هائلاً منها سقوط الجناح الغربي بكامله، وتشويه اوجه الكثير من التماثيل لم يكن هناك اي أمل باصلاح الخراب الذي أحدثه هذا القصف لاسيما بالتماثيل ولم يكتف (موروسيني) بهذا التخريب بل حاول قلع تماثيل بوسيدون وخيول مركبة أثينا من المدخل

الغربي فسقط الجميع على الأرض وأصبحوا حطاماً لا يسوى نقلها الى مدينته شيئاً إلا انه ارضاءً لرغبته هذه قام بنقل اربعة أسود من الرخام ما زالت تزين قمة قصر الارسنال في البندقية.

وفي العام 1801 استحصل اللورد آجين سفير بريطانيا في استانبول رخصة من الترك تخوله حيازة ونقل اي قطعة رخامية من الاكروبوليس عليها كتابات ونقوش ومن ضمنها التماثيل. وترجمت هذه الاجازة على نحو واسع وبسخاءٍ عظيم واستخدم لورد آجين مئات العمال لنقل ما بقي من تماثيل البارثنون. وقد قدر عددها صدقاً أو كذباً بثمانين قطعة حملت كلها الى بريطانيا، وهناك قام المتحف البريطاني بشرائها بمبلغ 35 الف باون.

ثارت الخواطر على ما فعله لورد آجين، وهجاه والشاعر البريطاني المقلد لورد بايرون ولقبه بالسارق.

منذ حيازة اليونان استقلالها في 1827 واعلانها آثينا في 1834 عاصمة لها وهي تطالب كل جهة من الجهات التي نهبت الاكروبوليس والبانثيون باعادة ما سلبته من تماثيل وقطع أثرية. كما بدت باصلاح ما أمكن اصلاحه من هذا الأثر العظيم وهدم المسجد ورفعت البناءات التي اقامها الترك كما أعيد نصب الاساطين المتهافتة وترميم ما بقي من سور الاكروبوليس الى غير ذلك من اصلاحات ما أمكن.



نقش من عمود تراجان. يظهر مسيرة عسكرية حول خط الخيم في معسكر فرقة رومانية

حجر كريم من
عهد اغسطس.
يشاهد الجنود
الرومان (يساراً
الى الأسفل)
يرفعون نصباً
تذكاريّاً بحضر
من الامبراطور
(مجموعة
مانسيل)



سيرى القاريء فيما بعد أن القادمين يقصدون دلفي من أماكن بعيدة بهدايا وتقدمات نفيسه استرضاء للموافقة الالهية على ما يخططون وينتوون أو النصح بالابتعاد عن عمل ما ينتوون أو معرفة ما يجب عليهم عمله او ما سيحدث وهم مطلقاً يعتقدون بما تشير عليهم النبوة وفي العادة يكون الجواب اشبه باللعز يفهم باشكالٍ مختلفة ويفسر بمعانٍ عديدة، وعلى سبيل مثال: ملك يريد شنّ حربٍ على ملكٍ آخر، ما هي النتيجة؟ من سيكون الراجح؟ وتأتي الاجابة المحيرة من فم الكاهنة: «ستسقط مملكة عظيمة!». وهنا يترتب على المستخير ان يقطع اي مملكة ستسقط أمملكته أم مملكة خصمه؟

فقدت دلفي قيمتها وشهرتها بمجيء المسيحية ولم يعد لها قيمة بعد انقراض الوثنية. وبدأت (المدرسة الفرنسية) الاركيولوجية عملية التنقيب في الموقع في 1892. ومن نتائج ما توصلت اليه اكتشافها هيكل ابوللو والمذبح الذي خصص لأهالي (جنوس) وهما في أسفل الاستاديوم والمسرح وآثارهما باقية.

٢ - دلفي

هيكل استخارة

يقع في اقليم (فيوكيس) بالقرب من قرية عرفت أيضاً باسم دلفي وعلى مجنبه من جبل پارناسوس القريب من آثينا.

كانت تعتبر دلفي عند اليونان مركز الأرض ويرتبط اعتبارها كذلك من أسطورة نقول ان رئيس الآلهة (زفس) أطلق نسرين اثنين، واحدٌ من جهة الغرب وأخرى جهة الشرق على أن يكون اتجاههما نحو المركز فالتقيا في دلفي.

وقد أبدت التنقيبات التي جرت موقعياً ان الموضع كان مسكوناً منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد. على ان التاريخ الحقيقي لدلفي بدأ في القرن السادس ق.م. اذ اصبحت مركز العرافة بالمستقبل بعد التحاقها بالعصبة الامفياكتونية واهم مراكز الكشف عن حجب المستقبل والنهي أو السماح بمباشرة هذا العمل او ذاك بوساطة الكاهنات أو العرافات اللاتي يلازمه. ولم تكن (دلفي) تستشار في أمور الدولة وحدها بل في شؤون المرء الخاصة وكثيراً ما كان لنتائج عرافتها القول الفصل في السياسة وميادين النشاط الوطني.

في دلفي كان يوجد شق في الأرض ينطلق منه غازٌ يؤثر في الأعصاب ويترك المستنشق في حالة من الهذيان وتقريه من الغيبوبة. وأفترض في هذا الغاز انه انفاس الآله ابوللو.

وعند الاستخارة كان ثم كاهنة تجلس على كرسي ثلاثي الارجل موضوعة فوق الشق لتستنشق الغاز. فتروح في شبه غيبوبة يخرجها عن وعيها لكنه لا يمنعها من الكلام. وعندما يقوم القادم بسؤالها وانتظار الجواب فانها تنطق بأقوال مبهمه قد لا ترتبط بعلة القدوم اليها وتعتبر الاستخارة فاشلة اي ان الآله لا يريد ان يقطع في القضية وانما يترك التصرف بها لاصحابها أو أنها تتقول باشياء مبهمه وعندها يقوم كاهن باخبار الزائرين بما قالت.

السياسية كان يسمح للعجلات بدخوله وهو مفتوح من جميع جانب ولا أبوابٌ مقدمة في أي جزءٍ منه والدخول والخروج لا يعوقه عائق.

هذا ما تأيد من فورم (مدينة بومبي) التي أزيح عنها رماد بركان فيزوف. فضلاً عن مخططات أخرى للفورم في مدن عدة، وأظهرها (فورم روما) الذي ترى صورته الحالية أو بعبارة أخرى انقاضه الى جانب مخططات له تعطي صورة واضحة لشكله الأول ومحتوياته.

٣- الفورم Forum

بالاصل ساحة مفتوحة (ميدان) تجدها في سائر المدن الرومانية تستخدم كأماكن لقاء أو كالأغورا اليونانية اي سوقاً عاماً للتبادل التجاري. أو لتصريف الشؤون السياسية أو المقاضاة أو مجلس قضاة ويكون مستوى السطح متساوياً وبهيئة مستطيل عادة ويحاط باعمدة أو بهياكل عبادة صغيرة (باسيليكا) أو معابد أو بنايات المحاكم أو ما سواها من ابنية تشيد للاغراض العامة. وفي قوانين اللوح الاثني عشر استخدمت الكلمة بوصفها مدخلاً للقبر. وفي المعسكر الروماني يكون الفورم فضاءً لا تحيط به بنايات أو اسيجة يقام الى جانب مقر قيادة الجيش (الپريتوريوم).

عموماً يراد من الكلمة اللاتينية الساحة المفتوحة أمام باب بناية أو مخرجها.

وفي روما أشارت الكلمة الى ساحة من الأرض كانت مستنقعاً جُفف - تقع بين تليّ الكاڤيتولين والپالاتين. ويعرف للموقع أيضاً بـ(فورم رومانوم Forum Romanum). وقد خصص في العهد الملكي للاجتماعات العامة (الشعبية) عندما كان يتعذر الاجتماع من ميدان الكاڤيتولينا Area Capitolina. وقبلها كان الفورم في روما يستخدم لألعاب المصارعة وغيرها. وقد بنيت فوق الأعمدة المحيطة به مقصورات للمتفرجين.

وباتساع رقعة المدينة أقيم أكثر من فورم واحد، ويختص كلٌّ منها بناحية حياتية، فاستحدث فورم قضائي تجرى فيه مرافعات المتقاضين ويجلس قاضٍ فيها للفصل في الدعاوى ويترافع امامه المدعون أو وكلاؤهم.

واستخدم فورم خصيصاً لبيع الخضراوات، وفورم قاصر على بيوع وشراء المشية. وفي أواخر أيام الجمهورية وأوائل العهد الامبراطوري استحدث عدد من الميادين (الفورم) مثل فورم (بومبي) وفورم (تراجان) وفورم (قبساسيان) وقد خلف هؤلاء وغيرهم آثاراً لهم فيها.

في العادة يكون الفورم ذا سطح مستوٍ مرصوف وفي الأعياد العامة والاجتماعات

اهتمامنا ينصبّ في كيفية عمل الاجهزة السياسيّة في اثينا وما هو مقدار تأثيرها وعملها في الحياة، وفي عقول الاثينيين.

الجمعية العامة هي الرأس، وهي السلطة العليا. وقد جاهد الاثينيون بكل طاقاتهم للابقاء على هيمنتها وعلى سلطاتها وان رمزياً (على الورق). ولم يكن هناك أية قابلية في اثينا لجهاز أو ماكنة ادارية تتولى زمام الحكم ذات فائدة بحجم صغير. وتتألف الجمعية العامة من كل ذكر بالغ، قبله مجلس الديمي Deme (مجلس المنطقة) وأفتى بانه مؤهل وحائز الشروط المطلوبة شرعاً وانه لم يحرم شرعاً من حق التصويت بسبب ارتكابه جرماً خطيراً. والغى شرط الملكية والقدرة الملكية وأكتفى بشرط أوجب على الاثينيّ اثناء قيام حرب، أن يزود نفسه بشبكة سلاحه وجميع المعدات التي تؤهله للانخراط في الجيش وان يكون قادراً مالياً على تأمين حصانه والانفاق على علفه ان كان من صنف الخيالة.

على أن الحكومة Polis مكلفة من طرف آخر بالانفاق على مأكله عندما يكون في سلك الخدمة الفعلية. اما المواطنون ذوو الامكانيات الماليّة الجيدة فهم يخدمون في صنف المشاة الثقيلة (الهوبلتييس Hoplite) وهم يجهزون انفسهم بالسلاح. اما الفقراء الذين لا يملكون ما ينفقون به على سلاحهم فهم يبقون في الاحتياط أو يستخدمون جذافين في الاسطول. ويخدم في الجيش الغرباء كالمواطنين سواء بسواء. ولا يستخدم العبيد لا في الجيش ولا في الأسطول الا عند الضرورة القصوى، عندما يحرق بالوطن أعظم الخطر وعندها يدعى العبيد للتطوع مع وعد أو تعهد حكومي يوفى به دوماً بالعشق وحق المواطنة المدني الكامل Civil بدون حق المساهمة في العمل السياسي Politicia.

الجمعية العامة هي جلسة عامة علنية يحضرها كل المواطنين الذكور الذين لهم حق التصويت وهي السلطة الاشتراعية الوحيدة ولها سلطة الهيمنة بطرق ووسائل مختلفة في الاشراف على الادارة والقضاء.

في الإدارة: لم يعد للارويباغوس القديم المؤلف من الاراخنة السابقين ما يعمل في الأزمنة المتأخرة، غير الفصل في قضايا القتل. كان الأراخنة (ج: ارخون) في زمن ما ذوي سلطة واسعة. تختارهم الجمعية العامة سنوياً بطريق الاقتراع العلني. ان مواطن في اي عمر يمكن ان يرشح نفسه لملء كرسي واحد من الأراخنة التسعة. واناطة أمر انتخابهم بالجمعية العامة يعني بالطبع ان سلطتهم مستمدة منها وان السلطة باقية عند الجمعية. والجمعية تلتئم مرة واحدة كل شهر. الا اذا اقتضى امر طاريء عقد اجتماع غير عادي للفصل في قضية هامة.

٤- نظام الحكم الاثيني

(دولة المدينة Polis)

على ضوء اصلاحات صولون

الديمقراطية السياسية في نظام الحكم الاثيني وصلت الى أقصى نهاية منطقية لها. بطبيعة الحال هناك من ينكر على آثينا ديمقراطية نظامها لأن جميع النساء والعبيد والغرباء المقيمين فيها محرمون من حق التصويت، ولا يحق لهم في المداخلة وادارة شؤون الدولة. فآثينا ليست والحالة هذه ديمقراطية اذا عرفنا الديمقراطية بأنها نظام يقضي بمشاركة جميع البالغين من السكان وانه لا يمكن ادراج نظامها ضمن اي نوع من أنواع ديمقراطيات عصرنا هذا، باعتبار الحجم والسعة وعدد السكان حيث كان من الواجب على كل دولة حديثة اناطة الحكم بممثلين واداريين محترمين فدولة المدينة كآثينا مثلاً قد يكون بحسابنا هذا مشكلاً من اشكال الانظمة الاوليفارشيّة^(١). اما اذا عرفنا نظامها بانه مشاركة جميع المواطنين في الحكم فبالامكان اعتبار آثينا دولة ديمقراطية. علينا أيضاً ان نتذكر بان من شروط المواطنة الاغريقية ان يكون الشخص مولوداً لأبوين أغريقيين أو أب على الأقل. والدولة الاغريقية هي نضرياً أو شعورياً بالنظر الى هذا، مجموعة من الاقرباء أو مجرد أهالي منطقة أو حي معين .

على ان التحديد الدقيق للديمقراطية بالنسبة الى ما نرى اليه حالياً ليس مهمّاً^(٢). لأن

(١) Oligarchy. اللفظ التقليدي المستخدم لنعتم حكم القلة أو الصفوة المختارة عندما لا ينظر الحاكم بعين الرضا. استخدمه ارسطو لتعريف حكم الأقلية عندما لا يمارسه أفضل الاشخاص بل أظلمهم واسوأهم.
(٢) لما كان معنى كلمة ديمقراطية ينطوي على أهمية فيوسعنا أن نشرح المقصود بها في الاستعمال اليوناني، في الاحاديث العادية كلمة Demokratia تعني حرفياً «السيطرة بواسطة الشعب» اي الديمقراطية السياسية كما جئنا الى وصفها في المتن. إلا ان النظريين السياسيين لاسيما افلاطون وارسطو استخدموها لتعني «حكومة من الفقراء» وعلى هذا الاساس فقد ادانوها باعتبارها نظاماً أو شكلاً معكوساً من اشكال الاوليفارشيّة أو الديكتاتورية. أو حكم الطغيان. اي حكومة هدفها النفع الخاص وكلمة Polity والشئيء بالشئيء يذكر هي الاسم الذي لقيت به حكومة اتفق عليها الجميع دون أن تختص بطبقة.

الكلام في الاجتماع هو حق من حقوق المواطن عندما يفلح في استرعا انتباه الاعضاء للاصغاء اليه. ولكل مواطن حاضر الحق في اقتراح اي شيء ضمن قيود دستورية احترازية مرسومة.

إن جمعية كبيرة كهذه تحتاج الى مجلس أو لجنة تسمى البولي Boule أو المجلس الذي يتألف من 500 عضو غير منتخبين لكن يختارون بالقرعة. لكل قبيلة (عشيرة) من القبائل العشرة خمسون عضواً. هذا المجلس يختار كما رأينا بشكل اعتباطي ويضم أعضاء يختارون سنوياً وهم بطبيعة الحال ذوو مشارب مختلفة لا يؤمل منهم كثير من الشعور التعاضدي الموحد وهذا هو الغرض والهدف من الفكرة، لا شيء يهيمن على جو الجمعية العامة وتبقى حرة بوجه اي تغلب أو تأثير.

الاجهزة الادارية تملأ باعضاء من المجلس التحضيري (البولي). ولما لم يكن بالامكان عملاً أن يحضر أعضاء الخمسمائة في جلسات متواصلة. فكثرتهم تحول دون تكوين هيئة تنفيذية فعالة. لذلك يختار خمسون عضواً لتكوين مجلس الپريتاني Prytany من القبائل العشرة، يبقى في حالة اجتماع لعشر سنة. ويختار هذا المجلس رئيسه لكل يوم بالقرعة، اي يكون رئيساً له طوال اربع وعشرين ساعة فقط ويعتبر رئيساً تشريفياً للدولة^(٣).

لوضع حدود أخرى على تصرفات الهيئات الادارية فرض علي جميع الحكام الذين انتهت فترة خدمتهم تقديم حساب عن أعمالهم الرسمية ولا تنتهي مسؤوليتهم أو تعرضهم للاتهام حتى يقدموا هذا البيان الذي يسمى اوديت Audit. ويبقون شبه محجوزين ولا يحق لهم مغادرة اثينا او بيع اي شيء من ممتلكاتهم.

هناك دائرة واحدة لم يكن بالامكان تركها عرضة لمخاطر التصويت هي قيادة القوات البحرية أو البرية. فهذه الهيئة وتسمى ستراتيجوي Stratigoi تتألف من جنرالية أو امراء بحر عشرة ينتخبون لمدة سنة واحدة كاملة واعادة الانتخاب جائزة بل هو امر اعتيادي في الواقع. وليس بالامر الغريب عند الاثينيين ان يتولى جندي بسيط مهمة الجنرال ويتقلد رتبته في معركة، وان تراه في معركة أخرى وقد عاد جندياً بسيطاً. تلك هي الصورة الاكثر تطرفاً في المفهوم المبدئي للديمقراطية. اي «تحكم (بفتح التاء) وان تحكم (بضم التاء) بالتناوب».

إن الجنرال أو الستراتيجوي بوصفه الموظف الوحيد الذي ينتخب بسبب مؤهلاته وقابلياته الخاصة ويتولى مثل هذا المنصب الذي لايدانيه منصب في خطوته، نجده يمارس نفوذاً عظيماً وسلطة واسعة في شؤون المدينة^(٤).

ولا يقتصر سلطان الجمعية على أمور الاشتراع والادارة بل يتعداه الى امور القضاء. وكما انه لا يوجد هناك اداريون محترمون. كذلك لا يوجد قضاة محترفون ولا مدعون عامون ولا محامون، والمبدء السائد هو ان المغدور أو المدعي يتقدم بشكواه رأساً الى بني جلدته من المواطنين - الى المحاكم المحلية في المسائل الشخصية أو البسيطة والى المحاكم الاثينية في المسائل الجسيمة كالقتل والسرقة وسائر الجرائم المدنية. وتتألف للفصل فيها هيئة محلفين Juru وهيئة قضاة هي في الواقع قسم من الجمعية العامة ويختلف حجمها بين مائة عضو وعضو واحد 101 والف عضو وعضو واحد 1001 بالنظر الى أهمية القضية. وليس هناك قاضٍ وانما مجرد شخص يرأس الجلسة المخصصة لسماع المرافعة من بين هيئة المحلفين وهو بهذا الاعتبار يشبه ما يدعى بـ(فورمان Forman) في نظام هيئة المحلفين الاوربية الحالية. وكما قلنا ليس هناك ادعاء عام ولا محامون والطرفان مكلفان بالسير في مراحل الدعوى بشخصيتها وان كان بمقدور المدعي أو المتهم - كما جرت العادة ان يسمح لهما باستخدام خطيب (كاتب خطب) يعد للمتهم دفاعه على شكل خطبة يجب ان يلقيها هو بنفسه ولا حق له بانابة آخر الالقاء عنها. كذلك الأمر بادعاء المدعي.

تلك هي هيئة المحلفين الشعبية وكيفية تأليفها ومدى صلاحيتها هي الفصل في الوقائع وفي تطبيق القانون وليس هناك محكمة أعلى منها وليس هناك استئناف وان لم يكن يوجد عقوبة محددة في القانون للجرائم، ولذلك ففيما ان هيئة المحلفين عن فرض اي نوع من العقوبة يكون على المدعي الذي فاز في دعواه ان يقترح اولاً العقوبة التي يريدتها ويعدها يقدم المحكوم اقتراحاً خصوصياً كبديل لاقتراح المدعي. ثم يترك الاختيار للهيئة القضائية بين الاقتراحين^(٥).

من كل ما جئنا الى شرحه. يستنتج القاري ان شؤون الدولة في اثينا يديرها هوأة، وان

(٤) من خلال هذا المنصب ومركزه في الجمعية العامة استطاع بيركليس مثلاً أن يقود الاثينيين مدة طويلة.
(٥) هذا ما يفسر الاجراءات القضائية في محاكمة سقراط (٤٧٠-٣٩٩ ق.م) التي وردت في كتاب افلاطون (ابولوجيا: الدفاع) (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) طلب المدعون فرض عقوبة الموت. الا ان سقراط اقترح تغريمه فحسب مينا واحدة لانه لا يملك أكثر من هذا واصر على ذلك فاثار موجة من السخرية والتندر. في حين لو انه اقترح النفي فقد كان يسر ذلك هيئة المحلفين وتقبل به بكل سرور.

(٣) اتفق ان تقلد سقراط الفيلسوف هذا المنصب يوماً واحداً عندما أشرفت حرب الپلوبيونيز على النهاية ودب الانقسام في الجمعية كما يحصل في بعض الأحيان. وطلبت الجمعية من دون اي علة أو مبرر قانوني اصدار وثيقة اتهام بكل مجلس الجنرالية لفشلهم في انقاذ الناجين من المعركة البحرية (اركينوساي). إلا ان سقراط تحدى الغوغاء ورفض انه يوضع الاقتراح في التصويت.

ذو الاحتراف لا يعطى لهم فسحة للعمل أو مجال لممارسة مهاراتهم الا الاقل منهم. القليل والواقع ان الخبير فيهم هو عادة (عبد شعبي) وكل آثيني التبعية أما جندي أو بحار أو مشترع أو قاضٍ أو عضو ادارة إن لم يكن (ارخوناً) وهو حتماً عضواً في (البولي) وقد انتقد افلاطون وسقراط هذا النظام لا لانه غير فعال بل لأنه اودع الأمور بيد جهلة جهلاً تماماً بمزاولة (فن السياسة) لتحسين أحوال الناس.



الكتاب «الاول بين الأقران Primus inter pares». لكن ختمه كان يساند مائة وأربعين سيفاً من جنود فرقته واول ما عمله من اصلاح هو انقاص عدد الفرق الرومانية (والجنود هم مواطنون رومان) فأصبح قوام الجيش الروماني حوالي ٢٨ فرقة بعد ان كان ٥٠ وملاك الفرقة خمسة آلاف ضابط وجندي مقسمة الى خمسين سرية على رأس كل أمر سرية (سنتوريون) وأنيط بكل فرقة واجب محدد لاتتعداه وألغى الجيش الاحتياطي القادر على الاخلال بتوازن السلطة.

والى جانب الفرق الرومانية كان هناك قطعات عسكرية نظامية من الشعوب الأخرى التابعة، نظمت بشكل ألوية (ج لواء Cohert) تعداد الواحد منها يبلغ ألفاً من الجنود والضباط وانيط بهذه الوحدات واجبات الدوريات والمحافظة على الأمن في الحدود، ومساندة الفرق الرومانية حيثما تمّ حشدها في النقاط الاستراتيجية.

ويهيء الجيش له مخيماً (قلعة)، وهي قاعدة أو مقرّ منتظم له حين يخرج للقتال في ارض العدو، وهذه تكون بمثابة مقرات شتوية. يجرى فيها النظام الصارم ويطبق تدريب متواصل وتكون الوحدات في درجة انذار قصوى على الدوام. قانون انضباط حازم شديد خضع له الجنود والضباط معاً ولم يستثن منه أحد. وعندما يكمل جنود الاحتياط هؤلاء مدة خدمتهم بجدارة فانهم يمنحون صفة المواطن الروماني.

وكما بيّننا آنفاً ينسحب ولاء الجندي أيضاً الى الآلهة الرئيسة عند الشعب الروماني بالدرجة الاولى فضلاً عن ولائهم للامبراطور رئيس دولة وقائد عام للجيش معاً.

كان يفرض على العسكري قبل عهد (اغسطس) قسم يمين الولاء لقيادة الميدان. وهو عمل فيه من الخطر ما فيه وكثيراً ما ادى الى حرب أهلية. اما الآن فليس هناك غير قائد واحد وله تقسم اليمين وهو كبير الآلهة (جوبيتر او بتيمسوس ماكسموس) وهو الذي يتقدم الكل ويرمحه الذي يرسل الصواعق يحمي الدولة، وقواه الطاغية في التدمير مصورة على دروع ومجنات وتروس الجنود، وطيره الجارح النسّر تراه يرتفع على قطب كالرأية امام الجنود مصنوعاً من الفضة. والنزول عن هذه الراية او فقدانها يصم بالعار الاكبر حامله ويصيب الوحدة بهزيمة مخجلة لا منجى منها.

سنوياً وفي اليوم الأول من شهر كانون الثاني. يقام استعراض عسكري بكل شكة الحرب والسلاح امام كل مخيم (قلعة) يعلن فيه تجدد الولاء لجوبيتر وتوقد له نار جديدة. ويتم لهذا الغرض تمهيد ساحة بمساحة ١٠٠ ياردة مربعة لتقام عليها منصة القائد لتلقى تحية القطعات وهي تمرّ به اثناء الاستعراض ويبنى فيها مذبح لجوبيتر Tribunal وقد اكتشف هذا في مواطن

ملحق

الجيش الروماني

النظام - التركيب - الاستحكام - العقيدة - النبوءات

الجندي الروماني أينما كان موجوداً ضمن تخوم الامبراطورية الواسعة الأرجاء يحض ولاءه وإخلاصه المباشر والمطلق للدولة وللإمبراطور والى آلهة روما الوطنية. ودين الجيش ينسرب بدقة وحذق الى هذه المثل الموحدة فالجندي الروماني على هذا الأساس له ان يزعم بانه مشارك فعّال في مصائر روما ويستمد رضى النفس والراحة الفكرية من الاعتقاد بأنه انما ينجز واجباً مقدساً عن طريق هذه المشاركة. والتقوى على هذا الاساس تعد فعلاً من الفضائل عند العسكري كالشجاعة والحذاقة في استخدام السلاح وآلات الحرب. ولذلك كان الدين عاملاً هاماً في نجاح الماكنة الحربية الرومانية عبر العصور مثلما أمن للجيش الروماني عامل التفوق في التنظيم والضبط والتسليح والتاكتيك فمنذ أوائل العهد الجمهوري وجد الرومان في الدين رابطة وثيقة بين انفسهم وبين الآلهة من اعتقادهم بأن السلطة المطلقة الرومانية تنبثق من هذه الآلهة وهي التي تحميها. فالموضوع والحالة هذه وفي كل حين هو أمر في غاية من الاهمية. وليس هناك ما هو أكثر ظهوراً من المنجزات العسكرية وهي سرّ بقاء الامبراطورية ومصدر امنها.

ان الاصلاحات التي احدثتها الامبراطورية الاوغسطية (نسبة الى اغسطس قيصر) الى جانب اشاعتها النظام المبدئي في التطبيق، لم تستغن عن الكثير من التقاليد العسكرية الرومانية ولم تعتمد الى خلخلة احكامها. وقد استغل اغسطس قيصر مركزه بوصفه الفرد المنتصر في الحكم الثلاثي (راجع سيرة يوليوس قيصر). استغل مركزه هذا ليغدو «المواطن القائد Princeps» والامبراطور (القائد الاعلى للجيش Imperator) معاً وهو جمع في غاية الذكاء لسلطة واحدة دون لقب أو صفة (ملك) فبوصفه پرنسيپس، كان كما وصفه احد

عديدة اوروبية. فتكريم الامبراطور الحاكم وتأليهه هما القاعدة التي لا يحاد عنها في كل معسكر روماني وهناك مذبح مكرس «لروح سيدنا الامبراطور» ويبنى بمواجهة العدو، ويحتفظ فيه بالراية والاعوية الدينية التقليدية وغير ذلك من ادوات المراسيم والاشياء والغنائم الثمينة ورواتب الجنود. ودوائر الادارة وأماكن حفظ السجلات تحتلها حجرات مساعد القائد وموظفيه ومعاونيه وتدعى كورنيكيولاريس Cornicularis وأما مقر القائد المركزي فيبنى له او ينصب له خيمة أخرى ويدعى پريتوريوم Praetorium. وفيها يجتمع اليه مجلس الحرب ورؤساء الاركان والضباط للتخطيط للحملة او المعركة المقبلة اذ كان يجب على القائد اضافة الى استشارة ضباطه والاستماع الى رايه، ان تجرى عملية الاستخارة أو النبوءة وتسمع من فم (عراف) بعد تقديم اضحية (قربان) للاله. وتتم بأساليب عدة، ومن بينها فحص احشاء الاضحية، او مراقبة السارح والبارح من الطير، او في غرابية مشية الدجاج، او بظهور حيوان من جهة ما بشكل غير متوقع، او بعلامات مخصوصة في الرعود والبروق. وتحت اي ظروف خاصة اي حدث قد يفسره (العارفة) بالشكل الذي يتراءى له، ومهنة العرافة عند الرومان هي هبة آلهية خص بها اناساً معينين دون غيرهم. لكن كان هناك فترات تعليم لمعهد دراسة العرافة يسبق مزاولتها.

مراسيم تقديم الاضحية هي بحد ذاتها مصدر عون شديد القوى للعرافة. لكن الغرض الاساس منها هو تطهير وإعداد أولئك الذين سيشاركون في الحرب. والتقدمة العظمى هي ان يضحي بخنزير وكبش وثور تقدم نيابة عن الدولة.

هذه المراسيم لايد منها عند انطلاقة الجيش الروماني الى مغامرة او فتح عسكريين. وعندما تأتي نبوءة العراف مبشرة بالنجاح ومشجعة على الانطلاق تقوي النبوءة تأليه اصحاب الولاة بتقديم القرابين وستكون النتيجة النجاح بدون شك.

وفي حالة الاستيلاء على ارض جديدة، او استعادة أقاليم فقدتها روما يقام نصب تذكاري للمعركة التي خاضها الجيش في هذا السبيل. وهي من جملة التقاليد العسكرية الرومانية وقد نقلوه عن الأغريق. ويتخذ النصب التذكاري على شكل كدس من الاسلحة والدروع والتروس وشكة الحرب وغيرها من آلات الحرب المنتزعة من جثث قتلى العدو في عين الميدان الذي جرت فيه المعركة وتحققت هزيمة العدو في العادة كانت هذه العدد الحربية تكدس قطعته فوق قطعة كييفا اتفق وبدون ترتيب لتمثل العدو المنهزم وتكدس عادةً عند قاعدة صليب خشبي يعلوه سيف وخوذة وتروس أو سلاح آخر. وكثيراً ما ينقش وصف للمعركة اذا كانت القاعدة مبنية بالحجر، او انها تنقش فوق المسكوكات والعملات. لاتزال آثار وخرائب لبقايا هذه الانصاب

قائمة. عرف منها النصب التذكاري الشهير الرابع في (لا تربى) بمقاطعة (موناكو) بمقابل الجانب البحري وكان قد اقيم في ١٦ ميلادية تذكراً لاختضاعه ٤٦ قبيلة أليبيّة. وهناك ايضاً نصب الامبراطور التذكاري في رومانيا تخليداً لارواح ثلاثة آلاف جندي روماني فقدوا حياتهم.

ويعبد الجيش الروماني آلهة مختلفة متعددة الجنسيات تبعاً لتقاليدهم الدينية ويعبدون الارواح والاطيف والاشباح، وتبدو العبادة بتقديم صفوف معينة من الهدايا والقرابين والاضاحي. ويأتي الأول في التصنيف بطبيعة الحال دين الدولة الرسمي. وعبادة آلهتها الوطنية ويأتي اثر ذلك تقديس الامبراطور، وهو فرض واجب على كل روماني أو غير روماني خاضع للحكم الروماني^(١).

وتقام حفلات دينية عديدة بصورة منتظمة وليس من المفروض فيها أن تكون رزينة ويحف بها الاجلال والوقار، بل كانت بالاصل بهدف الترفيه ولكن بصورة مهذبة وبجلال ديني وكان يتخللها في العادة ألعاب وتمثيل، وهي طابع المناسبات الرومانية منذ القدم فقد اقيمت بالاصل للترفيه والتسلية.

ويطول الحديث بنا عن الديانات غير الرسمية التي كان الجنود يزاولونها ويعتقدونها ومقدار قيمتها عندهم وانتشارها بينهم ففي زمن ما ولنقل القرنين الاول والثاني الميلاديين كانت عبادة الاله (ميثرا) الفارس معروفة جداً ومتفشية في الجيش الروماني يقيمون لها المناسبات كما يقيمون للآلهة الوطنية، وهياكل هذه الآلهة غير الوطنية كانت عادة تقام خارج المعسكر وبالقرب منه.

(١) في بلدة (الدورة) التي تقع على نهر الفرات. عثرت بعثة آثار من جامعة بيل على كدس كبير من وثائق البردي تعود الى مقر دائرة سجلات اللواء الپالميري (التدمري) الذي كان يعسكر هناك وقد وجد في أحد الاوراق التي لم يعثرها تلف كبير قائمة بالاعباد الدينية فضلاً عن مناسبات الاعياد الرومانية. وكان فيها عدد من الآلهة الشرقية. وقد وجدت البعثة ان الايدي عدلت فيها وشطبّت وأضافت. وفي الواقع كانت الصحيفة بمثابة تقويم عسكري، ويستشف منها ايضاً ان نوعاً من احتفال كان يجري كل اسبوع تقريباً. إما بتقديم قربان الى آلهة وطنية او اقامة حفل تكريم لعضو من بيت الامبراطور ذكراً أكان أم أنثى.

صولون
SOLON

640-558

كما نتبين من أحد قوانينه الذي حظر على العبيد^(٣) المشاركة في الألعاب الرياضية ودهن أجسامهم بالزيت. أو أن يعلقوا بحبّ شاب. وبهذا جعل مثل هذه العلاقة وغيرها في مرتبة الشرف، وموضع الثناء. مقبولة من الوجهاء ومحرمة على الوضعاء.

وقيل أن [پسسِتراتوس] كان متيماً بالمدعو [خارموس Charmus] وهو الشخص الذي أوقف له تمثال الحبّ في «الأكاديمي» بالقرب من الموضع الذي كان العداءون في سباق الشعلة المقدسة يشعلون منه مشاعلهم^(٤). وكتب [هرميپوس] يقول:

ضيّع والد صولون ثروته^(٥) في التصدق والإحسان الى الآخرين وكان لديه اصدقاء كثيرون يرغبون في انقاذه من ضيقه إلا انه كان يخجل من أن يكون مدينياً بفضل، لأنه منحدر من أسرة اعتادت عمل الخير فلا تقبله. ولذلك انصرف صولون الى التجارة في شبابه، وان كانت طائفة من الكتاب تؤكّد لنا أن انصرافه الى الأسفار لم يكن للربح وحده، بل في طلب العلم والخبر. ومن المؤكّد انه كان محبباً للمعرفة. إذ لما بلغ من العمر عتياً نراه يقول عن نفسه بصيغة الغائب:

«كل يوم أزداد عمراً، وأتعلم شيئاً جديداً».

وهو ليس من المولعين بالغنّى، ولذلك يستوي عنده، الرجل...

«الذي تحتوي يده الفضة والذهب واحمال القمح ويملك الخيل والبغال، واقطاعات واسعة من الأراضي، مع ذلك الذي لا يملك إلا خبز يومه والثياب التي تكسو ظهره والحذاء الذي ينتعله^(٦) وزوجاً شابّة وولداً وامرأة شابّة وولداً وعدداً من السنين يقضونها معاً فكلاهما في عرفه.

(٣) أفريپيدس الباكاى ٨.

(٤) يقام سباق المشاعل ثلاث مرات في السنة ويتم في الپاناثينياى إكراماً لـ(منيرفا) و(پروميثيوس) كل في عيده. ويتم احيائها بالشكل التالي: ينير المتبارون مشاعلهم من مذبح (پروميثيوس) في السيراميكوس ويبدأون بالعدو بأسرع ما يمكن متجهين الى المدينة ومن يتنطفيء مشعلة اثناء ذلك، يخرج من الحلبة ومن يسبق الى الهدف يعلن فائزاً في المباراة [پاوسنياس ١: ٣٠].

(٥) يضع ارسطو (صولون) في مرتبة الفقراء من مواطني آثينا. ويتخذ من آثاره الدلائل على ذلك. في الواقع لم يكن صولون غنياً. ففي شبابه كان انصرافه الى الشعر يستغرق معظم اهتمامه. ويقول افلاطون في رسالته (تيميون) «لو أن صولون أكمل كل قصائده (لاسيما ملحمة في تاريخ جزيرة الاطلانتيد التي جلبها معه من مصر) ولو خصص وقتاً لتنقيح واصلاح تلك الملحمة كما فعل غيره. لظهر وهو أشهر وأشعر وأبعد صيتاً من هوميروس وهسيود وكل شعراء الأقدمين. وواضح من سيرة حياته وكتاباتاته انه يتخلق باسمى الفضائل وأطيب مزاج واحبّ الطباع.»

(٦) هذه المقطوعة والتي هي من المنسوبات الى ثيوغنس.

ذكر [ديديموس Didymus]^(١) النحوي، في جوابه على رسالة [أسقلپيادس Asclepiades] حول ألواح شريعة صولون، فقرةً أوردتها المدعو [فيلوكليس Philocles] تشير الى أن اسم والد صولون هو [يوفوريون Euphorion] خلافاً لرأي جميع الآخرين الذين كتبوا عنه، فهم يتفقون بصورة عامة على أنه ابن [إكسيقسستيدس Execestides] وهو رجل متوسط الثروة والنفوذ في المدينة، الا انه سليل اسرة من أعرق الأسر فهو منحدر من صلب [قندروس Codrus] وأمّه كما يؤكّد [هيراقليدس پونتتيكوس] هي بنت عمّ أم [پستراتوس] وكانت الوالدتان صديقتين حميمتين في مبدأ الأمر، لأنهما قريبتان من جهة، وبسبب نبل سجايا [پسسِتراتوس] وجماله الرائع من جهة أخرى^(٢). ويقولون ان صولون أحبه أولاً. وأعتقد ان هذا هو السبب في عدم وصول عدواتهما، بعدما اختلفا حول الحكم - الى حدود العنف والحقد بالعكس فإن ودادهما السالف ظل يقيم في قلبيهما. ليبقى ذكرى مودتهما العزيزة حية:

إن جمرات صاعقة زفس الملتهبة ظلّت متوهجة.

كما صورها يورپيدس. وفي قصائد صولون أيضاً نجد شواهد على أنه لم يكن قادراً على مقاومة الجمال، ولا تحديّ الحبّ.

بواجهته مثل ملاكم في الحلبة

(١) ديديموس الاسكندري من مدرسة ارسطوخوس، ومعاصر لاغسطس. وقال عن بعض الكتاب ان تعقيباته ولاسيما على خطباء الاغريق وشعرائهم بلغت أربعة آلاف!

(٢) كان پسسِتراتوس رجلاً كريماً محبوباً في منتهى الرقة واللطف. وكان يلازمه ابداً أو ثلاثة يحملون حقائب مفعمه بالنقود الفضية فاذا ما وجد علائم مرض على شخص ما أو سمع بأن أحداً ما توفي فقيراً، بادر الى معالجة الأول على نفقته وتكفل بمصاريف تشييع الثاني ودفنه. واذا وجد مغموماً حزيناً تحرى عن السبب فان كان الفقر، بادر الى ستر الخلة لكن لا بالشكل الذي يسلمهم الى الكسل والتواكل، وفتح ابواب بساينه ومزارعه للمواطنين يقطعون ويجنون من ثمارها ما شاؤا. كان وسيماً بهي الطلعة هاش الوجه باشاً، رفيق اللسان متواضع الجانب. ويمختصر القول كانت فضائله حقيقية خالصة لا متعمّله. أو مقصودة أو مشوبه باغراض الهيمنة والاستبداد بحكم آثينا، ولو لم يكن كذلك لعد أفضل مواطن في آثينا على حدّ قول (صولون) نفسه. مدحه [هيراودوتس] كثيراً لحسن ادارته واثنى عليه [شيشرون: في الخطب ٣: ٣٤] وأشاد ببلاغته وفصاحته.

وكتب أيضاً في مكان وفي موضع آخر: لا ضير في أن أكون غنياً، لكنني لأريد الغنى ان جاء بوسيلة غير لائقة. العدل حق وان كان بطيئاً^(*).

من الممكن جداً أن يظهر الرجل الصالح أو السياسي بعض اهتمام بالحاجات الضرورية دون أن يُعتبر مهتماً بالصغائر والتوافه. وفي عصر [صولون] «لم يكن العمل مَعْرَةً لأحد» كما قال [هسيود]^(**) ولم تكن المحنة سبباً للتفرقة والامتنياز، وكانت التجارة حرفة نبيلة فهي التي تأتي الى البلاد بالحاجات اللطيفة التي يستمتع بها البرابرة. وكانت واسطةً للتصرف بملوكهم ومصدرراً لا ينضب معينه للتجارب والخير. وقد بنى بعض التجار مدناً كبيرة امثال [پروتيس Protis] مؤسس مدينة [ماسيليا] التي تعلق بها الغاليون أشد التعلق، وهي قريبة من نهر «الرون». وهناك أخبار تفيد أن [طاليس]^(٨) و[هيپوقراطيس] الحاسب كانا يزاويان التجارة. وافلاطون نفسه كان يسدّ نفقات رحلاته من بيع الزيت في مصر^(٩).

وعزيت رقة صولون واسرافه وأسلوبه الشعبي، لا الفلسفي، في تصويره اللذات والمسرات باشعاره الى حياة التجارة فقد ركب الآف الأخطار، وكان من الطبيعي أن تعوض ببعض المتع والمسرات. اما انه يعد نفسه أميل الى الفقر منه الى الغني، فهو واضح من أبياته التالية:

كثيراً ما ينعم الاشرار بالغني في حين يجوع الخيرون

مع هذا فإني لن ابدل حالي بحالهم

وفضيلتي بذهبهم. لأن ما املكه يدوم

في حين يبدل الغنى مالكيه يومياً

الفضيلة شيء لا يستطيع ان سلبه أحد

في حين ترى الغنى يبدل اصحابه

(*) المقطع ١٣.

(**) الاعمال والأيام ٣١١.

(٧) ربما كان هذا الذي ذكره (جوستين) قائلاً انه واحد من أبرز المهاجرين الذين هربوا من (فوكسين) تخلصاً من سلطان الفرس وبنى مدينة مارسيليا والى الاسم عينه يعزو ارسطو تلك المستوطنة أيضاً. (اثنياغورس ٥:١٣).

(٨) العمل الذي عزي ثم طاليعي - اي التجارة هو على الغالب ما قصده ديوجينيس لايريتوس عند تدوينه سيره حياته (٢٦:١) فقد قال من أجل أن يبرهن على سهولة جمع المال والغنى. وبادراكه ببعده نظره وبصيرته أن المحصول من الزيتون سيكون كثيراً، فاتباعه قبل نزوجه وبيع عظيم من الصفقة.

(٩) بيع زيتون اليونان وبلاد اليهودية في مصر كان من الأمور وهو محصول أتياكا الوحيد. ولوفرته سمح صولون بتصديره.

ويبدو انه قرض الشعر، ولم يكن يرمي من ذلك بالأول الى هدف بل كان يعالجه للتسليية وتمضية الوقت ثم راح يضمّن المبادئ الفلسفية في قصائده ويشيع فيها كثيراً من التعاليم السياسية. ولم يكن قصده تسجيلها ونشرها، بل لتبرير أعماله. كما كانت أحياناً تهدف الى استنهاض هم الآثينيين وحثهم أو تأنيبهم وتوبيخهم، وزعم بعضهم انه حاول صياغة قوانينه في قالب شعر حماسي قبل سنّها. وقد التحفونا بالمقدمة الشعرية:

ألا فلنتقدم بالصلاة الى زفس ابن كرونوس الملكي. ليمنح هذه الشرائع، شرايعي النجاح والشهرة^(*)

وفي مجال الفلسفة اهتم أساساً بالناحية السياسية من الاخلاق شأنه في ذلك شأن معظم الحكماء. اما في العلوم الطبيعية فهو يكشف عن قصور ومعلومات بسيطة عتيقة كما يبدو من هذه الأبيات:

الغمام هو الذي يدفع بالثلج والمطر

والرعد لا يلبث أن يصدر من البرق الخاطف

والبحر يصطخب موجه عند هبوب الريح

لكنه لطيف سمح عندما يُترك وشأنه.

وعلى أغلب الاحتمالات أن طاليس في ذلك العهد، هو الذي ارتفع بالفلسفة من مجرد ممارسة، الى درجة الامتهان والاحتراف. وبقية الحكماء إنما سمّوا فلاسفةً لتضلعهم في المسائل السياسية.

ولقد قيل أنهم عقدوا اجتماعين في دلفي ثم في كورنث. بمسعى من [پرياندر] الذي قام بتهيئة الاجتماع مع مأدبة العشاء. إلا أن مكانتهم ارتفعت أساساً عندما أرسلت اليهم جميعاً الطلبة ذات القوائم الثلاثة، فراح أحدهم يدفع بها الى الآخر تواضعاً وإيثاراً، وأبى واحدهم تفضيل نفسه على صاحبه، بمنتهى الطيبة وحسن النية. والحكاية تروى على النحو الآتي:

كان بعض [الكوان Coan] يصطادون السمك بالشبّاك. فأشترى بعض الأجانب [الميليسين] مقدماً كل ما تخرجه رمية الشبكة في البحر فألقى بها الصيادون فخرجت بهذه الطلبة الذهبية التي قيل أن [هيلين] القتها في هذا الموضع عن عودتها من [طروادة] لما

(*) ما وصل من شعر صولون جمع في كتيب لـ Bergre باسم الشعر الغنائي الأغرقي Paetae Lyrid Gra- .cii

تذكرت بنوة قديمة. وراح هؤلاء الغرباء ينازعون الصيادين على الطبلية. وسرى الخصام الى المدن حتى كاد يؤدي الى حرب. ثم فصل [ابوللو] في النزاع بأن حكم أن تُهدى اللقطة الى اوفر الناس حكمة. فأرسلت أولاً الى [طاليس] في مدينة [ميليطس]. وقد نزل له [الكوان] عنها بكل سخاء وهي التي كادت تؤدي بهم الى قتال [الميليسيين] جميعاً. إلا أن [طاليس] ابى قبولها قائلاً أن [بياس Bias] أوفر الناس حكمةً، فأرسلت اليه ومنه ارسلت الى آخر وهكذا دارت عليهم كرةً أخرى حتى طاليس، وبعد انتقالها من [ميليطس] الى [ثيبه] أوقفت على [ابوللوارسيمينين]^(١٠). ويكتب [ثيوفراستس] انها عرضت على [بياس] أولاً في مدينة [پريان Priene] ثم الى [طاليس] في [ميليطس] ودارت على الجميع لتعود من جديد الى [بياس]، ثم ارسلت الى دلفي. تلك هي تفاصيل الحكاية عموماً. خلا أن بعضهم يقول ان الهدية لم تكن طبلية ذهبية ذات قوائم ثلاثة، بل هي كأس بعث بها [كروسوس Cruesus]. وقال آخرون بل هي صفيحة تركها [باثيكلس Bathycles].

وروي أن كلاً من [اناخارسييس Anacharsis]^(١١) [صولون]، وكلاً من [صولون و طاليس] كانوا عشراء واصدقاء. ونقل بعضهم اجزاء من احاديثهم وزعموا أن [اناخارسييس] قدم الى آثينا لرؤية صولون فطرق بابه وقال له انه غريب عن البلد قصده ضيفاً، يريد صداقته. فأجابه صولون اليس من الأفضل له ان يبحث عن الأصدقاء في موطنه؟ فأجاب [اناخارسييس]:

– اذن فأنشيء صداقة معي أنت الذي تقيم في موطنك!

فأعجب صولون بحضور بديهة الطارق وذكائه، ورحب به في بيته وابقاه معه رداً من الزمن. وكان في ذلك الحين قد انصرف الى الشؤون العامة وقطع شوطاً في تهيئة قوانينه. ولما

(١٠) مشتقة من اسم هيكل مكرس لذلك الآله ويقع على ضفاف نهر اسيمينوس الذي يجري بالقرب من ثيبه. اما عن حكماء الأغرقيق السبعة. فالجمع عليهم بصورة عامة هم باياس Bias السيريني. وخيلون السيارطي Chilon، وكليوبولوس Cgeobulus اللندوسي، وپرياندر Periander الكورنثي، وبيتاكوس Pit-tacus الميتيليني، وصولون Solon الأثيني، وطاليس Thales المليطي.

(١١) عُرف الصيحيون قبل صولون بزمن بعيد بالزهد والعفة ومكارم الاخلاق والعدالة. واناخارسييس هو منهم، أمير من أمرائهم. نزح الى اثينا في حدود الأولياد السابع والاربعين (٥٩٠ ق.م) وأهله عقله الراجح وسعه مداركه وكثرة تجاربه الى ان يعده بعضهم من ضمن الحكماء السبعة. إلا أن أحكم الحكماء لاينجو من الشذوذ. ولهم كغيرهم من البشر هفواتهم وسقطاتهم. وقد كان الأمر مع [اناخارسييس] كذلك ان حمل معه طقوس (كيبيله) الأغرقيية خلافاً لشرائع بلاده وظل يمارسها بصورة سرية فاتفق ان واحداً من بني قومه أطلع على سر فوشى به الى أخيه الملك الذي أسرع اليه ليصرعه بسهم مسدّد الى قلبه (هيروودوتس ٧٦:٤).

علم [اناخارسييس] بما يفعل ضحك منه واستغرب محاولة تنظيم حياة بني قومه بقوانين مسطورة، وتوسله بها الى ازالة الطمع والغش وقال له ان الشرائع اشبه بنسيج العنكبوت لا يقع في خيوطها الا الفقير والضعيف، في حين يسهل على الغني والقوي قطعها فأجابه صولون قائلاً: «إن الناس يظنون خاضعين للقوانين مادامت لا تستفيد ايه جهة من خرقها، وانه بنى قوانينه لمواطنيه على هذه الفكرة والأسس ونظمها بحيث يدرك الجميع ان من الخير لهم ان يكونوا منصفين عدولاً متمسكين بالقانون لا ان يخرقوه. إلا ان الوقائع اثبتت أن [اناخارسييس] كان اصوب من صولون ونظرته أحق من آمال ذلك. ويؤثر عن [اناخارسييس] عندما كان عضواً في الجمعية العامة انه أظهر عجبه من أن الحكماء في اليونان يتكلمون فحسب، بينما الحمقى هم الذين يتخذون القرارات.

قالوا ان [صولون] رحل لرؤية [طاليس] في [ميليطس] وابدى عجبه من بقائه عازباً لم يتخذ زوجة ولم ينجب أولاداً فلم يجبه طاليس عن سبب عزوبته حالاً، لكنه أوصى بعد ايام أحد الغرباء بأن يقول أنه غادر آثينا قبل عشرة أيام. فأخذ صولون يسأل عما وقع هناك من حوادث. فأجاب الرجل مطبقاً التعليمات التي أوصاه بها طاليس: «لا شيء يذكر، خلا تشييع جنازة شاب، شاركت فيه مدينة كلها لأن الميت كان كما قالوا ابن رجل محترم، بل أكرم أهل المدينة خلقاً ولم يكن في المدينة عندما توفي ابنه فقد مضى عليه زمن طويل في الأسفار» فأجاب صولون: يا لشقاء هذا الرجل! ولكن ما اسمه؟» فقال الرجل: «لقد سمعته لكنني نسيتته الآن، وكل ما اذكر هو الكلام الكثير عن حكمته وعدله» وهكذا كان صولون يُدفع الى الشك بكل سؤال وزادت مخاوفه، وأخيراً استبد به القلق، وذكر للغريب اسمه وسأله هل أن الشباب الميت يدعى ابن صولون؟ فأوماً بالايجاب طفق صولون يلطم رأسه ويأتي بحركات وأقوال تنم عن كرب عظيم^(١٢). وهنا أسرع اليه طاليس وأمسك بيده وقال له مبتسماً: «هذه الأشياء يا صولون هي التي ابعدتني عن الزواج وانجاب أولاد. فهي صعبة شديدة حتى بالنسبة الى شخصك، ولكن لا تقلق، فالنبا مختلف من أساسه». هذه الرواية نقلها [هرميبوس] عن [پاتيكوس Pataecus] الذي يتباهى بأن له روح [ايسوب Aesop].

ومهما يكن من أمر، فانه مما لا ينسجم مع العقل السوي، ولا مع الروح القويّة أن نتجافى

(١٢) الأمر سواء أكان في هذه المناسبة أو غيرها أي عند وفاة ابن له فقد كان جواب (صولون) انسانياً ومعقولاً للغاية عندما طلب منه أن يكفكف دمه لأن البكاء غير مجد فقال «ولهذا فأنا أبكي!» اي لأنني لأرى فيه جدوى. وبهذا يقول الشاعر العربي اللسان اليوناني الأصل ابن الرومي مخاطباً عينيه عندما فجع بوفاة ابن له
بكاؤ كما يشفي وإن كان لا يجدي
فجودا فقد أوري نظيركما عندي.

وأشعاري التي انشدها الآن هي بدلاً من الخطبة^(١٤)

ويطلق على القصيدة اسم «سلاميس». وتتألف من مائة مصراع وهي رائعة الأسلوب. وقد أثنى عليها اصدقاؤه. ولاسيما [بستراتوس] الذي حث الناس على العمل بالوصايا التي نضمتها. وبلغ الأمر أن ألغى القانون واستونفت الحرب تحت قيادة صولون. على إن الرواية الشائعة، تروى على الصورة الآتية: ابحر صولون مع [بستراتوس] الى كولياس Colias فوجد النساء هناك يضحين الى [سيرس] جرياً على عادة أهل البلاد فأرسل الى سلاميس صديقاً يثق به، ليظهر بمظهر الخائن أمامهم ويقدم اليهم معلومات كاذبة وينصحهم أن يرافقه حالاً الى [كولياس] اذا ارادوا الفوز ببعض النسوة الاثينيات فأسرع الميغاريون بأرسال رجال معه في سفينة وشاهدها صولون تغلق من الجزيرة. فأمر النسوة أن ينصرفن ودفع بعدد من الشباب المُرد اللابسين ثياب النساء ونعالهن وأعطية رؤوسهن، وقد تسلحوا بالخناجر. الى الرقص واللعب بالقرب من الساحل حتى ينزل العدو من السفينة ويغدو تحت رحمتهم، وأنظلت الخدعة على الميغاريين وغرهم مظهر الشبان المرء فتقدموا من الساحل ونزلوا والرغبة تراود كل واحد في أن يكون أول الفائزين بالغنيمة فلم ينج منهم أحدٌ وأعتلى الاثينيون ظهر السفينة وتوجهوا الى الجزيرة وأحتلوها.

ويقول آخرون انهم لم يحتلوها على هذه الشاكلة. بل أن صولون استنزل أولاً هذه النبوءة من دلفي:

أولئك الأبطال الذين يشون في [اسوپيا Asopia] الجميلة كلهم دفنوا وواجههم متجهة نحو الشمس الغارية الآ فأذهب وأدخل السكنية اليهم بأفضل القرابين.

ثم أبحر نحو الجزيرة ليلاً، وضحى للبطلين [بيريفيموس Periphemus] وكيخوريوس Cych-reus^(١٥)، ثم أخذ معه خمسمائة متطوع من الآثينيين (كان قد صدر قانون جديد يمنح أولئك الذين يستولون على الجزيرة ارفع المناصب في الحكومة وأخذ أيضاً عدداً من زوارق الصيد وسفينة واحدة ذات ثلاثين مجدافاً وأرسي في خليج سلاميس الذي يشرف على [نيسيا Ni-

(١٤) لم يصلنا منها غير ستة أبيات. أنظر المقطوعة ١-٣ في برك Bergk وانها تنطوي على لوم وتأنيب للآثينيين بسبب تخليهم عن (سلاميس) كما تتضمن تحريضاً واستنهاضاً للقتال في سبيلها.

(١٥) هو ملك سلاميس. ولديه هيكل كُرس له في تلك الجزيرة. يخبرنا پاونسياس (١: ٣٦) ان حياً ضخمة شوهدت في احدى السفن الاثينية اثناء المعركة البحرية بين الفرس والآثينيين. ولم تكن في الواقع غير البطل [كيخوريوس] كما أبلغهم اپوللو.

السعادة خوفاً من فقدانها. اذ ينبغي على هذا الأساس ألا نسمح لأنفسنا بالرغبة في الغنى والمجد والحكمة مادام يلاحقنا الخوف من فقدانها كلها. لا بل الفضيلة نفسها، وهي أعظم ما يرغب المرء في امتلاكه فكثيراً ما تتأثر بالمرض وتناول العقار. حتى [طاليس] نفسه وهو غير متزوج لا يسعه التحرر من القلق إلا إذا بطل اهتمامه باصدقائه وأقربائه وبلاده في حين قيل أنه تبنى ابن أخته [كبيستوس Cybisthus] لأن النفس يلازمها عنصر العطف، ولأنها ما خلقت الا لتحب، ولتدرك وتفكر أو لتتذكر، فلا سبيل لها إلا أن تميل الى شخص غريب وتركز اهتمامها به عندما لا تجد من تحنو عليه من صلبها. والاشخاص الغرباء وغير الشرعيين ينالون الخطوة عندها فتتعلق بهم كمن يتعلق بمالٍ لا وريث له. والحب يأتي بالقلق والاهتمام وقد ترى أناساً لا يكفون عن التنديد بفراش الزوجية وبثمرته، فاذا مرض ابن إحدى خادمااتهم أو محظياتهم أو مات. رأيتهم وكأن الحزن يكاد يقضي عليهم، فيبكون وينتحبون بحرقة. وترى بعضهم يظهرون ذلك الحزن المُخجل العميق على فقد كلب أو حصان. وآخرين يتحملون موت ابنائهم الصالحين الشرعيين دون أن يببالغوا في إظهار ما لا يليق من الحزن، هؤلاء أمضوا حياتهم رجالاً بكل معنى الكلمة، وعاشوها على مبادئ العقل ضدّ صروف القدر، الى مثل هذه الآلام والأحزان التي لاتنتهي. وهم في واقع الحال لا يملكون فرصة الاستمتاع الآتي بما هو موضوع حبيبهم، لأن احتمال خسارتهم المقبلة له تظلّ ابداً تسبب لهم قلقاً ورعباً وآلاماً مستمرة. وينبغي لنا ألاّ نتحصن بالفقر ضدّ الغنى أو ضدّ الاصدقاء باجتناّب كل المعارف أو ضدّ بنين بعدم انجابهم، بل يجب أن نتسلح بالعقل والأخلاق. وفي هذا الكفاية من القول.

بعد أن أتعبتُ الآثينيين حربهم العسيرة التي أعلنوها على الميغاريين بسبب جزيرة [سلاميس] وبلغت بهم حدّ الضنى والانهاك. أصدروا قانوناً يعاقب بالموت كلّ من يدعو بالقول والكتابة بلزوم استعادة الجزيرة أو بذل الجهود في سبيل ذلك. فأحرق ذلك صولون، وأدرك أن آثافاً من الشبان يريدون شخصاً يكون هو البادئ، ولكنه لم يجراً على أن يكون أولّ المحرضين خوفاً من حكم القانون. فتصنع الجنون ودفع اسرته الى أن تذيع في المدينة بأن عقله قد أختل. ثم نظم في السرّ قصيدة وحفظها عن ظهر قلب حتى تبدو وكأنها من وحي البديهة، ثم هرع الى ساحة السوق وعلى رأسه قبة^(١٣) وتجمع الناس حوله وتبعوه حتى أعتلى منصة المنادي وبدأ ينشد مرثيته بهذه الافتتاحية:

انا هو المنادي الذي جاء من سلاميس الجميلة.

(١٣) جرت عادة الآثينيين بالآ يغطوا رؤوسهم إلا عندما يلمّ بهم مرض.

[saea]. ولم يسمع الميغاريون الذين كانوا ساعتئذ في الجزيرة غير أخبار غامضة، ففزعوا الى السلاح وأرسلوا سفينة لاستطلاع حركات العدو. فأسرها صولون وقبض على من فيها وملأها بالآثينيين وأصدر أمره بإبحارهم الى الجزيرة بأقصى ما يمكن من السرية والكتمان وفي الوقت زحف برأ على الميغاريين ببقية الجنود وأشتبك معهم في القتال، في حين استولى جنود السفينة على المدينة، وتؤيد هذه الرواية المراسيم الدينية التي اتبعت فيما بعد وهي: أن تبخر سفينة آثينية بكل هوء أولاً الى الجزيرة ثم يعدو - وهو يهتف - نحو مرتفع [سكيراديوم - Sciradi- lum] ليلتقي بأولئك الذين يزحفون عليه برأ. وهناك يقوم معبد للآله آرس Ares^(١٥)، بناه صولون لانتصاره على الميغاريين ومن لم يقتل منهم في المعركة لم يفكهم إلا بشروط.

إلا أن الميغاريين ظلوا يقاتلون، ومُنِي الجانبان بخسائر جسيمة حتى لجأوا الى المفاوضات وأختاروا السبارطيين محكمين في النزاع. ويؤكد كثيرون أن ثبت هوميروس أظهر مزيداً من العطف على قضية صولون فحشر سطرأ في قائمة سفنه - اثناء ما كانت القضية امام المحكمين، فصارت الفقرة تقرأ على الوجه الآتي: «اثنان عشر سفينة جاء بها [اياكس] الشجاع من سلاميس».

ويقال انه اضاف: «وصف قواته في المواقع التي يقاتل بها الآثينيين. على أنه الآثينيين^(١٦) يصفون هذه الحكاية بالثرثرة والهراء، ويذكرون ان صولون جعل الأمر يبدو للمحكمين، وكأن [فيليبوس Philaeus] واقريساكيس [Evrysaces] ولدي اياكس قدما الجزيرة الى آثينا هدية لأنهما منحا حقوق المواطنة الآثينية. وان أحدهما كان يعيش في براورون Brauron آتيكا والثاني في [ملاطيه Malite] وانهما كانا يملكان في مدينة [فيلبادي Philidae]، واسمها مشتق من [فيليبوس]، وهي مسقط رأس [بستراتوس].

ومن حجج صولون التي استخدمها ضد الميغاريين، كيفية دفن جثث الموتى، فقال أنها كانت تدفن حسب عادات الآثينيين لا بحسب عادة الميغاريين. فالذي جرى العمل به عند هؤلاء أنهم يحولون وجوه موتاهم الى الشرق، أما الآثينيون فيوجهونها نحو الغرب^(١٧). إلا ان

(١٥) اي اينيايوس Enyalius.

(١٦) الايلاذة [٢٠:٥٥٧] قد لا يصح هذا البيت دليلاً. فهناك كثير من القصائد عند [هوميروس] تثبت ان سفن [اياكس] كانت قد أتخذت مواقعها بالقرب من التسالين (٦٨١:٨) و(كذلك سترابو ١٠). وفيليبوس الذي ذكر في المتن بعد هذا انما هو حفيد (اياكس) بحسب رواية پاوسنياس [١:٣٥٠].

(١٧) أنكر ديوجينيس ليرتريوس ذلك انكاراً باتاً. إلا انه مخطئ على الأغلب لأن ايليان في [تاريخه ٧:١٩] يتفق مع بلوتارخ حول طريقة الدفن عند الآثينيين. وأما بخصوص طريقة الميغاريين فهو يختلف معه اذ يقول انهم لا يتقيدون بشكل معين في دفنهم موتاهم ويتكون ذلك للصدف.

[هيريلاس] الميغاري ينكر الحجة مؤكداً ان بني قومه يديرون وجوه موتاهم الى الغرب أيضاً. كذلك تعلل صولون بان الآثينيين لا يدفنون إلا ميتاً واحداً في القبر^(١٨). ولكن الميغاريين يدفنون اثنين أو ثلاثة في قبر واحد. ومهما يكن من أمر فإن بعض نبؤات [اپوللو] التي ورد فيها ذكر الجزيرة باسم [سلاميس ايونيا]^(١٩) عززت من ادعاء صولون كثيراً. فحكم له القضاة السبارطيون الخمسة هم [كريتولايداس Critolaidas]، وأوموفاريتوس - Amomphare-tus وهيبسيخيداس Hypsechidas واناكسيلاس Anaxilas وكليوفيسيس Cleomenes].

وعظم شأن صولون وقوى مركزه بهذا. إلا ان ما بلغ به أعظم مواطن الشهرة والتقدير عند الأغريق هو نصحه بالدفاع عن نبؤة دلفي والوقوف الى جانبها وببذل العون وان لا يدعوا الكيريين Cirrhaeans^(٢٠) يمتهنونها بل بوجوب المحافظة على شرف الآلهة، فبناءً على محاولاته أعلن الامفكيتيون الحرب. ومن بين من يؤكد ذلك أرسطو عند ايراده ثبتا باسماء الفائزين في الالعاب البيثية. فهو يجعل صولون صاحب تلك المشورة. على أن صولون لم يكن قائد تلك الحملة كما يقول [هرميبوس]، نقلاً عن [ايانثس Evanthes] الساموسي Sami-an. وهذا ما ينفيه ايسخينس Aeschines الخطيب^(٢١). فقد ورد في سجّل دلفي [الكمون] لا صولون كان قائد الآثينيين... وكان فساد البكيلونيين قد استفحل في الجمهورية ونشر فيها الاضطراب اكنافه منذ عهد بعيد يرجع الى حكم [ميغالس] الأرخون عندما اقنع المتأمرين مع [كيلون Cylon]^(٢٢) الذين لجأوا الى معبد [مينرقا] بالخروج منه ووعدهم بمحاكمة عادلة

(١٨) ويرجح بعض الشراح أن يكون سبب ذلك سعة البلاد وعدد سكان كلا البلدين.

(١٩) أيونيا القديمة تشمل آتيكا فقط.

(٢٠) هم سكان (كيرا) وهي بلدة تقع على خليج كورنث أجتاحت بغزواتها المتكررة اراضي (دلفي) المجاورة، وحاصرت قواتها المدينة نفسها يحدوها الطمع في الاستيلاء على نفائس معبد (اپوللو). واستنجد بالإمفكتون وهم قادة دول الإغريق، فكان من رأي (صولون) أن يصدر استنكار عام للعمل ثم أرسل (كلسيتنوس) طاغية (سيكيون) قائده العام لحرب قوات (كيرا) ونُصب (الكيميون) قائداً للقوات الآثينية والتحق صولون بوصفه مساعداً أو مشاوراً ل(كلسيتنوس) والقي الجيش الاغريقي الحصار على [كيرا] رداً من الزمن دون ان يصيب نجاحاً. فأستخير (اپوللو) وكان الجواب انهم ان يفلحوا في الاستيلاء عليها الى ان تلتطم امواج البحر الكيرى بساحل بحر دلفي. هذه النبوءة أخذت الجيش على حين غرة، إلا ان صولون أسرع بالتفسير والحل، بان نصح (كلسيتنوس) ان يوقف كل أراضي (كيرا) على معبد (اپوللو) دلفي وبهذا تصبح دلفية وبالطبع سيلتطم الموج آنذاك بأراضي دلفي. ولما أصبحت من موقوفات دلفي تم الاستيلاء عليها ويون (پاوسنياس ١٠:٣٧) بخطة أخرى أقترحها صولون، تتم عن رجاحة عقله وعمق تفكيره، وهي تحويل مجرى نهر (پليستوس) الذي تعتمد (كيرا) على مائه.

(٢١) في خطبته «ضد قطيسيفون».

(٢٢) ظل الحزب المناوي للديمقراطية قائماً بعد مرور زمن طويل على ارساء قواعدها ولم يترك اصحابه وسيلة إلا جربوها لاعادة نظام الحكم القديم. وكان (كيلون) انساناً جليل القدر رفيع المقام وصهراً =

فشدوا خيطاً بالصورة المقدسة وامسكوا باحدى نهايتيه وغادروا ملجأهم لحضور المحكمة^(٢٣). ولكن الخيط انقطع من تلقاء نفسه عند وصولهم معبد [فوريس Furies] وكانت الربة قد رفضت بسط حمايتها عليهم، وعندئذ قبض عليهم ميغالس والقضاة. ومن حيل بينه وبين المعبد منهم رجم بالحجارة، ومن هرب عائداً الى الملجأ ذبح على درج الهيكل. ولم ينج إلا أولئك الذين توسلوا بزوجات القضاة. لكنهم بقوا نحسين، ينظر الناس اليهم نظرة الكراهية والاشمئزاز، وأستعادت بقية حزب [كيلون] قوتها، وأستمر شجارها مع أسرة [ميغالس]. وفي أيام صولون بلغت الشحنة أوجهاً وانقسم الجمهور الى حزبين، ولما كان صولون مرجعاً عاماً، فقد تدخل في الأمر بمعونة رؤوساء أثينا. وتمكن باللطف والتأنيب من إقناع النحسين بالمشول امام محكمة مؤلفة من ثلاثمائة مواطن نبيلٍ والخضوع الى القرار الذي يصدرونه وترافع ضدهم [ميرون Myron] و[فليا Phlya]. وأدينوا بنتيجة القرار، ومن كان منهم حياً نفي، ثم نشتت قبور الموتى منهم وأخرجت جثثهم والقيت خارج حدود البلاد. وفي اثناء هذه الاضطرابات والخيال انتهز الميغاريون فرصتهم فأنقضوا على الاثينيين وأتزعروا منهم [نيسيا وسلاميس]^(٢٤) ثانية. زد على هذا ان المدينة غشيتها الأوهام، والمخاوف، وشتى الظواهر الغريبة. وأفتى الكهنة أن القرابين قد مسها بعض الدنس والنجاسة، وينبغي أن تظهر. فبعثوا يستقدمون [إبيمينيدس Epimenedes]^(٢٥) الفايستي Phaeist من كريت. وكان هذا يعدّ

= (لثياغينس) طاغية ميغارا، وهو ممن ينفر من تغيير الحكام الفجائي. ويكره فكرة الركن وراء المنصب بوصفه فضلاً من الآخرين يطوق به عنق الفائز به، لاسيما وان حقه فيه واضح من جهة والدته. لذلك رتب خطة للاستيلاء على القلعة اثناء انعقاد الاولبياد الخامس والأربعين. عندما يكون عدد كبير من الأهالي منشغلين بمشاهدة الألعاب. وقد تم تنفيذ ذلك وأستولى (كيلون) على القلعة. إلا أن (ميغالس) رأس الأراخنة آنذاك اتفق مع الحكام الآخرين وكل قوات أثينا وضربوا الحصار على القلعة وضيّقوا على أصحاب المؤامرة الخناق حتى اضطر [كيلون وأخوه الى الفرار، تاركين بقية اصحابهم يتدبرون أمرهم بأنفسهم. يقول پلوتارخ: «من نجا من السيف، لجأ الى هيكل منيرفا. لكن الحكام لاحقوهم وقتلوا بهم هناك وبذلك اسخطوا الاثينيين الذين أستنكروا عملهم بقتلهم في حرم الهيكل وهي جريمة عظيمة. هذه الحادثة يوردها مفصلة (١٢٦:١).

(٢٣) في حدود العام ٦٣٦ ق.م أنظر المرجعين سالفى الذكر.

(٢٤) مدينة كانت تقع على خليج كورنث.

(٢٥) يخبرنا [ديوغينيس لايرتيوس] أنه بينما كانت تجرى عملية تطهير المنازل والحقول والاشخاص. جاء (إبيمنندس) بعدد من الغنم السود ومثله من الغنم البيض وأطلق الجميع في [الارويواغوس] وأمر الناس أن يتابعوها فرادى ويعينوا المواضع التي تضطجع فوقها ليقوموا بتضحيتها فيها. وعندها تقام مذابح ومنصات تخليداً لذكرى هذا التطهير الديني يقول (ديوغينيس) ان هذه المذابح التي لا تكنى باي اسم ظلت شاخصة حتى ايامه. وكان التعويض الوحيد الذي طلبه (إبيمنندس) من الاثينيين على عمله هذا، هو ان يعقدوا حلفاً مع بلاده (كريت). واما الاسطورة التي تقول انه رقد ٥٧ أو ٥٠ عاماً وظل على قيد الحياة. وحياته المحفوفة بالاسرار وعمره المديد، فكل هذا معروف وقد ذكره المؤرخون.

سابع الحكماء عند اولئك الذين لا يدخلون [پيرياندر] في عدادهم^(٢٦). ويبدو أنه كان يعتبر مفضلاً عند الأرياب، وعلى معرفة بكل الأسرار الدينية وما هو فوق الطبيعة منها ولذلك أطلق عليه رجال عصره [كيوريس]^(٢٧) الثاني. وابن الحورية المسماة [بالطه Balte]. ولما قدم الى أثينا وتوثقت علاقته بصولون، قدم اليه معونات في مناسبات مختلفة. وعبد السبيل لتشريعاته وعدل من أشكال العبادات وقلل من صرامتها. وخفف من القواعد الخاصة بالحداد فأدخل بعض القرابين لتقدم حالاً بعد التشييع، وأطرح تلك المراسيم القاسية البربرية التي تتعاطاها النساء عادة^(٢٨). إلا أن أعظم مآثرة له هو تطهير وتنقية المدينة، بفضل قرابين تهدئة، وتطهير معينة. واقامة بنايات مقدسة. وبهذه الوساطة جعلهم أطوع الى العدالة وأكثر ميلاً الى التآلف. وذكروا أنه نظر الى مونيخيا Munychia^(٢٩)، واطال التأمل ثم قال لمن حوله «ما أشد عمى الانسان في أمور المستقبل! فلو تكهن الاثينيون أي فتنة وبلوى ستلحق هذه بمدينتهم لأكلوها أكلاً بأسنانهم ليستخلصوا منها^(٣٠)، وثم نبوءة أخرى تعزى الى [طاليس] يقولون أنه أوصى اصداقاه بأن يدفنوه في موضع خامل الذكر قدر من اراضي [ميليطس] قائلاً أن البقعة ستكون يوماً مركز لقاء الميلطيين الرئيس. وأكرم ابيمينيدس أجل اكرام وعرض عليه أهل المدينة هدايا عظيمة وأغدقت عليه الامتيازات والنعم، إلا أنه اكتفى بطلب غصن واحد من الزيتون المقدس، فأعطي ما اراد وعاد الى بلاده.

بعد أن قضي على الفتنة الكيلونية ونفي المندس منهم، عاد الاثينيون الى شحنائهم الأولى ونزاعهم على الحكم، وكان يوجد احزاب وشيع مختلفة، بقدر ما كان يوجد اختلاف رأي في البلاد. كان حيّ التلال يحبذ الديمقراطية، وحيّ السهل يفضل الأوليغارشية، أما اولئك الذين يعيشون على الساحل فيريدون مزيجاً من النظامين، وبهذا حيل دون استظهار حزب على آخر^(٣١) وكانت الفروق في الاحوال بين الاغنياء والفقراء في ذلك الحين قد بلغت اقصى الحدود حتى بدت المدينة في حالة خطيرة جداً، وليس هناك من وسيلة لانقاذها من

(٢٦) انظر ارسطو [دستور أثينا: ١].

(٢٧) من يدعى كيوريتس Curetes، انما هم الكهنة الكريتيون الذين يقومون على خدمة [زفس الإيدي] واسمهم مشتق من اسم انصاف الآلهة الذين قامت الربة (ريا) بايداع (زفس) الطفل لديهم.

(٢٨) كالضرب على الصدور، وجرّ الشعور، ولطم الوجوه الخ...

(٢٩) ان اكرويوليس [پيريوس] يشرف ستراتيجياً لا على شبه الجزيرة وحدها بل على اثينا نفسها كذلك. وكثيراً ما وضع فيه فاتحو اثينا جنوداً.

(٣٠) تحققت هذه النبوءة (على ما يقولون) بعد ٢٧٠ سنة عندما ارغم [انتيباطر] الاثينيين على القبول بحامية في ذلك الموضع. انظر سيرة [ديموستينس]. وأفلاطون يعزو اليه نبوءات أخرى.

(٣١) انظر ارسطو [دستور أثينا ٤:٨].

الاضطرابات والوصول بها الى حالة من الاستقرار إلا سلطة دكتاتورية مطلقة. وكان الجمهور كله مثقلاً بالديون للاغنياء وكان عليهم أن يختاروا إما زراعة اراضيهم لدائنينهم وأعطائهم سُدس المحصول فيسمنون اذ ذاك: ثيتيس Thetes أو هكتوموري Hectemprii وإما يسلموا اجسامهم لقاء الدين وقد يحجزون أو يرسلون الى العبودية في الوطن، أو يباعون للأجانب واضطر بعضهم الى بيع أولاده، (لأن القانون لا يمنع ذلك)، أو الهروب من البلاد خلاصاً من قسوة الدائنين. إلا أن معظمهم وهم اثبتهم جنائياً بدأوا يتكتلون، وبيت أحدهم في الآخر روح الاقدام للوقوف في وجه هذا الظلم. واختيار قائد للقيام بتحرير الدائنين الذين صدرت الاحكام بحقهم وتوزيع الأراضي وقلب الحكومة.

وهنا ادرك أعقل الآثينيين أن صولون هو الشخص الوحيد من بين الجميع ممن ليس له علاقة بالمشكلة أو هو طرف فيها. وأنه لم يشارك في استغلال الاغنياء، ولم يعان بؤس الفقراء. والحوماً عليه أن يمد يداً الى الحكومة، ويفضّ النزاع. وان كان [فانياس Phanias] ولسبيان [Lesbian] يؤكدان ان صولون احتال بحيلة على الفريقين لكي ينقذ بلاده. فوعد الفقراء سراً بتقسيم الأراضي، ووعدهم الاغنياء بضمان ديونهم، على أن صولون بالذات يقول عن نفسه أنه تردد في مبدأ الأمر في المساهمة في شؤون الدولة. لخوفه من مكابرة هذا الحزب، ومن طمع ذلك، ومع ذلك فقد انتخب (ارخوناً) بعد [فيلومبروتوس] ومنح سلطة سنّ القوانين والتحكيم ورضي به الاغنياء، لأنه غني، ووافق عليه الفقراء لأنه نزيه. وقد أشيع عنه قبل انتخابه قوله «انه لن تقوم حربٌ لما تكون الأمور متوازنة.» وهذا ما أرضى جشع حزبي الاغنياء وخاصة حزب الفقراء^(٣٢). أولهما فسّر التوازن: ان ينال كل امرء نصيبه المناسب. وثانيهما فسره: ان تعم المساواة التامة للجميع. ولذلك ارتفعت آمال الجانيين. وآلح رؤوساء القوم على صولون ليقبض على ناصية الحكم ففعل^(٣٣) وليعالج الأمور على هواه وبكل حرية حين أستتب الأمر له. وكان الكثير من العامة يرغبون أن يحكمهم رجل عادل حكيم، يصرف أمورهم بحكمته، لعلمهم أن التغيير الذي يفرضه القانون والعقل فقط، هو تغيير صعبٌ عسير المنال. ويقول بعضهم أن صولون تلقى هذه النبوءة من ابوللو: «خذ المقعد الوسط، وكن مرشد السفينة فكثير من أهل أثينا هم الى جانبك». ولكن أصدقاؤه المقربين عابوا عليه بالدرجة الأولى أباؤه الحكم بنظام الملكية المطلقة بسبب الاسم المقترن بها فحسب^(٣٤). كأن فضائل الحماكم

(٣٢) المرجع نفسه [٣:٤].

(٣٣) في العام ٥٩٤ ق.م.

(٣٤) يجب علينا الاستدراك للقول انه كلمتي «طاغية» و«طغيان» اللتين تردان أحياناً في النص لا تعني دائماً عند الاقدمين الحكم البغيض المتميز بالقسوة والعنف والاستغلال والفساد. فكثيراً ما كان الطغاة =

لاستطيع أن تجعل منه شكلاً شرعياً من أشكال الحكم. لقد اقدمت [يوبيا Euboea] على هذه التجربة لما أختارت [تينونداس Tynnondas] وكذلك دويلة [ميتلين Mitylene] التي أمرت عليها [بيتاكوس Pittacus]^(٣٥) إلا أن هذا كله لم يثن صولون عن عزمه. ولكنه على ما قيل - أجاب أصدقاؤه: «صحيح أن الحكم المطلق بقعة جميلة، ولكن لا يوجد فيها مكان للنزول، وكتب على نسخة من اشعار [فوكوس Phocus] ما يلي:

«فلأني أنقذت أرضي. وكففت يدي عن الظلم والقسوة. وابتيت أن اشوه اسمي الصالح بلطخة أو بعار - لن آسف قط، وأعتقد ان ذلك سيكون رأس شهرتي»

ومنها يتضح أنه كان رجلاً عظيم الشهرة قبل أن يستنّ شرائعه^(٣٦). وقد سجّل صنوف السخرية التي صبّت عليه لرفضه الحكم والسلطة في هذه الأبيات:

«لا شك ان صولون من الحالمين والسذج فعندما تحبوه الآلهة بالنعمة، تراه يرفضها بمحض اختياره. عندما تكون الشبكة مملأى بالسمك ويراها مفرطة في الثقل، يأبى أن يرفعها، جنباً منه، وقلة عقل. لو اني اهتبلت تلك الفرصة في الغنى والحكم وكنت طاغية لأثينا يوماً واحداً لأعطيت جلدي للسلخ، وتركت بيستي يضمحل ويموت^(٣٧)».

وهكذا يجعل الفقراء والدهماء يلهجون بذكره. ومع انه رفض قبول الحكم، إلا أنه لم يكن لين الجانب كثيراً في شؤونه، فلم يظهر امام السلطات ذليلاً طائعاً ولم يستنّ شرائعه لإرضاء أولئك الذين انتخبوه. فما كان جيداً من القوانين لم يدخل اليه تعديلاً أو يغير فيه لثلاً...

«تخرّ الحكومة على ركبيتها وتتقوض تماماً»

لقد كان أضعف من أن يعمد الى صياغة نموذج حكم جديد أو يعيد تشكيله بهيئة يغلب

= يمارسون سلطانهم بشكل قانوني عادل. إلا ان بغضه والقيام ضده كان مصدره بصورة عامة المبدء الذي أختطه هذا الحكم لنفسه أعني السلطان المطلق الذي قد يخشى دائماً تطرف من يمارسه والوصول به الى أقصى درجة من التحكم والبربرية، والى تبرير اي استغلال أو اغتصاب.

(٣٥) هو واحد من الحكماء السبعة قضى على زمام السلطة في (ميتلين) فراح [الكبوس] الذي ما كان مواطناً ومعاصراً له ومدافعاً عن الحريات - يهجو وينتقده ويخض من شأنه، كما فعل بالطغاة الآخرين. فتفاضى [بيتاكوس] عنه ولم يكثر به. واقدم على قمع تمرد الأهالي بالقوة ونشر السلام والعدل والانسجام بين المواطنين ثم تنازل عن السلطة بمحض اختياره واعاد الحرية الى بلاده. إلا أنه أرغم في آخر عمره على تولى السلطة مجدداً باجماع ملح من المواطنين. فنطق بحكمته الشهيرة «الفضيلة لا تخلو من عوائق» وبعد أن حقق ما جيء به لتحقيقه أعتزل الحكم ليعود فرداً عادياً.

(٣٦) المقطوعة ٣٢.

(٣٧) المقطوعة ٣٣.

عليها الاعتدال. ولكنه طبق ما خيل له انه ممكن التطبيق عن طريق إقناع المستعدين للاقتناع، وباستخدام القوة للمعاندین كما قال هو نفسه: « القوة والعدل، يعملان معاً ».

ولذلك، فعندما سئل فيما بعد: هل ترك للأثينيين خير قوانين يمكن لأحد أن يعطيها؟ « اجاب « تركت خير ما يستطيعون أخذه » وهذا أسلوب في الجواب يقول عنه المحدثون أن الأثينيين يلجأون اليه للتحقيق من سوء شيء. بأعطائه وصفاً جميلاً بريئاً لا يخدش الأسماع. فهم يسمون الظاهرات حظايا. والحزبية: مكساً، والحامية حرساً، والسجن غرفة. ويبدو أن هذا من مبتدعات صولون. أساساً. فقد أطلق يقضي قانوناً بالغاء الديون مصطلح [سييساكثيا Siesacthea]. أي الإغاثة أو تخفيف الإعباء. فأول قاعدة وضعها هي الاعفاء الشامل عن كل ما تخلف من الديون، ولا يحق في المستقبل لأي شخص أن يسخر لنفسه عمل جسم مدينه ضماناً لدينه. على أن بعضهم ومنهم [آندروسيون Androtion] يؤكد انه لم يبلغ ما تخلف من الديون وإنما حففت الفائدة فحسب وهو ما كان موضع رضی الناس فسموا هذه المنفعة [سييساكثيا] كما شملوا بالتسمية، توسيع الكاييل ورفع قيمة النقد والقوة الشرائية^(٣٨). فقد حدد قيمة [الپاون] مجدداً بمائة درهم [دراخمه] في حين كان قبلاً ثلاثة وسبعين درهماً، وهكذا فمع كون عدد القطع النقدية المدفوعة عن الدين كانت سواءً، إلا أنها أقل قيمةً. وهذا ما عاد بالفائدة الكبيرة على أولئك الذين يدفعون ديوناً كبيرة. وفي الوقت نفسه لا يخسر الدائنون شيئاً من ديونهم.

على أن معظم الكتاب يتفقون على أن الغاء الديون هو المقصود [بسييساكثيا] أي ابراء الذمة. ويؤكد هذا في بعض مواضع من قصيدته التي يعزو فيها هذه المأثرة لنفسه: « لقد رفعت عن الأرض المرتهنة حجارة الرهن - وما كان منها مستعبداً أصبح حراً. »^(٤٠ أ)

ففيها يعزو لنفسه بانه رفع شارات الحجز عن الأراضي^(٣٩) التي كانت العين تشاهدها من قبل في كل مكان وحرر الحقول التي كانت قبل ذلك محجوزة. وحرر أولئك الذين حبسهم دائنهم. وأعادهم الى البلاد بعد أن ظلوا متشردين في الخارج كما اخبرنا عنهم: قضت الأقدار عليهم بالنأي والتشرد زمناً طويلاً فنسوا لغة موطنهم (لغة اتيكاء).

وحرر بعض أولئك الذين «رسفوا هنا في أغلال العبودية المخزية في بلادهم»^(٤٠ ب).

(٣٨) انظر ارسطو [دستور أثينا ١٠ و ٥٠].

(٣٩) من عادة الأثينيين وضع بطاقة على المنازل أو الأراضي اشارة الى انها خاصة أو محجوزة.

(٤٠ أ) المقطوعة ٣٦ الابيات الرابع وما بعده بعد ارجاعها من صيغة المتكلم الى صيغة الغائب. البيت ٦ من اقتباس ارسطو.

(٤٠ ب) المقطوعة ٣٦ (الابيات ٩-١٢ من برگ.) (الابيات ١١-١٤ من ارسطو).

وفيما هو يرسم هذه الخطط حصل أمرٌ مخجلٌ جداً، إذ لما قرّر الغاء الديون، وأخذ يفكر بأفضل الطرق للبدء بالتنفيذ وأسّر لأقرب اصدقائه اليه [كونون Conon و كلينياس Clinias و هيبونيكوس Hipponicus] رهم ممن يضع فيهم أعظم الثقة - بأنه لن يتدخل في قضية الأرض، وإنما سيحرر الناس من ديونهم فحسب. فأنتهزوا الفرصة وعجلوا باستدانة مبالغ كبيرة من المال وابتاعوا مساحات واسعة من الأراضي الزراعية لأنفسهم. ولما طبّق القانون بقيت املاكهم لهم دون أن يضطروا الى دفع المال الذي استدانوه. وهذا ما أثار الشكوك العظيمة في صولون ومما زاد في السخط عليه والكره، ان حالته المالية لم تتأثر بالقانون، إلا أنه بادر حالاً الى قطع دابر الشك بأن أبرأ ذمة كل مدينه عليه والكره، ان حالته المالية لم تتأثر بالقانون، إلا فأكثر حسب أحكام القانون، وكانوا كثيرين. على أن بعضهم مثل [پوليزيلوس Polyzelus] الودسي، يقول أنه أبرأ من كان مديناً له الى حد خمسة عشر تالنت. وسمي اصدقاؤه أولئك منذ ذلك الحين بالمنافقين Chreocopidae أو قُطّاع الدين^(٤١).

لم يرُض صولون بعمله هذا أيّاً من الحزبين، فالأغنياء سخطوا لخسارة اموالهم، والفقراء سخطوا لأن الأراضي لم يجر تقسيمها مجدداً وبقيت على حالها ولم تفرض المساواة التامة بين المواطنين على نحو ما فعله ليكورغوس في جمهوريته. والحق يقال أن ليكورغوس هو سليل هرقل الحادي عشر، فضلاً عن انه كسب اشياً وصادقاً عديدين بعد حكمه الطويل في [لقيديمونيا] ونال شهرة عظيمة ونفوذاً واسعاً استخدمها كلها في اشادة صرح نظام دولته وأعتد غالباً على القوة لا على الاقتناع، حتى انه فقد إحدى عينيه في معركة^(٤٢)، كما كان قادراً على استخدام إحدى الوسائل لسلامة الدولة واستقرارها، وهو ازالة الفقر والغنى في مجتمعه، إلا أن صولون لم يبلغ هذا الحد في سياسته فقد كان متوسط الحال، ومع ذلك لم يتقاعس ولم يدخر وسعاً في ممارسة كل سلطته، ولم يكن ثم ما يعتمد عليه غير ثقة الناس به حسن ورأيهم فيه واعتمادهم عليه. أما أنه أثار سخيمة معظم من كان يؤمل نتيجة أخرى عنه، فهو ما أشار اليه في ابياته:

بالأمس كانوا يتيهون بي أعجاباً وبياهون واليوم ينظرون إليّ شزراً كأني عدوهم.
الاصدقاء كلهم انقلبوا أعداء^(٤٣).

(٤١) هنا مفارقة لفظية واضحة. ف(كركوبيدي Cercopidae) الذي يطلقه الأثينيون على أنفسهم، يشبههم الى ملكهم الأول كركوبوس Cecrops فيقولون انهم من نسله [جوقينال ٤٦:٨].

(٤٢) ارسطو: الدستور الأثيني ٦.

(٤٣) المقطوعة ٣٤. الآن الابيات الأربعة فما بعدها من المقطوعة ذات الابيات التسعة التي اقتبسها ارسطو (انظر الدستور ١٢:٣).

ومع هذا فلو حاز اي امرءٍ «ما حزته من سلطان» على حدّ قوله. لما امتنع أو قصر عن احتلاب أدم الحليب لنفسه وصادر الكل. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلاّ وشعروا بفائدة ما صنع. فزال حقدهم عليه. وقدموا قرايين عامة أطلقوا عليها اضحية الغاء الديون [سيّساكثيا] وأختاروا صولون ليضع القوانين النموذجية الجديدة لجمهوريتهم، ومنحوه صلاحيات مطلقة في كل شيء، وسلطاناً ماله حدود على أقضيتهم ومجالسهم ومحاكمهم ومجالس شوراها، ليقرر بنفسه مواعيد اجتماعاتها وعددها، وتخصيص الأموال لها. ومُنح صلاحية حلّها أو الإبقاء عليها حسبما يرتأيه.

وكان أول اعماله الغاء كل قوانين [دراكو Draco] (٤٤) لصرامتها الفائقة وعقوباتها القاسية، خلا ما يتعلق بجرائم القتل منها. كانت عقوبة الموت في قوانين [دراكو] تفرض تقريباً على كل الجرائم حتى تلك التي تعاقب على البطالة، أو على من يسرق رأس خسّ واحد أو تفاحة واحدة كان الموت عقابها مثل جرائم القتل والكفر. وصدق عنها حقاً قول [ديماديس Demades] (٤٥) الذين نبغ بعده بزمن طويل. «لم تكتب قوانين دراكو بالحبر، وانما كتبت بالدم». وسئل [دراكو] نفسه: لماذا جعل الموت عقاباً للمعظم الجرائم فأجاب «الجرائم الصغيرة تستحق ذلك. وليس عندي عقوبة أشدّ من الموت للجرائم الكبيرة».

ولما كان صولون يرغب في ابقاء الجهاز القضائي بأيدي الطبقة الغنية، وان يفتح امام العامة في الوقت نفسه أبواب أجهزة أخرى من أجهزة الحكم. فكانت خطوته الثانية هي أحصاء أموال المواطنين (٤٦) فرداً فرداً فالذين ملكوا خمسمائة ميكال من الغلة: مائة وجافة جعل منهم

الطبقة الأولى هو أطلق عليها اسم [پنتاكورسيوميديمني Pentacosimedimini] (٤٧) اي ذوي الخمسمائة ميكال). أما أولئك الذي ملكوا حصاناً أو مالاً يعادل ثلاثمائة ميكال فأطلق عليهم اسم [هيپادا تيلوميتس Heppada Telumtes] وجعلهم طبقة ثانية. أما من ملك ما يعادل مائتي ميكال فسماهم [زويگيتي Zeugitae] وجعلهم الطبقة الثالثة أما الباقيون فجعلوا طبقة رابعة وسمّاهم [ثيتيس Thetes] وهؤلاء لا يحق لهم ان يتولوا أي منصب حكومي. لكن لهم أن يحضروا الجمعية العامة ويعملوا عمل المحلفين، وهو عمل يبدو للوهلة الأولى شيئاً تافهاً، لكن سرعان ما تبين أنه حق ذو سلطان عظيم. لأن كل موضوع خلاف رئيس يرفع اليهم ليصوتوا عليه، ولايستثنى منها حتى الامور التي هي من اختصاص الارخون اذ قرر ان تستأنف اليهم قضائياً.

وكذلك قيل أن صياغة قوانين صولون كان يشوبها الغموض وكانت معانيها مزدوجة التفسير مطاطية. وقد تعمد ذلك لتزاد هيبة مجالسه القضائية. لأن غموضها وصعوبة تفسيرها وعدم توصل الناس الى فهم منطوقها الحرفي يضطرهم الى رفع دعاواهم الى القضاة المختصين الذين حذقوا الصناعة. اما عن المساواة التطبيقية فهو ينوه بها على الصورة الآتية:

منحت الشعب سلطة كافية ولم اجردهم من الكرامة ولم أعطهم الكثير جداً واما اولئك الذين يملكون السلطة. ويتمتعون بالغنى الطائل فقد جعلتهم القوانين في نجوة عن كل ما يحطّ من قدرهم. ووقفت بدرعي الجبار امام كلا الطبقتين ولم ادع أحد الفريقين يعتدي على حقوق الآخر (٤٨)

وقوى من ضمانات أمن الطبقة العامة، بمنح الحق العام إقامة الدعوى عن اي جريمة من جرائم الايذاء العمدي. فاذا تعرض اي فرد للضرب، أو بتر منه اي عضو أو اعتدي عليه بأي شكل من الاشكال، كان لكل مواطن الحق في إقامة الدعوى على المعتدي. وهدف صولون من هذا، أن يعود المواطنين أن يشعروا بشعور المعتدى عليه، كأنهم اعضاء في جسم واحد. وان تشور

(٤٧) ان هؤلاء [الپنتاكورسيوميديمني] يدفعون تالنتاً واحداً لبيت المال. أما [الهيپادانيلوانتيس] فيتوجب عليهم كما تدل عليه عبارة النص - أن يقتتوا حصاناً وان يخدموا في الجيش فرساناً. واما الزقخيتي فقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم وسط بين طبقة الفرسان وطبقة العامة (ذلك لأن الجذافين الذين يحتلون المتعد الوسط بين التالاميت في قيوم السفينة وبين التراميت في الدفة. ومع أن اللثيتيت) الذين لا يدفعون ضريبة. لا صوت لهم في الجمعية العامة، فانهم كما لاحظ بولتارخ حازوا امتيازاً عظيماً باعتبارهم مرجعاً استئنافياً في معظم الاحكام القضائية وقد بلغ استخدام هذا الامتياز من الخطورة حدّاً حسب رأي ارسطو (السياسة ٢:١٠) أن اثينا وقعت فعلاً بيد الرعا وسلطانهم الطاغي.

(٤٨) المقطوعة ٥ وما بعدها. ارسطو [دستور اثينا ٢:١] أنظر أيضاً ١:٩ وما بعدها.

(٤٤) كان [دراكو] ارخوناً في أول سنة وثاني سنة من الولىبياد التاسع والثلاثين الموافق لـ ٦٢٢ ق.م. مع أن اسم هذا الرجل الشهير يظهر كثيراً في صفحات كتب التاريخ القديم الا اننا لانجد أكثر من عشرة أسطر محترمة عنه وعن شرائعه، ويمكن القول بانه اول مشتري اثينا، ذلك لأن قوانين أو بالأحرى «توصيات Precepts» (تريبيرليموس) كانت قليلة جداً لا تكفي لتثبيت الحقوق والواجبات ومن تلك الوصايا «أكرم ابويك» و«اعبد الالهة». «لاتؤذ حيواناً»، وما الى ذلك. وكان (دراكو) أول اغريقي عاقب على الزنا بالموت. وأعتبر القتل أشنع جريمة وأظفها واراد ان يعزز كرهها في ذهن فشرع بان تجرى التعقيبات القضائية بحق الجمادات والاشياء الخالية من الروح ان كانت سبباً لإحداث الموت. لكنه الى جانب جرمي القتل والزنا اللتين عوقبتا بالموت. فقد جعل عدداً من الجرائم الاصغر شأناً تستحق عقوبة الموت ايضاً وهذا ما أدى الى الغاء كل شرائعه تقريباً. فصرامتها المتناهية الشبيهة بالحدّ المسنون المرفه، جعلها كالتصل الذي ينفذ عميقاً وقد حفظ لنا بروفيري في (de Abstn) نصاً من تلك القوانين وهو ما تعلق بالعبادة «انه لقانون ابدي في أتيا. ان تعبد الالهة وجوباً، وكذلك تعبد الابطال بحسب تقاليد اسلافنا. في السرّ تعبد فقط وبصلاة لائقة، وبالثمار الأولى وارقة الخمر سنوياً».

(٤٥) خطيب أثيني عاصر فيليب المقدوني وابنه الاسكندر.

(٤٦) ارسطو دستور اثينا ٧:٢ وما بعده.

ضماثرهم للجريمة كأنها وقعت عليهم. وهناك قولة له تنسجم ومنطوق قانونه. اذ سئل ما هو النموذج الأمثل للمدينة في رأيه فأجاب: «المدينة التي يتساوى فيها المعتدى عليهم وغير المعتدى عليهم بحق ادانة ومعاقبة المعتدين.»

عندما أُلّفَ صولون مجلس [الاريوباغوس] (٤٩) من الآراخنة السابقين الذين تولوا هذا المنصب السنوي وكان هو واحداً منهم (٥٠)، لاحظ أن الشعب الذي تخلص من الديون مازال أمره مضطرباً يجار بالشكوى فألّف مجلساً آخر قوامه اربعمئة عضو (٥١)، تنتخب كل طبقة من الطبقات الأربع، مائة عضو له. وواجبه تدقيق واقرار كل ما يفرض على الشعب من أوامر وقوانين، وبعد ذلك يتمّ عرضه على الجمعية عامة. اما المجلس الأعلى أو [الاريوباغوس] فقد جعله حارساً ومراقباً على القوانين وبذلك كان هذان المجلسان بمثابة مرستين للنظام الجمهوري،

(٤٩) Areopayas: اي جبل مارس [اريوس = مارس Arius] و[ياغوس جبل Pagus] وهو موضع في اثينا مرتفع تعقد فيه أعلى محكمة قضائية [م.ت].

إن المحكمة اريوباغية وان كانت أسسها قد ثبتت منذ عهد طويل إلا انها فقدت الكثير من سلطاتها عندما قام (دراكو) بتفصيل محكمة ايفيتاي Ephetae. في الزمن القديم حتى مجيء صولون كانت هذه المحكمة تضمّ أناساً أشتهروا بغناهم ونفوذهم ورجاحة عقولهم. على انه لم يجز لعضويتها إلا من كان ارخوناً. وهذا ما حقق الهدف الذي رمى اليه فقد ارتفع قدر [الاريوباغوس] وسمت مكانتها وامست قراراتها محترمة، بحيث لم يعد احد يقوى على انتقادها أو رفضها. وظلّ الأمر كذلك أجيالاً عديدة.

(٥٠) بعد انقراض نسل الميذونتيدي Medontidae. حدد الاثينيون فترة حكم الارخون بسنة واحدة. وجعلوا المجلس يتألف من تسعة بدل أن يتولاه ارخون واحد. بعبارة أخرى انهم حققوا ما كانوا يصبون اليه منذ عهد بعيد أعني أن يجعلوا حكاهم الأعلى تحت الرقابة الشعبية العامة. حصل هذا الانتقال العظيم الى الديمقراطية في أثينا أثناء الاوليات الرابع والعشرين الموافق للعام ٦٨٤ ق.م. كان لهؤلاء الحكام مظاهر تمييز وتكريم واضحة ومنها التسمية فالارخون الأول هو ابيونيموس Eponumus باسمه تختم السنة. والثاني يدعى باسيليوس أو ملك Basileus وقد جعلوا اللقب ثانياً لتجريده من صفة الأولوية. ووظيفة المنصب رعاية الشؤون الدينية وأطلقوا على الثالث اسم [بوليمارخوس Polemarchus] وللأشرف على شؤون الحرب. اما السنة الباقون فيحمل كل منهم لقب [تسموثيتي Thesmothetae] وهم الاوصياء على القوانين يراقبون تسييرها وتطبيقها والمحافظة عليها وازالة الغموض والتناقض فيها. ويمر هؤلاء الحكام قبل انتخابهم بحدود صارمة للغاية تشمل التحقيق الدقيق في أصلهم وفصلهم [يجب أن تكون الاجيال الثلاثة الأخيرة التي سبقتها على الأقل من اسرته اثنية الجنسية من جهة الأب والأم] ودرجة تقواهم وعبادتهم للآلهة، وحبهم لاويهم وبلادهم وما يملكون من ثروة الخ... وقد بقي هذا المجلس قائماً حتى زمن الامبراطور الروماني كالكستوس.

(٥١) رُفِعَ عدد القبائل في عهد كالكستينوس الى عشر بعد طرده أسرة الپيستراتيدي الحاكمة. ورفع عدد اعضاء مجلس شيوخه الى خمسمائة. كل قبيلة تنتخب خمسين عند نهاية العام. ويقدم زعيم القبيلة قائمة بالمرشحين ومن هؤلاء يختار العدد المقرر بالقرعة. ثم يقوم الشيوخ بتعيين الضباط الخمسين ويطلق عليهم اسم (پريتاني). ويتألف عشرة منهم الآخرين لمدة أسبوع ويسمون پروئدري ومهمتهم الحيلولة دون وقوع فوضى ومن هؤلاء يختار (إيستاته) أو رئيس لا يدوم منصبه أكثر من يوم واحد [ارسطو: دستور أثينا ٤:٨].

يقللان من تعرضها للنوء والغرق، ويجعلان الشعب أكثر هدوءاً واستقراراً. وهذه هي الاسباب التي دعت صولون الى انشاء مجلس [الاريوباغوس] ويبدو ذلك ثابتاً تاريخياً لأن [دراكو] لم ينوه بشيء عن وجود الاريوباغيين، في حين يشير الى [الزفيتي Zaphetae] في كل قضايا الدم. على ان لوح صولون الثالث عشر المتضمن القانون الثامن، كانت صياغته كالآتي: «كل من كان مجرداً من حقوق المواطنة قبل أرخونية صولون يستعيد حقوق مواطنته. إلا أولئك الذين ادانهم الاريوباغوس والايفيتي، أو ادانهم الملوك في الپريتانيوم لارتكابهم جرائم القتل العمد مع سبق التصميم، والقتل قصداً، أو من دسّ الدسائس على الدولة أو تأمر عليها - على ان يكونوا في ديار الإبعاد عند سنّ هذا القانون.»

من هذه الصياغة يتبين أن الاريوباغوس كان موجوداً قبل قانون صولون، فمن يمكن أن يحاكمه هذا المجلس قبل صولون إن كان هو الذي أوجد مجلس قضائه؟ اللهم اذا كان قد حذف شيء من النص أو شابهه سوء صياغة أو عدم دقة وهو أمر محتمل. وأقرب صياغة الى الوضوح هي ان يقال «... أولئك الذين ادبنوا بجرائم كان الحكم بها من اختصاص الاريوباغوس والايفيتي (٥٢) والپريتانيوم عند تشريع هذا القانون»

... يبقون مجردين من حقوقهم، لا تمحى عنهم وصمة العار، أما ما عداهم فيعاد اليهم اعتبارهم ويلغى الحكم عنهم. وعلى أية حال نترك الموضوع لحكم القاريء.

من بين قوانين صولون، قانون غريب عجيب، فهو يجرّد حقوق المواطنة من كل من يقف على الحياد في اثناء ثورة أو تمرد (٥٣). والظاهر أن المشتري لم يكن يرى بقاء اي مواطن فاقد الشعور والاهتمام بالمصلحة العامة، منصرفاً الى شؤونه الخاصة فحسب مهتماً بما يعود عليه بالفائدة، مجرداً عن أي تحسس باضطراب سياسي يداهم بلده، بل يجب عليه أن ينحاز فوراً الى الجانب المصيب أو الى الحزب الذي يكون الحق الى جانبه فيناضل ويتعاون معهم. لا أن يبتعد عن مواطن الخطر ويجلس مراقباً المعركة عن كذب ليري من الغالب؟

(٥٢) كان أول عمل المجلس القضائي في عهد الملك [ديموفون ابن تيفس] للنظر في دعاوى القتل العمد والقتل القصد دون تصميم. ويتألف المجلس من خمسين قاضياً أثينياً، وعدد غير محدود من الارغوسيين. إلا ان [دراكو] أخرج الارغوسيين. وأمر المجلس بأن يتشكّل من واحدٍ وخمسين من افاضل الاثينيين وان لا يقل عمر العضو فيه عن خمسين سنة. ومنحهم سلطاناً يعلو على سلطان اعضاء الاريوباغوس. إلا أن صولون خفض هذه السلطة. بحيث جعل هذا المجلس تحت اشراف الاريوباغوس كما حدد صلاحيته القانونية.

(٥٣) يورد [اولوس غيلوس] النص الحرفي لهذا القانون. ويضيف قائلاً «ذلك الذي يقف الحياد، يجب ان يجرّد من منزله ويخسر بلاده وأملاكه وان ينفي خارج الوطن. ويمدح (غيلويوس) قصد المشتري من هذا القانون حين يذمه پلوتارخ.

ويبدو للمرء قانوناً سخيلاً تافهاً أن يسمح لزوجته ذات مال موروث بأن تتخذ أقرب ذوي زوجها عشيراً، إن لم يقيم زوجها بمعاشرتها! على أن بعضهم يمدح القانون ويراه فعلاً لردع أولئك العاجزين عن واجباتهم الزوجية ويسعون للزواج بالوارثات طمعاً بما لهن، مستخدمين السماح القانوني ليخرقوا به سنن الطبيعة. إذ كان الواجب يقضي أما أن يعزفوا عن هذا الزواج أو أن يعيشوا حياة زوجية شائنة، ويعانوا العار والخزي جراء طمعهم وخطأهم المتعمد. هذا فضلاً عن أن اشتراط كون خليلها أقرب اقرباء زوجها هو عمل طيب حتى يظل نسب الأسرة لثمرة هذه العلاقة.

وما جرى مجرى هذا القانون في غرابته، ذلك الذي قضى أن يوضع العريس والعروس في غرفة مغلقة الباب حيث يأكلان معاً^(٥٤) سفرجلة وان زوج الوارثة يجب أن يعاشرها ثلاث مرات في الشهر على الأقل فهذا يكون من قبيل التكريم لها وإظهار الحب الواجب من الزوج لزوج عفيفة محصنة. وإن لم تنجب له أولاداً. وهو ما يقضي على كل أسباب الخلاف ولا يؤدي بالخصام الطفيف الى قطيعة. وفي غير مثل هذه الزوجات، منع صولون دفع أي بائنة منعاً باتاً. فلا يكون للعروس غير ثلاث فساتين، وأثاث بيتية بسيطة^(٥٥). لاشيء سوى ذلك. لأن صولون لم يشأ أن تعقد الزوجات على أساس الربح أو المال بل أن يسبقها الحب الخالص، واتفاق الميول، وانجاب الأولاد. كما طلبت أم [ديونيسيوس] من ابنها ان يقوم بتزويجها أحد مواطنيه اجابها قائلاً «حقاً اني حطمت قوانين البلاد بالطغيان الذي امارسه، لكنني لا أستطيع أن تحدى قوانين الطبيعة أو ااخرقها بزواج غير متكافي». مثل هذا الإخلال غير مسموح به في الجمهورية، كما انه لا يفسح اي مجال لعقد مثل هذه الزوجات غير المتكافئة، التي لا يربطها الحب ولا تصل الى غاية ولا ثمرة. ولقد حق على كل حاكم بعيد النظر، أو مشترع للقوانين ان يقول لشيخ كبير السن ما قيل «لفيلوكتيتس [Philoctetes]^(٥٦) في التراجيديا

(٥٤) ليس غريباً ان تأكل الوارثة وزوجها سفرجلاً (فكل المتزوجين حديثاً يأكلون هذه الثمرة) وهذا ما يجعل حديثهما المتبادل رائعاً. ولاسيما وانها تجعل رائحة الفم طيبة. لكن لداسييه تفسيراً آخر من مؤداه الحرص المتبادل على سلامتها لأن السفرجل كما هو شائع لدى العامة تريق للسموم ويظهر من [يليني: التاريخ الطبيعي ١١:٥ و ٦:٢٣] ان لهذه الثمرة منزلة عظيمة لدى الاقدمين من نواح عدة.

(٥٥) تجلب العروس الى منزل الزوجية قصعة فخارية تسمى [فروغيتيوس] تخبز فيها ارغفة الشعير. كإشارة الى انها صارت تضطلع بأمر البيت وانها ستشارك في اشغال الأسرة.

(٥٦) تمثيلية بهذا الاسم لا يعلم باسم مؤلفها على وجه الدقة. تدور أحداثها حول [فيلوكتيتس] صديق هرقل ومرافقه. بعد موت هرقل ورث عنه سهامه المغموسة بدم الهيدرا. سقط أحد هذه السهام على قدمه بمحض الصدفة، فأحدث جرحاً ونفراً الجرح فأضطر الأغرقي الزاحفون على طروادة الى تركه وهو يقاسي ألماً مبرحة في لمنوس. ولما لم يكن بوسعهم الاستيلاء على تلك المدينة بغير هذه السهام القتالة. فقد أرسلوا اليه وقدأ يلتمسونها منه. بنى [سوفوكليس] من هذه الاحدثة مأساة مازالت موجودة.

تزوج امرأة في مقتل العمر ايتها الفتاة المسكينة: «خطأ أنك تزوجت في حال ملائمة!»
ومن احكام هذا القانون انه «اذا وجد شاب تزوج امرأة غنية كبيرة السن. وقد ازداد بدانة وسمن كالقطة وهو في مرتعه، أبعده عنها حالاً وتزوج بامرأة صغيرة ذات سن مناسبة...» وفي هذا الكفاية.

من قوانينه الأخرى النافعة التي اصدرها، تحريم ذكر الموتى بسوء^(٥٧) فمن الصلاح والدين أن يحتفظ المرء للذاهبين بحرمة وقداسة، ولا يعيب بذكرى من قضى نحبه. ومن حسن الخلق أيضاً أن يوضع حد للشنان، بمنع المواطنين من اغتيااب الأحياء في المعابد وساحات القضاء ودوائر الحكومة، أو اثناء الألعاب العامة، ومن يفعل ذلك يجازى بدفع ثلاثة دراخمتا للمقذوف من غرامة للحكومة قدرها دراخمان. فالعجز عن ضبط العاطفة، دليل على طبع ضعيف وسوء تربية يصعب تهذيبها في أغلب الأحيان، وقد يكون تقويمها مستحيل. وعلى القوانين أن تضع في حسابها جميع الاحتمالات ان كان غرض صانعها فرض العقوبات على القلة المذنبه لأجل الإصلاح لا معاقبة الكثرة دون ما هدف أو غاية.

وكان موضع ثناء عظيم لقانونه الخاص بالوصايا. فقبله لم يكن احد يستطيع ان يوصي بماله. لأن تركة الميت هي ميراث مؤكد لأسرته لا ينازعها فيه أحد. فسمح صولون بالوصية، كذلك سمح بها في حالة ما لو كان الموصي بلا عقب ذكر فله ان يهب ماله لمن يشاء^(٥٨) وأظهر صولون بذلك أن رابطة الصداقة أقوى من رابطة القرابة، والميول البشرية أقوى من دواعي الضرورة وجعل مال المواطن ملكاً حقيقياً له يتصرف به دون قيد أو شرط إلا أنه منع وصية المحتضر وأبطل كل ما جاء منها نتيجة شدة مرض أو بسبب سحر، أو سجن أو اكراه. أو اغراء اقدمت عليه المرأة الموصى لها، لأن الاغراء على ارتكاب خطأ هو في مستوى الاكراه وليس ثم فارق كبير بين الخديعة والإجبار وبين الاغراء والاكراه مادام كلا الأمرين يحدان من حرية العقل سواء بسواء^(٥٩).

وأصدر قانوناً بتنظيم افراح المرأة وحدادها وكيفية مشيتها وألغى كل ما هو ضد الحشمة أو غير معقول. فلم يسمح للمرأة اثناء خروجها من الدار ان تلبس أكثر من ثلاث قطع من

(٥٧) حتى من قبل أولادهم. وهذا أقصى حد للتحريم [ديموستينس].

(٥٨) «أولاد شرعيون» كما يضعها ديموستينس.

(٥٩) وكذلك رُسم أن لا يستفيد الابناء بالتبني من الوصية. ولكن ما أن يرزقوا أولاداً شرعيين حتى يكونوا أحراراً في العودة الى الأسرة التي جاؤوا منها. اما اذا بقوا دون اولاد فان الاملاك الموروثة بفضل تبنيهم تعود الى اقرباء المتبني [ديموستينس].

الثياب، وان لا تحمل من اللحم والخمر ما تزيد قيمته على اوبول Obol واحد^(*) أو سلّة يزيد ارتفاعها عن كيوييت^(**) واحد. وان لا يخرج ليلاً إلا في عربة يتقدمها مشعل مضيء^(٦٠). ومنع اهل الميت أن يضرين صدورهن اثاراً للعواطف أو ان يندبن ميتاً في جنازة آخر^(٦١). وأبطل عادة التضحية بثور على القبر، ودفن أكثر من ثلاثة أردية مع الميت، وان لا يزور القبر غير ذوي الفقيده^(٦٢) باستثناء مناسبة التشييع. ومعظم هذه الأمور ممنوعة في قوانيننا الحالية. لكن يزيد عليها فيما بعد حالة واحدة، وهي أن تقوم مراقبات للنساء الشاكلات باصدار احكامٍ طفيفة على كل من تسرف في حدادها واظهار حزنها.

ولاحظ صولون ان المدينة أخذت تكتظ بالأشخاص الذين يأتون الى اتيكيا من كل حذب وصوبٍ سعياً وراء الرزق، وان معظم البلاد قاحلة ماحلة وان تجار البحر لا يصدرون لمن لا يستوردون منه بالمقابل فوجه المواطنين الى التجارة. وسنّ قانوناً ينصّ على أن الأبن ليس مكلفاً باعاشة ابيه ان لم يقيم الأب بتنشئته على حرفة ما^(٦٣)، والحق يقال أن ليكورغوس ورث مدينة خالية من الأجانب، وارضاً... «تتسع لجماهير غفيرة، تكفي ضعف عددهم»

على حدّ ما قال [يوريديس] زد على هذا أن الشغيلة كانوا كثيرين حول سبارطا، ليس بينهم عاطل واحد، وكلهم يعمل ويكدح. ولذلك كان مصيباً حين أعفى مواطنيه من الأعمال اليدوية والحرف الاعتيادية، ابقاهم تحت السلاح وعلمهم صناعة الحرب لا غير. في حين أن صولون استوحى قوانينه من واقع بلاده، ولم يحاول جرّ الواقع الى قوانينه.

ووجد خصوبة الأرض اضعف من تؤمن عيشة المزارعين، ناهيك بعجزها عن اعاشة الجموع

(*) عملة يونانية قيمتها عشرة افلس تقريباً.

(**) قياس يوناني طوله ١٨ انجاً.

(٦٠) لمنعهن من ارتكاب اية جريمة تحت ستر الظلام.

(٦١) يسرد [ديموستينس] في (تيموكراتيس) قواعد صولون الخاصة بالجناز على النحو التالي: «قلّسبح اجساد الموتى في البيت بحسب وصية الميت. وفي اليوم التالي قبل شروق الشمس تحمل منه ويتقدم الرجال الجنازة اثناء السير، وتسير النسوة في أعقابها. ويحظر على اية امرأة في الحداد ان تدخل حرم اي ميت أو تسير في جنازته حتى تنقضي على ميتها ثلاثة أعوام كوامل، الا اذا كان الميت الثاني بدرجة ان عم أو ابن خال. هذه القواعد اقتبسها مشترع «الالواح الاثني عشر» الروماني ففرضها على الرومان.

(٦٢) تعتبر هذه الزيارة عملاً من أعمال البر. اما زيارة الغرباء فهي مكروهة اذ يفترض انها تستطِن نية خبيثة مجرمة وهي سرقة عظام الميت لتستخدم في اعمال الشعبة.

(٦٣) من يحكم بجريمة الكسل والبطالة ثلاث مرات. يعن للملا بأنه انسان «سيء السيرة»، وقال بعض الكتاب ان [دراكو] جعل البطالة مرة واحدة جريمة عقوبتها الموت. إلا أن صولون خفف من هذه الصرامة وجعل عقوبة السوء السيرة الغرامة بمبلغ مائة درهم (دراخمة). ويؤكد هيرودوتس وديون [المرجع السالف ١ و ٦:٢] ان مثل هذا القانون كان مطبقاً في مصر ويحتمل جداً أن يكون صولون المطلع على قوانين تلك البلاد، قد اقتبس هذا المبدأ من هناك.

العاطلة التي لا تمتهن الزراعة. فأدخل التجارة في عداد المهن. وأمر مجلس الاريوباغيين بالتحقيق عن مصدر ارزاق كل فرد وعقاب العاطلين. لكن القانون التالي كما شرحه [هيراقليدس پونتيكوس] كان اشد صرامة، فقد قضى بأن لا يجبر أولاد النساء غير المتزوجات بإعالة آبائهم غير الشرعيين. فمن يأبى تشكيليات الاتحاد الشريف بالزواج، يعتبر انه يعاشر النساء لأجل المتعة لا لإنجاب الولد، وبهذا يكون حرمانه من كد ابنه السفاح جزاءً وفاقلاً لأنه حرم على نفسه كل حق له في تأديب أولاده. وجعل من ولادتهم نفسها فضيحة وعاراً.

واغرب ما في قوانين صولون تلك تتعلق بالنساء^(٦٤). فقد سمحت لكل امرءٍ بقتل الزاني حين يضبط في الفراش. لكن اذا اجبر اي رجل حراً على الزنا، فعليه ان يدفع غرامة قدرها مائة دراخما، واذا اغواها يُعزم عشرين دراخما. أما أولئك اللاتي يبعن انفسهم علناً أي العاهرات اللاتي يذهبن علناً الى كل من يدفع لهن أجراً. فلا جناح عليهن وعلى معاشرتهن. وحرم بيع البنت والأخت إلا اذا ثبت انهن خلعن عذارهن، وان يكن غير متزوجات.

الحق يقال انه ليس من العدل في شيء أن يفرض على الذنب عقاب جدّ صارم أحياناً، دون اتاحة مجال لندم صاحبه، في حين يعاقب المرء عنه وأحياناً بعقوبة طفيفة جداً، بفرض غرامة زهيدة مثلاً، كأن القضية مجرد لعبة! إلا اذا كانت النقود في آتينا من الندورة بمكان آنذاك. فقلّة النقد تجعل هذه الغرامات عقوبات شديدة جداً. ونحن نرى في تقديم الأضحى ان ثمن الشاة الواحدة والبوشل الواحد من القمح قد حددا بدراخما واحد لكل منهما. والفائز في الألعاب [الإستمية] يعطى مائة دراخما جائزة. والفائز في الألعاب الاولمبية يعطى خمسمائة ومن يأتي بذئب يعطى خمسة. ومن يأتي بجروه يعطى درخما واحدة وقيمة الثور خمس دراخمات، وقيمة الشاة دراخما واحدة كما يؤكد [ديميتريوس] القاليري. على أن الأسعار التي حددها صولون في لوحه السادس عشر بخصوص الحيوانات الممتازة هي بالطبع أعلى بكثير من هذه الأسعار، ومع هذا فهي واطئة جداً نسبةً الى الأسعار الحالية. لقد كان الاثينيون أصلاً اعداءً للذئب ارضهم اصلح للرعي منها للزراعة. وبعض المورخين يؤكدون أن طبقاتهم لم تأخذ اسماها من ابناء [أيون Ion] وانما من الصنائع المختلفة التي يزاولونها، فالجنود يسمون [هوپليستي Hoplite]. والصنّاع [ايرغادس Ergades] والفلاحون [غيليونتس Gele-ontes] والرعاة والباحثون عن الكلاً [ايغيكوريس Aegicores]^(٦٥).

(٦٤) الزانية لايسمح لها بالزينة أو المشاركة في القرايين العامة. وان فعلت فلكل شخص الحق في خرق ثيابها من دبر وضربها في اي مكان من جسمها على ان لا يؤذي الضرب الى القضاء على حياتها أو فقء عينيها. (٦٥) هذا التقريب اللغوي العسير في تفسير اسماء القبائل القديمة الأربع التي اشتقت من أسماء ايون =

ولما كانت البلاد الاتيكية قليلة الانهار والبحيرات^(٦٦)، وليس بها ينابيع ثرة والناس معظمهم يستخدمون الآبار التي يتولون هم حفرها. فقد سن صولون قانوناً يسمح بالاستقاء من الآبار العمومية التي تقع ضمن مسافة هيبكون Hippicon واحد (أي اربع فورلنغات)^(*) من المستقين. فاذا كانوا على مسافة أبعد فعليهم أن يحفروا بئراً خاصة بهم. فاذا حفروا الى عمق ستين قدماً ولم ينبط ماء فلهم الحق في أن يأخذوا ملء مكيال (سعته اربعة غالونات ونصف غالون) يومياً من جيرانهم. لأنه كان يرى من الحكمة أن تؤمن الحاجة، وأن لا يشجع المرء على الكسل. وكان ذكياً في أنظمته المتعلقة بشؤون الغراس، فمن يغرس شجرة جديدة عليه أن يبعد موضعها مسافة خمسة أقدام من حدود حقل جاره على الأقل. فاذا كانت شجرة تين أو زيتون فيجب أن لاتقل المسافة عن تسع أقدام لأن جذورها تمتد وتنتشر ولا يمكن ان يغرس هذان الصنفان قرب اي نوع من الأشجار الأخرى. إلا وألقا بها ضرراً لأنهما تمتصان غذاءها وأحياناً تخنقها بعملية تنفسهما ومن يحفر حفرة أو ساقية فعليه أن يجعلها بعيدة عن أرض جاره بمسافة تساوي عمقها ومن يربي قفائر نحل فعليه أن يضعها ضمن مسافة ثلاثمائة قدم من قفائر نحل شخص آخر.

ولم يسمح بتصدير مادة الى الخارج غير الزيت ومن يصدر مادة أخرى غيرها يلعبه الأرخون لعنة دينية. أو أن يدفع عنه مائة دراخما والقانون التالي مثبت في اللوح الأول من القوانين فلا يظن أحد - كما يؤكد بعضهم - انه لا يعقل ان تصدير التين كان ممنوعاً في يوم ما وأن المبلِّغ عن المخالفين كان يدعى «المتبصص»^(٦٧)! كذلك استن قانوناً بخصوص جراح الحيوان والأذى الذي يحدثه في الغير. فاذا عض كلب شخصاً أوجب القانون على صاحبه أن يسلمه وقد ربط الى عنقه جذع خشب طوله اربع اقدم ونصف قدم^(٦٨). وهو ضمان جيد لأمان الآخرين من غائلة الحيوان. أما القانون الخاص بحصول الأجانب على الجنسية الآثينية فهو مما

= الأربعة كما يقول هيرودوتس [٦٦:٥]، فالأول لا علاقة له بـ Nolpe اي الأسلحة. والثاني لا علاقة له بـ Ergon اي العمل. والثالث لا صلة له بـ ge اي الأرض. والرابع لا صلة له بـ aix اي العنزة. (٦٦) يحدثنا [سترابو] عن وجود نبع ماء غير بالقرب من ليكيوم. وبنوه افلاطون بنبع ماء بارد في غاية الصفاء. الا ان اتيكا هي بلاد قاحلة عمومياً وكل من نهري ايليسوس، دارياتوس لا يجريان باستمرار. حتى كينيسوس نفسه الذي كثيراً ما يتدفق ماؤه، ويلبث أن يجف صيفاً في أغلب الأحيان. (* مقياس طولى يبلغ حوالي ٢٢٠ ياردة فيكون الهيبكون حوالي ٨٨٠ ياردة. (٦٧) الترجمة الحرفية يجب أن تكون «عارض التين» وقد أنتشر هذا الاسم فيما بعد فأصبح هكذا Syco- phant ويقترن بصفات رذيلة كالحقارة والذلة والوضاعة. (٦٨) هذا الحكم وعدد آخر من أحكام صولون، دخلت في أحكام الالواح الاثني عشر الرومانية. فقد أرسل الرومان في حدود ٣٠٠ ق.م وقدأ الى آثينا لإختيار بعض القوانين اليونانية لقانونهم المدني.

يشك في صلاحه. اذ لم يسمح بهذا الامتياز الا لأولئك الذين حكموا في بلادهم بالنفي المؤبد أو من جاؤوا اثينا للتجارة تصحبهم أسرهم. ولم يكن يقصد من هذا التحديد، تثبيط همة الاجانب في الحصول صفة المواطن الآثيني الحر، بل لتحريضهم على المساهمة الفعالة الدائمة في الحكم، زد على هذا أن أولئك الذين اخرجوا قسراً من بلادهم أو تركوها بمحض اختيارهم سعيماً وراء الرزق سيكونون أكثر إخلاصاً لبلادهم الجديدة من وطنهم الأول.

وأما قانون الملاعب العامة (واسمه پاراسيتين Parasitein)^(٦٩) فهو نموذج للقوانين الصولونية بغرابته. لأنه يعاقب المتردد عليها كثيراً، مثلما يعاقب المنقطع عنها، فالأول مفرط في استمتاعه، والثاني مستخف بالدولة!

وحدد سريان هذه القوانين مائة عام، وكتبها على ألواح، أو بكرات خشبية أو ما يدعى [آكسون Axon] تدار حول محور وهي في خزانات. وقد ظلت بقايا منها في الپيريتانيوم أو القاعة العمومية في آثينا معروضة للناس حتى أيامي. وقد عرفت حسب قول ارسطو باسم [كيريبيس Cyrbes]^(٧٠) بدليل ابيات للكوميدي [كراتينوس Cratinus]:

«بعد استئذائك - أقول بفضل صولون وبفضل دراكو اللذين أشعلت [كيريبيساتهما] النار التي حُمصت بها حبات فاصولياتنا»^(٧١)

لكن بعضهم يقول أنها [كيريبيسات] تامّة تتضمن قوانين متعلقة شعبنا بالقرابين وبفرائض الدين وغيرها.

لقد أقسم المجلس كله على تأييد هذه القوانين. كما أقسم كل فرد من طبقة الـ: تسموتيتيا عند حجر ساحة السوق، بأن يقدم كل من خرق نصاً من نصوصه - تمثالاً ذهبياً مساوياً لجسمه الى دلفي^(٧٢). ولاحظ مقدار الاختلاف بين أيام الأشهر، وان القمر لا يطلع ولا يأفل بحسب

(٦٩) ومنها جاءت كلمة طفيلي Parasite المعروفة في أغلب اللغات الاوروبية على أنها كانت من الصفات المشرفة في الأزمنة القديمة [أثينيوس ٦:٦] اذ كان يقصد بها رفيق الطعان على مائدة القرابين. وبيان ذلك أنه كان ثم في بلاد الأغرقيك عدداً من الأشخاص كرم بهذه الصفة وظيفه افراده انتقاء الحبوب والثمار وما هو ضروري للتقدمت العامة. وقد أمر صولون بان تقدم كل قبيلة ذبيحة واحدة في الشهر وبعد انتهاء مراسيم القران تقدم مادبة عامة يساهم فيها كل فرد من القبيلة بدورٍ والأشهر به أو وجب عليه تقديم عذر مشروع لتقاعسه.

(٧٠) ارسطو: [دستور آثينا ١:٧].

(٧١) معاصر [پريكس] وبعد صولون بحوالي مائة وخمسين سنة، عندما أهملت قوانين هذا الأخير تماماً. (٧٢) في ذلك الزمان كان الذهب نادراً في اليونان، حتى ان السبارطيين الذين أمرتهم النبوءة بطلاء وجهه تمثال ابولو بالذهب. لم يجدوا الذهب الكافي. فأشارت العرافة الكاهنة عليهم بشراثة من (كروسوس) ملك ليديا.

حركة الشمس، فكثيراً ما يسبقها ويشرق قبلها. وأمر لذلك أن يسمّى اليوم قديماً أو جديداً معيداً الى الشهر القمري السابق ذلك الجزء الباقي منه قبل حصول الاندماج، ومضيفاً اليوم المتخلف الى الشهر القمري الجديد، ويظهر انه أول من فهم بيت الشاعر هوميروس:

« تلك نهاية الشهر القديم وبدأ الشهر الجديد»^(٧٣)

وأطلق على اليوم الذي يتلوه «القمر الجديد». وبعد اليوم العشرين لم يعد بالاضافة اليه. بل بطرح العشرين من الثلاثين بحسب اوجه القمر المتناقصة. وعندما بدء بتطبيق قوانينه^(٧٤) أخذ الزوار يتقاطرون اليه يومياً يمدحون بعضها وينتقدون بعضها وينصحون بتهديتها وتعديلها الا ان القسم الاكبر جاء ليطلب معرفة السبب في وضع هذه المادة أو تلك تفسير واضح دقيق للهدف والمعنى. وتفادياً للحرجة وخوفاً من اساءة التفسير أو خليفاً بتنفيذ رغباتهم قرر التخلص من هذا الموقف الصعب ومصادر الحيرة هذه والحاح المواطنين «ففي الأمور الكبرى يصعب ارضاء الجميع»^(٧٥) كما قال لنفسه وتحت الادعاء بالتجارة...

(٧٣) إكتشف صولون خطأ نظرية (طاليس) القائلة بان القمر يكمل دورته في ثلاثين يوماً. فقد وجد أن الوقت الذي تستغرقه الدورة هو تسعة وعشرون يوماً ونصف يوم. فأمر بأن يكون شهر واحد مؤلفاً من ٢٩ يوماً، وشهر ثانٍ مؤلفاً من ٣٠ يوماً بالتناوب وبعد هذا وجد ان مجموع ايام السنة القمرية ٣٥٤ فلأجل مساواتها بالسنة الشمسية امر باستحداث ٢٢ يوماً أو ٢٣ يزداد كل سنتين. كذلك أمر الآثينيين بتقسيم شهورهم الى ثلاثة اقسام وهي البداية والوسط والنهاية. كل قسم من الشهر يتألف من عشرة ايام. والشهر الأخير البسيط يتألف قسمه الثالث من تسعة أيام. وبحساب الايام فانهم يتداولون القول هكذا: أول يوم من مبدأ القمر أو ثاني يوم من وسط القمر (اي اليوم الثاني عشر من الشهر) أو آخر يوم من نهاية القمر (ويقصدون اليوم الثلاثين من الشهر).

(٧٤) نوه بولتارخ بذلك الجزء من قوانين صولون التي وجدها فريدة تستدعي الالتفات. إلا ان [ديوغينيس ليثريتوس] و[ديموستينس] ذكرا مجموعة أخرى لا يمكننا اغفالها هنا وهي: (١) من لا ينفق على امه وابيه بالشرير السيء الصيت. (٢) وكذا يعامل ناكرا بوبته. (٣) الرجل الذي يختلف الى بيوت الفسق والفجور يمنع من الكلام في الاجتماعات العامة. (٤) محظور على الوصي أن ينام أو يعاشر أو يتزوج والدة ذلك الذي نصب وصياً عليه. (٥) لا يناط تعليم القاصر بذلك الذي يليه في حق الميراث. (٦) يحظر على حُقار الاختتام الاحتفاظ بالاصل الذي نقش عنه الختم. (٧) من فقا عين آخر فلتفقا عينه. (٨) اذا ادمن (أرخون) على الخمر فيجب قتله. وأما الاحكام التالية فقد أوردها ديموستينس (أ) من رفض التطوع في الحرب أوفر وأظهر جبناً، يمنع من غشيان الاماكن العامة والميدان العام واماكن العبادات العامة. (ب) اذا فاجأ رجل زوجه متلبساً بالزنا وعاشرها بعد ذلك فانه يعد من الاراذل. (ج) يلاحق القواد ويقتل عند القبض عليه. (د) إن قام أحد بسرقة في ساعات النهار، فليؤت به الى الضباط الأحد عشر، واذا قبض عليه متلبساً بسرقة في ساعات الليل فليقتل. أو يُجرح في حالة هروبه، ويحمل الى الضباط الأحد عشر في حالة القاء القبض عليه. وان سرق اموالاً عامة فعليه أن يدفع ضعفها. واذا شاء المحكوم (عند عدم رفع الغرامة) فليكبل بالاغلال لمدة خمسة ايام. وان جدّف أو ارتكب عملاً محرماً فليقتل.

(٧٥) المقطوعة رقم ٧.

ابتاع سفينة تجارية قاصداً السفر، ورحل وغاب فترة أمدها عشر سنوات، وكان يأمل من ذلك أن تثبت قوانينه في نفوس المواطنين ونزل مصر^(٧٦) أولاً وسكن حسب قوله «قريباً من الموضوع الذي منه يصب النيل فيه ماءه الدافق عند ساحل قنوب - Canopus».

وامضى ردهاً من الزمن يدرس مع [پسنوفيس Psenophis] من مدينة هليوبوليس، و[سونخيس Sonchis] السائتي Saite وهما أوسع الكهنة ثقافة وعلماً. ومنهما ظفر بمعلوماته عن قصة جزيرة اطلانطيا Atlantia^(٧٧). فقرر نقلها الى اليونانيين وشرح في نظمها شعراً على قول افلاطون. ومن مصر رحل الى [قبرص] فأحتفى به [فيلوقبروس Philocy-prus] وأكرمه إكراماً عظيماً. وهو أحد الملوك فيها، كان يحكم مدينة بناها [دموقون] ابن (تسيوس) بالقرب من نهر [كلاريوس] وموقعها حصين. إلا انها صعبة الوصول، غير مريحة للسكان. فأغراه صولون بأن ينقلها الى السهل الجميل المنبسط تحتها ويجعلها مدينة جديدة أجمل واوسع من مدينته تلك وبقي هناك وساعد في جمع السكان اليها، وفي هندسة تحكيماتا ودفاعاتها وجعلها مريحة للسكنى، بحيث تقاظر الناس اليها. وحذا ملوك قبرص الآخرين حذو [فيلوقبروس] وأختطوا مدنهم الجديدة بالشكل نفسه وإكراماً لصولون واعترافاً بفضله أطلق الملك اسمه على المدينة فصارت تدعى [صولي Soli] وكانت قبلاً [إيبى Ae-pae]. ونوه صولون بحادث تأسيسها في إحدى ملحmates المهداة الى [فيلوقبرص] اذ قال:

«ألا فلتعش على عرش [صولي] عمراً مديداً، وليخلقك ابناءً من صلبك. ومن جزيرتك السعيدة [قبرص] فلتُرسَل لي وانا أبحر - ربح رياء، لتَهَبَ مباركةً حكمك الجديد. وليشع الإزدهار في مدينتك، ولترس بي الى البرّ بأمان.

ويرى بعضهم أن حكاية لقاء صولون [بكرسوس] لا تتفق مع الوقائع التاريخية. إلا اني لاستطيع أن اتعمى عن حادثة بلغت هذا المبلغ من الذبوع وأسقطها من الحساب بعد أن

(٧٦) من المحتمل أن ذهابه الى مصر كان لغرض بقاءه بعيداً عن الأحداث لا هرباً من طغيان [پسستراتوس]. كما يقول بعض الكتاب فسنة لم تكن تتحمل ذلك في الثانية، وتعليل بولتارخ لسفره هو الصحيح. و[اقنوب] مدينة تقع على مصب النيل ويدعوها هيرودوتس «معادي» وهيليوپوليس هي «الطرية» وسائس هي «سا» وكلاهما من المدن العتيقة الموغلة في القدم.

(٧٧) انهى افلاطون هذا التاريخ من ذكريات صولون [كما يتضح من مناظرته طيمائوس وكريتاس]. وبحسب ادعائه كانت الاطلانطيس الذي ينسب اليها المحيط الاطلنطي. أكبر مساحة من آسيا الصغرى وأفريقيا (المعلومة آنذاك). وبصرف النظر عن سعتها فانها غرقت في يومٍ ليلة! ويحدثنا [ديودورس] ان القرطاجيين الذين أكتشفوها فرضوا عقوبة الموت على من يسكنها. ومن ضروب الحدس التي لحقت بهذه الاسطورة هو ان القرطاجيين عرفوا أمريكا عن طريقها. وهناك رأي آخر مؤاده ان الانطلانطيدي (الجزر السعيدة) هي المعروفة اليوم بجزر الكناري.

تواترت وقوي سنادها. هذا فضلاً عن ملامتها التامة لطبيعة صولون وجدارتها بحكمته وسعة عقله. وان كانت في الواقع لا تتفق وبعض الروايات التاريخية. التي لم تفلح جهود آلاف المؤرخين في ترتيبها وتنسيقها وفق نظام يتفق عليه الجميع وترضى عنه كل الآراء. يقولون ان صولون قدم الى [كروسوس] بطلب منه. وكانت حاله عند اللقاء شبيهة بـرجل البرّ عندما يرى البحر لأول مرة في حياته، فكما يتوهم بكلّ نهرٍ يصادفه بحراً محيطاً، كذلك كان صولون وهو يسير في بلاط الملك مشاهداً العدد الهائل من النبلاء وعليهم انفس الحلل، يحيط بهم الحرس الكثير والسعاة الصبيان. وتوهم في كل واحد بأنه هو الملك، حتى بلغ [كروسوس] وكان هذا يتحلّى باندر وانفس ما يخطر بالبال من الجواهر والذهب ويرتدى أعلى حلل الأرجوان- وبدأ منظره مهيباً فخماً يبهر العين. لكن صولون لم يظهر ما يدل على دهشة واستغراب عندما مثل امامه. كذلك لم يثن عليه بما كان كروسوس يتوقعه. بل اوضح بمسلكه لكلّ عين نفاذه انه رجل يحتقر كل مظاهر الأبهة والفخفة، والاختيال الرخيص الذي ينطوى عليه المشاهد. وأمر كروسوس خدمه أن يفتحوا لصولون ابواب خزائنه وكنوزه ويعرضوها لانظاره ولم يكن صولون ليرغب في شيء من هذا. لأنه كوّن فكرته الصائبة عن صاحبها حال ما وقع نظره عليه. ولما عاد من جولته تلك سأله كروسوس: هل عرف أحدًا يرفل في مثل سعادته؟ فأجاب صولون انه عرف شخصاً يدعى [تيللوس Tellus] وهو مواطن اثيني من بني قومه. كان رجلاً نزيهاً ذا ابناء صالحين وثروة لا بأس بها. مات موت الأبطال في ساحة القتال دفاعاً عن بلاده. فوماه كروسوس بسوء الفهم وأفن الرأي لأن مقياس السعادة عنده لم يكن كثرة الذهب والفضة. وانه فضلّ عليهما حياة وموت رجل بسيط مغمور النسب بالمقياس الى هذا القدر في العظمة والسلطان. ثم انه سأله ثانية: هل عرف رجلاً أكثر منه سعادة غير [تللوس] فأجاب صولون: «بلى، [كليوبيس Cleobis] و[بيتون Biton] وهما شقيقان عظيمي الحب بعضهما لبعض وبنان طائعان لوالدتهما الى أقصى حدود الطاعة ولما تأخر جلب ثورين لجرّ عجلتها، شدّ انفسيهما في النير وسارا بالعجلة الى معبد [جونو] وأكبر جيرانها سعادتها في ابنيها، فامتلات حبوراً، وبعد تقديم القرابين واجراء المراسيم الدينية خرج الشقيقان ليصيبا شيئاً من الراحة وناما ولم يستبقظا، ماتا ميتةً هائلةً هنيئةً وهما في ذروة التشريف والتكريم». قال كروسوس غاضباً: «اذن فأنت لا تعدنا بين السعداء قط؟» ولم يكن في نية صولون مجاملته، ولا اغضابه أكثر مما أغضبه قائلاً: «إن الآلهة أيها الملك قد تفضلت على الأغرقي بكلّ النعم الأخرى على درجات معتدلة، لذلك كانت حكمتنا عادية بسيطة، لا حكمة ملوكية نبيلة. وهذا ما يمنعنا - بعد ملاحظتنا مالا يحصى من البلايا المحدقة بأحوال

البشر - من التجبّر والتأفف من متع حياتنا آلانية، ويحول بيننا وبين الدهشة لسعادة أيّ إنسان لأن التبدل يطرأ عليها مرور الزمن. فالمستقبل المجهول قد يأتي بأيّ تغيير في حظوظ الانسان. ونحن لانعدّ المرء سعيداً إلا ذلك الذي حبته الآلهة بسعادة دائمة طوال حياته. ونحن لانميل الى وصف المرء بالسعادة وهو في منتصف حياته عرضةً الى تقلبات حظوظه. وليس من سلامة الرأي وثباته أن يُتوجّ مصارعٌ ويعلن فوزه وهو ما يزال في حلبة النزال».

بعد هذا صرفه [كروسوس] وفي نفسه ضيق وانزعاج. ولم يعظه صولون بشيءٍ ما. كان [ايسوب] مدون الأساطير في [سارديس] قد حلّ ضيفاً على كروسوس آنذاك بدعوة منه، ونال لديه خطوة كبيرة. وقد اصابه غمّ عظيم لاساءة استقبال صولون، فأتصل به وقدم له النصيحة بقوله: «اي صولون! فليكن حديثك مع الملوك إمّا قصيراً أو معقولاً فأجابه صولون: «لا هذا، ولا ذاك، لن يكون قصيراً ولا معقولاً. لذلك استخفّ [كروسوس] بصولون في حينه. لكن لما تغلّب عليه [كورش] وأستولى على مدينته، وأخذ حياً وحكم عليه بالحرق ووضع فوق اكداس الحطب مقيداً على مشهد من جميع الفرس وبحضور الملك كورش نفسه هتف بأعلى صوته ثلاث مرات: «ايه يا صولون!» فعجب الملك وارسل من يستفسر: اي رجل أو آله صولون هذا الذي استصرخه وحده في ضيقته شديدة؟ فافضى اليه [كروسوس] بالحكاية كلها قائلاً: «انه أحد حكماء الأغرقي العظام، استقدمته ليعظني أو يعلمني شيئاً احتاج اليه. وانما لأريه سعادتي وأشهده عليها فظهر أن البؤس في فقدان تلك السعادة كان أشدّ وقعاً من لذة التمتع بها. عندما كنت حائزاً عليها بداخيراً موضع أخذ وردٍ واحتمالات. اما الآن فقد جلبت خسارتها بلوى حقيقية يصعب احتمالها. وقد أدرك صولون ذلك ونظر الى نهاية حياتي فاستنتج ما سيكون مما هو كائن حينئذٍ ولم يعتمد على المجهول المشكوك فيه، ولم يزلزله حكمه ما رأى». لما سمع كورش ها الكلام - وكان اوفر عقلاً من [كروسوس] ووجد في المثل الشاخص امامه تجسيداً لنبوة صولون، لم يكتف باطلاق كروسوس، والعفو عنه بل اكرمه طوال حياته. فكان لصولون أن يفخر في أنقاذ ملك ووعظ آخر.

عندما غادر صولون آثينا بدأ الخصام بين الآثينيين. فتزعم المدعو [اليكورغوس] حيّ السهل. وتزعم [ميغالس ابن ألكميون] سكان الساحل ووقف [پسسستراتوس] على رأس حزب حيّ المرتفعات^(٧٨) حيث يسكن [الثيتس] أفقر الناس، وأعدى اعداء الاغنياء، وأخذت المدينة تتطلع الى حكم جديد، وان ظلت تطبق قوانين صولون الجديدة. وكان امل الثيتس كبيراً

(٧٨) هذه الاحزاب الثلاثة التي انشعب اليها الآثينيون كنا قد نوهنا بها سابقاً وهي على التوالي «بيديائي Pe-diaei» و«پارالي Parali» و«ديكيري Dicerii».

في ان التغيير سيكون أصلح لهم، وسيجعلهم أقوى نفوذاً من الحزب المناويء.

هكذا كانت الأحوال عندما أب صولون فاستقبله الجميع بتجلّة وإكرام. لكن كبر سنّه حال دون قيامه بأي عملٍ أو نشاط. بل حتى القاء الخطب العامة كالسابق. إلا أنه حاول راب الصدع وتسوية الخلافات بالمباحثات الخاصة مع زعماء مختلف الأحزاب. وبدا له [پسستراتوس] أكثرهم تفاهماً بأنه كان لين العريكة الى أقصى الحدود، لطيفاً غاية اللطف في أقواله. وصديقاً كبيراً للفقراء^(٧٩)، معتدلاً غاية الاعتدال في خصومته السياسية. وقد أوصله ذكاؤه وفراسته الى ما حرمته منه الطبيعة لذلك كان موضع ثقة أكثر من الآخرين. وأشتهر بالحصافة وحب النظام والعدل، ومعاداة كل من يحاول النيل من نظام الحكم القائم. بهذا كله استمال أغلبية الجماهير ونجح في اقناعهم. ولم يلبث صولون أن فهم طبيعته، وأدرك نواياه ووقف على خطئه قبل غيره. إلا أنه لم يكرهه بسبب طموحه. وأخذ يحاول تعويده على التواضع وتخليصه من الطموح وكثيراً ما قال له وللآخرين. لو استطاع القائد أن يتخلص من حبّ العظمة ويجتثها من فكره ويبرأ من رغبته في الحكم المطلق فلن يقوم مثله رجلاً فاضلاً ومواطناً ممتازاً في البلاد كلها. وكان [تسپيس Thespis] في تلك الأيام قد بدأ يغير في شكل التمثيليات التراجيدية، فتعلق الناس بها كبديعة جديدة، وإن لم تصل في حينه الى مرحلة المنافسة والمساابقة. وكان صولون بطبعه ممن يحبون سماع الأشياء الجديدة وتعلمها وبما انه كان عاطلاً بالغاً ارذل العمر وليس لديه ما يشغل به نفسه غير الخمر والموسيقى، فقد ذهب لرؤية [تسپيس] هذا وهو يمثل جرياً على العادة. وبعد انتهاء والتمثيلية وجه اليه الكلام قائلاً: الا يشعر بالخلج وهو ينشر الاكاذيب نشرأ امام هذا العدد الكبير من الجمهور؟ فأجاب [تسپيس] قائلاً: لا ضرر ثم في ترديد الاكاذيب وتمثيل المسرحيات. فرفع صولون عصاه ودق بها الأرض وقال: و«يحك با هذا! لو أننا حينذا مسرحية كهذه وآتينا عليها فسنجد انفسنا يوماً ونحن نباشر أمثالها!».

فلما أحدث [پسستراتوس] جرحاً بجسمه^(٨٠) وحمل في عجلة الى ساحة السوق الكبرى وراح يُشير الناس موهماً أن خصومه هم الذين جرحوه بسبب نشاطه السياسي. فثار غضب

(٧٩) المقصود بالفقراء هنا ليس أولئك الذين تحلّ الصدقة عليهم. فأمثال هؤلاء لم يكن لهم وجود في أثينا. يقول [ابزوقراطس] «في تلك الايام لم يكن ثم مواطن مات بسبب الفقر. ولم يكن ثم من يستجدي في الطرقات جالياً على المجتمع العار».

(٨٠) يضيف هيرودوتس (٥٩:١) انه جرح أيضاً بغال عجلته، وفي خطبة حماسية لبني قومه ذكرهم بمآثرة في خدمتهم ضد الميغاريين الخ.. وقد وقع هذا الحدث في اثناء الاولپياد الثامن والخمسين = ٥٦٠ ق.م [ارسطو دستور أثينا ١:١٤].

الجمهور وراح يهتف له، وتقدم منه صولون وقال له: «يا ابن هيپوقريطس، انك تقدم نسخة غير دقيقة من أوديسا [اوليسوس] هوميروس، عملها ليخدع بها أعداءه، بينما فعلتّها انت لخداع بني قومك^(٨١)» بعد هذا هاج الجمهور وتدافع لحماية [پسستراتوس] وعقدوا اجتماعاً عاماً فيه تقدم أحدهم وهو [ارسطون] باقتراح يقضى يتخصيص خمسين حامل دبوّس لحراسة [پسستراتوس] فعارض صولون في ذلك وتكلم كثيراً بالمعنى الذي ضمنه الابيات التالية:

«لقد سحركم بكلماته المنحقة، وعباراته الأخاذة

الى ان يقول:

حقاً أن كل فرد منكم ذكيّ أريب بنفسه

ولكن ما أن تجتمعوا معاً حتى تكونوا اشبه بشخص غبيّ اجوف!»

ولاحظ ان الطبقة الفقيرة تميل الى تحبيذ الاقتراح بحماية [پسستراتوس] وقد هاج هائجهم، ورأى الخوف يستولي على الاغنياء وهم ينسلون مبتعدين عن مكان الخطر والأذى. فترك الاجتماع قائلاً: انه أعقل من بعض الناس، وأقوى من بعضهم الآخر. أعقل ممن يفهم الدوافع والغايات، وأقوى ممن فهم و خاف الوقوف في وجه الطغيان. وبعد ان صدر الشعب قراراً يقضي بحراسة [پسستراتوس]، لم تتم الموافقة حول عدد الحرس، إلا انه لم يهتم بذلك فلامه ظفر وجنّد العدد الذي شاء منهم وأحتل بهم [الاکروپوليس] فضجت المدينة وسادها الاضطراب، وهرب [ميغاكلس]^(٨٢) وكل افراد أسرته. اما صولون الهرم - المعدم النصير فقد خرج الى ساحة السوق الكبرى والقى خطبة على المواطنين، أنهم فيها على ضعف نفوسهم وعدم مبالاتهم من جهة أخرى على ان لا يخسروا حريتهم بهذا الشكل الذليل الخانع ثم قال قولته المشهورة:

«في الماضي كان وقف الطغيان مهمة سهلة. أما الآن فليس أدعى الى التمجيد والفخار من العمل على ازالته عندما بدأ يذرّ قرنه ويشتد ساعده.»

لكن الجمهور كان يخشى الانحياز الى صفّه. فأب الى معناه كئيباً وحمل شكة سلاحه ووضعها في شرفة امام باب داره، ومعها العبارة التالية: «لقد انجزت مهمتي في المحافظة على بلادي وقوانين»^(٨٣) ثم اعتزل كل شيء. ونصح الاصدقاء بالفرار فأبى، وعكف على

(٨١) الاوديسيّ ٤:٢٤٤-٢٦٤.

(٨٢) ام افلاذون وهي سليلة أخ لصولون.

(٨٣) «وان على الآخرين أن يعملوا كذلك». أنظر [ارسطو دستور أثينا ٢:١٤].

قرض الشعر في تأنيب الآثيين كقوله:

إن ركبتكم النوائب اليوم لجبن اصابكم كلكم فلا تلقوا باللوم على الآلهة. فهي آلهة خير والخطأ خطأنا جميعاً. لقد وضعت كل الحراس بين يديه، وعليكم الآن ان تنفذوا ما يأمر به.»

وقال له كثيرون ان [الطاغية] سينزع منه حياته لهذا السبب، وسئل على من يعتمد في البقاء إن كان مصمماً على الاستمرار في هذه الأقوال الجريئة فأجاب «على شيوخوتي» ولكن لما تسلم [پسسراتوس] مقاليد الحكم أكرم صولون كثيراً ورعاه. ولم يبطل قوانينه وإنما طبقها حتى على نفسه وارغم اتباعه على احترامها، وبعث يروج ملاقاته وطلب النصح منه ووافق على كثير من اقتراحاته. حتى بعد أن انقلب طاغية مستبداً؛ لما اتهم بجريمة قتل أمام [الارويباغوس]، مثل بكل هدوء أمامه لدفع التهمة عنه وتبرئة نفسه ولكن المشتكين لم يحضروا. وأضاف قوانين أخرى جديدة منها: تكفل الخزينة العامة بالانفاق على مشوهي الحرب. وهذا ما ذكره [هيراقليدس پونتيكوس]، قائلاً انه اتبع خطى صولون فيما رسمه بقضية المدعو [ثيرسيپوس Thersippus] الذي اصابته الحرب بعاهة ويؤكد [ثيوفراستوس] ان مشرع قوانين معاقبة العاطلين الذي سبب زيادة الغلة في البلاد والاستقرار والهدوء إنما هو [پسسراتوس] لا [صولون].

وتوقف صولون عن العمل في اثره الشعري العظيم «تاريخ أو أسطورة الاطلاقيد» التي أخذها عن حكماء [ساياس Sais] (٨٤) ورأى من المناسب أن ينقلها للآثيين، فبدأ بنظمها ولكنه توقف، «لا لضيق وقته، بل للكبر سنه وقصود همته عن عمل ضخم كهذا» على حد قول افلاطون. فأوقات فراغه كانت كثيرة كما يشهد عليه بيته التالي:

«كل يوم ازداد سنًا، واتعلم شيئاً جديداً»

وهذا الآخر: «والآن - فان آلهة الجمال والغناء والخمر التي هي مصدر سعادة معظم الناس أصبحت آلهتي ايضاً.»

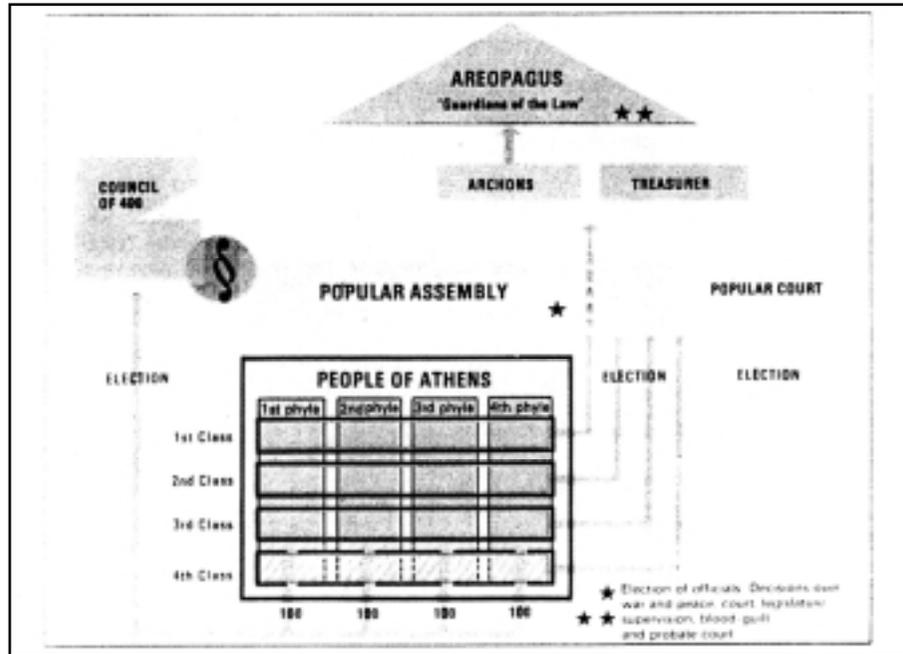
ورغب افلاطون ادخال تحسين على قصّة جزيرة الاطلنطيس (٨٥)، كأنها ضيعة جميلة بحاجة الى وارث أقيمت تسعى اليه بسند ملكيتها، فعمل لها باباً فخماً وسوراً مهيباً وخط لها

(٨٤) لا أثر لمثل هذا الكتاب ولعل نسبته اليه من نسج خيال افلاطون.

(٨٥) يزعم [ديوجينيس ليثرتيوس] انه مات في قبرص [٦٢١:٥٠]. وان تدرية رماد جسده تم بناء على وصيته. وسواء أكان ذلك صحيحاً أو ان تضع ذلك جاء من الكتاب، مباعقانا ان الجهة التي أخذت ذلك كانت تريد أن تشببه بوصية [ليكورغوس] حول مصير جثمانه بعد موته.

باحات واسعة، وأعتنى بها بشكل لم يسبق لقصّة أو أسطورة أو رواية شعرية. إلا انه بدأها وهو في شيخوخة، فمات عنها ولم يتمها. والقاريء يأسف حقاً لأن القسم الناقص هو الأكبر. ولأن المتعة التي ينالها من هذا الجزء متعة فائقة، وكما تركت اثينا معبد [جوپتر اولپس] ناقصاً كذلك تركها افلاطون. وهو الأثر الوحيد بين آثاره الكثيرة الذي خلفه ناقصاً.

عاش صولون مدة طويلة بعد استيلاء [پسسراتوس] على الحكم كما ذكر [هيراقليدس پونتيكوس] إلا أن [فانياس الايريسي Eresien]، يقول انه لم يكمل سنتين. لأن [پسسراتوس] بدأ عهد استبداده عندما كان [قومياس Comias] ارخوناً. ويقولون [فانياس] ان صولون مات في عهد [هيجستراتوس Hegestratus] خلف [قومياس]... أما حكاية نذرية رماد جثته في انحاء جزيرة [سلاميس] فهي سخيصة غريبة يصعب تصديقها (٨٦). أو لاتعدو أن تكون مجرد تخريف. على أن كثيراً من الكتاب الثقات أوردوها ومنهم ارسطو.



دستور صولون

(٨٦) حفيد [ميغاليس] الذي جلب على الأسرج العار وقد سمح له بالعودة من دار المنفى وتعرف اسرته باسم «الكمينداي Alcmaenidae».

پوبلیکولا

POP LICOLA

،publicola،

503

بروتوس [Lucius Brutus] في الانقلاب. واتصل [بفاليريوس] قبل أن يتصل بكل أحد بدلاً من ملك. فوافق [فاليريوس] وقال ان المنصب من حق [بروتوس] لكونه مؤسس الديموقراطية. لكن لما كان اسم (النظام الملكي) بغياً من الشعب. وان توزيع السلطة بدأ أكثر اتساقاً واستساغة وموائمة للنظام الجديد. فقد انتخب اثنان ليمارساها، وكان [فاليريوس] يأمل أن يفوز بمنصب القنصل مع بروتوس^(*)، فخاب فأله وانتخب [تاركوينيوس كوللاتينوس Tar-quinus Callatinus]^(٥) زوج [لوكريسيا] قنصلاً بدلاً منه رغم مساعي [بروتوس] نفسه^(**). وهو رجل لا يرقى أحد مرقاه في الكفاءة، لكن البلاء، لحشيتهم من عودة الملوك الذين لم يكفوا عن استخدام كل مجهوداتهم في الخارج وكل وسائل الاغراء في الداخل - استقر رأيهم عليه لكرهه الملوك كرهاً عميقاً واستحالة صفحه عنهم بأية حال من الأحوال.

وأضطرت نفس [فاليريوس] لتوهمه ان حرصه على خدمة بلاده. صار موضع شك، فهو شخصياً لم يتضرر باستبداد الطغاة، ولم يلحق به أذى. ولذلك انسحب من مجلس الشيوخ، وانقطع عن مزاوله المحاماة وأعتزل الحياة العامة، مما أطلق اللسنة بالحديث، واشاع في النفوس خوفاً من أن تدفعه ضغينته الى المعسكر الملكي فيكون بذلك دمار الدولة وهي مازالت تتأرجح بين على أثر الانقلاب الأخير. وكان [بروتوس] يشك أيضاً في نوايا عدد من أعضاء مجلس الشيوخ غيره، فعزم على ربطهم بيمين غموس في هياكل المعابد. وأقبل [فاليريوس] الى الفورم في اليوم المعين وهو في أطيح حالة. وأصفى مزاج وتقدم الشيوخ في حلف اليمين على عدم الخضوع أو الميل الى قضية [تاركوين] بأي شكل من الأشكال، بل التمسك بالحريات العامة أشد التمسك. وهو ما ارتاح له الشيوخ كثيراً. وقوى أيدي^(٦) القنصلين. وماعتم عمله التالي أن أظهر مدى إخلاصه ليمينه فقد جاء وفد من [تاركوينيوس] يحمل مطالب لطيفة خداعة يقصد بها التغرير بالناس والتمويه عليهم مظهراً الملك بمظهر النادم على أعماله واعتدائه، وعزمه على اتباع سياسة الاعتدال في رغباته. ووجد القنصلان من الضروري اذاعة تفاصيل هذه الوفاة على الجمهور إلا أن [فاليريوس] عارض الرأي ولم

(*) ليفي ١: ٥٨: ٢، ٢: ١١.

(٥) سمي بذلك لأنه حكم (كولاسيا) وهي مدينة انتزعها من السابين تاركوين الأب. ووالده هو (ايجيريوس). وهو وتاركوين الكابر ابنا عم.

(**) ليفي ١: ٦٠ و ٤.

(٦) بهذا انتهى عهد في روما (٢٤٤ ق.م) وهو التاريخ الشائع إلا ان هذا لا يتفق في الواقع مع منطق الاحداث فنحن لانجد في التاريخ منذ بدئه حتى هذا الزمن سبعة من الملوك (معظمهم لم يميت مينة طبيعية) حكموا هذه المدة الطويلة من السنين بتعاقب مستمر غير منقطع!

هكذا كان صولون، وبه نقارن [پوبليكولا] - منحه الرومان هذا اللقب بالأخير إعترافاً بفضله^(١) وزيادة في تكريم اسمه القديم [پوبليوس فاليريوس Publius Valerius]^(٢) وهو من نسل [فاليريوس] أحد مواطني روما الأوائل. وعرف بأنه رئيس العاملين على ازالة الخلافات بين الرومان والسابين. ذو لسان قوي في اقناع الملوك بالخلاص الى السكينة وتوحيد الشعب. هذا هو نسب [پوبليوس فاليريوس] على ما قيل. نال سمعة داوية في فترة حكم الملوك - لفصاحته، كما اشتهر بغناه. إلا أنه كان يوزع ماله بلا حساب على المعوزين، ويستخدم البلاغة بكفاءة ونشاط في خدمة العدالة، وغدا معروفاً أنه المرشح الوحيد ليستنم المنصب الأول في البلاد فيما لو تغير نظام الحكم وأصبح جمهورياً. إن ارتقاء [تاركوينيوس سوپريوس Tarquinius Superbus] العرش بالخدعة^(٣) والغش، وجعله المقام الملكي اداة للإعتداء والطغيان بدل ان يكون حكماً ملكياً عادلاً، ملأ الشعب كرهاً لحكمه وموت لوكريسيا [التي قتلت نفسها بعد اعتدائه عليها]^(٤) حانت الفرصة للشورة، وشارك [لوشيبوس

(١) في نهاية قنصليته الأولى عندما هدم منزله. وكسر شوكة الفاشي امام قوة الشعب وعظمته.

(٢) كان فاليريوس فوليوس - كما يقول ليفي - أول رجل من أسرته أستقر في روما. وهو واحد من الزعماء الاشراف الثلاثة الذين تبعوا (طاطيوس) الى روما [ديوان ١٠٢: ١].

(٣) من الانتهاكات الأخرى انه وطىء جسده حمية القتل [سرفيوس تلوس] وهو في طريقه للجلوس على العرش [ديون ١: ٤] و[ليفي ١: ٤٨]. وآخرين.

(٤) يقول ليفي [٥٨: ١] انها طلبت حضور ابنيها وزوجها الى منزلها فأقبل [لوكريسيا] أبوها برفقه [پوبليوس فاليريوس اي پوبليكولا] وزوجها [لوشيبوس يونيوس بروتوس] وعدد كبير من عظماء الرومان وبكلمات قليلة كشفت لهم عن جلية الأمر. وصرحت بعزم ثابت بقرار انهاء حياتها بعد ان تلم شرفها. وحثتهم على أن لا يتركوا الجريمة التي أقتربها مغتصبها دون عقاب. راحت كل جهودهم لثنيها من قصدها عبثاً وغيب خنجرها في صدرها. بينما شاع الحزن والأسى في نفوس الجميع، وهنا استل بروتوس الخنجر الدامي ورفع (وكان حتى تلك الساعة يتصنع الجنون كي لا يناله اذى المستبد) وقال: «أقسم بهذا الدم الذي هو في منتهى الطهر. والذي لا يمكن ان يبخسه إلا دناءه تاركوين القذرة. اقسام اني سألاحق تاركوين الغطريس وامراته الشريرة وأولادهما بالنار وبالسيف ولن أدع واحداً من هذه الأسرة يحكم روما. فأشهد على قسمي هذا ايتها الآلهة»، بعد ذلك سلم الخنجر لكولاتينس ولوكريسيا وواليريوس وبقية الحاضرين وربطهم بالقسم نفسه. يقول ديونيسيوس: ان بروتوس راح يخطب في الناس جهاراً وعلناً حتى أن المؤتمرين انتخبه قنصلاً مع كوللاتينس ولما علم تاركوين بالثورة عمل في العودة الى روما فوجد ابوابها موصدة في وجهه ورفض دخوله الى المعسكر فذهب الى «كابى».

يقبل أن توضع الطبقة الفقيرة - التي كانت تخاف الحرب أكثر مما تخاف الاستبداد لو سنحت لها فرصة الخيار بينهما - موضع حيرة واغراء ازاء خطة الملك الجديدة. ثم أقبلت سفارة ثانية برسالة مغادها أن الملك [تاركوينيوس] لا يمانع في النزول عن عرشه والقاء السلاح ان عوّض هو واصحابه وحلفاؤه عن أموالهم واملاكهم التي تركوها^(*)، ليعيشوا في منفاهم بالتعويضات. فمال فريق إلى الأستجابة للطلب ولاسيّما [كوللاتينوس] الذي تحمّس للاقتراح. إلا أن [بروتوس] وهو رجل صارم عنيد، اندفع إلى [الفورم] وأعلن خيانة زميله القنصل، بقبوله دفع تعويضات للمستبدين، وتزويد أولئك (الذين كان مجرد منحهم ما يعيشون به في المنفى شيئاً منكرًا) بأموال وارزاق تسهل لهم آتارة الحرب. وقد نجم عن هذا اجتماع عام كان اول المتكلمين فيه [كايوس مينيشيوس Caius Minicius] وهو من العامة. ان يعطي ما يريد الا ان بروتوس ذا الطبع الحاقد السريع الثورة أسرع الى الفورم وحضّ الرومان على رفض الطلب واستخدام الأموال ضدّ المستبدين^(٧)، وحذّر من ارسالها اليهم لئلا تستخدم ضدهم.

على ان قرار الرومان في الموضوع كان ضد ذلك. قالوا انهم الآن يتمتعون بحريتهم التي حاربوا لاجلها فينبغي عليهم ألا يضحوا بالسلم لأجل المال، ولذلك كان من الأفضل ارسال املاك الطغاة^(٨) اليهم. إلا أن طلب التعويض كان جزءاً ثانوياً من خطة [تاركوينيوس] فالقصد منه كان جسّ مشاعر الأهلين والتمهيد لمؤامرة جاهد اعضاء الوفد في سبيل تنظيمها، فأخروا عودتهم بحجة شراء بعض البضائع وبعثوا اشخاصاً آخرين الى مرسلهم وبقواهم، حتى تكلت مساعهم بالنجاح باستمالتهم أسرتين من أعرق الأسر في روما. قال اكويللي Aquillii كان لديهم ثلاثة شيوخ في المجلس، وآل فيتيللي Vitellii لديهم شيخان. وهؤلاء كلهم أولاد اختي [كوللاتينوس]. هذا فضلاً عن أن [بروتوس] كان مرتبطاً برابطة المصاهرة مع آل فيتيللي، لأن زوجته وام اولاده هي أختهم^(٩). وكان من ابنائه شابان يناهزان في السن ابنا آل

(*) ليفي ٣:٢، ٥.

(٧) يقول [ديون] ان الموضوع نوقش بهدوء وبكثير من التجرد في مجلس الشيوخ، وعندما أستعصى الحلّ، ووصلوا الطريق المسدود «هل يفضل الشرف أم المنفعة؟» أحوالو المسألة الى الشعب. فصادق هذا بأغلبية صوت واحد على تفضيل الشرف. وحضر أول مثل للشعور بالكرامة الوطنية ويقول المؤرخ نفسه، انها لم تكن السفارة الثانية بل اقتراحاً ثانياً من السفارة الأولى وكان الغرض كسب الوقت.

(٨) المرجع نفسه ٤:٢، ٣.

(٩) يذكر [ديون] و[ليفي] انها أم ولدين فحسب. لكن المؤلف يتفق مع أولئك الذين يقولون ان العدد أكثر من هذا، وان [ماركوس بروتوس] الذي شارك في قتل [قيصر] هو من ذرية أدهم. ويتفق [شيشرون] مع الرأي الثاني أو انه يتظاهر بذلك ليضفي على قضية (بروتوس) وشخصية شعبية أكثر.

فيتيللي وربطهما معاً رابطة صداقة وثيقة فضلاً عن القرابة فيكادون لا يفترقون نهائياً. وتم ادخال ابني بروتوس في المؤامرة، وأن يتحالفا مع بيتهم الكبير، ويعملا لتحقيق آمال التاركوينين في استعادة ملكهم، والتحرر من استبداد ابيهما وحماقته (كذا كان يطلقان كلمة الاستبداد على صرامة ابيهما مع المجرمين! في حين ان الحق كان مظهرًا يتقنع به منذ عهد بعيد ليحمي نفسه من اعتداء الطاغية. وقد ظلت الصفة لاصفة به اسمياً على الأقل) هكذا اتصل الشابان بال اكويللي وتم التفاهم بينهم، ولم يتحرجا من ربط نفسيهما بقسم ديني غليظ موثق بلطعة من دم رجل قتيلا قدم قرباناً لهذا الغرض! ولس احشائه. واجتمع المؤثرون في دار آل اكويللي^(١٠).

وكان موضع الاجتماع داراً ملائمة مظلمة غير مطروقة. وصادف أن عبداً يدعى [فنديشيوس Vindicius]^(١١) كان في الدار بمحض الصدفة. وشاهد ما ظهر على القادمين من انشغال وعجلة. فركبه الخوف من افتضاح أمره وأخفى نفسه وراء خزانة. وأمكته من مراقبة حركاتهم وسكناتهم وسماع أحاديثهم. فعلم بخطتهم وتتضمن قتل القنصلين، وتابعهم وهم يكتبون الرسائل الى [تاركوينيوس] بهذا المأل. ويدفعون بها الى السفراء الذين كانوا ضيوفاً في دار آل اكويللي^(١٢)^(١٣) وحاضرين في الاجتماع.

بعد انصراف المؤتمرين، إنسلّ [فنديشيوس] سراً من البيت، لكن الحيرة استبدت به ولم يدر ماذا يفعل. لأن أخبار الأب [بروتوس] عن أبنيه، واخبار الخال [كوللاتينوس] عن اولاد الأخت بدأ له أمراً صعباً ثقيلاً وهو كذلك والحق يقال. ولم يكن ليتمكن أو يثق بروماني واحد ليفضي اليه بهذه الاسرار الخطيرة، كما لم يكن قادراً على التزام الصمت واحتمال عبء هذه المعلومات الثقيلة. أخيراً أسرع الى [فاليريوس]، مسوقاً بما أشتهر من رقة بتواضع، ولسهولة الولوج الى بيته الذي لم تكن ابوابه تغلق في وجه المحتاج ومظلمات الناس البسطاء، وكانت امرأة فاليريوس وشقيقة [ماركوس] حاضرتين لما نفص [فنديشيوس] ما في جعبته. فطار

(١٠ و ١١) يقول [ديون] شعر هذا العبد بشك مزاح يراقب الجماعة، ويؤكد ليفي (٤:٢) انه كان على علم بالمؤامرة فعلاً. لكنه أجل كشفها حتى يجتمع لديه كل الدلائل الدامغة التي تقنع من يسمعهها. ويقول ليفي أيضاً انه قصد القنصلين، أطلعهما على الأمر (٤:٢، ٦).

(١١) بل في بيت آل فيتيللي على ما يزعم ليفي (٤:٢، ٥). وكان تاركوين قد نفذ حكم الموت بوالد (بروتوس) وشقيقه بسبب ما يتمتعان به من غنى لا غير.

(١٢) قد يكون ثم بعض غموض وعدم دقة. لم تجر العادة في ذلك الزمان بان ينزل السفراء في البيوت الخصوصية. فقد كان ثم منزل حكومي مخصص لهم. ويبدو من العبارات التالية في النص أن بعض رسائلهم وعدداً من خدمهم قد احتجزوا في قصر الملك السابق. والعبارة الواردة باللغة اليونانية قد تشير الى انهم دعوا من المنزل المخصص لهم، لقضاء بضعة ايام مع زعيم المتأمرين.

مشاعر الحزن، أو أن عظم سلبه كل شعور بالحزن. وكلا الأمرين ليسا من الطبائع الانسانية الاعتيادية في شيء. فهو إما شعور آله، واما شعور همجي. على أن الأدعى بنا الى المعقول، إن يكون حكمنا عليه خاضعاً لسمعته لا ان تنال سمعته انتقاصاً من ضعف حكمنا عليه. وفي رأي الرومان أن عمل بروتوس هذا، في تشييت دعائم الحكم الجمهوري كان أعظم من عمل [رومولوس] ببنائه مدينة رومه. وبعد مغادرة بروتوس [الفورم] استولى على المشاهدين، مزيج من الدهشة والرعب وران صمت عام وان أشاع التساهل والرخاوة التي عرف بها [كوللاتينوس] - بفرض الثقة في آل اكويلي وشجعتهم على طلب مهلة للإجابة عن التهمة، وطلب تسليم عبدهم [فنديشيوس] وعدم بقاءه في حماية متهميهم، وبدا القنصل ميالاً الى تحقيق ذلك، وهم بغض الجمعية. لكن [فاليريوس] لم يقبل بتسليم العبد (وكانت جماعته تحيط به)، ولا برفض الاجتماع قبل انزال العقاب بالخونة. أخيراً تمكن من تحكيم قبضته على آل [اكويلي] واستدعى [بروتوس] لمعاونته، وهاجم فكرة [كوللاتينوس] الخرقاء في فرصه على زميله ضرورة انتزاع حياة ولديه بيديه بينما مال هو الى يمن بحياة الخونة واعداء الشعب على بعض النسوة من قريباته. فاستاء [كوللاتينوس] مما سمعه وأمر ان ينتزع [فنديشيوس]، وهم [اللكتور] باطاعة الأمر وشقواً الجمع الحاشد اليه وقبضوا عليه وراحوا يضربون كل من يحاول استنقاذه. فوقف اصداق [فاليريوس] على رأس المقاومة. وطالب الشعب باحضار [بروتوس] فجاء. وبعد أن ساد الصمت والسكون قال لهم. انه استعمل حقه في اصدار الحكم على ولديه وترك الباقي للاقتراع العام لكل المواطنين الأحرار. و«ليتكلم كل شخص ما يريد، وليتقنع من يستطيع اقناعه» ولم يتطلب الأمر القاء خطب ومزيد من النقاش. فما أن طرحت قضية المتهمين في التصويت حتى ادينوا بالاجماع وقطعت رؤوسهم.

كانت قرابة [كوللاتينوس] للملك المخلوع قد وضعته موضع شك واسم أسرته جعله مكروهاً. ممن كان يتعوذ عند سماع كلمة [تاركوين] فحسب. فلما حصل ما حصل وادرك أنه مصدر سخط الجميع، استقال من منصبه وغادر المدينة سراً^(١٥). وبالانتخاب الذين جرى لملء منصبه الشاغر فاز [فاليريوس] بأغلبية ساحقة، مع التكريم. واصبح قنصلاً جزءاً اخلاصه وحرصه. ووجد أن فنديشيوس يستحق بعض ما كوفيء هو به. فاعتقه وجعله مواطناً رومانياً ومنحه بعدها حق التصويت مع اي حزب شاء الانضمام اليه. ولم ينل العبيد العتقاء حق الاقتراع ولا بعده بزمان، اي من عهد [ايبوس Appius]^(١٦) الذي ظفر بحب العامة لهذه

(١٥) انظر ليقي ٢:٢ و٣-١٠.

(١٦) ايبوس كلوديوس كايكيوس كان قد عين جنسوراً في العام ٣١٢ ق.م.

صواب فاليريوس وعلقه البغته ولم يدع العبد يخرج من منزله وحبسه في غرفة ووضع امرأته حارساً على بابها كما ارسل اخاه في الوقت عين لمهاجمة قصر الملك، ووضع اليد اما امكته على جميع المكاتبات. والقاء القبض على من فيه من خدم وحشم في حين أنطلق هو واتباعه المخلصون والاصدقاء وجمع كبير من الخدم والحاشية الى بيت [أكويلي] وكانوا بمحض الصدفة خارج الدار، فاقتحموا الأبواب عنوة» ووقعت ايديهم على الرسائل وهي ملقاة في جناح السفراء. وفي اثناء ذلك عاد آل كويلي الى منزلهم واشتبكوا مع المهاجمين عند المدخل محاولين استعادة الرسائل. فقوامهم المهاجمون والقوا بعباءتهم على رؤوس خصومهم. وأخيراً وبعد كفاح طويل أفلت المهاجمون بغنائمهم وأسراهم وتسلبوا الى [الفورم]. وحصل اشتباك مماثل في قصر الملك، حيث وضع [ماركوس] يده على بعض الرسائل الأخرى وهي مدسوسة داخل البضائع لأجل تهريبها الى الخارج، كما القى القبض على الموجودين من خدم الملك واستاقهم الى [الفورم]. وبعد ان قام القنصلان بتهدئة الوضع، جيء بالعبد [فنديشيوس] بايعاز من [فاليريوس] وطرحت التهمة علنا. وقُضت الرسائل، ولم يستطع الخونة انكارها. ومعظم الناس واقفون وكأن على رؤوسهم الطير، والهّم مرتسم على الوجوه. ونوة بعضهم بفرض عقوبة النفي. عطفاً منهم على [بروتوس] وكانت دموع [كوللاتينوس] وصمت [بروتوس] قد أشاعاً بعض الأمل في الرحمة. إلا أن [بروتوس] نادى ابنه كلاً باسمه وقال لهما «الا تستطيع أنت يا [تيطس]، وأنت يا [طيباريوس] أن تدليا بدفاع عن تهمتكما؟» وكرر عليهما السؤال ثلاثاً فلم يلق جواباً خلا الصمت. فأشاح بوجهه ملتفتاً الى ضباط الحرس وقال «لم يبق إلا أن تؤدوا واجبكم» فأسرعوا وقبضوا على الشابين ونزعوا عنهما الثياب واوثقا كتافهما وراء ظهرهما. وشرعوا يجلدونهما بالعصي، وكان منظرهما يفطر القلب. وقيل ان [بروتوس] لم يدُر رأسه ولم يسمح بأي نظرة عطف تلين ملامحه الجامدة الصارمة وترقق منها. وانما كان ينظر اليهما بصرامة وهما يقاسيان مرّ العذاب، الى أن طرحوهما أرضاً وقطعوا رأسيهما بالفأس، ثم غادر محل الاجتماع تاركاً النطق بباقي الحكم الى زميله^(١٤). وكان عمله هذا يستحق ارفع الثناء وأشدّ التنديد في آن واحد. إن سمو فضائله رفعتة فوق

(١٤) قارن النص بما جاء في ليقي ٥:٢، ٩-٥ فهو يدلي بحكاية مختلفة حول سلوك بروتوس وهي بالنص اللاتيني Quam inter Omne Tempus pater, Valtusque etos eyus Spectacula esset, emimento animo Patrio inter Publicae Poenae Minstrum.

وتعريبه: خلال هذا الموقف المساوي كانت كل الانظار عالقاً بوجه الأب، حيث كانت آلام الأب واضحة للعيان. قارن أيضاً (ديون ٢:٥) الذي يتفق مع پلوتارخ. اي ان بروتوس لم يكن يظهر اي حزن أو الم ساعة التنفيذ مهما كان شعوره الباطن الحقيقي.

المأثرة ومنذ [قنديشوس] حتى يومنا هذا وحالة العتق التام^(١٧) تدعى [Vindicta] نسبةً الى اسمه.

بعد ذلك، استبيحت اموال الملوك ونهبها العامّة، وقوّض بناء القصر، وكان أجمل جزءٍ من «حقل مارس^(١٨) الذي يملكه [تاركوينوس] قد كُرس لخدمة ذلك الربّ. واتفق ان كان موسم الحصاد، والغلّة المحصودة ملقاة على الأرض حزمًا. ووجد من غير المناسب أن تلقى للدرس والتذرية أو تنجس بأي استعمال كان، لذلك حملوها الى ضفاف النهر ثم قطعوا أشجاراً وقذفوا بالجميع في الماء لأجل تكريس الأرض وهي خالية من كل شاغلٍ. وكان القاؤها واحدة فوق الأخرى متحازجة فلم يحملها التيار بعيداً وحيث وقفت الدفعة الأولى منها وغاصت في القاع، تكدست الدفعات التالية ولم تجد مجالاً وأشتبك بعضها ببعض، وأخذ مجرى الماء يعمل على رصّها رصاً شديداً وأسفى عليها طبقات من الطمي فثبتت وكبرت وصارت أشبه بالسمنت يلتصق به كل ما يأتي به التيار من الزمن وانداح حتى تكون سدّ يوقف كل ما يأتي به التيار من تربة. وهو الآن جزيرة مقدسة تقع قرب المدينة، تزدان بمعابد الأرباب والمنتزهات، وتُسمى باللاتينية «إنتر دووس پونطس Inter Duae Pontes»^(١٩). على أن بعضهم يقول أنه الأمر لم يقع أثناء تكريس حقل [تاركينوس] وإنما بعد زمن، لما أوقفت [تاركونيا] كاهنة قستا الحقل المجاور له على النفع العام فكرّمت. ومنحت أمتيازاً على سائر النساء. وهو ان تكون شهادتها معتبرة، وان يكون لها حق الزواج فأبّت استعمال الحق الأخير. وعلى هذه الصورة يروى بعضهم الحكاية.

لما ينس [تاركوين] من العودة الى عرشه بطريق التأمّر، التفت نحو التوسكانيين فوجد

(١٧) هناك ثلاث حالات عتق أصولية وليس بينهما ما يقضى اعطاء حق الاقتراع المعتوق. ولم يصل العبد المعتوق الى حالة المواطنة الكاملة الى في الجيل الثالث من نسله.

(١٨) كان الاصح قوله انه أعاد وقف حقل كامبوس ماريوس لأن هذا الحقل كان قد أوقف على مارس منذ عهد روملوس. وقد استعادته تاركوين وجعله لمنفعته الخاصة [ديون ٥: ٢].

(١٩) الجسر الفابريشي Ponte dei quattro capi بسبب التمثال الرمزي ذي الرؤوس الاربعة، الذي قيل انه يمثل الربّ (يانوس). كان يربطه بالمدينة من ناحية الكابتول. وجسر جستيا سانت بارثولونا Ponte Ces- tia st. Bartolonea من جهة باب يانيولين Janicoline (ويسمى الآن جزيرة القديس بارثوليميو) نسبة الى اسم الكنيسة التي بنيت عليه تكريماً لهذا القديس. وقد تكون الحكاية أقرب الى التصديق لو أعتبرنا ان سرعة النهر كانت على أقلها في ذلك الموسم الصيفي القانظ بحيث ان الاشجار التي تقطع من (حقل مارس) المذكور ما كان بالإمكان ان تدفعها قوة التيار، وترتب على الرومان التعاون على جرها ونصبها في مواضعها لتقوم هياكلهم وشرفات منازلهم على أسس واساطين أكثر ثباتاً. ان طول الحقل يعادل ربع ميل تقريباً وهو مديب النهاية اشبه شيء بهيكل سفينة.

فيهم استعداداً وترحيباً^(٢٠)، وشرعوا يعدون له جيشاً جراراً. فنهض القنصلان لمقاومتهم على رأس الرومان. وجعلا موضع اللقاء في موقعين مقدسين مخصوصين أحدهما يدعى البستان الأرسى Arsian والثاني هو المرج الايسوثي Aesuvian، ولما بدأت المعركة برز [ارنوس Ar-nus] ابن تاركوين لبروتوس القنصل الروماني، فاشتبكا يدفعهما الكره والغیظ لا اشتباك الصدفة، أحدهما يريد أن يطفىء غلّه وحقده على الاستبداد والآخر يريد ان يثأر لنفسه، فهزما جواديهما واصطدما بعنفٍ فاق المعقول والروية فسقط قتيلين أحدهما بيد الآخر. وأصطدم الجيشان في معركة رهيبة انتهت بعد الجهد الجهيد بخاتمة طيبة فبعد ان ألحق الطرفان احدهما بالآخر خسائر متساوية فرقت ما بينهما عاصفة^(٢١)، وانتهبت القلق [قاليريوس] لجهله نتيجة معركة اليوم ولرؤيته حزن رجاله لمشهد قتلاهم وفرحهم لخسائر العدو. وكان واضحاً للعيان أن عدد القتلى متساوٍ في الجانبين. وكل جيش أكثر احساساً بهزيمة خصمه من احساسه بنصره، عند تقديره خسائره وأرخی الليل سدوله (ليل كالذي يتصوره المرء في أعقاب مثل هذه المعركة) واخذ الجيشان للراحة. واذا بالبستان يزلزل زلزاله على ما قيل - ويصدر منه صوت قائل: «ان خسائر التوسكان تزيد على خسائر الرومان بقتيل واحد فقط» وكان من المؤكد أنه بيان سماوي من آله^(٢٢). فاستقبله الرومان بهتاف الفرح وعلامات السرور، بينما هجر التوسكان خيامهم خوفاً وذهولاً وتفرق معظمهم أيادي سباً. ووقع الرومان بالباقين وكانوا يناهزون خمسة الآف وأخذوهم أسرى واستولوا على كل ما في المعسكر. ولما احصي القتلى وجد ان التوسكان قد خسروا أحد عشر ألفاً وثلاثمائة قتيل أي زيادة قتيل واحد عن خسائر الرومان. هذه المعركة جرت في شهر شباط. وسار قاليريوس في موكب الظفر احتفاءً بها، وكان أول قنصل يسوق في موكب النصر مركبة ذات اربعة جياذ، وكان منظراً فخماً. وأستقبله الأهلون باعجاب خالٍ من الحسد أو الغيرة على ما قيل، ولم تكن المواكب التالية بمثل هذه الحماسة والروحانية قطّ. فلقد أكبر الشعب في [قاليريوس] التكریم الذي اضميناه على ذكرى زميله السريع، باضافته الى مراسيم التشييع خطبة التأيين، وكان وقعها عند الرومان جميلاً للغاية ووجدوها عملاً سديداً ومدحوها، حتى غدت عادة في عظماء الرجال أن يلقوا خطب تأيین عامة في جناز المشاهير من المواطنين، مع تعداد مآثرهم^(٢٣). وقد ثبت ان

(٢٠) ليقى [٦: ٢، ٤] كان الترحيب من قبل أهالي قبي وتاركويني فحسب.

(٢١) ليقى [١١: ١، ٧] يقول ان التوسكان ولوا مذعورين بعد المعركة.

(٢٢) يذكر ليقى بصدد روايته الحادث عينه [٢: ٧] انه الربّ سلفانوس. ويزعم [ديون] انه [فاونوس]. وقال بعضهم انه صوت (بان) أحد مساعدي [باخوس] الذي كان أول من أستخدم هذه الخطة لأرغاب جيوش الاعداء.

(٢٣) لم تكن خطب التأيین معروفة عند الأغريق حتى معركة ماراثون كما يؤكد لنا [ديودورس ١١: ٣٣] الذي =

قدم هذه العادة عند الرومان يزيد عن قدمها لدى الاغريق. إلا إذا اعتبرنا صولون أول منشيء لها - بقيام الخطيب [أناكسمينيس Anaximenes] في عهده.

إلا أن جانباً من تصرفات فاليريوس ألم الجمهور وأثار سخطه. [فيروتوس] الذي يعتبرونه أباً لحريتهم لم يقبل الحكم إلا مع شريك في السلطة. فضم اليه واحداً ثم آخر أثناء حكمه. في حين ان فاليريوس بتركيزه السلطان كله في يده، لم يكن يعتبر بأية حال خليفة [بروتوس] في منصب القنصل، بل خليفة [تاركوين] في الاستبداد. صحيح انه القى خطبة في تأييد [بروتوس] لكنه كان يشاهد و«العصي والفؤوس» تحف به من كل جانب وهو يهبط من منزله الفخم ولم يكن بيت الملك الذي هدمه بأفخم منه، تصرفات كهذه جعلته يبدو أقرب شبيهاً بالملك المخلوع حقاً أن معناه المبني على [الفيليا Velia] كان مهيباً بعض الشيء. فهو يعلو (الفورم) ويشرف على كل ما يجري منه والمرقى اليه صعب. وكان موكبه وهو يهبط اشبه بالموكب الملكي المهيب. لكنه اثبت كم هو حسن لرجال السلطة المسؤولين ان تكون لهم آذان تسمح بدخول الحقيقة قبل دخول المداهنة والملق اليها. فلما ابلغه اصحابه بأقويل الناس وغيبظهم من سلوكه لم يستأ ولم نحاول في الأمر. ولم ينتظر لينبلج الصبح على منزله، بل ارسل يستقدم فعلةً وهدادين قوضوه وسووه بالقاع. وفي الصباح الباكر تجمع الناس يتطلعون بدهشة واحترام الى عمله الجليل، مبدين اسفهم لهذا المنزل الجميل الذي اصبح أثراً بعد عين بسبب تحاملهم الظالم، كأن الذي انهدم ليس جماداً بل كائناً حياً. وأضطر القنصل [فاليريوس] الى البحث عن سقف يظله عند اصحابه بعد أن فقد المأوى. فاستضافه هؤلاء حتى بنى له الشعب بيتاً على أرض خصصت له. وكان أقل فخامة من منزله الزائل. والآن يقوم في موقع هذا المسكن المعبد المعروف باسم [فيكا پوتا Vica Pota] (٢٤).

= كان عمره ١٦ سنة عند وفاة بروتوس. فالقانون الذي استنّ بخصوص رثاء وتعداد مآثر عظماء القوم هو ذو تاريخ متأخر، ويسبق بولتارخ الأحداث كثيراً عندما يحدد للقانون عصر صولون وحتى عند السماح به، لم يكن يخطئ به إلا أولئك الذي استشهدوا دفاعاً عن بلادهم في حين وسع الرومان من شموله ليدخل في حكمه كل من يقدم لبلاده خدمة في اي مجال [ديون ٣:٥].

(٢٤) لعل المقصود بها ربة النصر Victorese Passesor التي يقوم معبدها عند قدمة الفيليا Velia. لكنه تجنباً لحسد الأهالي أنزل مواد البناء الى اسفل التل وبنى منزله هناك. ويلاحظ أن بولتارخ اورد اسم ربة النصر اصلاً هكذا: اونيكى پوني ويعني باللاتينية القديمة (نصر). وبما انه لم يفهمها حق الفهم فقد استبدلها بلفظة Vicus Publicus وهي لا تعني شيئاً هنا. على أن الاسم الذي جاء في المتن ظهر عند ليفي [٧:٢] ويرجح انه مأخوذ من Vinceres و Potiri واما ما تلا ذلك من خطر على سكنى اي پاتريشي بالقرب من الكاپتول فقد عزاه بولتارخ في محل آخر الى هذا السبب. لكن ليفي (٢٠:٦) يجعله لاحقاً للحكم على مانليوس، فبعد ان أنفذ هذا السياسي الصرح من الغالين حام الشك في انه يطمح الى اعلان نفسه ملكاً فحكم عليه بالقائه من فوق الصخرة التاريخية.

قرر [فاليريوس] أن يجعل الحكومة وشخصه مظهرين محبوبين من الشعب، يدل ان يكون مصدر مهابة وخوف. فأخرج الفؤوس من حزمة العصي. وكان عند دخوله قاعة الجمعية يخفض تلك الحزم دليل احترامه الشعب (٢٥)، واعتباره مصدر سلطته واسباب حكومته. فقلده القناصل الذين عقبوه وحرصوا على التقليد حتى يومنا هذا وفي رأيي أن إذلال المرء نفسه ليس وسيلة لأظهار التواضع فيه، وانما هو مجرد طريقة لتفادي التخربات والنميمة بالأخذ بأسباب الاعتدال. لأن ما أطرّحه من مظاهر المنصب، اضافته الى سلطانه الحقيقي. وظل مرتاحاً مطمئناً الى انه سيبقى مطاعاً محبوباً. والدليل على ذلك انهم منحوه لقب «پوبليكولا» اي «محب الشعب»، فلصق به وأشتهر على بقية اسمائه، لذلك سنظل نشر اليه بهذا الاسم في بقية حديثنا عن سيرته.

وأطلق حرية التشريع لمنصب القنصل (٢٦). وقبل ان يفسح السبيل لشريكه المقبل، واحتياطاً لمفاجآت الصدف وعدم ثقة منه بها ولئلا يفسد الجهل والمنافسة خطته، استن بموجب صلاحيته فقط خير المبادئ واهم الأنظمة، وبدأ بملء شواغر مجلس الشيوخ التي كانت خالية بسبب فتك [تاركوين] باعضائه، أو لموتهم في الحرب الأخيرة، ويذكر المؤرخون أنه أدخل الى المجلس على هذا الأساس مائة واربعة وستين شيخاً. ثم انه سنّ عدة قوانين أعطت الشعب مزيداً من الحرية. ولاسيما ذلك القانون الذي يمنح المدانين حق استئناف أحكام القناصل الى الجمعية العامة. وفي قانون آخر فرض عقوبة الموت على كل من يغتصب منصباً قضائياً دون موافقة الشعب. وسنّ قانوناً ثالثاً للترفيه عن فقراء المواطنين، قضى بالغاء الضرائب عنهم (٢٧). وتشجيع أعمالهم وحرفهم. وهناك قانون في التمرد والعصيان على أوامر القناصل لا يقل صلاحه عن القوانين الأخرى، توخى به منفعة عامة الشعب أكثر من منفعة النبلاء، لأنه يفرض على المتمرّد أو العصي غرامة قدرها عشرة ثيران وشاتين. وثمان الشاة عشرة اوبولات، وثمان الثور مائة (٢٨). وقد حدد السعر هكذا لأن النقود في ذلك الحين كانت نادرة قليلة الاستعمال والتداول عن الرومان، إلا ان ثروتهم الحيوانية كبيرة. ولذلك تجدهم يطلقون على اي مال مُقيّم كلمة «پيكوليا Peculia» وهي مأخوذة من لفظة بيكوس Pecus اي ماشية. كما أنهم

(٢٥) إلا في فترات الحروب فقد كانت انفاس توضع وسط الحزمة.
(٢٦) إن أعطى پوبليكولا هذا الحق للجمع فعلاً فمن الأكيد انه لم يطبق فهو نفسه اتخذ التدابير كما سنرى - لانتخاب قنصلين پاتريشيين هما لوكريسيوس وماركوس هوراشيوس واتخاذهما زميلين له على التوالي وكان [ليوشيوس سكسيوس] أول قنصل من طبقة الپليبيين يتولى المنصب بعد احقاب واحقاب من الزمن الذي يحدده بولتارخ. ولم يدم هذا التقليد غير أحد عشر عاماً [ليفى ١٨:٧].
(٢٧) أعفى الصناع والارامل، وكبار السن الذين لا أولاد لهم من دفع الضرائب.
(٢٨) قبل هذا كانت الغرامة باهظة جداً بحيث يصاب دافعها بالدمار التام.

صكوا على نقودهم القديمة جداً صورة ثور أو شاة أو خنزير، وسموا اولادهم باسماء «سويللي Suillii» و«ببولجي Bubulci» و«كإراري Caprari» و«بورجي Porcii» - من كإرا Ca-pra اي عنزة، وبورجي اي خنازير Porci^(٢٩).

ومع كل هذا الاعتدال والليونة، فرض على جريمة خطيرة واحدة عقوبة شديدة صارمة فقد أباح لأي مواطن ان يقتل اي شخص متأمر قبل المحاكمة، ولا جناح على القاتل اذا قدم دليلاً على تأمر القتل اذ مع انه يبدو أمراً بعيد الاحتمال ان يظل أمرٌ خطير للغاية كهذا في طبي الكتمان، كذلك ليس بعيداً أن يبقى سرّاً، وإن ظهرت بوادر له قبل فرض الحكم. ولتفويت الفرصة على التأمّر أو تعويقها أجاز لأي شخص أن يحبط المؤامرة بقتل المتأمّر فوراً. وعظمت مكانة [بوليكولا] بقانون استحداث بيت المال. فقد وجد من الضروري ان يساهم المواطنون ببعض المال للنفقة على الحروب. ولم يرغب في ان تكون تلك الأموال تحت ضبطه شخصياً ولا أن يوكل بأصحابه أمر حفظها ولا ان يدعها تدخل البيوت الخاصة. فجعل حفظها منوطاً بمعبد زحل. ولذلك تراهم الى يومنا هذا يودعون الأموال المحبسة هناك. ومنح الشعب حقاً في انتخاب شايبين بمنصب أمين خزانة [كوستور Quaestor]^(٣٠). وأول اثنين تقلدا الوظيفة هما (بوليوس فيتوريوس Publius Veturius) و[ماركوس مينيشيوس Marcus Minicius]. وتمّ جمع مبالغ كثيرة لأن الجباية حددت بمقدار مائة وثلاثين ألفاً، وأعفى الأيتام والأرامل منها. يعد هذا كله صادق على تعيين [لوكريشوس Lucretius] والد لوكريسيا قنصلاً زمائلاً له ومنحه حق التقدم عليه، إذ نزل له عن (الحرس الفاجي) احتراماً لسنته وبهذا استمر نظام الأقدمية بسبب السن الى يومنا هذا. إلا أن القنصل الجديد [لوكريشوس] توفي بعد ايام قليلة، فانتخب [ماركوس هوراشيوس] خلفاً له وبقي قنصلاً الى نهاية العام.

في تلك الفترة. وحين كان [تاركوين] في توسكانيا يتأهب لحرب ثانية مع الرومان، قيل

(٢٩) الأولى من لوس Lus اي الخنزير أيضاً. والثانية من Los اي الثور.

(٣٠) وظيفة المحتسب (الكويستور) هي المحافظة على أموال الخزانة العامة يحاسبون عليها عند ختام مدة وظيفتهم وهي سنة واحدة. كما انهم ينفقون من الأموال العامة على الخدمات العامة، ويستقبلون السفراء ويقومون برعايتهم ويهتمون بتأمين معيشتهم وتوفير السكن لهم. ولا يمكن ان يسمح لجنرال بموكب نصر الأ بعد أن يقدم للمحتسب حساباً عن الاسلاب والغنائم التي أستولى عليها معزراً بالقسم. في المبداء كان يوجد في الدولة كويستوران، وبتوسع الامبراطورية زيد في العدد، ومع أن هذا المنصب كثيراً ما كان يشغله قناصل سابقون إلا أنه كان يعتبر أول خطوة يخطوها رجل الدولة نحو المناصب الرفيعة. ويظهر أن بولوتارخ يشير هنا الى أول تاريخ لاستحداث هذا المنصب [انظر ليفي ١٤:٤] على أن تاكيتوس في الحوليات [٢٢:٩] يعزو انشاءه الى عهد الملوك ويقول ان حق انتخابهم لم ينتقل الى الشعب إلا بعد مرور ثلاثة وستين عاماً على طرد تاركوين.

انه وقع حادث عجيب: باشر [تاركوين] في فترة حكمه بتشبيد بناء الكاڤيستول حتى شارف على أكماله وقرر اما من تلقاء نفسه أو اطاعة لنبوءة، أن ينصب فوقه تمثال مركبة الجبس الأ انه اضاع ملكه^(٣١). وكان التوسكان قد باشروا في صبّ المركبة وصنعوا كوراً. ولم يظهر الجبس تلك الخواص السليمة المعتادة فيه وهي الانكماش والتصلب بعد ان يفخر ويتبخر منه الماء، بل انتفش وكبر حجمه حتى بعد التصلب والبرودة بحيث أخترق جدران الكور ولم يكن بالامكان أخرجه من فوهته، كما كان نقله في غاية الصعوبة، وعدّ السحرة هذه الظاهرة دليل قوة ونجاح كل من يملك التمثال. وقرر التوسكان الأ يسلموه الى الرومان رغم الحاحهم بطلبه اذ ردّوهم قائلين: ان [تاركوين] احق به ممن نفاه. وبعد ايام قليلة اقاموا سباق خيل، وما يناسبه من حفلات والعباب، وفيما كان سائق مركبة النصر يسوقها بهدوءٍ وعلى وأسه أكليل الغار، يريدان يخرج بها من الحلبة اذا جفلت الخيل ثم جمحت اما بمشيئة الهية، أو بحدث طراً للخيل. فعجز السائق عن كبحها وأفلت زمامها من يده اذ أسرع تعدو بكلّ قواها نحو روما غير عابئة بصياحه وانتهازه وقوة ساعده فأستسلم لها مضطراً ولم يحاول شيئاً معها حتى بلغت الكاڤيستول، وهنا انقذف السائق منها عند مدخل [راتومينا Ratumena]^(٣٢). إثارَت هذه الحادثة عجب التوسكان وهلعهم فنزلوا عن تمثال المركبة للرومان.

كان [تاركوين ابن ماراتوس] قد نذر ان يبني معبد [كاڤيستولين جويترا] في أيام الحروب مع السابقين. فقام على بنائه مع بعده، ابنه أو حفيده المدعو [تاركوينيوس سويريوس]^(٣٣) ولكنه لم يتمكن من تكريسه لضياح الملك منه قبل تمامه. ولما كمل بناؤه وتمت زخرفته^(٣٤)، رغب [بوليكولا] في تكريسه إلا أن النبلاء حسدوه على هذا الامتياز فضلاً عن حقدهم السالف عليه لما أصابه من شعبية بسنّ القوانين وادارته دفة الحرب، مما كان يجعله أجدر الناس بهذا الشرف. على اية حال كانوا يحملون له ضغنا، فدفعوا زميله [هوراتيوس] الى طلب تكريس المعبد وفيما كان [بوليكولا] يقود إحدى الحملات العسكرية صوّت على طلب بالموافقة [هوراشيوس] وأخذوه الى الكاڤيستول خلصة كأنهم عاجزون عن ذلك لو كان بوليكولا

(٣١) كان نصب عجلة فوق اسطح المعابد من الأمور المألوفة. ويطلق عليها لهم فاستيجيا Fastigia والزيادة أو التوسع في أي شيء كان يعتبر نذير سوء وبشير يمن في آن واحد معاً.

(٣٢) اسم الشاب [راتومينا]. انظر [بلييني ٤٢:٨].

(٣٣) ليفي يشاركه في شكه [٤٦:٨]. لكنه يميل للقول بانه ابنه. غير ان [ديون ٢:٤] اثبت بصورة لا يتورها شك ان [لوشيويس] و[ارنوس] تاركوينيوس هما حفيدا تاركوين الكبير.

(٣٤) يبلغ طول هذا المعبد ٢٠٠ قدم وعرضه ١٨٥، زينت أوجهته بثلاثة صفوف من الأعمدة. وحف بجوانبه الثلاثة الأخرى صفان من الأعمدة. واقيم في البهو ثلاثة محاريب ليونو ولجونو ولنيرفا و[ديون ١٣:٤] يعرض وصفاً مفصلاً له.

موجوداً، ويذكر بعضهم أن الفنصلين^(٣٥) اقترعا فرست قيادة الجيش على پوبليكولا خلافاً لرغبته. في حين يذكر بعضهم أن القرعة رست عليه في تكريس المعبد، وما حدث اثناء مراسيم التكريس.

يعزز هذا الرأي بعض الشيء على ما يبدو الثالث عشر من ايلول الذي وافق البدر التّم لشهر [ميتاگنتيون Metagition] تقريباً، أجمع الناس في الكايبيتول وخيم الصمت على الرؤوس، ويعد أن ادى [هوراشيوس] المراسيم الواجبة وهم ينطق عبارات التكريس انتهز [ماركوس] شقيق [پوبليكولا] فرصة وقفته المقصودة قرب الباب، وصاح قائلاً «أيها الفنصل إن جثة ابنك مسجاة في المعسكر» فأحدثت تأثيراً على كل الحاضرين إلا [هوراشيوس] فلم تنل من أعصابه وكان جوابه على هذا: «القوا الموتى خارجاً حيث شئتم، أنا لست في حداد» ثم باشر في اكمال المراسيم. وظهر النبأ كاذباً لكن [ماركوس] أعتقد أن المفاجأة قد تصرف هوراشيوس عن مواصلة الشعائر لكن هذا أدرك الحيلة، أو أظهر ضبط نفس ولم يفسح سبيلاً لمشاعره ان كان قد صدقها.

واصاب تكريس المعبد الثاني ما اصاب الأول من مصير. قلنا ان المعبد السابق بناه [تاركوين] وكرسه [هوراتيسوس] وقد احترق ابان الحروب الأهلية^(٣٦). أما المعبد الثاني فقد بناه [سيللا Sylla] ومات قبل تكريسه تاركاً هذا الشرف [لكاتولوس Catulus] فأنهزم هذا في الفتنة [القيبتيلية]، وشرع [قسپسيان] ببناء الثالث يحالفه فيه النجاح الذي واكبه في كل الأمور الأخرى وعاش لدى اكمال البناء لكنه لم يكن في عداد الاحياء عندما هدم. خلافاً [لسيللا] الذي مات قبل تكريس معبده. اذ ما أن قضى [قسپسيان] نحبه حتى اتت عليه النار. اما المعبد الرابع القائم الآن فقد بناه [دوميتيان]. ولقد قيل أن [تاركوين] انفق اربعين الف اوقية من الفضة على اقامة اسسه فحسب. اما المبالغ المنفقة على طلابه وزخرفته في

(٣٥) يؤكد ليفي حصول القرعة (٨:٢) ولعل بولتارخ أعتمد عليه في النقل. لقد كان ذلك شرفاً عظيماً لأن اسم الدكتور كان محفوراً على مدخل المعبد.

(٣٦) يشير الى تدميره اثناء حروب [ماريوس - سيللا] في ٨٢ ق.م. وقد قام الأخير باعادة بنائه مستخدماً اعمدة رخام انتزعها من معبد زفسى في أثينا. لكن لم يوفق الى تكريسه فقد عاجلته المنية قبل تمامه. وذكروا انه قال وهو يعالج سكرات الموت ان هذا هو أسوء ما صادف من حظ طوال حياته. وكرسه كاتولوس في العام ٦٩ ق.م. وقد أحترق مرة ثانية عندما كان فيتلوس يضرب حصاراً على [فلاقيوس سايبينوس] في الكايبول في العام ٦٩ للميلاد. اي بعد ١٢٨ سنة من تشييده ولا يعلم من كانت له يد في احراقه. (تاكيتوس التاريخ ٣: ٧١ و ٧٢). وجدد الامبراطور قسپاسيان بناءه. ثم أحترق مع الكايبول في العام ٨٠ للميلاد بالأخير اعاد دوميتيان بناءه ونقش عليه اسمه دون ان يذكر شيئاً عن أول بناته [انظر سوتونيوس].

أيامنا هذه، فهي تزيد على ثروة أغنى أغنياء رومه، وتقدر بما يزيد عن أثني عشر ألف تالنت^(٣٧). وكانت اعمدته من المرمر [الپنتيلي] بطول يتسق اتساقاً لطيفاً مع غلظها. وهي الأعمدة التي كنا قد شاهدناها في اثينا، ولم تزدد جمالاً ورواء عندما أعيد نحتها في روما، قدر ما فقدت من تناسق، اذ جعلت مستندقة الأطراف نحيلة وان دهش المرء لما أنفق على الكايبول فما عليه إلا أن يلقي نظرة على احدى مقصورات قصر [دوميتيان] أو إحدى قاعاته أو على حمام من حماماته أو مسكن محظية من مخطياته. وستكون على شفطيه قولة [ايبخارموس]:

«الاشراف لايكشف عن عقلية حرة بل هو مرضُ عضال والحق يقال».

فهو يقول مشيراً الى دوميتيان: «ليس هذا تقى منه ولا عظمة، وانما مرض البناء ورغبة كربة [ميداس Midas] في تحويل كل شيء الى ذهب أو مرمر» وفي هذا ما يكفي.

بعد المعركة التي فقد فيها [تاركوين] ابنه على اثر مبارزته مع بروتوس ولياً هارياً الى كلوسيوم Clusium مستجيراً بـ [لاراس پورسنا Laras Porsenna] أقوى ملوك ايطاليا، ورجل فاضل كريم فأجاره وحقق سؤله وطلباته^(٣٨) وأرسل في الحال أمراً الى رومه بأن تستقبل ملكها [تاركوين] ولما رفض الرومان ذلك أعلن الحرب عليهم محدداً الزمان والمكان اللذين قررهما للمعركة وزحف بجيش لجب. وكان [پوبليكولا] قد أنتخب قنصلاً للمرة الثانية^(٣٩) اثناء غيابه، وأنتخب [تيطس لركريتيسوس] زميلاً له. فأسرع بالعودة الى رومه.

(٣٧) من أجل تقريب فهم المبلغ للاذهان. نقدر قيمة التالنت الواحد بالسعر الحالي للدولار اعني ما يعادل ٢١٠٠ دولار أو ١٠٠٠ پاون سترليني ان البون الشاسع ما بين ما يملكه المواطن العادي في ايام الجمهورية وايام الملكية يستحق التأمل هنا. ففي عهد (تراجان) لم يكن هناك غنيّ تزيد ثروته عن ٧٠٠٠٠٠ پاون سترليني. في حين أن (ايميليسوس سكاوروس) اثناء توليه منصب (الايديل) اقام ملعباً مؤقتاً على حسابه كلفه تسعمائة الف پاون سترليني. وتلك (ماركوس كراسوس) ضياعاً وقرى كانت تغل له أكثر من مليوني پاون سنوياً. وترك [كورنيليوس بالبوس] في وصيته ٢٥ ديناري لكل مواطن روماني وهي تعادل خمسين شلناً بحساب القوة الشرائية المقارنة الحالية. وكان الكثير من الرومان من يملك ما بين عشرة آلاف وعشرين الف عبد. فلا عجب أن ام رفع العبيد السلاح في وجه روما ونازلوا الجمهورية في حروب طويلة منهكة.

(٣٨) كثير من الشراح يرونه اسم تكريم يخلع على رئيس اللوكومون الاثني عشر أو ما يدعى بـ dodecaechy etruria. على ان (ديون) يعتبره اسماً لشخص [٤:٤]. كان (تاركوين) توسكاني الأصل الى جانب كونه يساعد ملكاً وقع في ضيق. لم يذكر ليفي ولا ديون أنه أعلن طلباته لروما.

(٣٩) في اثناء قنصلية پوبليكولا الثالثة وكان هوراشيوس پولثيلوس يزامله فيها - زحف (پوسينا) على روما. و(ليفى) في هذا يتفق مع بولتارخ.

ولأجل أظهار معنوية أعلى من تحديّ [پورسناً] بنى مدينة [سيغليوريا Sigliuria] (٤٠) وجيش پورسنا معسكر على مقربة منه. وانفق مبالغ طائلة في تسويرها وتحكيمها. ووضع فيها سبعمائة رجلٍ من المستعمرين كأن الحرب امرٌ تافه عنده. لكن [پورسنا] قام بهجوم عنيف وارغم المدافعين على التقهقر الى روما. وكاد جيش پورسنا يدركهم ويدخل المدينة معهم. لكن پوليكولا انقذ الموقف بكرةٍ على العدو من داخل المدينة، وأرغمهم على التراجع. ثم اشتبك معهم في معركة على ضفاف [التيبيرا] وقاومهم مقاومة ضارية وكان العدو يهاجم بجموع هائلة. واصيب [پوليكولا] بجراح بالغة ونقل خارج ساحة القتال. ولم يكن حظٌ زميله [لوكرتيوس] بأحسن من حظه وخاب امل الرومان وتقهقروا الى المدينة حفظاً على أرواحهم. وأحدق برومه خطر داهم وأشرفت على السقوط بيد العدو الذي كان يندفع متقدماً فوق الجسر الخشبي ووقف [هوراشيوس كوكليس Horatius Cocles] (٤١) يصدهم بمعاونة اشجع محاربين في روما: [هرمينيوس Herminius] و[لارتيوس Lartius] وجاءه لقب «كوكليس» لأنه فقد إحدى عينيه في الحرب. وقيل أن هذه الكنية لصقت به لأنه افطس الانف مفلطحه حتى يكاد لا يبين له أنف ما بين عينيه فيخيل للناظر انه ذو عين واحدة، وكان القصد أنه يُكنى چكلوپس Cyclops (٤٢) لكن الاسم صُحّف الى «كوكلس». بقي [كوكلس] هذا صامداً يصد تقدم العدو حتى تمكن رفيقاه من كسر الجسر خلفه، فالقى بنفسه في الماء بدروعه وسلاحه وسبح الى الجانب الاخر، وهو مصاب بطعنة رمح توسكاني في فخذه. وأعجب [پوليكولا] ببسالته وأقترح حالاً أن يقدم له كل رومانيّ رزق يوم كامل هدية له. ثم منحه قدر ما يستطيع محرّاته تحويط ارضٍ بخطٍ في يومٍ كامل. كذلك اقام تمثلاً برونزياً تكريماً له في معبد [قولكان] على سبيل التعويض للعرج الذي أصابه من الطعنة.

القي [پورسنا] حصاراً شديداً على المدينة. وانتشرت المجاعة بين الرومان. كذلك قام جيش توسكاني جديد بشنّ الغارات على البلاد. ولما انتخب [پوليكولا] قتيلاً للمرة الثالثة، قرر تقوية تحصينات المدينة والدفاع عنها دون اللجوء الى تحركات هجومية خارج المدينة. على أنه تسلل سراً (٤٣) وهاجم المغيرين التوسكان والحق بهم هزيمةً وقتل منهم خمسة آلاف.

(٤٠) لم تبّن سيغليوريا على سبيل التحدي ولا في ذلك الزمن كما يزعم پلوتارخ بل كان بناؤها لتصير حاجزاً ضد اللاتين والهرنيشي في قنصليته الثانية. بل لعله الموضوع الذي يطلق عليه ليفي (٥٥:١) سيكينا.

(٤١) هو ابن اخ لهوارشيوس القنصل.

(٤٢) يقول (ديون): لقب بذلك لأنه فقد إحدى عينه في هذه المعركة. كان مقاتلاً رهيباً بدون شك فهو أحد ثلاثة صمدوا الى الأخير ثم انسحب رفيقاه قبل أن يكسر الجسر بعدما (ليفي ١٠:٢) يذكرها بتفضيل أكثر).

(٤٣) اذاغ القنصلان خبراً قام العبيد الهاربون بنقله فوراً الى معسكر التوسكان، مؤداه ان كل القطعان =

إن قصة [موشيوس Mucius] (٤٤) تروى باشكال مختلفة ونحن هنا لا نرى مندوحة من ايراد الشكل الشائع لها: كان هذا رجلاً يجمع في شخصه كل الخصال والسجايا الحميدة، وبرزها الشجاعة والميل للقتال ولذلك قرر اغتيال [پورسنا]. فتزيا بالزيّ التوسكاني ونطق بلغتهم. وخرج يقصد طلبته حتى بلغ معسكر الاعداء. ودنا من مجلس الملك. وكان يحف به النبلاء فوقع في حيرة لأنه لم يكن يعرف الملك بالوجه، وخاف السؤال للاستيثاق لئلا يفتضح أمره. ولم تطل به الحيرة بل امتشق سيفه وطعن أوّل شخصٍ ظنه الملك فقبض عليه في الحال وفيما كانوا يستنطقونه جيء الى الملك بمستوقدٍ يضطرم ناراً لأجل تقديم القرابين. فدس [موشيوس] يده اليمنى (٤٥) في لهب جمراته وأخذ يحرق [پورسنا] بوجه هاديء لا أثر لما يحسّ بالم فتملك پورسنا الاعجاب به وأطلق سراحه واعاد اليه سيفه، اذ رفعه وقذف به اليه فتلقاه [موشيوس] بيده اليسرى مما دعا الى تكنيته [سكيفولا Scaevola] اي الأعسر. وذكر انه قال معقباً: «لقد تغلبتُ على إرهاب پورسنا، لكن كرمه غلبني، والاعتراف بالمنة تضطرنني الى الكشف عما يقصر العقاب عن استخلاصه مني» ثم راح يؤكد للملك بأن ثلاثمائة روماني مثله يحومون الآن حول معسكره يحدوهم العزم على قتله وانهم يتحينون فرصتهم. وصارحه بأنه ليس أسفاً بفشله في القيام بمهمته فهذا حكم القدر. وان رجلاً شهماً شجاعاً مثله يستحق ان يكون صديقاً للرومان لاعدوا. وأصدق [پورسنا] ظنه وأعلن عن ميله الى المهادنة، لا خوفاً من الرومان الثلاثمائة حسب اعتقادي - بل تقديراً لشجاعة الرومان عموماً (٤٦).

يجمع كلّ الكتاب على أن اسم الرجل هو [موشيوس نكيثولا] (٤٧) إلا [اثندوروس Athendorus] ابن [ساندون Sandon]، فقد ذكر في كتاب مهدي الى [اوكتافيا] أخت [قيصر] ان اسمه [پوستموس] ايضاً. ولم يكن پوليكولا يعتبر عداوة [پورسنا] خطراً على رومه قدر ما كان يعتبر صداقته ومحالفتها عنهما لها وفائدة. لذلك عهد الى الملك [پورسنا] بمهمة التحكيم بينه وبين [تاركوين]. وأثبت له ببراين عديدة أن خصمه من اسوء الرجال وانه

= التي جيء بها من الارياف سترسل للرعي في الحقول. وستكون تحت الحراسة. هذا الطعم أجتذب العدو ليقع في كمين.

(٤٤) C. Mucius Cordus.

(٤٥) ليفي (١٢:٢) يقول ان [پورسينا] هدد موشيوس بالتعذيب والنار ليرغمه على الاعتراف بشركائه وعندها دس موشيوس يده في النار ليثبت له انه لا يقيم اي وزن لتهديده.

(٤٦) [ديون] يعزو الصلح الى هجوم پوليكولا الناجح الذي جاء ذكره في النص. فيسرده بوصفه نتيجةً لمأثرة موشيوس.

(٤٧) ساندون فيلسوف روائي من طرسوس. كان معلماً لأغسطس ثم لـ طيبريوس قيصر.

يستحق الحرمان من الملك. لكن [تاركوين] رفض بغرسة اي تحكيم، ولاسيما تحكيم [پورسنا] الذي نكث بعهد قطعه له، فأغضب جوابه هذا [پورسنا]، وشك في عدالة قضيته، كما أنه مال الى الأخذ بحجج ابنه ارنوس الذي حرص على مصلحة رومه. وعقد صلح بين الطرفين على الشروط التالية: أن ينزل الرومان عن جميع الأراضي التي اغتصبوها من التوسكان. وان يعيدوا اليهم كل الأسرى، وان يستعيد الرومان كل من لجأ منهم الى التوسكان^(٤٨). وتوثيقاً لعهد السلم هذا يقدم الرومان رهائن تتألف من عشرة من ابناء الپاتريشيين ومثله من بناتهم. وممن وقع عليه الاختيار [فاليريا] بنت پوبليكولا.

بعد هذه المواثيق توقف كل الأعمال العدوانية. وخرجت البنات الرهينات الى النهر للاستحمام في موضع يؤلف انحاء النهر خليجاً راكد المياه. ولم يجدن حراساً ولا مستطرقاً، فتشجعن للسباحة الى الضفة الأخرى غير مباليات بعمق الماء وقوة التيار. ويؤكد بعضهم ان [كلوليا Cloelia]^(٤٩) عبرت على ظهر جواد وحملت الأخريات على اللحاق بها. لكنهن أنبن على عملهن بوصولهن سالمات ومثولهن بين يدي پوبليكولا واستنكر الأمر منهن وأشدت قلقه لئلا يفسر العمل تفسيراً سيئاً ويبدو هو أقل حرصاً على العهد من پورسنا. وان تفسر هذه الجرأة الاثوية، اخلاقاً من الرومان وخيانة. فما كان منه إلا ان ردهن الى پورسنا. لكن رجال [تاركوين] وقفوا على القضية فنبصوا كميناً قوياً على الضفة الأخرى يريدون الايقاع بمن يرافقهن. وفيما هم مشتبهون اندفعت [فاليريا] بنت پوبليكولا مختربة صفوف الاعداء وافلحت في الفرار بمساعدة اثنين من خدمها اما الباقيات فقد طوقن واحدق بهم الخطر لكن [ارنوس] ابن پورسنا اسرع الى انقاذهن عندما بلغته الابناء. وانهزم العدو وسلم الرومان وشاهد [پورسنا] عودة الفتيات فسأل عمن دبر الهروب و اشار به، ولما ابلغ بأنها [كلوليا] رفعها بنظره اعجاب وسرور وامر ان يقاد اليه أحد خيوله فجيء بجواد مطهم فخم السرج نفيس الحلى واهداه لها. وهذا ما يقوم دليلاً للذين يزعمون ان [كلوليا] كانت الوحيدة التي عبرت النهر على ظهر جواد. اما من ينكر ذلك فيرى الهدية مجرد اعجاب توسكاني بجرأتها. وعلى اية حال يوجد تمثال فارسة ينتصب في [فيا ساكرا Via Sacra]^(٥٠) وانت ذاهب الى

(٤٨) طلب من الرومان اعادة سبع قرى كانوا قد انتزعوها من الفينيتيين Veientes في الحروب السابقة (ليفي ١٣:٢).

(٤٩) يدلي [ليفي ١٣:٢، ٦-١١] برواية مختلفة جداً عن حادثة كلوليا. المثل الذي ضربه موشيسوس في الشجاعة آثار حماسة الفتيات وتخليداً لذكراها أقام الرومان في رأس الطريق المقدس تمثال Virgo insid-ens equa.

(٥٠) بعبارة لاتينيل ليساً يذكر لنا (ديون) انه لم يعد لهذا التمثال اي أثر في زمانه (ايام أغسطس) فقد اتت النار عليه. على أن پليني (٦:٣٤) يتفق مع پلوتارخ في هذا.

الپالاتيوم، يقول بعضهم انه تمثال [كلوليا]، ويقول آخرون انه تمثال [فاليريا]. وبهذا تصالح [پورسنا] مع الرومان وقدم دليلاً آخر على سماحته بأن أمر جنوده بترك المعسكر بأسلحتهم فقط، وخيامهم ملأى بالقح وغيره من المؤونة، هدية للرومان. ومن هنا جاءت العادة المطبقة الى يومنا هذا، وهو أن ينادى بكلمة «پورسنا» عندما يبدأ أي بيع علني لبضاعة، تخليداً لعطفه، وترى في مجلس الشيوخ ايضاً تمثالاً برونزياً له عتيقاً ساذج الصفة^(٥١).

كان [ماركوس فاليريوس] أخو پوبليكولا و[پوستيميوس تويرتوس Postimius Tiberius] قنصلين عندما اغار السابين على الرومان وتمكن [ماركوس] بفضل معونة پوبليكولا، وتصريف الشؤون العامة عنه من احراز انتصارين كبيرين. قتل في اولهما ثلاثة عشر ألف سايبيني دون ان يخسر رومانياً واحداً. فأهدي له بيت بُني في الپالاتيوم^(٥٢) على حساب الخزينة العامة اعترافاً بفضله. وفي حين كانت ابواب سائر البيوت تفتح الى الداخل. جعلت ابواب بيت ماركوس تفتح الى الخارج، تأكيداً لأعتراف الجمهور الأبدى بجميله، لأن ذلك يشير الى افساحه لاي اقتراح في اقامة قرابين عامة. واليونان^(٥٣) عموماً كانوا يهجون هذا النهج في هندسة بيوتهم منذ القديم وهو ما يستدل عليه من تمثيلاتهم الهزلية لأن من يريد الخروج الى الشارع يعمل ضجة مسبقة قرب الباب تنبيهاً للمارة والمتسكعين في الشارع انتخب پوبليكولا قصلاً للمرة الرابعة، لما هدّد التحالف بين السابين واللاتين باثارة حرب جديدة^(٥٤)، كذلك انتشر خوف غامض في المدينة بسبب تواتر حوادث اجهاض النساء، حتى لم تحصل ولادة واحدة في أجلها الموعود. ورجع پوبليكولا الى كتب [السبيليين Sibyl-line]^(٥٥)، ثم ضحى لپلوتو، وجدد انشاء العباب معيئة أمر بها ايلولو. فاعاد الى المدينة

(٥١) كذلك ارسل اليه المجلس سفارة مع هدية تتألف من عرش مطعم بالعاج وصولجان وتاج من الذهب. ورداء النصر. ولم يذكر هو أو ليقي شيئاً عن التمثال البرونزي هذا.

(٥٢) نصب امام هذا المنزل تمثال برونزي لثور وهو شعار فاليريوس الذي كان نصره سبباً في المحافظة على الزراعة وخيرات روما (انظر پليني ١٥:٣٦).

(٥٣) كان لپوستيميوس حصته في هذا النصر كما كان له سهمه في الأعمال الجليلة التي تمت.

(٥٤) يعرض ليقي (٦:٢، ٦-٢) وصفاً جد مقتضب لهذه الحرب.

(٥٥) قصدت تاركوين امرأة مجهولة الهوية عارضةً عليه تسعة مجلدات من النبوءات كان قد دونها المدعو سيبيل من كوما وطلبت ثمناً لها مبلغاً كبيراً من المال أستكثره و ابنى شرها. فأحرقت ثلاثة منها وعرضت عليه الستة الباقية بالثمن عينه فرفض بسخرية. فأحرقت ثلاثة أخرى وطلبت للثلاثة الباقية الثمن الذي حددته للتسعة. فاستغرب الملك من سلوكها العجيب ودفع بالكتب الثلاثة الباقية الى العرافين لفحصها فنصحوها بشرائها مهما غلى ثمنها، ففعل وعين اشخاصاً من ذوي الجاه والمكانة أطلق عليهم اسم دووميفيري Duamviri ليكونوا اوصياء عليها. فحفظوها في خزانة تحت معبد (جوبيتر) الكاپيتولي وبقيت هناك حتى أتت نار الحروب المارسية على المعبد [ديون ١٤:٤] هؤلاء الحفظه الاوصياء الذين زيد عددهم فيما بعد الى العشرة، كانوا يعودون الى تلك الكتب يستشثرونها بامر من مجلس الشيوخ كلما أحدق =

إن نزوح هؤلاء هداً من الأمور في بلاد السابين. على أن رؤوسهم وزعماءهم ما كانوا يريدونهم ان يخلدوا الى الراحة والاستقرار. وزاد من حقهم ان [كلوسوس] اجهض محاولة الانتقام الذي دبروه، بفراره وانحيازهم الى الرومان بعد أن استمر في معارضته له ونجح بتعويق الحرب الى امدٍ فساقوا جيشاً جراراً وعسكروا على مشارف [فيدينيا] ونصبوا كميناً بألفين من الرجال قرب رومه، ووزعوا قواته في عدد من الوديان والغابات وزودوها بأمر يقضي عليها بالخرق من مكائنها فتعيث في البلاد فساداً ونهباً وان تقترب من المدينة ثم تتراجع امام العدو لتجره خلفها وتوقعه في الكمائن. وما لبث پوليكولا ان وقف على الخطّة من جماعة الفارين فقسم قواته بمجموعات ثلاثٍ واناظ بزوج بنته [پوستيميوس بابلوس Posti-mius Bablus] قيادة ثلاثة آلاف محارب يخرجون مساءً ويحتلون التلال التي تشرف على مكائهم الأعداء، ويراقبون حركاته واناظ بزميله القنصل [لوكريتيوس] قوة تتألف من اشجع الرجال واسرعهم لمقابلة خيالة العدو. بينما تولى بنفسه قيادة بقية الجيش الذي أوكلت اليه مهمة التعرض للجيش السابيني. وانتشر فجأة ضباب كثيف وقام [پوستيميوس] في الصباح الباكر بالهجوم على مواضع الكمائن بصياح داوٍ منحدراً من التلال. وهجم [لوكريتيوس] على الخيالة الحقيقية وحاصر پوليكولا وحلت الهزيمة بالسابين من كل ناحية عسكروا بها وراح الرومان يفتكون بالمنهزمين من غير ان يلحقوا مقاومة اذ كان املهم بالنجاة هو الذي يوردهم موارد حتوفهم لأن كل موقع كان يتوهم الموقع الآخر سليماً صامداً فلا يبدي قتالاً ولا يثبت محاربه في مواضعهم فيخرج من في معسكر الى الكمين، ومن هم في الكمين يهرعون الى المعسكر فيلتقي الفارون بالفارين ليجد الاثنان انهما يطلبان الحماية أحدهما من الآخر. على أنه قرب مدينة [فيدينيا] من السابين هو الذي انقذ البقية الباقية منهم، ولاسيما الهاربون من المعسكر. أما من لم ينجح في الوصول الى المدينة فإما هلك أو وقع أسيراً. ومع ان الرومان يعززون نصرهم الى أحد آلهتهم فإنهم يقرون بالفضل الى قيادة قائد واحد. ويقال ان الجنود كانوا يتحدثون فيما بينهم قائلين: «ان پوليكولا دفع بالعدو اليهم وهو أعمى أعرج لا يعوزه إلا السلاسل، ليذبحوه بحد سيوفهم» وغنم الرومان ثروة كبيرة من الأسرى والأسلاب.

بعد أن انجز پوليكولا نصره وادع مقدرات المدينة الى رعاية خلفائه القناصل. قضى نحبه وانتهت بذلك حياة حافلة بكل ما هو شريف ونبييل^(٥٩). على قدر ما تكون حياة البشر، وبدا

(٥٩) يقول ليفي (١٦:٢ و٧) «في السنة التالية انتخب أكربيا مينيموس وپوليكولا پوستيموس. كان پوليكولا قائليربوس باجماع الكل اعظم الرومان وانبغهم في فنون الحرب والسلم توفي وهو في قمة مجده وبلغ من الفقر حداً أنه لم يخلف ما يكفي لسد نفقات جنازته لذلك دفن على نفقة الدولة. وليست النساء الحداد عليه مثلما فعلن عند موت بروتوس... كان على پلوتارخ هنا أن ينوه بفقرة تنويها واضحاً، لأن الجنازة التي =

الثقة بالآله. ثم استعد للقاء على تهديد البشر لها، وبدت الاستعدادات العظيمة وأثر الخلف القوي. وكان يوجد بين السابين شخص يدعى [اپيوس كلوسوس Appius Claus-es^(٥٦)] وهو من أعظمهم ثراء واقواهم جسماً، ولكن أخلاقه العالية ابرز ما فيه فهو ذو منطق حسن وكلام مقنع، على أنه لم يتخلص من الحاقدين والحساد وتلك حال جميع العظماء المشاهير، لقد زاد من حقدهم عليه وقوفه ضد هذه الحرب وظهوره بمظهر المدافع عن مصالح الرومان. وقيل ان غايته من دفاعه هذا، هو السيطرة على بلاده وادراكه التام مدى تحبيذ العامة لفكرته. ومدى خطئها عند العاملين لاثارة الحرب. وكان خائفاً من أحواله الى المحاكمة، لكن لما كان اصداقاه قد عاهدوه على الفكرة ووعده بالمساعدة فقد اثار فتنة بين السابين عوقت نشوب الحرب. وكان [پوليكولا] واقفاً على دوافع هذه الفتنة، فلم يأل جهداً في تأجيل وتوسيع رقعتها. وبعث وفداً يحمل رسالة الى [كلوسوس] يمدحه فيها ويشيد بطيبته وحسن نواياه قائلاً انه يرى انه لا يليق بالمرء مهما بلغ الأذى الذي ناله، أن يطلب من بني قومه تأره. ولأجل سلامته، يدعو انه شاء الى النزوح عن أرض اعدائه والقدوم الى رومه وسيرحب به الشعب الروماني ويستقبله بالاكرام اللائق بمقامه وسجاياه الرفيعة. فوزن [كلوسوس] المسألة وزناً دقيقاً ووجد انها خير حل تملية الضرورة. وشاور أصحابه واتصل هؤلاء بأخريين والتأم وشمل الجميع وشدوا الرحال الى رومه. وكانوا خمسة آلاف أسرة^(٥٧) بأطفالها ونسائها. من أطيب السابين خلقاً وأهدأهم مزاجاً وابلغ [پوليكولا] بدنوهم فخرج لاستقبالهم بكل مظاهر الحفاوة والصدقة منحهم فوراً حق التصويت وخصص لكل فرد مساحة من الأرض تبلغ ايكرين، على ضفاف نهر أنيو Anio، ومنح [كلوسوس] خمسة وعشرين (ايكرا) واعطاه مقعداً في مجلس الشيوخ، وهذه بداية لسلطة سياسية استخدمها بتعقل وحكمة دفعت به الى احضان الشهرة واكسبته نفوذاً كبيراً. فكان عميداً للبيت (الكلودي)^(٥٨) الذي لا يقل شرفاً عن أعرق بيوت رومه.

= بالبلاد خطر عصيان أو حلت بالجيش الرومانية هزيمة. أو حصلت مخاريق يظن انها طالع نحس. كما كان هؤلاء يترأسون تقديم القرابين، والعرض المسرحي الذي تأمر به تلك الكتب تهدئة للغضب السماوي. (٥٦) يسميه [ديون ٧:٥] تيطس كلوديوس Titus Claudius وليقي بسميه [أتا كلوسوس Atta Clausus] وفيما بعد [ابيوس كلوديوس Appius Claudiu]. (٥٧) هذا يعني عشرين الف شخصٍ على الأقل، بمعدل اربعة افراد في الأسرة الواحدة، كان نصيب كل فردٍ نصف ايكرا.

(٥٨) في روما اسرتان شهيرتان باسم كلودي Cloudii أحدهما پاتريشية والأخرى پليبيّة. الأولى أطلق على أفرادها لقب پولكر Pulcher والثانية أطلق عليهم لقب مارجلوس Marcellus. وقد خرج من الثانية ثلاثة وعشرون قنصلاً، وخمسة دكتاتورين، وسبعة تقلدوا وظيفة جنسور، ونال اثنان من القواد فيها موكبي نصر وتكريمين. ومنها نبغ الامبراطور طيبيريوس ومن اتباعه تألفت العشيرة الكلودية (أنظر ليفي وديون).



أوكتافيا

وكان الشعب لم يكرم الراحل في اثناء حياته الاكرام الواجب وانهم مازالوا مدينين له. فقرروا ان يكون تشييعه شعبياً وساهم كل مواطن بكوادرانس (Quadrans*) واحد للنفقات واستصدر قرار خاص للنساء بلبس الحداد عليه سنة كاملة وهي شارة تكريم انفراد بها دون غيره. ودفن حسب رغبة الشعب داخل اسوار المدينة^(٦٠)، في جزءٍ منها يدعى [فيليا Velia]. ومنح نسله امتياز الدفن فيها. والآن لم يعد يدفن هناك أحدٌ عن أعضاء الأسرة على كل حال. اذ يحمل جثمان الميت اليها عادة ويوضع فيها، ثم يأتي شخص ويضع مشعلاً تحت الجنازة ثم يسحبه حالاً، كدليل على امتياز الميت وعلى تنازله عنه. وبعد ذلك يرفع الجثمان ويحمل الى المقبرة.

= تنفق عليها الدولة وهي أحياناً من قبيل الشرف الذي تحفله على الميت. ولا شك ان المبلغ الذي أكتبته السكان كان كبيراً.

(*) عملة رومانية.

(٦٠) في الأصل كانت عادةً إلا ان اللوح الاتنتي عشرة منعت الدفن داخل الاسوار. وبعد هذا صار دفن الموتى يتم على جانبي الطرق الخارجية العامة. وأحتفظ بامتياز الدفن المدينة لأولئك الذين قدموا خدمات جليلة للدولة كما هو الحال عند الاغريق. ويقول [ديون] انه امتياز خصى به بوبليكولا لكن بلوتارخ يظنكر في موضع آخر ان [فايريچيوس] حظي بهذا الامتياز ايضاً كما حظي به كل من دخل في موكب نصر على ما يؤكد لنا بير Pyrrho من ليارا Lipara.

في اغراض سامية نبيلة. وصرفه على وجوه البر والاحسان ولذلك يجب علينا ان نقرّ بان پوليكولا هو الأسعد وان ما اعتبره صولون اكمل الصلاح وأعظمه توفر في پوليكولا وممارسه وتمتع به في موته.

ويمكن القول ان لصولون يداً في مجد پوليكولا، كذلك يصحّ القول ان پوليكولا يداً في مجد صولون باختياره اياه نموذجاً يحتذى ومرشداً في سن الأنظمة الديمقراطية وجدّه من السلطة المفترطة للمنصب القنصلي. والواقع انه نقل عدداً من قوانينه الى رومه مثل اعطاء الحق الجمهور في انتخاب الرؤساء، ومنح الحرية للمحكومين باستئناف احكامهم امام الجمعية العامة كما أعطى صولون هذا الحق للمحلفين. انه لم ينشيء مجلس شيوخ^(٤) كما عمل صولون، لكنه وسّع المجلس القديم حتى ضاعفه او كاد. ويعود استحداثه منصب امين الخزانة الى صولون نفسه. والحكمة في هذه البدعة انصراف رئيس الدولة الفاضل الى الأمور الهامة، لا مباشرة الأمور الثانوية كالمسائل المالية، اما اذا كان سيء الخلق فقد يزيد المال في غوايته ان انيط به المال والحكم معاً. وكره الاستبداد عند پوليكولا أشدّ منه عند صولون، وفي قوانين صولون لا يمكن معاقبة شخص يحاول اثاره فتنة أو تدبير مؤامرة إلا بعد ادانته قضاءً. بينما اجاز پوليكولا قتله قبل اجراء محاكمته. وارتفعت منزلة صولون حقاً عندما عرض عليه الحكم المطلق بحكم الظروف وقومه يلحون عليه في قبوله. الا أنه أبى ذلك. لكن فضل پوليكولا لا يقل عن فضله، فقد تسلم قيادة لاحتد سلطانها فحوّلها الى حقوق للجمهور، ولم يستعمل كل الصلاحيات التي يمارسها القنصل بحكم منصبه. وعلينا ان نتذكر بأن صولون كان أول من راعى ذلك:

الشعب يُجلّ قدر حكامه دوماً، عندما لا يعتدون عليه ولا يسايرونه.

ان الغناء الديون كان من معجزات صولون. وكانت وسيلته العظمى لتشبيات حريات المواطنين. إن كل قانون يمنح حقوقاً متساوية لسائر الطبقات هو قانون لا فائدة منه حين يضطر الفقراء الى تضحية تلك الحقوق على مذبح ديونهم. ففي هذه الحالة يكونون رهن اشارة الاغنياء وطوع امرهم سواء في المعابد العامة ومحرابها أو في دور العدل ودواوين الحكومة وعلى الخصوص في اثناء المناقشات العامة، إن أعظم نجاح لصولون اي الغناء الديون أدى فعلاً

(٤) يفهم من النصّ ان بولوتارخ يقصد الشيوخ (أو مجلس الاربعمئة) لا المجلس الايوبياغي، ان مجلس الاربعمئة الذي يقرر ما يجب عرضه على الشعب من أمور. وليس ثم ما يمكن اقتراحه غير ما تم عرضه على الجمعية العامة وهضمه هؤلاء، لذلك المجلس على قدر الإمكان وسيلةً لكبح الشهوة الى الاستبداد عن الحكام الاعلى، والرغبة في الحرية المطلقة من كلّ إسار عند الطبقات الدنيا فالاريبواغوس يكبح الاولين، ومجلس الشيوخ اداة استئصال الثاني.

أوجه المقارنة بين پوليكولا وصولون

هناك شيء فريد في هذه المقارنة، لا وجود له في أية سيرة من السير الأخرى. وهو ان أحدهما لا يُدّ ان يكون مقلداً للآخر وان السابق كان خير مثال للآخر. فعند تأمل عبارة صولون التي فاه بها امام [كروسوس] بخصوص سعادة [تللوس]. يتضح انها أكثر انطباقاً على پوليكولا. اذ ان سجايا [تللوس] وميئته المثالية اكسبته صفة اسعد الناس، ومع هذا فان صولون لم يشد به في شعره، كما لم ينل أحد من صلبه ولا رؤوساً قومه امتياز نصب تذكاري لكن حياة پوليكولا كانت ابرز حياة بين الرومان، لاخلاقه وللسلطة التي حازها. فيها قد مرّ على وفاته قرابة ستمائة عام^(١) وما زالت اسر رومه العريقة مثل پوليكولي - Popico lae ومسّالي Messalae وفاليري Valerie^(٢) تعتبره أصل عراققتها وبذرة نبالتها. ومع ان [تللوس] صمد في موقعه وقاتل قتال الجندي الباسل فإنه قتل على يد اعدائه لكن الأسعد منه حظاً، هو من قتل اعداءه ورأى بلاده منتصرة تحت زعامته وبلغت به مآثره وانتصاراته المجيدة، نهاية سعيدة، وهذا هو مطعم صولون. وان الصرخة التي أطلقها في قصيدته بهجاء [مينرموس (Minnermus)]^(٣) حول استمرار حياة الانسان: «الا فليس قلب الصداقة المخلص في ركاب نعشي فيصعد حسرة أليمة، ويُذرف دمعة رثاء».

وهي شاهد على سعادة پوليكولا، فموته لم يقتصر على استدرار الدمع من عيون اصدقائه ومعارفه فحسب وانما كان مصدر حزن واسى عام لكل المدينة. وبدت النسوة وكأنهن فقدن به ابناً أو أخواً أو أباً. قال صولون «لست بمن يكره الغنى، لكنني ارفض الغنى الذي يأتي بطريق غير مشروعة لأن عاقبته دينونة. على ان ثراء [پوليكولا] جاءه بطريق مشروعة، لا بل انفقته

(١) يبدو من هذه العبارة ان بولوتارخ كتب هذه السير في بداية حكم الامبراطور تراجان.

(٢) أعني الفاليري الآخرين وهم ماكسيمي، كورثيني، پونيتي، ليفيني، فلاجي.

(٣) مخترع البيت الخمس في الشعر. هو شاعر موسيقي من كولوفون أشتهر بمراثاته بصورة خاصة. ولم يصل لنا منها غير مقطوعات قليلة وقد وصفه الشاعر (هوراي) فوق [كاليماخوس].

يجب التنازل عن جزءٍ لثلا يفقد الكلّ، والسماح بالقليل لضمان الكثير. وبهذه الطريقة انقذ پوليكولا املاك الرومان الخاصة، باعادة ما غصبوه وكسب مؤناً من العدو لأولئك الذين كانت امنيتهم الكبرى الا بقاء على مدينتهم فحسب. وبايداعه الحكم في النزاع لخصمه نال النصر، فضلاً عن نياله ما كان هو نفسه ينزل عنه بطيب خاطر ليفوز بالنصر، الا وهو قيام پورسنا بانهاء الحالة الحرب وتركه الارزاق لهم. متأثراً بالسجايا الرومانية التي وجدها في قنصلتهم.

الى اجحافٍ يحقّق طائفة من الدائنين الا انه كان علاجاً خطراً فعلاً انهي الأجحاف العام الذي أزم الوضع في المدينة. وسمعة صولون الشخصية وقيمتته ترتفع كثيراً عما وصم به من سوء التغيير وانتقص من شأن مباديء الحكم التي وضعها، فقد كانت نسيج وحدها، لم تحذ فيها حذو احدٍ وأكملها وحده دون معاونة آخرين وبمجهوده الفردي فحسب، على أن آخر حياة پوليكولا كانت أسعد وأحلى من نهاية حياة صولون، فقد شهد هذا الأخير بام عينه انهيار جمهوريته. اما پوليكولا فقد خلف دولته بحالة جيدة ونظام تام وبقيت كذلك حتى الحروب الأهلية. وترك صولون قوانينه بعد ان سنّها وحفرها على الخشب وغادر آثينا ولم يخلف حماة لها في حين ظلّ پوليكولا يجاهد في تثبيت اقدام نظام حكمه، سواء وجد في الحكم أم كان خارجه. ومع علم صولون بنوايا [پسسراتوس] واطماعه الا انه لم يحرك ساكناً لوقفه بل ظلّ مكتوف اليدين امام عملية الغضب وهي ماتزال تحبو على أربع في حين قوّض پوليكولا صرح الملكية وسحقها وهي في عنفوانها ثابتة البنيان راسخة الجذور لطول العهد بها فكانت ميزاته مساوية لميزات صولون، اللهم الا حسن الحظّ (فقد حالفه وحده دون صولون). وحرية ممارسة السلطان وكلاهما عاملان كفيلان بتحقيق تلك الأهداف⁽⁵⁾.

وفي الشؤون العسكرية نرى أن [دياماخوس Diamachus] الپلاتي Plataea، لا يقرّر لصولون حتى بادارة دفة الحرب ضد الميغاريين كما اسلفنا. في حين ان پوليكولا خرج منصوراً في معظم الحروب التي خاضها جندياً بسيطاً أو قائداً، اما في السياسة الداخلية فنجد ان صولون لم يتمكن من حمل مواظنيه على مواصلة الحرب لاستعادة سلاميس الا بالخداع وانتقال الجنون. اما پوليكولا فقد عرض نفسه من البداية الى أعظم الأخطار. فأشهر السلاح ضدّ [تاركوين]، وكشف المؤامرة وفضحها وكان العامل الرئيس في القبض على المتآمرين والاقتصاص منهم. ولم يكتف بنفي المستبدين من المدينة بل قضى قضاءً مبرماً على آمالهم في العودة. وكان مسلكة يتسم بالجرأة وقوة العزيمة في الأحوال التي تستدعي التحدي والمقاومة والمعارضة، وهو أجدر بالثناء في المواضيع التي تستدعي استخدام الكلام ولغة السلام وحيث يكون التظامن والتنازل واجباً. لقد نجح في كسب صداقة [پورسنا] وهو عدو رهيب لا قبل له بمقارعتة. وقد يحتج بعضهم بان صولون استعاد سلاميس المفقودة في حين تنازل پوليكولا عما غنمه الرومان من اراضٍ. لكن عامل الزمن يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار عند الحكم على الأحداث والوقائع، وسلوك السياسي الحكيم يجب قطعاً ان يتأثر بالوضع الراهن كثيراً ما

(5) يقول (سترابو) انه أرسل في سفارة الى أمير من أمراء الهند يدعى الليتروخادس Allitrochades. وأنه كتب تاريخاً للبلاد التي زارها، لا يصح الاعتماد عليه كثيراً.

ويذلك ازال الانقسام والتفرقة من المدينة ازالة تامة، ونعمت بعدها بالهدوء والوحدة. وحكم قبضته على كل آتينا، وكل الشؤون المتعلقة بالآثينيين، غراماتهم الحربية، جيوشهم، سفنهم، الجزر، البحار، سلطانتهم الواسع الرقعة على الأغرقيق الآخرين وعلى البرابرة. وكل المستعمرات التي ملكوها، وحصونها في بلاد الشعوب الخاضعة لهم، أما بموجب معاهدات التحالف، أو بمقتض صداقتهم مع الملوك.

بعد كل هذا، لم يعد بيركليس شخص الأمس، لم يعد كما كان سابقاً مع الجماهير ذلك الرقيق اللين العريكة المحبوب المستعد حالاً للنزول عند رغباتهم وتلبية طلبا تهم من ضروب التسريبات والترفيه، كقائد الدقة يتحول مع الريح. ونبذ تلك الرعاية المتراخية، المنطلقة والتودد للشعب الذي وصل في بعض الحالات الى حد تخطى العرف والقانون. وأبدل اللهجة الانيقية اللينة الوقع، بصرامة الحكم الارستقراطي الملكي، مستخدماً آياه لمصالح البلاد العليا باستقامة ودون انحراف، فاستطاع بشكل عام أن يقود الجماهير ويسوسها دون ما ارغام بل برغبة منها وموافقة، عن طريق اقناعها بما يجب عمله. وارشادها الى كيفيته. وأحياناً كان يلح ويدفعها دفعا الى حد التطرف خلافاً لارادتها. وجعلهم يخفضون جناحاً لكل ما فيه نفعهم شأؤه أم أبوه. وكان يعمل ذلك والحق يقال ببراعة الطبيب النطاسي الذي يسمح لمريض بداء مزمن معقد، ويكبده في ظرف آخر آلاماً شديدة ويسقيه الأدوية لتحقيق شفائه.

نشأت وترعرعت طبعاً - مختلف مشاعر السخط بين الشعب الذي كان بيركليس يمارس عليه سيطرةً وضبطاً لا حدود لهما، فعرف ذلك السياسي العظيم كيف يعالج أمر كل فرد من أفرادها ويعامله المعاملة الصحيحة. واستخدم سياسة الأمل والخوف استخداماً حاذقاً وجعلها كعصوي سكان الدقة. يسبر بالعصا الأولى مسالك ثقتهم في أي وقت شاء، ويرفع بالعصا الثانية معنوياتهم ويشد من عزماتهم عند كل نكسة أو خيبة. وأظهر بجلاء أن بلاغة اللسان، أو فن الكلام هو خير ضابط لأنفس الرجال (إذا استخدمنا لغة افلاطون) وان مهمته الرئيسة هي مخاطبة الشعور والعاطفة وهما أوتار الروح ومفاتيحها، تتطلب من يد الضارب عليها لمسات رشيقة حذرة. على أن قوة عارضته لم تكن وحدها مصدر سلطانه المطلق، بل وجد الى جانبها. السمعة التي كسبها في حياته، والثقة التي توحىها شخصيته وطهارة نفسه من أي شكل من أشكال الفساد، وتساميه على كل الاعتبارات المالية ومتاع الدنيا - كما يؤكد لنا ذلك ثوكيديدس. وإذا ضربنا صفحاً عن جعله آتينا العظيمة بذاتها، مدينة لا يسمو أي خيال في وصف غناها وعظمتها، ومع انه كان - بما مارسه من سلطة ونفوذ - أكثر من يد مساوٍ للعديد من الملوك، والحكام المستبدين، الذين يورث طائفة منهم ملكهم لأولادهم، فهو من

جهته لم يزد في الميراث الذي تلقاه عن والده درهماً واحداً.

زودنا ثوكيديدس والحق يقال بكلمة صريحة، عن عظمة سلطانه وفيما تركه الشعراء الهزليون أكثر من إشارة اليه بأسلوبهم الجراح التعريضي، وهم يخلعون على اصحابه واتباعه اسم «الپسسستراتوسيين الجدد» ويهيبون به أن يصرف النظر عن كل نية في سلوك طريق الاستبداد والتحكم، كأن ما بلغه من السؤدد والتفوق، لم يعد شخصه مناسباً للديمقراطية أو الحكم الشعبي، ولا بإمكانه التجاوب معها. ويقول [تقليدس]^(*) أن الآثينيين تنازلوا له...

«عن اتاوات المدن، ومعها المدن أيضاً، يحل ويربط كما يشاء وان يبني إن شاء - اسواراً حجرية حول مدينة ما. وان ينقض تلك الأسوار إن طاب له ذلك. وسلموا له معاهداتهم، وأحلافهم وسلطانتهم ومستعمراتهم، وسلمهم وحرهم وثوراتهم، وكل أسباب فلاحهم الدائم.»

ولم يكن هذا حظاً واثاه في صدفة من صدف الدهر السعيدة، ولا ثمرة نعمة مزدهرة لموسم واحد لا غير. لكنها حالة طويلة الأمد، بقي فيها اربعين سنة^(**) وهو يحتل أرفع مقام بين رجال السياسة من أمثال افيبالطس، وليوقراطس Locrates وميرونيدس Myronides وكيمون، وتولميدس Tolmides وثوكيديدس، كما استمرت بعد نفي ثوكيديدس واندحاره خمسة عشر عاماً أخرى، مارس خلالها قيادة منفردة مستمرة غير منقطعة، اذ كان يعاد انتخابه جنرالاً كل سنة، وظل حريصاً على استقامة لم تصمها وأقل وصمة، على أنه لم يكن في غير شؤون الحكم مهملاً غير مبال، فكان يرعى شؤونه المالية مثلاً. وقد ورث عقارات عن أبيه، فحرص على ان لا يلحقها الخراب، أو العيب بسبب الإهمال، وعلى ان لا تأخذ من اهتمامه وعنايته وقتاً لانصرافه الذي يكاد يكون تاماً الى شؤون الحكم. وأختار لادارتها أسلوباً كان في رايه أسهل وأدق ما وجد. فكان يبيع كل ما تنتجه من غلة سنوية صفقة واحدة، ويؤمن بيته بما يقتضي بشراء الحاجات العائلية من السوق ولذلك ضاق أولاده ذرعاً بأسلوب والدهم هذا عندما بلغوا أشدهم، ولم يشد عنهم نسوة البيت فقد كان يفتقر عليهن، وشكون من تلك الادارة حيث كل شيء يتم حسابه من يوم الى يوم بمنتهى الدقة فلا ينقص شيء ولا يفضل شيء الى الغد، ولم تكن هذه بحالة أسرة سرية بارزة. كل ما يخرج وكل ما يدخل، وكل ما يؤخذ وكل ما يعطى الكيل يجرى حسابه بالعدد والقياس وكان قد أوكل خادماً واحداً لادارة البيت اسمه [ايانجلوس Evangelus] وهو رجل كان يتميز بذكاء

(*) من مسرحية لأعرف لها اسم.

(**) ما بين ٤٦٩ و ٤٢٩ ق.م تقريباً.

مطبوع، أو كان يعمل وفق توجيهات بيركليس، فقد بلغ الغاية في فن الاقتصاد المنزلي.

ولم يكن في كل هذا ما ينسجم وفلسفة اناكساغوراس^(٣٨)، إن كان صدقاً ما روي عن خروجه من منزله وتركه أرضه مرعى للأغنام وعيشته عيشة عامة الناس ودهمائم اطاعة لإلهام رباني، أو لسمو نفس فيه، على أن حياة الفيلسوف المفكر وحياة السياسيّ النشيطة لا تتشابهان في رأيي. فأولهما يستخدم في مسائل العقل الخيرة السامية، ذكاءه وعبقريته، وكلاهما لا يحتاج الى اداة أو مادة محسوسة، أما الثاني فإنه بتوجيه قابلياته العقلية وطاقاته الى واقع الاستعمال البشري، قد تتاح لنفسه فرصة لتتدفق بالخير، لا بالضرورة، بل بدافع النبيل والصلاح لذلك نرى [بيركليس] يرفه عما لا يحصيه عد من مواطنيه الفقراء.

ومهما يكن من أمر فثم حكاية تروى عن [اناكساغوراس] الذي حمل ذكره واختفى في زوايا النسيان بينما كانت أمور الدولة تستأثر بكل وقت بيركليس واهتمامه. بلغ هذا الفيلسوف مبلغ الشيخوخه، وعقد العزم على أن يكون موته بامتناعه عن الطعام. فبلغ ذلك بيركليس بمحض الصدفة. فأذهله الخبر وارعبه وأسرع اليه في الحال واستخدم كل حيلة ورجاء ومنطق ليثنيه عن عزمه، ولم يكن في ذلك محزوناً على حالة اناكساغوراس قدر ما كان أسفاً على نفسه، خوف أن يفقد ذلك الناصح الذي خبر قيمته وقدرها، وعندها نضا اناكساغوراس ثوبه مظهراً جسمه عارياً وقال: «يا بيركليس، حتى أولئك الذين تدرّكهم الحاجة الى مصباح، فأنهم يزودونه بالزيت».

بدأ اللقيديميونيون يظهرون امارات القلق لتنامي قوة الآثينيين وعمد بيركليس من جهته، ليرفع معنويات الشعب، وينمى في رؤوسهم فكرة إطلاع المجد بعظائم الأعمال، الى اقتراح يقضي بدعوة كل الأغريق اينما كانوا أفي اوروبا أو آسيا في كل مدينة صغيرة أكانت أم كبيرة، لإرسال مندوبين الى جمعية عامة تعقد في آثينا، أو مؤتمر عام للمداولة والمشاورة في أمور المعابد الاغريقية التي أحرقتها البرابرة، وفي القرايين المفروضة عليهم بموجب النذور التي قدموها للأرباب على سلامة بلاد اليونان عندما قاتلوا البرابرة، وكذلك للبحث في شؤون الملاحة البحرية، وعقد معاهدة حرية فيما بينهم، حتى لا يتعرض أحدهم لسفن الآخر فيما بعد. وأوفد عشرون شخصاً تزيد اعمارهم عن الخمسين^(٣٩) للدعوة الى المؤتمر، خمسة منهم ذهبوا

(٣٨) جرت عادة الاقدمين ان يقوم الشخص الذي ينوي الانتحار باسدال غطاء على رأسه بصرف النظر عن الاسباب التي دعتة الى ذلك أفي سبيل بلاده أو التخلص من متاعب الحياة [ديوغينيس لايرتوس يقول ان هذا الفيلسوف اورث أقرباءه.

(٣٩) هو سن البلوغ التام عند الآثينيين. من بلغه جازله حق التصويت في الاجتماعات والانتخابات العامة.

لدعوة الآيونيين والدوريين Dorians في آسيا وسكان الجزر حتى [السبوس ورددس]، وخمسة منهم رحلوا لزيارة كل أرجاء [هللسپونت وتراقيا] حتى [بيزنطة] وخمسة غيرهم، لزيارة بويوتيا وفوكيس Phocis وبيلوپوينسوس ومنها يرحلون الى القارة المجاورة عبر بلاد اللوكريين Locrians حتى أكارنانيا Acarnania وامبراكيا Ambracia، والباقون يأخذون طريق [يوبيا] الى الأوتيانين Oetaean وخليج ماليا Malia والى أخائيا^(٤٠) [فوثيوتيس Phothiotis] والتساليين. وقد نبه جميعهم يتصلوا بالشعوب التي يرون بها ويفاتحوها ويقنعوها بالحضور والمساهمة في مداولات السلام، وتنظيم شؤون الأغرقي معاً.

ولم ينتج شيء من هذا، ولم تجمع المدن معاً عن طريق المندوبين. كما كان منتظراً. وقيل أن اللقيديميونيين عملوا على إحباط المشروع من طرف خفي^(٤١). وكان أول فشل للمحاولة في البيلوپونيس. واني أرى من المناسب أن أشرح تفاصيلها هنا لإظهار نفسية بيركليس وسمو أفكاره.

نال في قيادته العسكرية صيتاً داوياً لحنكته ومهارته في فنون الحرب. فهو لا يشتبك بمحض رغبته في قتال ما اذا كان في نتيجه شك كثير، أو خطورة. ولم يحسد قائداً على مجد ناله من مغامرات طائشة تكلت بنجاح باهر وحالفه فيها الحظ، مهما بلغ به أعجاب الآخرين. ولم يرههم جديرين بالتقليد والمحاكاة وانما كان لايفتا يقول لمواطنيه انه لن يألوا جهداً قط في العمل على توفير حياة دائمة خالدة لهم جميعاً. وسيبذل في ذلك قصاراه. ولما رأى [بيركليس] ان تولميدس ابن [طولميسوس Tolmoeus] الملىء بالثقة نتيجة انتصاراته السابقة^(٤٢) التياه الفخور بالمكانة التي رفعته اليها أعماله العسكرية - يقوم بالاستعداد لمهاجمة البويوتيين في عقر دارهم حين لم يكن له في الحملة اية فرصة للنصر. ولما رآه يستميل اشجع الشبان وأكثرهم أقداماً فتطوعوا في الخدمة تحت لوائه وعددهم ألف مقاتل، عدا قواته الأخرى، حاول بيركليس جهده في الجمعية العمومية، أن يشبهه ونصح بالعدول عن قصده ووجه اليه عبارة مأثورة ظلت تضرب في الامثال: قال ما مفاده ان لم يأخذ بنصيحتي، فلن يخسر شيئاً إن ترصص بالزمن وانتظر إقباله، وهو خير الناصحين. هذا القول لم يقم له وزن كبير في حينه، لكن الأنباء وصلت بعد أيام قليلة، بهزيمة تولميدس وقتله في معركة بالقرب من [كورونيا Coronea] وأن عدداً كبيراً من أشجع المواطنين سقطوا صرعى معه. فأكبر

(٤٠) يقصد بالآخين الاغريق عموماً في بعض الأحيان. لاسيما عند الكتابة عن الشعراء ويقصد بهم سكان منطقة معينة من البيلوپونيسي. لكن علينا أن نعرف ان المقصود بهم هنا - هم أهالي من تسالي.

(٤١) لا عجب ان يعارض اللقيديميون في هذا! ان الموافقة عليه تعنى اعترافهم بالآثينيين سادة الاغريق وما كان بمقدور الآثينيين محاولة ذلك دون أمر أو مرسوم صادر من الامفكتيون.

الناس كلمة بيركليس، ونال منها سمعة كبيرة، فضلاً عن أزيد ايمان الشعب بحكمته ومحبتة بني جلدته.

الآن حملته الى [الخرسونيز] (٤٣) هي التي أشاعت من الرضى والارتياح في النفوس ما لم تُشعها أية حملة من حملاته، لأنها أكدت سلامة الأغرقيين الذين كانوا يسكنون تلك الجزر. فعلاوة على أخذه معه متوطنين آثينيين جدد، ومدّه المدن بقوة جديدة من الرجال، سورّ عنق البرزخ بجدار دفاعي من البحر الى البحر وبذلك أوقف غارات التراقيين الذين كانوا يطوقون الخرسونيز، فقطع دابر حرب مستمرة طاحنة، كانت تهدد البلاد منذ عهد طويل، بموقعها المكشوف لغزوات وموجات جيرانها من البرابرة. وتئن وتتلوى من وطأه شرور عصابات قطاع الطرق الذين أستقروا على حدودها وفي داخلها.

ولم يكن الأعجاب والأشادة بعملية تطوافه حول الپيلوپونيسوس (٤٤) بأقل من تلك. فقد أنطلق من بيكيا Pegae أو النافورات، وهي ميناء [ميسغارا] بمائة من السفن ولم يكتف باجتياح سواحل البحر، كما فعل [تولميدي] من قبل، وإنما نزل البرّ بجنوده وتقدم مسافة كبيرة في داخلية البلاد، وجعل كثيرين يلوذون بحمي اسوارهم، بمجرد الرعب الذي أحدثه ظهوره، وفي نيميا Nemea هزم [الاسيكونيين Sicyonians] ونصب تذكاراً لفوزه. وكانوا قد صمدوا بوجهه أشتبكوا معه في قتال. ثم عقد بين الآثينيين وبلاد آخايا Achaia حلفاً وأخذ منهم جنوداً وخبأهم في سفنه وعبر بالاسطول الى القارة، وسار به على مصبّ نهر آخيلأوس Achelaus، واجتاح أكارانانيا وألجأ [الوينادي Oeniadae] الى الاحتماء بأسوار مدينتهم وخرّب بلادهم ونهبها ثم عاد الى الوطن ملقياً مرساه، بفائدتين: أنه أظهر لأعدائه بأسه. وظهر لبني قومه سالماً غانماً. إذ لم يعن في كل السفرة حادث سوء لأي واحد من مرؤوسيه ولو بمحض الصدفة.

ودخل أيضاً البحر الأسود Euxine (٤٥) بأسطول كبير حسن العدة وحصل للمدن الأغرقيية على كلّ التسهيلات الجديدة التي ارادها، ودخل في علاقات صداقة معهم وأظهر لشعوب البرابرة، عظمة الآثينيين وقوتهم ومقدرتهم التامة وثقتهم بإمكانهم الملاحة اينما شاؤوا، واثبت للملوك والأمراء المجاورين، أن بوسع الآثينيين السيطرة على البحر جميعه. وترك للسينوبيين [Sinopians] ثلاث عشرة بارجة حربية، مع جنودها بقيادة [لاماخوس Lamachus]

(٤٢) اجتاح الپيلوپونيسوس وأحرق سفن قرطاجة، وهزم السيكويين الخ... الخ على انه اندحر امام اللقيديمين في كورونيا ٤٤٧ ق.م.

(٤٣) العام ٤٤٧ ق.م.

(٤٤) العام ٤٥٣ ق.م.

(٤٥) ربما كان ذلك في حدود العام ٤٣٦ ق.م.

لمساعدتهم ضدّ [طيمسيليوس Timesileus] (٤٦) الطاغية وعندما قضى عليه وعلى شركائه واديلوا عن السرير، صدر مرسوم بإبحار ستمائة يوناني من الراغبين - الى [سينوب Si-nope] ليستقروا هناك ويعيشوا بين السينوبيين ويشاطروهم المنازل والأراضي التي كان الطاغية وحزبه قد ضبطوها.

إلا انه لم ينزل في الأمور الأخرى الى نوازع المواطنين الطائشة النشوانة. ولم يحد عن قراره في اتباع ما يحبون وتحقيقه لهم. فقد اسكرتهم وادارت رؤوسهم قوتهم وانتصاراتهم الرائعة، وأشدت رغبتهم في استعادة (مصر) (٤٧) وتدويح سواحل الفرس. والحق يقال كان هناك عدد كبير ممن تملكته حتى في ذلك الزمن - تلك الرغبة المشؤومة النحسة، بحيازة جزيرة صقلية (٤٨) الرغبة التي أشعلها خطباء حزب [الكيبادس Alcibiades] فيما بعد - ناراً ملتهبية لا تبقى ولا تذر. وكان هناك بعض من يحلم بتوسكانيا (٤٩) وقرطاجنة، ولم يكن ميلهم هذا خالياً من أسباب وجيهة في حالتهم هذه من الرخاء وكثرة أملاكهم ومستعمراتهم.

إلا أن بيركليس استأصل هذه الرغبة في الفتوح الخارجية من جذورها وبدد بلا رحمة أحلامهم واجتثها اجتثاثاً، وكانت متخففة ناشطة دوماً لما لا يحصى من المشاريع والمغامرات، ووجه طاقتهم لترصين ما حصلوا عليه وتثبيتته وأشغل بذلك معظم أوقاتهم. معتبراً فرض الكفاية منهم النجاح في كبح جماح اللقيديميين. فهؤلاء كان يراهم الخطر الحقيقي الداهم، ولم يكن يتردد في اظهار مشاعر كرهه لهم في كثير من المناسبات. ونخصّ منها بالذكر ما أقدم عليه أثناء الحرب المقدسة (٥٠). وحكاية ذلك أن اللقيديميين ساقوا جيشاً الى [دلفي] وأستعادوا معبد أبوللو للدلفيين، من يد الفوسيين الذين كانوا قد ظبطوه. فترى بيركليس، حتى رحلوا وبادر في الحال الى الدخول بجيش، وأعاد الفوسيين الى المعبد. وكان اللقيديميين قد نالوا من الدلفيين امتياز الأولوية باستخارة الآلهة، وسجلوا أمتيازهم هذا بعهدٍ نقشوه

(٤٦) لم يرد ذكر اسم هذا الطاغية في اي موضعٍ آخر. (سينوبه) هي من مدن [پافلاغونيا] استعمرها الميليسون. وتقع على ساحل البحر الأسود.

(٤٧) كان الآثينيون [توكيديس ١٠٩٠:٢] يسيطرون على مصر الآن [مياغيس] أحد قواد [ارتحششتا] تولى طردهم منها في السنة الأولى من الاولبياد الثمانين. ولم يتكلم عن نجاح حملة بيركليس على الپيلوپونيسس في السنة الرابعة من الاولبياد الحادي والثمانين. وليس من الغريب اذن ان يتحدث الآثينيون الآن وهم في أوج قوتهم - عن استعادة نفوذهم في بلاد كانوا قد فقدوها قبل فترة قصيرة.

(٤٨) خمسة عشرة عاماً أو ستة عشر بعد وفاة بيركليس.

(٤٩) بعد أن فكّر الآثينيون في ازدراء صقلية لابد ان يراودهم حلم التوسع في الأراضي الواقعة الى شمالها والى جنوبها.

(٥٠) في حدود العام ٤٤٨ ق.م سميت كذلك لعلاقتها بمعبد دلفي وهناك ما هو أكثر شهرة وبعين الاسم في عهد فيليب المقدوني.

على جبهة الذئب النحاسي القائم هناك^(٥١)، فبادر بيركليس الى كسب امتياز مماثل للآثينيين من الفوسيين، وأمر فنقش على الصفحة اليمنى من جسم الذئب النحاسي نفسه.

وتشهد الحوادث التي تعاقبت شهادة قوية على صواب عمله وحكمته في صد اندفاعات الآثينيين، وقصر مجهوداتهم على الدائرة الاغريقية. فبالدرجة الأولى ثار الاثيون^(*) عليه، فزحف بقواته عليهم واخذ ثورتهم، وتلا ذلك مباشرةً انباء اشارت انقلاب الميغارين عليهم وان جيشاً معادياً يتقدم على حدود [آتيكا] بقيادة [پليستراناكس Plistoanax] ملك اللقيديميين. فانسحب بيركليس من [يويبا] وعاد بأسرع ما يمكن ليجابه حرباً تهدد موطنه نفسه انه لم يغامر في الدخول بمعركة مع جيش عزيز الجانب تواق للقتال، بل ولادراكه ان [پليستواناكس] الشاب اليافع، كان يطبع في أكثر الأمور نصيحة [كلياندريدس Clean-srides] الذي بعثه [الايغور] مع الجيش ليكون بمثابة وصي ومساعد للملك الشاب، فقد قام سراً باختبار نزاهة هذا المستشار ونجح في افساد ذمته بمبلغ من المال، ودفعه الى الاشارة على الملك بالانسحاب وتم انسحاب الپيلوپونيسييين من آتيكا، وانحل الجيش وتفرق افراده عائداً كل الى موطنه. فاستشاط اللقيديميون غيظاً وعمدوا في سورة من غيظهم هذا الى فرض غرامة ثقيلة على ملكهم، فعجز عن تسديدها واضطر الى ترك [القيديون]^(٥٢). وهرب [كلياندريدس] وحكم عليه بالموت غياباً. وكلياندريدس هذا، هو والد [غيليبوس Glylipus] الذي استظهر على الآثينيين في صقلية. ويظهر ان الطمع كان مرضاً موروثاً في الأسرة، أنتقل من الأب الى الابن، اذ قبض عليه فيما بعد متلبساً بعمل جرمي مماثل وطرد بسببه من سبارطا. وقد اتينا الى المزيد من الشرح في هذا، عند كلامنا عن سيرة [ليساندر].

وذكر [بيركليس] في أثناء تلاوته تقريره عن هذه الحملة امام الجمعية العمومية، انه أنفق عشرة تالنتات، بمناسبة معينة في سبيل المصلحة العامة، فصادق الشعب على الصرف دون سؤال أو تحقيق في باب الصّرف. ويؤكد بعض المؤرخين ومنهم [ثيوفراستوس] الفيلسوف ان بيركليس اعتاد كل سنة أن يبعث سراً الى سبارطا بعشرة تالنتات رشوة لرجال الحكم فيها، لا ليشتري سلمهم، بل ليشتري الزمن، وليستعد على مهله ويكون الأقدر والأكثر استعداداً للحرب.

(٥١) قيل انه قبض على الذئب ووضع الى جانب الذبح الكبير لأن ذئباً قتل لاصاً كان قد سرق المعبد ويعاونه المتواصل دل أهل دلفي على الموضع الذي أخفى فيه المسروق [پاوسنياس ١٠-١٤].

(*) في ٤٤٦ ق.م.

(٥٢) يقول توكيديدس [٢١:٢] ان رعيته حكموا عليه بالنفي بعد ان شكوا في انه قبل الرشوة لينسحب من الحياة العامة.

بعد هذا وجه جيشه فوراً الى الثائرين، وهاجم جزيرة [يويبا] بخمسين بارجة وخمسة آلاف مقاتل وأستولى على مدنها وطرد المواطنين الخلقيديين Chalaidians الملقين [هيپوبوتي Hippobotae] أي «علاقي الخيل» ويعتبرون من أغنى السكان وبرزهم سمعةً. وأخرج كل [الهستيانيين Histiaeans] من البلاد، وأحل محلهم جالية آثينية، ضارباً بهؤلاء مثله الوحيد في الصرامة والشدة لأنهم كانوا قد أسروا سفينة آتيكية وقتلوا كل من فيها.

وعقد هدنة بين الآثينيين واللقيديميين، أمدها ثلاثون سنة. وأصدر مرسوماً جمهورياً بالحملة على جزيرة [ساموس]^(*)، ولرفضها طلبه بإيقاف حربها مع الميليسيين. ولما كان الرأي يميل الى أن هذا الإجراء ضد الساموسيين إنما أتخذ ارضاءً لسياسيا Spasia فمن المناسب ان نذكر هنا شيئاً عن هذه المرأة. أي جاذب فيها واي دهاء مكنها من ايقاع أعظم ساسة العصر في حبال حبها واستهوائه. ومن ثم اتاحة المجال لحديث الفلاسفة^(٥٣) عنها كثيراً، لا بما يشيتها أو يجرحها.

ومن الثابت انها [ميليسية] بالولادة^(٥٤). وانها ابنة [أكسيوخوس Axiochus] وقيل انها كانت تمكنت من امتلاك ناصية رجال من ذوى النفوذ والجاه الكبير بتقليدها، [تارجيليا Thargelia]^(٥٥) العاهرة التي عاشت في العهد الآيوني القديم، وقد عرفت بجمالٍ نادر، وشخصية ساحرة للغاية يزينهما ذكاء وحصافة مدهشين. وكان عشاقها بين الأغرقي كثيرين، وأستمالت كل من كان ذا علاقة بها لموالاة الفرس وخدمة مصالحهم بنفوذهم ومراكزهم العالية. وبذلك زرعت بذرة التحزب للميديين في مدن كثيرة. هذا عن [تارجيليا]، ويقول بعضهم أن [سپاسيا] أستأثرت بقلب بيركليس، واعزازه، لوقوفها الواسع على السياسة وحذقها أساليبها. وكان [سقراط] نفسه يختلف اليها أحياناً مع بعض معارفه، وأعتاد كثير من يختلفون اليها أن يصحبوا زوجاتهم للاستماع اليها. ولم تكن مهنتها تمت الى الشرف بصلة ما، ومنزلها في الواقع دار للعاهرات الشابات. ويخبرنا [ايسخينيس Aeschines]^(٥٦) أيضاً أن [ليسيكليس Lysicles] وهو تاجر أغنام ذو منبت وضيع، وخلق دنيء، أصبح فهو أول شخصية في اثينا بعد موت بيركليس، بسبب معاشرته [سپاسيا]^(٥٧). ونحن، وان كنا

(*) في ٤٤٠ ق.م.

(٥٣) سقراط وافلاطون.

(٥٤) [ميلتوس] من مدن [ايونيا] أشتهرت بكثرة مشاهير الرجال الذين ولدتهم حتى ضرب بها المثل.

(٥٥) نالت ملك تساليا بفضل جمالها. لكنها أعطبت وهي في ريعان الشباب اذ فكت بها واحد من عشاقها.

(٥٦) اسخينوس السقراطي. في محاوره عنوانها «أسيليا» لم تصلنا.

(٥٧) لايعلم المنصب الذي اشغله هذا الشخص والدرجة التي رفع اليها. فمن اثنين بهذا الاسم بلغا مرتبة =

لأننا أخذ مقدمة [مينيكزينوس Menexenus] لافلاطون، مأخذ الجدّ التام، فإن ما تضمنت عن أسبانيا فيه واقع تاريخي، جاء فيه أنها اشتهرت باختلاف كثير من الأثينيين الى مجلسها ليتعلموا فنّ الكلام منها^(٥٨). ويبدو أن تعلق بيركليس بها كان مبعثه العاطفة والحبّ على أية حال. كان متزوجاً بقرينة له، سبق أن تزوجت بهيپونيوكوس Hipponicus قبله وأنجبت له [كالياس Callias] الملقب بـ«الغني»، ثم أنجبت لپيركليس طوال عشرتها الزوجية له - ولدين وهما [كزانتىپوس Xonthippus وپارالوس Paralus] ثم انفصل عنها برضاها بعد أن ضاقا بالعيش معاً لعدم انسجامهما، فبنت برجل آخر، وتعلق هو بأسبانيا وأحبها حباً جارفاً، وكان يقرؤها التحية ويقبّلها يومياً كلما غادر البيت أو عاد اليه من ساحة السوق.

ولقبت بأسماء عديدة في التمثيليات. منها «أومغال الجديدة» و«دييانيرا Deianira» ولقبت أيضاً «بجونو» وأعطاه كراتينوس^(٥٩) صفتها الحقيقية «العاهرة».

«لقد حملت له يونيو هذه، بتلك العاهرة التي لاتعرف الحياء المسماة أسبانيا».

ويبدو أنها انجبت له إبنا. ففي تمثيلية [ديمي Demi] [ليوپوليس Eupolis] قدّم شخصية بيركليس وهو يسأل عن سلامة ابنه فيجيبه ميرونيدس Myronides و«إيني هل هو حيّ»

«أجل... انه أصبح رجلاً متزوجاً منذ زمن طويل لو لم يخش سوء السمعة لولادته من أم عاهرة.»

أشتهر أمر أسبانيا على ما يقال وذاع صيتها، حتى أن [كورش] الذي نازع [ارتحششتا] العرش الفارسي سمى أحب محظياته اليه باسم أسبانيا وكانت تدعى قبلاً [ميلتو Milto] وهي فوسية الأصل وابوها [هرموتيموس Hermotemus]. ولما سقط كورش في المعركة قتيلاً، حملت الى الملك^(٦٠)، فكان نفوذها في بلاده كبيراً... خطرت لي هذه الأشياء وأنا

= السلطة في أثينا، توفي أولهما بعد سنة واحدة من موت بيركليس، ولم يكن محتملاً ان انتفع الى هذا الحد بعلاقته مع أسبانيا خلال مثل هذا الموقف القصير. اما الثاني الذي كان اصل السبب في نكبة (خيرونيا) [ديودورس ١٦: ٨٨] فقد نفذ فيه حكم الموت جراء ذلك في تاريخ متأخر عن الأول بتسعين عاماً. وليس من المعقول ان تكون أسبانيا قد عاشت قرناً من الزمن وهو محتفظة بنفوذها.

(٥٨) يجب ألا نتصور ان أسبانيا انما برعت في مطارحات الهوى والحديث التافه الخفيف. في الواقع ان احاديثها كانت جدية عميقة حتى ظن معظم أهل المعرفة الأثينيين بأنها هي التي كتبت خطبة التائبين الشهيرة التي القاها بيركليس مخلصاً ذكرى أولئك الذين سقطوا في حرب ساموس. ولايستبعد ان قام بيركليس بشن هذه الحرب بناء على اقتراح منها، انتقاماً من منازعة الميليسيين وقيل انها رافقت في الحملة وانها شيدت معبداً تخليداً لنصره هذا [انظر ثوكيديدس ١: ١١٥].

(٥٩) في مسرحية الخيرونيون Cheirons.

(٦٠) أنظر كزنيون: اناباسيس ٢: ١٠.

أكتب القصة فلم أجد من المناسب اغفالها.

على أية حال، كان من أهم المآخذ على بيركليس اقتراحه في الجمعية العمومية إعلان الحرب على ساموس مناصرةً للميليسيين، واکراماً لخاطر أسبانيا، فالدولتان كانتا مشتبكتين في حرب على [پرين Priene]، وكانت كفة الساموسيين راجحةً فيها، ولذلك ابوا اللقاء سلاحهم والاستجابة الى فضّ النزاع بطريق التفاوض وان يكون الأثينيون المحكمين فيه. فجهز [پيركليس] أسطولاً وأتجه الى جزيرتهم حيث قضى على حكومة الأقلية فيها وأخذ خمسين رهينة من كبار رجالهم ومثله من أولادهم وبعث بهم الى جزيرة [منوس] وأبقاهم هناك. وذكر بعض المؤرخين أنه رفض عرضاً بافتدائهم بتالنت واحد لكل منهم، فضلاً عن هدايا كثيرة عرضها عليه أولئك الذين كانوا يكرهون جداً إقامة نظام ديمقراطي عندهم؛ زد على ذلك أن [پسوثنس Pisuthnes]^(٦١) الفارسي أحد ضباط الملك، الذي كان ذا نوايا طيبة للساموسيين، أرسل اليه عشرة آلاف قطعة ذهبية ليصفح عن المدينة، فردّها [پيركليس] ورفض كل العروض. ومضى قدماً في ما أختطه للساموسيين، وما وجده مناسباً وأقام النظام الديمقراطي عندهم^(٦٢) ثم ابحر عائداً الى أثينا.

إلا أنهم مالبنوا ان ثاروا، وأفلح [پسوثنس] في تهريب الرهائن اليهم وأمدّم بكلّ وسائل الحرب. ففكر بيركليس راجعاً اليهم باسطوله فلم يجدهم غافلين ولا متهيئين، بل تبين فيهم عزفاً راسخاً على نيل السيطرة البحرية؛ وكانت النتيجة أن بيركليس نال نصراً ساحقاً بمعركة بحرية ضارية قرب جزيرة تراجي^(٦٣)، فقد هزم باربع وأربعين بارجة، سبعين بارجة للعدو منها عشرون تحمل جنوداً.

وبنصره هذا وما تلاه من مطاردة للعدو، حقق سيطرته على الميناء والقى حصاراً عليهم وضيق الخناق، وكانوا رغم ذلك يحاولون أن يواصلوا كراتهم بشتى الأشكال، ويشتبكوا في القتال تحت أسوار المدينة، لكن بيركليس اتمّ تطويقهم من كل جهة وحصرهم في مساحة ضيقة جداً من الأرض، بعد أن وصله من أثينا أسطول كبير آخر^(٦٤). ويذكر معظم الكتاب أن بيركليس أخذ ستين بارجة وأنطلق بها الى عرض البحر عازماً على اعتراض سفن الفينيقيين التي خفّت لمعونة الساموسيين، وقتالهم في أبعد نقطة ممكنة عن الجزيرة. على أن

(٦١) هو ابن هشتاسب. كان حاكماً على (سارديس) وتبنى قضية الساموسيين طبعاً لأن كبار قومهم هم من الموالين للفرس.

(٦٢) كذلك وضع فيها حامية [ثوكيديدس ١: ١١٥].

(٦٣) تراجيناي هي جزيرة من مجموعة جزر سپورادس مقابل ساموس.

(٦٤) يتألف من أربعين سفينة أثينية و٢٥ سفينة أخائية ولسبوسية [ثوكيديدس ١: ١١٦].

الحصار آلات الثغر، فقد كان شديد الاهتمام بالمستنظبات العجيبة، تواقاً لاختبارها. وقد عاونه في ذلك [آرتيمون Artemon] المخترع الميكانيكي، وكان يرافقه في حملته، ولعرج فيه اعتاد أن يجلس في محفة لينقل الى مواقع العمل كلما استدعى الأمر وجوده، ولهذا السبب سُمي [بيريفوريتوس Periphoretus]. إلا أن [هيراقليدس پونتيكوس] يثبت عكس ما تقدم، مستنداً الى شعر [اناكريون]^(٦٨) الذي جاء فيه تنويه [بارتيمون پريفوريتوس] هذا قبل حرب ساموس والأحداث الأخرى المعاصرة لها باجيال عديدة. يقول انه كان حريصاً على راحتته، شديد الحذر من مدهامة الخطر على حين غرة. لهذا أعتاد قضاء جل أوقاته داخل البيوت، وأناط باثنين من خدامه أن يرفعا فوق رأسه ترساً نحاسياً لئلا يسقط عليه شيء من فوق. وان استدعت حاجة ملحةً خروجه، حمل في محفة متدلية من قضبان على مستوى واطيء من الأرض ولذلك سُمي [پريتوريتوس].

في الشهر التاسع استسلم الساموسيون، وسلموا مدينتهم. فهدم پيركليس أسوارها وصادر سفنها وفرض على الأهلين غرامة مالية ثقيلة، دفعوا جزءاً منها في الحال، واتفق على تسديد الباقي في أجلٍ مضروب. وسلموا رهائن ضماناً لحسن سلوكهم. وقد أُلّف [دوريس Duris] الساموسي مأساة درامية حول هذه الأحداث متهماً فيها الآثينيين وپيركليس بالفظائع والقسوة الشديدة - دون اعتبارٍ ما للحقيقة، بينما لآثرى ثوكيديدس او انيوروس او ارسطو يذكرون شيئاً من هذا. ذكر مثلاً أن پيركليس ساق ضباط السفن وجنودها الى ساحة السوق في [ميليتوس] وهناك شدّ وثاقهم على ألواح خشبية وأبقاهم هكذا عشرة ايام حتى اصبحوا بين أحياءٍ وأموات، ثم أصدر أمره بسحق رؤوسهم تحت ضربات الدبابيس وإلقاء جثثهم في الشوارع والساحات العامة دون دفن؛ كيف يمكن تصديق هذا؟

وعلى اية حال، كان من المحتمل جداً أن يببالغ (دوريس) في المصائب التي حلت بموطنه ليخلق شعوراً بالنفور العام من الآثينيين. فهو كثيراً ما يببالغ في سرده التاريخي حتى يتعدى بعضه حدود الحقيقة^(٦٩)، وإن لم يكن منساقاً وراء غرض أو عاطفة.

والحاصل، عاد پيركليس الى اثينا بعد اخضاعه الساموسيين، وأهتم بدفن أولئك الذين سقطوا في ساحة الحرب، دفنة مشرفة لائقة، وألقى بتلك المناسبة خطبة تأيين حسب العادة،

(٦٨) تجد هذه الابيات في الاثيناوس (٩:١٢). الحقيقة ان المرء لا يسعه الا الاستغراب من وجود شخصين يعين الاسم وعين الاخلاق والنقص العقلي. إلا ان المهندس الذي رافق پيركليس ربما لا يتفق في شيء مع الآخر ما عدا الاسم. وان پلوتارخ وقع هنا في وهم عندما عزا اليه كل هذه التفاصيل.
(٦٩) عاصر بطليموس فلاديلفوس. يقول عنه شيشرون ان دقيق وامين.

[ستسمبروتوس] يزعم انه ما خرج الا ليستولي على قبرص، وهو زعم لاينطوي على إصابة ومهما كانت نيته، فالظاهر انه أخطأ الحساب. لأن [ميليسوس Melissus] القائد الساموسى آنذاك وابن الفيلسوف [ايناجينس Ithagenes] أغرى أهل المدينة بمهاجمة القوات الآثينية الباقية أما مزدرباً العدد القليل من سفنهم، أو مستفيداً من قلة تجربة ضباطهم وكسب الساموسيون المعركة وأخذوا عدداً من الأسرى كما عطلوا عدداً من السفن وتمت لهم السيطرة على البحر، ونقلوا الى الميناء كل ما يحتاجونه للحرب، ولم تكن يتناول يدهم قبلاً. يقول [ارسطو] أن [موليسوس] كان قد استظهر على پيركليس مرة واحدة في معركة بحرية سابقة.

ووسم الساموسيون الآثينيين الأسرى وسماء على جباههم يُمثل صورة يوم غسلاً لإهانة سبق ان أصابهم بها خصومهم هؤلاء. فقد وسموا عدداً منهم بوسمٍ يمثل سامينة Samaena وهذا نوع من السفن واطيء مسطح من ناحية القيودوم ليبدو كالأنف الأشم، وهو من المؤخرة عريض واسع رحيب يتسع لحمولة كبيرة، ويسهل قياده، وسميت بهذا الاسم لأن أول من صنعها كان في [ساموس] بنيت بأمر من [پوليقريطس Polycrates] الطاغية وهذا الوسم الذي رسم على جباه الساموسيين نوهت به الفقرة التالية - من أرسطوفان^(٦٥):

«لأن الساموسيين - وا أسفي - قومٌ مُعلّمون بالحروف».

ما أن بلغت أنباء النكبة پيركليس، حتى خفّ مسرعاً لانقاذ قواته^(٦٦) وأوقع بميلسوس الهزيمة وراح يطارد جيشه حتى حصرهم وراح يبنى حولهم جداراً وغايته ايقاعهم جميعاً في قبضته والاستيلاء على المدينة. وان كان في هذا الاسلوب تضحية في بعض النفقات، والوقت فهو ينم عن حرصه على أرواح مواطنيه وعدم التفريط بخسارة فيهم. ولكن صعب عليه كبح الآثينيين الذين أغضبهم هذا التأخير وكانوا تواقين للقتال مصرين عليه. فقسم الجيش كله الى ثمانين وحدات. وسحب قرعة بينهما فكل وحدة يخرج لها حبة الفول البيضاء تسحب من خطّ القتال وتعطي أجازة فيها يروح الأفراد عن أنفسهم ويطربون ويلهون، بينما تستمر الوحدات السبع الأخرى في القتال. والى هذا يعزى تسمية الآثينيين ليوم طربهم ومرحهم باليوم الأبيض إشارة الى حبة الفول البيضاء^(٦٧).

ويخبرنا المؤرخ [إيفوروس Ephorus] زيادة على ما تقدم، أن پيركليس استخدم في ذلك

(٦٥) من مسرحية «الباليون» لم تصلنا.

(٦٦) يقول ثوكيديدس ان النجدة التي ادركتها كانت تتألف ثمانين سفينة.

(٦٧) تعتبر حبة الفول البيضاء اشارة على البراءة في القضايا الجنائية وقد جرت العادة بذلك منذ زمن أبعد مما ذكر.

اثناء مواراتهم التراب، أثار عظيم الإعجاب^(٧٠)، حتى أنه عندما هبط من المنبر، أقبلت عليه النسوة وأخذن يمدحنه وقُدن من يده وضفرن على رأسه أكاليل الغار والشرايط، كاحتفاهن بالرياضي الفائز في الالعاب. وهناك دنت [ألپينيكي] منه قائلة: «لقد اتيت يايريكليس بأعمال البطولة والبسالة وهو ما تستحقه اكاليل غارنا التي جعلتنا نفقد كثيراً من كرام مواطنينا لا في حروب مع الفينيقيين أو الماديين كحروب كيمون، بل لقهر وأخضاع دولة حليفة ارتبطت معنا برابطة الدم والصدقة» وقيل انه كان يبتسم ابتسامة رقيقة اثناء حديث الپينيكي، ولما أنتهت ردّ عليها بهذا البيت من الشعر:

«ينبغي للعجائز من النساء ألا ينشدن التعطر»^(٧١)

وقال عنه [أيون] أن العظمة ركبته بعد مآثرته هذه في انتصاره على الساموسيين، وبدأ ينظر الى نفسه نظرة التياء المدلّ فلقد أقتضى عشرة أعوام [الأغامنون Agamemnon] حتى يستولي على مدينة من مدن البرابرة. في حين لم يقتض بيركليس أكثر من تسعة أشهر للاستيلاء على أعظم مدن الآيونيين واقواها. ولهذا كان له ملء الحق في الفخر بهذا المجد الذي كسبه لنفسه. فقد كانت حرباً تنطوي على مخاطرة كبيرة، وكان هناك شك أكبر في نتيجتها. هذا اذا صدق ما قاله لنا [ثوكيديس] عن اقتراب ساموس على قيد خطوة في انتزاع السيادة البحرية من أيدي الآثيين.

بعد هذا^(٧٢)، بدأت حرب الپيلوپونيس تتخذ شكلاً خطيراً وتبلغ مرحلتها الحاسمة. ونصح بيركليس مواطنيه ان يرسلوا نجدة للكوكريين Cocyraeans الذين تعرضوا لهجوم الكورنثيين^(٧٣). وان يضعوا يدهم على جزيرة ذات موقع سوقي بحري هام جداً. مادام بادر

(٧٠) هذه المرثية التي أقيت في السنة الرابعة من الملباد الرابع والثمانين هي غير الخطبة الشهيرة التي القاها بمناسبة تأبين أولئك الذي سقطوا صرعى في بداية حروب الپيلوپونيسس. في السنة الثالثة من الاولبياد السابع والثمانين (توكيديس ٢: ٣٥-٤٦). ان الاريوباغوس هو الذي يختار الخطباء في هذه المناسبات. ولم يكن بالشرف القليل لپيركس ان يختار مرتين لتعزية بلاده بالفاجعة.

(٧١) معناه «لقد بلغت من الكبر حداً بحيث لايجمل بها التدخل في الشؤون».

(٧٢) اي بعد الاستيلاء على ساموس بخمس سنين. وبالضبط في السنة الثانية من الالبي السادس والثمانين [بدأت حروب الپيلوپونيسس في السنة الثانية من الالبياد السابع والثمانين].

(٧٣) هذه الحرب بدأت في ٤٣٣ ق.م بخصوص اراضي ابيدناموس المدينة الصغيرة في مقدونيا التي بناها الكوركيي. وكان لهؤلاء قوة بحرية عظيمة لا تعدها الا بحرية الآثيين. طلب هؤلاء الكورنثيون المعونة من الآثيين في أن واحد ومن قصائد الشعراء الهزليين وهم صدى صوت الجمهور الأمين - يمكن ان نعزو سبب الحرب الى الغضب الذي اجتاح اسياسيا لاهانة وجهها اليها بعض من شبان ميغارا. ويزعم آخرون ان پيركس انما شنّها لحماية نفسه والتخلص من تقديم حساب على فترة حكمه. إلا أن هذه الاسباب غير معقولة لأنها ليست جديرة بسياسي شهير مثله لا تستقيم مع خلقه ومنزلته. ويحضر =

كل [الپيلوپونيس] بالاعمال العدوانية ضدّهم. فوافق الجميع على اقتراحه بلا تردد، وصوتوا على ارسال معونة ونجدة عسكرية لهم. فبعث بيركليس اليهم بلقيديميونوس^(٧٤) ابن كيمون على رأس عمارة بحرية تتألف من عشر سفن لا غير. وكان يقصد بهذا الإجراء ان يجنبه الإهانة. فلما كان بين اسرة [كيمون] واللقيدميونيين عطف متبادل وصدقة فقد تعمد أن ينيط به هذا العدد الضئيل من السفن حتى اذا فشل في مهمته وأخفق في تحقيق مأثرة في الحملة فلن يعزى ذلك الى ممالأة للقيديميونيين أو على الأقل لكيلا يشك في مسلكه أو يتهم بالعدو؛ والواقع أن ارساله كان ضدّ رغبة بيركليس، لأنه ما فتىء يحتاط للحيلولة دون ارتقاء ابناء كيمون في مناصب الدولة، وحجته في ذلك أن أسماءهم وحدها تجعل الناس لا ينظرون اليهم نظرة المواطنة الآثينية، بل أن يعتبروهم أجنب وغرباء عنهم. فأحدهم يدعى [لقيدميونوس]، والآخر [تسالوس Thessalus] والثالث [ايلئوس Eleus]، والمظنون أن ثلاثتهم جاؤوا من أم اركادية. ومهما قيل عن نجدة السفن العشر والانتقاد الموجه اليها باعتبارها معونة تافهة جداً، لقوم كانوا يعانون ضيقاً شديداً كما أنها في الوقت نفسه وقعت بمبرر قوي لأولئك انتقدوا بيركليس لتدخله في الحرب. فان آثينا بعثت بعد ذلك بقوات أكبر، الى [كوركييرا Corcyra]^(٧٥) الا انها وصلت بعد انتهاء القتال. وأشدت سخط الكورنثيين وغضبهم على الآثيين واتهموهم علناً في لقيدميون، وساندتهم الميغارتيون في ذلك متظلمين من قيام الآثيين بابعادهم عن كل سوق وطردهم منها ومن جميع المواني الواقعة تحت سيطرتهم خلافاً للحقوق العامة المشتركة التي أقسم على احترامها كل دول الأغرقي في عهد السلام المتفق عليه. وأعلن الايجينيون أيضاً بأنهم عوملوا معاملة سيئة قاسية وطلبوا من اللقيديميونيين انصافهم ولم يجروا على تسمية الآثيين واتهامهم بالاعتداء جهراً. كما أعلنت مدينة [پوتيديا Poti- daea] الثورة على سادتها الآثيين في الوقت نفسه، وكانت قبلاً من مستعمرات الكورنثيين. فألقى عليها الجيش الآثيني الحصار وكانت سبباً آخر من أسباب الحرب.

ومع هذا فقد وفد الى آثينا سفراء للتوسط في السلام، وبذل [ارخيداموس] ملك اللقيديميونيين مجهودات صادقة للوصول بمعظم الشكاوي والخلافات التي هي مدار النزاع -

= ثوكيديس هذه المزايم وهو محايد غزير المعلومات. والتعليل المعقول الوحيد هو الحسد الذي ابتليت به آثينا بسبب ما بلغته من منعة وقوة ومهابة بعد انتصارها في الحرب الميدية. وسلوكها المشوب بالتعالي والعجرفة واستنكار سيطرة لروح التسلط فيها.

(٧٤) يقول [ثوكيديس] لم يكن قصد الآثيين مساعدة الكوركيي بصورة فعالة. وانما كان ارسالهم العمارة البحرية الصغيرة من أجل المراقبة ومتابعة تطورات القتال في حين يصاب الفريقان بالانهك هذا فضلاً عن انه لم يكن القائد الوحيد فقد زامله في القيادة كل من ديوتيس و«پرونياس» (٤٥:١).

(٧٥) إلا أن هذا الأسطول الذي تألف من عشرين سفينة حال دون اشتباك ثانٍ كانوا قد تهيأوا له [ثوكيديس ١: ٥٠].

الى حلول عادلة مرضية للأطراف المعنية، ولتهدئه عواطف الحلفاء المستوفزة وكان من المحتمل جداً أن لا تقع مغبة الحرب على الآثينيين لأي سبب من أسباب النزاع لو أنهم وافقوا على الغاء قرارهم ضد الميغاريين، وهو الذي عمل على اثاره عاطفة العداة للميغاريين في نفوس الآثينيين، فانه يعدّ مثير هذه الحرب الأوحده.

ويذكر المؤرخون في هذا العدد، أن السفراء الموفدين رحلوا من لقيديمون الى اثينا للبحث في هذه القضية، وقيل أن بيركليس تعلل بوجود قانون يحرم عليه انزال أو الغاء اي لوح كتب عليه قرار اتخذه الشعب. ومنها اللوح الذي كتب عليه القرار ضد الميغاريين، فعقب أحد السفراء المسمى [پوليالسيس Polyalscis] قائلاً: «لا بأس اذن، لاتنزلوه، بل أدبروه على وجهه الثاني اذ لا يوجد قانون يمنع ذلك^(٧٦). ومع أن قوله هذا كان تعريضاً جميلاً لبيركليس، فانه لم يزحج الرجل عن موقفه ولم يثنه عن عزمه؛ ويغلب الاحتمال أن يظن فيه نية خفية أو عداوة مستترة بينه وبين الميغاريين، ولكن تصرفه التالي ينفي هذا الظن، فعند طرح التهمة للعامه، وهي اغتصابهم جزءاً من الأراضي المقدسة على الحدود^(٧٧)، تقدم هو نفسه باقتراح يقضي بارسال مناد اليهم أولاً ثم الى اللقيديميين ثانياً يحمل صيغة الاتهام للميغاريين، وهذا عمل يبرهن بما لا يقبل الشك على نية طيبة تتحرى العدل. ثم ان المنادي الموفد [انثيموقريطس Anthemocritus] قضى نحبه. وظنّ أ للميغاريين ضلعاً في موته. فقام [خارينوس Charinus] يقترح اصدار بيان ضددهم بالصيغة الآتية: «سيكون من الان فصاعداً عداة مستحكم لا شافع فيه بين الجمهوريتين. وإن وُضِع ميغاري قدماً في آتيكا يقتل حالاً. وان يضاف الى أول اليمين المعتادة التي يحلفها القواد العسكريون، تعهدهم بالقيام بغارتين على بلاد الميغاريين سنوياً، وان يدفن [انثيموقريطس] بالقرب من الباب الثراسي، المسمى الآن دپيلون Dipylyon أو الباب المزدوج.»

وانكر الميغاريون انكاراً باتاً تهمة تدبير مقتل انثيموقريطس^(٧٨) وتصلّوا منها والقوا اللوم كله على أسپاسيا وبيركليس مستشهدين بالايبات الأخارنية Acharnian المشهورة التالية:

(٧٦) للمزيد من التفاصيل قارن ثوكيديدس [١:١٤٠] وغيره.

(٧٧) ان الارض التي تقع بين ميغارا وآتيكا، كرسّت للربّتين الالوسيين [كيريس] و[پروسپريني] كذلك اتهم بيركليس الميغاريين بانهم كانوا يؤمنون الحماية للعبيد الأبقين.

(٧٨) لم يورد [ثوكيديدس] اي ذكر لهذا المنادي، على ان الميغاريين كانوا يعتبرون مدبري هذا القتل حتى انهم عوقبوا عليه وإن بعد اجيال عديدة. ولهذا السبب حرمهم الامبراطور هادريان كثيراً من الامتيازات، والاطاف التي خصّ بها مدن الاغريق الأخرى ان ضريح انثيموقريطس كان على جانب الطريق المقدسة المؤدية الى ايلويس [پاوسنياس ١:٣٦].

خرج الى الميغاريين بعض رجالنا الأغرار الطائشين السكارى. واغتصبوا منهم عاهرتهم [سيميثا Simaetha] فلأجل أن يثار المغاريون لهذا العمل. إقتحموا منزل [اسپاسيا] وأختطفوا عاهرتين منها.

ليس من السهل معرفة السبب الحقيقي للحرب. إلا أن الجميع يلقون تبعته على بيركليس، لأنه حصّ على رفض الغاء البيان الصادر ضدّ الميغاريين. وزعم البعض أن رفضه الطلب بصورة باتة كان متمشياً مع مصالح البلاد التامة، نابعاً من معنوية عالية. فقد استخلص فكرة، ان الطلب الذي تقدمت به السفارة، كان يرمي الى اختبار اعصاب الآثينيين، وأن أي تنازل منهم سيؤخذ بمثابة اقرار بضعفهم، ويظهرهم بمظهر العاجز الذي لا مخرج له غير هذا الحل؛ وهناك من يقول أن الرفض كان مبعثه التحدي والرغبة في القتال، اظهاراً لقوته، وخلقة مناسبة لتحقير اللقيديميين.

وأشدّ الدوافع هي الحادثة التالية التي أكدّت علاقتها الوثقى بالحرب، معظم الشواهد والأدلة: كان فيدياس قد قام بعمل تمثال لمنيرفا على نحو ما بينا، وقد ابتلي بعداوة الكثيرين غيرة منهم وحسداً لأنه يتمتع بمكانة كبيرة وصدافة متينه عند بيركليس وهذا ما دفعهم الى تليفيق تهمة عليه ساقته للمحاكمة الشعبية، وغرضهم من هذا أن يختيروا اتجاه الشعب كقاضٍ اذا ما ستحت لهم فرصة تقديم بيركليس امامه بتهمة ما. وكان سبيلهم الى فيدياس وانهم اغروا عاملاً من عمّاله يدعى [مينون Menon] ودفعوا به الى ساحة السوق ويده عريضة يطلب فيها منحه الأمان الجمهوري عند ادعائه على فيدياس، فأجيب طلبه، وسُمح له بسرد شكواه. وفي المرافعة التي أقامها الادعاء العام ضده امام الجمعية العمومية لم يثبت عليه سرقة أو غش، لأن فيدياس الذي أخذ بنصيحة بيركليس من البداية وعمد الى الذهب المخصص للتمثال فكساه كالقميص به بصورة يمكن معها نزع ووزنه بصورة دقيقة، على أن صيت أعمال بيركليس العمرانية هي التي جرت المصائب على فيدياس، ولاسيما تصويره حرب الامازونات في سبيل ترس الآلهة. فقد رسم صورته، شيخاً أصلع الرأس رافعاً صخرة عظيمة بكلتا يديه. ورسم صورة أخرى تشبه بيركليس شهباً تاماً وهو يحارب الامازونات، وكان وضع اليد المسكمة بالرمح أمام الوجه محاولة بارعة من المثال لحجب الشبه الى درجة ما، إلا انه كان واضحاً وضوحاً كافياً من الجانبين.

وعلى هذا أودع [فيدياس السجن ومات فيه بمرض^(٧٩)، أو على ما قيل بسم دسه له أعداء

(٧٩) يزعم بعضهم انه نفي وانه صنع في فترة منفاه تمثاله الشهير «چوبتر في الاولب» الذي لم يبذه في الفن والدقة غير تمثال [منيرفا] الذي جاء ذكره في المتن.

بيركليس لإثارة فضيحة أو شكوك على الأقل حول بيركليس بوصفه قاتله. واقترح [غليكون Glycon] اعفاء [مينون] من الضرائب والمكوس وايعاء القادة بالمحافظة على سلامته فأجاب الشعب بالموافقة.

ثم تلا ذلك الاتهام اسباسيا بتعاطي البغاء، بشكوى قدمها [هرميبوس] الممثل الكوميدي، وزاد عليها تهمة أخرى، هي استقبالها في بيتها مواطنات من طبقة الأحرار، ليستمتع بيركليس بعشرتهم. كذلك تقدم [ديوبيبوس Diopithes] باقتراح سن قانون يقضي برفع الدعوى العامة على كل الأشخاص الذين يهملون شعائرهم الدينية أو يبشروا بالمباديء الجديدة عن الأمور العليا، موجهها الشك إلى بيركليس عن طريق [اناكساغوراس]، وكان قبول العامة بهذه الأمور وموافقتهم على التهم، يتمثل في اصدارهم بياناً (بناءً على اقتراح [دراكونيتدس Dracontides] يقضي بحاسبة بيركليس على الأموال التي انفقها أمام الپريتان^(٨٠)) وان القضاة يجب أن يجزوا المرافقة بالبطاقات التي توضع فوق هيكل الاكروبوليس، فذبح الرية في الاكروبولس^(٨١) داخل المدينة، لكن [هاغنون Hagnon] الغى الشرط الأخير من البيان، واقترح إجراء المحاكمة أمام ألف وخمسمائة مواطنٍ محلّفٍ سواء أشاء الادعاء اسناد تهمة السرقة أو الرشوة أو غيرها. وتشفع بيركليس باسباسيا ذارفاً دموعاً غزيرة وترجى المحلفين في أمرها شخصياً، على ما روى [ايسخينوس]، ولكنه عمد إلى أخراج اناكساغوراس من المدينة لخوفه عليه^(٨٢)، وتأمل فوجد انه لم يفلح مع الشعب في قضية فيدياس خوفاً من أن يتعدى الاتهام اليه. لذلك استعجل باشعال نار الحرب وكانت خامدة هامدة حتى الساعة أوقد لهيبها مؤملاً بهذه الخطة أن يضيع معالم التهم ويبعثر الجهود

(٨٠) هم كما ذكرنا في حاشية سابقة اعضاء مجلس الشيوخ الخمسمائة الذين اصبحوا السلطة العليا في ذلك الزمن.

(٨١) في بعض القضايا الخارقة للعادة، حيث يتطلب من القضاة التمسك بأدق موازين العدالة والشكليات، عليهم ان يتسلموا رعايعهم من فوق مذبح [نبتون] على حد قول هيرودوتس ١٢٨:٨، وعليها يدنون احكامهم أو أن يتناولوا حبات الفاصوليا البيضاء أو السوداء. وما يقصده پلوتارخ من قوله «... وان يجروا المرافعة داخل المدينة» يصعب اعطاء تفسير له إلا اذا كان المقصود به الجمعية العامة للشعب كله. أما الألف والخمسمائة التي جاءت بعد العبارة فربما كان يقصد بها محكمة هلياي، سميت بهذا لأن القضاة يجلسون في الهواء الطلق معرضين لاشعة الشمس. والمحكمة من هذا النوع تتشكل من هذا العدد في الحالات الخاصة.

(٨٢) كان اناكساغوراس يؤمن بالوحدة الالهية اي بوحداية الله الحكيم الخبير العليم خالق هذا الكون الجميل من عالم الفوضى. إن كان هذا دين المعلم فلاشك ان الناس سيتنتجون بان التلميذ [بيركليس] على دين المعلمه وانه يرفض فكرة تعدد الالهة السائدة في ذلك زمن. هذا الرفض ينطوى على أعظم الخطر. فقد تبين بعد فترة وجيزة اي في عهد سقراط بانها عقيدة مهلكة.

في ملاحظتها واسكات تحامل الأعداء والحساد. فالمدينة عادةً تلقى بحملها عليه في الملمات، والخطر ولا تثق بغير قيادته لقوة شكمية وحزمه.

تلك هي مجموعة الأسباب التي دفعت بيركليس، على الأ يرضى لأهل آثينا بالانصياع إلى مقترحات اللقيديميونيين. إلا أن وجه الحقيقة فيها غير واضح.

واللقيديميونيين من جهتهم، كانوا يدركون أن بإمكانهم حمل الآثينيين على قبول أية شروط شاؤوها لو نجحوا مرة واحدة في ازاحة بيركليس ولذلك أرسلوا يطلبون منهم طرد «الذنس» الكيلوني Cylon الذي علق ببيركليس من جهة أمه، كما ذكر لنا [ثوكيديدس]^(٨٣). فباؤا بعكس ما أملوا، وبدلاً من وصفهم شخصيته بأنها موضع شك ونفرة. رفعوا من قدره في نظر مواطنيه وزادوا الثقة فيه، بوصفه اكره الناس إلى أعدائهم وأخوف ما يخافون. وأستبق بيركليس غزوة [ارخيداموس] لآتيكا على رأس حلف الپيلوپونيسوس بابلاغه الآثينيين أن ارخيداموس في أثناء أجتياحه البلاد، سيستثنى متعمداً أراضييه من التخريب إما لحقوق صداقتهم والتكريم المتبادل بينهما. وأما لإعطاء أعداء بيركليس فرصة للنيل منه بالشبهات. لذلك فهو يهب للدولة كل اراضييه وما عليها من بناء، اللاتنفاع العام!

ومالبت اللقيديميونيين وحلفاؤهم أن هاجموا أراضي آتيكا بجيش جرار تحت قيادة [ارخيداموس]. وخربوا ودمروا حتى بلغوا [آخارني]^(٨٤) وهناك ضربوا خيامهم متوقعين ان الآثينيين لن يحتملوا وسيخرجون لقتالهم دفاعاً عن بلادهم واستنقاداً لشرفهم، لكن بيركليس ابي أن يتعرض لستين ألف مقاتل من الپلپونيين والبيوتيين - في معركة تنطوي على مخاطر كبيرة قد تؤدي إلى ضياع المدينة نفسها، وبذل جهوداً عظيمة في تهدئة المتشوقين إلى القتال المستائين المتألمين لما آلت إليه الأمور، ونصحهم بخير الكلام كقوله «الأشجار اذا قلمت أو قطعت لا تلبث أن تنمو ثانية. لكن خسارة الرجال لا تعوض بسهولة». ولم يدع العامة إلى الاجتماع، لئلا يرغموه على عمل معاكس لخبطه إلا أنه كان أشبه بقائد الدفة البارح أو ملاح السفينة عندما تثور العواصف الهوج وهو في عرض البحر، يتخذ كل التدابير ويحتاط ويتأكد بأن كل شيء هو في محله، ثم يتبع ما يمليه عليه علمه وبراعته، ويحصر كل مجالات تفكيره في شأن سفينته، غير ملقٍ بالأعلى على دموع الركاب المدرارة، ولا على ضراعة المصابين

(٨٣) يقصدون افراد الأسرة الألكيمونية التي كانت قد وصمت بوصمة عاد الدم عندما قتل الأرخون ميغاكليس في حدود العام ٦٣٦ ق.م اتباع (كيلون) كفرةً منه وتجديفاً. انظر سيرة صلون [ثوكيديدس ١:١٢٦ و١٢٧].

(٨٤) إقليم آخارني وهو أكبر الاقاليم المرتبطة بآثينا يستطيع أن يجند من مواطنيه ثلاثة آلاف مقاتل. وكان يبعد عن المدينة ألفاً وخمسمائة خطوة فحسب.

بالخوف ودوار البحر. فاحكم أغلاق مداخل المدينة، وثبت الحاميات العسكرية في كل المواقع السوقية، زيادة في الحذر، متبعاً وحي ضميره ورايه غير مكترث بمن ينتهرونه سخطاً عليه واستنكاراً لخططه. وكان كثير من أصدقائه يلحون بالرجاء وكثير من أعدائه يتهددونه بالويل، ويتهمونه بخطأ ما يفعل. وعمد عدد كبير الى نظم الأغاني وقصائد الهجاء فيه، وراح أهل المدينة يتغنون بها ويذيعونها زيادة في الفضيحة، وكلها تصبّ اللوم عليه لجنبه في تمشية شؤون القيادة، والتنازل الذليل للعدو عن كل شيء.

ومن هاجمه، [كليون Cleon] ^(٨٥). فقد أستفاد من شعور السخط المتنامي ضده، متخذاً من هجومه مراقبة للزعامة، كما بدا من (مخمس) هرميبرس والبيك مصرعين منه:

«أيا ملك المسوخ والهزل! أستبقى أبداً

تستخدم الكلام التافه بدل السيف؟

فيه وحده كنت تدير دفة الحرب

حتى الآن فتزعج آذاننا حتى لكان

تيلس Teles قد جاءت ثانية؟

لو أن أصغر مدية وضعت على المسنّ

ليكون حدّها ماضياً، فانك تصرّف

أسنانك فرقاً كأنك أصبت بضربة كليون النارية

على أن هذا لم يحدث أثراً ما في بيركليس. لم يعبأ قلامه ظفر بتلك التهجمات، بل احتملها بصبر، وسكت محتسباً عن الإهانات التي صبّوها عليه والتخرصات التي ارادوا بها تشويه سمعته. مضى في خطته قدماً، فبعث بأسطول مؤلف من مائة بارجة الى البيلوپونييسس وبقى هو في المدينة لتصرف الأمور برقبته المباشرة، الى أن رفع البيلوپونييسس مضاربتهم ورحلوا، على أنه أخذ بتوزيع الأموال العامة وأصدر قانوناً يقضي باعادة توزيع الأراضي الزراعية. وطرده كل أهالي [ايجينيا] ووزع اراضيها بالقرعة على الآثينيين، سعياً لإرضاء عامة الشعب المتألم الحانق من الأسلوب الذي اتبعه في الحرب وترفيهاً لهم وتخفيفاً عن شقائهم لما عانوه من الحرب، ورداً للكيل الذي كاله العدو لهم،

(٨٥) هو عين [كليون] الذي سخر منه (ارسطوفانس). تمكن من الفوز برتبة الجنرال، نتيجة خطبه وافانيه السياسية.

أجتاح الاسطول الذي أرسله الى البيلوپونييسس قسماً واسعاً من بلادهم وعات سلباً ونهباً في المدن والقرى، ثم ما عتم أن زحف هو برّاً على بلاد الميغارين ^(٨٦) بجيش وخرّب ودمر على هواه، ولو أن ما لقيه [البيلوپونيون] من الآثينيين في البحر، يقل عما لقيه الآثينيون في البرّ منهم، لما أطالوا أولئك من أمد الحرب. بل وسارعوا الى انهاءها ^(٨٧)، وهو عين ما تنبأ به بيركليس وتوقع حصوله لولا تدخل المشيئة الربانية التي تعمد أحياناً الى احباط مساعي البشر، والإخلال بخططهم.

فالبدرجة الأولى دهم المدينة المرض الوبائي أو الطاعون وراح يقضي على زهرة شبابها وأصلبهم عوداً، وأصاب بعدواه النفوس فضلاً عن الأبدان فعميت البصائر، وساءت الأمزجة، وهبّ الناس كالمجانين المسعورين يصرخون في وجه بيركليس، وراحو كالمصابين بنوبة هذيان يصبون جام غضبهم على طبيبهم المعالج، أو بالأحرى على ابيهم. إذ طفق اعداؤه يروجون بينهم أن سبب الطاعون انما هو ناشيء عن تقاطر أهل الريف الى المدينة وأكتظاظها بهم وأضطرارهم الى العيش مزدحمين في أماكن ضيقة ان استطاعوا الى ذلك سبيلاً، وأنحشروا معاً في منازل صغيرة وأكواخ فاسدة الهواء. في قبض الصيف، ويقوا يعيشون داخلها عيشة التعطل والخمول بعد أعتيادهم العيش في الهواء الطلق النقي، وكان الحديث العام: إن الحرب التي اثارها هو، كانت السبب والعلة في تكالب العدد الضخم من المتعطلين في عمل ما وابقائهم مكدرين تكديساً كالبهائم تفتك بهم العدوى دون أن يهيء لهم أسباباً للانتقال أو الوقاية.

اراد بيركليس أيجاد حلّ لهذه المآسي واصابة العدو بشيء من القلق، فأعد مائة وخمسين ^(٨٨) بارجة وأصعد اليها قوات كبيرة من المشاة والخيالة المجربين وتهيأ للأبحار، مُفسحاً للأمل سبيلاً الى نفوس مواطنيه، باعثاً الخوف والفراق في نفوس أعدائه بهذه القوة الضخمة. وبعد أن سد كل بارجة حاجتها من الرجال وصعد بيركليس سفينته، شاءت الصدفة أن يقع كسوف ^(٨٩) شمسي فاكفهر الجو وساد الظلام فجأة فتطير الجميع واعتبروه دليل نحس

(٨٦) جرد حملته في الخريف بعد انسحاب اللقيديمين [ثوكيديس ٢: ٣١٠].

(٨٧) في الواقع عدلوا عنها وعادوا الى سيارطة. إلا ان ارخيداموس عاد في السنة التالية وان لم يخلط بپلوتارخ ذلك. وفي اثناء هذه الهجمة الثانية انتشر الطاعون في العام ٤٣٠ ق.م [قارن توكيديس ٢: ٤٧-٥٤] الذي يصفه وصفاً دقيقاً ويقال انه جاء من بلاد الجيشة ونشر دمارةً تاماً وهو في طريقه.

(٨٨) كان قوام الحملة مائة سفينة آثينية استوعبت اربعة آلاف مقاتل. ولحق بها سفن نقل كانت تحمل الخيول. كما كان ثم خمسون سفينة أخرى من خيوس وليسبوس [ثوكيديس ٢: ٥٦].

(٨٩) هنا أيضاً يخلط بپلوتارخ بين حملتين والكسوف انما وقع في مبدء الحملة الأولى [ثوكيديس ٢: ٢٨].

عظيم. والتفت بيركليس فرأى قائد دفة سفينة يتملكه الرعب والحيرة لا يدري ما يفعل مما كان منه إلا أن رفع عباءته ونشرها وهي مفجوجة امام وجه الملاح فحجب نظره «أرى في هذا الستر بأساً أو أي إشارة الى ضرر محتمل؟» فأجاب الرجل بالنفي. فقال بيركليس «فكيف اذن وبأية صورة يختلف هذا الحجاب، عن احتجاب الشمس إلا بأن الذي سبب الظلام هناك أعظم من العباءة»، هذه حادثة كان الفلاسفة يروونها لتلاميذهم.

ومهما يكن لم يقم بيركليس على ما يبدو بمأثرة بحرية تستحق الذكر وتوازي استعداداته الكبيرة، عند الحلاقة ذلك الأسطول. ثم انه القى حصاراً على المدينة المقدسة [إبيداروس Epi-daurus] (٩٠٠) ولما ظهر ما يدل على قرب استسلامها له، تفشى المرضى بين جنوده فقضى على أمله، ولم يصب الداء الآثيين وحدهم بل سرت عدواه الى كل من كان على صلة بالجيش. أخيراً وجد أن صبر الآثيين قد نفذ، وروحهم بلغت التراقي. فبذل جهوداً جبارة في تهدئتهم وتقوية عزائمهم فكان كمن يضرب في حديد بارد (٩١١)، وعجز عن ازالة سخطهم أو أرضائهم ولم تنجح أي حيلة معهم. والقوا بأصواتهم جميعاً ضده، وأستعادوا سلطتهم منه ونحوه عن القيادة مع تغريمه مبلغاً من المال، أقل ما قدره المؤرخون بخمسة عشر تالنتاً، وأكثر ما ذكره خمسون، ويحدثنا [إيدومينيوس Jdomeneus] أن المدعي وصاحب الشكوى كان (كليون)، وإن [سمياس Simmios] يتأثر في ذلك خطى [يثوفراستوس]. اما هيراقليدس يونيتكوس فهو يتفق مع [لاكرايتيداس Lacratidas] في مقدار الغرامة.

بعد هذا اشغلت الاضطرابات العامة الناس عنه، أو بعبارة أخرى أفرغ الشعب سمّ حنقهم كله في الضربة التي وجهت له، وحلّف حتمته في مكان اللسعة، وتركوه لشأنه. إلا أن أحواله العائلية كانت أسوء ما يخطر بالبال. فكثير هم أصدقاؤه ومعارفه الذين قضوا بالوباء. أما أعضاء أسرته فكان التناوب والتباغض ينهش فيهم، ورفع جميعهم ما يشبه راية العصيان عليه؛ كان ابنه الشرعي البكر [كزانيثوس] متلاًفاً سفيهاً بطبعه؛ وزاد من سوء حاله زواجه بنت [تيساندر Tisander] ابن [إبيليكوس Epilycus] الغريرة المسرفة وكان يشكو مرّ الشكوى تقتير أبيه عليه ومنحه مرتباً تافهاً لا يدفعه له إلا باقساط زهيدة. وفي أوقات متباعدة. ويسبب ذلك بعث الى صديق يوماً يطلب اقراضه بعض المال باسم ابيه، زاعماً أنه

(٩٠) في آرگيا. كرسث ل(اسكولاييوس) ويصفها بپلوتارخ بالمقدسة ليفرقها عن بلدة أخرى في (لاقونيا) بالاسم عينه. لم يأت (ثوكيديدس) الى ذكر هذه الفاجعة، لكنه يقول ان بيركليس فشل في محاولاته تلك لا في [إبيداروس] وحدها بل (طروزين) و(ايرميوني) وغيرها ولم يستدل الا على (پروسيا) وهي بليدة بحرية في لاقونيا.

(٩١) حفظ لنا ثوكيديدس (٦٠١١-٦١) خطبته بهذه المناسبة.

فعل ذلك بأمرٍ منه. وأقبل الدائن على بيركليس يطالب بدينه، فامتنع هذا عن الدفع فاقام عليه الدعوى. ووقعت الإهانة على الابن وقعاً شديداً وتحلل من قيود البنوة وراح يندد بأبيه علناً وأخذ يتندر في مبدأ الأمر بقصص عن أحاديث ابيه في مجلسه ومناقشاته مع السوفسطانيين كذكره مثلاً: كيف أن واحداً ممن كان يجيد الألعاب الخمس المفضلة، قتل [إپيتيموس Epitimus] الفارسالي Pharsalion بطعنة رمح أو خطي من دون ان يدري ما فعل، وخلافاً لارادته وكيف قضى ابوه خمسة أيام في نقاش جدي مع [پروتاغوراس Prota-goras] (٩٢) في أيهم المسؤول عن القتل: الرمح؟ أم الرجل الذي قذفه أم اساتذة اللعبة المؤسسون لهذه الألعاب، وذلك بحسب أسلم المباديء العقلية وأقربها الى المنطق.

وكذلك يذكر لنا [ستسيمروتوس] أن [كرانتسيوس] هو الذي روج بين الناس تلك القصة الشنعاء عن علاقة زوجه بأبيه. وعلى العموم ظلت القطيعة بين الأب والابن ولم يرأب الصدع حتى موت الابن باول موجة وباء الطاعون. وفي غضونه أيضاً فقد بيركليس أخته ومعظم خلاته وأقربائه ومن أقرب الانتصار له في شؤون الحكم وأنفعهم. وعلى كل بقي عزمه لم يهن ازاء هذه الصدمات، ولم يبد ضعفاً أو يفضح مشاعره وظلت معنوياته عالية، وفكره ثاقباً ولم تنل منهما تلك النكبات. ولم يُر باكباً أو محزوناً، أو يحضر دفن أي من أصدقائه أو أقربائه، حتى ثكل ابنه الشرعي الثاني وهو الواحد الباقي. فخارت قواه لشدة الضربة، ومع ذلك حاول التصبر، والتجلد، الى أن حلّ يوم قيامه بشعائر التشييع، فتغلّبت عليه العاطفة أمام منظر فقيدته، عندما قام بضفر أكليل الزهر على الرأس، فصرخ صرخة أليمة. وتفجّر دمه الحبيس وسال حاراً على خديه. تلك هي المرة الوحيدة التي أبدى فيها مثل هذا الضعف سائر حياته.

بعد أن أخذت المدينة تختير القادة العسكريين الآخرين، لغرض مواصلة الحرب، وتعجم عود الخطباء لغرض اناطة شؤون الدولة بهم، وعندما تبين لها أن ليس فيهم من يضاهيه أو يعدله، ولا من يجاربه في الحزم والبراعة في الحكم بما يكفي لاثمانهم على واجب له مثل هذا الوزن من الخطورة؛ انتابها أسف شديد لخسارتهم الفادحة به، وعزمت عليه أن يعود مرة أخرى ناصحاً لها وخطيباً، وقائداً كما كان.

وكان اذ ذاك منزوياً في بيته حزينا كاسف البال. وأفلح [الكيبيا داس Alcibiades] وغيره من الأصدقاء باخراجه من عزلته، والظهور للشعب، فما كاد المواطنون يرونه حتى أظهروا

(٩٢) پروتاغوراس من ابيديرا تلميذ ديموقريطس. كان اذكي وابع سوفسطائي زمانه. الف خلال فترة نشاطه الذي دام اربعين عاماً. أكثر مما انتجه [فيدياس] المثال. وأثر عنه اللحاد لقوله «ليس ثم شيء مؤكد حول وجود الالهة أو طبيعتها».

عرفانهم بجميله وأعتذروا له عن معاملتهم الظاهرة له، فتسلم شؤون الدولة مجدداً. وعندما انتخب جنرالاً، كان أول عمل قام به الغاء القانون الخاص بالأطفال غير الشرعيين. وكان هو الذي تسبب في سنه، كي لا ينظفي اسم أسرته ونسبه بعد موت وارثه الشرعي الوحيد وحكاية سن هذا القانون تعود الى الزمن الذي بلغ فيه بيركليس أوج عزته وسلطانه غير محروم من الاولاد الشرعيين، فأقترح سن قانون لا يحمل صفة المواطنة بمقتضاه إلا من ولد من أبوين آثينيين^(٩٣). وعلى أثر ذلك أهدى ملك مصر اربعين ألف بوشل من القمح لتوزع على المواطنين الآثينيين. مما أدى الى اقامة دعاوى وقضايا اثبات نسب لا يمكن احصاؤها. وهي قضايا لم تكن معروفة حتى ذلك الحين، لعدم أهميتها. وعانى كثيرون الأمرين من التلفيق والتزوير، وناهز عدد المحكومين بذلك. الخمسة آلاف وبيعوا في سوق النخاسة عبيداً جرأ ذلك^(٩٤). أما عدد من اجتاز هذه المحنة وأثبتوا مواطنتهم الآثينية الحقّة فقد تبين عند الاقتراع أنه يبلغ اربعة عشر ألفاً واربعين مواطناً^(٩٥).

يبدو من الغريب أن يلغى مثل هذا القانون، بعد تطبيقه على هذا المدى الواسع، ومن الأغرب أن يلغى بمسعى من الرجل الذي الح في سنه. على ان المصيبة التي قصمت ظهر بيركليس والحزن الذي أبتلى به لفجيعة بأسرته كان لهما أثرهما اللبات في تحطم كل معارضة والشفاعة له عند الآثينيين. وأشفقوا عليه شفقة ذلك الرجل الذي عوقب على غطرسته وتعاليه عقاباً كافياً بشكله ومعاكسة الأقدار بالمصائب، ووجدوا أن آلامه تستحق رثاءهم، بل تستحق منهم الندم على ما أتوه بحقه، وبدأ رجاءه بالغاء القانون في نظرهم، مجرد طلب يعرضه رجل ويستجيبه رجال وسمحوا له بقاء ابنه في سجل الأخرية، وبمنحه اسم أسرة بيركليس. هذا الابن قتله الشعب الآثيني مع زملائه القواد^(٩٦)، بعد أن حقق انتصاره على [البيلوپونيين] في [أرغينوسيه Arginusea].

(٩٣) بحسب قول بلوتارخ في مفتتح سيرة تمستوكليس، ان هذا القانون سن قبل ان يتولى بيركليس الحكم ولعل هذا تشدد في تطبيقه بسبب روح العدا لليمون الذي كان من اولاد انصاف آثينيين.

(٩٤) ان عدم شرعية الاولاد لا تجعلهم في مرتبة الرقيق. وانما تدرجهم في عداد الغرباء.

(٩٥) عدد قليل جداً في الواقع. عندما كانت آثينا تفكر في بناء مستعمرات لها، واخضاع جيرانها. وقهر الشعوب الأخرى.

(٩٦) في السنة السادسة والعشرين للحرب كان الآثينيون قد عينوا عشرة قواد لادارة الحرب وبعد ان انتصروا حوكموا وحكم على ثمانية منهم بالموت نفذ بحق ستة منهم في الحال (منهم ابن بيركليس غير الشرعي) كانت الجريمة الوحيدة التي ادنوا بها هي انهم لم يقوموا بدفن قتلى المعارك. حصل هذا زمن أرخونية (كاللياس) في السنة الثالثة من الاولبياد الثالث والتسعين اي بعد ٢٤ سنة تقريباً من وفاة بيركليس ويعرض كزينفون في كتابه (الهلينيات Hellenies) وصفاً مفصلاً لما حصل. كان الفيلسوف سقراط في تلك الفترة، واحدة من قضاة (البريتان) لكنه رفض رفضاً باتاً ان يتولى مباشرة وظيفته.

في الزمان الذي جرى به تسجيل الأبن، أصيب بيركليس بالوباء على ما يبدو، ولم تكن اصابته صاعقة حادة كالآخرين، وإنما جاءته بصورة خفيفة هادئة وأخذت تستفحل شيئاً فشيئاً وكان يعتورها كثير من النكسات والتقلبات، وأخذ الداء يخرمه إختراماً ويذهب بقواه ويقضى على مداركه الروحية العقلية، ففي كتاب القوى الأدبية «Moralia» لثيوفراستوس. تجد فقرة عن حالة بيركليس المرضية عند بحث الكاتب عن مسألة تغيير مدارك الناس بتغيير ظروفهم، وعاداتهم الخلقية، وهل أن أمراض البدن يوقع فيها الخلل فيظهر على تصرفاتهم انحراف عن قواعد السلوك العامة. فقد دون ذلك الكاتب ان بيركليس كان يعرض على عانديه تعويذة أو «حجاباً» علقته نساء بيته في عنقه ليقيه سوء. كأنما اراد الكاتب القول ان بيركليس قد بلغ به المرض وضعاً خطيراً، بدليل إعتقاده بسحر هذه التعاويذ الحمقاء.

ولما حانت ميته، لازمه نخبة من أصدقائه المواطنين ممن بقوا على قيد الحياة، وراحوا يلهجون بعظمة مآثرة ويشنون على أعماله الشهيرة، معددين انتصاراته العسكرية. اذ أقام ما لا يقل عن تسعة أنصاب نصر، تشريفاً للمدينة التي تولى قيادتها وقهر أعداءها. واصلوا أحاديثهم فيما بينهم أعتقاداً منهم أنه لا يعي ما يذكرون ولا يفهمه لاشتداد وطأة العلة عليه. إلا أن سمعه كان يتابع ما يقال فقاطعهم هنا قائلاً: انه ليستغرب مديحهم، وتقليد الثناء لأمر كان للحظ دور رئيس في تحقيقها ولم يكن القائد الوحيد الذي أسعدته الصدفة بانجازها وان أمثاله لكثيرون. على أنهم نسوا أن ينوهوا بأعظم مآثرة وأعزها جانباً... «فبمجهوداتي لم يلبس الحداد آثيني واحد».

حقاً أن بيركليس شخصية تستأثر منا بأشدّ الإعجاب. لا لهدوء طباعه وعفتها، وهو الخلق الذي ظلّ يلازمه في معظم حياته، وفي مجابهة الخصومات العديدة الشديدة التي واجهته خلالها، بل للمعنوية العالية، والروح السامية التي جعلته قادراً وهو يزاول سلطاته الضخمة، على قمع كل عاطفة، انتقامية واشفاء غليله من أي خصم، وكبح نفسه عما تريد. ولم يعامل أي عدو معاملة من لا يمكن التفاهم أو المصالحة معه. ويظهر لي شخصياً، أن هذه السجينة وحدها، تفسر بسبب تلقيبه بالاولمبي، ذلك اللقب الصباني الفخم! فطبيعة بمثل هذه الرقة، وحياة خلت من هنوات العاطفة وهي في أوج سلطانها وارف منزلتها، لتستأهل لقب «الاولمبي»، هذا بحسب مفاهيمنا عن الكائنات الالهية التي نعزو اليها سياسة العالم وحكمه بوصفها الفاعلة لكل ما هو خير، وبعدها عن كل فعل شر. خلافاً لما يقول الشعراء، فهؤلاء يضللوننا بخيالهم الجاهل الأخرق الذي يفضحه شعرهم الكاذب، فيسمون دار الأرباب منزلاً هادئاً مطمئناً آمناً من أي خطر أو مفاجأة لاتزعجهم فيه الريح ولا الغيوم يشع منهم على حدّ

سواءً وبصورة دائمة نور نقي صاف رقيق. منازل أكثر ملائمة للطبيعة الخالدة المباركة، يقولون هذا في الوقت الذي يؤكدون أن الآلهة كثيرة المتاعب لا تخلص من العداوات والبغضاء وغير ذلك من العواطف التي لاتلائم أو تليق بأقل الناس عقلاً وادراكاً... لكن ربّما كان هذا الموضوع أليق للمعالجة والشرح في فرصة مناسبة أخرى.

إن السبيل الذي سلكته سياسة الدولة العامة بعد موت بيركليس سرعان ما كشفت عن مدى الخسارة به^(٩٧). فالحاقدون على ما ناله من سلطان في حياته، التي كسفت شمس حياتهم، راحوا بعد تركه المسرح السياسي يجربون الكثير من الخطباء والزعماء الشعبين، ليدركوا أنه كان المفرد العلم، وأنه لن يقوم مثل له بطبعه وسلوكه، ولن يجدوا شخصاً أكثر اعتدالاً منه، وأوسع إدراكاً وهو في أعلى درجة من سلطانه. ولا أكثر منه رزانه ومشاراً للأعجاب في رقتة وحنانه. وبدت لهم تلك السلطة الفردية التي أطلقوا عليها قبلاً «حكم الطغيان، والفردية المطلقة»، وكأنها القلعة الرئيسة لسلامة البلاد. ومهما بلغ عظم الفساد، وما نجم بعده من اضطراب وشور، فقد أفلح في ستره باضعافه وقمعته، وبذلك منعه من بلوغ مرتبة الداء العضال الذي لا يمكن البرء منه، وكان سبيله الى ذلك الغفران والصفح الرقيق.



وجها قطعة نقدية (٢٩٣ ق.م)

أهم الأحداث في زمنه (ق.م)

٤٤٠ أخضع ساموس التي تارت على الأثينيين.

٤٣٩ بدأت الحرب بين كورنث وكوركييرا.

٤٣١ يصير الحرب البيلبونييس التي دامت ٢٧ سنة — فترة من هؤل.

٤٢٩ يموت بعد حكم آثينا ربع قرن.

(٩٧) توفي في السنة الثالثة لبدء الحرب البيلونية في ٤٢٩ ق.م.

فابوس ماكسيموس

FABIUS (Maximus)

(Cunctator)

— 275 – 203

وتوضحوا قوة ذكاءٍ، وإرادة لها إقدام الأسد في ذلك. وما أن بلغ مرحلة العمل حتى برزت مواهبه وظهرت على حقيقتها، ووجدَ الناس عموماً أن ما عرف به من أفتقار إلى الحيوية إنما هو التحرر من العاطفة. وثقل لسانه وبطء حركته، نتيجة للحكمة الحقة. وأفتقاره إلى السرعة، وتناقله هما اية الاستمرارية والصرامة فيه.

ويعيشه في جمهورية عظيمة يحيط بها اعداء كثيرون، رأى من الحكمة أن يعوّد جسمه على التمارين العسكرية، ليستدّ عوده بسلاح الطبيعة الوحيد هذا. كما أخضع لسانه لنظام يتسق ويتسع لحياته وخلقه، مدرباً أياه على فن الخطابة الجماهيرية. ولم يكن في بلاغته الكثير من التنميق الشعبيّ المبتذل ولا تلك الصناعة الفارغة بل كان فيها قدر كبير من الحسّ والشعور. قوية عقلية شبيهة بأسلوب [توكديدس]. وما زال موجوداً إلى الآن خطاب تأبينه بمناسبة موت ابنه الذي قضى نحبه قنصلاً. وكان قد ألقاه أمام الجمهور.

تقلد منصب القنصلية خمس مرات^(٤). وكان له شرف الدخول في موكب الظفر اثناء فترة قنصليته الأولى للانتصار الذي اجرزه على [الليغوريين Ligurians]^(٥) في معركة فاصلة، ودفع بهم إلى مجاهل جبال الألب. ومنذ ذلك الحين لم يعودوا يغيرون، أو يغزون جيرانهم. وبعد هذا أغار [هنيبعل]^(٦) على إيطاليا وكان عند دخوله قد فاز بمعركة عظيمة بالقرب من نهر [تريبيا Trebia] وأحترق توسكانيا بعد ان دوّخها بجيشه الظافر مخرباً كل الميلاذ المجاورة، ومالئاً روما نفسها بالذهول والرعب. وزاد من قلق الأهالي وخوفهم بعض الظواهر الطبيعية من الرعود والبروق الفاتقة للعادة، وانباء عن حصول حوارق غريبة جداً وغير مسموع بمثلتها. فقد قيل أن بعض التروس عرقت دماً، وان عدداً من آذان أهالي [آنتيوم] امتلأت بالدماء اثناء قيامهم بحصاد القمح. وان السماء أمطرت حجارة محرمة من شدة الحرارة، وان الغاليين شاهدوا السماء وقد أنشقت وسقطت منها رقوق كُتب على أحدها بصورة واضحة «لقد رفع مارس سلاحه»^(*) إلا أن هذه الحوارق لم يكن لها تأثير على القنصل [فلامينوس]^(٧) المتهور الأهوج الطبع الذي ارتفعت درجة اندفاعه عالياً بانتصاره الأخير

(٤) اول قنصلية له كانت في ٢٢٢ ق.م أو في ٢٢٤ على قول ليفي [١٧:٢٢] والخامسة تولها في العام ٢٠٨ ق.م. وقد مضى على الحرب الفونية الثانية، عشر سنوات تقريباً. اما قنصلياته الثلاث الأخرى فكانت على التوالي في الأعوام ٢٢٧ و ٢٢٤ و ١٩٣ ق.م.

(٥) الليغوريون سكنوا الساحل الممتد من نهر جنوا حتى موناكو في فرنسا.

(٦) دخل هنيبعل إيطاليا في ٢٢٧ ق.م حسب زعم ليفي (٢٨:٢١) اثناء قنصلية كورنيلبيوس سكيبيو وسميرونيس لونگوس. ودر أولهما في معركة تيجينوس، قبل ان يهزم ثانيهما في معركة (تريبيا).

(*) Mauors telum Suum Concutit (ليفى ١:٢٢).

(٧) يصوره [بوليبوس ٣] رجلاً ذرب اللسان شديد الكبرياء لكنه فاشل كجنرال. فقد كان واثقاً من النصر =

بعد أن سردنا سيرة وأعمال بيركليس العظيمة، يتقدم تاريخنا بنا إلى سيرة [فابيوس] ووجه الأعلى ابن [الهرقل] وحرورية أو امرأة من نساء تلك البلاد ولدته على ضفاف النيبير، وكان أول فابيوس من تلك الأسرة الشهيرة الكبيرة العدد^(١) وعميدها. ويقول آخرون أن لقبها الأول كان [فودي Fodii] لأن أول أعضاء الأسرة كانوا مغرمين بحفر النقر لايقاع الوحوش وصيدها. وكلمة Fobese المرادفة لكلمة [حفر] ما زالت مستعملة في اللاتينية. وذلك Fos-sa أي خندق. ويتعاقب الزمن استبدال الحرفان فأنقلب الأسم إلى [فابي Fabii]^(٢). وسواء في ذلك أكان الأمر صدقاً أو كذباً، فالثابت أن هذه الأسرة انجبت عدداً كبيراً من أبرز الرجال. وفابيوسنا هنا، هو الجيل الرابع المنحدر من [فابيوس رولوس Rullus]^(٣) الذي كان أول من قلد الأسرة شرف اضافة لقب [ماكسيموس] إليها؛ ويلقب فابيوس كذلك بـ[فيروكوسوس Verrucosus] لشؤلولة في شفته العليا، ولقب أيضاً في حدائته [بأوفيكولا Ovicula] أو الحَمَل بسبب وداعته المتناهيّة. وكان ثقل لسانه وبطئه وتعسّره في التعلّم، وتردده في مشاركته الأولاد الآخرين العابهم، وخضوعه وسهولة انقياده لأيّ انسان كأنما لايملك ارادة خاصة جعلت أولئك الذين تغرّمهم المظاهر السطحيّة منه، وهم الأكثرية الغالبة، يحكمون عليه بالغباء والبلادة. في حين تبينت أقلية الناس أن تشاقله هذا نابع عن الرصانة والثبات،

(١) ليفي [١١:٥٠، ١٦، ٢١] هذه الأسرة اضطلعت كلها بالحرب ضدّ الفيديستين في العام ٤٧٧ ق.م. فقد بعثت بستة وثلاثمائة من المقاتلين كلهم يحمل اسم «فابي». وقد قتلوا جميعاً وتعود شهرة الأسرة إلى اعضاء فيها تقلدوا أعلى المناصب في الدولة، ومنهم اثنان تولى كل منهما منصب القنصل ست مرات.

(٢) بلييني [تاريخ الطبيعة ١٨:٢] يرد الاسم إلى صفة فيقول انهم كانوا بالاصل من ابرع زارعي الفاصوليا !Fabae

(٣) او روتليانوس [بلييني: المرجع السالف ٤:٨] تولى القنصلية خمس مرات وحقق انتصارات عديدة هامة على السامنيين والتوسكان وغيرهما من الشعوب. إلا ان لقب مكسيموس (العظيم) الذي لصق به لم يكن سببه ما ذكرنا. بل ناله ايام كان جنسوراً (محتسباً) اذ جمع كل قبائل روما باربع فقط. وكان سكان المدينة قبلها متفرقين بين القبائل بصورة عامة. وقد ضمن له هذا السلطة العليا في الجمعيات الشعبية [ليفى ٩:٤٦]. وقد سميت المجموعة بالقبائل الحضرية Tribus Urbana تقابلها القبائل الفضلى Tribus Rusti-cus وهي تعيش عادة في الريف.

غير المتوقع على الغالين، أذ حاربهم خلافاً لأوامر مجلس الشيوخ ونصح زميله. ولك يجد فاييوس الاشتباك مع العدو ينطوي على حكمة - من الجهة الأخرى، لا لأنه كان يعلق مزيداً من الاهتمام على الخوارق^(٨) التي كان يراها أشد غرابية من امكان فهمها بسهولة، بل لأنه كان يرى القرطاجيين قليلي العدو يفتقرون الى المال والتجهيزات، فوجد أن خير ما يعمل هو تحاشي الدخول في معركة ضد قائد عجم القتال عود جيشه، وبلته المعارك العديدة فلا غاية له الأ دخول المعركة، بل أن يرسل العون الى حلفائهم، والسيطرة على حركات مختلف المدن الحاضعة وترك قوة اندفاع هنيئيل تتضاءل وتضعف وتنظفء كالهلب بالافتقارها الى الوقود.

لم تغلح هذه الأسباب الوجيهة في [فلامينيوس] الذي احتج قائلاً انه لم يسمح بتقدم العدو الى المدينة، ولن يكون مضطراً بالأخير الى الدفاع عن روما من خلف أسوار روما، كما فعل [كاميلوس] في الماضي. وبناء على هذا أمر قادة الفرق بوضع الجيش على خط القتال. تأهباً للمعركة، وخرج هو يريد ركوب جواده، وما قفز على صهوته حتى أصيب الحيوان بنوبة هياج لا يعلم سببها ورمح براكبه فسقط فلامينيوس على الأرض، إلا أن هذه الإشارة لم تثنه عن عزمه وأستمر في تطبيق خطته وزحف عن هنيئيل الذي كان قد تمركز قرب بحيرة [ثراسيمينه Thrasymene] في توسكانيا وفي لحظة التقاء الجمعيين حدثت هزة أرضية دمرت عدة مدن وغيرت مجاري الأنهار وجرفت أطنافاً جبلية عالية ولفرط لهفة المتحاربين الى القتال لم يشعروا قط بشيء منها.

وسقط [فلامينيوس] في هذه المعركة صريعاً بعد أن قدم كثيراً من الدلائل على بسالته وأقدامه. وسقط حوله أشجع المحاربين في الجيش، وبلغ مجموع القتلى الكلي خمسة عشر ألفاً. وأسر مثل هذا العدد^(٩). ورغب [هنيئيل] في أن يضفي على جثمان [فلامينيوس]

= الى الحد الذي كان يوجد في جيشه من العبيد المعيدين بالسلاسل أكثر من الجنود. أحرز هذا النصر في ٢٢٤ ق.م في حين كان اندحاره المتوقع جداً متأتياً من أسباب ثلاثة: فأولاً كان جيشه أقل عدداً من جيش عدوه، وثانياً انه أمل عمل الاستخبارات ورفض قراءة الرسائل الواردة اليه من مجلس الشيوخ ولم يفضها إلا بعد ختام المعركة. وثالثاً وزع قواته للمعركة بصورة لا تتفق وأصول الفن الحربي. إلا أن براعة بعض ضباط ركنه صحح تلك الأخطاء [انظر پوليبوس: ٢، وليفي ٢٠: ٤٩].

(٨) لم يكن [فايوس] زميلاً ل[فلامينيوس] هنا وانما كان سرقليوس جمينوس.
(٩) مع أن هنيئيل نال نصراً ساحقاً إلا أنه ترك الفأ وخمسائه قتل بعضهم مات بعد المعركة متأثراً بجراحه [ليفي ٢٢: ٦]. لقد جر الرومان الى كمين نصبه لهم بين مرتفعات كوردتوما وبحير ثراسيمينه. ويتفق پلوتارخ مع ليقي حول عدد قتلى الرومان الا انه يجعل عدد الأسرى ستة آلاف. في حين يؤكد [پوليبوس] ان العدد أكثر من هذا بكثير. نجا من الرومان حوالي عشرة آلاف كان معظمهم منحنأ بالجراح واتجهوا صوب روما. إلا أن أغلبية الجرحى سقطوا موتى على قارعة الطريق. ولفظت والدتان انفاسهما لغلبة عاطفة الفرح عندما شاهدتا ولديهما يدخلان المدينة. =

مراسيم التشييع التكريمية، فقام ببحثٍ مضني عنه، ولم يجده بين القتلى ولم يعرف مصيره. في المعركة السابقة التي جرت قرب [سربيا] لم يستعمل القائد الذي كتب التقرير عنها، ولا المراسل الذي نقل نبأها، عبارات صريحة واضحة المفهوم^(١٠)، ولم توصف بأكثر من معركة غير فاصلة تساوت فيها خسائر الطرفين. ولكن الأمر كان مختلفاً في هذه المعركة اذ ما أن وصلت انبأها الى الپريتور [پومپونيوس Pomponius] حتى جمع الناس وقال لهم بصراحة دون أن يحاول التغطية والمواربة: «أيها الرومان! لقد غلبنا في معركة عظيمة^(١١)»، القنصل فلامينيوس قد قتل، وعليكم أن تفكروا فيما يجب عمله لسلامتكم».

فكان كمن فنع بأنبائه باباً لريح شديدة على البحر، فماجت المدينة وعمتها فوضى تامة. في هذا الموقف العصيب لم تجد أفكارهم شيئاً ثابتاً تستقر عليه. وابقظهم الخطر الدايم أخيراً، فهداهم تفكيرهم في اتخاذ قرار بتعيين [دكتاتور] قد يتمكن من تصريف الشؤون العامة بسلطة منصبه المطلقة، وبحكمته الخاصة وشجاعته، ووقع اختيارهم بالاجماع على [فايوس]^(١٢) الذي بدا خلقه جديراً برفعة المنصب، وعمره متقدم به الى الحد الذي يمنحه الخبرة المنشورة، دون ان يجرده من النشاط وقوة العمل، وجسمه قادر على تنفيذ ما تختاره نفسه، وطبعه هو مزيج منجانس من الثقة والحذر.

بعد أن نُبت فاييوس في منصب الدكتاتور، قام أولاً بتعيين [لوشوس مينوشوس Lucius Minucius] قائداً للخيالة، ثم طلب من مجلس الشيوخ الأذن لنفسه بأن يوجه القتال في الميدان وهو ممتط حصانه. وهو ما كان محظوراً على القواد العسكريين الرومان بمقتضى قانون قديم. إمّا لأنهم يضعون كل قوتهم في مشاتهم، فيبقون قوادهم العامين معهم. وإمّا ليذكر القواد دائماً أنه مهما بلغت سلطتهم من الرفعة. فالشعب ومجلس الشيوخ ما زالوا أسيادهم، ومنهم يتلقون الأوامر والأذن. وعلى أية حال ففايوس عمداً الى احاطة نفسه بفصل كامل من

= وسقط (فلامينيوس) صريعاً. جندله غالي يدعى [روكاروس] بعد ان فتك بضابط ركنه الذي حاول عبثاً أن أن يحمي قائده.

(١٠) كتب سمپروتيس الى مجلس الشيوخ معتذراً بسوء الطقس عن عجزه على تحقيق النصر (پوليبوس ٣).
(١١) ليقي: المرجع نفسه ٧. يقول أن الأمر اليومي الذي أصدره الجنرال لم يكن يزيد عن هذه العبارة «أيها الرومان، أننا خسرننا معركة عظيمة».

(١٢) لا يمكن لأحد ان يتولى سلطات الدكتاتور أو يمنح هذا اللقب غير القنصل. ولما كان القنصل الباقي (سرقليوس) على رأس جيشه فقد قام الرومان بتعيين [فايوس] نائباً للدكتاتور [Prodictator] بمبادرة خاصة وسلطان وتجلي عرفان روما للجميل انهم سمحوا لذريته من بعده بوضع لقب دكتاتور بدلاً من برودكتاتور ضمن قائمة القابه (ليفي ٢٢: ٨ و ٣١).

(١٣) پوليبوس وليفي [المرجعان السالفان] يثبتان اسمه [ماركوس مينوشوس روفوس Marcus Minucius Rufus]. ولم يعينه (فايوس) بل اختاره العموم.

الكتور قوامه اربعة وعشرون يلازمونه بمثابة حرس شخصي ليجعل سلطة واجبه أكثر ظهوراً وبروزاً، والشعب أكثر خضوعاً وطاعة. وعندما يأتي القنصل الباقي لزيارته يبعث يطلب منه صرف حرسه، مع [فاجيانهم] اي سلاحهم أي أن يتجرد من مظهر السلطة ليظهر أمامه شخصاً عادياً.

وأول عمل هام قام به بعد توليه منصب الدكتاتور، كان عملاً دينياً منسجماً تماماً مع الوضع: فقد أصدر بياناً تأنيبياً للشعب ذكر فيه أن هزيمتهم الأخيرة لم يكن سببها افتقار جنودهم الى الشجاعة بل الى إهمالهم شعائرهم الدينية عموماً. وحثهم على أن يطرحوا كل خوف من العدو ولم يفعل ذلك بقصد اشغال عقولهم بالاهام بل لرفع معنوياتهم واستخدام الشعور الديني لبث الشجاعة في نفوسهم وتقليل خوفهم من العدو، والايحاء اليهم بأن السماء تقف في صفهم وعلى هذا الأساس قرر استخارة النبوءات السريّة المعروفة « يكتب كيبيل»، فوجد فيها على ما قيل مختلف النبوءات التي تشير الى أحداث الزمن وتقلبات حظوظه، المقبلة ولكن يحرم عليه أن يكشفها للناس.

ومن ثم خرج الدكتاتور الى الشعب ونذر أمامهم قرباناً، يقدم فيه كل نتاج الموسم القادم في ايطاليا كلها، من بقرٍ وماعزٍ وغنمٍ وخنازير في الجبال والسهول وتعهده باقامة الاحتفالات والمهرجانات الموسيقية على أن ينفق عليها مبلغ حدّد بـ ٣٣٣ سسترتيا Sestertia و ٣٣٣ ديناريوس وثلاث ديناريوس^(١٤) لا غير، وهو يعادل بعملمتنا ٨٣٥٨٣ دراخماً وأبولين. ويصعب علينا معرفة السرّ في تحديد المبلغ بهذا الرقم، إلا اذا كان إكراماً للعدد «٣» لأنه أول الأعداد الوترية، وأول رقم يحوي بذات نفسه مصدراً للأعداد، وبكل الصفات التي تعود للأعداد عموماً.

وبهذه الوسيلة نفخ فاييوس في قلوب الشعب آمالاً جديدة في المستقبل أذ جعلهم يوقنون ان الارباب تقف الى صفهم. أما هو فقد وضع ثقته في نفسه فحسب، مؤمناً بأن الآلهة لن تمنح النصر، وتنعم بالسعد إلا لمن يتحلّى بالبسالة وبعد النظر. وعلى هذا الأساس أنطلق فاييوس لمناجزة [هنيبعل] لا بنية التحرش به وجره الى معركة، بل بقصد اضعافه واتعابه بمرور الزمن. وكسب عنصر التفوق العددي والمادّي ومقابلته القلة بالكثرة، فكان يعسكر دائماً في الأراضي المرتفعة لئلا تطاله خيالة العدو ويلاحقه بدون هودة ولا يدعه يغيب عن نظره، فإن سار لحق به وإن عسكر فعل مثله مع محافظته على مسافة كافية بينهما حتى لا يضطره خصمه الى

خوض معركة. متخيراً دائماً والمرتفعات ليأمن صولة الفرسان. وهكذا لم يدع للعدو لحظة واحدة من الراحة وابقاه دوماً في حالة انذار.

وأثارت خطة التأخير هذه في معسكر فاييوس شكاً في إقدامه. وكان هذا الشك في معسكر هنيبعل أكثر منه عند الرومان إلا أن [هنيبعل] كان الرجل الوحيد الذي لم تنطل عليه الحيلة ولم تفته براعة الخصم وخطته السوقية ولقد أدرك أن القرطاجينيين لن يتمكنوا من استخدام سلاحهم المتفوق إلا اذا أفلح في استدراج الجيش الروماني أو اضطره الى خوض معركة وان قواهم ستتناقص باطراد وستشع ارزاقهم بالتدريج ولن ينالوا من عدوهم فتبلاً. فعزم على أن يحبط تدبيره هذه بكل ما أوتي من حيل ومراوغة حربية. وان يستدرجه الى اشتباك، مثل مصارع عظيم الدهاء، يرصد كل فرصة لبنال مسكة جيدة والتحاماً وثيقاً من خصمه. فمرة كان يهاجم، ومرة كان يحاول صرف انتباهه، وابعاده الى مختلف الجهات، مجاهداً بكل وسيلة لاغرائه بالتخلي عن خطته المأمونة. ولم يكن لكل هذه الحيل اي تأثير على تصميم الدكتاتور، واصراره. إلا ان الجندي البسيط لم يكن يرى في خطة فاييوس طعماً أو جدوى. بل تعدى هذا الاستحفاف الى أمر الخيالة نفسه، فميشوشيوست التواق الى قتال مبّتسر، الجريء الواثق من نفسه كان قبيلة انظار الجنود، وقد عمل هو نفسه الى بث الحماسة الهوجاء في نفوسهم وملئها بالآمال الجوفاء التي كانوا ينفسون عنها بتوجيه قارص اللوم الى فاييوس. وأطلقوا عليه لقب «مرافق هنيبعل»^(١٥) لأنه لم يكن يفعل شيئاً خلا متابعتة غدوةً ورواحاً والقيام بانتظاره، ثم راحوا يعلنون قائلين ان [مينوشيوست] هو القائد الوحيد الذي يليق بقيادة الرومان، وهذا ما ملأه فخراً، وإعجاباً بنفسه حتى أخذ يتناول ساخراً من اختيار فاييوس معسكرات جيشه في شعاب الجبال، قائلاً أنه ليُجلسهم فيها كأنما هم في ملعب مدرج، ليشهدوا منها النيران تأتي على بلادهم والدّمار يعمها. وفي بعض الأحيان كان يسأل أصدقاء فاييوس: هل يقصد صاحبهم بنقلهم من جبل الى آخر، أن يرتفع بهم الى السماء بالاخير لعدم وجود أمل لهم في الأرض؟ أم يقصد أخفاءهم في طيات السحب عن جيش هنيبعل؟ فينقل أصحابه الحديث الى الدكتاتور ويحاولون إقناعه بضرورة الاشتباك وبالعدو إجتنباً للاستنكار العام. فيجيبهم بقوله: «لأكونن أجن مما يصورونني لو أنني تخلت عن فكرتي الخاصّة خوفاً من ملامتهم التافهة. ولست أجد عيباً في أن يتملك المرء خوف على سلامة بلاده؛ لكن من يحميد عن السبيل الذي أعتمزمه نزولاً عند رأي آخر، أو خشية توجيه

(١٥) ذلك لأن وظيفة الپيداكوكي منذ القديم وكما يدل عليه الاسم هو رعاية الاطفال في نزواتهم القصيرة والعودة بهم الى البيت.

(١٤) الديناريوس عملة تساوي الدراخما ويعادل اربعة سيستيرتي Sestertii وبذلك يكون مجموع السيستيرتي ١/٣، ٣٣٣، ٣٣٤، ويتحويلة الى دراخما يصبح ١/٣ ٨٣٥٨٣ وهو ما يتفق مع النص.

اللوم اليه، أو خوف اساءة فهم مقاصده، فهذا غير جدير بمنصب كمنصبي. وسلوكه هذا يجعل من نفسه عبداً رقيقاً لأولئك الذي كان واجبه تصحيح اخطاءهم وتقويم اعوجاجهم».

ثم سرعان ما ارتكب هنيبعل خطأ كبيراً. أراد ان تستجّم خيول جيشه في اراضٍ جيدة المرعى، والابتعاد بجيشه الى مسافة تخرجه عن رقابة خصمه فأمر ادلاءه بأخذه الى اقليم [كاسينوم Casinum] (١٦) وأوهمهم سوء نطقه بالأسم أنه يريد [كاسيلينوم Casilinum] التي يمر من وسطها نهر [لوثرانوس Lothronus] (يطلق عليه الرومان اسم قُلْتورنوس Volturnus) وكانت أراضيها تكتنفها الجبال وليس من منفذ فيها غير الوادي الذي يجري فيه هذا النهر الى البحر فيصب في ساحلٍ وعري جداً غير مأمّن - مخلفاً وراءه أراضي سبخة كثيرة المستنقعات وضفافاً رملية عميقة الغور. وتمكن فاييوس لمعرفة المسالك والطرق - من الاستدارة بجيشه والوصول الى المنطقة قبل هنيبعل، ووضع نخبة من فرقة قوامها أربعة آلاف مقاتل في مدخل الوادي واقفله. ثم تمركزت بقية الجيش في التلال المجاورة، وأتخذت مواقع مستحكمة، وانتقى وحدة تحمل أخف الأسلحة وأرسلها لمهاجمة مؤخرة [هنيبعل]، وكان نجاحها كبيراً فقد عزلت ثمانمائة من رجاله وأوقعت الفوضى في كل جيشه. ولما أدرك هنيبعل غلطته، وتبين الخطر الذي أحرق به أمر بالادلاء فصلبوا حالاً، ونظر فرأى العدو يحتل أفضل المواقع وامنعها وان الأمل باختراق جبهته معدوم، في حين أخذ الرعب واليأس يتسريان الى نفوس جنوده وسرى الاعتقاد فيهم بأنهم محاطون بطوق محكم يصعب جداً الخلاص منه.

إلا أن هنيبعل لم يقنط في حالته هذه، ولجأ الى حيلة بارعة. أمر بشدّ مشاعل، في قرون ألفين من ثيران معسكره شداً محكماً ثم أشعلها عند حلول الليل وأمر ان تساق الحيوانات نحو المرتفعات المشرفة على الممر في بطن الوادي، ونحو مواقع العدو. وجعل جيشه يسير الهوينا في الظلام خلف قطعان الثيران. وكانت الماشية في مبدأ الأمر تسير بخطى منتظمة بطيئة وتبدو والمشاعل في رؤوسها اشبه بجيش يزحف في الليل، وتشير الدهشة والعجب في نفوس الرعاة وأصحاب المواشي في التلول المجاورة. وعندما بلغت النار جذور قرونها جن

(١٦) إجتاح هنيبعل سافينوم وأكتسح إقليم بينيفنتم وهو مستوطنة رومانية والقي الحصار على تيليسيا وهي مدينة تقع على سفح جبال الإبين. لكنه وجد ان عملياته هذه لم تغد في حمل (فابيوس) على تغيير خطته. فقرر استخدام طعم أكثر اغراء وهو دخول كامبانيا أخصب سهول ايطاليا واجتياحه امام سمعه وبصره لعل ذلك يدفعه الى الاشتباك في معركة. كما أن احتلال كاسينم سيحول دون ارسال فاييوس نجدات لحلفائه. إلا ان الخطأ الذي نوه به بليوتارخ في النص. جعل ادلاءه يأخذونه لا الى سهول (كاسينم) بل الى خانق كاسيلينوم Casilinum الضيق الذي يفصل سافينوم عن كامبانيا. ويخبرنا ليقي (١٣:٢٢) ان رئيس الادلاء جلد وصلب فحسب وهو أكثر احتمالاً لأن هنيبعل لم يؤثر عنه التسرع والاسترسال في الحنق الى حدّ السخف وجرمان نفسه من خدمات الادلاء الآخرين.

جنونها وراحت تعدو هائجة وقد أعماها الالم وتفرقت شذر مذر تهز رؤوسها هزاً عنيفاً فتنتشر النار حوايلها وتشعل اللهب في الأشجار التي ترقق من بينها. وكان منظراً مفاجئاً لفصائل الحراسة الرومانية على المرتفعات. عندما راؤوا اللهب الذي راؤه كأن مصدره رجال يزحفون بالمشاعل شاع القلق فيهم معتقدين بأن العدو يتقدم نحوهم من عدة جهات وانهم مطوقون. فتركوا مواقعهم وخلفوا الممر وأسرعوا يلوذون بمعسكرهم على التلال. وما أن تم انسحابهم حتى قامت وحدات مشاة هنيبعل الخفيفة حسب أوامره باحتلال المرتفعات، وبعد زمن وجيز وصل الجيش كله باثقاله وسار مجتازاً الممر آمناً.

قبل يمضي الليل كله أكتشفت فاييوس الخدعة اذ وقع بيده واحد من تلك الثيران، وأبقى جنوده طوال الليل مستعدين بسلاحهم خشية من كمين في الظلام. وما أن انبلج الصبح حتى شرع في مهاجمة مؤخرة العدو وكادت الاشتباكات التي حصلت جراء ذلك في الأراضي الوعرة توقع الخلل والفوضى العامة في جيش هنيبعل لو لم يفصل من مقدمة جيشه وحدة اسبانية، أشهر رجالها بمهارتهم في تسلق الجبال فضلاً عن خفتهم وسرعة حركتهم. فأندفعوا نحو الجنود الرومانيين ذوي السلاح الثقيل وقتلوا منهم عدداً كبيراً وبذلك أعجزوا [فابيوس] عن استمراره في مطاردتهم وأجبروه على التوقف. وهذا ما أرى الى السخط الشديد على الدكتاتور وازدياد السخرية به وقالوا: لقد غدا الآن جلياً أن نقصه عن خصمه لا يقتصر على الشجاعة والأقدام فحسب، بل على بعد النظر واصالة الرأي وحسن القيادة وهي المزايا التي وعد أن ينهي بها الحرب.

وعمد هنيبعل الى رفع سخطهم عليه، بزحفه الى المناطق القريبة من ممتلكات فاييوس الخاصة وأراضيه وأمر فعات جيشه حرقاً وتدميراً بكل ما يحيط بها، محظراً أيهم أن يمسوا أملاك خصمه بأدنى ضرر، بل ووضع حرساً عليها، فكان تأثير عمله على الجمهوري الروماني كما توقع ونقلت انبأؤه الى روما. فاشاع التريبونات عليه آلاف الحكايات المخزية، بتحريك وتحريض من [ميتيليوس Metilius] خاصة، ولم يبق بهذا مدفوعاً بحقده على فاييوس، قدر ما كان بدافع صداقته لقرينه [مينوشوس]. اذ كان يعتقد أن الخط من سمعة فاييوس سيرفع من شأن صديقه. وكان مجلس الشيوخ مستاءً من فاييوس أيضاً، الأتفاق الذي عقده مع هنيبعل على تبادل الأسرى، وكانت الشروط تنص على أن الفريق الذي يبقى له عدد من الأسرى بعد عملية تبادل رجل برجل، فانه يفقد مائتين وخمسين (١٧) دراخماً للرأس

(١٧) ليقي (٢٢:٢٢) يصف هذه العملية بـ Ardenti Pondo bina et Selibras in militem ومن هذا صرنا نعلم ان الپوندو Pound الروماني يعادل وزناً مائة دراخما يونانية أو (مينا) واحدة. إن عدد فضاله =

الواحد. وعلى هذا بقي مائتان وأربعون رومانياً بعد التصفية ولم يكتف مجلس الشيوخ برفضه المصادقة على مبلغ الفدية، بل وجه اللوم لفابيوس على الاتفاق باعتباره غير لائق بشرف الجمهورية ولا متفقاً مع مصلحتها. لأن هذا من شأنه أفتداء رجال أوقعه جنهم في قبضة العدو. وسمع فابيوس كل هذا وأحتمله بصبر لا ينفد ولم يكن في حوزته مال، كما أنه كان مصراً على الايفاء بعهدته لهنيبيل وأستخلاص الأسرى، فبعث بأبنه الى روما ليبيع ارضاً له ويأتيه بثمنها الكافي للفدية. ففعل ابنه ما أمر به ودفعت الفدية وسُلم الأسرى الذين أبدى معظمهم استعدادهم لدفع نصيبه من الفدية الى فابيوس فرفض العروض رفضاً باتاً.

وفي حدود ذلك الزمن استدعاه الكهنة الى روما للمشاركة في قربان معين، بمقتضى واجبات وظيفته، فأضطر الى ايداع قيادة الجيش الى [مينوشوس] وقبل أن يرحل لم يكتف بمعاملته معاملة القائد العام بل أخذ يرجوه متوسلاً بالألا يشتبك في معركة مع هنيبيل اثناء غيابه. لكن أوامره ورجاءه ونصحه ضاعت كلها في [مينوشوس] إذ ما أن ولأه ظهره حتى بدأ يبحث عن فرص لمهاجمة هنيبيل، ووردت اليه ابنا عن إرسال العدو جماعات كبيرة للذهب والسب فلاحق فصيلة منها وأوقع بها مقتلة عظيمة وطرد البقية الى معسكرتها مشيعاً الرعب في الآخرين الذين أحسوا بوطأة العدو حين أخترق صفوفهم. إلا أن هنيبيل عندما سحب كل قواته المتفرقة الى داخل المعسكر قام مينوشوس بتقهقر منظم دون ان تلحقه خسارة^(١٨). وكان نجاحاً زاد من خيالاته وتهوره، ملاً جنوده، بثقة عالية مندفعة وأنتشرت الانباء في رومه. وقال [فابيوس] عندما أبلغ بذلك: إن أخوف ما يخافه هو نجاح [مينوشوس] إلا أن حماسة الشعب كانت عظيمة، دفعت بهم مسرعين الى [الفورم] ليستمعوا الى خطاب التريبيون [ميتيلوس]، مدح فيه [مينوشوس] واشاد ببسالته، وبلغ بها أعلى عليين وهاجم [فابيوس] هجوماً عنيفاً واتهمه لا بالافتقار الى الشجاعة وحدها، وإنما الى الاخلاص. وليس هو وحده بل كثير من الرجال البارزين وعظمائهم. قائلاً هؤلاء هم الذين جاؤا بالقرطاجنيين الى ايطاليا، وغايتهم سحق حرية الشعب وأستقلاله، ولهذا السبب بادرو فوراً الى وضع السلطة العليا في يد شخص واحد، قد يعطى بطئه وتأخره، وقتاً كافياً لهنيبيل، حتى يسيطر على ايطاليا، ويمنح أهل قرطاجنة الوقت والفرص لامدادته بنجدات جديدة حتى يكمل فتوحه.

وتقدم فابيوس الى المنبر وليس في نيته الرد على التريبيون، وإنما ليقول فحسب: بأنه يلزم الاستعجال في تقديم القربان ليسرع في العودة الى الجيش ومعاقبة [مينوشوس] الذي عمده الى القتال خلافاً لأوامره. فملاّت كلماته نفوس السامعين بالاعتقاد بأن حياة [مينوشوس] هي في خطر لأن الحكم بالموت والسجن هما من سلطات الدكتاتور ولأنهم كانوا يخافون أن يكون فابيوس الوديع الخلق عادةً، صعب التهذئة عند استشارته، قدر ما كان يصعب إثارته. ولم يجسر أحد على رفع صوته بالإحتجاج. إلا [ميتيلوس] الذي كان منصبه يمنحه الحصانة ليقول ما يشاء (في فترة سيادة الحكم الدكتاتوري، تبقى لهذه الحاكمية سلطتها ولا تلغى) فقد ابدى للشعب جرأة مدافعاً عن [مينوشوس]، مستصرخاً الجمهور بالألا يعمل فيه قرباناً لعداوة فابيوس، ولا يسمح بالقضاء عليه مثل ابن [مانيلوس توركاتوس Manlius Tor-quatus] الذي أحتز أبوه رأسه لنصر قاتل في سبيله وريح معركته، خلافاً لأوامره مع انه تكلم بالغار. وأخذ يحثهم على سحب السلطات الدكتاتورية من فابيوس، ووضعها في يد أجدر وأقدر وأكثر استعداداً لاستخدامها في مصلحة البلاد. ومع أن هذه الملاحظات خلفت في النفوس تأثيراً كبيراً إلا أنها لم تبلغ حدّ عزل فابيوس من منصب الدكتاتور، لكنهم رسموا أن يكون [مينوشوس] سلطة معادلة لسلطة الدكتاتور في ادارة دفة الحرب. ولم يكن لهذا سابقة في حينه^(١٩)، إلا أنه طبق بعد زمن قليل على الهزيمة في [كاني Cannae] فعندما الدكتاتور ماركوس جونيوس يقود الجيش اختاروا في روما [فابيوس بوتيو Fabius Buteo] دكتاتوراً، ليعين شيوخاً جدداً يأخذون امكنة الشيوخ العديدين الذين قتلوا. ولكن ما أن أكمل املاء الشواغر بالعدد الكافي، وبصورة علنية، حتى أستغنى عن حرسه من [اللكتور] وانسحب مع كل بطانته ومضى في تصريف أعماله في الفورم بكل هدوء مختلطاً بالناس كأبي فرد بسيط.

وظنّ أعداء فابيوس أنهم حقروه وسحقوا كبرياءه سحقا كافياً برفع [مينوشوس] الى درجة مساوية له. في السلطان. إلا أنهم أخطأوا وجهلوا خلق الرجل. فشم يعتبر حمتهم هذا خسارة له. بل كان مثل [ديوجينس] الذي قيل له أن بعضهم «يهزأون له» فأجاب «لكني لست مهزأة» وقصده من هذا أن المهانين حقاً، هم أولئك الذين يتحدث الإهانة فيهم أثراً. وهكذا كان الحال بفابيوس فقد رضخ بهدوء عظيم وعدم مبالاة لما وقع. وقدم برهاناً للفكرة الفلسفية وهي أن الإنسان الصالح المستقيم غير قابل للتحقير. على أن حنقه الوحيد كان متأثراً من خوفه أن

(*) خالف الابن الأمر القنصلي واشتبك مع العدو الاثيني في نزال فردي، في المعركة الكبرى على قدمة جبل شيزوفوس ٣٤٠ ق.م.

(١٩) يخبرنا ليفي بان مقترح المرسوم هو ترنتيوس فارو، الذي ساءت سمعته كثيراً بهزيمته في (كاني).

= الأسرى الرومان هو ٢٤٧ بحسب زعم ليفي ومع هذا فانه يختلف عن پلوتارخ في قول الأخير انه مجلس الشيوخ ابي دفع فديتهم. فيقول انما اجل الدفع فحسب.
(١٨) عن ليفي (٢٤:٢٢) انه خسر خمسة آلاف، بينما لم تكن خسارة العدو تزيد عن هذا بأكثر من ألف.

يؤدي هذا القرار الأخرق، الى خسارة قضية البلاد، باتاحة الفرصة لمرض الطموح العسكري المزمع في مرؤوسه، ولكيلا يؤدي تهور [مينوشيسوس] الى تورطه في مأزق، عاد الى الجيش بأقصى السرعة واتم السرية.

فوجد [مينوشيسوس] مزهواً مرتفع المعنوية بمنصبه الجديد، حتى انه لم يرض بالسلطة المشتركة وطلب ان تكون قيادة الجيش العامة بالمناوية، يوم له ويوم لفاببيوس. فرفض فاببيوس طلبه وأقترح قسمة قطعات الجيش وعلته في هذا ان القائد المنفرد أقدر على قيادة قطعاته العسكرية الخاصة وبهذا تسلم الفرقتين الأولى والرابعة. وأختص [مينوشيسوس] بالفرقتين الثانية والثالثة، وقسماً القوات الاحتياطية بينهما بالتساوي.

وبالتعظيم الذي ناله [مينوشيسوس] لم يعد يصبر عن التباهي بنصره، عن طريق الازدراء بالمنصب الرفيع والسلطان القوي أعطي الذي مناصب الدكتاتور. وذكره فاببيوس بأناً ولين، أن الخصم الذي يقارعه هو هنيبعل لا فاببيوس، ولكن ان قضت الضرورة عليه أن ينافس زميله، فخير منافسه له هي في مشابرتة واهتمامه بالمحافظة على روما لئلا يقال: رجل أصطفاه الشعب وخصه بثقته، كانت خدمه أسوء وأقل شأنًا من رجل أساء الشعب معاملته واذله.

ولكن القائد الشاب المستخف بهذا التأنيب، المزدرى بالنصح باعتباره تواضع الشيخوخة الكاذب، ارتحل بقواته حالاً وعسكر وحده^(٢٠). ولم يكن هنيبعل غافلاً عن هذه الأحداث، وإنما رضى وأخذ يتحين فرصته منها. واتفق أن كان بين جيشه وبين [مينوشيسوس] نشر من الأرض، بدأ له موقعاً مفيداً يمكن انشاء مواضع فيه، وكانت الحقول المحيطة به تبدو من بعيد مستوية متطامنة وان ملأتها الوهاد والتضاريس الوعرة والوديان غير الظاهرة للعين وكان من أسهل الأمور على هنيبعل حيازة هذه الأراضي لو شاء، إلا أنه أراد أن يجعلها طعماً، أو فخاً يقتاد به الرومان الى اشتباك في الموسم الملائم. فلما انفصل [مينوشيسوس] عن [فاببيوس] رأى الفرصة مواتية لغرضه، ولذلك عمد الى وضع عدد كاف من جنوده في تلك المغاور والأخاديد ليلاً^(٢١)، ثم أرسل في الصباح الباكر وحدة صغيرة، تقدمت حتى أصبحت على مرأى من [مينوشيسوس] وبدأت تحتل نشز الأرض، فابتلع مينوشيسوس الطعم كما توقع، ودفع أولاً بوحداته الخفيفة، ثم اتبعها ببعض الخيالة لطرده العدو، وأخيراً لما شاهد هنيبعل بشخصه يزحف لمعاونة رجاله، تقدم بنسق المعركة، بكل قواته والتحم بالقوات المسيطرة على المرتفع

(٢٠) هنا يختلف ليقي مع بليوتارخ احتلافاً جوهرياً بقوله ان الفرقتين الأولى والرابعة كانتا مناطين بـ(مينوشيسوس) في حين اودعت قيادة الثانية والثالثة الى (فاببيوس). على ان (بوليبوس) يخالف الاثنان هذا وقد كانت المسافة بين المعسكرين حوالي الف وخمسمائة خطوة.

(٢١) خمسمائة فارس راجل (بوليبوس ٣).

وصمد لمقذوفاتهم، وظلت المعركة زمناً متوازنة، ولكن ما أن تأكد هنيبعل أن الجيش العدو كله قد تقدم مسافة كافية في تلك السهول الوعرة المتعادية ودخل في الفخاخ التي نصبها بحيث أصبح ظهره مكشوفاً لرجال الكامينين في المغاور والأخاديد، حتى أعطى الإشارة فيبرزوا من مخابئهم واندفعوا يهاجمون مؤخرة مينوشيسوس من كل جهة وهم يصيحون صيحات مرعبة. وكانت المفاجأة عظيمة والمقتلة أعظم، وأصاب الجيش الروماني فوضى عامة وأختلت صفوفه. وفقد [مينوشيسوس] ثقته بنفسه وأخذ ينقل ابصاره من ضابط الى آخر. فوجد الجميع غير مستعدين لمواجهة الخطر على السواء. يميلون الى الفرار، ولم يكن الفرار مأموناً كذلك، لأن الخيالة النوميديين Numidia كانوا قد أنتشروا في ارجاء السهل يجرون اذبال النصر، وهم يعقبون المنهزمين ويمزقونهم تمزيقاً.

لم يكن فاببيوس يجهل الخطر المحدق ببني قومه. وقد أدرك ماذا سيحدث جراء تهور [مينوشيسوس] ومكر هنيبعل لذلك أبقي رجاله في حالة الإنذار وسلاحهم بأيديهم متأهبين لتعاقب الأحداث. كما أنه لم يضع ثقته في تقارير الآخرين وإنما راح يستطلع هو بنفسه كل ما حدث على رأس جيشه، فلما وجد جيش [مينوشيسوس] يحيط به العدو وان التنقلات الأرضية ومظاهر القتال تدل على أنهم أقرب الى الهزيمة منهم للصوص ضرب منكمبه بكفه^(٢٢) وأطلق تنهيدة عميقة وقال لمن حوله «ايه يا هرقل! لكم كان [مينوشيسوس] أسرع الى تدمير نفسه مما توقعت وإن بدأ الأمر أبطاً مما اراد هو!». ثم أمر حامل الراية بالتقدم الى الامام وسار الجيش خلفه، وهو في الطليعة يحثهم قائلاً «علينا أن نسرع لانقاذ مينوشيسوس بالاسل المحب لوطنه وإذا كان قد تعجل في قتال الاعداء، فسننتحدث اليه عن هذا في وقت آخر».

وهكذا صال فاببيوس على العدو وهو في الطليعة وظهر السهل من النوميديين بالأول، ثم انقض على الوحدات التي تهاجم مؤخرة الرومان وأباد كل من وقف في سبيله واجبر فلولها على التقهقر السريع انقاذاً لحياتها ولئلا تكون حالها حال الرومان المطوقين. ولما رأى هنيبعل رجحان الكفة السريع، وفاببيوس يشق طريقه صعداً، نحو المرتفع بين صفوف الجند، غير مبال بالجهد الذي تتحملة سنه المتقدمة، وانه قد يتمكن من الانضمام الى [مينوشيسوس]، نكص على أعقابها وأطلق بوق التقهقر وسحب قواته الى معسكرهم، ولم يكن الرومان بأقل رغبة منهم في الارتداد سالمين. وقيل أن هنيبعل قال لأصدقائه مستندراً بهذه المناسبة: «ألم أقل لكم أن هذه السحابة^(٢٣) التي كانت تحوم دائماً فوق الجبل ستنقض علينا بعاصفة، إن عاجلاً أو آجلاً؟»

(٢٢) ينوه هوميروس بعادة ضرب الفخذ بالكف في ساعة الخطر أو المفاجأة ويضرب الجبين بالكف بدلاً من الفخذ أحياناً.

(٢٣) يورد ليقي قول فاببيوس بهذا النص: =

وأب فاييوس الى معسكره بعد أن جمع رجاله الأسلاب من ميدان القتال. دون أن يوجه كلمة لوم، أو عبارة قاسية لزميله. وجمع [مينوشيوس] أفراد جيشه معاً وخاطبهم بقوله:

- قيادة جيش عظيم بلا خطأ، أمرٌ يفوق طاقة البشر، لكن التعلم من الاخطاء والاعتاض بها، هو مما يليق بالرجل العاقل الصالح. قد تحملني اسبابٌ معينة على الشكوى من الأقدار لكن لدي أسباباً أكثر منها تحملني على شكرها، ففي ساعات معدودات أصلحت خطأً طويل اللبث زمناً، وعلمتني باني غير جدير بقيادة الآخرين، بل محتاجٌ الى ان يقودني الآخرون. كما علمتني بالأحلام التفوق على من كان العمل برأيهم فائدة لنا. لذلك سيكون الدكتاتور قائداً لكم في كل الأمور، أما أنا فبقائني علي رأسكم الآن، يحدوني اليه اظهار امتناني له ليس الآ، ولأكون أول من يطيع أمره».

وبعد أن فرغ من كلامه أصدر أمراً بتقدم كل النسور الرومانية وان يتبعه كل رجال جيشه الى معسكر [فايوس]. وجد الجنود ذاهلين لظرافة المنظر عندما دخل، وعلتهم الحيرة والشك في الغرض من هذه المظاهرة، ولما دنا من خيمة الدكتاتور خرج هذا لاستقباله، فأسرع [مينوشيوس] وألقى برباطه تحت قدميه ونادياً أياه بيا أبي! بصوت مرتفع. بينما حياً جنوده، زملاءهم في المعسكر كما يحيون الأسياد المحسنين وهي التحية الواجبة على العبيد المعتوقين لأولئك الذين انالوهم حريتهم. وبعد ان هدأت الضجة وساد الصمت انشأ [مينوشيوس] يقول:

- لقد أحرزت أيها الدكتاتور نصرين في هذا اليوم، أحدهما نصر على هنيبعل وكان سبيلك اليه يسألتك وحنكتك، والنصر الثاني على زميلك، وكان سبيلك اليه حكمتك وطيبتك بالنصر الأول انقذتنا وبالنصر الثاني ثقفتنا. وعندما كان يجللنا عار الهزيمة على يد هنيبعل جاءت هزيمة أخرى له على يدك فاعادت الينا شرفنا وسلمت ارواحنا. واني لا أجد اسماً ناديك به أعزّ وانبل من اسم الأب المشفق. وان كانت بركة الأب لا تداني ما حبوتني به. من أب ظفرت وحدي بنعمة الحياة. واليك انا مدين ليس بها وحدها، بل ب حياة كل من هم تحت أمرتي.

ثم أنه ألقى نفسه بين ذراعي الدكتاتور. وفعل افراد الجيش كذلك بعضهم ببعض وهم مسرورون والدموع تجول في أعينهم.

لم يمرّ طويل زمن على هذا، حتى أعتزل فاييوس منصب الدكتاتور وأعاد الحكم للقناصل^(٢٤). وطبق من خلفه أسلوبه في ادارة الحرب. وأجتنبوا كل التحام بهنيبعل في

= Non Celerius Quam Timui, Depehemdit Fortun a Temeritatem =

(٢٤) ليفي (٢٢:٢٢) استعفى (فايوس) من منصب الدكتاتور بعد انقضاء الأشهر الستة وسلم القيادة الى =

معركة فاصلة. وقصروا مجهودهم على أمداد حلفائهم بالمساعدات، والمحافظة على المدن والحيلولة دون سقوطها بيد الاعداء. ثم تولى القنصليّة [تيرنيتوس فارو- Ternitius Varro] بعد زمن، وهو رجلٌ مجهول النسب خامله، إلا أنه جريء مقدام يتمتع بشعبية كبيرة، وبدأ واضحاً أنه مزعم على توريط البلاد كلها في مخاطر جسيمة بتهوره وجهله. فقد راح يوالي الخطب في المجالس قائلاً: مادامت روما تعهد بقيادة جيوشها الى امثال فاييوس فلن تكون للحرب نهاية. وأخذ يتبجح بقوله أنه سيحرر أرض ايطاليا من قبضة الأجنبي في اليوم الذي يقع نظره على العدو. وبهذه الوعود التي بذلها ونادى بها، إمكنه ان يعيىء أعظم جيش جردته روما لقتال. فقد جند فيه ثمانية وثمانين ألف مقاتل^(٢٦). إلا أن ما كان يوحى بالثقة لعامة الشعب، كان من جهة أخرى يصيب العقلاء المجرمين بالرعب وليس فيهم أكثر خوفاً من فاييوس. فلو قُدّر لهذا العدد الضخم من زهرة شباب الرومان أن يباد في القتال، لضاع كل أمل في سلامة روما، اذ لا احتياطي آخر لها غيره. وعلى هذا الأساس راجعوا القنصل الثاني [ايميليسوس پاولوس Aemilius Paulus] وهو رجل ذو تجارب عظيمة في الشؤون الحربية إلا أنه لا يتمتع بشعبية، فضلاً عن شدة خوف فيه من الجماهير، تولد عن إدانتها له لمخالفة ما أرتكبها^(٢٧). فحكّم ولذلك كان بحاجة الى التشجيع ليحد من اندفاع زميله الأهوج. قال له فاييوس:!

- إن شئت أن تؤدي الى بلادك خدمة نصوحاً وتكون نافعاً لها، فعليك أن لا تكون أقلّ معارضةً لاندفاع [فارو] الأحمق من يقظة هنيبعل المستوفزة. لأن كلاهما اتفقا على تقرير مصير روما بمعركة حربية. والأجدر بك والأقرب الى العقل أن تصدقني أكثر مما تصدق [فارو] في كل ما يتعلق بهنيبعل، عندما أقول لك: انه اذا أمتنعت خلال هذا العام عن قتاله. فيما سيهلك جيشه من تلقاء نفسه، وأما سيكون مسروراً للرحيل بمحض

= قنصلي تلك السنة [سرفيوس] و[اتيلوس] والأخير حلّ محل [فلامينيوس] الذي صرع في تراسيمي. وپولتارخ يقتضي خطي [پوليبيوس] في سرد هذه الاحداث.

(٢٥) ابن قصاب، ورث مهنة ابيه في شبابه لكنه أعتنى فحاف حرفته الحقيرة واستجلب قلوب الجمهور بدعم أكثر التريبونات فوضويةً وحباً للشعب وبهذا الاسلوب وصل الى منصب القنصلي (ليفي ٢٢:٢٦).

(٢٦) جرى العرف الروماني على تجنيد اربع فرق عسكرية كل سنة. في الأوقات العصبية والازمات تؤلف الفرقة الواحدة من خمسة آلاف راغل روماني وثلاثمائة فارس وكتيبة لاتينية واحدة بعدد متساوٍ من المشاة وضعف العدد من الخيالة. ويبلغ المجمع الكلي لقوة هذه الفرق البشرية ٤٣٠٠٠ مقاتل. إلا انهم جندوا بهذه المناسبة ثمانين فرق بدلاً من أربعة. أما ليفي فيكتفي بالقول ان القوات المجندة كانت ضخمة جداً.

(٢٧) كان هو واخوه قد حققا نصراً على الالليين واخضاهم لكنهما اتهما بالتحيز في تقسيم الغنائم، أو كما يقول [اوريليوس فكتور] باختلاس الأموال العامة. وثبت عليهما ذلك وفرضت عليهما غرامة كبيرة وكانت غرامة أميليسوس أقل (ليفي ٢٢:٣٥).

اختياره. ويظهر هذا بجلاء من نفور البلاد والمدن الايطالية كلها من محالفته، وان جيشه الآن يكاد لا يبلغ ثلث ما كان عند أول مجيئه، ودعك من كل الانتصارات التي أحرزها. فأجاب [پاولوس] على هذا [كما ذكر بعضهم]:

- لو اني أخذت شخصي فحسب بنظر الإعتبار لفضلت تعريض صدري لاسلحة هنيبعل عن تعريضه مرة أخرى لقضاء بني قومي الذين هم شديد والرغبة فيما لا توافقون عليه. ومع هذا، ومادام مصير روما في كفة القدر، فالأحرى بشخصي وخلقي أن أرضي وأطيع [فابيوس] ولو أجمع عليّ الثقلان والعالم كله.

هذه التدابير السديدة، هزمتها لجانة [فارو] وتسرعته فعندما خرج القنصلان معاً لتسلم قيادة الجيش لم يتوصل الى حلّ غير القيادة المنفصلة اي أنّ كل قنصل يتناوب القيادة يوماً^(٢٨).

وبحلول يوم [فارو] في القيادة أختار موضع الجيش بمواجهة هنيبعل في قرية تدعى [كانيّ Gannae]^(٢٩) بالقرب من نهر [أوفيدس Aufidus]. وانتهاز أول يومٍ آخر لقيادته فنشر العبادة الفرمزية فوق خيمته وهي اشارة المعركة. وأفرغت القرطاجيين تلك الجرأة، وتفوق العدو العددي الذي ناهز الضعف. إلا أن هنيبعل أمر بالتأهب واعتداد السلاح وخرج مع بطانة قليلة للإستطلاع ومتابعة تحركات العدو وهو ينظم صفوفه للمعركة من مرتفع لا يبعد كثيراً عنهم. وانبرى [غيسكو Gisco] القرطاجيّ (وهو من اتباعه المساوين له في المقام) يقول: إن عدد جيش العدو مدهش فأجابه هنيبعل بلهجة جد لا أثر منها للمزاح: «هناك يا غيسكو شيء واحد إدعى الى الدهشة، غاب عن ملاحظتك» ولما سأله غيسكو عمّا هو؟ قال: «في كلّ هذه الجموع الزاخرة أمامنا لا يوجد شخص واحد اسمه غيسكو» وأغرقت السرية كلها في الضحك لهذه المزحة غير المنتظرة من قائدهم. وعندما هبطوا من المرتفع ونقلوها لمن لقوه فكان الضحك عاماً متواصلاً، لا قبل لهم بوقفه، ولما شاهد الجيش حاشية هنيبعل تعود من مهمة الاستطلاع وهي مغرقة في الضحك والمزاح، استنتج أنه دليل على الازدراء العميق بالعدو. وأن ضعفه هو الذي جعل قائدهم في تلك الساعة منشرح المزاج.

(٢٨) يقع پلوتارخ في خطأ. فقد كانت القاعدة الأصولية عند الرومان ان القناصل يتناوبون قيادة الجيش اثناء ما يكون الاثنان في الواجب عينه (پوليبيوس: ٣).

(٢٩) يقول [ليفي وپيان وفلورس] ان (كاني) هي قرية حقيرة خاملة اشتهرت للمعركة التي جرت قريباً منها. إلا أن پوليبيوس الذي عاصر الحروب الفيونانية يصفها بالمدينة قائلاً انها دمرت قبل سنة واحدة من اندحار الجيش الروماني. وفي هذا يوافق سيليوس ايتالكوس، بعد ذلك اعيد بناؤها ان (پليني) يصفها بين مدن (ابوليا). وما تزال خرائبها شاخصة حتى يومنا هذا بالقرب من مدينة (باري).

وكعادة هنيبعل، لجأ الى الحيلة والستراتيج للافادة من الموقف. ففي المقام الأولى، نظم صفوف رجاله بحيث يكون مهّب الريح^(٣٠) من خلفهم وكان اتجاهاها في ذلك الوقت نحو الانقلاب الى عاصفة هوجاء تامة تكتسح السهول الرملية العظيمة وتحمل باندفاعها سحابة من الغبار فوق الجيش القرطاجيّ وتلقى بحملها في وجوه الرومان، فتلحق بهم أذى عظيماً وتعوقهم في القتال كثيراً، وعمد في المقام الثاني الى وضع خيرة رجاله في الجناحين. أما القلب فقد وضع فيه اسوء وحدات جيشه واضعفاها. وأوصى الجناحين بتطبيق الخطة التالية: عندما يقوم العدو بهجوم كاسح على قلب الوحدات المتقدمة التي يعلم انها ستتهقر لعجزها عن احتمال الصدمة وعندما يتقدم الرومان في مطاردتهم ويكونون مشتبكين بالقتال على مسافة كافية ما بين الجناحين. فعلى الميمنة والمسيرة أن تطبقا من الجانبين عليهم، وتحاولا تطويقهم^(٣١). ويظهر أن هذا هو السبب الرئيس في خسران الرومان. فقد القوا بكامل ثقلهم على قلب هنيبعل فتهقر، فاستحال شكل جيشه الى هلال كامل، ومنحوا فرصة نادرة لضباط القوات المختارة للهجوم عليهم من اليمين واليسار على الجناحين. وأوقعوا تفتيحاً وابادة بكل من لم يرتد الى الخلف قبل أن يتصل جناحاً القرطاجيين في مؤخرتهم. والى هذه الكارثة العامة قيل أن خطأً غريباً حصل عند قوات الخيالة قد ساهم فيها. فقد أصيب جواد ايميلوس باذى فرمخ سيده. فترجل عدد من الفرسان المحيطين به حالاً لمعاونته. ولما رأى الجنود الرومان قادتهم يتركون خيلهم، ظنوها إيعازاً لهم بالترجل هم ايضاً والهجوم على العدو راجلين. وسمع هنيبعل يقول وهو ينظر الى المشهد: «إني لأعظم سروراً بهذا، مما لو جيء بهم إليّ مقيدين أيادي وأرجلاً»^(*). وعن تفاصيل هذه الموقعة نحيل قارئنا الى أولئك الكتاب الذين كتبوا عنها بتوسع^(٣٢).

وفرّ القنصل [فارو] الى [فينوسيا Venusi] بشرذمة من الاتباع أما [ايميلوس پاولوس]، فبعد أن عجز تماماً عن ايقاف هزيمة رجاله، جلس على صخرة وجسمه كله تغطيه الجراح، وروحه لا تقل عن جسمه جراحاً متوقعاً أن يُرحم بضربة قاضية. وبلغ تشويه وجهه وكثره الدماء

(٣٠) هذه الريح الحارة التي تهب من الشرق والجنوب. يسميها ليفي ٤٦:٢٢ [قولتوروس] واسمها الحديث [سيروگو]. ولما كان الجيش الروماني يواجه الجنوب فقد عانى منها الكثير وساعت حاله بها. والتأثير المعروف الذي تحدثه هو الخمول والضعف بدرجة كبيرة.

(٣١) يذكر ليفي خطة أخرى لجأ اليها هنيبعل. فقد تظاهر خمسمائة من افارقتة النوميديين بالانضمام الى صفوف الرومان الا أنهم انقلبوا عليهم عند احتدام المعركة وهاجموا الجنود الرومان من الخلف.

(*) النص في ليفي ٤٩:٢: Quam Mallem vinetod mihi trodeset.

(٣٢) لاسيما پوليبيوس وليفي (٢٢: ٤٧-٤٩) الذي كان پلوتارخ يعتمده اعتماداً رئيساً. على انهما لم ينجحا قط في اعطاء فكرة دقيقة واضحة عن الخطة التي أتمدها هنيبعل في المعركة بصورة عامة.

التي تلتخه مبلغاً لم يعد معه معروفاً من أقرب أصدقائه وخدمه أثناء مرورهم به. وأخيراً عرفه الشاب الپاتريشي [كورنيليوس لينتولوس Cornelius Lentulus] فترجل عن حصانه وعرضه عليه طالباً فيه أن ينهض وينجو بحياته الضرورية لسلامة البلاد. التي هي الآن في أمس الحاجة الى قائد عظيم مثله. ولكن لم يشته شيء عن عزمه أو يقنعه بقبول العرض ورجا الفتى [لينتولوس] والدموع تجول في عينيه أن يمتطي حصانه. ثم أستوى قائماً ومد اليه يده مصافحاً وأمره أن يبلغ [فابيوس ماكسيموس] بأن [اميلوس پاولوس] قد أتبع توصياته الى النهاية ولم يحد قيد أمثلة عن تلك الآراء التي تم التفاهم عليها بينهما. ولكن سوء حظ جعل [فارو] يتغلب عليه بالدرجة الأولى وهنيئيل بالدرجة الثانية. وبعد أن زود [لينتولوس] بتوصيته وصرفه، توجه الى مثار النقع حيث المعركة حامية الوطيس والقي بنفسه على سيف العدو. وقيل أن الرومان خسروا في هذه الموقعة خمسين ألف قتيل^(٣٣)، وأربعة آلاف أسير استسلموا في ميدان القتال وعشرة آلاف أخذوا في معسكري القنصلين.

والح أصحاب هنيئيل لإقناعه باستثمار فوزه، ومطاردة الرومان المنهزمين حتى ابواب روما، مؤكداً له أن لن تمر عليه خمسة ايام الا ويكون في الكاپيتول يتناول عشاءه. وليس من السهل التكهن بالاعتبارات التي منعتهم من ذلك. وقد يبدو أن التدخل الرباني هو الذي سبب التردد والاحجام الذي ابداه الآن، وحمل [باركاس Barcas] القرطاجني على أن يقول له ساخطاً: «إنك يا هنيئيل تعرف كيف تحرز النصر، إلا أنك لا تعرف كيف تفيد منه^(٣٤)» على أن هذه الموقعة أحدثت تديلاً عجيبياً في أموره. فقد أصبح فهو السيد المطلق على أفضل الأقاليم والمدن في إيطاليا^(٣٥)، وسيطر على [كاپوا Capua] نفسها التي تلي روما بالأهمية

(٣٣) ليقي في المرجع السالف يذكر ان الرومان خسروا عشرين ألفاً وان حلفاءهم خسروا مثل هذا العدد فضلاً عن (٢٧٠٠) خيال بينهم كويستوران وواحد وعشرون تريبوناً وعدد ممن كان قد تولى مناصب القنصلية والپريتورية والایدلية ويخص منهم بالذكر سرفيلوس جمينوس، ومينوشويس قائد الفرسان. فضلاً عن ثمانين شيخاً من الاعضاء الحاليين في المجلس أو المنتخبين للدورة القادمة وكانوا قد تطوعوا للقتال. ووقع ثلاثة آلاف راجل في الأسر وثلاثمائة من الخيالة، يقول أيضاً ان هذا النصر كلف القرطاجيين ثمانية آلاف من اشجع مقاتلهم. ويزع (پوليبيوس) ان سبعين ألفاً قد قتلوا وان أكثر من عشرة آلاف. من غرائب ما وقع انه وجدوا نوميدياً حياً تحت روماني ميت. كان الروماني قد بترت يده فعجز عن استخدام سلاحه للقضاء على النوميدي فألقى بثقله عليه وبأسنانه قطع اذنيه وانفه قبل أن يفارق الحياة (ليقي المرجع نفسه ٥١).

(٣٤) يصور ليقي (مهربال) هكذا Tum Maharbal: "Non omnia nimirum eidum di dedere Vincere scis Hannibal victoria ati nesas. ومهربال هو قائد الخيالة الرومانية. ولعله ذلك الذي كان يلقب بـ(باركاس) مثل هملقار. أن زوموراس يحدثنا بأن هنيئيل ادرك غلظه فيما بعد حين أمسك عن تعقيب فلول العدو بعد انتصاره. وقد اعتاد أن يهتف متحسراً في أحيان كثيرة: أه لي من كاني! أه لي من كاني.

(٣٥) الايوليون، والسامنيت، والتارنت وغيرهم.

والغنية الزاهرة، كل ذلك وقع بيده وخضع لحكمه، وهو الذي لم يكن قبلها - يملك مدينة واحدة أو سوقاً أو ميناءً، خالي الوفاض معدماً لا يجد ما يطعم به رجاله إلا ما يأتيه عن طريق النهب من يوم الى يوم، ولا موضع ينسحب اليه ويتحصن فيه أو يتخذ قاعدة لعملياته، وانما كان يطوف على غير هدى كأنما يقود عصاية ضخمة من الأفاقين.

هناك قول لسيوربيدس «يكون المرء في وضع سيء حين يتوجب عليه أن يمتحن صديقاً كذلك يبدو أن وضع دولة ما لن يكون فضل عندما ترى نفسها بحاجة الى قائد كفوء». وهذا ما كان عليه الرومان في ذلك الحين. فنصائح فابيوس، واعماله التي نعتوها قبل الموقعة بالجبن والخوف، صاروا ينظرون اليها الآن من الزاوية المعاكسة القصوى ووجدوا فيها ما فاق حكمة البشر السوي. حتى لكأن للقدرة الالهية يداً في هذه النظرة البعيدة، وانها التي تكهنت بغم فابيوس بنتيجة صعب تصديقها حتى بعد وقوعها خلافاً لحكم الآخرين جميعاً. ولهذا بادروا الى وضع كل ما بقي لديهم من أمل فيه. وكانت حكمتهم الهيكل المقدس والمعبد الذي لاذوا بحماه بغية النجاة. ولقد منعتهم نصائحهم أكثر من أي شيء آخر، من التشرذم وترك مدينتهم، كما كان الوضع عندما أستولى الغاليون على روما. وهذا الذي كانوا يعتبرونه خائر القلب رعيدياً عندما كانوا - حسباً توهموا - في أمان ومنعة، صار الآن الرجل الوحيد الذي لم يظهر أثراً لخوف في هذا الإضطراب والشقاء العام غير المحدود. وانما كان يسير في الشوارع بهدوء وثقة يكلم ابناً قومه ويبادلهم الحديث ويضع حداً لانتحاب النساء، ويكبح الاجتماعات العامة التي يتولى عقدها من يريد التنفيس منهم عن كربه واحزانه. ويسعي منه عقد الشيوخ اجتماعاً، أو شاع روح الأمل في الحكام وكان هو نفسه روح كل دائرة وحياتها.

ووضع حرساً على أبواب المدينة لمنع الأهالي الخائفين من مغادرتها ونظم واختصر مراسيم الحداد على القتلى زماناً ومكاناً. وأمر أن تقوم كل أسرة بما يقتضى من هذه الشعائر داخل المنازل وان لا تزيد مدة ممارستها عن شهر واحد، يقوم أهل المدينة كلهم بالتطهر وفك الحداد بعد نهايته مباشرة، وقرر الغاء الاحتفال بعيد [جيسر Ceres]^(٣٦) الذي وقع في تلك الاثناء لئلا تنكشف قلة المحتفلين به، ومظاهر حزنهم وبؤسهم، عظم الخسارة التي وقعت. فضلاً عن أن العبادة الأكثر قبولاً عند الآلهة هي التي تتبع من قلوب منشحة. على الشعائر المتعلقة بتهدئة غضبها وأطلاب إشارات سماوية ومع ذلك فقد اقيمت بخير ما امكن تحت

(٣٦) لم يكن هذا السبب الحقيقي المؤدي الى الغاء العيد ويقع عادة في الثاني عشر من شهر نيسان. بل لأنه يحرم على الذين يقضون ايام الحداد ان يعيدوا فيه. وانك لاتجد وقتذاك امرأة في روما إلا وهي في حداد. والواقع هو ان الاحتفال بالعيد أجل حتى نهاية فترة الحداد التي أختصرت الى ثلاثين يوماً كي لا تتأخر المراسيم الدينية الخاصة والعامة أكثر مما تأخرت.

اشراف الكهنة والعرافين وارسل [فابيوس پكتور F. Pictor] وهو قريب لفابيوس ماكسيموس الى دلفي ليستوحي نبوءةً من العرافة. وفي ذلك الزمن تحقق زنى [قستالتين] فقتلت واحدة نفسها، ودفنت الثانية حيةً كما جرى به العرف^(٣٧).

دعنا قبل كل شيء نبدى أعجابنا بالمعنوية العالية والتماسك الشديد اللذين تتمتع بها هذه الجمهورية الرومانية. فعندما جاء [فارو] مدحوراً مهزوماً يجلله الذلّ والعار، ويعد أن آل أسلوب تصريفه الأمور الى النكبة والخزي خرج الشيوخ والعامّة جميعاً لاستقباله عند أبواب المدينة، وأضفوا عليه كل مظاهر التكريم والاحترام. ويعد ان ساد السكون أخذ الحكام ورؤوس الشيوخ ومنهم فابيوس، يشنون عليه امام الشعب لأنه لم يأس من سلامة الجمهورية بعد هذه الخسارة الفادحة وانما جاء ليتسلم مقاليد الحكم بيده وينفذ أحكام القوانين ويعاون ابناء قومه في جهودهم لأجل نصرٍ مقبل^(٣٨).

وبدأت قلوب الرومان تنبض بالحياة وتنتعش عندما وصلت الى روما ابناء تشيير الى ان هنيبعل زحف بجيشه الى انحاء أخرى من ايطاليا على أثر المعركة، وطفقوا يبعثون بالقادة والجيوش لمناجزته. وأختص بأعلى القيادتين [فابيوس ماكسيموس] و[كلوديوس مارچلوس Claudius Marcellus] وكلاهما من المشاهير، ولكن على أسسٍ مختلفة. فمارچلوس كان كما ذكرنا في سيرته. رجل أعمالٍ وإقدامٍ سريعاً جريئاً بشخصه - وكما وصف هوميروس ابطاله: عنيف يعشق القتال. وكان تاكتيه الحربي الذي واجه به هنيبعل الاقدام والجرأة وحب المغامرة، وهو الطابع الذي اتسمت به معاركه. إلا أن فابيوس ظلّ مقيماً على مبدئه الأول وما زال مقتنعاً بأن متابعة هنيبعل دون قتاله كفيلا على الأقل بانهاكه والقضاء عليه مثل مصارع بلغ نهاية طاقته. وباستعمال كل قواه، غالباً ما تراه يستنفدها فجأة فيتهاوى منهوكةً ويخسر الشوط. ويذكر لنا [پوسيدونيوس] أن الرومان يسمون مارچلوس سيفهم، وفابيوس درعهم. ومن قوة الأول وثبات الثاني، يخرج مزيج يكون فيه خلاص روما. ووجد هنيبعل بالتجربة إن اصطدامه بأولهما يشبه التقاءه بنهر ثرثار سريع المجرى يدفع به الى الخلف إلا أنه لايعدم أن

(٣٧) يضيف لبيفي [المرجع السالف ٥٧] ان [كانتيلبيوس] عشيق احداهن جلد حتى فاضت روحه. وان الديكاميثر راجعوا كتب الكبيل فأمرؤا بابع ضحايا بشرية «تدفن احياء في سوق الحيوانات: ذكر وانثى اغريقيان. واثان من أهالي اليونان.

(٣٨) من تعليق [ليفي] على هذا قوله «ولو كان جنراً قرطاجياً للقي شرّ ميتة. ويحدثنا فاليريوس ماكسيموس [٤:٤ و ٥:٤] قائلاً ان الشيوخ والعامّة حزموا عن طورهم بأن عرضوا عليه منصب الدكتاتور، إلا انه رفضه بكل تواضع. ويخبرنا فرونتينيوس [٤: ٥-٦] انه ظلّ بقية حياته مرسلأ شعر فقهه ورأسه لا يأكل على اريكه كغيره من الرومان ويقول عندما يقابل بمظاهر التكريم ان على الرومان أن يحظوا بحكام أوفر خطأ منه.

يعمل كسراً في ضفافه، وأمّا الثاني، فمع أنه يمرّ بالقرب منه هادئاً ساكناً، فهو يجرفه ويلتهمه التهاماً. وأخيراً أستقر رأيه على هذا: انه يخشى [مارچلوس] عندما يتحرك. ويخشى [فابيوس] عندما يكون ساكناً. وكان عليه طوال تلك الحرب أن يواجه أحدهما أو كليهما. فكلّ من هذين القائدين تولى منصب القنصلية خمس مرات، وبقياً جزءاً دائماً في جهاز القيادة العسكرية إمّا بصفة قنصل أو پرو قنصل أو پريتور، حتى وقع [مارچلوس] في الفخ الذي نصبه له هنيبعل وقتل وهو قنصل للمرة الخامسة. إلا أن كلّ مكره وبراعته لم يفلح مع [فابيوس] فلم يتعرض هذا للخطر إلا مرة واحدة. وذلك عندما وردته رسائل مزورة عن لسان أعيان مدينة [ميتاپونتوم Metapontum] يعدونه فيها بتسليم مدينتهم إن قدم اليها بجيشه، وبالصدقة والتحالف الذي ينتظره. وكاد يقع فريسة لهذه المؤامرة، إلا انه قرّر التقدم نحوها بجزءٍ من قواته. بعد استطلاع الحظ من مسرى الطير فوجدها تشير سوء العقبي فعدل عن مسيره. ومالبث أن علم بأن الرسائل من صنع هنيبعل الذي أعد لاستقباله كميناً محكماً، وحريّ بنا أن نعزو هذا الحظ الى بركة الآلهة أكثر مما نعزوه الى بُعد نظر [فابيوس].

كان مسلكه رائعاً في اجتناب ترمد المدن وثورة الحلفاء بالمعاملة الرقيقة العادلة، وعدم استخدام الشدة أو اظهار الشكّ عند أقل اشتباه. وذُكر عنه أنه أبلغ عن شخصٍ يدعى [مارسيان Marsian] مشهور بالبسالة معروف بشرف النسب، بأنه كان يكلم بعض الجنود سرّاً، عن الهروب من الجيش. فلم يلجأ فابيوس الى استخدام أي شدة معه، بل بعث في طلبه وقال له إنه ليعلم بالأهمال الذي أصاب مؤهلاته وخدماته الممتازة، وهو خطأ عظيم من الضباط الذين يمنحون مكافأتهم لا على أساس الكفاءة والمؤهلات، بل على غلطة منك إن شعرت بغبنٍ وراجعت أحداً غيري». ثم أنه خلع عليه جواداً مطهماً وهدايا أخرى، ومنذ ذلك الحين وهذا الرجل مثلّ يضرب في الاخلاص والتفاني، في سائر الجيش. فقد ادرك بعمق بصيرته انه اذا كان سائسو الخيل ومدربا الكلاب يستخدمون أساليب لينة رقيقة لتذليل طباع هذه الحيوانات الشرسة، ولا يلجأون الى خربها أو معاملتها بالشدّة. فأولى بأولئك الذين يقودون الرجال أن يحاولوا غرس حبّ النظام والضبط بأسوء مما يعامل البستانيون النبات البري الذي يفقد بالتشذيب والعناية طباعه الوحشية بالتدريب، ليؤتي أفضل الثمر.

وفي مناسبة أخرى أبلغه بعض ضباطه أن رجلاً من رجالهم يتغيب كثيراً من موقعه ويخرج

(٣٩) ليقي [١٥:٢٣] يعزو هذه الحكاية الى [مارچلوس] لا الى [فابيوس] ويقول ان الاسم الوارد هو (بانيتوس) أو Bandius بانديوس في سيرة مارچلوس. وهو مواطن من (نولا) وجل نصف ميت بين أكداس القتلى بعد معركة (كاني) وقد خصّ بامتياز الدخول على الجنرال متى شاء.

ليلاً، فسألهم أي نوع من الرجال هو؟ فأجمعوا كلهم بأنه لا يوجد في سائر الجيش من هو أفضل منه، وأنه مواطن من [لوكانيا Lucania]، ثم طفقوا يروون مآثر عدة راوه يقوم بها. فأمر فابيوس بتحقيق دقيق عنه، وعلم أخيراً إن الغياب الكثير الذي لوحظ منه كان لزيارة فتاة وقع في حبها. وعندها أمر بعض رجاله أن يبحثوا عن الحبيبة سراً، وإن يأتوا بها إلى خيمته، ففعلوا، ثم أنه أحضر [اللوكاني] وانفرد به وقال له أنه يعرف جيداً بكثرة غيابه عن المعسكر ليلاً، وهو أخطر جريمة ضد النظام العسكرية والقوانين الرومانية، لكنه يعلم كذلك مبلغ شجاعته، ولا يجهل أيضاً الخدمات الجليلة التي قدمها، وهو لأجلها يرغب في العفو عنه والتفاضي عن خطئه لكنه وسعياً وراء إبقائه في حدود النظام - قرر أن يضع حارساً عليه يكون مسؤولاً عن حسن سلوكه. وبعد أن قال هذا، أخرج له الفتاة وخاطب الجندي المرتعب المذهول بالمفاجأة: «هذا هو الشخص الذي سيكون ضامناً لك. وسنرى حسن سلوكك المقبل هل أن تجوالك الليلي كان بسبب الحب أم لغرض أسوأ منه!».

وتم واقعة أخرى تشابه هذه، كانت عاملاً على دخوله مدينة تارنتوم^(*) واحتلالها. بعد أن خسروها بدسياسة:

يوجد فتى [تارنتي] في الجيش له أخت تسكن [تارنتوم] التي كانت في قبضة العدو، هذه الاخ كانت شديدة الحب لأخيها، متعلقة به للغاية، وعلم الأخ أن بروتيًا [Bruttian] نصبه هنيبعل قائداً لحامية المدينة، قد توكله بحب أخته. وخيل له أن علاقة كهذه قد تثمر ما فيه خير للرومان، وأتصل بفابيوس وأنهى إليه بخطته ثم ترك الجيش كمن فر منه ظاهرياً، وذهب إلى تارنتوم. ومرت الايام الأولى و[البروتي] ممنوع عن زيارة الأخت لأنهما ما كان يعرفان ان الأخ على بينة مما يقوم بينهما من حب. على أن الفتى [التارنتي] أنتهز فرصة ليخبر أخته بكيفية سماعه عن تعلق رجل كبير المقام والسلطة بها وطلب منها أن تكشف له عن هويته. «فاذا كان شجاعاً حسن السمعة فلا يهمل أصله وقوميته، مادام السيف في هذا العصر يمزج كل الشعوب ويجعلهم متساوين والاضطرار يجعل كل عمل شريفاً حيث الحق ضعيف، فعلياً أن نحمد الله إذا أخذ شكل الرقة». وعندئذ بعث الفتاة تدعو صديقها. وعرفته بأخيها وأظهرت بعدها تجاوباً معه أكثر من الماضي. وزاد عطفها عليه بالنسبة التي توثقت بها صداقته بأخيها. إلى أن أعتقد [التارنتي] بأن الضابط البروتي أصبح مهيناً لقبول العروض التي أعدها له، وأنه وهو الجندي المرتزق الواقع في اسر الحب، سيكون على اتم استعداد للرضا بالمكافآت السخية التي وعدها بها فابيوس، حسب الشروط التي سيتفق عليها.

(*) خسرها الرومان في ٢١٢ واستعادوها في ٢٠٩ ق.م.

والنتيجة تم عقد الصفقة، بتسليم المدينة للرومان. وهذه هي الحكاية الشائعة إلا أن بعضهم يرونها بشكل آخر. فيقول أن هذه المرأة التي أتخذت آلة لحمل [البروتي] على تسليم المدينة لم تكن [تارنتية] بل [بروتية] وانها جارية لفابيوس. ولكونها بروتية، وعلى سابق معرفة بحاكم المدينة البروتي فقد بعث بها سراً لإغرائه وإيقاعه في الشرك.

وعمد فابيوس إلى تغطية مساعيه هذه - صرفاً لانتباه هنيبعل إلى خطته - باصداره أمراً إلى الحامية الرومانية في [ريغيوم Rhegium] بأن تحتاح البلاد البروتية وتعيث فيها سلباً ونهباً وإن تلقي حصاراً على [كاولونيا Caulonia] وتكتسح الموقع بكل شدة وزخم. وكان قوام تلك الحامية ثمانية آلاف رجل هم أسوأ ما في الجيش الروماني ومعظمهم من الهاربين استاقهم مارچلوس^(٤٠) في صقلية بحالة غير مشرفة، ولم تكن خسارة هؤلاء بالأمر المزعج أو الاليم للرومان ولذلك القى بهم فابيوس طعماً لهنيبعل، لصرف انتباهه عن [تارنتوم] فابتلعه حالاً وساق قواته إلى كاولونيا. وفي الوقت نفسه كان فابيوس قد عسكر في طاهر تارنتوم والقى عليها الحصار وفي اليوم السادس منه تسلل الفتى التارنتي ليلاً من المدينة. بعد أن تفحص بدقة الموضع الذي كان مقرراً أن يدخل منه الرومان المدينة حسب الاتفاق مع القائد البروتي، وقدم تقريراً بالموضوع كله إلى فابيوس. الذي لم يجد من السلامة في شيء أن يعتمد اعتماداً تاماً على المؤامرة، بل أعطى الأمر بالهجوم العام براً وبحراً من الجهة الأخرى بينما كان يتقدم بقواته سراً إلى الموضع المتفق عليه - وفي الوقت الذي هرع التارنتيون لصد الهجوم عن المدينة، تسلّم فابيوس الاشارة في البروتي فتسلق الأسوار ودخل المدينة دون مقاومة.

وعليناً الإقرار هنا أن الطموح الجرمي تغلب عليه فيما يبدو. إذ اراد أن يظهر للعالم بأنه فتح تارنتون بالحرب، وبمجهوده العسكري لا بالخيانة والخدعة، فأمر رجاله بقتل [البروتيين] قبل الآخرين، إلا أنه لم ينجح في تثبيت هذا الانطباع كما رغب، ولم يحصل من جراه إلا على صفة القسوة والغدر. وقُتل عدد كبير من التارنتيين أيضاً وبيع ثلاثون ألفاً منهم في أسواق العبيد، وأعطى الجيش أسلاب المدينة، وجمي إلى الخزينة العامة بثلاثة آلاف تالنت من النقد. وفيما كانوا ينقلون الأموال المنهوبة سأل الضابط المتسلّم ما الذي ينبغي عمله بألتهم؟ يقصد صورها وتماثيلها فأجاب [فابيوس]: «فلندع للتارنتيين ألتهم الغاضبة» ومع هذا فقد حمل

(٤٠) لم يستقدم مارچلوس هذه القطعات العسكرية. والمسؤول عن استقدامها هو زميله [ليفيوس]. الأول غادر صقلية قبل الاستيلاء على سيراكوز في [ليفي ٢٦: ٤٠] العدد يخفض إلى اربعة آلاف كانوا يعيشون على كل انواع السرقات طوال اقامتهم في المدينة الصقليه «انما ترنا».

تمثال هرقل الضخم. ووضعه في الكابيتول الى جانب تمثال له على ظهر جواد، مصبوب من النحاس^(٤١). وهي أعمال تختلف كثيراً عن أعمال مارچيللوس في مناسبة مماثلة، أظهرت في الواقع انسانيته وطيبه للعالم، كما أوضحناها في سيرة حياته^(*).

قيل أن هنيبعل كان على بعد خمسة أميال عندما بلغه نبأ سقوط [تارنتوم] فأعلن قائلاً «لقد ظفرت روما أيضاً بهنيبعل، خسرنا تارنتوم مثلما كسبناها» وأسرَّ الى خاصته للمرأة الأولى بأنه كان دوماً يرى السيطرة على ايطاليا أمراً عسيراً أما الآن وبالقوات التي لديه، فهو يرى الأمر مستحيلاً.

وبهذا الفوز منح فابيوس امتياز موكب النصر في روما، وفاق بفخامته وروعته موكبه الأول^(٤٢) وأخذ الرومان ينظرون اليه كبطل مغوار تعلم كيف يقارع خصمه، ويحيط مكائده بسهولة ويصيب حذقه ومهارته بالعقم. والواقع هو أن جيش هنيبعل كان في هذا الزمن قد أصيب من جهة بالانهك لدوام خوضه الحروب، ومن جهة بالضعف والتفسخ الخلقي لإفراطه في الترف والشهوات. وقد ازعج [ماركوس ليفيوس Marcus Livius] التكريم والشرف الذي خلَّع على فابيوس. وكان هذا حاكم [تارنتوم] عندما سلمت غدراً الى هنيبعل، فأنسحب متحسناً في قلعتها وظلَّ ممتنعاً فيها حتى استعادها الرومان.

وفي احدي المناسبات صرح علنا امام مجلس الشيوخ إن الفضل في استعادة تارنتوم^(٤٣) يعود الى مقاومته أكثر مما يعود الى مجهود [فابيوس فرد] عليه ضاحكاً «لقد أصبت كبد الحقيقة. فلو لم يخسر [ماركوس ليفيوس] [تارنتوم]، لما استعادها فابيوس ماكسيموس». ومن آيات التكريم والاعتراف بالجميل التي أضفاها عليه الشعب، انتخاب ابنه^(٤٤) متصلاً للدورة السنوية التالية^(**). وبعد تسلمه مهام منصبه بفترة وجيزة، عرضت أمور تتعلق

(٤١) من صنع ليسيبوس [سترايو ٦].

(*) أغنى مارچلوس روما بالتحف الفنية الاغريقية التي أخذها من سيراقوسه في ٢١٢ ق.م ويختلف رأي ليفي عن المؤلف فيقول ان فابيوس فتك بالأهالي وحافظ على الآلهة أما مارچلوس فقد حافظ على الأرواح ولكنه نهب الآلهة.

(٤٢) بعد انتصاره على الليغوريين - انظر ما سبق.

(٤٣) ليفي، يبدو هنا أقرب الى المنطق والمعقول. فالفخر المعزى الى ليفيوس هنا وهو يكاد يحال الى المحاكمة، يظهر بعيداً عن الواقع. انظر كذلك شيشرون: الخطب ٦٧:٢.

(٤٤) يجانب بولتارخ هنا الدقة الزمنية أحياناً. فمن (ليفى) يبدو أن ابنه وكان يحمل اسمه بالضبط، قد انتخب قنصلاً قبل استيلاء الأب على تارنتوم بربع سنين، ويحفظ لنا [فاليريوس ماكسيموس] بهذه المناسبة دليلاً دامغاً على تواضع الأب فابيوس ووطنيته. فقد علّق على دوام انحصار المنصب القنصلي في أعضاء أسرته قائلاً أن هذا خطر قد يهدد كيان البلاد.

(**) في السنة ٢١٣ ق.م.

بشؤون الحرب يقتضى تصريفها فجاء الأب للقاء الابن ممتطياً جواده إما بداعي الشيوخوخة والضعف أو ربّما متقصداً بذلك لاختبار ابنه، ولحظ الابن ذلك وهو ما يزال بعيداً عنه بمسافة، فأمر واحداً من حرس اللكتور أن يطلب من أبيه الترجل وأن يقول له، إن كان لديه عملٌ مع القنصل فعليه أن يدخل ماشياً. وبدأ على المحاضرين الاستنكار لصفاقة الابن وتجاسره على أب يتمتع ببالح الاحترام لسنّه وسلطانه وتحولوا بانظارهم الى [فابيوس] وهم صامتون، فما كان منه إلا أن ترجل بسرعة وتوجه الى ابنه بمثل الركض وذراعه مبسوطتان وعانقه قائلاً:

- أجل يا بني! ونعم ما فعلت. لقد أحسنت فهم السلطة التي أودعت اليك، وعرفت حق المعرفة على من تمارسها. فتلك هي السبيل التي استخدمها أجدادنا الأولون لرفع شأن روما. مفضلين دوماً شرفها وحنقها على ابائهم وأولادهم^(٤٥).

والواقع أنه قيل عن والد جدّ فابيوسنا هذا^(٤٦) ما يشبه ذلك. فقد كان بلاشك أعظم الرومان في عصره سمعةً وسلطاناً، نصب قنصلاً خمس مرات، وشرف بالعدد من مواكب الظفر للانتصارات التي حازها. لم يراي بأس في أن يخدم برتبة ضابط تحت إمرة ابنه^(٤٧) عندما ذهب بوصفه قنصلاً الى تسلم القيادة^(*). وعندما منح الابن فيما بعد^(**) شرف الدخول في موكب النصر لحسن خدماته ركب الأب جواده خلف عجلة النصر كواحد من بطانته. فجعل من هذا مجداً له، إذ كان فعلاً أعظم الرومان على الاطلاق باقرار الجميع. كما انه يمارس سلطة الأب الكاملة على ابنه، ومع هذا خضع لحكم القوانين ولسلطة الحاكم.

على أن حمدنا ومديحنا بفابيوس لا يحد بهذا. فقد ابنه بعد زمن وكان مثار الاعجاب في تحمله الخسارة العظمى بوداعة تليق بأب فاضل وانسان حكيم. ومن عادة الرومان عند موت شخص كبير المقام أن يلقي أحد أقربائه الأذنين خطبة تابين، فقبل أن يقوم بهذا الواجب واللقى خطبة في [الفورم] سجّلها كتابةً فيما بعد.

بعد أن أرسل [كورنيليوس سكيبيو] الى اسبانيا وانتصر على القرطاجيين في عدة معارك

(٤٥) يقول ليفي [٢٤:٢٦] بعد أن مرّ بأحد عشر لكتوراً وهو على صهوة جواده. أمر ابنه اللكتور الثاني عشر بان يقوم بواجبه. إلا أن فابيوس الأب أسرع بترجل وهو يقول «اني لأرغب يا بني أن أعرف هل تدري بأنك قنصل؟ أم أنت لا تدري؟»

(٤٦) يقصد به فابيوس رولوس الذي ورد ذكره في أول السيرة. [ليفى ٨:٣٨].

(٤٧) هو كوينتس كوركيوس فابيوس هزمه السافيت. وكاد يعزل من منصب القنصلي لو لم يعد ابوه أن يقوم برعايته وتسدّد خطاه في حملته الثانية وان يستخدمه مساعداً له [انظر ليفي ٥:٩، وفاليريوس ماكسيموس ٧:٥].

(*) في ٢٩٢ ق.م.

(**) في ٢٠٥ ق.م.

وطردهم من تلك البلاد وحصل لروما على مدن وأراضٍ ذات موارد عظيمة، عاد الى الوطن فأستقبله الشعب باعظم مظاهر الغبطة والحبور وكانت حماستهم به لا نظير لها وأنتخبوه قُنصلاً للدورة السنوية التالية برهاناً على امتنانهم. وكان يدرك انهم يأملون منه أعمالاً جساماً، ولقد رأى بعد تفكير أن قضية المنازعة على ايطاليا مع هنيبعل، هي مهنة الشيخ العاجز، فأقترح لنفسه مهمة في غاية الخطورة وهي جعل قرطاجنة نفسها مسرح جرب، وملء وملء افريقيا بالجيش والسلاح ونشر الخراب في ارجائها. وبهذا يُرغم هنيبعل على الانسحاب للدفاع عن بلاده بدلاً من غزو بلاد الآخرين، وسعيًا وراء هذه الغاية بدأ يستخدم كل نفوذه وتأثيره على الشعب. إلا أن [فابيوس] عارض الفكرة بكل قوته، واقام المدينة وأقعدا قائلاً للرومان: لاشيء يوحى اليهم بهذه الآراء الخطرة إلا تهوّر وطيش فتى أهوج حارّ الرأس. ولم يدخر وسعاً للحيلولة دون تبني هذه الخطة بالقول والفعل. ونجح في اقناع الشيخ^(٤٨) بالانحياز الى رأيه إلا أن العامة أعتقدت أنه يغار من شهرة (سكيبيو) ويخاف أن ينجز الفاتح الشاب مأثرة عظيمة جليلة وربما يحرز شرف طرد هنيبعل من ايطاليا أو حتى انهاء الحرب التي ظلّت مستعرة عدة سنوات وكانت تحت ادارته تتعثر وتلكأ.

وإن شئت الحقيقة، فإن [فابيوس] عارض مشروع [سكيبيو] في مبدأ الأمر، بدافع الحذر والفتنة، جاعلاً نصب عينه سلامة المواطنين ليس غير والخطر الذي قد تتعرض له الجمهورية بالنتيجة. ولكنه أندفع أكثر فأكثر في معارضته بعامل المنافسة والطموح عندما وجد مكانته ترتفع عند الشعب يوماً بعد يوم، فأنقلب في معارضته عنيفاً جارحاً، شخصياً حتى بلغ الأمر به الى الإتصال بكراسوس Crassus القنصل زميل [سكيبيو] وحثه على التمسك بالقيادة في ذلك الاقليم وعدم النزول عنه لزميله^(٤٩)، بل عليه أن يقود الجيش بنفسه الى قرطاجنة إن أستقر رأيه على ذلك. كذلك أوقف دفع المال [لسكيبيو] لانفاقه على الحرب ولذلك أرغم على استدانته بكفالته وضمانته من مدن [اتوريا Etruria] التي كانت متعلقة به للغاية. وكان [كراسوس] من الجهة الأخرى لا يرغب أن ينبرى لمعارضته ولا مغادرة ايطاليا، فهو بطبعه يكره كل أنواع الخصام والمعارضة كما وأنه يقوم باعباء وظيفه الكاهن الأعظم ومن شأنها أن تبقية دائماً في البلاد.

(٤٨) بحسب المناقشات في مجلس الشيوخ بهذه المناسبة [انظر ليقي ٢٨: ٤٠-٤٤] تجد كذلك خطبتي سكيبيو وفابيوس. وهما من أطرف ما يمكن.

(٤٩) لم يكن (كراسوس) يستطيع قيادة الجيش خارج ايطاليا بحكم منصبه الديني إذ كان يتقلد وظيفة (الكاهن الأعلى) وعليه أن يبقى (تاكيتوس الحوليات ٤٢: ٧١). لذلك لم يكن من المحتمل ان يصّر فابيوس على طلبه ويصل به الى هذا الحد. وان بدا السبب هو حبس الضروري من الارزاق عنه. ويفصل ليقي في العون الذي ساهمت به المدن الصديقة: كيري، پوپولونيا، تاركويني، قولترا، أربسيوم وغيرها.

فحاول فابيوس وسائل أخرى لمعارضة المشروع وعرقل عملية النفي والتطوع وصرح في مجلس الشيوخ وأمام العامة أن [سكيبيو] فضلاً عن هروبه من وجه هنيبعل، يعمل على تجريد ايطاليا من كل قواها، وأختلاس شباب البلاد لزجهم في حرب خارجية تاركين وراءهم آباءهم وأولادهم وزوجاتهم والمدينة نفسها دون دفاع تحت رحمة عدو فاتح منتصر على ابوابهم. بهذا كله أثار قلق الجمهور، الى حد لم يسمحوا لسكيبيو أخيراً إلا باستخدام الفرق المعسكرة في صقلية للحرب، مع ثلاثمائة محارب يثق بهم ثقة خاصة كانوا قد خدموا تحت امرته في اسبانيا. ويظهر أن [فابيوس] إتبع في هذه الإجراءات ما أملاه عليه طبعه الحذر.

ولكن؛ ما ان نزل سكيبيو البرّ الافريقي، حتى بدأت (*) الأنباء ترد الى روما عن الانتصارات العجيبة والأعمال الرائعة التي يأتيتها. وقد أيدت وصفها الغنائم التي ارسلها الى الوطن، ووقوع ملك نوميدي^(٥٠) في الأسر، والمقاتل العظيمة في رجالهم. وحرقت وتدمير معسكرين للعدو بما فيهما من كميات كبيرة من الأسلحة والخيول، وعندما اضطرت هذه الكوارث القرطاجينين، الى ارسال وفد لهنيبعل تطلب منه العودة الى الوطن وصرف النظر عن آماله العقيمة في ايطاليا ورحل منها (***)، لأجل الدفاع عن قرطاجنة، هللت روما وكبرت وعظمت اعمال [سكيبيو] وخدماته الجليلة. ولم يكن لهذا كله تأثير على موقف [فابيوس] حتى أنه ارتأى أن يستبدل [سكيبيو] بخلف يحل محله، متخذاً من «تقلبات الخط» وهو السبب القديم سنداً لادعائه، حتى لكأن آله الحظ سيدركها الملل في ايثارها الشخص نفسه ببركتها! بهذه اللهجة بدأ عدد كبير من الناس يرتابون في اقواله ويستنكرونها منه. وبدت وكأنها سوء نية وتشاؤم، وخور نفس متأت من كبر السن أو خوف من ذكاء هنيبعل مبالغ فيه. بله عندما عبأ هنيبعل جيشه في السفن وغادر ايطاليا، لم يستطع أن يمسك نفسه عن المعارضة وتعكير فرح روما العام، مصرحاً بمخاوفه، وشكوكه قائلاً لهم أن الجمهورية لم تقع في خطرٍ مثلما هي فيه الآن وأن هنيبعل أقوى حراساً داخل اسوار قرطاجنة مما كان في ايطاليا. وان [سكيبيو] سيقضى عليه القضاء المبرم إذا ما أشتبك بمعركة مع جيوشه المنتصرة التي ما زالت تشعر بحرارة دماء العدد العديد من جنرالات الرومان ودكتاتورهم وقناصلهم

(*) في السنة ٢٠٤ ق.م.

(٥٠) وقع سيفاكس في الأسر [ليقي ٣٠: ٥ و ١١] بعد حرق معسكره ومعسكر هسدروبال. وهلك اربعون الفاً من الاعداء بالنار وبعث السيف وأسر أكثر من خمسة آلاف بينهم عدد كبير من نبلاء قرطاجنة. مع أحد عشر شيخاً، وغنمت مائة واربع وسبعون راية وأكثر من الفين وسبعمئة حسان نوميدي. وستة من الفيلة وقتل ثمانية. مع مقادير كبيرة من الأسلحة.

(**) في السنة ٢٠٣ ق.م.

الصرعى. وأجفل الشعب الى حدٍ ما، بهذه التصريحات حتى بدأوا يعتقدون أن الخطر أقرب اليهم كلما كان هنيبعل. أبعد عنهم. على أن [سكيبيو] لم يعتم أن قاتل هنيبعل والحق به هزيمة نكراء، وسحق عظمة قرطاجنة تحت قدميه^(٥١)، ومنح بني قومه ما صبوا اليه من غبطة وسعادة فاقت آمالهم وثبتت قواعد امبراطوريتهم التي أضحت مهزوزة مضعضة بكثير من العواصف.

على أن فاييوس ماكسيموس لم يعيش ليرى نهاية هذه الحرب السعيدة وسقوط هنيبعل النهائي، ولا ليفرح لعودة الحياة المطمئنة السعيدة الى الجمهورية. ففي حوالي الزمن الذي غادر هنيبعل إيطاليا^(٥٢)، سقط مريضاً وتوفي^(*). في [تبيه] قضى [إيامنداس] نحبه فقيراً لا يملك شروى نقيب حتى انه دفن على نفقة العامة. وقيل انه لم يعثر في داره إلا على قطعة نقد واحدة صغيرة القيمة. ولكن فاييوس لم يكن بحاجة الى هذا فالشعب نفسه تكفل بنفقات تشييعه باكتتاب خاص ساهم فيه كل مواطن باصغر قطعة نقد كدليل على حبهم له^(٥٣) وبهذا أعتبروه والدهم العام وجعلوا مآته لا يقل شرفاً عن حياته.

اهم الاحداث العالمية في زمنه

٢٠٧ ق.م: اسد روبال في طريقه لنجدة هنيبعل - يهزم ويقتله كلوديوس نيرو.

٢٠٢ ق.م: يتغلب سكيبيو افريقانوس (الأكبر) على هنيبعل في موقعة زاما Zama بافريقيا.

٢٠٠ ق.م: بدأت الحرب المقدونية الأولى وأستمرت اربع سنين تقريباً.

(٥١) لاشك ان بليوتارخ يشير الى السفراء الشيوخ الذين ارسلوا الي سكيبيو عارضين عليه الصلح. اذا ما ان بلغوا خيمة الجنرال حتى انبطحوا على الأرض أمام قدميه جرياً على ما اعتادوه في بلادهم (ليني المرجع السالف) وثم حادثة اذلال مشابهة لزعماء المدينة العشرة الذين ارسلوا بعد معركة زاما Zama الكبرى، لعقد الصلح. [انظر أيضاً بوليبيوس ١٥].

(٥٢) بعد ذلك بقليل اتم هنيبعل انسحابه من إيطاليا وكان ذلك في ٢٠٤ ق.م. لابد وان (فاييوس) اصبح الآن شيخاً هرمًا. فقد قال ليني معتمداً على من الكتاب انه ظل في منصب الكهانة اثنتين وستين سنة متوالية.

(*) في السنة ٢٠٢ ق.م.

(٥٣) يجب أن يكون المبلغ ضخماً جداً. فقد بلغ تعداد المواطنين الرومان في السنة التالية (٢١٤٠٠٠).

[فولفيوس Fulvius وأبيوس Appius]. ولم أجد معركة فاصلة واحدة أنتصر منها فاييوس باستثناء معركة مع [الليغوريين Ligurians] التي كوفيء عنها بموكب ظفرٍ. في حين نجد بيركليس قد أقام تسعة أنصابٍ لتسعة انتصارات نالها براً وبحراً. إلا أننا لانجد عملاً لبيركليس يمكن مضاهاته بمأثرة انقاذ [مينوشيوس] الخالدة. عندما انتشل فاييوس جيشه وشخصه من هلاك محقق، انه لعمل جليل أمتزج فيه الاقدام بالحكمة والانسانية. ويبدو من جهة أخرى أن بيركليس لم يعان ما عاناه [فابيوس] من هنيئيل بثيرانه الملتهبة. فقد وقع عدوه تحت رحمته دون مجهود منه وبمحض الصدفة، ومع ذلك فقد تركه ينسل انسلالاً من قبضته في جنح الليل، وعندما انبلج الصبح تعرض لأذاه واستبقه في ساعة النصر، وسيطر عليه أسيره بالأمس. وإذا كان من صفات القائد الجيد أن لا تقتصر نظراته على الحاضر، وإنما أن يتصف ببعد نظر فيما يستقبل من الزمان، فلا شك أن بيركليس يتفوق على فاييوس من هذه الناحية. لأنه حذر الآتئين وأنذرهم مسبقاً، بويلات الحرب وبما سيُجر عليهم طمعهم في ما يزيد عن مقدرتهم على ادارته. ولم يكن [فابيوس] بهذه المقدرة على التنبؤ عندما أخذ على الرومان تحمسهم لخطة [سكيبيو] ووجد فيها خراب الجمهورية. ولهذا كان بيركليس متنبئاً حسناً لنجاح سيء، وكان فاييوس متنبئاً سيئاً لنجاح حسن، والواقع أن خسارة منفعة بسبب فقدان الثقة في النفس ليست بأقل لوماً، من الوقوع في خطر بسبب الافتقار الى بعد النظر، على العموم. فكلما التقصتین مع اختلاف طبيعتيهما تنبعان من جذر واحد، هو الافتقار الى الخبرة واصالة الفكر.

وأما من الناحية السياسية فقد عزي الى بيركليس اثاره الحرب، عندما لم يقنع بالشروط التي عرضها اللقيديميونون عليه. الحق يقال ان فاييوس أيضاً لم يكن بالذي يتنازل للقرطاجيين عن أية نقطة بل كان مستعداً للمجازفة بالكل ولا يرضى باقتطاع جزء من الامبراطورية الرومانية. إن طيبة فاييوس وحسن معاملته لزميله [مينوشيوس] تدين - بطريق المقارنة ومحاولات بيركليس لنفي [سيمون وتوكديدس] الرجلين النبيلين الارستقراطيين، اللذين حكم عليهما بالنفي والتشريد بمسعى منه. ولقد كانت سلطة بيركليس في أثينا أوسع وأعظم من سلطة فاييوس في روما. ولذلك كان أسهل عليه أن يحول دون الارهاصات الناجحة عن اخطاء ضباط آخرين وقلة كفاءاتهم، ولم يخرج أحد عن أمره غير [تولميدس]، فقد قاتل [البويوتيين] خلافاً لرغبة بيركليس ونصحه، فقتل. إن قوة نفوذه جعل الآخرين يخضعون لحكمه ويطيعون أوامره. في حين ان فاييوس الواثق من حجته وصحة حكمه لافتقاره الى السلطان الواسع - لم يملك الوسائل الكفيلة باصلاح هفوات الآخرين. ولقد كان من حسن حظ

أوجه المقارنة بين فاييوس وبيركليس

لدينا هنا سيرتان غنيان بالأمثلة، كلاهما ضربتا بالقدر المعلى في الحنكة السياسية والعسكرية، ولنقم الآن أولاً بمقارنتهما من جهة الكفاءة الحربية... ترأس بيركليس جمهوريته عندما كانت في أرفع درجة من الازدهار والرخاء، عظيمة السلطان منيعة الجانب، لذلك قد يتوهم ان نجاحه هو نجاح اعتيادي وحسن طالع حفظه من كل عثار أو كارثة.

إلا أن مهمة فاييوس الذي اضطلع باعباء الحكم في أخرج الأوقات وأصعبها لم يكن ملزماً بمحافظه وترصين دولة ثابتة الاركان مزدهرة الأحوال يرفل سكانها في بحبوحة من العيش. فضلاً عن أن انتصارات [كيمون] وغنائم النصر التي جاء بها [ميرونيديس وليوقريطس] مع العديد من مآثر [تولميدس] الشهيرة، إستخدمها بيركليس أساساً في ملء المدينة بمظاهر الافراح واللهو والحفلات الدينية أكثر من أستخدامه لها في توسيع وتوطيد دعائم امبراطوريتها. في حين وجد فاييوس أمامه عند توليه الحكم حالة ترتعد لها الفرائص. من جيوش رومانية ابيدت. وجنرالات وقناصل لها قتلوا، وبحيرات وسهول وغابات مملوءة بجثث القتلى. وأنهار أختلط ماؤها بدماء بني قومه. ومع هذا، فبأحكامه الناضجة الرصينة وقوة ارادة فيه لا تتزعزع. كان كمثل من أسند بكتفه جدار الجمهورية المتقوض ومنعه من الإنهيار، بسبب ضعف واخفاق الآخرين وربما كان أسهل على المرء أن يحكم مدينة روضها الزمان واناخ عليها بكوارثه وبلاياه، وأرغمها الخطر المحقق على الاصغاء لصوت العقل، من أن يسرح سرجاً على الطيش والجموح، وحكم شعب نعموا بعهد طويل من الاستقرار والرخاء كالاتيينين عندما أمسك بيركليس بأعنة الحكم. ولكن الشجاعة في فاييوس، وقوة ارادته الفائقة للعادة لم تقف حائرة خائرة امام مخلفات الكوارث المكدسة التي كان أهالي روما يومئذ يرزحون وئبنون تحتها.

ويجوز لنا أن نضع استعادة تارنتوم أمام عمل بيركليس بجزيرة [ساموس]. وان نعاذل فتح [ايوبيا]، بفتح مدن [كامپانيا]، وان كان إخضاع [كاپوا] بالذات قد تم على يد القنصلين

الرومان لو أعطى سلطة أوسع، عندئذ ستقل الكوارث التي حلت بهم - على ما نعتقد.
أمّا عن الجنود والبذل العام فقد أشتهر بيركليس بعدم قبوله اي هدية، وأشتهر فابيروس
بافتداء الجنود الأسرى بماله الخاص وان لم يزد المبلغ عن ستة تالنتات. وفي الوقت نفسه لم
يكن أحد كپيركليس يملك الفرص للشراء فقد عرض عليه الملوك والأمراء والحلفاء الهدايا
الشمينة، ومع هذا لم يكن هناك أعفّ منه وأبعد عن الفساد، ويجب الأقرار هنا أن جمال
المعابد والمباني العامة الفخمة التي زين بها بيركليس بلده لا تضاهيها في الرواء والهندسة
كل ما بني وأقيم في روما من تأسيسها حتى أيام القياصرة وهو واحدٌ وهم كثيرون.

الکلبیادس
ALCIBIADES

450 _ 404

الجمال بقي زاهراً طوال حياته ولازمه منذ حدثته وشبابه حتى رجولته، منسجماً مع كل مرحلة من مراحل عمره انسجماً عجيباً، ومكسباً شخصه جلالاً وسحراً ومع أن قول [يوريبيدس]:
«جمال الخريف، جميل أيضاً»

لا يصدق بشكل عام، إلا أنه حقيقة واقعة في [الكيببىداس] من بين القلة التي انطبق عليها القول. وهذا يعود الى جمال تكوينه وممتانة بنيته الطبيعية. ولقد قبل ان لثغة لسانه كانت تزيد من حلاوة نطقه، وتضفي على حديثه المتسارع طابعاً جذاباً، وشعوراً بالثقة والافتقار. وقد اثبت [ارسطوفانس] ذلك في الأبيات التي نظمها بالتندر على [ثيروروس Theorus] قال: «قال الكيببىداس: لكم هو شبيهه (بكولاكس Colax) قاصداً [كوراكس Corax = الغراب]، ثم يعلق الشاعر على هذا قائلاً: «ما أجمل ما يلثغ بالحقيقة!»

كذلك يشير [ارخيبيوس] (٤) الى هذه اللثغة في قصيدة يسخر بها من ابن الكيببىداس: «ولكي يتوهمه الناس صنو أبيه وشبهه تراه يمشي وكأنه مجبول بالنعمة غارق في الترف تاركاً أهداب ثوبه تجرجر على الأرض خلفه. ويحني رأسه بقلة أكثرات ويتصنع اللثغة في حديثه.

ويدا في سلوكه مفارقات ومتناقضات بحسب تقلبات الزمن العجيبة المتعددة له. على أن الطموح ورغبة الاستعلاء كانت من أبرز النزاع التي تدمغ شخصيته بطابع قوي، وبدت منها لمحات في أقواله وتصرفاته أيام كان صبياً. فمرة ضايقه خصمه في مباراة مصارعة، ولما تبين أنه سيطر أرضاً عضاً يد خصمه بكل قوته فأرخى في الحال قبضته عنه وقال «اراك يا الكيببىداس تعض كالمرأة» فردّ عليه «لايل كأسد!» وفي مناسبة أخرى كان يلعب الزهر مع اتراب في عرض الشارع وهو بعد صبي يافع، فأقبلت عربية حمل نحوهم، وكان قد حان دوره لالقاء الزهر فأهاب بالسائق أن يقف لأن رميته ستكون في طريق مرور العربية، فلم يكتنر الرجل بقوله وواصل السير فأفسح بقية الصبيان للعجلة وانسحبوا إلا [الكيببىداس] فقد انبطح على الأرض امام العربية ووجهه الى أسفل متحدياً السائق ان يمرّ ان استطاع. ففرع الرجل ويبادر الى شدّ أعتنه الخيل وايقافها، وشاع الخوف في نفوس المستطرقين وأخذوا يتصايحون وهرعوا لإقالة الصبي.

وتميزت معاملته لمعلميه بالطاعة - عندما بدأ يتلقى أصول العلم. إلا أنه أبى ممارسة النفخ بالناي (٥)، وعده مهنة وضيعة لا تليق بالمواطن الحرّ. وحثه في هذا ان العزف على العود أو

(٤) أحد كتاب الكوميديات الأقدمين.

(٥) هذا ما جاء ارسطو الى ذكره في [السياسة] فقد بحث ببعض اسهاب فوائد دراسة الموسيقى ومضارها.

المعروف عن [الكيببىداس] أنه منحدر بالأصل من نسل (١) [ايثريسكي Evrysaces] (*) ابن [أجاكس] من جهة الأب، ومن [الكيمون] من ناحية الأم. ووالده [دينوماخي Dinomache] هي بنت [ميغاكلس] وابو [كلينياس Clinias] الذي جهز سفينة على نفقته الخاصة، نال أعظم الشرف في المعركة البحرية بالقرب من [ارتميسيوم] (٢) وقتل فيما في موقعة [كورونيا Coronea] (***) ضد [البويوتيين].

وكان [بيريكليس] و[اريفرون Areiphron] ابنا [كزانتبيوس] يتصلان به بنوع من القرابة من ناحية أوصيائه، وفي رواية لا أراها تخلو من الحقيقة، ان شعور الود الذي كان يحمله له [سقراط] يرجع غالباً الى ما ذاع عنه ومع أننا لا نجد كاتباً واحداً بين الكاتبين يذكر لنا خبراً عن والدة [نقياس Nicias] أو [ديموستينس] اللأماخسي، أو [فورميون Phormion] الثراسيبولي [Thrasylbulus] وكلهم رجال ذاع صيتهم في تلك الفترة، فاننا نعلم أشياء حتى عن مرضع الكيببىداس، فأسمها [أميكللا Amykla] وهي من لقيدميون. ونعلم أيضاً ان [زوپيروس Zopyrus] (٣) كان معلماً ومرافقاً له والخبر الأول جاءنا من [انتستينس] والثاني أورده [أفلاطون].

ومن النوافل هنا أن نتحدث عن جمال الكيببىداس، ويكفي القول في هذا الصدد أن هذا

(*) افلاطون: الكيببىداس: ١.

(**) في السنة ٤٨٠ ق.م.

(١) شهد عدد كبير من أفاضل المؤرخين بعراقة اسرته ونبيل محتده، وكادوا يجمعون كافة في الاتفاق على الخطوط العامة لسيرته مع أختلاف طفيف في الجزئيات. ان جد ميغاكلس المذكور في المتر، كام قد تزوج (اغاريسي) بنت (كلستينس) طاغية سيكيون. وانحدر من [الكيميون] الذي أشتهر اسلافه منذ عهد [تقيفسن] مع العلم ان [خزانتبيوس] والد [بيركلس] تزوج اغاريسي ثانية هي بنت عم الأولى.

(٢) انظر هيروودوتس [٨:١٧] إن معركة (كورونيا) التي قتل فيها. انما وقعت في السنة الثانية من الاوليبياد الثالث والثمانين [ديودورس المرجع السالف ١٢:٦]. وكانت من أعظم النكبات التي حلت بالآثينين. فالقسم الأعظم منهم بات بين قتيل أو أسير. وصرع جنرالهم [توليدس] وقامت المدن البويوتية المستسلمة العديدة بافتداء الأسرى.

(٣) يحدثنا افلاطون في رسالته [الكيببىداس: ١] أن [زوپيروس] هذا، هو عبد تراقي أبى طاعن في السن.

المزهر لا يحدث تشويهاً في جسم المرء أو وجهه بأية حالٍ من الأحوال، لكن النافخ بالناي يكاد لا يعرف حتى من أقرب اصداقائه عندما يقوم بالعزف. زد على هذا أن العازف على المزهر يستطيع ان يغني أو يتكلم أثناء عزفه، لكن استعمال الناي يؤدي الى اطلاق الفم وحبس الصوت ومنع اللسان عن النطق...

«فلندع اذن النفخ بالناي لشبانٍ [ثيبه] الذين لا يعرفون كيف يتكلمون. أما نحن الآثينيين فلدينا - كما قال لنا أجدادنا - الربة [منيرفا] حاميةً والربّ [اپوللو] حامياً، الأولى نبذت الناي وعافتة، والثاني سلخ جلد النافخ به^(٦)» وهكذا عمل [الكيببادس] بين جدّه وهزله على التخلص من ممارسة نفخ الناي، وغرس في الآخرين كرهه أو أن الشبان راوحوا يتحدثون عن احتقار الكيبباديس له وسخريته بمن يتعلمه، فسقط هذا الفن وأهمل بصورة عامة.

وفي النقد الشديد الذي ألقاه [انتيفون Antiphon]^(٧) ضدّ الكيببادس، ذكر أنه هرب في حدائته مرةً ولجأ الى منزل [ديموقريطس] وكان هذا ممن أختص به وصاحبه. فعزم انتيفون التشهير به على الملأ، وهم بذلك لو لم يشنه [پيريكليس] بقوله: «إن كان قد مات فالتشهير به لن يعجل بالعثور عليه أكثر من يومٍ واحدٍ. وإن كان حياً سألماً فسيكون عمك سبباً له طوال حياته». ويقول [انتيفون] أيضاً، انه قتل واحداً من خدمه بضربة عصا في نادي سيرتيوس Sibyrtius للمصارعة. لكن ليس من المعقول أن نصدق كل ما يتخرص عدوه عنه، بعد اقراره علناً أنه عازمٌ على تشويه سمعته.

ولم يمرّ وقت طويل حتى أخذ الكثير من ذوي الحسب والوجاهة يتنافسون دوماً على مصاحبته ووصاله، انما كان يجتذبهم منه ألمعيته وجماله الفتان اللذين فاقتا العادة. على أن حبّ [سقراط] العظيم له، يصحّ أن يتخذ شاهداً قوياً على سجايا الفتى النبيلة وخلقه الحميد، وقد تمكن هذا الفيلسوف بنفاد بصيرته من الكشف عنها في جمال خلقته، وفي مواطن سريرته. فقد وجد أن مقامه وثراه والعدد الكبير من الآثينيين والأجانب يتملقونه ويمتدحونه، أمور قد تؤدي الى افساده، ولذلك قرر أن يتدخل في أمره ما وسعه ذلك للمحافظة على نبتة تبشر بأعظم الخير لئلا تذبل وهي ماتزال زهرة لم تنضج ثمرتها. فالحظّ لم يسعد أحداً كما أسعد الكيببادس ولم يحظه كما احاطه بالكثير مما يدعى باللغة الدارجة «أموالاً». أو حماه

(٦) يشير افلاطون الى هذه العقوبة التي انزلت بـ(مارسياس) لكنه يعزو اسبابها الى أمور أخرى. وفضلاً عن هذا فإن الربة [آثينا منيرفا] القت بالناي جانباً بعد أن شاهدت خديها المورمين المتقرحين منعكسين على صفحة ماء النبع. وغلب (اپوللو) المسخ (مارسياس) في مباراة على العزف فسلك المغلوب حياً.

(٧) سفسطي العقيدة. عاش في أيام سقراط. وورد ذكره عند كزنيون في (الميمواريليا ١) وهو بصدد مناقشة هذا الفيلسوف. ولا وجود لهذه المحاوره وربما عزي ذلك كذباً الى [انتيفون].

من كل سلاح من أسلحة الفلسفة أو حصنه من أي غائلة من غوائل الطعن والتجريح. فقد كان من البداية هدفاً لتملق الذين لا يبتشرون غاية سوى ارضائه. مما كان يعمل على أضعاف نفسه، ويكرهه بنصيحة اي ناصح أو واعظ صادق النية. ويشاء حظ عبقريته أن يستخلص له [سقراط] صديقاً من دون الجميع. فلصق به وأجتوى الاغنياء وأكابر القوم المتكالبين على صحبته، وما عتم حبل الودّ أن توثق فيما بين الاثنين بشكلٍ لا انفصام له. وأنقلب حال [الكيببادس] فصار يعير أيضاً صاغية لكلّ حديث خلا من التهتك وفكرة العشق المخنث ومظاهر التودد السخيفة المتبدلة، وعرف حق المعرفة إنه يعاشر إنساناً هدفه الكشف له عن نواقصه العقلية، وقمع تعاليه الباطل المتبذل فمالث: «عرّفه أن نام وذهبت كبرياؤه وتهدل جناحه كالديك المغلوب»

ووقعت مجهودات سقراط في نفسه موقع التقدير العظيم بوصفها أصحّ الوسائل التي تلجأ اليها الآلهة لإصلاح الشباب والعناية بهم. وعاد يحترق ذاته، ويعجب بسقراط، ويدخله الفرح للعطف الذي يلقاه منه. ويقف موقف الخاشع من فضائله، وبدأ دون أن يشعر، يكوّن في ضميره صورة انعكاسية متبادلة للحب و «لأنتيروس Anteros» الذي تكلم عنه افلاطون. وكان موضع دهشة عامة إذ رآه الناس يشارك سقراط طعامه ونزهاته ويساكنه خيمته، بينما أخذ يظهر صدوداً وتحفظاً تجاه كل من يحاول انشاء صلة به. ووصل صدوده من هؤلاء حدّ الخشونة والمعاملة المهينة القاسية، ويذكر بنوع خاص معاملته لأنتيوس Anytus ابن [انثيميون Anthemion] الذي كان مغرمًا به الى حدّ الوله. ودعاه هذا الى وليمة كان قد أعدّها لبعض الأعراب فرفض [الكيببادس] دعوته. إلا أنه أفرط في الشراب في منزله مع أصحاب له، وخرج ثملاً يقصد محل الوليمة ليلعب لعبة مزاح. ووقف عند باب الغرفة حيث المدعوون في قصفهم ولهوهم ونظر الى الموائد وقد تكدست فوقها اقداح الفضة والذهب، فالتفت الى خدمه وأمرهم أن يجمعوا نصفها ويحملوه الى بيته ثم غادر المنزل^(٨)، مترفعاً حتى عن الدخول الى غرفة الوليمة وعصفت سورة من الغيظ في نفوس الجماعة، وراوحا يندرون بمسلكه الشائن المهين، لكن انتيوس اسكتهم قائلاً انه لا يتفق معهم في هذا، وان الكيببادس أظهر كياسةً وحسن تصرفٍ عظيمين اذ أخذ الجزء بينما كان يستطيع أن يأخذ الكل!

وكان سلوكه هذا واحداً مع جميع عاشقيه الذين يريدون وصاله، إلا أجنبيّاً واحداً كان كما

(٨) يقول [آثينيوس] انه لم يأخذها لنفسه. لكنه انتزعها من صديقه الغني ليعطيها [تراسيلوس] الفقير. وهو ما يخفف من وقع الحكاية الى حدّ ما. كان انتيوس أحد الرؤوس الذين وجهوا الاتهام لسقراط فيما بعد.

تروى الحكاية يملك عقاراً صغيراً ليس له غيره فباعه بمبلغ يناهز مائة (ستاتر)^(٩)، وقدمه لالكيببىادس ورجا منه قبوله فابتسم الكيببىادس مسروراً بهذه المبادرة ودعا الى العشاء وبعد أن أكرمه وأحتفى به أعاد اليه ذهبه وطلب منه الحرص على الحضور في اليوم الثاني عندما تعرض جباية الضرائب العامة للمزايدة وان يتدخل بين المزايدين ولا يكف عن رفع السعر. فطفق الرجل يعتذر لأن المبلغ المطلوب جسيم للغاية وقد يبلغ كثيراً من التالنتات. إلا أن [الكيببىادس] الذي كان في ذلك الحين يحقد حقداً خاصاً على متعهدي الجباية الحاليين - هدّد الرجل بالضرب إن هو رفض طلبه. وفي اليوم التالي حضر الغريب ساحة السوق وزاد تالنتاً واحداً على السعر الحالي. فثار غضب الجباة ثم أخذوا يتشاورون فيما بينهم وتوجهوا نحوه طالبين منه تسمية التأمينات التي ثبت أهليته، مستنتجين بأنه لن يجد أي ضمانٍ. فافزعه هذا الطلب وبدأ يتراجع ولكن الكيببىادس الذي كان واقفاً عن كئيب نادى الحكام قائلاً: «ضعوا أسمى الى جانب اسمه. انه صديق لي وساكون ضامناً له». ولما سمع المزايدون الآخرون ذلك، ادركوا أن محاولتهم هذه قد أخفقت. وكانوا في محنة لأنهم ارادوا بارباح السنة التالية أن يدفعوا بدل تعهد السنة السالفة. ولم يجدوا مخرجاً من ورطتهم هذه إلا بالرجاء من الرجل الغريب وتقديم مبلغ من المال. ولم يرض الكيببىادس له بأقل من [تالنت] واحد، وعندما دفع له ذلك أمره بكفّ يده عن المزايدة، وبهذه الحيلة أخرجته من ضيقه المالي.

ومع أن [سقراط] كان له كثير من المنافسين الأقوياء. فان سجايا الكيببىادس الخلقية الطيبة أعطت صداقته السيادة على كل المنافسين. كانت كلمات الفيلسوف تؤثر فيه أعظم تأثير حتى تستدر الدموع من عينيه، وتهز نفسه هزاً عنيفاً. على أنه كان في بعض الأحيان يستمريء تملق المتحلقين عندما يزينون له تعاطي مختلف الملذات، فيترك [سقراط] الأ أن الفيلسوف يتبع آثاره كأنما يطارد عبداً أبقاً. وكان السيببىادس يحتقر الناس ولم يحترم أو يجلّ أحداً سواه. ويقول الفيلسوف [كليانثس Cleanthes] في معرض حديث له عن شخص كان لصيقاً به: إن اذنيه هما مجال تأثيره الوحيد فيه، بينما كان منافسوه على صداقته يملكون منه سائر المجالات الأخرى للتأثير فيه. وليس من سبيل للشك في أن (الكيببىادس) كان ضعيفاً للغاية أمام مباحج الحياة سهل الوقوع في حبائلها. وان العبارة التي استخدمها ثوكديدس لوصف سبيل العيش المفرط في الملذات الذي اختطه الكيببىادس يؤكد هذا الاعتقاد إلا ان الذين حاولوا افساده استفادوا بالدرجة الأولى من نزوعه الى الطموح والغرور ليدفعوا

(٩) عملة (ستاتر) تزن اربع دراخمتات آتيكية. وقد تكون من الذهب أو الفضة. والفضة منه تعادل قيمته دولاراً امريكياً واحداً على وجه التقريب. أما (ستاتر داريكوس) فهو النقد الذهبي الآتيكي ويجب أن يكون أعلى قيمة من هذا بكثير اذا ما حسبت نسبة تحويل الذهب الى فضة بواحد الى عشرة.

به قبل الآوان الى ركوب أعظم المغامرات. وأقنعه بأنه ما أن ينصرف الى الشؤون العامة حتى تكسف شمسه شمس كل السياسة والقادة، بل سيفوق بيريكليس شهرة وسلطاناً في بلاد الأغرقيق. وكثيراً ما لاحظ سقراط مع هذا - أن مثل الكيببىادس كمثل الحديد تليينه النار وتصلبه البرودة وتشدّ أجزاءه ثانية. تضله الكبرياء والتترف سواء السبيل، ليعود نادماً مصححاً أخطاه بنصائح الفيلسوف، ويستقيم ويتضح عندما يوضح له النقائص الكثيرة التي فيه، وكم هو بعيد عن كمال الأخلاق.

عندما اجتاز دور الحداثة قصد مرة مدرسة للنحو وطلب من الاستاذ أحد كتب هوميروس. ولما أجابه انه لا يوجد شيء من مؤلفات هوميروس، أهوى عليه بلكمةٍ وخرج. ومرة قال له معلم آخر أنه نقح آثار هوميروس بنفسه. فقال الكيببىادس:

- كيف؟ وهل تصرف وقتك في تعليم الصبيان القراءة؟ أنت الذي تتمكن من تصحيح هوميروس ما أجدر بك أن تثقف الرجال.

ورغب يوماً أن يبادل بيريكليس الحديث فقصد منزله فقيل له أن بيريكليس ليس فارغاً له، لأنه مشغول في التفكير بكيفية تقديم تقرير باعماله للآثينيين فقال الكيببىادس وهو ينصرف خير له أن يفكر في كيفية يتجنب بها تقديم أي تقريرٍ ما.»

وفي مطلع شبابه كان جندياً في الحملة التي جردت على [پوتيديا] (*) وكان سقراط يساكنه في عين الخيمة، ويقف في المعركة الى جانبه. ومرة حصل اشتباك عنيف، أبديا فيه شجاعة عزّ نظيرها إلا ان الكيببىادس أصيب بجرح ووقف سقراط حاجزاً امامه يحميه، ولم يساور الشكّ أحداً في أن هذا العمل أنقذ صديقه مع سلاحه من الوقوع في يد العدو وكان العدل يقضي أن يمنح سقراط جائزة البسالة لعمله هذا. إلا أن القادة مالوا الى منح الكيببىادس هذا الشرف بسبب مركزه الطبقي. وكان سقراط يرغب في أن يزيد من تعطشه الى المجد النبيل القصد، فأنبرى أول شاهد له، والحّ عليهم لضفر أكليل الغار على رأسه وخلع شكة سلاح كاملة عليه. وبعد هذا، لما هزم الآثينيون في موقعة [دليوم Delium] (١٠) وفيما كان سقراط مع فلول قليلة العدو تتراجع ماشيةً، اذ لمح الكيببىادس وكان على صهوة حصانه، فلوى عنانه ولم يمض عنه بل وقف ليحميه من الخطر، حتى نقله سليماً معاني رغم أن زخم الهجوم كان شديداً

(*) في العام ٤٣٢-٤٣١ ق.م.

(١٠) يخبرنا [لاخييس] الذي كان ملازماً سقراط في ذلك الحين ان الآثينيين ما كانوا ليهزموا لو وقف ساثرهم الوقفة التي وقفها سقراط وصمدوا وادوا واجبههم مثله [ثوكيديوس ٢:٢، ٤:١٠]. ان افلاطون الذي نقلنا عنه هذه الرواية عن حادث (پوتيديا) يزعم اثينيوس بأنه أختلق هذه الرواية على كل ليكرم ذكرى استاذه. وهذه المعركة جرت في الالبياد التاسع والثمانين اي بعد وقعة پونيديا بثماني سنوات.

عليهم والمقتلة فيهم عظيمة. على أن ذلك حصل بعد زمن بعيد.

ومرة صفع [هيپونيوكوس Hipponicus] والد كالياس Callias وهو رجل عظيم الشأن كبير المقام لنسبه العريق وثرائه، فعل ذلك دون سبب أو استفزاز أو سورة غضب مفاجئة، أو خصام نشأ بينهما. بل لأنه تراهن مع صديق له في لحظة مزاح، بان يقدم عليها. وسخط الناس سخطاً شديداً على هذا الاعتداء عندما انتشر خبره في المدينة. إلا أن الكيببidas قصد منزل هيپونيوكوس في صباح اليوم الثاني الباكر وطرق الباب، فسمح له بمواجهة المعتدى عليه، وهناك بادراً الى خلع رداءه الخارجي وعرض جسمه العاري له ليجلده ويعاقبه كما يحب ويشتهي فنتهي هيپونيوكوس كل ما شعر به حنق ولم يكتف بالعفو عنه بل زوجه بعد قليل بابنته [هيپاريتة Hipparete]. ويقول بعضهم أن كالياس ابنه هو الذي اعطى هيپاريت، وليس اباه. ومهرها بعشرة تالنتات، وان الكيببidas عندما نجبت له ابناً أرغمه على أعطائه عشرة تالنتات أخرى مجتاً بأن الاتفاق قد تم بينهما على ذلك عندما تنجب هيپاريت. ودب الخوف في قلب كالياس من أن يدبر الكيببidas اغتياله فأعلن في اجتماع عمومي للمواطنين الآثينيين، أن بيته وأمواله كلها وقف للدولة إن توفي بلا عقب. وكانت هيپاريت زوجاً مخلصاً رفيعة الخلق، إلا أنها زهقت أخيراً وعيل صبرها للإهانات التي كانت تلقاها من زوجها لمعاشرته المستمرة للعاهرات الآثينيات والاجنبيات، فانفصلت عنه ولجأت الى منزل أخيها ولم يبد الكيببidas أهتمام بالأمر مطلقاً وواصل حياته الدنسة إلا أن القانون كان يتطلب أن تحضر بنفسها أمام [الأرخون] لا بوكيل ينوب عنها وتقديم الدليل الذي يعطيها حق الادعاء بالطلاق. فتطبيقاً لحكم القانون تقدمت بشخصها للإدعاء، فجاء الكيببidas ورفعها بيديه وحملها الى منزله ماراً بساحة السوق دون أن يجراً أحد على اعتراض سبيله أو استخلاصها منه. فبقيت في كنفه حتى وفاتها التي حصلت بعد فترة ليست طويلة عندما كان الكيببidas في [أفسس Ephesus]. ولم تكن هذه الفعلة تعتبر من الكبائر أو مما لا يليق بالرجال. لأن القانون الذي أوجب على طالبه الطلاق أن تحضر في مجلس علني، يبدو أنه قصد بهذا إعطاء زوجها فرصة لاقناعها والعمل على اعادةنها.

كان [الكيببidas] يملك كلباً اشتراه بسبعين [ميناً]*، ضخم الجسم في غاية الرشاقة والجمال. وكان ذيله أظهر حلية فيه، فعمد الى بتره^(١١)، وراح كل اصحابه يلومونه على فعلته وقالوا أن آثينا آسفة على ما حل بالكلب ولا حديث لأهلها إلا أستنكارها مضحك

(* ما يعادل ٧٠٠٠ دراخماً.

(١١) عن لونجهورن: إن التمثال الأثري النفيس الذي يمثل هذا الكلب مقطوع الذيل موجود الآن في دونكومبه پارچ في مقاطعة يوركشاير بانجلترا. الموقعة حصلت في العام ٤٢٤ - انظر افلاطون [المحاورات].

وقال: « ما قصده حصل بالتمام اذن. كانت رغبتني أن يتحدث الآثينيون عن هذا حتى لايتقولوا بالسوء عني».

وقيل أن أول حضوره مجلس العموم كان مناسبة تقديمه منحة مالية للشعب. ولم يكن عمله هذا نابعاً عن سبق تفكير به، بل صدر منه عفواً بينما كان ماراً في سبيله، اذ سمع صيحةً فسأل عن السبب فأعلم أنه تبرع عام للشعب فجاء اليهم وتبرع هو أيضاً. فهتف له الجمع وصفقوا، وأخذ بالمفاجأة، حتى أنه نسي سمانياً quail كان يخفيه تحت عباءته، فأجفلته الضجة وأفلت طائراً، وزادت هذه الحادثة من ضجيج الناس وهتافهم وأنطلق كثير منهم وراء الطائر، وتمكن أحدهم، [انطيوخس Antiochus] الملاح من امساكه واعادته له، فجعلته هذه الحادثة من أعز اصداق الكيببidas^(١٢).

كان لديه كثير من المؤهلات العظيمة للدخول في معترك الحياة السياسية فشرف نسبه، وثرأوه، والبسالة التي ابدتها في مختلف المعارك وكثرة أصدقاؤه ومشايخه، فنحت كل الأبواب بوجهه على ما يقال إلا أنه لم يرض أن يدع نفوذه مع الشعب يستند كل شيء غير موهبة الخطابية ومضاحته. أما وانه استاذ من الخطابة فهذا ما يشهد به الشعراء الساخرون. وأعترف له أقدر الخطباء الجماهريين إنه الى جانب مواهبه الأخرى - بلغ الذروة في فن الخطابة، بخطابه الزبي ألقاه ضد ميدياس [Midias]*.

واذا وثقنا بكلام [ثيوفراستوس] وهو من دون كل الفلاسفة أكثرهم تحقيقاً وتدقيقاً وحباً للتاريخ، فلنا أن نذكر أن الكيببidas كان ذا قدرة عجيبة على استنباط واستخراج كل ما هو صائب وصالح القول لأي غرض ولأي مناسبة، مع وضعه في قالب لفظي بليغ لفظاً وتركيباً. وعندما لا تحضره العبارات المناسبة أو الكلم الدقيق فكثير ما يسكت وهو في وسط حديثه ويظل صامتاً حتى يقع على التعبير المنشود ويسيطر على نفسه.

وكانت نفقاته الضخمة على خيول الالعاب العامة والعدد الكبير الذي يحتفظ به من العجلات موضع حديث الناس، اذ لم يرسل أحد غيره - ملكاً كان أم شخصاً عادياً - سبع عجلات مرة واحدة الى الالعاب الاولمبية وان يفوز دفعة واحدة بالجوائز الأولى والثانية والرابعة

(١٢) في تلك الايام كانت تربية طائر السمان شائعة. وكان سقراط قد نصح الكيببidas بقوله ان يروزه في الحياة العامة يقتضي منه المزيد من الدراسة يحقق تفوقه على قادة العدو. ثم عقب بمزاح قاس «كلاً كلاً يا الكيببidas، ان الدرس الوحيد الذي انشغلت به هو كيف تتفوق على [فيدياس] في تربية السمان! [افلاطون: الكيببidas ١] كان اسم الرجل الذي امسك بطائر الكيببidas سيبقي مغموراً لو لم ينييه في قيادة الاسطول عند غيابه. وعندما سخت له فرصة أصيب بشر هزيمة.

(* ديوستينس: «ضد ميدياس» ١٤٥٠.

(على قول ثوكديدس)^(*) أو الثالثة (على قول يوربيدس). فيسبق بدرجة عالية جداً كل امتياز عرف أو منح في هذا الباب. وقد حيا يوربيدس فوزه بالابيات التالية:

إن نشيدي هذا واجب لك علي يا ابن كلينياس

النصر نبيل ولكن الانبل منه أن تنجز ما لم ينجزه أحد من اليونانيون قبلاً
أن تفوز في سباق العجلات الكبير، بالدرجة الأولى والثانية، وتخرج من السباق
دون أن يصيبك التعب.

وتجعل المنادي يطلب ثلاث مرات أكليل زيتون زفس^(١٣)

إن التنافس الذي ابداه مختلف وفود الدول - في تقديم الهدايا له زاد من قدر نجاحه. وضرب له وفد [أفسس] خيمة ذات زخارف في نهاية الفخامة، وأهدته مدينة [خيوس] علفاً لخيوله مع كثير من حيوانات الأضاحي. وأرسل له وفد [ليسيوس] خموراً وزاداً للولائم الكبرى التي أقامها^(١٤). على أن لم يخلص من الألسن الحادة والنقد رغم كل هذا، وحصدوه إما لسوء طبع أعدائه. أو لسوء سلوكه. فقد قيل أن آثينياً يدعى [ديوميديس] من سراة القوم، وصديق لالكيببىداس، كان شديد الرغبة في الفوز بالسباق الأولمبي وكان قد سمع الكثير عن العربة التي تملكها الدولة في [آرغوس]، ولعلمه أن الكيببىداس يتمتع بمنزلة ونفوذ كبيرين هناك واصدقاء كثر، رجا منه أن يتوسط لشراء العجلة له، واتباع الكيببىداس العربة فعلاً وأختصها لنفسه، تاركاً وديوميديس يتميز غيظاً منه. وبيتها إلى الآلهة ويدعو الناس ليشهدوا الظلم الذي أصابه. ويبدو أن دعوى أقيمت في المحكمة بهذا الخصوص، كما يوجد لدينا مقولة عن العجلة كتبها [إيسوقريطس Isocrates] دفاعاً عن ابن الكيببىداس. إلا أن المدعي في هذه الدعوى هو [تسياس Tisias] لا [ديوميديس].

وما أن بدأ يدخل معترك السياسة ويتدخل في شؤون الحكم وهو ما يزال فتياً يافعاً، حتى أضعف منزلة جميع أولئك الذين استوحوا الثقة من الشعب، ما عدا [فاياكس] ابن

(*) هو Epini Kion أو ترتيله، النصر مثل اناشيد بندار الميسورة.

(١٣) فاز الكيببىداس بالجوائز الأولى والثانية والثالثة بشخصه في حين فازت عربته في غيابه مرتين.

(١٤) يكتب [انتستينوس تلميذ سقراط ان مدينة [خيوس] كانت تقدم العلف لخيوله. وخيزيكوم تؤمن له الأضاحي، هذه العبارة تستحق التأمل فقد علمنا منها ان ذلك لم يقتصر على مناسبة ذهاب الكيببىداس الى الألعاب الاليلية بل تعداه الى حملاته العسكرية وتنقلاته. فيقول بهذا الصدد: «كلما سافر الكيببىداس قامت اربع مدن على خدمته كما تقوم وصيفات على الخدمة في البيت. و(أفسييس) تمدّه بخيم فاخرة شبيهه بالخيام الفارسية. و[خيوس] تمده بعلن دوابه. و[خيزيكوم] تمده بالاضاهي والارزاق موائد طعامه، [لسيوس] ترسل اليه الخمر وكل ما هو ضروري لادارة بيته».

[ايرسيستراتوس Erasistratus] ابن [نسياس] ابن [نيكيراتوس Niceratus] الذي وقف وحده في حلبة المنافسة خصماً له. كان [نسياس] قد عاد وهو في سن متقدمة، ونصب قائداً أعلى. وكان [فاياكس] كالكيببىداس سياسياً صاعداً. وهو سليل بيت عريق لكنه يقل شرفاً وعراقة عن نسب الكيببىداس كما كان يقل عنه في أمور شتى أخرى في مقدمتها البلاغة. على أنه كان يتمتع بمقدرة نادرة على الاقتناع في مجال الأحاديث الخاصة، لا في نقاش عام امام الشعب. وكما قال فيه [يوپوليس Eupolis]:

«هو اخر المتحدثين واعجز الخطباء»

هناك مقالة نقد كتبها [فاياكس]^(*) في الكيببىداس. ذكر فيها مما ذكر. أنه كان يستعمل يومياً على مائدة طعامه أواني الذهب والفضة التي تعود للمواكب والحفلات العامة كأنما هي ملك خاص^(١٥) به.

كان ثم رجل اسمه [هيبربولوس Hyperbolus] من مدينة [بيريثودي Perithodae] يذكر عنه (ثوكديدس)^(١٦) أيضاً، بأنه رجل سيء الخلق، وموضوع سخرية عامة لكل الكتاب الهزليين في عصره، لايهتم قط بما يقولون عنه مهما بلغت أقوالهم من السوء فيه. وهو عادم الاكتراث بالسمعة، قليل الإحساس بالعار، حُلُقُ ير يعده بعض الناس جراءة وشجاعة. في حين أنه وضاعة وقلة حياء. لم يكن يحبه أحد إلا أن الناس كثيراً ما أستخدموه كلما انصرفت نيتهم الى تحقير شخص في الحكم أو اساءة سمعته. وفي هذا الوقت كان الشعب بناء على تحريض هذا الرجل، مهيناً للأضطلاع باجراءات أصدر حكم بالنفي لمدة عشر سنوات وهو ما يطلق عليه «النفي من دون محاكمة Osracism». وكانوا يلجأون الى هذه العقوبة لإذلال وطرده المواطنين الذين تفوقوا على غيرهم في في السطان والشهرة وكانت دوافع الحسد والغيرة في عملهم هذا تغلب على دافع التخوف والحذر من خطر المحكومين بها. ولم يكن أنذاك من شك في ان العقوبة ستقع على أحد الثلاثة. وبذل الكيببىداس جهده ليقم ائتلافاً بين الاحزاب وفتح [فسياس] بمشروعه، وكانت نتيجته وقوع النفي عن نصيب [هيبربولوس]. ويقول

(*) هذه المقالة وصلتنا من بين خطب اندوفيدس (الرابعة) وهي واضحة التصنيع نحلها مؤلف مجهول لسان فاياكس.

(١٥) الظاهر انه كان يستعير هذه الصحف المكرسة فيبخسها بالاستعمال الديني ولا يعيدها الا قبيل المواسم الدينية للعرض كي يبدو للأغراب وكأنها ملكه وانه أعارها للمدينة. اما (فاياكس) فقد جاء ثوكديدس الى ذكره ووردت مقالاته هذه بين خطب [اندوقيدوس: الخطب ٤] وهي خطبة واضحة الزيف نحلها كاتبها المجهول لسان [ماياكس].

(١٦) التاريخ الطبيعي ٧٣:٨.

آخرون انه لم يشاور [نسياس] في هذا الأمر بل [فاياكس]، وبمساعدة حزبه ضمن قرار النفي بحق [هيبربوليس] عندما كان أقل الناس توقعاً له، فقبل هذا لم يقع تحت طائلة العقوبة شخص نكرة وضيع. وكان الشاعر الساخر افلاطون مصيباً كبعد الحقيقة في قوله عن [هيبربوليس]: «مع هذا استحق المصير الجدير بالغابرين، المصير الذين لا يستأهله أمثاله من الرجال لأمثاله، وللعبيد الموسومين بميسم العبودية.

على أننا أثبتنا في موضع آخر تفاصيل أوفى، مما نأى علمنا في هذا الشأن.

ولم يكن الكيببىداس بأقل همّاً بخصوص المنزلة الرفيعة التي نالها [نيقياس] لدى اعداء آثينا، من التشريف الذي خلعه الاثينيون عليه في الوطن. فمع أن [الكيببىداس] كان الشخص المعين رسمياً لاستقبال كل اللقيديميين عند قدومهم الى آثينا، ومع أنه أهتم إهتماماً خاصاً بالأسرى الذين أخذوا في [پيلوس Pylos] (١٧) فإنهم خصّوا [نيقياس] وحده بالتكريم والتجلة بعد أن نالوا سلماً واستعادوا الأسرى بمسعى [نيقياس] بالدرجة الأولى وكان القول المأثور في بلاد الأغرقي أن بيريكليس بدأ الحرب و[نيقياس] أنهاها، وان السلم نُعت رسمياً (١٨) بسلم [نيقياس] اظطرب الكيببىداس اضطراباً شديداً لهذا الأمر ولما كان الحسد يلاؤه فقد راح يعمل على تشتت شمل العصبة المتحالفة. فوجد أولاً ان الأروغوسيين يريدون الحماية من عائلة اللقيديميين خوفاً وكرهاً.

فعقد بينهم وبين آثينا حلفاً معزراً بميثاق سري، واتصل بصورة شخصية وبطريق المراسلة مع رؤساء المستشارين في ارغوس مشجعاً أيهم على طرح جانب الخوف من اللقيديميين، وعدم التنازل لهم عن شيء ما. ونصحهم بالتريث قليلاً وان يبقوا شاخصين بأنظارهم الى الاثينيين الذين أدركهم الندم الشديد للجنوح الى السلم وانهم لن يلبثوا ان ينقضوه.

ووجد [الكيببىداس] أيضاً أن اللقيديميين كانوا قد عقدوا صلحاً ومعاهدة تحالف مع البويوتيين، من شروطها أن يسلموا لهم مدينة [پاناکتوم Panactum] سليمة، إلا أنهم لم يسلموها إلا بعد أن دمروها (١٩) مما أثار غضب الاثينيين الشديد. ولذلك أسرع الكيببىداس

ينتهز الفرصة، ليسعّر من غيظ مواطنيه مهاجماً [نقياس] هجوماً عنيفاً ومتهماً إياه بأشياء كثيرة لم تكن تخلو من الحقيقة. منها انه لما كان جنرالاً لم تبدر منه بادرة لأسر جماعة من جنود العدو (٢٠) كان قد قطع عليها سبيل الهروب في جزيرة [سفاكتيريا Sphacteria]، ولما قام آخرون بأسرهم سعي شخصياً الى إطلاق سراحهم وإعادةتهم الى اللقيديميين لنيل الخطوة عندهم. ثم انه لم يستخدم نفوذه لديهم، لمنعهم من عقد هذا الحلف مع الكورنثيين والبويوتيين، بينما عمد من الناحية الأخرى الى اعتراض سبيل بعض الدول الأغربيقية التي كانت تحبذ عقد معاهدة تحالف وصدافة مع آثينا لأن اللقيديميين لا يرغبون في ذلك.

وفي هذا الزمن الذي بدأت منزلة [نيقياس] وسمعته تهويان الى الحضيض في عيون الشعب بمساعي الكيببىداس وفنونه، وأتفق أن حضرت سفارة من لقيديميين الى آثينا وصرح اعضاءها انهم جاؤوا يحملون شروطاً مرضية جداً وانهم مفوضون مطلقو الصلاحية في تسوية كل ما هو موضوع نزاع بشروط مبنية على أسس العدالة والمساواة. ونالت مقترحاتهم قبول مجلس الشورى وأعلن انعقاد مجلس العموم في اليوم التالي لتجرى فيه مناقشة عروضة. فأشتبداً القلق بالكيببىداس لتطور الأمور بما لا يشتهي، وعمل على ان يجتمع بالسفراء سرّاً فتم له ذلك. ووجه اليهم القول التالي:

— ما الذي تسعون وراءه يا رجال سبارطا؟ أهكذا يغيب عن بالكم أن المجلس اعتاد دائماً أن يتخذ موقف الإحترام والإعتدال من كل السفراء؟ إلا أن جماهير الشعب خلاف ذلك فهي طموحة مندفعة بطبعها وراء المغامرات العظيمة والمطالب الضخمة، وإن علموا بانكم خولتمم صلاحيات مطلقة فسيشددو عليكم النكير، ويرغموكم على شروط غير معقولة فإياكم والسذاجة، وحذار من سلامة النية إن كان قصدكم الاتفاق مع الاثينيين على شروط متوازنة فيها. والا انتزعت منكم امتيازات لا تتفق وخططكم. وابدأوا بالتعامل مع الشعب على أسس ومباديء معقولة، واحذروا من القول بانكم مفوضون مطلقو الصلاحية».

(٢٠) بعد أن فقد اللقيديميون قلعة (پيلوس) في ميسينيا. وضعوا حامية جزيرة [سفاكتيريا] المقابلة لها، قواتها (٢٢٠) جندياً مع عدد من الهيلوت بقيادة [إبيتاداس ابن بولوبروس] وأعتذر نقياس عن الخروج الى الجزيرة واحتلالها وان يتولى منصب القائد في حينه. إلا ان (كليون) وفق الى استعادتها وقتل عدد من افراد حاميتها وسوق البقية أسرى الى آثينا وكان بينهم مائة وعشرون سبارطياً نالوا حريتهم بفضل نقياس. بعد هذا استعاد اللقيديميون القلعة فقد فشل انتيوس الذي قاد النجدة، في الوصول اليها لمعاكسة الريح وعاد الى آثينا فحكم عليه بالموت واستبدل الحكم بغرامة كبيرة. فكان أول من يفقدي حكم موته بالمال على هذا الشكل.

(١٧) في العام ٤٢٥ ق.م وهي تعزى خطأ الى [نيقياس] من قبل پلوتارخ وغيره من المؤرخين. فثوكيديدس يعلمنا ان تسمية (الكيببىداس) جاءت من الجهة اللقيديمية. وان «حقوق الضيافة» المذكورة في النص بدأت بين ابيه [كليون] وبين الكيببىداس والد افيديوس Eudius أحد الايغوري الذي كان قد حلّ ضيفاً عليه في آثينا، فمنح اسمه لابنه (تكريماً) وعلى سبيل المقابلة بالمثل سمى الكيببىداس أحد ابناؤه (پافيديوس) اسم الضيف اللقيديمي:

(١٨) جرى عقده في السنة ٢٤١ ق.م.

(١٩) قلعة على حدود بويوتيا وأتيكا. [انظر ثوكيديدس ٢:٥، ٤٢].

بعد أن أنهى حديثه هذا حلف لهم الأيمان بأنه سينجز ما وعدهم من المساعي لقضيتهم وبهذا الشكل ابعدهم عن نيقياس وجعلهم يعتمدون عليه اعتماداً كلياً. وغادرهم وهم يلهجون بالثناء على حصافته ونفاذ بصيرته. وفي اليوم المضروب اجتمعت العامة، وتقدم السفراء فنهض الكيببىادس وسألهم بكل احترام وتوقير: « ما نوع الصلاحيات التي تزودوا بها؟ » فأجابوا أن تفويضهم غير مطلق. وهنا بدأ الكيببىادس وكأنه موضوع الإهانة لا فاعلها، وأخذ يندب بهم بصوت داوٍ وينعتهم بالمراوغين والخداعين قائلاً إن هؤلاء لم يأتوا ليقولوا ويعلموا أي شيء يتفق ومباديء الصدق وسلامة القصد. وثار تائرة مجلة الشورى وضج الجمهور سخطاً عليهم. أمّا [نيقياس] الذي كان يجهل اللعبة فقد استبدت به الحيرة وكان كغيره مذهولاً خجلاً من التغيير في كلام اعضاء الوفد.

وبهذا رفضت سفارة اللقيديميونيين رفضاً باتاً. وأعقب ذلك انتخاب الكيببىادس جنرالاً. فبادر في الحال الى عقد حلفٍ اثيني مع الأغوسيين^(٢١) والأليائيين وأهالي مدينة [مانتينيا Mantinea].

لم يقع عمل الكيببىادس موقع رضا أحد من الناس، إلا أنه كان مناورة سياسية بارعة ادت الى شقّ الپلويونيوسوس كلها تقريباً، وتقويض بناء وحدتها. والى تأليب ذلك العدد الضخم من المحاربين ضد اللقيديميونيين امام [مانتينيا] في يوم واحد فقط. الى ذلك إنها نقلت ميدان الحرب الى مسافة بعيدة جداً عن تخوم الآثينيين. فاذا حدث وأنتصر العدو فإن انتصاره لن يفيد كثيراً. أمّا اذا هزم فقد لا تسلك سبارطا نفسها على أغلب الاحتمال.

بعد خوض المعركة قرب مانتينيا^(٢٢)، حاولت فرقة الألف المنتخبة الأغوسية، الإطاحة بحكومة الشعب في أرغوس وبسط سلطانهم عليها، وخفّ اللقيديميونيين الى مساعدتهم، وأزالوا الحكم الديمقراطي. إلا ان الشعب قام بانتفاضة مسلحة وحرزوا بعض النجاح^(*)، وعاجلهم الكيببىادس بالنجدة فكمّل انتصاره وأعيد الحكم الديمقراطي. وتمكن الكيببىادس من إقناعهم ببناء اسوار طويلة^(**) توصل المدينة بالبحر لتصبح ضمن متناول يد آثينا. وأمدهم بشغيلة وبنائين من آثينا وأظهر منتهى الإخلاص في معاونتهم وكان المجد والسلطان الذي ناله لا يقل عما نالته جمهورية آثينا.

(٢١) في السنة الرابعة من الولىبياد التاسع والثمانين: ٤٢١ ق.م. عقد صلحاً مع هذه الدول أمده مائة عام.
(٢٢) وقعت المعركة في السنة الثالثة للاببياد التسعين اي بعد مرور ثلاث سنوات على الاتفاق مع ارغوس.
[توكيديدس ٦:٦٦ وما بعده] وذلك في العام ٤١٨ ق.م.

(*) في ٤١٧ ق.م.

(**) في ٤١٩ ق.م.

ثم وجه اهتمامه الى [پاتري Patrae]^(٢٣) وتمكن من اقناع أهاليها يربط المدينة بالبحر أيضاً ببناء اسوار طويلة. ولما قال أحد الناس لهم على سبيل التحذير أن الآثينيين سيبتلعونهم في نهاية الأمر. ردّ الكيببىادس بقوله: «ربما كان الأمر كذلك. إلا أن عملية البلع سستم بالتدريج وسيكون البدء من القدمين، اما اللقيديميونيون فسيبدأون من الرأس ويمزقونكم بطريقة عين.»

لم يهمل حتّ الآثينيين على الاهتمام بالبرّ وتشببت مصالحهم فيه وظلّ باستمرار يذكرّ الشبان بالقسم الذي أدّوه في معبد [اغراولوس Agraulos]^(٢٤): ويقضي ان يعتبر حقول القمح والشعير والخمر والزيتون حدوداً لآتيكا. وهو كناية عن حقهم بملكية كل الأراضي الزراعية والمثمرة.

إلا أنه مزج كل هذه المآثر السياسية وبعد النظر وذلاقة اللسان، بحبّ الترف المفرط، والاسراف في الشراب والمأكل، والحياة المتحللة من المباديء الخلقية. وكان يرتدي ثياباً قرمزية سابعة كزيّ النساء، ويسحب ذيولها على الأرض خلفه عند مروره في ساحة السوق، وأمر بنزع الألواح الخشبية في سفينة لينعم باستلقاءٍ ليين إذ أن فراشه لا يفرش على السطح، بل يعلق في الهواء بسبور من الجلد وترسه الكثير الوشي والزخرفة، لم ينقش عليه الشعار الآثيني الاعتيادي^(٢٥). وانما رسم عليه صورة [كيويدا] ممسكاً بشراة صاعقة. هذه المظاهر وأمثالها ملأت نفوس كرام المواطنين بشعور التفزز والإشمزاز، وسخطوا للحياة الفاجرة التي يحيها، ولاستهتاره بالقوانين. ووجدوها تصرفات شنعاء بحد ذاتها تحمل في طياتها بذور السيطرة والطغيان. ولقد اجاد [ارسطوفانس] التعبير عن مشاعر الشعب تجاهه حين قال:

«انهم يحبونه، ويكرهونه، ولا يطيقون العيش بدونه.»

وبلغ النهاية في الإعجاز ودقة التعبير تحت ستار الكتابة إذ قال:

«من الأفضل أن لا ترُبّي شبلاً تلافه داخل الأسوار المدينة وان فعلت، فعليك أن تعامله معاملة الوحش!».

والحق يقال ان كرمه، وأقامته الحفلات واللهو للعامة، وما الى ذلك من ضروب البذل للجمهور، لم يكن يعدله فيها أحد. وأن عراقاة أسلافه، وقوة عارضته، ومهابة شخصه وامتانة

(٢٣) مدينة من مدن أخايا. هذا المشروع احبطه أهل كورنث وسيكيون وغيرهما من المدن المجاورة.

(٢٤) هيرودوتس وپاوسنياس يثبتانها [اغلاوروس]. إلا أن ما اثبته پلوتارخ هو الصحيح.

(٢٥) للمدن والاشخاص شعارات خاصة ترسم على صفاحهم. وشعاراتينا المعروف هو (اليوم) أو (الزيتون).

ولايسمح بحمل الشعار بالنسبة للاشخاص الأ للبارزين من القوم او من قام بعملٍ مجيد.

تركيبه التي خالطتها شجاعة فائقة، وبراعته في الفنون العسكرية، كل هذا حَكَمَ على الآثينيين أن يتحملوا تهتكه، ويتغاضوا عن أشياء كثيرة فيه وأن ينعثوا أخطاه بأخف النعوت كما هي عاداتهم، وإن يعزوها إلى اغترار الشباب وسماحة الطبع. ومن بين المآخذ عنه أنه أبقى الرّسام [أغاثاركوس Agatharcus]^(٢٦) أسيراً حتى انتهى من زخرفة وطلاء بيته ومن بعدها أطلقه ونفخه بمكافأة. كذلك اعتدى على [طورياس Taureas] بالضرب لأنه عرض بعض التمثيليات منافسة له بها، قاصداً منازعته الجائزة. وأختار لنفسه أسيرة ميلانية Melan وانجب منها ولداً أهتم بتربيته وتعليمه، وأعتبر الآثينيون ذلك انسانية عظيمة منه، مع أنه كان السبب الأساس لذبح كل الرجال جزيرة (ميلوس)^(٢٧) من البالغين سن الخدمة العسكرية كانت قبضته تقع عليه لأنه كان أحد محبزي اصدار البيان وعندما نقش الرسام [ارسطوفون Aristophon] صورة [نيميا Nemea]^(*) العاهرة جالسةً والكيببيادس في حضنها، تقاطر الجمهور زرافات لمشاهدتها وابدوا سرورهم بها. إلا أن الناس المتقدمين في السن استكروها واستفظعوها. ووجدوها وامثالها شراً مستطيراً، واتجاهاً نحو الإستبداد. لذلك لم يتعد [ارخستراتوس Archastratus] الحقيقة إذ قال أن الآثينيين لا يستطيعون تحمّل [الكيببيادس] ثانياً، ومرة عندما بلغ درجة كبيرة من النجاح في خطبة ألقاها. هرع إليه كل المجتمعين يهنئونه ويشنون عليه، ولم يرَ [تيمون] ذو الطبع الانطوائي، به عرضاً ولم يتجنبه كما فعل غيره، بل توجه نحوه متقصداً، وامسك بيده وقال له:

- امض في سبيلك يا بني ولا تتردد، وزد من رصيدك عند الشعب، لأنك ستجرّ عليهم يوماً من المصائب ما يكفيهم.

وسخر بعض الحاضرين من قوله، وبعضهم اسمعه قارص الكلام. إلا أن عبارته نفذت عميقاً في نفوس بعضهم. وكذا كان أختلاف حكم الناس عليه، مثلما كانت أخلاقه كثيرة الشذوذ.

كان الآثينيون منذ عهد [بيريكليس] ينظرون إلى صقلية نظرة طمع واشتهاه^(٢٨). إلا أنهم

(٢٦) كان لهذا الرسام صلة بعشيرة الكيببيادس. انظر [ديوستينس].

(٢٧) إحدى جزر كيكلاوس. وهي مستعمرة لقيديمية حاصرها (الكيببيادس) بست وثلاثين سفينة و(٨٠٠) مقاتل صيف العام ٤١٦ ق.م الموافق للالبياد التسعين. وأستولى عليها بعد أن وصلتته نجدة في السنة التالية. ويسرد توكيديدس تفاصيل المذبحة التي أعقبت فتحها لكنه لا يذكر شيئاً عن الرسوم. ولعله أراد أن ينقل تبعه ما حصل على الحقد الذي ملأ الجنود فأهاجهم أنياً. دون أن يهتم به الآثينيون.

(*) [پاوسانياس: (١: ٢٢: ٧)] تمثيل لمنطقة نيميا في الألعاب التي فاز فيها. الاصل الاغريقي: يشير إلى انها عاهرة.

(٢٨) تمكن بيركلس بذكائه وسلطانه القوى من كبح هذه الرغبة العارمة عند الآثينيين. إلا أنهم بعد موته بسنتين أثننتين، ارسلوا بعض السفن إلى ريكيوم لنجدة الليونتيين الذي كانوا ضحية هجمات الصقلبيين =

لم يحاولوا شيئاً إلا بعد موته. فقد ارسلوا بدعوى مساعدة حلفائهم، نجدات متوالية في شتّى المناسبات لأولئك الذين كانوا موضع اضطهاد [السيراقوزيين] مهدين بذلك الطريق لإرسال قوات أكبر. إلا أن الكيببيادس هو الذي اضرم نار الرغبة واججها في النفوس، واقنعهم بالأذى يمضوا في غايتهم سراً بعد الآن ولا أن ينفذوها شيئاً فشيئاً، بل أن يجردوا عليها أسطوياً كبيراً ويستطوا سلطانهم على الجزيرة كلها. وملاً الجماهير بآمال عريضة مثلما كان هو مفعماً بها بل وأكثر، ففتح صقلية كان عندهم نهاية الطموح، بينما كان عنده مجرد البداية. وحاول [نيقياس] جاهداً أن يثنى الشعب عن تجريد الحملة، بشرحه لهم أن الاستيلاء على [سيراقوز Syracuse] أمر صعب للغاية إلا أن الكيببيادس ما كان ليحلم بأقل من فتح قرطاجنة وليبيا، وبلوغه هذه الغاية التي تجعله حالاً سيّد ايطاليا والپلپونيس. كان يبدو له غزو صقلية مجرد مستودع لتفجير الحرب. وشاعت الحماسة في نفوس الشباب لهذه الآمال الجسام وأخذوا يرهفون أذانهم إلى كبار السن منهم يحدثونهم عن عجائب البلاد التي سيشاهدون، فيشيع الفرح في نفوسهم. وإنك لتلقى العدو الكبير من هؤلاء الفتيان جالسين في ميادين المصارعة والمحلات العامة يخططون على الأرض خريطة الجزيرة، وليبيا وقرطاجنة. وقيل أن [سقراط] الفيلسوف وميتون Meton المنجم لم يكونا يأملان خيراً للجمهورية من هذه الحرب. أولهما متكهناً بما سيأتي بوساطة جنّه الذي يلازمه - على ما قيل، وثانيهما أظهر المخاوف من نتائجها إما بعد تحليل منطقيّ عقليّ للمشروع، أو باستخدامه فن التنجيم والاستخارة. ولهذا تصنّع الجنون وأمسك بمشعل موقد وبدأ وكأنما يريد أحراق منزله. وذكر آخرون انه لم يتصنع حالة جنون بل عمد سراً في موهن من الليل إلى أحراق بيته وفي اليوم التالي انهى بفعليته إلى الجمهور لكي يحملهم على استبقاء ابنه الذاهب للحرب، تخفيفاً عنه وموآسة له. وبهذه الحيلة خذع بني قومه وحصل منهم على بغيته.

وعين [نيقياس] جنرالاً مع [الكيببيادس] كرهاً عنه وخلافاً لرغبته وجهد في العزوف عن القيادة أكثر كرهاً بها لوجوده مع الكيببيادس، إلا أن الآثينيين رأوا أن ارسال الكيببيادس وحده، دون وجود من يكبح جماحه مما يضرّ بمجرى الحرب، ولذلك عمدوا إلى معالجة تهوره بحذر نيقياس ولم يكن تعيينه ناجحاً عن هذا السبب وحده، فالجنرال الثالث في الحملة [لاماخوس] مع تقدمه في السن أبدى في عدة معارك ما برهن انه لا يقل جدّة وتهوراً عن

= وبعدها بسنة واحدة أرسلوا عدداً أكبر من السفن. وعقبوها باسطول أكبر بعدها بسنتين آخرين. إلا أن الصقلبيين اتحدوا فيما بينهم وصدوا هذه الحملات تباعاً. وبلغ الغضب بالآثينيين حداً أنهم حكموا على الجنرالين بيثودورس وسوفولس بالابعاد جراء فشلهما. كما فرضوا على الجنرال الآخر (أقويميدون) غرامة ثقيلة.

[الكيببىداس] نفسه. وعندما بدأوا يتداولون حول عدد القوات وطرق تجهيزها بالمؤن والعتاد الضروريين قام [نيقياس] بمحاولة أخرى لمعارضة الفكرة ومنع وقوع الحرب إلا أن الكيببىداس خالفه ونقل القضية إلى مجلس العموم^(٢٩). وهناك أقترح خطيب يدعى [ديموستراتوس] منح القواد الثلاثة صلاحيات مطلقة بخصوص التأهب للحرب، واتخاذ كل التدابير المتعلقة بها. فصدق على إقتراحه. وعندما تم كل شيء للحملة، ظهرت نبوءات نحس عديدة. ففي ذلك الوقت وقع عيد [أدونيس Adonis]^(٣٠) وفيه أعتادت النسوة أن يعرضن في كل أنحاء المدينة صوراً وشواخص تمثل رجالاً موتى يحملون إلى المدفن وان يمثلن شعائر الجنازة بالندب والعيول وانشيد الرثاء. على أن التقطيع الذي أحدث في صور شواخص و[مارس]^(٣١) أدى بأغلبها إلى تشويه في أوجهها خلال ليلة واحدة. وأفرغ ذلك كثيراً من الأشخاص الذين تعودوا الاستخفاف بمعظم ما هو من هذا القبيل. وأشيع أنه من عمل الكورنثيين لأجل السيراقوزيين الذين كانوا مستعمرة لهم^(٣٢)، أملين أن يعدل الآثينيون عن الحرب أو يؤخروها، كرد فعل لهذه الخوارق. إلا أن النبأ لم يؤثر في الناس أي تأثير، ولم يكن رأي أولئك الذين لم يعتقدوا بوجود أي إشارة نحس في الحادثة، إلا مجرد كونها عملاً فاضحاً مباحاً قام به فتيان طائشون على سبيل المزاح أثناء خروجهم من اجتماع لهو وشراب. إلا أن مجلس الشورى والجمعية العامة أفرزتهم وأغضبتهم الحادثة ونظروا إليها نظرة شك وعدوها تمهيداً لمؤامرة عدد من الأشخاص لقلب نظام الحكم وواصلت الجمعية والمجلس اجتماعاتهما أياماً، للتحقيق الدقيق في كل ما يستدعي الشك.

وفي أثناء التحقيق أحضر [اندروكلس Androcles] وهو غوغائي - عدداً من الأرقاء والاجانب. ليتهموا الكيببىداس وبعض اصدقائه بتشويه الصور الأخرى بعين الطريقة.

(٢٩) هذه الخطب التي تستحق القراءة للاسلوب الجميل في ايضاح الاجراءات الحكيمة الحذرة التي باشرها نيقياس. والتهور والطيش اللذين باشرهما الثاني. حفظها لنا ثوكيديس، أو ربما قام هو بتدبيجها (٦: ١٨-٩).

(٣٠) في عيد [ادونيس] تبدو كل المدن بمظاهر الحداد. وتعرض الرسوم امام كل باب. وتحمل في المواكب تماثيل فينوس وادونيس مع اوعية معينة فيها تراب انتبوا فيه قمحاً واعشاباً وخساً وتدعى هذه الأوعية بـ[حدائق ادونيس]. وترمى في البحر بعد ختام الاحتفال. ويحتفل كل بلاد اليونان ومصر به، كذلك كان اليهود يحتفلون به عندما انتقلوا إلى عبادة الاوثان (حزقيال ٨: ١٤) وفي خلال ساعات الاحتفال كثيراً ما ترى النسوة جالسات يتدين ويكبن من أجل تموز اي أدونيس.

(٣١) كان الآثينيون ينصبون تماثيل (مارس) امام ابواب بيوتهم. وهي على شكل قطع صخر مربعة يوضع فوقها رأس ذلك الرب. ويقول باوسيناس [٣: ٤] إن سائر الاغريق استعاروا منهم هذا التقليد. اما التشويه الذي ينوه به بلوتارك فقد جرى قبل هذا التاريخ كما يؤكد [ثوكيديس ٦: ٢٨].

(٣٢) أرسل هؤلاء المستوطنون بقيادة (ارخياس) وهو أحد الهيراقليدي [ثوكيديس ٦: ٢] و[سترابو: ٥].

والتجذيف على الأسرار الألهيمة وإتيان أعمال كفر يحقها في مجلس شراب، ومثل [ثيودوروس] دور المنادي، وپوليتيون Polytion تقمص شخصية حامل المشعل، وقام [الكيببىداس] بدور رئيس الكهنة. وظهر بقية الجماعة بدور المرشحين للرسامة واقتبلوا درجة التكريس. هذه الوقائع تضمنتها بلاغ المعلومات الأولى الذي قدمه (تسالوس ابن سيمون) ضد الكيببىداس حول اتهامه الإستخفاف الإلحادي بالربيتين [سيريس] و[پروسپرين] الأمر الذي اسخط الشعب عليه وأحنقهم للغاية، و[اندروكلس] اخبث اعدائه زاد في الطين بلّة وهوّل التهمة فأقلق أصدقاءه للغاية. ولكن لما علموا أن البحارة الذاهبين إلى صقلية يقفون في صفه وكذلك الجنود. وعندما أعلن الجنود الالف الاحتياط من أرغوس ومانتينيا أنهم ما تكلفوا عناء هذه الحملة العسكرية البحرية البعيدة المدى إلا لأجل الكيببىداس، فإن أُسيئت معاملته فسيعودون إلى ديارهم، عادت اليهم شجاعته، وخفواً عاجلاً للاستفادة من الفرصة، وتزكيتهم، وأصيب اعداؤه بالخزي مرة أخرى نكصوا خوفاً من أن يكون الشعب أكثر رقة في حكمهم عليه، بسبب ما لديه من خدمات. فلأجل أن يحولوا دون ذلك، سعوا إلى دفع خطباء آخرين، ممن لم يعرف عنهم عداوة لالكيببىداس، بينما لا يقل حقدهم عليه عن أولئك الذين صرحوا بعداوتهم له، إلى أن يقفوا في الجمعية ويخطبوا بهذا المعنى: «إنه لمن السخف أن يتعرض رجل انتخب قائداً لمثل هذا الجيش، بصلاحيات مطلقة، وبعد أن وصلت القوات الحليفة، وتمّ تحشيد جنوده - لخسارة الفرصة بينما يقوم الشعب بالافتراع على انتخاب القضاة الذين سيحاكمونه، ويصبون الماء في الأواني لقياس الوقت المخصص لدفاعه^(٣٣).

«دعوه يبحر في الحال، وليرافقه السعد، وعندما تضع الحرب أوزارها، يتفرغ إلى تنظيم دفاعه شخصياً حسب أحكام القانون». وأدرك الكيببىداس سوء القصد في هذا التأجيل، ووقف في الجمعية قائلاً انه لأمر فظيع أن يعهد اليه بقيادة مثل هذا الجيش العظيم، وهو يريز تحت عبء تهم ووشايات يستحق عليها عقوبة الموت إن لم يفلح في تبرئه نفسه من الجرائم التي الصقت به، ولكن إن فعل ذلك وبرهن على براءته، فاذا ذاك يمكنه التفرغ إلى الحرب بكل سرور، إذ لا يعود بعدها في خوف من أي متهم كاذب.

(٣٣) أستخدمت الساعات المائية أثناء المحاكمات الشعبية في اثينا لتحديد اوقات المرافعات. ويتم إيقاف هذه الساعات عند شروع الشهود بالادلاء بشهاداتهم ويقوم بهذا ضابط يختار لهذا الغرض من طبقة العامة. ويخبرنا [پولوكس] أن الماء في القضايا الخاصة بالخروج على القوانين - يقسم إلى ثلاثة أجزاء. جزء مخصص للمدعي ولتلاوة نصوص القانون ولأقوال الدولة، وجزء مخصص للمتهم وشهوده. وجزء مخصص للقضاة ان لم تعلن برادته بالقرار الاول ذلك لأن القضاة - كما هي العادة الآن عند أكثر المحاكم - يصدرن حكمن الاول بالادانة أو البراءة، والثانية بتحديد العقوبة في حال التجريم.

أدع بعد الآن ذلك الغادر تيفكر، ذلك الاجنبي الخائن يفخر بمكافأة أخرى على شهادة الزور.

في الواقع أن متهمي الكيببيادس لم يسندوا اليه شيئاً معيناً ثابتاً وعندما سئل أحدهم: كيف تسنى له معرفة هويات الاشخاص الذين شوهاوا وجوه التماثيل، قال انه رأى على ضوء القمر، وهذا تزوير وافك واضح لأن القمر في وقت الحادث كان هلالاً في أوّله. وهذا ما أثار الاستنكار وصيحات الاحتجاج من ذوي الفهم والمعرفة، إلا أن جماهير الشعب كانت متعطشة الى سماع المزيد من التهم ضده، فالنار الأولى ما زالت مستعرة في النفوس، وقد ظهرت آثارها في اصدار أمر القبض فوراً على كل المتهمين وزجهم في السجن.

وكان من بين المكلفين والموقوفين المحالين للمحاكمة الخطيب [اندوكيدس Andocides] الذي يُرجع المؤرخ [هيللانيكوس] نسبه الى [يوليسيس]. وهو ممن كان موضع شك دائم في بغض النظام الديمقراطي السائد، ومناصر لحكم القلة. والسبب الأول الذي جعله موضع اتهام بتشويه التماثيل، هو بقاء تمثال مارس الكبير المجاور لبيته سليماً لم تنله يد التشويه، من بين التماثيل الشهيرة القليلة التي ظلت سالمة. وكانت قبيلة [ايجيس Aegeis] قد اقامته نصباً تذكاريّاً، إلا انه سمي منذ الصاق التهمة باندوكيدوس، [بمارس اندوكيدس] مع أن النقش الكتابي في القاعدة يدل على خلاف هذا. واتفق أن هذا الرجل وثق عرى صداقة حميمة مع شخص بين الموقوفين بالتهمة نفسها، يدعى [طيماتاوس Timaeus] وهو أقل منه منزلة وشخصية إلا انه اشتهر بسعة الخيلة والجسارة، فأقنع [اندوكيدس] باتهام نفسه مع عدد قليل بهذه الجريمة، وعلل ذلك بقوله له: إن اعترافه هذا سيضمن له العفو حسب احكام المرسوم الشعبي. وفي الوقت نفسه سيكون احتمال الحكم على كل الباقيين المعترف عنهم ضعيفاً في حين أن الاحتمال قوي في الحكم على كبار القوم امثاله. فخير له أن يهتم بنفسه وينقذ حياته بكذبة من أن يتجرع غصص ميته مخجلة كأنما هو مجرم حقاً. وان كان يهتم بالمصلحة العامة، فالأجدر هو التضحية بمتهمين قليلين بهذه الوسيلة، سعيّاً لانقاذ الكثير من الأشخاص الممتازين، وحمايتهم من غضب الشعب. فراقت الفكرة له واعترف على نفسه وبعض الأفراد الآخرين ونال عفواً بموجب احكام القانون في حين نفذ حكم الموت بجميع من أعترف عنهم ما عدا نفرّاً قليلاً نجحوا في الفرار. واتهم [اندوكيدس] خدمه انفسهم لينال المزيد من الحظوة لكن سخط الشعب رغم هذا كله لم يهدأ، وبعد أن لم يعد يشغلهم أمر المشوهين عما هم فيه، توجهوا لصب جام غضبهم كله على الكيببيادس دون ان تأخذهم عجلة. وبعثوا بسفينة اسمها «السلاميسي» لجلبه. إلا أنهم أوصوا الموفدين بالا باستخدام العنف بأيّة حال، وان لا يلقوا

إلا أنه لم ينجح في اقناع الشعب برأيه وأمره بالابحار فوراً^(٣٤)، فرحل مع الجنرالين الآخرين وكانت الحملة تتألف من ١٤٠ بارجة حربية تقريباً و٥١٠٠ محارب، وحوالي ١٣٠٠ نابل ورامي مقلع، وجنود خفاف السلاح، وكل ما يتعلق بذلك من تجهيزات ومؤون.

وبلغ ساحل ايطاليا ورسا في [ريجيوم Rhegium] وهنا أدلى بآرائه عن الأسلوب الذي ينبغي اتباعه في ادارة دفة الحرب. فعارضه [نسياس]، ووافقه [لاماخوس]. وأقلعت الحملة الى صقلية في الحال، وأستولت على [كاتانا Catana]. وهذا كل ما تمّ تحقيقه أثناء وجود الكيببيادس، إذ استدعي الى اثينا بعدها بقليل لاجراء محاكمته.

كما ذكرنا قبلاً لم يكن يوجد ضد الكيببيادس إلا شك ضئيل، والتهم التي الصقها به بعض العبيد والاجانب. إلا أن أعداءه زادوا في هجومهم عنفاً أثناء غيابه ووجدوا بين كسر التماثيل، والكفر بالأسرار وصورها كأنما أرتكبت معاً تمهيداً لعين المؤامرة التي كانت ترمي الى قلب الحكومة^(٣٥). وشرعت الجمعية في زج كل المتهمين في السجن دون تفريق ودون سماع دفاع منهم، وأدركهم الندم بالنظر الى جسامة التهمة - لأنهم لم يجروا محاكمة الكيببيادس وإصدار حكم بحقه في حينه. وعومل كل أصدقائه ومعارفه الذين وقعوا في يد الشعب وهو في سورة غضبه هذه المعاملة فظة وعذب. ولم يذكر [ثوكيديدس] اسماء المخبرين^(٣٦) إلا ان غيره من الكتاب اوردوا اسم [ديوقليدس Diocles] و[تيوسر Teucer]. ومن هؤلاء الشعاع الساخر [فرينيخوس Phrynichus] الذي نجد في شعره الأبيات التالية:

بربك يا [هرميس]^(*) العزيز! كن على حذر وانتبه لثا يكسر انفك المرمري. فلو لحق بك أذى فقد تدرك الحاجة بك الى [ديوقليدس] جديد ليطلق كذبة.

ويرد الشاعر نفسه عن لسان [مارس] بالجواب التالي: «سأفعل ذلك وأكون على حذر ولن

(٣٤) في السنة الثانية من الاولبياد الحادي والتسعين اي في منتصف صيف ٤١٥ ق.م.

(٣٥) قالوا انه دبّر مؤامرة لتسليم المدينة للبيديين وانه أقنع الاركيف بالغدر بهم.

(٣٦) مع هذا ذكر اندركلس [٦٥:٨] باعتباره واحداً من خصوم الكيببيادس الالاء الى جانب شركة بينونيكوس واندوكيدس. اما المخبرون فهم عبد اسمه [اندروماخوس] و[تيفكر] الميغاري الذي أقر على نفسه وليس على الكيببيادس. و[اغاريسي زوج] [الكمايونيدس] و[ليدوس] وهو من عبيد [فيريكوس] ونال [تيفكر] ألف دراهماً من الخزينة العامة مكافأة. وأبرز [ديوقليدس] عبداً من عبيده ليشهد بانه رأى على ضوء القمر أكثر من ثلاثمائة رجل وهم دائبون على تشويه التماثيل. وأشار بالاسم الى أربعين منهم بينهم [اندوقيدس] واعضاء اسرته وابيه إلا ان [اندوقيدس] اتهمه بشهادة الزور وأثبت التهمة عليه فحكم عليه بالموت وجرى تنفيذه به.

(*) عطارد = مارس.

القبض عليه، بل يتوجهون اليه بكامل الإحترام ويطلبون منه بأدب أن يتبعهم الى اثينا لحضور المحاكمة وتبرئة نفسه امام الشعب. وكانوا يخشون عصيان الجيش وقرده في بلاد العدو وهو في الواقع من أسهل الأمور عند [الكيببىادس] لو رغب فيه. فقد هبطت معنوية الجنود عند رحيله، وأعتقدوا أن الحرب في المستقبل ستنهج نهجاً متباطئاً متعثراً تحت قيادة نسياس. إذا ما سُحب الكيببىادس من القيادة لأنه كان بمثابة مهماز لاحتثاث القتال. فمع أن لاماخوس كان مثال المعسكري المقدام، إلا أن فقره جرّده من السلطة والاحترام في الجيش.

وكان من أثر رحيل الكيببىادس انه اخرج [ميسيلنا] في ايدي الأثينيين^(٣٧). اذ كان يوجد لطائفة من سكانها رغبة في تسليمها وعندما ارادوا ذلك أبلغ الكيببىادس السيراكوزيين بالأمر وكان يعرف الأشخاص، فأحبط المشروع كله. وعندما بلغ [ثوري] نزل الى الساحل وأخفى نفسه عن أولئك الذين يبحثون عنه. إلا أنه كشف عن نفسه لواحد يعرفه فسأله هذا اليس له ثقة ببلاده؟ فأجاب الكيببىادس «أثق بها في أي شيء، ما خلا الأمور التي تمس حياتي، ففي هذه لا أثق حتى بأمي، اذ ربما زلت يدها فألقت بالكرية السوداء بدلاً عن الكرية البيضاء» ولما سمع فيما بعد ان الجمعية نطقت بحكم الموت عليه، كان كل ما قاله هو هذا «لأجعلهم يشعرون بأني حي!».

وكان نص لاتحة الاتهام التي رفعت ضده كما يأتي: «تسالوس ابن كيمون، من مدينة لاشيا Lacia: «يعرض بلاغ اتهام الكيببىادس ابن كلينياس من مدينة اسكامبونيدا Scambonida بأرتكاب جرم ضد الرب [سيريس] والربة [پروسپرين]، بتمثيل الأسرار المقدمة تمثيلاً هزلياً محقراً، وعرض ذلك على اصحابه في منزله حيث أرتدى حلاً لا يلبسها إلا رئيس الكهنة عندما يقوم بعرض الذخائر المقدسة، وأتخذ لنفسه منصب رئيس الكهنة وجعل پوليتيون حاملاً للمشعل وثيرودورس من مدينة [فيجيا Phegaea] منادياً. وحيماً بقيه اصحابه باعتبارهم رهباناً ومكرسين مستجدين Myastae، فعل كل ذلك ضد قوانين ودستور [الايومبوليدي Eumolpidae]^(٣٨) ومنادي وكهنة معبد [اليوميس]».

(٣٧) ركب سفينة خاصة به لا سفينة تعود الى [سلاميس ميساننا] وذلك في ايلول في العام ٤١٥ ق.م.
(٣٨) كلمة Mystae تعني أولئك الذين رشحوا او كرسوا لتلقى الأسرار. وهؤلاء يجب ان يبقوا سنة واحدة تحت الاختبار وليس لهم خلال هذه المرة أن يتقدموا في أكثر من ممر الهيكل. ولا يساهمون إلا في الأسرار الدنيا. وفي آخر السنة تفتح لهم ابواب المذبح ليشاهدوا الربة بكامل بهائها. ان پومپولوس وهو مواطن تراقي سكن [ايلبوس] كان أول من رتب وأنشأ هذه الأسرار الخاصة بالربة [كيريس] ولذلك صار نسله سدنة لها. واذا انقرض النسل فمن يخلقه يجب أن يلقب بلقبه [انظر باوسنياس ١: ٣٨].

وحكم أيضاً بتهمة الاستخفاف بالمحكمة لعدم حضوره وصودر كل ممتلكاته وأمر كل الكهنة والكاهنات بلعانه رسمياً إلا أن [ثيانو Theano] بنت [منون Menon] من مدينة [ارغول] عارضت في هذا الجزء من الحكم وعلى ما ذكر- انها قالت ان واجبها الديني المقدس يحتم عليها ان تقدم الصلاة والدعاء لا اللعنات والشتائم.

وبادر الكيببىادس وهو مثقل بهذه الأحكام والعقوبات القاسية، الى الفرار من [ثوري] أولاً واتجه الى الپيلوپونيسوس مستقراً في [ارغوس] فترة من الزمن. ولما وجد ان لا أمل هناك في العودة الى بلاده وخوفه من أعدائه، بعث يطلب من حكام سبارطا الأمان وحق اللجوء السياسي مؤكداً لهم بأنه سيعوض لهم بخدماته المقبلة عن كل الأذى الذي لحقهم منه عندما كان عدواً لهم. فمحتته سبارطا الأمان المطلوب فأسرع الرحيل اليها، وأحسنوا استقباله، وتمكن حال وصوله من اقناعهم بلا حذر أو تردد - بأن يرسلوا مساعدات للسيراقوزيين واشتد في حثهم واثارة حماسهم حتى انهم بعثوا فوراً [غليلپوس Gylippus]^(٣٩) الى صقلية لسحق القوات التي يملكها الأثينيون هناك. والنقطة الثانية التي أشار بها، هي تحديد الحرب ضد الأثينيين وقتالهم في عقردارهم. أما النصيحة الثالثة وهي الأهم، فكانت تقضى بتحسينهم [ديكيليا Decelea] وهذا من شأنه ان يستنفد ويقضي على موارد الأثينيين وجمهوريتهم^(٤٠).

إن الشهرة التي كسبها من هذه الخدمات العامة تعادل الإعجاب الذي أثارته حياته الخاصة في النفوس. فقد أجتذب وسحر كل الناس بتعوده وتخلقه الاخلاق السبارطية. فالناس الذين رأوه يحلق شعر رأسه ويستحم بالماء البارد ويأكل وجبة طعام بدائية ويتعشى بالشورباة السوداء، يشكون، بله لا يصدقون بأنه كان لديه طاه في بيته. أو أنه عرف حلاًقاً أو أنه لبس في حياته عباة من الارجوان الميليزي. وقد لوحظ عنه أنه تميز بتلك العبقرية العجيبة والبصيرة النفاذة التي مكنته من خطب ود الناس، فهو عظيم المقدره على ترويض نفسه بسرعة، يسهل عليه تبنى عادات الناس وطرق عيشهم، وممارستها بلا حرج أو تكلف، ويتلون

(٣٩) لم يضع [ثوكيديدس] اسم هذا الجنرال على لسان الكيببىادس اثناء الخطبة.

(٤٠) هاجن (أغيس) ملك اللقيديمين أتيا على رأس جيشه والكورنثيين وغيرهم من أقوام الپلپونيسي، وبناء على مشورة الكيببىادس احتل [ديكيليا] وحصنها في السنة الرابعة من الاولبياد الواحد والتسعين = ربيع العام ٤١٣ ق.م وتقع على منتصف الطريق بين أثينا وحدود بويوتيا. وبهذا حرم الأثينيون من مناجم الفضة. ومن بدلات ايجار اراضهم. ونجدات جيرانهم. وعرض قطعان مواشيههم للنهب. وامن ملجأ لعبيدهم الأبقين الذين ترك ما يزيد عن عشرين الفاً منهم أثينا ومعظمهم صناع ماهرون وفنيون. لكن النكبة الكبرى وقعت في بداية الحرب وفي صقلية فقد خسروا أهدافهم فضلاً عن سمعتهم وأسطولهم وجيشهم وقواده.

وتوسط [البويوتيون] لأهل [ليسيوس] وتدخل [فارنابازوس Pharnabazus] لصالح أهل [سزيكوس]. لكنهم فضلوا أولاً مساعدة [خيوس] قبل غيرها بسعي الكيببازوس.

وركب هو نفسه متن البحر وطاف أرجاء آيونيا ونشر الثورة فيها بصورة مفاجئة وألحق بالآثينيين افدح الخسائر والأضرار بالتعاون مع قادة للقيديونيين. إلا أن [أغيس] ظلّ يلاحقه بالعداء بسبب ما لما فعل بزوجه، وبدافع الحسد منه للمجد الذي ناله؛ ولم يكن وحده في هذا الحسد، بل جراه فيه أعيان سبارطا وعظماؤها، إذ كانت تعزى الى مقدرته كلّ مآثرة أو موقعة ناجحة، وبالأخير حملوا حكام المدينة على إرسال الأوامر الى آيونيا، لقتله، ولكنه أبلغ مقدماً وبالسرّ فخشي النتائج، إلاّ انه ظلّ يتعاون وتعاوناً وثيقاً مع اللقيديونيين مع أخذه الحذر بالألّا يقع تحت رحمتهم. وبالأخير يمّ شطر [طيسافيرنس] نائب ملك الفرس، ومالبت أن عدّ أقرب المقربين اليه وأوسعهم نفوذاً. فهذا البربري الذي لم يكن قطّ طيب القلب والنوايا بل أخاً مكرّ وشرّ، أعجب بمجلس الكيببازوس، ودهائه العجيب. والحق يقال إن جاذبية حديثه وعشرته اليومية لم تقو على مقاومتها أي طبيعة بشرية. ولا يتخلص من أسرها أمرء، ولا يستثنى من ذلك أولئك الذين خافوه وحسدوه فهولاء أيضاً كانوا يضررون له نوعاً من العطف ويستأنسون بمجلسه ويرتاحون الى صحبته لذلك انجذب [طيسافيرنس] علق الكيببازوس ومداهنته وهو الفظّ بطبعه، وعدوّ الأغرقيق الأول - واندفع الى منافسة صاحبه في التواؤم والأكرام بما لا مزيد عليه حتى انه أمر باطلاق اسم «الكيببازوس» على أجمل بساينته التي كانت تحتوي على مجاري ماء صحية، ومماشي وأرصفة وخمائل وجواسق للاستراحة، وتوفّر على تحميلها باروع الزخارف وافخمها. وبقيت تعرف باسمه ويشار اليها كذلك.

هكذا عاف الكيببازوس خدمة مصالح السبارطيين بعد أن فقد ثقته فيهم ولخوفه غدر [أغيس]، وطفق ينسج الخطط للايقاع بهم. وراح يقبحهم في عين [طيسافيرنس] ويخصّه على قطع سيل المساعدات عنهم وقصرها على القليل. ويثنيه عن تشجيعه لهم على تدمير آثينا التام. وان يزودهم بالقليل القليل من المال، لإتباعهم وأضعافهم تدريجاً دون أن يشعروا، فاذا استنزف الجانيان قواهما بحرب سجال طويلة الأمد، كانا على أتم الاستعداد للخضوع معاً لملك الفرس. فاستحسن [طيسافيرنس] مشورته وطبقها حالاً وأخذ يلهج به ويعلن عن أعجابه الشديد به. وأخذ سائر الأغرقيق ينظرون نظرة أمل ورجاء في السيببازوس، والآثينيون المتحنون في بلواهم، خالطهم الندم أيضاً على العقوبة القاسية التي فرضوها عليه. كما أنه كان شديد القلق والخوف من وقوعه في يد اللقيديونيين اعدائه لو قدر لهم القضاء على جمهورية آثينا قضاءً تاماً.

بأسرع مما تتلون الحرباء، والقول الشائع ان الحرباء تستطيع أن تتخذ لنفسها اي لون تشاء إلاّ لوناً واحداً وهو الأبيض، غير ان [الكيببازوس] كان قادراً عن تكييف نفسه والانسجام مع أي جماعة يجد نفسه فيها، أشراراً كانوا أم أحياناً، وبالسهولة نفسها يمكنه أن يتجلبب بثوب الفضيلة أو الرذيلة، حسبما يميله الموقف. ففي سبارطا انصرف انصرافاً تاماً الى الرياضة البدنية، وظهر بمظهر المتحفظ المقتصد. وفي آيونيا كشف عن نفس مرحة خالية البال مترفة خلّود الى الكسل والخمول. وفي تراقيا لم يكن يصحو من سكر أو يغادر مجلس شراب. وفي تساليا تراه وكأنه سمرّ على سهوات الخيل. وعندما كذف به العيش الى كنف [طيسافيرنس Tisaphernes] نائب الملك الفارسي، ظهر على جميع الفرس وبزهم في معالم الأبهة والفخفة. وما ذلك لأن مزاجه الطبيعي سهل التغيير ولا لأن أخلاقه الحقيقية ذات جوانب متعددة، بل لأنه وهب قابلية فذة في أن يلبس لكلّ حالة لبوسها، وأن يتخذ الهيئة المناسبة كلما أحسّ بأن ممارسة ما تعودده ودرج عليه قد يكون مصدر ضيق وازعاج لعشيرته أو جليسه فقد ابى إلاّ أن يحرص على حسن المعشر عند من يخاطبهم... وان رآه. أحد في لقيديون وحكم عليه بمظهره الخارجي لما وسعه إلاّ بالتمثّل بمأثور القول: «ليس هذا ابن [أخيل]، بل أخيل نفسه» الذي اجتهد [ليكورغوس] في تكوينه أما ميوله وتصرفاته الحقيقية الأصيلة فقد كانت تشير مثل هذه التساؤلات «أظلت المرأة نفسها أم بدلت؟»^(٤١) فقد أغوى الكيببازوس [تيميا Timaea] زوج [أغيس] الملك اثناء غيابه مع الجيش في الخارج فحبلت منه، ولم تحاول نكران ذلك. ولما وضعت حملها وكان ذكراً سمته رسمياً [ليوتخيدس Leotyichides] إلاّ انها كانت تسرّ لصديقاتها وخدمها همساً بأن اسمه [الكيببازوس]، الى هذا الحدّ بلغ بها العشق. أما هو فيقول بلهجة اللامبالي «لم أقدم على ذلك لمجرد الاستمتاع بالإهانة، ولا اشباعاً لعاطفة، بل قدرت أن يكون قومه ملوكاً على اللقيديونيين يوماً ما».

وانهى كثير من الناس الى [أغيس] بالقصة، إلاّ أن صروف الزمان كانت أقوى مؤيد لها. فقد قلقت نفس [أغيس] من هزة ارضية، فابتعد عن زوجه [تيميا] ولما يطأها طوال عشر أشهر، وبما أن وضع [ليوتخيدس] حصل بعد هذه الفترة مباشرة فانه لم يعترف بالبنوة، ولهذا لم يورثه العرش.

على أثر الهزيمة التي حلّت بآثينا في صقلية بعثت [خيوس] و[ليسيوس] و[سيزيكوس Cyzicus] بسفراء الى سبارطا لينهوا اليها بعزمهم على شق عصا الطاعة على آثينا.

(٤١) هذا البيت انشدته (الكترا) عن لسان (هيلين) في (اورستس) وهي تمثيلية ليوربيدس. بعد أن اكتشف بها وقد تقدمت بها السن نفس المباهاة والاعتزاز بجمالها.

في ذلك الحين كانت آثينا قد حشدت كل قواتها في [ساموس] (*) وعبأت أسطولها هناك وجعلتها نقطة انطلاق لاختراع من شق عصا الطاعة عليهم من الحليفات، ولحماية ما تبقى من ممتلكاتهم. وحاولوا بمختلف الوسائل الصمود لاعدائهم في البحر. وكان أخوف ما يخافونه [طيسافيرنس] والأسطول الفينيقي ببوارجه المائة والخمسين الذي قيل انه انطلق في عرض البحر. فلو وصل هذا الاسطول، لرجحت كفة الأعداء وفقدت الجمهورية كل أمل.

أدرك الكيببىداس هذا كله، فبادر في الحال الى الاتصال سراً بزعماء قومه وكانوا في [ساموس] ونفخ فيهم روح الأمل بقوله انه سيسعى الى جعل [طيسافيرنس] صديقاً لهم؛ وانه لايقدم على هذا العمل الطيب حباً في اوزاع الشعب ودهمائهم، ولا كسباً لهم وتوخياً للاعتماد عليهم، بل لأجل فضلاء المواطنين وأخبارهم إن هم أقدموا على محاولة القضاء على عتو الدهماء، كرجال شجعان. وتسلم أزمة الحكم، والعمل على انقاذ المدينة من الفوضى. فحبذ الجميع اقتراح الكيببىداس، ولم يعارض إلا القائد [فرينيكوس Phrynichus] [الديراديسي Dirades] فقد أبدى شكه -وله الحق في ذلك- بان الكيببىداس لايهتم سواء أظلت الحكومة بيد الشعب أو انتقلت الى طبقة المواطنين العليا، وهو الآن ينشد بكل وسيلة، التوسط لعودته الى أرض الوطن، فراح يحرض على الشعب ويؤلب ليكسب الآخرين الى صفه، ولأجل أن يأسر عقولهم ويقع عندهم موقعاً حسناً». ولكنه كان كمن يضرب على حديد بارد. وادرك أنه جاهر بعداوة لالسكيببىداس لارجوع له عنها. فخابر في السر [أستيوخوس Astyochoch] قائد اسطول العدو محذراً اياه من السكيببىداس، ومشيراً أن يقبض عليه بتهمة الغش والخيانة. ولم يكن يدري إنه خائن يتعامل مع خائن آخر!

فاستيوخوس كان متلهفاً لنيل الخطوة عند [طيسافيرنس] عن طريق السكيببىداس، فبادر الى نقل كل ما ورده من [فرينيكوس] الى الكيببىداس. فأسرع الى ارسال رسل الى [ساموس] ليفضح خيانة [فرينيكوس]. فبلغ حنق القادة على زميلهم مبلغاً عظيماً وتكالبوا عليه يويخونه ويهاجمونه. ولم يجد سبيلاً لانقاذ نفسه من المأزق، وكان الخطر يطبق عليه. فحاول اصلاح الشرّ بشرٍ أعظم وبعث برسالة أخرى الى [اسطيوخوس] يعاتبه فيها على فيمته والفضيحة التي سببها له. وقدم له في الوقت نفسه عرضاً جديداً، يتم بمقتضاه تسليم كل قطع الاسطول الآثيني مع جيشهم اليه. ولم يصب الآثينيون بضررٍ جوار ذلك، اذ عاد [اسطيوخوس] ينقل الاقتراح لالكيببىداس. وكان [فرينيكوس] يتوقع ذلك منه وينظر تهمة جديدة يبعث بها الكيببىداس الى بني قومه، فلأجل أن يردّ الكيد عنه ويقلل من أهمية نبأ

(*) في شتاء ٤١٢-٤١١ ق.م.

الكيببىداس، أنذر وأشار بتحسين المعسكرات والتأهب لركوب السفن. وفيما كان الآثينيون منهمكين في استعدادهم، وصلتهم رسائل أخرى من السيببىداس فيها تحذير لهم من [فرينيكوس] لأنه يريد تسليم اسطولهم الى الأعداء. فلم يهتموا بالخبر هذه المرة، وقدرُوا أن السيببىداس الذي كان على بينة تامة من خطط العدو واستعداده، يبقى من تلك المعلومات مجرد الفائدة الشخصية، ليحسن في عينهم ويدخل في آذانهم صحة التهمة التي عزاها الى [فرينيكوس] (*).

لكن عندما هجم [هرمون Hermon] على [فرينيكوس] في ساحة السوق وقضى عليه بطعنة خنجر، بوشر بالتحقيق عن اسباب القتل، وكانت النتيجة ادانة القتل رسمياً بالخيانة، ومكافأة القاتل بصفير أكاليل الغار على رأسه ورؤوس شركائه، عمد اصدقاء [الكيببىداس] المقيمون في آثينا الى شرح المسألة للزعماء الآثينيين في [ساموس] فبادر هؤلاء الى ارسال [بيساندر Pisander] ليقوم بمحاولة قلب نظام الحكم في العاصمة وليبث الشجاعة في نفوس المواطنين الارستقراطيين، حتى يأخذوا مقاليد الحكم بأيديهم، ويزيلوا النظام الديمقراطي، وان يضع أمامهم اقتراح [السكيببىداس] بالسعي لكسب صداقة [طيسافيرنس] ومخالفته، عند وقوع هذا التغيير.

هذا هو اللون الذي تلون به، والزعم الذي روج له، أولئك الذين تأمروا على الاطاحة بالنظام الديمقراطي في آثينا واقامة حكومة الاوليغارشية في مكانه. ما أن نجحوا في مسعاهم وسيطروا على الحكم تحت اسم «حكومة الألاف الخمسة» [في حين لم يكونوا غير اربعمائة] (٤٢). حتى نبذوا السكيببىداس وأهملوا أمره. وراحوا يتقاعسون في ادارة دفة الحرب لأنهم من جهة كانوا يوجسون خيفة من الشعب الناقم على هذه الردة والكاره لها ولأنهم من جهة أخرى كانوا يأملون من اللقيديميونيين شروط صلح مناسبة. لأن هؤلاء كانوا دوماً على وئام مع حكومات القلة.

وأرغم أهل المدينة على الخضوع لأساليب القمع والاضطهاد، وأعدم المستبدون عدداً كبيراً

(*) في صيف ٤١١ ق.م بعد أن عزل فرينيكوس من قيادته في ساموس وأظهر نفسه مسانداً متحمساً للثوريين الاربعمئة في آثينا.

(٤٢) اقترح أولاً أن لا يخسر السلطة إلا للطبقة السفلى من عامة الشعب وان توضع بيد خمسة آلاف من أغنى المواطنين ومقدميهم لكن عندما اكتشف [بيساندر] وزملاؤه قوة حزبهم اقترحوا اصدار قرار بالغاء نظام الحكم الحالي وأن ينتخب خمسة من الـ(پريتاني) وان لهؤلاء الخمسة الحق في انتخاب مائة. ولكل واحدة من المائة أن ينتخب ثلاثة وان هؤلاء الاربعمائة المنتخبين يكونون مجلس شيوخ تستقر فيه السلطة العليا. ويقوم المجلس باستشارة الخمسة آلاف كلما وجدوا حاجة لذلك. هذا وقد نجح المؤتمرون في سنّ هذا القرار. [توكيديس ٨: ٦٧ و ٦٨].

من تجراً على نقد ومعارضة «حكم الاربعمائة» علناً. ولما وردت هذه الانباء الى [ساموس] ثار الغضب بهم وتمتلكتهم رغبة الابحار فوراً الى [پيرئوس]. وبعثوا يطلبون من [الكيببئادس] الحضور، وانتخبوه جنراً، وامروه ان يقودهم للقضاء على المستبدين. فكان ردّ الفعل عنده خلافاً لما يتوقع اي امرء من رجل رفعه تقدير الجمهور على حين غرة الى مركز القيادة لم يجد السكيببئادس نفسه مرتبطاً باي عهد يقضى عليه بتنفيذ مطالب أولئك الذين خلقوا من لاجيء مطرود جنراً لئلاّ مثل هذا الجيش العظيم وقائداً لهذا الاسطول الضخم، ولا مجبراً على الخضوع لمشيئتهم وبادر بحكم منصب القيادة الذي تسلمه الى معارضة تلك القرارات الهوجاء التي ساقهم اليها غيظهم الفجائي. وسعى لمنعهم من اقرار الخطأ الجسيم الذي همّوا بالاقدم عليه وأنقذ بذلك الجمهورية من الفناء بحق وحقيق. فلو انهم ابحروا الى اثينا، لتركوا كل آيونيا والجزر وهللسپونت تقع غنيمه بارده في أيدي العدو دون اي مقاومة. في حين لا يكون للآثينيين المشغولين في حربهم الأهلية إلاّ قتال بعضهم بعضاً داخل أسوارهم. كان السببئاديس هو العامل الوحيد أو العامل الرئيس الذي حال دون الكارثة، ولم يقتصر على استخدام وسائل الأتباع مع قادة الجيش، بل نزل الى الجنود بنفسه واتصل بهم فرداً فرداً يرجو بعضهم ويضغط على بعضهم الآخر، وابدى [تراسيبولوس Thrasybulus] [الاستربائني Stiria] (*) صاحب أعلى صوت بين كل الآثينيين، همّة قعساء في هذا الصدد على ما قيل لنا. فقد ظلّ ملازماً لالسكيببئادس في جولاته لينادي أولئك الذي استعدوا للإبحار ويطلب منهم العودة.

وأدى السكيببئادس خدمة جلييلة أخرى. هي مسعاها لايقاف الاسطول الفينيقى الذي كان اللقيديميونيون يتوقعون ان يبعث به ملك الفرس لمساعدتهم، او لانحيازه الى جانب الآثينيين إن جاء. وبادر الى الأبحار على جناح السرعة لتحقيق ذلك. تقدمت العمارة البحرية حتى شوهدت بالقرب من [آسپيندوس Aspendus] (٤٣). إلاّ ان [طيسافيرنس] منع تقدمها الى ابعد من هذا نكايّة باللقيدميونيين إلاّ ان الفريقين اعتقدا انها لم تحرف عن قصدها إلاّ بمجهود السكيببئادس ومساعيه. واتهمه اللقيديميونيون خاصةً، بأنه نصح البرابرة بالوقوف على الحياد وترك الأغرئق يدمر بعضهم بعضاً، اذ كان واضحاً ان وصول مثل هذه القوة العظيمة الى أيّ فريق، سيرجح كفته على الآخر ويكفنه من الاستيلاء عن كل ممتلكات الآخر البحرية.

لم تمرّ فترة وجيزة، إلاّ وتمّ طرد «الاربعمائة» (٤٤) المستبدين من دست الحكم وراح اعوان

(*) يجب ان يميز هذا الجنرال الشهير عن ثراسيبولوس ثراسو (في الفقرة ٣٦).

(٤٣) مدينة ساحلية في [پامفيلية] بين رودس وقبرص.

(٤٤) اغتصبوا السلطة في حزيران ٤١١ ق.م. وتم القضاء عليهم في ايلول من تلك السنة. وهي السنة الثانية من الولىبياد الثاني والتسعين، ولنذكر القاريء بوجود التفريق بين هذا المجلس وبين مجلس الشيوخ =

الكيببئادس يدعمون بكلّ قواهم العناصر التي كانت تعمل على اعادة الحكم الديمقراطي. والجماهير الشعبية لم تكتف الآن بمجرد الرغبة في عودة الكيببئادس الى الوطن، بل أصدرت أمراً له بذلك. إلاّ انه لم يشأ أن يكون مديناً بمنّة للشعب ولا ان يكون موضع اشفاقه. وحلف ان لا يطيأ ارض الوطن خالي الوفاض، بل مثقلاً بمجد أو خدمة للبلاد. ولذلك ابحر من ساموس بعدد قليل من السفن ومخر عباب بحر [كئيدوس Cnidus] وحوّم حول جزيرة [كوس Cos]. ولما بلغه ان [مينداروس Mindarus] قائد الاسطول السپارطي قد خرج بكلّ عمارته الى [هللسپونت] وان الآثينيين يجرون في أعقابيه. لوى عنانه وأسرع يلحق بالقواد الآثينيين. وشاء حسن الخط ان يكون وصوله في اخرج ساعة بسفنه الثماني عشرة. فقد اشتبك الاسطولان قرب [ابيدوس Abydos] في معركة ضارية وأستمر القتال حتى الليل. سجلاً ولم يستظهر فريق على آخر استظهاراً بيئاً. وكان رجحان الكفة موضعياً. هذا متغلب هنا وذاك مستظهر هناك والعكس بالعكس. وخلف ظهور سفنه في نفوس الفريقين اعتقادين خاطئين إذ ارتفعت معنويات العدو. وأدرك الآثينيين الفزع، إلاّ انه رفع العلم الآثيني على صاري سفينة القيادة. وحمل حملة صادقة على سفن الپلويونييسوس التي كانت بيدها المبادأة وهي تطارد سفن الآثينيين. فهزمتها ومزقتها وأخذ يطاردها من مسافة قريبة حتى أرغمها على الجنوح الى الساحل فتحتمطت عليه، فتركها بحارتها وسبحوا الى البر. رغم وجود [فارنابازوس] الذي خف الى معونتهم برآ، وعمل ما أمكنه لحمايتهم من جهة الساحل. وبالاختصار، غنم الآثينيون من الاعداء ثلاثين سفينة وأستعادوا كل سفنهم الأسيرة. وأقاموا نصباً تذكاريّاً لانتصارهم.

بعد أن ظفر الكيببئادس بهذا النصر الكبير، أبى عليه زهوه وخيلاؤه إلاّ أن يُشهد [طيسافيرنس] على حاله الجديدة، فتزود بالهدايا والجوائز، وأعتدّ بكل ما يتفق ومنزلته وأنطلق لزيارته. إلاّ ان النجاح لم يحالفه في هذا كما تصور [طيسافيرنس] كان منذ زمن بعيد موضع ريبه اللقيديميونيين، وفيه خوف من سخط الملك لهذا السبب وجد في زيارة الكيببئادس فرصة نادرة فقبض عليه وأرسله سجيناً الى [سارديس] متوهماً بأن عمله الشائن هذا سيرفعه في عين الملك ويكون له صك براءة من اي أيام سابق.

ولكن لم يمض شهرٌ واحدٌ على أعتقاله حتى أفلح في الهروب، ويجواد حصل عليه تمكن من الوصول الى [كلازوميني Glazomenae]، وهناك ألبس أسره [طيسافيرنس] ثوب عارٍ جديد باعلانه أنه كان مسهماً في خطّة فراره. ومن هناك رحل الى معسكر الجيش الآثيني (*).

= الذي ابتدعه صولون ويتكون من عددٍ مساوٍ.

(*) في مبدء ربيع ٤١٠ ق.م. كان الآثينيون في كارديا وهي مدينة بالخرسونيز الشرقية.

حيث علم أن القائدين [منداروس] و[فارنابازوس] موجودان معاً في [سيزيكوس]. فقام بين الجنود خطيباً. ومما قاله «إن القتال براً والقتال بحراً - ولعمري الآلهة- القتال ضد المدن المحصنة، يجب أن يكون قتالاً واحداً غير مجزأ بالنسبة اليهم. وإن لم يحققوا نصراً كاملاً في كل مكان فلن يوجد مالٌ لهم.» ثم أمر بركوب السفن واتجه مسرعاً الى [پروكونيسوس Pro-connesus]. وأصدر أمره باحتجاز كل ما يعترض الاسطول من المراكب والسفن الصغيرة وايداعها في الوسط لئلا يسبق العدو علم بقدمه، وزاد في سره كتماناً هبوب عاصفة مطرية عظيمة صاحبها رعدٌ وظلام داجن. والحق يقال أن العدو لم يكن الوحيد في جهله، لأن الآثينيين أنفسهم ما كانوا يعرفون وجهة سيرهم فالأمر كان فجائياً غامضاً قاصراً على ركوب السفن واطلاقها في عرض البحر، دون وجود نية مسبقة. وبعد ان انجاب الظلام شوهد الأسطول الپلويونيسي جاثماً على مقربة من ميناء [سيزيكوس] يختال فوق سطح الماء. وخشي الكيببىداس أن يكتشفوا قوته الحقيقية فيصيبهم الذعر ويحاولون النجاة بالهروب براً، أمر بقية ضباط السفن ان يخففوا السرعة ويلحقوا به عن كثب. بينما تقدم هو بأربعين بارجة وأظهر نفسه للعدو وأستفزه للمعركة، فانخدع العدو بضآلة عدد السفن واستهانوا بها وبأدائه القتال وكل اعتقادهم أن عدوهم لا يملك غير هذه القوة. ولكن ما أن حمي الوطيس حتى لاحظت طلائع القسم الأكبر من الأسطول واطبقت عليهم فأدركهم الذعر ونزلوا البر لاثنين بالفرار، إلا أن الكيببىداس أخترق القلب، بعشرين من أفضل سفنه وأسرع الى الساحل وأنزل جنوده وشرع في مطاردة العدو الذي ترك سفنه وهرب براً، ففتك بعدد كبير منهم، وخفّ [فارنابازوس] و[منداروس] لمعونتهم ولكنهما هزما شرّ هزيمة وقتل [منداروس] بعد ان أبلى خير بلاء وفرّ [فارنابازوس] ناجياً بجلده وغنم الآثينيين عدداً كبيراً من قتلى العدو^(٤٥) وأسلاباً كثيرة وأسروا سفنهم وأحتلوا [سيزيكوس] التي جلا عنها [فارنابازوس] وابدوا حاميتها الپلويونيسيّة. وبذلك لم يكن كسبهم قاصراً على [هللسپونت] وأما طردوا اللقيديونيين بالقوة من كل البحار الأخرى. وضبطوا عدداً من الرسائل كانت في طريقها الى حكام سپارطا، جاء فيها شرح للهزيمة الساحقة بالأسلوب السپارطي الموجز المقتضب «آمالنا قُضي عليها. [منداروس] قتل. الرجال يشكون الجوع. لاندري ما نفعل...».

وبلغ الزهو والغرور بالجنود الذين حاربوا تحت أمرة الكيببىداس في القتال الأخير حداً عظيماً، وثلما بخمرة النصر حتى أنهم راحوا ينظرون الى أنفسهم نظرة صنديد لا يشق لهم

(٤٥) ليس هذا التعبير غريباً. فلجث القتلى حرمتها الكبيرة وهي تفتدى كذلك. وما علينا إلا التذكر بان الآثينيين فرضوا عقوبة الموت على قوادهم المنتصرين في معركة [أرغيتس] لإهمالهم دفن القتلى.

غبار ولا يقف دونهم شيء. وترفعوا عن مخالطة الجنود الآخرين الذي عانوا عدداً من الهزائم. اذ حدث قبل فترة غير طويلة^(*) ان [ثراسيللوس Thrasyllus] أصيب بهزيمة قرب [أفسس] وان الأفسوسيين أقاموا نصباً تذكاريّاً من النحاس ازدراءً بالآثينيين^(٤٦). فراح جنود الكيببىداس يعيرون الجنود الذين كانوا تحت أمرة [ثراسيللوس] بهذه النكسة معظمين أنفسهم وقائدهم في الوقت نفسه كما انهم رفضوا القيام بالتدريب العسكري معهم أو مساكنتهم معسكراً واحداً. ولكن لم يمرّ طويل زمن إلا وهاجم فارنابازوس بقوات عظيمة من المشاة والخيالة - وحدات تراسيللوس التي كانت منصرفه الى السلب والنهب في ارض [ابيدوس]. فخفف الكيببىداس اليه وتعاونوا على هزيمة [فارنابازوس] وجداً في أثره حتى جن الليل. هذه الحادثة ألفت بين القلوب وعاد الجميع الى المعسكرات جذلين يهنيء بعضهم بعضاً. وفي اليوم التالي أقام الكيببىداس نصباً تذكاريّاً، وأنطلق لاجتياح كل الاقاليم الذي يسيطر عليها [فارنابازوس] مستخدماً السيف والنار فلم يقف في سبيله أحد. وأسر عدداً كبيراً من طبقة الكهنة والكاهنات، إلا أنه أطلقهم بدون فدية. ثم استعدّ لمهاجمة الخلقيدونيين^(٤٧) الذين كانوا قد شقوا عصا الطاعة على آثينا، وقبلوا بحاكم وحامية من لقيديونيا. لكنه استخبر بأنهم نقلوا غلالهم وماشيتهم من حقولهم وادعوها اصدقائهم البيثيين، فوجه حملته نحو تخوم هؤلاء، وبعث رسولاً يتهمهم بهذا العمل. وكان ذعرهم من زحفه عظيم الوقع اذ مالبتوا أن سلّموا له الغنائم ودخلوا معه في حلف.

فانثنى الى [خلقيدون] والقى عليها الحصار وأحاطها بسورٍ من البحر الى البحر^(*) لعزلها تماماً، فزحف [فارنابازوس] عليه بقواته لفك الحصار، وحشد هيبوقريطس حاكم المدينة كل قواته وحمل على الآثينيين في عين الوقت، فقسم الكيببىداس قواته الى قسمين لمقاومة العدوين في آن واحد، وأرغم [فارنابازوس] على فرار مخجل، وكرّ على هيبوقريطس وهزمه وقتله مع عدد من جنوده. وبعدها أبحر الى [هللسپونت] للتزود بالمال، فأستولى على مدينة [سيلمبريا Selymbria]^(٤٨). وهنا تعرض الى خطر جسيم بسبب تهوره وقلة حذره. فقد تعهد. بعض السكان أن يسلموا له المدينة بلا حرب وكان الاتفاق يقضى أن يعطيه المؤتمرون الإشارة بالدخول

(*) في صيف ٤١٠ ق.م بعدنصر كيزكوس.

(٤٦) كانت الانصاب في باديء الأمر تقام من الخشب وتبقى حتى يعفو عنها الزمن ويمسح العدا بين الشعوب مسحاً. إلا ان الأفسسيين أقاموا النصب من النحاس تخليداً لذكرى العار لآثيني. ولهذا راح جنود (الكيببىداس) يسخرون من جنود (ثراسيللوس).

(٤٧) مدينة على الپوسفور الأيمن وأنت تتجه الى البحر الأسود.

(*) في ربيع ٤٠٩ ق.م.

(٤٨) مدينة في تراقيا على ساحل (پروپونتس). كزينفون يسميها سيامبرايا.

من مشعلٍ مضاء يرفع فوق السور بعد منتصف الليل لكن احد المتآمرين خالجه الندم عن الخيانة، فخشي الآخرون أن يفتضح أمرهم، وأكروهوا على إعطاء الإشارة قبل الموعد المتفق عليه وما ان لمح الكيبيادس المشعل مرتفعاً في الهواء حتى هرع الى الأسوار، ولم يكن جيشه متأهباً بعد، ولذلك كان في رفقته ثلاثون رجلاً تقريباً. بعد أن أمر أن يلحق به الجيش بأسرع ما يمكن. وبلغ السور ليجد الباب مفتوحاً له، فوجه مع رجاله الثلاثين وعشرين آخرين من ذوي السلاح الخفيف لحقوا به في آخر لحظة. وما أن صارت الشرذمة داخل المدينة حتى جوبهوا بأهاليها يحملون عليهم شاكى السلاح. فبهت وتحير في أمره. اذا بقي وقرر الاشتباك معهم ضاع منه سبيل نجاته. أما النكوص فصعب عليه، إذ انه لم يعرف هزيمة، ولم يفر في معركة. ولهذا طلب السكوت بصوت النفير. ثم أنه أمر أحد رجاله أن يعلن قائلاً: «عبثاً ترفعون أيها السلميريون السلاح في وجه الآثينيين، هذه العبارة خفتت من غلواء الفريق التائق للقتال اذ توهموا ان كل جيش العدو قد صار ضمن اسوار المدينة. ورفعت معنويات الآخرين الذين أختاروا التفاهم على تسوية. وفيما هم يتبادلون الحديث ويتداولون الاقتراحات دخل كل جيش الكيبيادس المدينة. والآن وبعد تخمينه الصحيح بأن السلمبريين جانحون الى السلم حقاً، وخوفه ان يعمد التراقيون من جيشه الى نهب المدينة (وكانوا قد انضموا الى جيشه بأعداد كبيرة إكراماً له) أمرهم بالانسحاب خارج الأسوار كافة. ولتقديم المدينة الطاعة عفاها من النهب وفرض عليها غرامة مالية فحسب، ثم انسحب منها بعد أن وضع فيها حامية آثينية. وفي أثناء هذه الوقائع توصل القادة الآثينيون الذين يحاصرون حخلكيدون[الى عقد معاهدة صلح مع [فارنابازوس] على الشروط التالية:

أن يدفع لهم مبلغاً معيناً من المال وأن يعود الخلقيدونيون الى حمى جمهورية آثينا. وان لا يقوم الآثينيون بغارات على الأقليم الذي يحكمه [فارنابازوس] وأن يسمح [فارنابازوس] بمرور سفراء آثينا في طريقهم الى ملك الفرس.

ثم لما عاد الكيبيادس طلب [فارنابازوس] أن يصادق هو أيضاً على المعاهدة ويحلف يميناً على التمسك بها. فرفض الكيبيادس أن يفعل ذلك إلا بعد أن يحلف [فارنابازوس]. وعندما تمت المراسيم على هذا النحو، ساق الكيبيادس حملة على البيزنطيين الذين كانوا قد شقوا على آثينا عصا الطاعة، وأقام أطاماً حول المدينة^(*).

إلا أن [انكسلاووس Anxilaus] و[ليكورغوس] وآخرين عرضوا تسليم المدينة غيلةً اذا تعهد الكيبيادس بحفظ ارواح السكان وأموالهم، فنشروا اشاعة عن وجود حركة غير متوقعة

(*) أثناء شتاء ٤٠٩-٤٠٨ ق.م.

في آيونيا اضطرتة على رفع الحصار والانسحاب. وفي اليوم عينه أظهر علائم الرحيل والإقلاع بجميع الاسطول، إلا أنه عاد ليلاً وانزل الى الساحل كل جنوده وزحف نحو الأسوار بسكون وخفة وفي الوقت عينه أدخل سفنه الى الميناء مفتعلاً أقصى ما يمكن من الحركة والضجيج والصياح والعنف.

فاعترت البيزنطيين الدهشة وفوجئوا من حيث لايتوقعون وفيما هم يسرعون للدفاع عن مينائهم وسفنهم، سنحت الفرصة لأنصار الآثينيين بادخال الكيبيادس الى المدينة بكل أمان. ومع ذلك لم تنته المسألة بدون قتال، فقد تصدى الپلويونسسسيون والبويوتيون والميغاريون، الجنود الخارجين من السفن وأرغموهم على ركوبها ثانية، ولما سمعوا أن الآثينيين دخلوا من الجانب الآخر، نظموا صفوفهم وأندفعوا اليهم، على أن الكيبيادس تمكن من النصر بعد قتال ضار، وكان يقود بنفسه الميمنة و[ثيرامينيس Theramenes] يقود الميسرة. وأخذ ثلاثمائة أسير تقريباً، وهم كل ما تبقى من قوات العدو. وبعد انتهاء المعركة لم يقتل بيزنطي واحداً أو يطرد خارج المدينة تطبيقاً للشروط المتفق عليها لتسليم المدينة وهيبالاً يضار أحد من سكانها لا بنفسه ولا بماله. ووقف [انكسيلاووس] فيما بعد في لقيديمون متهماً بهذه الخيانة فلم يستنكر عمله، ولم يعترف بخطأه. وكانت حجته انه ليس لقيديونياً بل بيزنطياً وان الخطر لم يكن مُحققاً باسبارطا بل ببيزنطة. فقد أحكم الحصار حول المدينة واستحال نقل الارزاق اليها، وكان رجال حامية الپلويونسسسيين والبويوتيين يلتهمون كل ما هو مختزن في حين يتصور البيزنطيون جوعاً مع زوجاتهم وأطفالهم. ولذلك فانه لم يخن بلاده ويسلمها للعدو وانما انقذها من فواجع الحرب، متأثراً بذلك خطى معظم مشاهير رجال لقيديونيا الذين لا يرون أكثر شرفاً وكرامةً من تحقيق كل ما هو نافع لبلادهم. فأحترم اللقيديميين دفاعه هذا وبرأوا كل المتهمين.

وهز الشوق الكيبيادس الى موطنه أو بالأحرى تاق الى ان يعرض على بني قومه شخصاً ظفر لهم بانتصارات عديدة. فأبحر الى آثينا^(*) وزينت السفن التي رافقته بالعديد من التروس وغيرها من غنائم الحرب وسحبت خلفها كثيراً من البوراج التي أستولي عليها. مع شعارات وزينات الكثير الآخر الذي أغرق وحطّم، وبلغ مجموعها الكلي مائتين ولا يُعتد كثيراً بما أورده [دوريس Duris] الساموسي الذي يدعي نسباً بالكيبيادس - من القول أن [خريسوغونوس Chrysogonus] أحد الفائزين في الالعب [البيشية] كان ينظم حركة مجاذيف السفن بانغام نايه فتتحرك بانسجام الاليقاعات الموسيقية، وأن [كالبيديس Callip-

(*) من ساموس في ربيع ٤٠٨ ق.م.

[pides] الممثل التراجيديّ كان يلقي الكلام الى النوتية وهو مرتد جزمته وطيلسانه الأرجواني وماليها من حلله وحليّه السركسيّة. وان سفينة القيادة رفعت شراعاً أرجوانياً عند دخولها الميناء. كل هذه الوقائع لم يرد ذكرها عند [ثيوپومپوس أو ايفوروس أو غزينفون] والحقيقة هي أنه لا يُعقل البتة أن يعود المرء الى موطنه وقومه من نفي طويل الأمد تخلله كثير من المصائب والنوائب مثلما يعود نشوان طروباً من مجلسٍ لهو وشراب. وأمّا الواقع فكان بعكس هذا إذ دخل الكيببيادس الميناء متوجساً خيفة مرتعد الفرائض. ولم يجرؤ على النزول الي اليابسة حتى شاهد ابن عمّ له يدعي [يورپطموس Euryptemus] مع آخرين من أصدقائه ومعارفه، وهم وقوف على الرصيف متلهفون لاستقباله ودعوته للنزول. وما أن وطئت البرّ قدمه حتى اندفعت اليه الجماهير مستقبلةً وكأنها لا ترى أحداً من القواد الآخرين غيره. وتزاحمت عليه وتكأكات وحيتته بهتافات شقت عنان السماء وراحت تتبعه خطوة خطوة. وأخذ القريبون منه يضفرون الأكاليل على رأسه. أما الذين لم يصلوا اليه فقتنوا بالوقوف بعيداً ومتابعته بانظارهم. وكان كبار السنّ والعجزة يدكون الصغار عليه بالاشارة اليه. إلا أن الفرحة الشعبية ما زجها شيء من الدموع، والسعادة الحاضرة شابتها ذكرى مؤلمة للمصائب التي عانوها. وعاد بهم الفكر الى الماضي وتبينوا أنهم ما كانوا ليصابوا بنكسة صقلية، ولا ليهزموا في اي موقعة حربية لو تركوا تصريف الأمور وقيادة الجيوش للكيببيادس، لما تسلّم مقاليد الأمور قبلها كان حالهم سيئاً فقد قُضي على نفوذهم في البحر أو كاد. وعجزوا عن حماية ضواحي مدينتهم من البرّ، كما كان التناحر الحزبي قد مزقهم وبلغ بهم ضعفاً مشيناً من اليؤس. وسرعان ما انتشلهم من هدهتهم، وأنقذهم من حالتهم المزرية ولم يكفه أن يستعيد لهم سلطانهم الدائر على البحر بل قلب هزائمهم الى انتصارات في كل برّ.

سبق للشعب ان أصدر مرسوماً بعودة الكيببيادس من المنفى، بناءً على اقتراح [كريتياس Critias] (٤٩) ابن [كالليسخرس Gallaeschrus] كما يظهر من مرثيته التي أراد بها تذكرة الكيببيادس بالخدمة التي قدمها له:

من اقتراحي صدر ذلك المرسوم الذي جاء بك الى الوطن من منفك الشاق.
الاقتراع العام أنا الذي بدأت، وصوتي هو الذي وضع الختم على المرسوم.

(٤٩) صدر هذا المرسوم قبل ثلاث سنوات في آخر خريف العام ٤١١ ق.م. بعد اسقاط مجلس الاربعمائة وكريتياس هو ابن عم افلاطون وهو الذي ذكره في محاوراته وأصبح صديقاً للكيببيادس بعد عداؤهم مستحكم. ان الشهوة الى السلطة تدمر كل الروابط. فقد كان من الاعداء عندما أصبح الكيببيادس واحداً من الطغاة الثلاثين. وأرسل يؤكد ليساندر بأن أثينا لن ترتاح وسيارطا لن تأمن إلا بتصفية الكيببيادس. قتل [كريتياس] فيما بعد، قتله (ثراسيبولوس) عندما تولى هذا انقاذ أثينا من حكم الطغاة.

ثم دُعي الجمهور الى اجتماع عام (*)، ووقف الكيببيادس بينهم خطيباً فأسهب في وصف ما عاناه متأسياً متألماً. ثم شكاً بلهجة رقيقة من المعاملة الفظة التي عومل بها، وعزاها جميعاً الى معاندة الاقدار وشراً الجنّي الذي يلازم روحه. ثم انتقل فأفاض في الكلام عن مستقبلهم وأمانيتهم. وحثهم على التمسك باهداب الشجاعة والأمل الباسم. وقام المواطنون بوضع تيجان الذهب على مفرقه، وانتخبوه قائداً عاماً للبرّ والبحر ومنح صلاحيات مطلقة. كما أصدروا قراراً باعادة املاكه المصادرة اليه، واوعزوا الى اليومولبيدي Eumolpidae والمناديّ الأقدس، بحلّه من اللعان الديني الذي نطقوا به بموجب الحكم الصادر عليه فاطاع الجميع، إلا أن الكاهن الأعظم [ثيودوروس] أعتذر بقوله «إن هو برئ، فاني ما لعنته مطلقاً».

وبصرف النظر عن سير أمور الكيببيادس سيراً حسناً يتفق مع المجد الذي بلغه. فإن كثيراً من الناس ما زالوا قلقين بعض الشيء، ينظرون الى ظروف تطهير عودته نظرة شؤم. ففي اليوم الذي وصل الميناء كانت اثينا تحتفل بعيد الربّة [منيرفا] (٥٠) التي يطلقون عليها [پلنتيريا Plynteria] ويقع في الخامس والعشرين من شهر [ثارجيليون] عندما يقوم [الپراكييرغيدي Praxiergidae] باحياء شعائر الطقوس السريّة الخاصة بهم. فينتزعون كل الحلي والزينات من تماثيل الربّة ويسدلون أغطية وستائر على الجزء الذي تحتله من المعبد لحجبه عن النظر ولذلك يعتبره الآثينيون انحس يوم وأشأمه ولا يأتون عملاً مهماً من أعمالهم فيه. وبموافقة قدوم الكيببيادس فيه، تصوروا أن الربّة لم ترحب به ولم ترتح اليه لأنها أخفت وجهها ورفضته. ومع هذا كلّه سار كل شيء وفق رغبته. وعندما تمّ اصلاح السفن المائة التي عادت معه، وهيئت للأبحار، اخرته رغبة شريفة حتى ختام الاحتفال بالأسرار المقدسة، فمنذ احتلال [دسيليا Decelea] وسيطرة العدو على كل الطرق المؤدية الى اليوسيس من أثينا، والمركب يسلك سبيل البحر لا تصاحبه أية شعائر لاثقة. فقد اضطروا الى حذف مراسيم القرابين والرقص وغيرها من الطقوس الأخرى التي جرت العادة بادائها في مراحل من الطريق. عندما يتقدم المركب الى [ياكوس Jacchus] (٥١). فوازن الكيببيادس القضية في فكره، ووجد في إعادة جلال هذه الشعائر القديمة عملاً مجيداً فيه تكريمٌ للآلهة وارتفاع جديد لمنزلته بين

(*) في أوائل صيف ٤٠٨ ق.م.

(٥٠) في هذا اليوم يغسل تمثال منيرفا. وتحاط المعابد بخيط إشارة الى انها مغلقة في وجه المصلين كما جرت العادة في ايام النحس. ويحمل تين مجفف اثناء الموكب لأنه أول فاكهة تؤكل بعد الاكورن. اما الپراكييرغيدي فهم الكهنة المختصون ب(منيرفا).

(٥١) يوم عيد كيريس وپروسپرين تسعة أيام، وفي اليوم السادس يحمل من كيريس تمثال [ياخوس] أو [اياخوس] الذي يعتقدون انه ابن جويتر ويطاف به في موكب. ولفظ [اياخوس] يطلق أحياناً على الترتيلة التي تنشأ اثناء مسيرة الموكب أو حتى على ايام العيد برمته.

الناس. وقرر مرافقة الموكب في طريق البر، وحمائته بجيشه من العدو. فاذا بقي [أغيس] في موضعه ولم يعترض سبيله فسيكون في هذا اضعاف لسمعته وصيته. وإذا أضطر الكيببidas الى حوض حرب مقدسة في سبيل الآلهة ودفاعاً عن أقدس وأجل شعائر الدين، فسيكون ذلك على مرأى من بلاده وسيثبت بها لبني قومه مدى بسالته. ما أن قرّ رأيه على هذا وابلغها للايومولبيدي والمنادين، حتى يبادر الى وضع ربايا عسكرية على رؤوس التلال. وعند انبلاج الصباح أطلق كشافته تروود الطريق. ثم أخذ معه الكهنة والرهبان والمكرسين واضعاً ايهم في وسط رتل جنوده وقادهم بنظام دقيق وهدوء تام. وكان موكباً جليلاً رائعاً وقال أولئك الذين لا يضمرون كرهاً للكيببidas انه مارس فيه وظيفتي الكاهن الأعظم والقائد العسكري في وقت واحد ولم يجرؤ العدو على القيام باي عمل ضده فوصل المدينة بأمان ولم يكن ارتفاع قدره في عين ذاته بأقل من ارتفاع منزلته في عيون الشعب لهذه المأثرة المجيدة. وسرح بهم الخيال حتى وصل الى حدّ الايمان بان قيادته تجعل جيوشهم منيعة عن العدو لا يمكن قهرها. وأشدتد تعلق أوزاع الشعب ودهماؤه به بحيث راحوا يصرخون برغبتهم في نصب نفسه حاكماً «طاغية» عليهم، ولم ير بعضهم معرّة «في مفاتحته بذلك ونصحته بأن يجعل نفسه في نجوة عن الحسد والبغض، بازالة قوانين الشعب ومراسيمه، وقمع الثرثارين الذين يلحقون الدمار بالدولة، ليكون قادراً على تصريف شؤون الحكم وحده دون خوف من حساب أو اذانة.

وليس في الإمكان معرفة المدى الذي وصله ميله في ضبط السلطة المطلقة، وكل ما نعرفه أن اعيان المدينة وكبراءها كانوا شديدي الخوف من ذلك، حتى انهم استعجلوه في الابحار، وعينوا الزميلين اللذين اختارهما هو، وسمحوا له بكل ما طلب^(٥٢). فأنتقل بأسطول قوامه مائة سفينة^(*) فبلغ [اندروس] وهناك قاتل أهلها وقاتل اللقيديونيين الذين ساعدوهم وتغلب عليها معاً. على أنه لم يفلح في الاستيلاء على المدينة، وهذا ما أطلق السنة أعدائه بمختلف التهم ضده. والحقيقة هي: اذا كان ثم شخص في الدنيا دمّره مجده، فهو الكيببidas. لأن انتصاراته المستمرة، كونت فكرة معينة عن شجاعته وألمعته، وهي أنه اذا فشل في أمرٍ ما سعى اليه، فالسبب هو إهماله. ولن يعتقد أحدٌ بأن السبب هو إفتقاره للسلطة. إذ كان الظنّ السائد عنه أن لاشيء يصعب عليه إذا عالج أمره بجدّ وحزم.

وأخذ الآثينيون يتوقعون يوماً وصول الانباء عن إخضاع [خيوس] وبقية [آيونيا] وعيل صبرهم لأن الأمور لا تسير بالسرعة التي كانوا يقدرون لها. ولم يفكروا بمبلغ حاجته الى المال،

(٥٢) يخبرنا كزينفون بأنهما [ارسطوقراطس] و[اديمانوس] وقد اقتصرت مشاركتها في القيادة على البر.

(*) في نهاية تشرين الأول ٤٠٨ ق.م.

وبأن مواصلة الحرب ضدّ عدوّ لا ينقصه شيء من الأعتدة والأرزاق تأتيهم من ملك عظيم، وكثيراً ما لجأ الكيببidas الى النزول عن أسلحته ليؤمن المال والأرزاق لإطعام جنوده. وهذا ما فسح مجالاً لآخر اتهام وجّه اليه. فقد أرسل [ليساندر Lysander] من لقيديون ليتسلّم قيادة أسطولهم ومعه مبلغ كبير من المال نفحه به [كورش] ملك الفرس. فراح يدفع لكلّ بحار اربعة [اوبولات] أجوراً يومية وكانت ثلاثة قبلاً، ولم يكن الكيببidas قادراً حتى على دفع ثلاثة [اوبولات] لرجاله، وحزم أمره أخيراً على دخول [كاريا Caria] للحصول على المال وترك قيادة الاسطول في غيابه [لأنطيوخس] وهو رجل بحر مجرب، إلا أنه متهور متسرع قليل الشعور بالمسؤولية^(٥٣). مع أوامر صريحة له بأن لا يشتبك في قتال مع العدو مهما استفز. إلا انه لم يبال بالأوامر وأستخف بها الى الحدّ الذي عمد الى سفينة الخاصة وسفينة أخرى فأنطلق بها الى أفسس حيث يرسو اسطول الاعداء وراح يخطر بسفينتيه أمامهم وأقترب منهم متحرشاً حتى قيّادهم السفن واستخدام كل وسائل الاستفزاز الممكنة قولاً وعملاً. فأوسق ليساندر سفناً قليلة بالرجال ولاحقه، فخرجت كل السفن الآثينية لمعاونة انطيوخس، ولم يكن من ليساندر إلا ووجد الاسطول كلّه وأشتبك الفريقان في المعركة ودارت دائرتها على الآثينيين ونال بها نصراً ساحقاً. وقتل انطيوخس. وأخذ ليساندر أسرى من السفن والرجال. واقام نصباً تذكاريّاً.

وأسرع الكيببidas الى ساموس حال سماعه بالنبا، ثم خرج منها بكل اسطوله يريد ليساندر، إلا أن هذا القائد لم يخرج اليه وابتى النزال قانعاً بالنصر الذي كسبه.

وكان [ثراسيبولوس] ابن ثراسون Thrason أشدّ رجال الجيش حقداً على الكيببidas وكرهاً به، حتى أنه سافر الى أثينا بقصد رفع شكوى عليه، واثارة أعدائه في المدينة ضده. وقام خطيباً في الاجتماع الشعبي ووضح «إن الكيببidas فرط بمصالحهم وأتلف أمورهم وحفر سفنهم بمجرد الإهمال المكابر لواجباته، وأودع قيادة الجيش في غيابه أناساً أصبحوا موضع ثقته من جراء مجالس الشراب والقصف وبذيء الكلام. في حين كان يروح ويغدو على هواه يجمع الأموال، وينغمس في اللوان من الترف والبذخ والفجور بين عاهرات [آبيدوس وآيونيا]، واسطول العدو قريب متربص بنا الدوائر مستعد اللأنقضاض». واصاخ الآثينيون سمعهم لهذه الشكاوى وأظهروا حقهم وعدم رضاهم بانتخاب قادة آخرين للجيش^(٥٤).

(٥٣) وهو الذي أمسك له بالسماوي. يقول كزينفون ان ليساندر أخذ خمس عشرة سفينة وانسحب بعد المعركة الى (لسيبوس).

(٥٤) وهم بحسب قائمة كزينفون: كونون وذيوميذون وليونتس، پريكس وابراسينيدس وارسطوقراطس وارخستراتوس وپروتوماخوس وثراسيلوس وارسطوغينس.

لما سمع الكيبيداس بما جرى بادر الى ترك الجيش كله^(٥٥) خشية مما سيعقب، وجمع حوله جيشاً من الجنود المرتزقة وهاجم على حسابه الخاص أولئك الثراقيين الذين يسمون أنفسهم بالأحرار ولا يعترفون بسلطة اي ملك. وبهذه الوسيلة جمع ثروة طائلة وفي الوقت عينه حافظ على الأغرقيين الذين يقطنون الحدود من غارات البرابرة.

كان الجنرالات الثلاثة المجدد [تيديوس Tydeus وميناندر Menander وآدمينتوس Adi-mentus] قد اتخذوا [ايغوسپوتامي Aegospotami]^(٥٦) قاعدة لهم بكل ما بقي للآثينيين من سفن، وكانوا ينطلقون الى البحر صباح كل يوم من هذه القاعدة لاستدراج [ليساندر] الى معركة. بأسطوله الراسي قرب [لامپاسكوس Lampascus] ويعودون بعد كل اشتباك للاستراحة ببقية اليوم احتقاراً للعدو وعدم مبالاة به، ودون نظام ولم يكن الكيبيداس الغريب منهم^(*). بمن يتعامى عن الخطر المحقق بهم أو بالذي يقلل من شأنه ولم يهمل التصريح لهم بذلك اذ ركب جواده وإقبل عليهم وشرح لهم أنهم أختاروا قاعدة غير صالحة ابداً، لأنها لا تمتاز ببناءة ولا تمنحهم أماناً من غارة، كما أنها بعيدة عن أية مدينة مما يضطرهم الى جلب تجهيزاتهم وازراقهم الضرورية من [سيستوس Sestos] البعيدة. وأشار أيضاً الى عدم مبالاتهم بوضع الجنود عند نزولهم الى البر، وحذرهم من مغبة تركهم الحبل على الغارب لهم يتفرقون دون نظام ويروحون ويغدون كما شأؤوا في حين كان اسطول العدو الذي هو بقيادة جنرال واحد، يقظاً متربصاً بهم، مطيعاً للنظام الى آخر حد وعلى مسافة قريبة جداً منهم. ونصحهم بالانتقال بالاسطول الى [سيستوس]^(٥٧). فلم يكتروا لقلقه، وأمره [تيديوس] بلهجة مهينة أن ينصرف قائلاً انه ليس القائد الآن، وانما هناك آخرون يقودون الجيش. وبادر الكيبيداس الى الانصراف وقد لاح له نية غدر. وقال لاصحابه الذين رافقوه الى خارج المعسكر: لو احترم الجنرالية رأيه ولم يعاملوه بهذا الاحتقار الذي لا يحتمل، لأفلق خلال أيام معدودات في إرغام اللقيديميونيين مهما كرهوا، إمّا على قتال الآثينيين في البحر،

(٥٥) أخذاً معه بارجة واحدة. انسحب بها الى القلاع التي بناها ربما ليتخذها ملاذاً.

(٥٦) يتخطى پلوتارخ هنا ثلاث سنين في غضون حلت هزيمة ب(كونون) بعد ان توغل قليلاً في أرض العدو وفي السنة التالية وهي السنة السادسة والعشرين من الحرب الپلپونييسية نال الآثينيون نصر [ارغيتس]. وقاموا باعدام ستة من جنرالاتهم بتهمة بسيطة تقدم بها زميلهم [ثيرامينيس]. وفي السنة الأخيرة ابحر الآثينيون الى [ايغوس - پوتامي] وهو موضع على مقربة من المضائق. مقابل لامپلسكوس كما جاء في المتن - الفترة تبدأ من ربيع ٤٠٧ حتى خريف ٤٠٥ ق.م.

(*) في قلعة قرب پاكيتي Pactye (كزنيفون الپيلينيون ٢:١٠٧٥).

(٥٧) الضباط الذين يؤمرون على الجيوش الاغريقية واساطيلها يطلق عليهم اسم جنرال أحياناً، ويطلق عليهم اسم اميرال أحياناً. لأنهم عادة يشرفون على الحركات العسكرية في البر والبحر على حد سواء.

أو مغادرة سفنهم. وعد بعضهم كلامه هذا مجرد ادعاءٍ فارع، وقال آخرون أن المسألة ممكنة إذ انه قد يأتي بمجموع كبيرة من الخيالة والنبالة الثراقيين ليهاجمهم براً ويشيع الفوضى في معسكرهم^(٥٨). وسرعان ما أثبتت الأحداث صحة استنتاجه وحكمه على الآثينيين. فقد انقضّ عليهم [ليساندر] فجأة، وهم أبعد الناس عن الشك في الأمر، وبلغ عنف هجومه حداً لم يفلت من يده غير [كونون Conon] وحده بثماني سفن فقط^(٥٩). أما البقية وكان عددها يناهز المائتين فقد أستولى عليها وساقها خلفه غنيمَةً مع ثلاثة آلاف أسيرٍ أعمل السيف في رقابهم جميعاً، وبعد فترة قصيرة أستولى على آثينا نفسها وأحرق كل ما وجده فيها من السفن وهدم اسوارها الطويلة^(٦٠). ودبّ الخوف في نفس الكيبيداس اللقيديميونيين، الذين غدوا سادة البحر والبر من غير منازع، فرحل الى [بيثينيا]، بعد أن بعث اليها بأموال كثيرة، وأخذ معه ما يزيد على ذلك، وترك في الحصن الذي كان يقيم فيه مقداراً يزيد بكثيرٍ على ما سبق ذكره. إلا أنه خسر جزءاً كبيراً من ثروته في [بيثينيا] فقد سطا عليه بعض الثراقيين هناك وسرقوه وعندها قرّر الذهاب الى بلاط [ارتخششتا] وكان واثقاً أن الملك لن يجده أقل مواهب من [تيمستوكليس] عند امتحانها، زد على هذا أنه أمّا يقصده في قضية أنبل وأشرف مما قصده به تيمستوكليس. فلم تكن غايته عرض خدماته ضدّ بني قومه ووطنه كما فعل تمستوكليس، بل ضدّ اعدائهم. أراد أن يحصل على عون من الملك للدفاع عن بلاده. وقدّر أن [فارنابازوس] لن يخجل عنه بحق اللجوء فقصده في [فريجيا].

وظلّ يعيش هناك رداً من الزمن يتبادلان الودّ والاحترام والتكريم وكانت حال الآثينيين أثناء ذلك - يرثى لها، اناخ البؤس عليهم بعد خسرانهم كل مستعمراتهم، وزاد في شقائهم حرمانهم الحرية أيضاً، وقيام ليساندر بتعيين ثلاثين حاكماً مطلقاً في المدينة، واذ ذاك وفي وسط خرابهم بدأوا يستعيدون الأفكار التي عرضت عليهم ولم يوافقوا عليها حين كانت السلامة ممكنة. وأقروا باخطائهم الماضية وندموا على حماقاتهم ووجدوا في اساءتهم معاملة الكيبيداس الثانية خطيئة لا يمكن اغتفارها. فقد طرده دون أن يرتكب خطأ بنفسه، بل والمجرد حنقهم على مرؤوس من مرؤوسيه فقد بضع سفن بصورة مخجلة، أرتكبوا هم أنفسهم جريمة أدعى الى الخجل والعار بحرمان الجمهورية من أشجع قوادها وأعظمهم حنكة ودهاء. وكانوا

(٥٨) عندما يُرسي الاسطول مدة معينة. تنزل عادة قووات برية وبحرية وتعسكر في البر على الساحل.

(٥٩) هربت سفينة تاسعة تعرف باسم (پارالوس) لتحمل انباء الهزيمة الساحقة الى آثينا. ولجأ (كونون) الى قبرص. وكان ايڤاگوراس ملكها (انظر سيرة ليساندر).

(٦٠) حصل ذلك في السنة الرابعة من الاولياد الثالث والتسعين اي في السنة الثامنة والعشرين من الحرب الپلپونييسية.

دفنة لائقة محترمة على قدر ما سمحت به ظروفها وقيل أن بنت [تيمانندرا] (٦٢) هذه هي [لايس Lais] الشهيرة، الملقبة بالكورثية وإن كانت من [هيكارا Hyccara] وهي بلدة صغيرة في صقلية. هناك فريق يتفقون على وقائع موت الكيببسادس التي سردناها في كل تفاصيلها، خلا أنهم لا يعززون سببها إلى [فارنابازوس] أو [ليساندر] أو اللقيديمونيين. بل يزعمون أنه كان يعيش في منزله سيدة صغيرة السن من أسرة نبيلة هتك عرضها، ولم يستطع أخوتها احتمال عارها فأشعلوا النار في المنزل الذي يسكنه وقتلوه وهو يحاول النجاة بالشكل الذي فصلناه.



= إلى جانب الروايتين اللتين رواهما بلوتارخ هنا حول كيفية موته، توجد رواية ثالثة [ديودورس ١٤:١١] الذي يعزو السبب إلى الحسد الذي كان يكنه له [فارنابازوس] السياسي الذي، ويقول ارسطو: الطبيعة ٢٩:٤ كان موته في [الافوس] وهو جبل في فريجيا. (٦٢) [داماساندر Damasandra] كما يسميها [اثينيوس] ويضيف قائلاً: ان [ثيودوتا] مخطيته الأخرى قامت بكل ما في إمكانها لتشيعه ودفنه دفنة لائقة.

يشعرون مع ذلك أن مجرد وجود الكيببسادس في قيد الحياة، يجعلهم يتشبثون بالأمل الواهي، ويمنعهم من اليأس التام بأحياء الجمهورية في آثينا. وكانت أنفسهم قانعة بأنه ان لم يستطع وهو في المنفى أن يجلس عاطلاً غير مكترث فسيكون الآن أقل صبراً على السكوت وتحمل إهانة اللقيديمونيين لبلاده، وأشد سُخْطاً على استبداد الحكام الثلاثين، إن واثته الفرصة. وليس من قبيل السخف أو اضغاث الأحلام ان تخالغ أفراد الشعب مثل هذه الامنيات وها هم «الحكام الثلاثون» أنفسهم شديداً اللهفة إلى تسقط اخباره ومتابعة كل حركاته وسكناته. ومختصر القول بين [كريتياس] ليساندر أن اللقيديمونيين لن يصفو لهم الجو في بلاد الأغرقي، وليس ثم ضمان لسيادتهم عليها إلا بالقضاء التام على الديمقراطية الأثينية. وإذا كانت المظاهر تشير إلى خنوع الأثينيين وصبرهم على هذا العدد الضئيل من الحكام فان مجرد علمهم بان الكيببسادس ما زال حياً، لن يدعهم يذعنون أو يرضون بحالتهم الراهنة.

إلا أن ليساندر لم يقتنع بهذه الحجج، حتى بلغته بالأخير أو امر سرية من حكام لقيديمون، تريد منه بصراحة أن يعمل على قتل [الكيببسادس]. ولا يعرف هل أن الدافع إلى هذا، كان خوفهم من حيويته وجراته في الاضطلاع بكل ما هو خطر أو اطفاءً لحقد [أغيس] عليه. وعندما وصلت الأوامر بذلك إلى [ليساندر] بعث رسولاً إلى [فارنابازوس] يطلب منه تنفيذ ذلك. فعهد [فارنابازوس] إلى [ماجايوس Magaeus] أخيه، و[سوساميثريس Susamith-tes] عمه بالأمر. وكان الكيببسادس في حينه يسكن قرية صغيرة فريجسية مع [تيمانندرا Timandra] مخطيته. ورأى فيما هو نائم الحلم التالي: وجد نفسه يرتدي ثياب مخطيته وهي تحتضنه بين ذراعيها وتصف شعره وتجمل وجهه بالمساحيق كأنه امرأته، وزعم آخرون أنه رأى في الحلم [ماجايوس] يحتز رقبتة ويحرق جسده. وعلى أية حال انه شاهد هذه الرؤى قبل مقتله بزم قصير. وهؤلاء الذين أرسلوا لقتله لم يكن لديهم الشجاعة الكافية لدخول منزله، بل طوقوه أولاً ثم أشعلوا النار فيه. وما ان أدرك الكيببسادس نيتهم حتى جمع مقداراً كبيراً من الثياب والأثاث وغطى بها النيران محاولاً اخمادها ثم لفّ طيلسانه حول ذراعه اليسرى وامسك بسيفه المنتضى بيده اليمنى وقذف بنفسه وسط اللهب وخرج منها سليماً قبل أن تحترق ثيابه، وتراجع البرابرة إلى الخلف حالما رأوه ولم يجرؤ أحد على التقدم منه أو الاشتباك معه بل وقفوا على مسافة وأجهزوا عليه بالسهام والرمح المقذوفة، وأنصرف البرابرة بعد قتله. فرفعت [تيمانندرا] الجثة وغطتها ولفتها بثيابها (٦١). وقامت على دفنها

(٦١) دفنته في ميليسا. وقد أعلننا [اثينيوس ١٣:٤] أن النصب كان باقياً في عهده وانه شاهده بعينه وقد أمر الامبراطور هادريان تخليداً للرجل العظيم ان يصنع له تمثال من مرمر (باري) وينصب فوق الضريح وأمر بتضحية ثور له، كل سنة.. =

ڪرئولانوس

CORIOŁANUS

(Caius Marcius)

5 Th.c

تلك الصفات الملازمة لها مثل ضبط النفس والعزيمة والاستقامة؛ لم يسعهم إلا أن يضيّقوا ذرعاً بصرامته وفضافته وغطرسته واستبداده التحكيمي. وهي من حياة المواطن ورجل السياسة وان الدراسة والثقافة والتمرس في الفنون لا تنطوي على فوائد لطلابها، أعظم من فوائد الدروس الرامية الى التهذيب البشري، والتحصّر. فهذه تدرب أخلاقنا الطبيعية على الخضوع للحدود التي يرسمها العقل، وتجنبنا التطرف الجامع.

في تلك الأزمان كانت هذه المؤهلات تعتبر في روما أرفع ما يمكن أن تسمو اليه النفس، والأعمال الحربية هي ميدان ممارستها الوحيد وخير دليل على ذلك: الكلمة اللاتينية «Vertuten: الفضيلة»^(*). فانها مرادف دقيق لشجاعة الرجل، حتى لكأن البسالة، والفضائل مجتمعة شيء واحد، وانهم يستخدمونها كصفة عامة لتفوق خاص بشخص.

[مارشوس] الذي كان ميله يندفع به الى بطولات الحرب بحماسة تفوق أي من في سنّه، بدأ بالتدريب على السلاح منذ نعومة أظفاره. ولما كان يدرك ان الأسلحة ما هي إلا أدوات عرضية، مصنوعة لا تأثير لها، ولا قيمة كبيرة فيها عند من لم تزودهم الطبيعة بأسلحة حسنة التركيز معدة إعداداً جيداً للخدمة، فقد انصرف الى تكييف وتدريب كيانه على ضروب الفعاليات وشتى فنون القتال. فجمع فيه حفة العداء، وثقل المصارع الذي يصعب التخلص من قبضته حالما تطبق على الخصم في التحام، وبلغ في ذلك الغاية حتى كره منازلوه من بني قومه ولداته أن يصرحوا بنقص كفاءتهم ازا، وأعتادوا أن يعللوا قلة حيلتهم فيه وضعفهم بقوة جسمه، قائلين أنها لا تعرف معنى الانهك ولا التعب، ولا يمكن الوقوف أمامها.

وأول ما دخل معترك الحرب وهو غلاماً مراهق^(٢)، كان في آخر معركة [التاركوينوس سوبريوس] ملك روما الذي طرد من البلاد. فبعد محاولات فاشلة عديدة بذلها للعودة، راح الآن يبذل الجهد الأخير ويتامر بكل شيء في رمية واحدة. ووجد كل اللاتين قواهم وزحفوا معه نحو المدينة لأجل أعادته الى العرش لا لشدة رغبتهم في خدمة تاركوينوس وارضائه، قدر ما كان يدفعهم الى خوفهم من شوكة الرومان وغيره من ازدياد نفوذهم الذي ارادوا كبح جماحه وإيقافه عند حد. وتقابل الجيشان واشتبكا في معركة فاصلة ظلت متراوحة^(**)، وكان [مارشوس] في قلبها وفي مشار نفعها يقاتل ببسالة بمشهد من الدكتاتور، وفي أثناء ذلك لمح جندياً رومانياً يسقط على الأرض بضربة من خصمه فبرز اليه ووقف دونه وقتله وأنقذ

(*) معناها الحرفي الرجولة.

(٢) في ٤٩٦ ق.م المعركة المشار اليها وقعت بالقرب من بحيرة (ريغلس) في عهد الدكتاتور [اولوس بوستيموس]. لم يذكر لا لفي ولا ديون شيئاً عن هذه المأثرة اثناء حديثهما عن وقائع ذلك اليوم.

(**) قرب بجدة Regillus في ٤٩٨ ق.م.

أنجب البيت الطاتريشي المسمى [مارجيبى Marcii] في روما، كثيراً من عظماء الرجال ومشاهيرهم، ومن بين الغابرين [أنكوس مارشوس Ancus Marcius] حفيد [نوما]^(١) لابنته، وخلف [تللوس هوستيلوس] في العرش الروماني، ومن الأسرة نفسها نبغ أيضاً [يوبيلوس Publius] وكونيتوس مارشوس [اللذان أسالا الى روما أفضل وأكبر كمية من الماء عرفها أهلها. ومثلهما [چجنوسوريوس Cecnsorinus] الذي أختاره الشعب مرتين لمنصب أمين بيت المال، وحملهم هو نفسه على إصدار قانون يحرم على المرء ان يتولى هذا المنصب مرتين، على أن [كايوس مارشوس] الذي أكتب عنه هنا؛ كان يتيم الأب، نشأ وربى في فترة ترمّل امه. فأثبت لنا بهذا أن فقد الأب لا يمنع أحداً من توفّر درجات المجد والشهرة، والتحلّي باسمى الفضائل في الحياة، ولا أن يكون عقبة دون التفوق والصلاح الحقيقي. وعلى أية حال، فأشرار الناس مغرمون في القاء تبعه شرهم ورداءتهم على سوء طواعيمهم والإهمال الذي عانوا في الصغر. وانه كذلك لشاهد لا يقل قيمة عما أسلفنا على صواب رأي أولئك الذين يؤمنون بأن الخلق الكريم الممتاز المتجرد عن الضوابط والقيود الملائمة، هو أشبه بالتربة الخصبة غير المحروثة، فهي أهل لانتاج الكثير من السيء والردى أيضاً. وفي حين تراه يتنقل من نجاح الى نجاح في كل اعماله الشريفة بقوة روح فيه، وفاعلية متأججة واستمرارية عنيدة لازمت كل ما أضطلع به من مهام، كان من جهة أخرى يرخي العنان لجموح عاطفته واطلاق العنان لها. ولقد كان من نتيجة إصراره العنيد على عدم إنزال نفسه الى ارادة الناس المحيطين به أو تكييف به أو تكييف أحاسيسه وأخلاقه لهم أن جعل نفسه عاجزاً عن العمل مع الآخرين. إن أولئك الذين كانوا يرقبون معجبين، كيف كانت طباعه صامدة ازاء كل مناعم الملذات، واغراء الكسب المادي، صابرة على مشاق الخدمة، في حين أمت صلابته إرادته العامة

(١) تزوجت پوميليا بنت نوما بـ(مارجيبوس) ابن سابيني، عندما أقتع (نوما) بقبول المنصب الملكي وتبعه الى روما، كان يأمل هو أن يخلفه في هذا المنصب. لكنه ما لبث عن بضع نفسه عندما أغفل وتخطوه لينصبوا (توللوس هوستيلوس). ومن زيجة پوميليا ولد (انكوس) ابن مارجيبوس ووصل الى المنصب الذي حرم منه جدّه. ومن هذه الأسرة جاء (كربولانوس). والماء المنوه به في السطر التالي هو أصفى ماء في روما. وقد جيء به بعد شق ساقية له من منبعه طولها ستون ميلاً.

الجندي الجريح. وعلى أثر انتصار الجنرال الروماني توجّه لهذا العمل باكليل مصنوع من أغصان البلوط^(٣). وهي عادة درج عليها الرومان في تكريم أولئك الذين ينقذون حياة أحد المواطنين وليس من المعروف هل يقصد من العادة تكريم خصوصي للبلوط نفسه على سبيل ذكرى الاركادين^(*) الذين أشتهر أمرهم لنبوّة ابوللو سمتهم بأكله البلوط^(**). وان السبب فيه يعود الى سهولة حصولهم على ثمر البلوط في كل المواضع التي حاربوا فيها، أو لأن أكليل البلوط المقدس عند [چوپتر] حامي المدينة، أعتبر لهذا السبب حليّة مناسبة لمن ينقذ حياة مواطن. والحق يقال أن شجرة البلوط تحمل أجمل الثمر وأكثره من بين كل الأشجار البرية المثمرة وهي أيضاً أقوى ما يستنبت من الشجر وثمرها كان القوات الأساس للأقدمين من البشر، والعسل الذي يجدونه فيها كان أول ما شربوا. ويحق لي القول أيضاً أن الدبق الذي ينمو عليها يزود المرء بالطيور وغيرها من الحيوانات ذات اللحوم الذيدة، لأنه يوقعها في شراكه الصمغية.

وكان هذا من بواكر مآثر [مارشيسوس]. ويقال أن [كاستور وبولوكس] ظهرا في هذه الموقعة، وانهما شوهدا بعدها مباشرة في روما بالقرب من النافورة التي يقوم الآن معبدها في مكانها، حصاناهما ينضحان عرقاً، يذيعان انباء النصر على الشعب في [الفورم]. وتعين الخامس من تموز الذي هو يوم النصر، عيداً دينياً مكرساً للأخوين التوأمين.

ومما يلاحظ بصورة عامة إن الشبان عندما تبلغ بهم المقادير مراقي الشهرة والصيت في عمر مبكر، فانهم يستنيمون لها ويقفون عندها. وهي كفيّلة باطفاء غلتهم واشباع نهمهم المحدود، وإن كان طبعهم يشوبه قليل من روح المباراة والمنافسة. والأمر على العكس عند عظماء الرجال وصناديدهم وأقوياء الأخلاق منهم بأن أول أشتهارهم يحتشهم ويدفعهم كما تدفع الريح الى ملاحقة أمجاد أخرى. وهم لا ينظرون الى ثمرات فضائلهم نظرتهم الى مجرد تعويض نالوه عما فعلوه. بل يعتبرونها بمثابة عهد قطعوها على أنفسهم للقيام بمآثر أخرى في المستقبل، وهم يخجلون ويستنكفون من المجد الرصيد الذي كسبوه. وبكلمة أخرى يترفعون عم جعله حجاباً مسدلاً على ما مرّ من أعمالهم وغطاءً يدفن تحته بهاء الأعمال التي قدر لهم انجازها في

(٣) «التاج المدني» يرفق به امتيازات كثيرة. فالفائز به الحق في وضعه على رأسه قدر ما شاء ومتى ما شاء. وعلى الشيوخ ان ينهضوا احتراماً له كلما ظهر به للجمهور. وله أن يطالب بوضع معقد له بينهم في الاجتماعات العامة وان يكون لجده الصلبي وابيه عين الامتياز. وهو تشجيع لنوي المواهب والمؤهلات لا يكلف العامة شيئاً. وكان بمنح بالأصل لكل مواطن ينقذ مواطناً آخر من خطر الموت.

(*) اول مستعمرين لروما بقيادة ايفاندر Evander.

(**) هيرودوتس ١: ٦٦.

المستقبل. ولقد كانت روح [مارشيسوس] من هذا المعدن النبيل، فهي طموحة أبداً للتفوق على ذاتها دائماً، وهو لم ينجز عملاً فائقاً إلا وكان موقناً أن القدر يريد له عملاً آخر أعظم من سالفه في فرصة تالية. ولازمته الرغبة في تقديم دلائل مستمرة جديدة على بطولته وسيطرت على كيانه تماماً. فراح يضيف مجداً الى مجد ويكده النصر فوق النصر. وجعل من ذلك ميدان منافسة بين أمره، ايهما يبرز الآخر في تكريمه والثناء عليه؟ ولم يعد من أي حرب أو معركة خاضها في تلکم الأيام الأ وهو متوج باكاليل الغار مثقل بالجوائز والمكافآت وفي الوقت الذي نرى غيره يجعل المجد والمنزلة الرفيعة آخر مطاف بسالته، نجد [مارشيسوس] يجعل سعادة أمه نهاية مجده. فالغبطة التي تتملكها عندما تسمع الثناء عليه، وتراه وهو يتوج باكاليل النصر، وبكاؤها فرحاً عندما يعانقها وتضمه الى صدرها، تجعله يشعر بذات نفسه، انه نال أعظم ما يناله بشر من تشريف وسعادة. وقيل أن [إپامننداس] كان يتملكه مثل هذا الشعور تماماً. فأهناً لحظة عنده، هي أن أباه وأمّه عاشا ليسمعا بالنجاح الذي حققه في القيادة وبانتصاره الكبير في [ليوكترا Leuctra]، إن الحظ الذي أسعده بمشاركة ابويه في الاستمتاع بلذة نجاحه، لم يمكن [مارشيسوس] إلا من واجب تقديم كل فروض الشكر والامتنان لأمه [فولومنيا Volumnia]^(٤) وحدها، كما لو كان ابوه جياً ولذلك لم تكن نفسه تشبع من حنانه وأحترامه لها. حتى أنه لم يفترق عنها عندما اتخذ زوجاً ورزق بأولاد بناءً على رجائها ورغبتها وظل يعيش معها تحت سقف واحد.

في ذلك الحين، أكسبته استقامته وشجاعته صيتاً كبيراً ونفوذاً طائلاً في روما. وكان مجلس الشيوخ بمحباته اغنياء المواطنين، في خلاف مستعص مع طبقة العامة التي أخذت تجار بالشكوى المرّة من المعاملة الفظة اللإنسانية التي يلاقونها على أيدي المرابين^(٥)، فكثير منهم أثقل كاهله بالديون، وكثيرون جردوا من كل مقتنياتهم وأملاكهم بطريق البيع أو الرهن تسديداً للدين. أما من بلغ الأمر بهم نهاية الأملق بسبب المصادرات الماضية ولم يعد لديهم ما يصح مصادرتهم، فقد سيقوا الى السخرة والعمل الشاق دون أي اعتبار للجراح والندوب التي خلفتها في أجسامهم حوضهم شتى المعارك، دليلاً على خدماتهم الوطنية. وكان السابيين آخر من أصمته السهام. فقد وثقوا بعهد قطعه لهم دائنهم الاغنياء أن يحسنوا معاملتهم ويكونوا أكثر رفقاً بهم في المستقبل. وأنيب [ماركوس فاليريوس] القنصل، بايعاز من مجلس الشيوخ لمتابعة تطبيق هذا العهد واستنجاهه. لكن، بعد أن حارب السابيين الأعداء

(٤) ومن الكتاب الآخرين الذين ذكروا [فولونيا] أسماً لزوجها، ديون وليفي وفاليريوس.

(٥) أو كما قال الآخرون ان الدكتاتور [ماكسيموس فاليريوس] وعد الشعب بقانون الغاء الديون [ديون] ٥:٦.

ببسالة، وحققوا النصر، لم يجدوا رفقا من الدائنين ولا سماحةً كذلك صرح المجلس بانه لا يذكر شيئاً عن وجود عهدٍ كهذا! وجلس ساكتاً غير مكتثرٍ، وهو يشاهد افواج المدنيين يساقون كالعبيد، وأموالهم ومقتناتهم ينزع منهم قسراً كالسابق. وبدأت الثورة تعتمل في النفوس وذُرَّ قرن التمرد علينا، وعقدت اجتماعات عامة ذات طابعٍ خطير في انحاء المدينة. ولم يخف أمر هذا الاضطراب الداخلي عن عين العدو، فأغار على البلاد وعاث فيها سلباً ولما أعلن القنصلان النفيير وطلباً حضور كل من بلغ سن الخدمة العسكرية الى مقرات التجنيد، لم يلبَّ أحدٌ من المواطنين الدعوة في بضعة ايام فبادر مجلس الشيوخ الى عقد اجتماع للمداولة في الأمر واتخاذ قرارٍ إلا أن اعضاءه اتقسما على أنفسهم وأختلفت وجهات نظرهم، فبعضهم ارتايء التنازل للفقراء عن القليل وخطب ودَّهم بالتخفيف من صرامة القانون المتناهية، وارتاء قبضتهم عن حقوقهم المهضومة جداً. وعارض بعضهم الآخر هذه المقترحات وكان [مارشيو] أشدَّ الاعضاء الآخرين تحمساً لرأيه وهو أن قضية المال من كلا جانبيها، ليست الموضوع الأساسي. وقال إن أعمال التمرد والعصيان ما هي إلا الخطوة الأولى الوقحة نحو إعلان الثورة الصريحة على أحكام القانون. وان واجب قمعها قبل أن يذرَّ قرنهما يقع على عاتق الحكومة، ويتوقف على حكمتها في معالجة الموقف.

وواصل مجلس الشيوخ عقد اجتماعات عديدة في فترة من الزمن قصيرة، لبحث المشكلة ولكنها لم تسفر عن نتيجة أو قرارٍ معين.

وعندئذٍ اقتنع العامة بأن احتمال انصافهم من ضميمهم يكاد يكون منعديماً. فاتفقوا فيما بينهم على رأي واحدٍ وأجمعوا أمرهم على ترك المدينة دفعةً واحدة. فخرجوا واحتلوا المرتفع المسمى «بالجبل الأقدس» وانتشروا في السهل القريب من نهر [أنيو] (*) دون القيام بأي عملٍ من أعمال الشغب أو العنف. وإنما كانوا يرفعون أصواتهم بالشكوى وهم راحلون: بأنهم كانوا في الواقع قد طردوا من المدينة قبل زمن طويل، لقسوة الأغنياء وظلمهم. وان أي جزءٍ من إيطاليا لن ييخل عليهم بالماء والهواء، والمدفن، وهذا كل ما كانوا يحصلون عليه في روما، اللهم إلا إمتياز الموت والجرح في الحرب دفاعاً عن دائنيهم!.

وتوجَّس المجلس خيفة من نتائج ذلك فأختار من أعضائه شيوخاً من طبقتهم، أكثرهم استقامة وشعبية وبعث بهم لمفاوضة طبقة العامة. وأسهب رئيس المفاوضات [مينينيوس أغريبيا Menenius Agrippa] في النصح والرجاء من الشعب، نياية عن المجلس، وختم كلامه الصريح بالحكاية المشهورة الآتية:

(*) يبعد ثلاثة أميال عن المدينة (ليني ٢: ٢٠٣٢).

«حدث مرةً ان اعضاء الجسم كلها ثارت على المعدة واتهمتها بأنها العضو العاقل الوحيد، والذي لا يقدم اي خدمة للبدن، في حين يتعب سائر الاعضاء ويقوم بأشق الأعمال لإشباع نهمها، وسدَّ حاجاتها وشهواتها. فسخرت المعدة من رقاعة الأعضاء التي يظهر انها لا تعلم شيئاً عن واجب المعدة، حيث انها لا تتسلم الغذاء إلا لتوزيعه من قبلها على بقية الاعضاء، تلك هي القضية بينكم ايها المواطنين، وبين مجلس الشيوخ. ان الخطط والمقرارات التي تنقل اليكم وتضمن لجميعكم الفائدة والمصلحة، إنما تهضم هناك كما ينبغي».

وحلَّ الصلح والوثام، ونزل مجلس الشيوخ الى مطالب العامة حول انتخاب خمسة محامين^(٦)، لأولئك المحتاجين الى المعونة. وهم الذين يقال لهم «مفوضو الشعب: تريبيوني Tribune» في أيامنا هذه. يتم انتخابهم سنوياً. وأوَّل من تولى هذا المنصب [جونينوس بروتوس Junius Brutus]^(٧) و[سينينيوس فيلوتوس Sicinnius Vellutus]، اللذين تزعما العامة في خروجهم من المدينة.

وهكذا عادت الوحدة تسود المدينة وفرع العامة الى سلاحهم فوراً وساروا الى الحروب وراء قادتهم، بحميةٍ ونشاط. وأمَّا عن [مارشيو] فمع أن غيظه لم يكن بالليل، لتغلب ارادة مجموع الشعب على مجلس الشيوخ وتحقيقهم مطالبهم، ومع أنه وجد عند الكثير من الپاتريشيين السخط والاستنكار نفسه للتنازلات الأخيرة، فقد رجاهم مع ذلك أن لا يكونوا أقل حماسة واندفاعاً في خدمة الوطن والبذل له، من العامة على الأقل، بل أن يبرهنوا على تفوقهم في الجدارة والكفاءة أكثر من تفوقهم في الغنى والجَاه.

كان الرومان وقتذاك يخوضون حرباً مع الفولسيين. الذين اتخذوا [كورولي Corioli] عاصمةً. ولذلك ضرب القنصل [كومينيوس Cominius] الحصار على هذا الموقع الهام، وخوف بقية الفولسيين أن تسقط، حشدوا كل ما أمكنهم من القوات واستقدموها من كل

(٦) كان عددهم خمسة في الأول. وبعد سنوات قليلة ضمَّ اليهم خمسة آخرون. وقيل أن يترك الجمهور [مونس ساچير Mons Sacer] استنوا قانوناً جعلوا فيه شخص التريبيون مصوناً ومقدساً. ورسوموا بأن على أن تكون مهمة التريبيون الوحيدة التدخل لايقاف كل اعتداء يقع على افراد الطبقة العامة من جانب الاسياد وهو ما يدعى Intersesso ومؤداه أن يقف التريبيون على قدميه وينطق بكلمة واحدة (Veto: أنا امنع) ذلك. وتوضع للتريبيونات مقاعد عند باب مجلس الشيوخ ولا يدخلون المجلس الا عندما يستدعيهم القناصل لتبادل الرأيء حول مسألة تتعلق بمصالح الشعب.

(٧) اسم هذا التريبيون [لوچيوس جونوس] وبما أن لوچيوس جونوس بروتوس قد أشتهر لأنه انقذ البلاد من تحكم الملوك فقد اضاف الى اسمه لقب [بروتوس] مما عرضه الى كثير من السخرية والتعليق الفكه. (الكلمة اللاتينية Butus تعني بالدراج الغبي، وباللغة الأدبية الثقيل).

ناحية لأجل فكّ الحصار عنها، وكانت خطتهم أن يشتبكوا مع الرومان أمام المدينة، ليتمكن حصرهم من الجانبين. ولكيما يجتنب كوميديس هذا الموقف الصعب، قسم جيشه الى قسمين وزحف بأحدهما للهجوم على الفولسيين عند أقترايهم من الخارج تاركاً [تيطس لارتوس Tit-us Lartius] وهو من أشجع الرومان، على رأس القسم الثاني المواصلة الحصار. وتبينت الحامية الفولسيية في داخل المدينة كم كان عددها قليلاً فدفعها اليأس الى الهجوم على المحاصرين، ورجحت كفتهم أولاً وطاردوا الرومان حتى خنادقهم. وهنا خرج عليهم [مارشوس] بسرية قليلة العدد ومزق أول المهاجمين تمزيقاً، وأجبر الباقين على تخفيف وطأة هجومهم ثم أطلق صيحة عظيمة بالرومان وأهاب بهم لتجديد المعركة. فقد كان في إهابه كل ما يتطلب من الجندي ليس قوة الساعد وشدة الطعن وحدهما بل قوة الصوت وصرامة النظرات التي من شأنها أن تلقي الرعب في قلوب العدو - كما قال [كاتو Cato]. وأستجمعت طوائف من صحبه قواها، وهرعت لإسناده فأنقلب هجوم العدو الى تفهقر، إلا أن [مارشوس] لم يقنع بمشاهدتهم يلمون شعنتهم وينسحبون بل شدّ عليهم النكير وصكّ مؤخرتهم صكاً عنيفاً ودفعهم بما يشبه الهزيمة السريعة الى ابواب مدينتهم. وهنا تبين أن الرومان يريدون النكوص على أعقابهم، مدحورين لفرط ما يطرهم العدو بالرمح من فوق الأسوار. وإن ليس بين من تبعه الشجاعة الكافية للتفكير في الاختلاط بالعدو الهارب والدخول الى المدينة المكتظة بالعدو المستعدّ بسلاحه، على أنه وقف وأخذ يحثهم على المحاولة صارخاً، أن القدر لم يفتح أبواب [كورولي] لا يواء الهاريين قدر ما فتحها لاستقبال الفاتحين. والتحق به عدد قليل كانوا راغبين في مشاركته في المغامرة، فشقوقا طريقهم خلال الحشود المندفعة وأفلح في الوصول الى الباب واقتحمه من وسطهم ولم يجرأ أحد على مقاومته في مبدأ الأمر. إلا أن العدو تشجع عندما تبين قلة عددهم، وحمل عليهم فدارت معركة يقف القلم عن وصفها وفيها تمكن [مارشوس] من التغلّب على كل مهاجم تصدى له بقوة الساعد وخفة القدم وجرأة النفس، ونجح في تشتيت شمل العدو الذي فرّ ناجياً الى داخل المدينة. أما الباقيون فقد استسلموا له والقوا سلاحهم. وبهذا اتاحوا [للارتوس] فرصة كبيرة جداً للزحف على المدينة ببقية الرومان واحتلالها بسهولة وإطمئنان.

بعد أن تمّ احتلال [كورولي] بهذه الصورة المفاجئة، انصرف القسم الأعظم من الجنود الى النهب والسلب، و[مارشوس] الذي أحقّه هذا العمل راح يؤنبهم ساخطاً، ويصف أعمالهم بالدناءة والضعفة، فبينما يخوض القنصل وبنو جلدتهم معركة مع القسم الثاني من جيش الفولسيين، ويخاطرون بارواحهم في القتال، وجدهم يسيئون استخدام وقتهم في الركض وراء

الغنائم هنا وهناك. مبتعدين عن مكان الخطر بحجة أعتنام الأموال. ولم يعره أذناً صاغية إلا نفر قليل، فما كان منه إلا أن وضع نفسه على رأسهم سالكاً الطريق الذي تحرك منه جيش القنصل قبله وكان وهو يكذب دؤبياً يدعو للآلهة كثيراً أن تسعده بالوصول الى ميدان الحرب قبل نهاية المعركة، ويلوغ [كوميديوس] لمعونته في اللحظة المناسبة، والمشاركة في أخطار القتال. وكان من عادة رومان ذلك العصر، عندما تتحرك قطعاتهم الى خط المعركة، ويكونون على وشك أن يرفعوا تروسهم ويشدون عباءاتهم على خواصرهم، أن يتبادلوا وصاياهم غير المكتوبة أو الشفوية فيما بينهم، وأن يسموا وارثيهم بشهادة ثلاثة أو اربعة شهود. وقد لحق بهم مارشوس ليجدهم في تلك الحالة والعدو على قيد النظر منهم.

ولم يكن اضطرابهم بالقليل عندما وقع عليه نظره وهو يسبح بالعرق والدم وليس معه إلا شردمة. ولكنه أسرع الى القنصل وعيناه تومضان سروراً ومد اليه يده، وقصّ عليه تفاصيل الاستيلاء على المدينة، ولما رأى الجنود [كوميديوس] يحتضنه ويحييه أيضاً أنتعشت قلوبهم جميعاً وارتفعت معنوياتهم وسمع من كان قريباً منهما ما حصل، وضمنه من كان بعيداً وصاح الكل بصوت واحد يظلبون الأمر بالمعركة وسأل [مارشوس] منه أولاً عن كيفية تنظيم الفولسيين جيشهم واين وضعوا خيرة رجالهم فأجاب أنه يعتقد أن جنود [الانتيات Antiates] في القلب هم خيرة محاربيهم. وانهم لا نظير لهم في الإقدام والشجاعة. فقال [مارشوس] «فدعني أطلب منك، ولأحصل على موافقتك في واعي أمامهم» فحقق القنصل رجاءه وقد أمتلاً أعجاباً ببسالته ولما التحم الجمعان وراح الجنود يصوبون رماحهم بعضهم الى بعض، وسبق مارشوس سائرهم في الهجوم، عجز الفولسيون المتصدّين له عن أن ينالوا منه قتيلاً، وكان يخرق صفوفهم أنى حمل عليهم، ويشقّ فيهم شقاً عميقاً إلا أن الشق يعود ثانية ليطبق عليه من الجانبين ويحصره في وسط السلاح المشرع. واذا أدرك القنصل الخطر الذي يتعرض اليه، دفع بنخية من المقاتلين اليه لنجدته، وعندئذ حمى الوطيس واستشرى القتال حول [مارشوس] وسقط عدد كبير من القتلى في رقعة صغيرة من الأرض. وأشدت وطأة الرومان على أعدائهم، واذاقوهم مرّ القتال حتى ارغموهم على الانكفاء وزحزحوهم عن مواقعهم ثم أخرجوهم من ميدان القتال. وطلبوا من [مارشوس] متوسلين وهم يهيمون باستثمار الفوز - أن يعود الى المعسكر ويرتاح بعد ما رأوا ما اصابه من الإرهاق وخور القوى لما فقدته من دماء. فأجابهم أن التعب لم يخلق للمتصرين واندفع معهم لمطاردة العدو. وهزمت بقية الجيش الفولسيي على هذه الشاكلة وقتل منهم خلق كثير وأسر ما لا يقل عدده عن القتلى.

وفي اليوم التالي قدم [لارسيوس] نفسه مع أفراد الجيش الى القنصل في سرادقة. فنهض

[كومينيوس] وبعد أن قدم فروض الشكر الواجبة للآلهة على النصر الذي توجت به تلك الحرب. التفت الى [مارشيسوس] وألقى كلمة ثناء لا نظير لها بحق بلائه النادر المشال وشجاعته الفائقة التي كان شاهداً عياناً لقسم منها في المعركة الثانية. وسامعاً لتفاصيل القسم الأول من فم [لارسيوس]^(٨) وبشهادته. ثم طلب منه أن يختار لنفسه العُشر من كل الأموال والخيل والأسرى التي في أيديهم قبل اجراء اي توزيع منها على الآخرين. وقدم له هدية شخصية اعترافاً بأعماله المجيدة وهي جواد بكامل سرجه وزينته. وهتف له جميع افراد الجيش. على أن [مارشيسوس] برز الى الأمام، وأعلن عن قبوله الجواد مع الشكر وامتنانه للمسيح الذي ناله من قاتله. وقال: أنه ينبغي له رفض كل ما يراه أميل الى مجرد منافع للجنود المرتزقة من كونه ميزة من إمتيازات الشرف، ولذلك لايسعه قبول العشر ويقنع بالسهم الذي يقع له عادة أسوة بغيره. «ولدي رجاء خاص واحد أطلبه وأملي ان لايرفض. عندي بين الثولسيين صديق كريم، رجل ذو فضيلة واستقامة. وقع اليوم أسيراً وآل الى العبودية بعد الغنى والحرية. فأرجو أن تسمحوا لتدخلني في أمره بأنقاده من إحدى مصائبه، والحيولة دون بيعه كعبد من العبيد.» وأثار رفض [مارشيسوس] ورجاؤه هتاف استحسان أشد من السابق وكان الذين أعجبوا باستعلائه الكريم عن الجشع أكثر عدداً من المعجبين العديدين بشجاعة التي ابداه في القتال. وان عين الأشخاص الذين شعروا بشيء من الحسد والكره عندما رأوه يُخص بالتكريم على هذه الشاكلة، لم يسعهم إلا أن يقرروا بأن الرجل الذي لا يتردد في رفض مكافأة بهذه الطريقة النبيلة لهو أرفع بكثير من أي مستحق لها. وقد كان أعجابهم واندهالهم أشد بسجيته تلك التي جعلته يحتقر المال والمنفعة المادية، من سجاياه ومآثره الأخرى السابقة التي أنالته لقبه. انه لأسمى عملاً أن يحسن المرء استعمال المال من استعمال السلاح، إلا أن رفضه وعدم استعماله هو انبل من استعماله.

ولما سكنت الهتافات ونداءات الاستحسان استأنف [كومينيوس] حديثه قائلاً: «من العبث أيها الرفاق الجنود أن نحاول حمل الراض المتأبّي على قبول هدايانا بالقوة والإلحاح ولذلك فلنعطه هدية من النوع الذي لا يمكن رفضه قط. فلنصوّت على إقتراح يقضي بتسميته [كريولانوس] من الآن فصاعداً، إلا إذا رأيتم أن مآثرته في [كوريولي] قد سبقت هي نفسها اي قرار بهذا الشأن» وهكذا جاء هذا الاسم الثالث [كريولانوس] موضعاً بأن [كايوس] هو الأسم المجرد الشخصي، والثاني وهو اسم الأسرة أو اللقب [مارشيسوس] الذي يعرف به بيته

(٨) هو الضابط الذي ترك مواصلة حصار (كوريولي). ان شهرة مارچيوس بسبب العمل البطولي كانت تكشف مآثره القنصل كما يخبرنا ليفي [٢٣:٢] ولم يخلد اسم [يوسيميوس كوتينيوس] إلا لأنه كان حفاً على النحاس دعت اليه الحاجة عندما عقدت معاهدة الصلح من اللاتين فيما بعد.

وأسرتة. والثالث هو أضافة تالية، جرت العادة على اتخاذه لصفة عارضة من صفات الحياة لحقت بصاحبه، جسمانية كانت أم خُلقيّة أو لسجّيّة طيبة في صاحبه. مثلما كان الأغرقي أيضاً يلصقون اسما اضافية في العهود الأولى بالاسماء الأصلية في بعض الحالات بسبب عمل أو مآثرة ما. فتجد مثلاً اسم «سوتر Soter»^(*) و«كالينييكوس Callinicus»^(**) أو لمظهر شخصي كقولهم «فيسكون Physcon» (ذو البطن المفتوحة) و«غريبيوس Gryps» (ذو الأنف المعقوف). أو لميزات طيبة كقولهم «يورغيتس Eurgetes» (المحسن) و«فيلاذلفوس Phila-delphus» (محب الأخ أو الأخت) أو لحسن حظ كقولهم يوديون Eudaemon (المتنعم) والأمير الثاني من عائلة وهو لقب باتوس^(٩).

ولقب عدة ملوك أيضاً بألقاب سخرية مثل انتيغونس الذي اشاع له لقب دوسون Doston (الرجل الكثير المواعيد). ويطليموس الذي لقب لاثميروس Lathimerus (فول العلف) وهذا النوع من الالقاب هو أكثر انتشاراً عند الرومان فقد لقب شخص من أسرة ميتللي Metelli بلقب دياماتوس Diadematus لأنه كان يخرج للناس زمناً طويلاً وقد عصب رأسه بعصابة تغطي ندبة في جبينه وشم آخر من الأسرة نفسها لقب چلير Celer لسرعته في تهيئة وعرض حفلة مصارعين بمناسبة تشييع جنازة ابيه خلال ايام قليلة. بتلك السرعة والحمية اللتين عدا من الخوارق. ويوجد الى يومنا هذا بعض من أنتسب اسمه الى حوادث طارئة حصلت اثناء ولادته. فالطفل الذي يولد وابوه بعيد عن البيت أو هو في سفر يدعي بروكولوس Pruculus أو پوستيموس Postimus اذا ولد بعد موت ابيه وعندما يولد توأمان ويموت أحدهما اثناء الوضع يدعى الحي منها فوبيكوس Vopius. ومن ذوي الشواذ جسمانياً لم يقتصروا على اشتقاق اللقبين سيلا Sylla (البقع) ونيجر Niger (أسود) ورفوس Rufus (الأحمر). بل كايكوس Caecus (الأعمى). وكلودي Claudii (الاعرج). يريدون تعويد شعبهم لحكمة فيهم، بالا يكتثروا لا لفقده البصر، ولا لأي عاهة جسمية أخرى، والأ يدركهم الخجل من تلبية أي نداء بهذا الاسم كما لو كان أسمهم ولا يعدونه تقيصة أو مجلبة للعار. ولنكتف بهذا القدر من الموضوع فسبيلنا اليه موضع آخر.

(*) الحفيظ.

(**) المنتصر.

(٩) يقول هيروdotus [١٥٩:٤] انه أعطي للثالث وليس للثاني [ملك كيرينه] ومن قبيل هذه الالقاب والصفات أشتهر ثامن ملك من ملوك البطالمة بلقب (سوتر). كما منح لانطيوخوس وديمترئوس وكالينييكوس لسوقوس الثاني رابع ملك على سورية. و(فيكون) لبطليموس سابع ملك على مصر و(غريبيوس) لانطيوخوس التاسع عشر ملك سورية.

ما أن وضعت حرب الفولسيين أوزارها حتى أحياء زعماء الشعب الخطباء الشعبيون القلائق الداخلية، وأثاروا نزاعاً آخر دون سبب جديد أو شكوى أو ظلم واقع، وإنما جعلوا من المصائب التي تأتي حتماً في أعقاب التناحر السابق، حجةً لمهاجمة الباتريشيين. كان معظم الأراضي الصالحة للزراعة قد ترك دون حراثة أو بذار، فالحرب لم تمنحهم فترة راحة، أو مجالاً لاستيراد الأقوات من بلادٍ أخرى. فشحّ الطعام في روما إلى درجة متناهية^(١٠). ولاحظ مثيرو الشعب انه لا يوجد من القمح ما يمكن شراؤه، وإن وُجد فلا مال هناك لشراؤه. فراحوا يختلقون الروايات والحكايات على الاغنياء ويذيعونها همساً، وكلها ترمي إلى تصوير المجاعة بأنها نتيجة حقدهم وتبديير متعمدٍ منهم. وفي ذلك الوقت أقبل وفدٌ من [الفيليترياني Velitriani] إلى روما باقتراح تسليم مدينتهم للرومان، ويرغبتهن في أن ترسل مستوطنين جدد ليسكنوها، لأن الوباء الذي اجتاحتها لم يبق من مجموع سكانها إلا ما يناهز العُشر. وأعتبر الرومان البعيدو النظر هذه الضرورة الفيليتريانية، فرصة نادرة المثال على ضوء أوضاعهم العصبية الراهنة. لأن المجاعة المتفشية أوجب القيام بالتنفيس عن المدينة وتخليصها من فائض السكان. وكانوا يأملون من هذا أيضاً بتبديد سُحب الثورة المجتمعة بالتخلص من أكثر المواطنين عنفاً وأحمى المشاغبين رأساً، وتفريغ عناصر الفوضى والمرض خارج جهاز الدولة على ما يقال.

وعلى هذا الأساس قام القنصلان بتسجيل أسماء المواطنين الذين وقع عليهم الإختيار للسكنى في مدينة [فيليتري Velitrae] التي كادت تفقر. كما أخطروا بقية المواطنين بوجود التأهب لحمل السلاح ضدّ الفولسيين. وكان الهدف من ذلك سياسياً وهو الحيلولة دون فتنة داخلية باشغال جماهير الشعب في أمور خارجية. ورأيهم هو أن يؤدي أختلاط الفقير بالغنيّ والباتريشيّ بالبليينيّ في صفوف الجيش ومعسكراته وقيامهم معاً بخدمة وطينة واحدة - إلى حلول التصافي ووصل حبال الودّ فيما بينهم.

إلا أن المفوضين الشعبيين [سبيخيوس] و[بروتوس] تدخلوا في هذه الاجراءات وأعلنوا أن القنصلين يخفيان أشنع وأقسى عملية تحت الإسم البراق اللطيف «الإعمار والإسكان»، وأنهما يطوحان بالعدد الكبير من فقراء المواطنين إلى هدة الدمار والحراب بعرضهما عليهم السكن في مدينة أثقل هواؤها بالوباء، وغطيت أرضها بجثث الموتى. وانهما يدفعان بهم إلى غضب

(١٠) انسحب العامة إلى الجبل المقدس Mins Secer قبل موعد الفلاحة ولم يبرم صلح بينهم وبين الباتريشي حتى انقلاب الشتاء. وهكذا ضاع وقت البذار [ديون ١٠:٧] وأرسلت روما وكلاهما لشراء القمح من أقطار أخرى كاتوروريا وكامپسانيا وفولسكي حتى بلغوا صقلية. لكنهم عادوا خائبين إلا من اتوروريا. [انظر ليفي ٣٤:٢].

آلهة غريبة عنهم. وكان حقدهما لم يكفه القضاء على فريق منهم جوعاً، وتعريض الفريق الآخر إلى شرطاعون فتاك، تراهما الآن يباشران أيضاً عملية إقحام المواطنين في حرب لا ضرورة لها، حرب أثارها بتبديير منهما فحسب. وبهذا لا يعود يبقى نائبةً أو مصيبة للامتصاص من المواطنين، بسبب رفضهم الاستخذاء للأغنياء واستعبادهم، إلا مارسوها بحقهم.

بهذه الأقوال وأمثالها جنّ جنون الشعب، ولم يلبّ أحد منهم الأمر القنصلي بالحضور وقيد اسمه في سجلّ التطوع، وأظهروا عزوفهم التام عن طلب المباشرة بزراعة الموسم الجديد، فأسقط في يد مجلس الشيوخ ولم يدر ما يقول وماذا يفعل إلا أن [مارشيوس] الشاعر بقوة نفوذه، المعتمد على رصيد مآثره الماضية، والمتأكد من أعجاب ومشايعة خيرة رجال روما وأشرفها ما لث أن أخذ بيده زعامة معارضة المؤيدين لمطالب الشعب. وتم إرسال المستعمرين إلى [فيليتري] من الذين خرجت اسماءهم بالقرعة، وأرغموا على الرحيل تحت التهديد بانزال أشدّ العقاب بهم. ولما بقي الآخرون مصرين على رفض الخدمة العسكرية والخروج لحرب الفولسيين، قام [مارشيوس] بتعبئة اتباعه ومناصره ومن أستطاع أقناعه، وشن بهم غارة على تخوم [الانتيبات] وسطا على قدر جسيم من القمح، وغنم كثيراً من الماشية والأسرى، وعاد إلى روما منتصراً ولم يحتفظ لنفسه بشيء مما غنمه، إلا أن جنوده عادوا مثقلين بالأسلاب يسوقون انعامهم وأسراهم أمامهم. هذا المشهد أفعم المستنكفين عن القتال أسفاً وقهراً وأدركهم الندم لسوء موقفهم، وأمتلاؤا حسداً وغيره من أخوانهم، وبذلك رسخ في نفوسهم كره عميق لمارشيوس، وحنقوا عليه وعلى سمعته الداوية ونجم سلطانه الصاعد الذي قد يستخدم ضدّ مصالح الجماهير.

ولم يمرّ طويل زمن حتى تقدم [مارشيوس]^(١١) مرشحاً لمنصب القنصل، وكانت الظواهر تشير إلى ان الجمهور بدأ يميل إلى جانبه ويحبذ انتخابه، إذ كان الشعور السائد أنه من المخجل أن ينبذ رجل كمارشيوس عريق النسب، ذي مؤهلات وكفاءة، بعد قيامه بتلك الخدمات الجليلة الفريدة في بابها.

ولقد جرت العادة أن يمتزج المرشحون لمنصب القنصل بكل طبقات الشعب ويدعون لانتخابهم بالخطب والكلام الرقيق وسائر ضروب التزلف والاستمالة، وان يحضروا إلى [الفورم] وليس على أجسامهم من ثياب غير الرداء الفضفاض المسمى «توگا Toga»، ولا يخلو القصد من

(١١) في ٤٩٠ ق.م. لايونه ليفي بموضوع ترشيح. وكان [مارشيوس] يلح على مجلس الشيوخ للاستفادة من حالة المجاعة وارغام العامة (البليبيان) على التنازل عن تربيوناتهم. فأحرق العامة حتى أنهم حاكموه غيباً وأصدروا حكماً بنفيه، فالتحق بالفولسكيين. وتتفق رواية بليوتارخ مع رواية [ديون ٧: ٢١-٦٤] في هذا الصدد.

هذا إما تواضعاً في اللباس أمام الجماهير ليحسنوا في عينه، وإما ليسهل من أصيب منهم بجراح - أمر عرض ندوبها الشاهدة على حسن بلائهم. ومن المؤكد أن الظهور بالثوب الفضفاض من دون مشدّ أو حزام لا يقصد به إزالة أيّ شكّ في نفي مظنة الرشوة والفساد عن صاحبه المرشح الذي يريد أن يخطب ودّ الشعب. إن صفقات البيع والشراء لم تتسلل في عمليات الانتخاب، والمال لم يصبح من مقومات النجاح الأساسية في الاقتراع العام إلا بعد قرون عديدة من القرن الذي نحن الآن بصدده.

فعندما بدأ الفساد يستشري استبيحت حرمة مجالس القضاء، وهوجمت حتى المعسكرات. وأصبح المال فهو سيد الدولة بلا منازع عن طريق استئجار الشجاعة وشراء البطولة، واستعباد الفضّة للحديد. وأنقلب النظام الجمهوري الى حكم فردي ملكي. ولله در القائل: إن أوّل من هدم حريات الشعب هو أول من أغرقهم بالهدايا والأعطيات. وفي روما يظهر أن الفساد تسلل في الداخل سرّاً وبصورة متدرجة، فلم يظهر للملاّ فجأة ولم تلحظه العين في مسراه، وليس يعرف الضبط أول من أستخدم الرشوة مع المواطنين وأوّل من أفسد دور القضاء والمحاكم. في حين كان المشهور في آثينا إن [أنتيوس ابن انتيميون]^(١٢) هو أوّل من رشا القضاة لما حوكم في آخر مرحلة من نهاية حرب البيلوبونوس، بتهمة تسليمه حصن [بيلوس]^(*) الى العدو، وهو عهد كان يسيطر فيه على (فورم) روما جيل طاهر نقيّ ذهبيّ من الرجال.

وكعادة المرشحين لمنصب القنصل، كشف مارشبيوس عن الندوب والجراح الظاهرة في جسمه، من جراء الوقائع والمعارك العديدة التي أبلى فيها أحسن بلاد خلال سبع عشرة سنة متصلة، فأثر فيهم تأثيراً عميقاً وراح أحدهم يقول للآخر: إن السماحة الشعبية تفرض انتخابه قنصلاً. ولكن لما أزم يوم الاقتراع، وظهر [مارشبيوس] في الفورم تحفّ به بطانة فحمة من الشيوخ، ويحيط به جميع الباتريشيين، وسيماءهم تنطق بعظيم اهتمامهم بالأمر، وحركاتهم تنمّ عن جهدٍ يبذلونه في سبيل إنجاح [مارشبيوس] فاق اي جهده بذلوه في مناسبة مماثلة أخرى، توجس الجمهور خيفةً وأصيب بصدود مفاجيء عنه، وارتدوا عن العطف الذي ابدوه له، واستبدلوا النية الطيبة له، بشعور السخط والحنق والتقت هذه العاطفة الأخيرة بالخوف من أن يستخدم الباتريشيون هذا الرجل الارستوقراطي الخلق، العظيم النفوذ سلطة المنصب الممنوح له لغمط حقوق الشعب وسلبيه الحريات التي بقيت له. فعدلوا عن انتخابه ووگوا قنصلين آخرين. وكان

(١٢) تأنّت شهرته من توجيهه الاتهام لسقراط.

(*) بقعة على الساحل الغربي من مسينيا في البلوپونيس. احتلها الاثينيون في ٤٢٥ ق.م (توكيديس ٤: ٢ - ٤١، في ٤١٠ حاصرها اللقيديميون فسلمت حاميتها المسيينية وفشل أسطول اثيني في قهرها.

هذا أشبه بطعنة نجلاء اصابت مجلس الشيوخ في الصميم وشعر اعضاؤه إنهم قُصدوا بالإهانة أكثر مما قصد [مارشبيوس]، ولم تكن حالته بأفضل منهم، وصعب عليه احتمال العار باي قدرٍ من الصبر والاحتساب فلقد كان دوماً يطلق العنان لما في نفسه ولا يجعل لمشاعره ضابطاً وكان يعتبر صفتي الكبرياء والتّحدي في الطبع البشري مرادفتين للنبل والشهامة أما النظام والعقل فلم يزرعا فيه صفة الاتزان وضبط النفس وهما من السجايا الأساسية التي تلازم رجل السياسة. انه لم يتعلّم كم هو ضروري وجوهري لمن يتولى الشؤون العامة، ويتعامل مع بني البشر، أن يتجنب غرور النفس والاعتزاز بها، تلك الصفة التي يقول عنها أفلاطون «انها تنتمي الى عائلة العزلة»^(١٣)، لم يتعلّم أن يتّصف قبل كل شيء بقابلية الكظم، والسكوت على سوء المعاملة التي كانت موضع احتقارٍ عموماً. إن [مارشبيوس] الصريح كل الصراحة، والمستقيم الذي كان يؤمن بأن الشجاعة الحقّة هي قهره كل معارضة والقضاء على كل مناجز. لم يكن يستطيع أن يتصور بأن ما انفجر في نفسه هو الضعف والأثوثة في طبعه. أعنى قروح الغيظ هي التي تفجرت من مكامن نفسه، فجعلته ينسحب وهو ممتليء حقداً ومرارة وضغنا على الجمهور. وزاده حنقاً رؤيته الشبان الباتريشيين المعتزين بعراقة أصولهم المخلصين لقضيته، الذين ناصروه باخلاص لم تُجن منه أية فائدة؛ وهم يظهرن الآن علائم سخطهم، ويحاولون تعزيتة والتسرية عنه. ولا عجب فقد كان لهم قائداً ومعلماً متفانياً في فنون الحرب والقتال، وكان نموذجهم المحتذى في مجال المنافسة الحقّة والاستباق الى المجد والبطولات، الذي يجعل المتنافسين ثيني بعضهم على مآثر بعض باخلاص خالٍ من الغيرة والحسد.

وفي وسط هذه الغليان السياسيّ وصلت شحنات كبيرة من القمح الى روما. قسم منها ورد من أنحاء ايطاليا، وقسم معادل له قدمه [غيلو Gelo] ملك سيراكوز هديةً لروما. وداعب الكثيرين الأمل بانفراج الأزمة على أثر ذلك، مُقدّرّين ان المدينة ستتخلص من أنياب الفاقة والعسر، ومن مضاعفات النزاع الداخلي. وبادر المجلس الى عقد اجتماع فوريّ وتقاطر الجمهور وأحاط بقاعة المجلس ينتظر بلهفة نتيجة الاجتماع، وكان يتوقع أن يجري تخفيض من أسعار السوق التي ارتفعت إرتفاعاً جسيماً، وان يتم توزيع شحنة القمح المهداة بدون ثمن. وفعلاً نصح بعض أعضاء المجلس باتخاذ قرارٍ بهذا. إلا إن [مارشبيوس] هبّ قائماً وهاجم بكلّ عنفٍ كل من تكلم لمصلحة الجمهور ونعتهم بالمتزلفين للأوشاب، والغادرين بالنبل، قائلاً أنهم سيرسخون بهذه المنحة، جذور البذور السيئة من الوقاحة والغطرسة التي غرسوها في نفوس الشعب، خدمةً لأغراضهم الخاصة. وانهم ليفعلوا حسناً لو انتبهوا الى تلك

(١٣) ترجمتها الدقيقة من اليونانية القديمة: «الأنفة تعيش مع العزلة تحت سقفٍ واحد».

الجذور واجتثوها قبل أن تخرج شطئها، لا أن يدعوا طبقة الپليبيين تزداد قوةً ومناعة بمنحهم حق تعيين حكام ذوي سلطان عظيم «كمفوضي الشعب: تربيون». وهامهم الآن يمارسون نفوذاً واسعاً في دوائر الدولة ما دام يلبى لهم كل طلب، وما دام لا يوجد كايح لاراداتهم وما داموا يرفضون اطاعة أوامر القناصل ويأبون الانصياع لأي قانون أو حكم قضائي ويمنحون لقب القضاة لزعماء احزابهم... و«عندما تؤول الأمور بنا الى هذه النهاية، ونجلس نحن هنا لنقرر لهم منحاً وهبات. مثل الاغريق الذين أودعوا السلطة العليا في أيدي جماهير الشعب، فليس لنا من حيلة إلا أن نسلّم مقاليد أمورنا اليهم طائعين ونقوم على رعايتهم ومداراتهم لأجل خرابنا جميعاً. لاشك في أن هذا الكرم لا يمكن أن يعتبر مكافأة عن خدمات عامة. لالما أبوا المساهمة فيها، وهم أعرف بذلك من غيرهم، ولا منحة عن الفوضى والانقسام الذي أحدثوه. فكانوا بها كالمبترئين من وطنهم والمتخلفين عنه. ناهيك بالإهانات والشتم التي كانوا دوماً مستعدين لقتل مجلس الشيوخ بها. وخال أنهم يرون الدافع الى تقرير المنحة لهم خوفنا منهم وتزلفاً اليهم، لذلك لا يمكن أن يوضع لتمردهم حدٌ، ولن يقفوا عن إثارة القلاقل والاضطراب، وأن التنازل لهم، محض جنون، ولو كان لدينا ذرة من العقل، وشيء من العزم فعلينا ألا نهدأ بل نسترجع منهم كل سلطات المفوضين الشعبيين^(١٤) التي انتزعوها منا ابتزازاً. لأن بقاءها في ايديهم معناه هدم السلطة القنصلية، وعامل تفرقة مؤيدة في مدينتنا، التي أصابها منه الآن جرح بليغ لم تصب بمثله من قبل ويفتق ليس ثم احتمال في التحامه مرة أخرى، ولا أمل في رأيه والعودة الى الرأي الموحد، والكف عن اذكاء نار الخلاف وصيرورتنا مصدر عذاب ألدنا للآخر»^(١٥).

ويدوام ضرب [مارشوس] على هذا الوتر الحساس ضرباً بارعاً، فنجح في اذكاء المشاعر العنيفة في نفوس الشيوخ الپاتريشيين الأصغر سناً، وحمل كل الأغنياء تقريباً على الانحياز الى صفه، فلهجوا باسمه ووصفوه بالرجل الأوحده في المدينة الذي ارتفع فوق الرّياء، وتحدى القوة. على أنه لقي معارضة من بعض كبار السنّ، يدفعهم الخوف من النتائج. والواقع انه لم ينجح عنه إلا الشرّ المستطير. اذ عندما أدرك مفوضو الشعب الهدف الذي يرمي اليه [مارشوس]، خرجوا من المجلس مسرعين وأهابوا بالحشود المجتمعة أن يتراصوا ويتكاتفوا ويسرعوا الى معونتهم. ثم عقدوا إجتماعاً جماهيرياً أنقلب الى تظاهرة عاتية. ولخصّ

(١٤) كان التربيون مؤخراً قد سنوا فقانوناً يجعل مقاطعتهم اثناء الخطاب جريمة معاقباً عليها.

(١٥) حذف پلوتارخ أخطر وأهم فقرة في خطبة كريبولانوس. فقد أقترح في هذه الفقرة ابقاء سعر القمح كما كان عليه من ارتفاع ليبقى الشعب معتمداً على السلطة خاضعاً لها. [انظر ديون]

للجمهور كلام [مارشوس]، فشأرت ثائرتة واجتاحته عاصفة من الحق، وهموا باقتحام المجلس، إلا أن مفوضي الشعب حالوا دون ذلك، بالقائهم التابعة كلها على [كريبولانوس]. وعلى أثر ذلك بعث المفوضون بحرسهم الخاص يطلبون حضوره امامهم للدفاع عن نفسه. فردّه عنه باحتقار عندما أبلغوه بأمر الحضور، فدخل التربيونان بأنفسهم عليه ترافقهم ثلثة من ضباط [الايديل Aediles] وهم حرس السوق، يريدون أخذه بالقوة، ومدّوا ايديهم اليه فأنبى الپاتريشيون لانقاده، ثم طردوا مفوضي الشعب، بل أعتدوا بالضرب على ضباط السوق مناصريهم. لكن الليل وضع حدّاً للنزاع، ولما انبلج الصبح وتبين القنصلان مبلغ هياج أفراد الشعب وسخطهم، وشهدوا كيف يتقاطرون من كل حدب وصوب الى [الفوروم]، أدركهما خوف عظيم على المدينة بأسرها. فطلبوا اجتماع مجلس الشيوخ مرة ثانية. لاتخاذ قرار من شأنه تهدئة خواطر الجماهير الساخطة المستنفرة، ومخاطبتهم بلغة السماح واللين، واصدار قرارات تقسم بالتساؤل. وانهم اذا فكروا في الوضع الراهن بحكمة، فسيجدون أن الحالة لا تتحمل التمسك بمقاييس الشرف، والتمسك بالمدجد والسؤدد. ومثل هذا الموقف الحرج يتطلب تدابير رفيقة ومعالجة ليّنة، ومقررات معتدلة انسانية. وعلى هذا الأساس وافقت أغلبية المجلس وياشر القنصلان في تهدئة هياج الشعب بخير ما استطاعا، وأخذ يجيبان بأناة وصبرٍ على اتهاماتهم وشكاوهم التي صبّوها صباً على مجلس الشيوخ واستخدما نهاية الرقة والاعتدال في لومهم ومعابرتهم على سلوكهم المندفع. وابلغهم أنه لن يكون هناك فرق في الأسعار بين الطبقات.

ولما هدأت سورة القسم الأكبر منهم ويدا من مسلكتهم الهاديء الوديع إطمئنانهم لما سمعوا. أنتصب مفوضو الشعب وأعلنوا باسم الجمهور قراراً مفاده إنه مادام مجلس الشيوخ قد ثاب الى رشده وأختار الروية وقرر أن ينصفهم، فهم من جهتهم مستعدون لإطاعة كل ما هو عادل ومنصف، لكنهم على أية حال مصرون على أن يتقدم [مارشوس] باجوبة عن التهم الآتية: فأولاً: أيسعه الإنكار بأنه حمل مجلس الشيوخ على تغيير نظام الحكم والغاء امتيازات الشعب؟

ثم: عندما طلب منه الحضور للإجابة على التهمة، ألم يعصي أمر الاستقدام؟

وأخيراً: ألم يعمل بكل ما في وسعه على اثاره فتنة وحراب أهلية بتسببه في الاعتداء على ضباط (الايديل) وغير ذلك من ضروب الاهانات والاعتداءات العلنية.

وإسناد هذه التهم الى [مارشوس] كان يرمي إمّا الى إذلاله وارغامه على إظهار خضوعه

للشعب (إن ظلّ راغباً في خطب وده والتزلف إليه خلافاً لطبعه). وإمّا الى احلال القطيعة النهائية بينه وبين الجمهور (إن شاء أن يبقى أميناً على طبعه، وهو ما توقعوه منه بحكم معرفتهم باخلاقه).

وهكذا حضر [مارشوس] امام جمهور الشعب ليقدم اعتذاره ويبري نفسه، وهو ما كان الشعب يتوقعه، فحافظ على الهدوء والسكينة، وانصت اليه دون مقاطعة، إلا أنه راح يستخدم لغة وقحة وأسلوباً تهجيمياً كان فيه متهماً لا معتذراً، لا بل كانت نبرات صوته ومظهره المعتدّ ينمان عن غطرسة واستهانة تقرب من الازدراء والاحتقار للسامعين، بدل الاستخزاء والتواضع المنتظر منه. فتملك الجمهور غضب شديد، وأظهر علائم نفاذ الصبر والاشمئزاز. ونهض [سينيوس] أكثر المفوضين صرامة وعنفاً، وبعد مداولة سرّية مع زملائه الآخرين، أعلن امام الجميع قراراً مفاده أن مفوضي الشعب حكموا على [مارشوس] بعقوبة الموت، ثم انه أمر [الايديل] بأخذه الى الصخرة التاريّبة وقذفه من حالق الى الهاوية دون تأخير. فتقدم هؤلاء لتنفيذ الأمر الذي تميّز بالقسوة والصرامة حتى في أعين بعض [الپليبيين]. وعندها جنّ جنون الپاتريشيين ألماً واستفظاعاً وهرعوا وهم يضحون ويصيحون لانقاده، واستخدم بعضهم الأيدي فعلاً، لمنع تنفيذ أمر القبض وتحلقوا [مارشوس] وجعلوه في وسطهم، وعمد بعضهم الى مد الأيدي الضارعة لوقف هذا الاجراء العنيف المتطرف لأن الكلام في مثل هذه الضجة لا يفلح عادةً. وادرك اصدقاء مفوضي الشعب ومعارفهم صعوبة أخذ [مارشوس] الى موضع تنفيذ العقوبة وكم سيسفك من الدماء، ويهلك من الناس ويقتل من الپاتريشيين، فاقنعوهم بالعدول عما هو خلاف القانون. والأى يقتلوه قتلة سريعة شنعاء كهذه دون محاكمة اصولية، بل أن يودعوا مصره الى الاقتراع الشعبي العام.

بعد مرور فترة من التأمل، التفت [سيچنيوس] الى الپاتريشيين وسألهم: ماذا يقصدون من انتزاع [مارشوس] عنوة واقتداراً من قبضة الجمهور وهو في سبيل تنفيذ العقوبة به؟ فردّ عليه الپاتريشيون بالسؤال المماثل: «بل قل لنا كيف سوّكت لكم أنفسكم أن تجرّوا واحداً في أعظم رجال روما جرّاً الى ساحة الاعدام بطريقة بربرية لا قانونية ومن دون محاكمة؟ وما هو قصدكم من ذلك؟». فقال [سينسيوس]:

- «حسن جداً، لن نترك لكم سبباً للخصام من هذه الجهة... ولن ندع لكم علة للشكوى من الشعب. الشعب الآن يلبي طلبكم وصاحبكم هذا سيحكم وفق القانون»

ثم وجه القول الى [مارشوس]:

- نعيّن لك يا مارشوس، اليوم الثالث إعتباراً من «يوم السوق» القادم، لتحضر وتدافع عن

نفسك وتحاول ان أمكنك اثبات براءتك امام المواطنين الرومانيين الذين سيفصلون في قضيتك بالتصويت.

ورضي الپاتريشيون بهذه الهدنة. وافرخ روعهم وعادوا الى منازلهم مسرورين بنجاحهم في المحافظة على حياة [مارشوس].

في غضون الفترة التي سبقت موعد المحاكمة (إعتاد الرومان أن يعقدوا جلسات المحاكم في كل يومٍ تاسعٍ ومن هنا جاء الاسم اللاتيني [موندنياي Mundinae] ^(١٦))، نشب القتال بين الرومان والأنتيات ^(١٧))، وتوقع الپاتريشيون أن يستمرّ حيناً، وبذلك شاع فيهم الأمل في إمكان التملص من اجراء المحاكمة، وقدروا أن تهدأ أسورة غضب الشعب، ويقلّ سخطه حتى يضمحل بمرور الزمن عليه، هذا إن لم تصرف الحرب والمشاكل الأخرى اذهانهم عن الموضوع بصورة نهائية. وعندما توصلوا الى عقد صلح عاجلٍ خلافاً لما توقعوا وعاد الجيش الى روما من أنتيوم، عاد القلق والارتباك يسود صفوف الپاتريشيين وبادروا الى عقد عدة اجتماعات ليقرروا خطة لا تفرط فيها بمارشوس أو أعطاء فرصة لمثيري الشعب لخلق اضطرابات جديدة. ووقف بينهم [أپيوس كلوديوس Appius Claudius] المعروف بأنه أشدّ الشيوخ نفوراً من الامتيازات الشعبية، وقال منذراً: «إن مجلس الشيوخ سيقتضى على نفسه قضاءً تاماً، ويخون الحكومة إذا سمح للشعب مرةً واحدةً بتولي سلطة أصدر حكم على ايّ پاتريشي». إلا أن الپاتريشيين الأكبر سناً، والأقرب الى افئدة الشعب عارضوا بقولهم «ان جماهير الشعب لن تكون شديدة القسوة والصرامة كما يخيل لبعضهم. ولكنها ستكون أكثر ميلاً للذعة والسكينة عند منحها تلك السلطة، فالذي دفعها الى طلبها لم يكن اذلال مجلس الشيوخ وانما الفكرة التي تكونت عندها وهو أن المجلس هو الذي قصد اذلالها وتحجيرها، ألا فلتمنح لها هذه السلطة مرة واحدة وليكن ذلك دليلاً على الاحترام وشعور التعاطف والود. إن مجرد حيازة الشعب سلطة التصويت في هذا الشأن سيزيل فوراً العداء فيما بيننا».

ولما وجد [مارشوس] محنة المجلس والتوتر الذي يسوده بسببه، وحيرته بين عطفه عليه، وخوفه من الشعب، طلب من مفوضي الشعب أن يعرفوه بالجرائم التي ينون إسنادها اليه، واصول التهم التي ستجرى المرافعة فيها امام الشعب، فأجابوه أنه متهم بمحاولة اغتصاب الحكم. وانهم سيثبتون عليه محاولته وشروعه في اقامة حكم استبدادي ^(١٨). فنهض

(١٦) يقول [ديون ٨:٧] كان ثم فترة سبعة أيام فقط. بين ايام السوق.

(١٧) ورد نبأ مفاجيء الى روما يفيد بان أهالي (انتيوم) وضعوا ايديهم على سفن سفراء (غيلون) اثناء عودتهم الى صقلية بل انهم صادروا السفن واعتقلوا السفراء. وعندها تهيأ الرومان بسلاحهم لمعاوية أهالي [انتيوم] لكن هؤلاء ما لبثوا أن عادوا للطاعة وتم الصلح.

- فلنذهب أذن الى الشعب، لتبرئة نفسي من هذه التهمة الباطلة امام جمعيتهم العامة. اني أعرض نفسي بملء اختياري الى أي نوع من المحاكمة، ولن انتظّم من أي عقاب يفرض عليّ، وكلّ ما أطلبه هو أن تنحصر تهمتي بما ذكرته الآن، وان لا تتخذوا المجلس.

فوافقوا على شروطه، وذهب الى موضع المحاكمة. لكن، عندما اجتمع الشعب تقدم مفوضوه باقتراح مراوغ، وهو أخذ الأصوات لا على أساس [الچنتوري] كما جرت العادة عليه بل على أساس رؤوس القبائل^(١٩)، وهو تغيير يمكن الغوغاء الحاقدة المشاغبة التي لا قيمة عندها للعدالة والنزاهة من صبّ جام حقدتها فعلاً على رؤوس الاغنياء واشراف القوم ومن اعتاد بذل الخدمة للدولة اثناء الحرب. وبعد هذا عمد المفوضون الى تغيير مواد الإتهام، في الوقت الذي تم القرار على الا يحاكم مارشبيوس إلا عن تهمة الاستبداد والاستئثار بالحكم وهي تهمة ضعيفة يتعذر اثباتها عليه. فأسقطوا هذه التهمة واستعاضوا عنها بتهمة تحريضه في مجلس الشيوخ. ومعارضته في تخفيض أسعار القمح، ومطالبته بالقضاء على سلطات مفوضي الشعب. وأضافوا أيضاً تهمة ثالثة جديدة، بخصوص توزيعه الغنائم والأسلاب الحربية التي انتزعها من الأتنيات عند غزوه بلادهم، لأنه خصّ بها من تطوع في جيشه فحسب في حين يقضي القانون السائد بايداعها بيت المال^(٢٠). ولقد قيل ان هذه التهمة أخرجت موقف [مارشبيوس] أكثر من أية تهمة أخرى لأنه لم يستعد ولم يكن متوقفاً استجوابه عنها، لذلك

(١٨) استناداً الى [ديون] قال مارشبيوس في معرض دفاعه عن نفسه «... فضلاً عن اصابتي بهذه الجراح التي ترونها في سبيل انقاذ المواطنين: الالفندع التريبيونات يقسرون لنا إن استطاعوا - كيف يمكن ان تنسجم مثل هذه المآثر مع النوايا الغادرة التي يتهمونني بها» إلا ان [ديون] لم يذكر بان التريبيونات وافقوا على الشروط التي ذكرها النص.

(١٩) منذ عهد الملك [سرفيوس توليوس] صارت الأصوات تؤخذ بطريقة الچنتوري اي المئات اذ قدروا حتماً ان مارشبيوس سيبراً أن أخذت الأصوات بهذه الطريقة. فالفرسان وأغنى المواطنين هم الأغلبية. حيث تؤلف الطبقة الأولى أو العليا ٩٨ صوتاً من أصل ١٩٣ وهي مجموع الطبقات الست. لكن التريبيونات الانكباء، افتوا بأنه في قضية تتعلق بحقوق المواطنين يجب أن يكون لكل مواطن واحد صوت واحد ولم يرضوا باحصاء للأصوات الا على اساس القبائل. والى جانب محكمة جميعة المائة Teibuna Comitia Centuriata، توجد أيضاً الكيورياتا Curiata التي أقامها (رومولوس) وتقسّم سكان روما الأصليين الى ثلاث قبائل في كل قبيلة عشرة أفخاذ Curiae. [ديون ٢:٣-٥]. بقي هذا النظام سارياً حتى مجيء [سرفيوس توليوس] الذي ابدله بالطريقتين الأخرين في أحصاء آراء الجمهور.

(٢٠) افاد التريبيون [دجيوس] «إن هذا دليل واضح على نواياه الشريرة فبالأموال العامة ضمن له مخلوقات وحرساً يساندونه في ما اعتزمه من اغتصاب للسلطة. الا دعوه يثبت انه كان حائز السلطة التي تؤهله لتوزيع هذه الغنيمة دون خرق للقانون دعوه يُجب مباشرة عن هذه القضية وحدها دون ان يلجأ الى فنون وتعلات أخرى القصد منها تضليل الجمعية...» [ديون ٩:٧].

لم يكن دفاعه قوياً مقنعاً بسبب عامل المفاجأة. ولما بدأ على سبيل الاعتذار والقنصل - يعظّم من مآثر أولئك الذين شاركوا معه في القتال، وبما أن من تخلف عن الحرب كان أكثر عدداً ممن تطوع، فقد قوطع بصيحات الإستنكار والتنديد. وأخيراً جاء دور التصويت، فأدين بأغلبية ثلاث قبائل^(*)، وفرضت عليه عقوبة النفي المؤبد.

بعد النطق بالحكم ترك الجمهور محل الاجتماع بتظاهرة صاخبة وهتاف مدويّ فاق بكثير اي تظاهرة قام بها الشعب بمناسبة نصرٍ على عدو. في حين وجم اعضاء مجلس الشيوخ وأستولى عليهم الحزن العميق. وادركهم ندم شديد لأنهم لم يحاولوا شتى الطرق للحيلولة دون طغيان ارادة الجمهور، ولسمحهم له بممارسة هذا القدر الكبير من السلطة، فكانت نتيجتها اساءة استعمالها والتعسف في تطبيقها. ولم تكن الحاجة تدعو لتفحص ثياب الناس أو استقراء علامة مميزة فيهم للتثبت من طبقتهم، فمن كان فرحاً منهم بالنتيجة، فهو يليبي، لاشك فيه، ومن بدأ واجماً كئيباً فهو باتريشي.

وكان [مارشبيوس] الشخص الوحيد الذي لا يشعر بذلّة أو صدمة. فمن سيمائه وملامحه وتصرفاته كان يبدو مثلاً لضبط النفس وفيما كان الأسى يعمر قلوب اصحابه كافة، ظلّ الرجل الوحيد الذي لم تؤثر فيه مصيبتهم. لا لأن ترويضه العقليّ علمه الرضا بحكم القدر، ولا لأن رقه طبعه جعلت القناعة خلقاً فيه، فالأمر بعكس ذلك تماماً إذ شاع في كيانه حقد عميق متأصل الجذور عنيف، لا يحسّ له المأ كشيئاً من الناس. الحق يقال أن الألم يتحول بفاعلية حرارته اللاهبة الى غضب، ويُفقد صاحبه كل مظهر من مظاهر التخاذل والكآبة، وفي الغاضب حيوية كثيرة، كالمصاب بالحُمى المحرقة ففي مرضه حرارة مادية ظاهرة، وفي عمل الروح والحق يقال عوارض مرضيّة ظاهرة من ارتجاف والتهاج وانتفاخ، وكان يبدو مثلها في حالة [مارشبيوس] المضطربة، وتظهر في أعماله وحركاته.

عند وصوله البيت أقرأ التحية والدته وامراته وكانتا تذرغان دموعاً غزيرة وتنتحبان وتعولان، فنصحهما بان يقصدا في مشاعرهما والأ يستسلما للحنن جراء مصيبة^(٢١)، وبعدها توجه الى ابواب المدينة فوجد اشراف روما كلهم مُجتَمعين لتوديعه. ولم يصحب معه متاعاً ولم يطلب شيئاً أو يرجو رجاءً من مشيعيه، وفارقهم وليس في ركابه غير ثلاثة أو أربعة من الاتباع وأنطلق الى موضع في الريف حيث مكث يضعه ايام يُطارحه مختلف الأفكار التي

(*) يقول ديونيسيوس هاليكارناسوس (٦٤:٧) صوت لبراعته ٩ من أصل ٢١ قبيلة.

(٢١) وضع كريبولانوس ولديه في رعايه امه جدتهما ولأولهما عشر سنين من العمر. والثاني صغير جداً. [ديون ٩:٧].

يدفعها الغيظ والسخط الى رأسه، ولم يكن فيها فكرة ذات هدف نبيل أو صالح. وكان عقله يدور به باحثاً عن أجدى الوسائل لاطفاء جذوة انتقامه من الرومان. حتى استقر رأيه بالأخير على أن يشنّها حرباً شعواء عليهم، عن طريق أقرب الجيران اليهم، وعزم مبدئياً على جسّ نبض القولسيين، والتأكد من مدى استعدادهم لذلك. وكان يعلم انهم ما زالوا شديدي القوى كثيري الموارد في المال والرجال. وأن بأسهم لم يضعف بالدرجة التي أشتدّ حنقهم على الرومان وكرههم، بسبب الهزيمة الأخيرة التي ذاقوها منهم.

كان يعيش في [آنتيوم] رجل يُدعى [تولوس اوفيدوس Tullus Aufidius] له بين القولسيين ما للملك من مكانة واحترام بسبب ثرائه وشجاعته وشرف أسرته. وكان [مارشوس] يعلم أنه يكن له من العداة الشخصي ما لا يكتفه لأي روماني آخر، فقد تبادلوا اثنا المعارك عدة تهديدات وتحديات ودعوات للنزال. وبهذه التحرشات المتبادلة التي كان من شأنها أن تثير حماسة صغار الجنود وتدفعهم الى خصم المعركة، اضافت العداة الشخصي الى الخصومة الطبيعية بين المتحاربين. ومع كُله ذلك فقد توقع في [تولوس] سماحة خلقٍ، وقدّر ان ليس بين القولسيين قبله، يرغب في فرصة تتيح له ردّ أذى الرومان صاعاً بصاعٍ، ولذلك أقدم على ما أيدّ قول القائل:

من الصعب ان تقا تل الغضب. فهو يشتري
كلّ ما يريد. وان كان ثمن ذلك حياتنا

وتنكر بثياب غيرت من هيئته بحيث ينكره كل من يعرفه، مثل ما فعل [يوليسيس] في:
«انه دخل مدينة اعدائه الألداء»^(٢٢).

وكان دخوله [آنتيوم] في حوالي المساء، ومرّ في الشوارع دون أن يعرفه أحد من المارة الكثيرين ووصل منزل [تولوس] ودخلها دون ان يحسّ به أحد وقصد الموقد وجلس اليه دون أن ينطق بكلمة واحدة مغطياً رأسه^(٢٣). ولم يسمع افراد الأسرة إلا أن يندھشوا، ولكنهم اجموا عن انباضه أو طرح سؤال عليه. لما كان يحفّ بصمته وهيئته من جلال ومهابة. إلا أنهم أبلغوا [تولوس] بالحادثة الغريبة وكان يتناول عشاءه فنهض حالاً ودخل عليه وسأله عمن يكون، وما الذي جاء به الى منزله فكشف [مارشوس] عن هويته وحسر رأسه وبعد فترة صمت قال:

(٢٢) الاوديسي [٢٤٦:٤] إما لأجل قياس جدار طروادة واما لإقناع هيلين بالتعاون مع مواطنيها الأغرقي.
(٢٣) يعتبر الموقد مكاناً مقدساً في البيت -، لأن فيه آلهة الأسرة. وكل مستجير يأتيه وكأنه يلوذ بحرم.

- إن كنت لا تذكرني يا تولوس، وان كنت لا تصدق عينيك، فالضرورة تقضي أن أكون المتهم لنفسي. أنا [كايسوس مارشوس] مسبب الأذى الكثير للقولسيين. ولو أنكرت هذا فلقبي [كربولانوس] الذي احملة الآن هو وحده دليل كاف عليّ. التعويض الوحيد الذي نلته عن كل الأخطار التي تعرضت لها، والمصاعب التي خضتها، هو ذلك اللقب الذي يكشف عن عدائي لقومك. وهو الشيء الوحيد الذي بقي لي جردت وحُرمت كل الامتيازات الأخرى، جراء حسد الرومان حقدهم، وبسبب جبن وغدر الحكام وأولئك الذين ينتمون الى طبقتي وأخرجت من بلادي منفياً، وصرت مستجدياً متسكيناً عند موقد نارك. لا باحثاً عن الأمان والحماية قدر ما انا باحث عن الانتقام ممن طردني. ولو كنت خائفاً من الموت لما جئت. وأعتقد اني حصلت على مرادي بوضع نفسي بين يديك. فان كنت تريد حقاً قتال أعدائك فهياً أذن وأستفد من البلية التي تراني فيها. للنهوض بهذه المهمة، وتحويل سوء حالي الى نعمة عامة للقولسيين. فأنا في الواقع أكثر فائدة في قتال لكم، من القتال عليكم، والأفضلية التي املكها الآن هي وقوفي على كل أسرار العدو الذي سأهاجمه. فإن كنت عازفاً عن القيام باية محاولات أخرى، فلست بالراغب في الحياة هنا، ولا يكون جميلاً منك استضافة شخص طالما كانت خصماً لك ومنافساً والآن عندما يعرض عليك خدماته يتضح لك أنه غير صالح لك ولا نافع.

عندما وعى تولوس كل هذا الكلام جُنّ فرحاً ومدّ اليه يده اليمنى وصاح:

- قم يا [مارشوس]، وأستجمع شجاعتك. لقد جئت لآنتيوم بأعظم السعد، فيما قدمت نفسك له من فائدة. ولك أن تتوقع كل ما هو حسن من القولسيين.

ومن ثم أخذ يظهر له الإكرام والحفاوة وضروب العطف. وقضيا عدة أيام بعدها في التداول معاً بخصوص امكانيات الحرب.

وفيما كانت هذه الخطط تتخذ شكلها المادي، كان الاضطراب والفوضى يعمان روما، بسبب العداة المستحکم بين اعضاء مجلس الشيوخ وقد زاد حدة الآن بإدانة [مارشوس]، والى جانب ذلك أخذ العرافون، والسحرة والكهنة وحتى الناس العاديون يتناقلون انباءً عن علامات وخوارق لا يمكن الاستهانة بها. ومنها ما اشيع حدوثه على النحو الآتي: هناك رجل يدعى [تيطس لاتينوس] انسان رقيق الحال ذو خلق طيب هاديء، بعيد كل البعد عن الاوهام والخيال والشعبذة، وأبعد من ذلك عن المبالغة والتفاهة رأى في المنام كأن جويتر جاءه وطلب منه أن يخبر اعضاء مجلس الشيوخ بأنهم وضعوا على رأس موكب الديني راقصاً سيئاً غير ذي أهلية. ولكنه لم يهتم بالحلم ولم ير فيه أي أهمية لأول وهلة. ولكن بعد أن تكرر مرة

ثانية وثالثة، فقد أبناً عزيزاً عليه، وأصيب هو نفسه بالفالج وحمل الى مجلس الشيوخ على محفة ليُدلي بتفاصيل حلمه، وتقول الحكاية أنه أبلى من مرضه وأستوى على قدميه حال ابلاغ الرسالة. وذهب الى بيته دون مساعدة أحد. وتلك المجلس العجب والحيرة، وراحوا يبحثون الأمر بحثاً دقيقاً. أما ما كان يشير اليه الحلم فهو هذا: أحد المواطنين في روما كان يملك عبداً ارتكب جرماً شنيعاً، فسلمه لزملائه الآخرين وأمرهم بجلده في السوق ثم قتله. وفيما هم ينفذون أمره هذا بجلد البائس الذي كان يتمطى ويتقلص ينقلب ظهراً لبطن وعلى كل شكل من الأشكال والحركات الغربية بسبب الألم الذي يحسه. اتفق أن أقبل في أعقابهم موكب ديني تكريماً لـجوبيتر. فاستنكر عدد من السائرين فيه مشاهد الخادم المجلود إلا أنه لم يتدخل أحد منهم أو يقيم بعمل أكثر من مجرد النطق بعبارات اللوم المعتاد والتنديد بالسيد الذي حكم على عبده بهذه العقوبة القاسية. فالرومان كانوا يعاملون عبيدهم في ذلك الزمان، معاملة انسانية للغاية. عندما يشتغلون ويكدحون معهم جنباً الى جنب فمن الطبيعي أن ترتفع الكلفة بينهم، وأن يعاملوهم برقة، ومن أشد العقوبات التي كانت تفرض على العبد المخطيء، أن يحمل قطب الخشب الذي يسند محور العجلة ويدور بها في الجوار، والعبد الذي يحل به هذا العار، فيشاهده الجيران وأهل البيت ينفذ العقوبة، يسقط من عيون الناس، ولا يعودون يثقون به أو يعتمدون عليه، ويطلق عليه اسم فورجيفر Furcifer، من كلمة فوركا Forca اللاتينية ومعناها العمود الخشبي أو الجذع.

عندما قصّ [لاتينوس] حلمه، وانكفأ الشيوخ يتساءلون عن ذلك الراقص السيء المكره، فتذكر بعض الجماعة الذين أستلقت نظرهم غرابية العقوبة التي حلت بالعبد البائس، كيف جُدد على طول الشارع ثم ازهقت روحه. وأيد الكهنة هذا التخمين عندما استشيروا. فعوقب صاحب العبد وأمروا باقامة احتفال جديد للموكب الديني تكريماً للرب. وبالمتابعة نذكر [نوما] الحكيم في تنظيمه الوظائف الدينية، فهو يبدو بصورة خاصة شديد الحرص في توجيهه لها. ووضع نصب عينه انتباه الشعب اليها وإحترامها لها. وقد رتبّ عند قيام الحكام والكهنة بالمراسيم الدينية، أن يسبق موكبهم مناد يخرج للناس وينادي بأعلى صوته: Hogage: أعملوا هذا الذي تهمون به؛ وبهذا ينذر الناس بالتنبيه للشعائر المقدسة التي سيمارسونها، وان لا يدعوا عملاً دنوبياً أو مشاغلاً يومية تشوش المراسيم أو توقع الخلل فيها. ومعظم ما يأتيه الناس. في هذا الصدد مفروض عليهم فرضاً، وبكيفية ما. وأعتاد الرومان اقامة الشعائر الدينية، ومواكب صلواتهم لأقل الأسباب واتفه الدواعي. فإن حدث وتعثّر أو كبا حصان من الخيل التي تجرّ العجلات المسماة «تسنّي Tensae» أو إذا جمع السائق أعنتها بيده اليُسرى،

يأمرون باعادة المراسيم كلها من الأول. وفي العصور المتأخرة بلغ الحال بهم الى حد أنهم كرروا شعائر قربان واحدٍ ثلاثين مرةٍ لحصول خطأ أو هفوة أو حادث في اثناء الحفل. هكذا كان مبلغ احترام الرومان وشدة حذرهم في شعائر الدين.

وأخذ [مارشبيوس] و[توللوس] يتداولان في مشروعهما سراً مع رؤساء [آنتيوم] ويحثونهم على غزو الرومان بيناهم متناحرون فيما بينهم وكان يظهر أن الخجل يصدهم عن قبول الاقتراح لأنهم عقدوا هدنة يتم بموجبها وقف القتال لمدة سنتين، ولكن ما لبث الرومان أن هبوا لهم حجةً لنقض الهدنة. باعلانهم في اثناء الالعب بوجوب مغادرة كل من جاء من الثولسيين لمشاهدة الألعاب وعدم بقاء أحدهم في روما قبيل مغرب الشمس. ودفعهم الى ذلك الإحتقار أو خبر ملفق عن الثولسيين. ويؤكد البعض أن هذا العمل هو من تدبير [مارشبيوس]. فقد بعث سراً برجل الى القنصلين، ليتهم الثولسيين كذباً وبهتاناً، بانهم يدبرون غزوة مفاجئة لرومان اثناء انشغالهم بالألعاب، واشعال النار في روما^(٢٤). فألهب هذا التحقير المرزي مشاعر الثولسيين، وملاهم حقناً على الرومان. واهتبل [توللوس] فرصته فراح يعمل على تسعير النار وزيادتها ضرماً، وأخذ يهول الأمر على مواطنيه حتى أقنعهم أخيراً بارسال وفد الى الرومان يطلب منهم اعادة الأراضي والمدن التي أقتطعوها من بلادهم جراء الحرب الأخيرة. فأجاب الرومان حانقين: إن الثولسيين كانوا البادئين في إشهار السلاح، وسيكون الرومان آخر من يضعه. وعاد الوفد بهذا الجواب فدعا توللوس الثولسيين الى اجتماع عام، وجرى التصويت على اعلان الحرب. ثم انه اقترح انه يُدعى [مارشبيوس]، ونزع الاحقاد من النفوس وتناسيها، وطلب أن يشقوا بأن الخدمات التي سيقدمها لهم مارشبيوس بوصفه صديقاً لهم وشريكاً، ستزيد كثيراً على جميع الأضرار والخسائر التي ألحقها بهم عندما كان خصماً لهم.

فاستدعي [مارشبيوس]، فحضر ووقف بينهم متكلماً، فأجذب الجمهور الى صفّه وأقنعه بالثقة في كفاءته وبراعته وحسن مشورته وجرأته، بقوة عارضته أكثر مما أقنعه بسجل بطولاته وأعماله المجيدة السالفة. وانتدب الى جانب [توللوس] ليتولى منصب جنرال في جيشهم، مزوداً بسلطة مطلقة في كل ما يتعلق بإدارة الحرب. ولما كان يخشى ان يطول الوقت في تحشيد كل قوات الثولسيين وتعبئتها تعبئة تامة، بحيث يفقد عامل المباغته، فقد ترك

(٢٤) قال توللوس «وحدنا من دون سائر الشعوب لا يروننا نستحق الحضور لمشاهدة هذه الألعاب. نحن وحدنا نطرد من الأعياد العامة كاحقر الكفرة وارذل المجرمين! اذهبوا الى مدنكم وقراكم وأظهروا الشارة المميزة التي وسمننا بها الرومان». ليقفي [٢:٣٧، ١-٧] يقول انه جاء الى مجلس الشيوخ بتدبير سابق مع مارشبيوس. لكن پلوتارخ هنا ينحو منحى [ديون ٨:٣]. على أن كريولانس كان صاحب اقتراح اعادة الاراضي والمدن التي استلبها الرومان منهم.

وأمر لحكام المدينة بخصوص أمور التعبئة والتأهب وجمع ما تحت يده من المتطوعين الأكثر تحملاً. وزحف بهم غير منتظر أو متريث، ووقع على الحدود الرومانية بغزوة مفاجئة لا يتوقعها أحد^(٢٥)، واستولى نتيجة ذلك على غنائم كثيرة جداً زادت عما استطاع الفولسيون حمله، أو استهلاكه في معسكرهم.

على أن المؤن العظيمة التي غنمها والخراب الذي أحدثه في البلاد كان بالنظر إليه وإلى ما سيتلوه اصغر النتائج المتوخاة من غارته، فالبلاء العظيم الذي اراده وصبا إليه كان في الواقع توسيع شقّة الخلاف بين الپاتريشيين وعمامة الشعب في روما، وزيادة الشكوك في نفوسهم. وسعيًا وراء هذه الغاية عمد أثناء اتلافه المزارع وأملاك الناس الآخرين - إلى بسط حمايته على أملاك رحقول أشخاص معينين منهم وعدم مسّها بسوءٍ ولم يسمح لجنوده بالنهب منها أو سلب ما فيها. وبهذا تجددت الملاحاة ونشب الخصام مجدداً، وأشدتدّ وبلغ درجة لم يبلغها من قبل: الشيوخ يلومون العمامة للظلم الذي الحقوه بمارشوس، والعمامة لا يترددون في اتهام الشيوخ بأن حملة [مارشوس] هي من مكائدهم وتحريضهم انتقاماً منهم وبغضاً بهم، في حين جلس الآخرون على التلّ خوفاً وضعفاً كمتفرجين غير مكترئين بما يجري في ميدان الحرب. لأنّ لديهم في شخص عدو بلادهم حارساً وحامياً خارجياً لمتلكاتهم وثرواتهم.

بعد أن توجت حملة [مارشوس] بالنصر وعادت بالفائدة الجليلة على الفولسيين انسحب بهم إلى بلادهم سالمين وقد أشتدّ عودهم وارتفعت معنوياتهم وعادوا يستهينون بعدوهم بعد رهبةٍ وتخوفٍ.

عندما تمّ حشد كلّ قوات الفولسيين في ميدان عرض الحرب وظهرت بفيالقها الجسيمة وأستعدادها العظيم، بدت جيشاً جراراً فوجد من المستحسن أن يترك جزء منه لحماية المدن وحراستها، وان يزحف بالقسم الآخر على الرومان. وطلب [مارشوس] من [تولوس] أن يختار القيادة التي يريدها. فقال [تولوس] «لما كان يعلم ان «مارشوس» لا يقلّ عنه بسالة وأقداماً، ويفوقه في حسن الطالع، فهو يحبذ أن يراه قائداً للجيش الخارج للحرب. في حين يقوم هو بتدابير الدفاع عن المدن في الداخل، ويضطلع بتأمين حاجة جيش الهجوم من مؤن وتجهيزات». وهكذا تحرك [مارشوس] وقد زاد قوة وسلطاناً - نحو مدينة [چيركيوم Cir-caeum] وهي مستعمرة رومانية، وقبّل استسلامها ولم يلحق أذىً بسكانها. ثم غادرها ليجتاح بلاد اللاتين وكان يتوقع لقاء الرومان فيها لأنهم اصداقوهم وحلفاؤهم، وكثيراً ما اعانوهم وانجدوهم. إلا أن القوم في روما لم يظهروا حماسةً وميلاً إلى الخدمة في الجيش،

(٢٥) قام تلوس في الوقت عينه بغارة مماثلة على أراضي اللاتين. وعاد بعين النتائج الطيبة [ديون ٨:٢].

كذلك لم يكن القنصلان يريدان التورط في مخاطرة حربيّة، لأن فترة وظيفتهما كادت تنتهي. فصرفا سفراء اللاتين خائبين. ولم يجد [مارشوس] أمامه جيشاً يقاتله، فزحف على مدتهم وأستولى عنوةً على [توليريا Toleria] و[لافيجي Lavici] و[پيدا Peda] و[بولا Bola]، وهذه كلها قاومت زحفه فلم يكتف بنهب منازلها بل ساق سكانها عبيداً. وفي الوقت نفسه أظهر رعاية خاصة لكلّ من انحاز إلى صفّه. ولما كان يخشى قيام جيشه بأعمال تخريب لم يأمر بها فقد أختار موقعاً بعيداً لمعسكره، متعفناً عن التعرض للأراضي والمزارع.

بعد أن فتح مدينة [بولا] وهي لا يتعد أكثر من عشرة أميال عن روما نفسها ونهب منها أموالاً لا تحصى ووضع السيف في رقاب سكانها الذكور البالغين، وردت ابناة نجاحه وفتوحاته إلى الفولسيين الذين تخلفوا لحماية المدن، فلم يصبروا على البقاء حيث هم وأسرعوا ساكي السلاح للانضمام إليه، قائلين انه جنرالهم وقائدهم الأوحّد الذي لا يطيعون غيره. وذاع صيته واسمه في كل أرجاء إيطاليا وكانت الدهشة عامة لانقلاب الخطّ الفجائي عند شعبيين، كانت خسارة أحدهما وربح ثانيهما من عمل شخص واحدٍ.

كانت روما تعجّ بالفوضى الشديدة، وأهلها زاهدون عن خوض اية حربٍ يقضون كل أوقاتهم في النزاع وحك المؤامرات من تحت الستار ولوم أحدهم الآخر. حتى وردت الأنباء بأن العدو يضيق الحناق على [لافينيوم Lavinium] التي يوجد فيها تماثيل آلهتهم ابائهم الحارسة^(٢٦)، والذخائر المقدسة ومنها نشأ شعبهم الروماني بوصفها أول مدينة في إيطاليا بناها [إنياس] هذه الأنباة أحدثت تغييراً عاماً غير عاديّ في أفكار الشعب وميوله. إلا انها ولدت شعوراً بالصدود عند الپاتريشيين أكثر غرابة. فقد مال الشعب الآن إلى الغاء الحكم الذي اصدره على [مارشوس]، ودعوته للعودة إلى المدينة. فأجتمع مجلس الشيوخ لاعادة النظر في القرار، وعارض الاقتراح أولاً ثم رفضه. إمّا لمجرد رغبته في معاكسة الشعب ومناقضته في كل ما يريده أو ربّما لأنهم لا يريدون أن يكون مارشوس مدينا باعادة اعتباره إلى عطف الشعب. أو ربّما لادراكهم الآن بوجود شعور سخط ضد [مارشوس] نفسه لأنه يصبّ البلوى على الجميع سواء بسواء مع ان سوء معاملته لم يصدر من الجميع، ولصيرورته عدواً لسائر البلاد مع علمه أن كبار القوم وأخبارهم كانوا إلى جانبه، وقد تألموا لما أصابه.

وأعلن الشيوخ قرارهم هذا، وأسقط في يد الشعب لأنه لا يملك سلطةً في اقرار ايّ شيء بالاقتراع العام أو سنّه قانوناً، إلا اذا سبقه مرسومٌ من مجلس الشيوخ.

وزاد حنق [مارشوس] عند سماعه بما جرى، وتخلّى عن حصار [لافينيوم]^(٢٧) وزحف نحو

(٢٦) بالأصل جيء بها من طراودة [انظر سيرة روملوس].

روما بسرعة جنونية. وعسكر على بعد خمسة أميال من المدينة تقريباً، في موضع يدعى «خنادق كلويليا Cluilia» وخلق وجوده القريب رعباً عظيماً وقلقاً، إلا أنه وضع أيضاً حداً لأنفساهم في حينه، إذ لم يعد أي منهم أفضلاً كان أم شيناً - يستطيع معارضة الشعب في دعوة [مارشوس] للعودة. وعلموا أن الجماهير محقة في إقتراحتها بمصالحته عندما رأوا نساءهم يتراكن جيئةً وذهاباً في الشوارع مرعوبات، والعجز وكبار السن يملأون المعابد كلها ليكون ويرسلون الدعاء والضراعة. وقصارى القول فقد كل سكان المدينة أسباب الشجاعة والعقل الضرورية لتدبير أمرهم. وأدرك الخاص العام أن مجلس الشيوخ ارتكب خطأ فاحشاً في استحداث سبب عداً جديد مع [مارشوس] بينما كان الواجب يفرض عليه نسيان الأحقاد والتفكير في جبر الخواطر وتهديتها. وبين هذين، حلّ الوفاق محل الخلاف بين مختلف الفئات، واتحدت الآراء، وتوصلوا بالاجماع الى قرار يقضي بارسال وفد إليه يعرض عودته الى بلده. ويطلب منه وضع حد لأهوال الحرب وويلاتها، واختير أعضاء الوفد من أقربائه وأصدقائه (٢٨) الذين يتوقعون منه خير ملقى وأحسن استقبال لما تربطه بهم من العلاقات والوشائج العديدة القديمة. إلا أنهم كانوا مخطئين جداً في ظنهم. فبعد أن أقتيدوا اليه في المعسكر وجدوه جالساً تخف به مظاهر السلطان ويحيط به عظماء الثولسيين، ويبدو عليه التجهم والصلافة. وطلب منهم أم يفصحوا عن أسباب مجيئهم ففعلوا بأرق عبارة والطف أسلوب وأنسب سلوكٍ للهجته. وبعد أن فرغوا من أقوالهم رد عليهم بجوابٍ لاذعٍ مفعم بالقسوة الغاضبة والمرارة، بخصوصه وبخصوص اساءتهم معاملته. وأما بوصفه جنرالاً للثولسيين فقد طلب إعادة كل المدن والأراضي التي انتزعوها منهم بالحرب الأخيرة وأن يعطوا الثولسيين نفس الحقوق وامتيازات المواطنة في روما، التي منحت سابقاً لللاتين، مادام لا يوجد أي ضمان في حلول سلمٍ ثابت دائمٍ دون شروط عادلة متعادلة للجانبين. وأعطاهم ثلاثين يوماً مهلةً للتوصل الى قرار.

بعد أن انصرف الوفد، عمد مارشوس الى سحب قواته خارج الأراضي الرومانية؛ فتذرع مبعوضه وحاسدوه من الثولسيين الذين لم يستطيعوا تحمل نفوذه بين الشعب، بهذا العمل واتخذوه حجةً للتنديد به ومن بينهم [تولوس] نفسه. لا لأذى شخصي لحقه من مارشوس بل لضعف في طبيعة النفس البشرية، إذ لم يسعه إلا أن يشعر بالذلة عندما وجد مجده السالف يكسف تماماً، ويغدو هو بالذات شخصاً عادياً في نظر الثولسيين، لا يثير الإعجاب ولا

(٢٧) ترك وحدة من الجنود لمواصلة الحصار [ديون ٤:٨].

(٢٨) اورد [ديون: المرجع السالف] اسماءهم هكذا: ماركوس مونيشيوس، پوستيمي، س كومينيوس، سپوريوس لارغيوس، پوليبوس يناريوس، كونييس سوليشيوس. ويورد ديون خطبه رائعة القاها مونيشيوس بالمناسبة، وجواب كريولانوس عليها.

يكثر به أحد، في حين ارتفع عندهم رصيد زعيمهم الجديد بحيث ما عادوا يرون غيره. وفي رأيهم أن القادة الآخرين ينبغي لهم أن يقتنعوا بذلك الجزء من السلطة الذي يراه مناسباً لهم. ومن هذا زرعت أولى بذور الشكوى والإتهام وأخذت تنتشر سراً، وتلاقى المشاغبيون وأخذ يعمل الواحد منهم على إلهاب سخط الآخر، بالقول: ان الانسحاب الذي قام به هو في الواقع غدرٌ بالجيش وبالمدن، بل أفدح وانه تغرير وتعمد اضاعه أخطر فرصٍ وأنسبها للعمل، تلك التي يتوقف عليها الفوز بكل شيء أو خسارة كل شيء. ففي فترة الأيام الثلاثين هذه يمكن أن يحصل أي شيء في الدنيا.

على أن مارشوس لم يضيع لحظة واحدة من هذه الفترة. فقد أستولى خلالها على سبع مدن عظيمة عامرة بالسكان، دون أن يجراً الرومان على مد يد العون اليها. فقد شلهم الخوف شللاً تاماً وأفقدتهم الحركة ولم يبد منهم ما يدل على الحياة أو الحس. وبانتهاء فترة الثلاثين يوماً ظهر [مارشوس] مرة أخرى على رأس جيشه، فبعثوا اليه بوفدٍ آخر، يروجون ان يخفف من حنقه ويسحب جيش الثولسيين، ويعدها يعرض ما يراه مناسباً للطرفين من المقترحات فإن الرومان لا يقبلون باي تنازل تحت التهديد، واذا وجد أن الثولسيين محقون في طلب أي امتياز، فبإمكانهم الحصول على ما يريدون ضمن حدود معقولة إن تخلوا عن السلاح.

وكان ردّ [مارشوس] انه لن يجيب بشيء بوصفه قائداً للثولسيين أمّا بوصفه رومانياً وما يزال يملك صفة الروماني، فهو ينصحهم بله يحضهم - والحالة هذه - على ترك هذا الموقف المتعنت، والتفكير في عقد صلح مناسب، على ان يذهبوا الآن ويعودوا بالموافقة على مطالبه السالفة - بعد انقضاء ثلاثة أيام أخرى. وإلا فليعلموا أنهم لم يعودوا أحراراً في دخول معسكره بسعيات ووساطات لا طائل تحتها.

لما عاد الوفد وأطلع الشيوخ على جواب [مارشوس]، ادركوا أن بناء الدولة وصرحها يتعرض الآن الى عاصفة هوجاء وأن الأمواج لن تلبث ان تطغى عليهم وتغييهم في اللجة. فلم يروا مناصاً من «انزال الماساة المقدسة» على حدّ شائع القول، وهو ما كان يلجأون اليه في أشدّ ساعات الضيق. اذ صدر الأمر لطبقات الكهنة جميعاً، أولئك الواقفين على الأسرار أو سدنتها، وأولئك الذين يستوحون النبوءات من حركات الطير حسبما درج عليه الناس؛ أمروا كافةً أن يخرجوا ولا يتخلف منهم واحد، بحلهم وكسوانهم الكهنوتية التي يرتدونها عادةً اثناء ادائهم وظائفهم الدينية وينتظمون بموكب حبري ويسيروا الى [مارشوس] ليطلبوا منه كالسابق - سحب قواته ثم التفاوض عن الثولسكان (الثولسيين) مع بني قومه الرومان. ورضي أن يستقبلهم في معسكره إلا انه لم ينزل لهم عن أي شيء، ولم يرقق لهجته وعباراته،

وطلب منهم بصلافة لا يشوبها تنازل أو تطامن أن يختاروا بصورة نهائية بين أمرين الطاعة أو القتال. فالشروط الأولى كانت شروط سلم لا غير. وفشلت هذه الوساطة الدينية أيضاً ورجع الكهنة خائبين، واذ ذاك قرر الرومان البقاء داخل المدينة والسهر على أسوارها. وهكذا كانت خطتهم قاصرة على صد كل هجوم قد يقوم به العدو. ووضع كل آمالهم في تقلبات الخط المفاجئة، وفي عامل الزمن لا غير. فقد كانوا يشعرون بعجز تام في المحافظة على ارواحهم، وأستولى على المدينة المزيد من الرعب والإضطراب، وسرت اشاعات مشؤومة تبنيء كلها بشر مستطير. ثم وقع حادث يشبه ما نقرأ عنه كثيراً في آثار [هوميروس] ولولا ذلك لأخذه الجمهور مأخذ الحقيقة الواقعة. فنحن نجد يقول في وصف مناسبة خارقة للعادة.

« ثم [باللاس] نزلت عليه الرية ذات العيون الزرق الحادة بالالهام (اثينا) » (٢٩).

ويقول في موضع آخر: على أن واحداً من بني البشر وجه عقله بان دخل في قلبه الى الخوف مما سيقله الآخرون.

وقال أيضاً: « أكانت تلك فكرته الخاصة، أم أمراً القاه عليه الرب؟ » (٣٠)

في هذه المواقف يميل الناس الى تكذيب الشاعر وعدم الاعتداد بما يقول، كأنما بعرضه المستحيلات، وتصديه للخيال العايب المجرد، ينكر عمل الفكر الانساني المتروى، وعامل اختياره الحر، وليس هذا ما نجد دائماً في صور هوميروس ووصفه. فان الاستنتاجات المألوفة منها والمحتملة والاعتيادية يعزوها دوماً الى قوانا البشرية، وبذلك كثيراً ما يقول

« ... على أنني لا أركن إلا لنصح نفسي العظيمة » (٣١).

وفي بيت آخر: « ... وأصغى [أخيل] متألماً وأخذ مختلف الأفكار يتزاحم في رأسه العظيم » (٣٢).

وفي ثالث: « ... من رغبات نفسها - لم تنل فتيلاً الشاب النبيل بللروفون Bellerophom المتسلح بدرع الحكمة »

لكن عندما يتسم الحدث بطابع الخروج عن المألوف، والخارق للعادة، ويبدو بشكل مارياني المنشأ، ويتطلب تعليلاً آلهياً من قبيل الالهام المفاجيء، فهنا فحسب تتدخل القوى السماوية لا لإحباط الإرادة البشرية، بل لتنشيطها واتباعها، لا لخلق قوى أخرى فينا، بل لتزويد قوانا

(٢٩) الاوديسي ١٨: ١٥٧ و ١٥٨.

(٣٠) المرجع نفسه ٩: ٣٣٩.

(٣١) المرجع نفسه ٨: ٢٩٩.

(٣٢) الايلياذة ١: ١٨٨.

بصور ويعوامل محرضة، هذه الصور لا تجعل عملنا عملاً لا إرادياً باي شكل من الاشكال، بل لتفسح المجال بالأحرى للعمل الارادي التلقائي، يساعده ويؤزره الشعور بالثقة والأمل. اذ ينبغي لنا إما ان ننكر انكاراً باتاً على عامل التأثير الرباني ابي شكل من الاشكال السببية والابداع فيما نعمله وإلا، فبأي سبيل تعمل فينا الموزارة والمساعدة الالهية؟ نحن بالتأكيد لانستطيع الافتراض بأن الكائنات الالهية هي التي تسيير حركة اجسامنا وتوجه ايدينا وأقدامنا الى هذا السبيل أو ذاك لتتنكب طريق الزلل قولاً وعملاً: وواضح انها تحرض العنصر العملي والاختياري في طبيعتنا بمحضات أولية معينة، عن طريق صور ترسمها في مخيلتنا وافكار تودعها في ضميرنا، فإمّا تشيرها وتوجهها الى السبيل القوية، أو تحرفها أو تمسكاً عن سلوكها.

وفي الارتباك العام الذي أتيت الى وصفه، قام معظم سريات الرومان وعقائهم بالذهاب الى معبد [چويتير كاپيتولينوس] وبعضهن قصدن معابد أخرى. ومن بين هاته النسوة [فاليريا] بنت [پوبليكولا] الكبير الذي قام بأجل الخدمات للرومان في السلم وفي الحرب. كان پوبليكولا قد قضى نحبه منذ زمن كما أوردنا في سيرة حياته. إلا ان فاليريا ادركت هذا العهد، وكانت تتمتع بمقام كبير واحترام في روما، ولم يشن سلوكها وحياتها نبل مولدها. تملك هذه المرأة فجأة عاطفة أو فكرة من النوع الذي أتيت الى شرحه. ووقعت على السبيل القوية بهدي رباني. فنهضت وطلبت من الأخريات النهوض ومرافقتها في الحال الى منزل [قولونيا] أم [مارشوس]. ففعلن ودخلن ليجدنها جالسة مع كنتها وقد وضعت احفادها في حضنها وتكلمت [فاليريا] باسم رفيقاتها اللاتي كن يحطن بها، قالت:

- جئناك يا قولونيا وانت يا فرجيليا كما تأتي نساء الى نساء لا بأمر من مجلس الشيوخ أو بتحريض من أحد الحكام. إن الكائن الالهي نفسه وقد أثرت فيه صلواتنا ودعواتنا تراءى لي ودفعنا الى زيارتكما لندعو منكما رجاءً واحداً تتوقف عليه سلامتنا وسلامة قومنا، إن قبلنا وحققناه فسترتفعا الى أعلى مقام بلغته النساء السابينيات اللاتي استبدلن العداوة القتالة بين آبائهن وأزواجهن، بالصدقة والسلام فهياً بنا الى [مارشوس]، وشاركا معنا في رجائنا، واحملا عن امتكما هذه الدعوة العادلة لخيرها. فهي مع الأخطاء والاذيات الكثيرة التي أتتها، لم تصبكما بأذى ولا فكرت هي في الإساءة اليكما بشيء وهي في ذروة هياج حقدتها، انها الآن تعيدكما اليه سالمين، وان كان الأمل ضعيفاً في نيل شروط عادلة منه.

وأمن جميع النسوة على اقوال [فاليريا] بكلمات الاستحسان والرضا. وأجابت قولونيا على

ذلك بما يلي:

- إن حصتي وحصّة فرجيليا من المصائب العامّة لا تقل عن حصصكّين يا بنات قومنا على أن لدينا مصيبة خاصة انفردنا بها عنكّن. وهي فقداننا كفاءة [مارشوس] وصيته، ومشاهدتنا إياه وهو سجين سلاح الاعداء، لا محروساً به. واني مع هذا اعتبر أعظم بلوى حلت بروما هما الحالة التاعسة، والعجز المخجل اللذان جعلها تعتمد علينا نحن الاثنتين. فعندما لا تَرين [مارشوس] يقيم أي وزن واعتبار لوطنٍ كان عليه أن يفضله على أمّه ويضعه فوق زوجه واولاده. يكون من الصعب جداً أن أمل ببقاء أي منزلة وأعتبرنا لنا عنده. وعلى كل حال، استفدت من خدمتنا وقدننا إن شئتُ إليه، فبإمكاننا على الأقل أن نلفظ مع التماسنا إليه آخر انفسنا.

قالت هذا وأمسكت بيد [فرجيليا] والاولاد^(٣٣) وذهبن جميعاً الى معسكر الفولسكان. فكان موكبهن منظراً مفرجاً أليماً أثّر كثيراً حتى على العدو الذي راح يتابعه بالنظر وهو صامت صمت الاحترام والمهابة. في تلك الساعة كان [مارشوس] جالساً في مقرة يحفّ به اركان حربه وكبار ضباطه فلما لمح جماعة النسوة يقتربن من مجلسه ادركته الحيرة ولم يفهم للأمر معنى ثم لما تبين أمّه على رأس الجماعة زايله جلده وفارقتة صلابته وغلبت عليه عاطفة الحنان، وأرتبك جداً ولم يقو على البقاء جالساً في دست الحكم، فأسرع لاستقبالهن وحيّاً أمّه وعانقها عنقاً طويلاً، واثنتى الى زوجه واولاده ليفعل كذلك، ولم يدخر دمة في عينيه، ولا حناناً ولا ملاطفة، بل سمح لعواطفه الجياشة ان تحمله وتنطلق به متحررة ناشطة من إسارها.

وبعد أن شفا غليله، ولحظ أن أمّه تريد أن تقول شيئاً له، دعا مجلس الشورى الفولسكاني للاجتماع وجلس الجميع يصفون الى اقوالها التالية:

- يا بني! إن ثيابنا وملامحنا قد تفسح لك دون كلام أو نطق عن شقائنا منذ ان نفيت وغبت عنا. والآن فلتفكر في نفسك ألسنا أشقى امرأتين في العالم؛ حين نجد أشهى وأعذب منظر تميناه ينقلب الى أشنع موقف وأشدّه هولاً؟ فبمعامل من سوء طالع لا أدري كنهه ترى [قولونيا] ابنها، وترى [فرجيليا] زوجها يرفع السلاح لك أسوار روما! حتى الصلاة التي كانت دوماً مصدر سلوى وعزاء للنساء في كل ضيق وبلوى، أمسست عندنا مصدر ألم واضطراب. لأن أفضل الدعاء الذي نرفعه الى الآلهة، لا يتفق ودعاء

(٣٣) أخبرت (فاليريا) القنصلين بنيتها في الأول. فأخذوا الاقتراح الى مجلس الشيوخ الذي وافق عليه بعد نقاش طويل. عندها ركبت هي وعقائل روما في مركبات هياها لهن القنصلان واتجهن بها الى معسكر الأعداء مشيعه بتحيات وهتافات الشيوخ والعامّة معاً.

الأخريات. ونحن في الوقت عينه لا نستطيع أن نضرع الى الآلهة لتنصر روما ولرعايتك من السوء معاً، بل أن اسوء ما يمكن أن يلحق بنا الاعداء من لعنة، كان موضع نذورنا ودعواتنا. وزوجك وأولادك يعيشون محنة أليمة، فإمّا أن يحرموا منك وإمّا أن يحرموا من تربة الوطن. أمّا انا فقد وطدت العزم على استباق احدى النتيجتين اللتين ستسفر عنها الحرب بالنسبة لي. فان فشلت في اقناعك بتفضيل السلام والوثام على الحرب والحصام ونجحت في حملك على الاحسان للفرقيين بدل أن تقضي على احدهما، فخذها مني كلمة صدق وكن على يقين بأنك لن تبلغ بلادك إلا بعد ان تطأ أولاً جثة تلك التي جاءت بك الى النور. من الصعب علي ان انتظر واتسكع في هذه الحياة حتى اليوم الذي أرى ولداً لي إمّا يقاد أسيراً في موكب النصر بزمام بني جلدته، وإمّا أن يدخل منتصراً عليهم. ولو اني طلبت منك انقاذ بلادك باهلاك. الفولسكان، فإن الأمر سيصعب عليك حقاً يا بني، من الضعة والعار أن تجلب الدمار لبني قومك، ومن الظلم والشر أن تغدر بمن وضع ثقته فيك. على أن ما نريده هو حلّ مناسب لنا ولهم^(٣٤). وانه لمما يشرف الفولسكان ويرفع قدرهم كثيراً وهم في تفوقهم العسكري هذا، أن يعمدوا الى أعظم نعمتين في الدنيا: السلم والصدقة، وإن نالوا منهما قدرماً مساوياً لا غير. وإن نلنا هاتين البركتين، فسيكون لك الشكر العام بوضعك العامل الرئيس لوجودهما. فإن لم يتسن ذلك، فلا سبيل لك إلا ان تتحمل وزر الشعبين كليهما. وتستهدف لومهما. إن فرص الحرب غير مؤكدة، على أن ما هو أكيد في هذه الساعة هو أنك لن تنال من فتح روما صيناً اللهم إلا تقويضك صرح بلادك كلها أنك جلبت البؤس والشقاء لاصدقائك والمحسنين اليك، ارضاءً لعاطفة الانتقام فيك.

وكان [مارشوس] يصغى الى أقوال أمّه صامتاً لا ينطق بكلمة. ولما رأته [قولونيا] يقف برهةً كالأبكم بعد فراغها من الكلام، استطرقت تقول:

- يا بني! ما معنى سكوتك هذا؟ اليس هو واجباً أن تغلّب ارضاء امك بتحقيق رجائها، على كل شعورك بالأذى والظلم؟ أهو من أخلاق عظماء الرجال ان يتذكروا الأخطاء التي ارتكبتها الناس بحقهم؟ أو ليس من شيم الانسان الصالح الكبير النفس أن يذكر تلك المنافع التي نالها كنتلك التي يبذلها الآباء للابناء؟ وان يجازوهم عليها بالاحترام والاكرام؟ وانت، وعهدي بك صلب القنائة لا تلبن قطّ في عقاب ناكري الجميل، يجب ألا تكون أكثر اهمالاً لهذا الواجب من الآخرين فلا تحفظ جميل غيرك. لقد فرضت على

(٣٤) طلبت هدنة أمدها سنة كاملة يتم خلال البحث عن تسوية لعقد صلح ثابت دائم.

بلادك عقاباً، ألا انك لم تدفع لي دَيْني بعد، الحق يقال أن الدِّين والأخلاق اللذين لا إكراه فيهما كانا يجب أن يدفعاك الى اجابة طلب شريف عادل كهذا الذي أعرضه فاذا كان الأمر خلافاً لذلك، فعلياً أن أتوسلّ بأخر ما لدي من حيلة...».

ما أن أنهت كلامها حتى التقت بنفسها على قدميه وكذلك فعلت زوجها وأولاده. وهنا صرخ [مارشوس].

- آه يا امي! ماذا صنعت بي؟

ثم رفعها وهو يضغط يدها اليمنى بشدة غير اعتيادية وقال:

- لقد نلت للرومان نصراً ما بعده نصر، لكنه سيهلك ابنك الذي غلبته أنت وحدك لا سواك! وبعد تبادل أحاديث خصوصية مع أمه وزوجة فترة قصيرة، اعادتهما الى روما حسب مشيئتهما.

وفي صباح اليوم التالي، قوَّض المعسكر وعاد بالفولسكان الى ديارهم. وفي أنفسهم انطباعات مختلفة من فعله هذا، فبعضهم كان يندد به ويدين تصرفه، وبعض من كان يميل الى السلم وقفوا على الحياء. وفئة ثالثة اسخطهم ذلك جداً، إلا أنهم لم ينظروا اليه نظرتهم الى الغادر المخادع، بل وجدوا ضعفه الأخير واستسلامه تحت هذا الضغط العاطفي، مما يمكن اغتفاره والتغاضي عنه. وعلى أية حال فان أوامره لم تلق معارضة من أحد، وتبعوه بمنتهى الطاعة وان كانت طاعتهم هذه ناجمة عن أعجابهم بخلقه، أكثر من احترامهم لسلطته.

في الوقت عينه، كشف الرومان عن مبلغ الخوف الذي كانوا يشعرون به، وخشيتهم من الحرب، بما بدأ منهم من تصرفات بعد أن انجابت عنهم سحبها. ما ان تأكد حرس الأسوار من تفويض الفولسكان معسكرهم وارتحالهم، حتى عمدوا الى فتح ابواب المعابد كافة بطرفة عين. وراحوا يتوجون رؤوسهم الاكاليل ويستعدون لتقديم الأضاحي والقرايين، كعادتهم عندما تردهم انباء نصر ساحق ولكن فرحة المدينة كانت فريدة بصورة خاصة في تكريمهم النسوة وازهار دلائل الاعتزاز والإكبار لهن من الشيوخ ومن العامة على حد سواء. ولهج الجميع بمأثرتهن وقال أنهن بلا مماراة منقذات الوطن. وأصدر مجلس الشيوخ أمراً باستجابة كل ما يطلبه من تكريم، وان يحقق لهن الحكام كل رغبة، وكانت طلبتهن قاصرة على اقامة معبد للآلهة الانثى [فورتونا: الحظ]. وعرضن أن تسد نفقات اقامته من تبرعاتهم الخاصة، إن تعهدت المدينة بالصرف على القرايين من الخزينة العامة وغير ذلك من مراسيم التكريم الخاصة بالآلهة، فلم يسع مجلس الشيوخ إلا الاعجاب بروحهن الوطنية، وأمر بانشاء المعبد فوراً، واقامة تمثال فيه

للربة على حساب الخزينة العامة^(٣٥). إلا أن النسوة اكتتبن فيما بينهن بمبلغ لعمل تمثال آخر لربة الحظ الذي يؤثر عنه الرومان انه نطق بالعبارة التالية عندما كان يجرى نصبه: «بركات الآلهة هي هديتك ايتها النساء».

يقولون إن هذه العبارة سمعت مرة أخرى من فم التمثال. مؤكدة بذلك رأينا في امكان وقوع ما يبدو انه قريب من المستحيل.

من المحتمل أن تشاهد التمثال وهي يتضح عرفاً، أو تنحدر من احدقيته الدموع أو أن يتجمع على سطحه قطرات متحلبة ذات لون دموي، لأن المادة التي صنعت منها وهي الخشب أو الرخام كثيراً ما تتفشر أو تدركها عفونة ينجم عنها رطوبة، وقد تنشأ على سطوحها ألوان مختلفة من جراء التفاعل الداخلي أو من تأثير الهواء الخارجي، وبهذه العلامات، لم يكن من الغرابة والسخف أن يتصور المرء ان الآلهة تريد انذارنا بحدث مقبل. ويحدث أيضاً ان يصدر من التماثيل والصور اصوات قريبة الشبه بالآنين أو التاؤه من جراء تشقق فجائي، أو انفصال داخلي قوي بين اجزائها. أمّا ان تصدر أصوات قولية ذات تعابير واضحة ولغة دقيقة من جماد فهو في رأيي من المستحيلات. اذ لم يعرف قط عن روح انسانية أو الهية انها نطقت بكلمات أو عبارات لغوية من ذات نفسها ومن دون وجودها في جسم ذي اجهزة واعضاء منتظمة العمل، وحاسة نطق. ولكن لما كانت وقائع التاريخ بما تواتر فيها من الشهادات العديدة الموثوقة، ترغمننا على التسليم بهذه الظاهرة، فعلياً ان نعلل ذلك مستنتجين بأن انطباعاتاً معيناً خلاف الاحساس البشري الاعتيادي يؤثر على الجزء المتخيل من طبيعتنا، فيبتعد بنا عن الحكم الصائب بحيث يحملنا على الاعتقاد بأننا نحس احساساً مادياً لا غبار فيه كما يحدث لنا في النوم. فنحن نتخيل بأننا نسمع ونرى بينما الأمر ليس كذلك. على ان الاشخاص الذين يكونون احتراماً عميقاً للآلهة. ويتمسكون بالدين أشد تمسك، لا يسمح لهم احترامهم وتمسكهم بما يعتقدون، بانكار أو دحض اي شيء من هذا القبيل، وحجتهم القوية تكمن في ايمانهم بالصفات الأثيرية العجيبة للقوى الالهية التي لا مجال لمقارنتها بقوانا البشرية، لا من حيث طبيعتها ولا من حيث فاعليتها. ولا من أسلوب فعلها أو قوتها؛ وليس مما يناقض العقل، انها تفعل أشياء لا نقوى عليها نحن، ونبتدع أموراً غير ممكنة بالنسبة لنا لاختلافها عننا من شتى الوجوه، وفي مقدمة الاختلاف أفعالها الخاصة، وليس لنا إلا الاعتقاد

(٣٥) أقيم في الطريق اللاتيني Via Latina، على بعد اربعة اميال من روما في عين المكان الذي وفقت فيه فيتوريا في التغلب على عناد ابنتها [فاليريوس ماكسيموس ١: ٨٠] أمّا فاليريا التي كانت أول من اقترح هذا الوفد الناجح فقد صارت اول كاهنة للهيكل الذي كانت ترتاده الرومانيات كثيراً (لبيفي ٤٠: ٢).

بأنها لاتشبهنا قط، وانها بعيدة جداً عنّا. يقول (هيراقليدس):

«ان الشكّ الذي يلازمنا، ضيع علينا معظم المعرفة باللاهوت».

لما عاد [مارشيووس] الى آينيتوم، بدأ [توللوس] فوراً باعداد الوسائل الكفيلة بالقضاء عليه وكان كرهه العظيم له بقدر خوفه منه - كان يدرك جيداً لو أن، مارشيووس أفلت من يده الآن فإن احتمال سنوح فرصة أخرى كهذه، بعيد جداً. فيعد تأليبه عدداً من بني قومه عليه، طلب منه اعتزال منصبه وتقديم الحساب للقولسكان عن أعماله. ولخشية [مارشيووس] من الخطر الذي يتعرض الفرد البسيط الذي سيكونه، بينما سيبقى توللوس في منصب القائد الحائز أعظم السلطة بين المواطنين، أجاب قائلاً انه مستعد لاعتزال منصبه متى ارتأيء سحب سلطته أو لئك الذين تسلمها منهم، كما انه مستعد في الوقت ذاته لتقديم الحساب عن تفاصيل أعماله وتصرفاته متى رغب الانتيات.

وعقد اجتماع عام، وتقدم الخطباء الشعبيون للكلام حسب الخطة المرسومة- ومرادهم اثاره حفاظ الشعب واضرام كوامن احقادهم. وعندما حان دور مارشيووس ونهض للاجابة، سكت فجأةً أكثرهم صحباً وهياجاً، إحتراماً له. وتُرك يتكلم دون ان يقاطعه أحد. وظهر على أختيار الناس كافة وكل من كان يصبو الى السلام أنهم سيصيخون السمع اليه بكلّ عطف وانهم سيحكمون عليه بما يتفق مع العدل والوجدان.

فدبّ ديبب الخوف في [توللوس] وخشي نتيجة الدفاع الذي كان [مارشيووس] يهّم بالقائه، فهو خطيب مفضو ساهر اللسان، زد على هذا فان الخدمات الجليلة السالفة التي قدمها للقولسكان حفزت له في قلوبهم وما زالت تحفظ وداً وعطفاً لا يقلل من شأنه أي اعابة أو تنديد بسلوكه الأخير، والحقيقة هي أن الاتهام كان بحدّ ذاته دليلاً وشاهداً على عظمة نفسه لأن الشعب لاحق له في الشكوى منه أو اعتبار نفسه مخدوعاً ومغبوناً لأن مارشيووس عدل عن اخضاع روما. فبفضله وحده اصبحوا على قاب قوسين من فتحها لهذا قدر المتآمرون ان الحكمة تقضي عليهم بالاستعجال في الأمر وعدم التأخر، ليتذوقوا طعم المشاعر الشعبية في حكمها لصالح مارشيووس فصاحت الفئة الجريئة من حزبهم ان لا ضرورة تدعو للاصغاء الى غداراً خائن والسماح له بالبقاء في منصبه وممارسة سلطة الطاغية المستبد بين ظهرايهم. قالوا هذا وحملوا على [مارشيووس] حملة رجل واحد، وفتكوا به في محل الاجتماع^(٣٦).

وسرعان ما تبين أن عملهم هذا لم يقع موقع رضى وقبول من غالبية القولسكان، اذ خرجوا

(٣٦) يقول [ديون] انهم رجموه حتى قُضي عليه. ويتفق مع بلوتارخ إلا في قوله ان الاشتباكات التي حصلت بينه وبين تللوس استمرت عدة أيام. أما شيشرون (الخطب ١٠) فيفضل الرأي القائل بأنه بخع نفسه.

زرافات ووحداناً من مدنهم العديدة لاستقبال جثمانه واطهار آيات التكريم والاجلال له. ودفنوه دفنة مشرفة تليق بمقامه^(٣٧)، وزينوا ضريحه بمختلف تهاويل السلاح والشواخص، وجعلوه مثل اي نصب تذكاري لبطل نبيل، وقائد شهير. ولم يظهر من الرومان شيء يدل على تكريمه أو تحقيره عند سماعهم بمقتله. على انهم استجابوا الى طلب النساء الرومانيات في ان يقمن عليه الحداد ويندبنه لمدة عشرة أشهر، بمقتضى العادة التي جروا عليها عند فقدهم اباً أو ابناً أو أخاً. وهذه أطول مدة من مدد الحداد على الميت التي رسمتها قوانين [نوما پومپليوس]، كما ذكرناها بتفصيل في سيرة حياته.

ولم يمرّ طويل زمن حتى شعر القولسكان بفداحة خسارتهم فيه، ومدى حاجتهم اليه. فقد اختلفوا باديء ذي بدء مع الايكيوين Aequians، حلفائهم واصدقائهم حول تعيين جنرال لقواتهم المشتركة، فأقتتلوا فيما بينهم وسفكت الدماء وهلكت ارواح كثيرة. ثم انهم منوا بهزيمة نكراء على يد الرومان، فيها فقد [توللوس] حياته. وابتدت زهرة جيوشهم ابادة تامة وبهذا ارغموا على الخضوع لهم. وقبول سلم وفق شروط غير مشرفة لهم، وصاروا بذلك تابعين لروما خاضعين لسلطانها.

(٣٧) قتل كريولانوس في السنة الأولى من الاوليبياد المائة والثالث والعشرين بحسب هذه الرواية. لكن (ليفي) نقلاً عن كاتب قديم جداً يدعي [قابيوس پكتور] يخالفه في الرأي ويقول انه عاش حتى بلغ من العمر عتياً ومات ميتةً طبيعية.

رأى لأن سببه لم يكن الحسد السياسي ولا روح المنافسة والمباراة، بل لمجرد ارضاء عاطفة حقدٍ «لم ينل عنها أحدٌ عوضاً على الاطلاق» كما يقول [إيون]، فقدف باقاليم كاملة من ايطاليا في لجة الفوضى، وضجى بكثير من المدن البرينة على مذبح عاطفة كرهه بلاده. الحق يقال، ان الكيببىادس سبب ايضاً نكبات عظيمة لبني قومه، لكنه أمسك عن ذلك حالما تغير شعورهم نحوه، وبعد أن طرد من البلاد للمرة الثانية؛ لا نجد يتشفى بالاختفاء التي ارتكبها قوادها، ولا أعتبط بعثراتهم. ولم يجلس على التلّ غير مكترث بالخطر الذي يدهمهم، بل قام بشبيه العمل الذي قام به [اريسيتيديس] [لثيموستوكليس] واستحق عليه الثناء الأعظم. أقبل على القادة وهم أعداء له، وبين لهم ما يجب أن يعملوه. أمّا [كوريولانوس] فقد هاجم في مبدأ الأمر كل قومه، وان كان جزءً منه فقط اساء معاملته في حين وقف القسم الآخر في صفه وتحمل معه الإساءة - في الواقع وعطف عليه، وهو أنبل الجزئين وافضلهما وثانياً: إن العناد الذي ركبه في مقاومة السفارات العديدة والرجاءات والتوسلات التي استهدفت تهدئة غضبه الشديد وشعوره بالإهانة، أظهرت أن أثارته الحرب الزبون على بلاده وتأليب الاعداء ضدها كان الغرض منه القضاء عليها وتدميرها لا استعادتها ونوالها. على أن هناك فرقاً واحداً قد نستخلصه، فقد يقال أن [الكيببىادس] لم يُعده الى احضان اثينا إلا الخطر الذي كان يحدق به وهو بين السبارطيين، فكان عامل الميل لهذا الخوف والكره معاً. في حين لم يكن [مارشوس] يستطيع ترك القولسكان بصورة شريفة بعد أن أكرموا وفادته، وأمروه على جيوشهم وجعلوه موضعاً لشقتهم التامة، فكان موقفه يختلف اختلافاً بيناً عن موقف [الكيببىادس] الذي لم يرغب للقيديميونيين حتى في استخدامه عارية، أي استعماله ثم نبذه. فكان ينقلب من منزل الى منزل في المدينة ومن جنرال الى جنرال في المعسكر حتى اضطر أخيراً الى وضع نفسه تحت رحمة [طيسافيرنس]. إلا إذا وجب علينا الافتراض بأنه لم يلجأ اليه ويستمنح رضاه إلا للحيلولة دون القضاء التام على مسقط رأسه. المدينة التي كان يصير للعودة اليها. أمّا من ناحية المال فلقد قيل لنا أن [الكيببىادس] أهتم كثيراً باطلايه وجمعه عن طريق الرشاوى وانفاقه بأسوء ما يمكن في البذخ والتبذير. لكن [كوريولانوس] ترفع عنه، حتى عندما أرغمه على قبوله قوادها، على سبيل التكريم. وان السبب الأساسي الذي ابتلاه ببغض العامة عند المناقشات حول ديونهم، كان وطئه الفقراء بقدمه لا لأجل المال، بل قحة منه واعتداداً بنفسه.

ذكر [انتىپاطر Antipater] في رسالة له كتبها عن موت [ارسطو] الفيلسوف العبارة التالية «من بين الصفات التي تخلى بها، قوة العقيدة». وافتقار خلق [مارشوس] الى هذه

أوجه المقارنة بين الكيببىادس وكوريولانوس

بعد أن أتينا الى وصف كل أعمالهما التي تستحق الذكر؛ لنا أن نقول عن القسم العسكري منها أن الكفتين فيهما تقفان على مستوى واحد لايميل الثقل بأحدهما دون الأخرى أبداً فمقياس كاد يكون متساوياً أظهرهما كلاهما في مناسبات عديدة بسالة الجندي وأقدامه، وابدأ براعة القائد ويُعد نظره، خلا أن انتصار الكيببىادس ونجاحه في عدة معارك بحرية وبرية، يضفي عليه صفة القائد الأكمل. وطالما كان كل منهما في بلاده متسلماً القيادة فقد كسب لها من المجد والرفعة ما يعادل الأذى الذي لحقه بها عند نفيه منها. ولقد شعر عقلاء الناس كلهم الكيببىادس الى استخدامهما في حياته السياسية لخطب ود الشعب وكسبه الى صفه. ونفروا من التعالي الاوليغارشي والغرور والغطرسة التي استخدمهما [مارشوس] في بلاده وكانت موضع كره الجمهور الروماني له. لايمكن أن يكون هذان الموقفان موضع تقرير أو تقدير. على أن الرجل الذي يحب نفسه للآخرين بالمداهنة والرياء لايلام بقدر ما يلام من يلجأ الى السب والإهانة ليتحاشى الظهور بمظهر المداهنة والرياء. إن إطلاب السلطة عن طريق تحقير النفس، والاستعباد للجمهور لهُو الإنحطاط بعينه. إلا أن الوصول الى السلطة بالإرهاب والعنف واضطهاد الناس، هو انحطاط وظلم عظيم.

كان [الكيببىادس] حسب فهمنا لخلق، رجلاً بسيطاً صريحاً لاشك فيه. اما الكيببىادس السياسي ورجل الدولة فكان مراوفاً بعيداً عن الاستقامة. ونال الملام الأعظم من الأسلوب الغادر غير الشريف الذي اتبعه مع سفراء اللقيديميونيين، حسب رواية [ثوكيديدس] - فانهى به عهد السلام والاستقرار. على ان سياسته هذه التي ورطت مدينته في الحرب ثانية واصلتها الى منزلة وطيدة وحققت لها مكانة رفيعة بما ضمنه لها الكيببىادس من تحالف مع [ارغوس] و[مانتينا]، كذلك [مارشوس]، فهو على حد ما روى [ديونيسيوس]، استخدم وسائل غير شريفة لإثارة حرب بين الرومان والقولسكان عندما أفتعل نأ كاذباً حول سوء نوايا مشاهدي الالعب، إن الدافع لهذا العمل، لهُو اقبح من دافع الكيببىادس الى عمله، حسب

المزبة جعل كل أعماله المجيدة، وفضائله الحميدة غير مقبولة من المنتفعين بها و«الكبرياء والاعتداد بالنفس صنوان للعزلة» كما يقول [افلاطون]، وهذا ما جعله مكروهاً. أما الكيبيادس، فالبراعة التي حازها في معاملة كل أمرء بأحب أسلوب إليه خلافاً لمارشوس، لم يكن عجيبياً أن يلقى كل انتصاراته اعظم التكريم وخالص الامتنان، حتى غلطاته نفسها بين أن وآخر، تجد فيها نوعاً من البركة، واللطف. ولذلك تراه رغم الأذى الكثير الذي أحدثه بالمدينة، يعاد انتخابه للسلطة والقيادة تكراراً، في حين فشل [كوربولانوس] في سعيه لنيل المنصب الذي استحقه بخدمة العظيمة الأول، رغم ما أحدثه من ضرر بقي محبوباً ولم يكره. والثاني لم ينجح في نيل محبة بني قومه بكل الأعجاب الذي ناله.

زد على هذا، ما يجب قوله وهو أن [كوربولانوس] لم يحز لبلاده نجاحاً ونصراً عندما تولى القيادة العسكرية. وإنما كانت انتصاراته كلها لعدوه ضد بلاده. واما [الكيبيادس] فخدماته لآثينا كثيرة، قائداً وجندياً. وطالما يكون موجوداً فهو المتفوق أبداً على خصومه السياسيين ولا يفلح الدس عليه إلا في غيابيه. وأدين [كوربولانوس] حضورياً في روما وبالشكل نفسه قتله الثولسكان، ولم تكن ادانته أو قتله بأي وجه حق أو تطبيقاً لمبدأ العدالة، إلا أنهما لا تخلوان من أسباب وحجج نشأت عن أعماله نفسها. مادام فرط في فرص عسكرية موآتية، بعد رفضه كل المقترحات السلمية علناً، ونزوله عند وساطة النساء سراً، دون اللجوء الى عقد صلح وتشبيت دعائم سلم. كان يجب عليه أن يحصل على موافقة أولئك الذين وضعوا ثقتهم فيه قبل أن يعتزم الانسحاب، هذا اذا كان حقاً يعتبر مصلحتهم فيه هي الأقوى أو أن قلنا بأنه لم يكتثر بمصلحة الثولسكان وانه ما شن الحرب (التي عافها الآن) إلا ليشفي غليله ويرضي عاطفة حقه، فان العمل النبيل لن يكون الصفح عن بلاده بسبب أمه، ولكنه عمل أمه لوطنها. ما دامت أمه وزوجه جزءاً لا يتجزأ من البلاد التي أهدق بها الخطر. لقد رفض رفضاً قاسياً شفاعة الجمهور، ووساطة السفراء، وضراعة الكهنة، وبتنازله عن كل شيء كفضل خاص حابى به أمه، فقد أكرمها إكراماً أقل وقعاً من تحقيره المدينة التي ما نجت إلا بوساطة امرأة واحدة على ما يبدو، ورغم الاخطاء التي ارتكبتها. فضل كهذا هو الواقع فضل مقيت مر المذاق، غير معقول في أعين الطرفين. لقد انسحب دون يلبي طلب خصومه، أو يطلب الموافقة على انسحابه من أصدقائه. والعلة كلها تكمن في خلقه المتعالي المعتد والستوحش الغطريس، وهو خلق مكروه من معظم الناس في كل الحالات، وتكون الطامة الكبرى أن اقترن هذا الطبع بطموح الى الرفعة والامتياز، فإنه ينقلب الى قسوة ووحشية صرفة.

يأبى بعض الناس أن يستمنحوا الشعب فضلاً لزعمهم بأنهم ليسوا بحاجة الى أي تكريم منه، ويتميزون غيظاً عندما لا يظفرون به. ومن المؤكد أن [ميتيلوس وأريستيديس وإپامنداس] لم يطلبوا فضلاً من الجمهور، وكان ذلك لأنهم والحق يقال، لم يقيموا أو يقدروا قيمة الهبات التي يحبسها الشعب بمجموعه أو يمنحها. كذلك لم يظهروا حقداً أو يستولدوا ضغنا لبني قومهم عندما أبعدها الى المنفى أكثر من مرة، بل لم تزايد رغبتهم في العودة قط، وكانوا يعملون لها وللمصافاة مع الشعب عند تحول الشعور العام نحوه ومن كان ازهد الناس في طلب المنة والفضل ولا يعطاه. والشعور بالكرامة الجريحة لما يحبس عن المرء ما يهفو اليه من الرفعة والمكانة، لا ينشأ إلا عن الشهوة العارمة اليهما. ولم يؤثر عن [الكيبيادس] انه أخفى سروره واعتباطه باي تكريم ناله. كما كان يتألم من الإهمال وعدم الاكتراث، لذلك حرص دوماً أن تكون علاقاته طيبة مع بكل من عرفه. وكبرياء [كوربولانوس] حالت بينه وبين اظهار اللطف والرعاية لمن كان بيدهم رفعة واعلاء شأنه. ومع هذا فان غرامه الشديد بالمعالي جعله يشعر بالكرامة الجريحة والغيظ لما أهمل الشعب أمره. وتلك ناحية النقص في طبيعه. وطبعه فيما عدا هذا نبيل فرقتة وعفته وامانته تجعله في مصاف عظماء الأغريق وأطهارهم، وهو على كل ليس من الفئة التي ينتمى اليها [الكيبيادس] أقل الناس تمسكاً بهذه السجيا، وأكثرهم إهمالاً لها.

بعد أن عمد [ديون Dion] الى طرد [ديونيسيوس] الطاغية، قُتل غيلةً وخيانةً، وأنقسم أعوانه الذين ساعدوه في تحرير سيراكوز، على أنفسهم. وكادت المدينة تقفر من سكانها لكثرة تبديل يد الحكام عليها. ولتعاقب سلسلة من المصائب والويلات فيها^(١). وبات قسم من صقلية بلقياً خالياً من السكان لاستمرار الحروب مدة طويلة، ووقع معظم المدن التي نجت من التدمير في ايدي البرابرة والجنود العاطلين غير المرتبطين بخدمة، المستعدين لمصانعة اي شكل من الاشكال الحكم. تلك هي الحال عندما اهتبل [نيسيسوس Nysaeus]^(٢) سيّد [سيراكوز] في السنة العاشرة لئفيه. وليستعيد مجدداً سلطانه ويستقر في ملكه. لقد كان غريباً أن يفلح حزبٌ صغير جداً خلال الفترة الأولى من حكمه، في تجريده من أعظم سلطاته وأشدّها استبداداً. على أن الأغرّب منه نجاحه في استعادة تلك السلطة وهو في المنفى لا حول له ولا طول، وفرض نفسه حاكماً مطلقاً على من طردوه. ووجد من بقي في سيراكوز أنفسهم مرغمين على طاعة طاغية وخدمته. طاغية مستبد، فظّ الطبع (ان استخدمنا أخف وصف له). أمتلاً غيظاً الآن الى درجة الوحشية بما اصابه من بلايا ونكبات. ولجأ سراة القوم وأخيارهم الى [هيكتيس Hicetes] حاكم [الليوتيينين]^(٣) في الوقت المناسب، ووضعوا أنفسهم في حمايته وأختاروه قائداً لهم في الحرب لا لأنه يفضّل في شيء أي طاغية مستبد عنيد، بل لأنه الملجأ الوحيد الذي وجدوه في حينه ومما منحهم شيئاً من الثقة منه: إنه من أسرة سيراكوزية، ويملك القوات التي تمكّنه من منازلة قوات [ديونيسيوس].

في هذا الوقت ظهر القرطاجيون على ساحل صقلية بأسطول عظيم، وراح سكان الجزيرة يرصدون المكان والزمان الذي يختاره الغزاة للنزول الى بلادهم. ودفعهم الرعب من الاسطول الى ارسال وفد الى بلاد اليونان لطلب العون من الكورنثيين الذين كانوا محلّ ثقتهم أكثر من غيرهم^(٤) لا للقرابة التي تصل فيما بينها ولا للفوائد العظيمة التي طالما جنوها من وضع

(١) قُتل ديون الذي طرد ديونيسيوس الأبن من سيراكوز في ٣٥٧ ق.م وقام قاتله [كاليپوس] باغتصاب السلطة لنفسه لكنه طرد منها بعد عشرة اشهر. وقتل بعين الخنجر الذي غيبه في صدر صديقه. وأقبل هيپارينوس Hipparinus أخو ديونيسيوس يقود اسطولاً كبيراً احتل المدينة وابقاها تحت حكمه زهاء سنتين وأنقسمت صقلية الى شيع واحزاب وكتل حاكمة.
(٢) كان رجلاً عسكرياً لامعاً. وقائداً عاماً بأمر ديونيسيوس.
(٣) هؤلاء القوم كانوا يسكنون مدينة اسمها ليونتين كما يثبتها هيروdotس وهي لا تبعد كثيراً عن شمال سيراكوز بين نهري ليسوس وفيويوس. يعزى بناؤها الى الخلقيديين. ويطلق على الريف المحيط بها ليوستريكوني أو مخيم ليونتين واشتهر بخصوبته.
(٤) أوجد أرخياس الكورنثي المستعمرة السيراكوزية في ٧٢٢ ق.م. كان الفينيقيون قد غزوا صقلية قبل ذلك بثلاثمائة عام وانشأوا فيها مستعمراتهم.

بدأت بكتابة السيّر لأجل الآخرين، إلا أنني وجدت نفسي أباشرها وأعكف عليها لأجل نفسي. فأخلاق وطبائع هؤلاء العظماء، صارت عندي أشبه بالمرأة التي ألحظُ فيها كيفية تقويم حياتي وتعديل سيرها. هذه الكتابة في الواقع لا تخرج عن وصف الحياة اليومية واللقاءات والمخالطات البشرية، ونحن في تحقيقاتنا عنها نلتقي ونرحب بضيوف متعاقبين فنظر الى:

«... منزلتهم والى خلقهم وطبعهم»

ونختار من أعمالهم الأنبل، والأجدر بالذكر:

«فأه! واية لذة عظيمة تلك التي ينال المرء منها»

وأية وسيلة أقوى أثراً منها في رفع مستوى اخلاق المرء!

يقول لنا [ديموقريطس] «ينبغي لنا ان نتمنى لأنفسنا لقاء السمع الكريم من جمهرة الأطياف التي تسبح في الأثير المحيط بنا، والأخلق بنا أن نختار منها الأقرب الى اذواقنا وطباعنا، أي الاطياف الصالحة الخيرة، لا الطالحة الشريرة.»

هذا القول إنما يقحم في الفلسفة مبدأ غير صحيح في ذاته، يؤدي بالمرء الى معتقدات خرافية لا نهاية لها، وهذا مخالف لطريقتي؛ فبدراستي التاريخ، وبالعادة التي الفتها في الكتابة روضت ذاكرتي على إقتبال واستبقاء صور أفضل الشخصيات وبرزها في الحياة. وهذا ما مكّني من معالجة نفسي وتحريرها من الانطباعات الخسيسة الوضيعة الفاسدة المنتقلة اليّ بعدوى سوء العشرة المفروضة على نفسي رغم أنفي - بدواء تحويل افكاري نحو الأمثلة الرفيعة الشريفة، بمزاج هاديء مبهج. وقد اخترت الآن لكتابتني من هذه الطائفة مثلين هم [تيموليون الكورنثي] و[پاولوس اميلوس] رجلان وقفا على درجة واحدة من سلم الشهرة لا باخلاقهما بل بالنجاح الذي أصاباه في الحياة. حتى بات من المشكوك فيه أن يدينا بأعظم أعمالها الى حسن حفظهما، ام الى سعيهما وألمعتهما.

كانت أحوال السيراكوزيين قبل إرسال [تيموليون] الى صقلية، قد آلت الى الوضع الآتي:

ثقتهم فيهم بل كذلك لما أظهرته كورنث دوماً من شدة تعلق بالحرية، ونفرة من الطغيان ودخولها في عدة حروب لا سعيّاً وراء الكسب والعظمة بل، دفاعاً عن حرية الأغريق ليس إلاً. إلا أن [هيكتيس] الذي جعل هدف قيادته تحرير السيراكوزيين من ظلم طاغية، لإستعبادهم بطغيانه؛ كان قد اتصل سراً بالغزاة القرطاجيين وفاوضهم وتوصل الى اتفاق معهم، بينما كان يمتدح جهراً غايات اتباعه السيراكوزيين، حتى انه ارفق بوفدهم الى الميلوبونيس وفدأً من لدنه لا لرغبته في نيل أية معونة أو نجدة تأتي منهم. بل كان أمل أن يرفض الكورنثيون بذل العون وهو أمر قريب الاحتمال بسبب الاضطراب الذي كان يسود بلاد الاغريق وانشغال هؤلاء فيه، واذ ذاك يكون أقدر على تحقيق مصالح القرطاجيين بسهولة، وتنفيذ ما تعهد لهم به، وبهذا الأسلوب يتمكن من استعمال الغزاة الأجانب اداة لتحقيق اغراضه، وقوة احتياطية له يوجهها ضد السيراكوزيين أو ضد [ديونيسيوس] حسبما تدعو اليه الظروف وقد أنكشفت خطته هذه فيما بعد.

وصلت السفارة الى الكورنثيين، وعرضت مهمتها. وكان هؤلاء القوم دوماً شديدي الرعاية والإهتمام بكلّ جالياتهم وزراعتهم في الخارج. إلا أنهم خصّوا [سيراكوز] بأعظم اهتمامهم وكان الوضع في كورنث مستقرّاً اذ ذاك، والقوم يتمتعون بظلم السلام الوارف والراحة فصوتوا بالإجماع على تقديم العون لهم. وفي اثناء ما كانوا يتداولون في اختيار قائد للحملة، والحكام يجاولون في طلبات مختلفة من أولئك الطمّاحين الى المجد. نهض واحد من الجمع الحاشد ونطق باسم [تيموليون] ابن [تيموديموس Timodemus] الذي كان قد توارى منذ زمن طويل عن ميدان الشؤون العامّة ولم تكن لديه اية فكرة أو دعوى لهذا النوع من المناصب. ويبدو وكأنّ إلهها من الآلهة أوحى الى قلب هذا الرجل بذكر اسمه، وظهرت محاباة آلهة الخطّ، وحسن نواياها في انتخابه، وفي مرافقتها كلّ أعماله التالية حتى لكأنها أوصت بجدارته وأضافت السموّ والشهوة الى اخلاقه الشخصية لغاية في نفسها. كان [تيموديموس] أبوه و[ديمارست Demariste] أمّه من الطبقة العليا في المدينة. وأمّا عنه فقد أشتهر بحبّ وطنه، ورقة طبعه، خلا مقتته الشديد للطغاة وشرار الناس وكانت قابلياته الطبيعية في الحرب والقتال حسنة التكوين فيه بحيث أنه ظل يظهر شجاعةً وأقداماً نادريين في آخر مآثره ووقائعه عندما بلغ من العمر اراذله، لا يقلان ابداً عن الكفاءة والألمعية التي بدأت في كلّ مشاريع شبابه. وكان أخوه الأكبر [تيموفانس Timophanes] لا يشبهه في شيء، فهو حادّ الطبع متهور أحمق، أفسده بعض اصدقائه، والجنود الاجانب الذي كانوا يلازمونه وأغوا في نفسه حب النزوع الى السلطان المطلق، ويبدو انه كان قد كسب اسماً وتبريزاً في كل فنون الحرب، بل

كان ركّاب اخطارها وفارسها المجلي، ولهذا وقع حبه في قلوب الناس، ورفعوه الى مناصب هامة لحسن بلائه وجسارته وكان فضل تيموليون عليه في وصوله الى مركزه كبيراً، فقد دأب على اخفاء هفواته أو التقليل من شأنها على الأقل، يكسو بثنائه العاطر كلّ ما يستأهل الشناء من أعمال اخيه، ويدفع الجانب الطيب من شمائله مشجعاً لتنطلق بما فيها من فوائد وحسنات.

حدث مرّة في معركة خاضها الكورنثيون ضدّ قوات [ارغوس] و[كليوني Cleonae] (٥)، أن كان تيموليون جندياً في صنف المشاة، و[طيموفانس] يقود خيالتهم، فاستهدفت حياته الى خطر جسيم اذ جرح حصانه وكبائه ورمحه الى أواسط العدو في حين تفرقت عنه كتيبته وولت الأدبار فرعاً، وكانت الشزيمة الباقية القليلة العدو التي تواجه قوات عدوه متفوقة قد دبّت فيها الفوضى وعجزت عن الصمود ولو لساعة. وما أن علم [تيموليون] بالخطر المحدق قد هرع لانقاذه وستر بترسه جسده الذي أصيب هو ودروعه بكثير من طعنات الرماح والسيوف. وقاتل العدو حتى أرغمه على التقهقر بعد لأي وحمل أخاه وعاد به حياً سالماً.

وعندما خشي الكورنثيون على حرية مدينتهم بالسماح لحلفائهم بدخولها، اصدروا مرسوماً يقضي بتجنيد اربعمائة جندي اجنبي مرتزق للمحافظة عليها، وسلمت قيادتهم [لطيوفانس] فما لبث ان تجبّر ولم يرع مبدءاً من مبادئ الشرف، وجعل نفسه حاكماً مطلقاً واخضع البلد الى سلطانه الفرد. وبعد ان فتك بالعديد من رؤساء القوم من خشي صولتهم ومقاومتهم نواياه دون إدانة ولا محاكمة؛ اعلن نفسه طاغيةً لكورنث. ووقع هذا على [تيموليون] وقعاً أليماً، معتبراً شرو أخيه مصدر خزي له وبلوى. وحاول اقناعه بالمنطق والعقل بالعدول عن سبيل الغواية والطموح السيء النقيبة. وان يبحث عن وسيلة لاصلاح ومعالجة الشرور التي الحقها ببني قومه. فازدري [طيوفانس] تحذيره المخلص ورفضه. وكرر [تيموليون] محاولته وأخذ معه [اسخيلوس] قريبه شقيق امرأة طيموفانس، وكاهناً نبياً صديقاً يطلق عليه ثيومپوپوس في تاريخه اسم [ساتيروس Satyrus]، ويسميه [ايفوروس Ephorus] وطيماؤوس في تاريخهما [اورثاغوراس Orthagores]. عاد اذن الى أخيه برفقة هؤلاء، وتحوطوه وأخذوا يلحفون عليه بالرجاء في الموضوع نفسه وينصحونه باخلاص الى الاصغاء لصوت العقل وأبدال طرائقه. لكن [طيوفانس] راح يضحك ساخراً من سذاجة الرجال ثم انفجر بهم محنقاً ساخطاً فما كان من [تيموليون] إلا أن انتحى جانباً عنه ووقف يبكي بوجه مستور في حين انتضى الآخرا سيفيهما ووثبا على الطاغية وقتلاه في الحال (٦).

(٥) آخر قرية ارغولية من جهة كورنث.

(٦) لديدورس الصقلي (١٠:١٥) رواية أخرى مختلفة، قال: بعد أن قام تيموليون بقتل أخيه بيده في ميدان =

وسرعان ما شاع النبأ. وأشاد سراة الكورنثيين وكرامهم بتيموليون كثيراً، وقدرُوا فيه بغضه الجور وسمُو نفسه التي جعلت التزاماته تجاه وطنه أقوى من وشائج القربى، رغم كونه رقيق الطبع، شديد الحب والعطف على أسرته، وهكذا قدّم ما هو عدل وخير على الربح والفائدة والمصلحة الشخصية. فأخوه الذي أنقذ حياته بشجاعة خارقة عندما كان يحارب في سبيل كورنث ببسالة وأخلاص، قام الآن بقتله لأنه استعبدتها فيما بعد باستبداده القذر. فكانت تضحية منه في غاية النُبُل. على أن أولئك الذين لا يعرفون كيف يعيشون في ظل الديمقراطية، ممن تعود حطة التزلف الوضع للحكام ورجال السلطة، راحوا سراً يسلقون [تيموليون] بالسنتهم الحداد، ويشيرون اليه بالرجل الذي أقترب عملاً لا أشنع منه ولا اقبح، مع انهم أظهروا في العلن شدة اغتباطهم بمقتل الطاغية. فانتاب [تيموليون] الغم والكآبة الشديدة. ولما علم كم كان وقع الأمر شديداً على أمه، وكيف أنها جارت بالشكوى الأليمة وصبّت عليه أقسى اللعنات وأهلها كأولئك الآخرين. قصدها ليشرح لها ما وقع ويبرّر عمله لها، فوجد أنها لا تريد حتى النظر اليه إذ أغلقت ابوابها دونه لثلا يجد سبيله إليها. فنال منه الهم كثيراً وطاش صوابه وبلغ به اليأس حداً أن قرر معه وضع نهاية لقلقه بقتل نفسه بالاضراب عن تناول الطعام حتى الموت. إلا أن عناية اصدقائه وسهرهم المتواصل والشدّ عليه بين الاحاح والتوسّل، الى استخدام القوة والارغام ادى في نهاية الأمر الى أن يقرر ويعد باحتمال العيش شريطة أن تحترم عزلته التامة، وابتعاده عن اي عشرة. وهكذا تقطعت الاسباب بينه وبين الحياة العامة وحلت بينه وبين المجتمع جفوة تامة وخرج من كورنث وظلّ بعيداً عنها مدة طويلة يهيم على وجهه في الحقول والفيافي تعذّب افكاره وتقضّ عليه مضجعه. ينفّر أشدّ النفرة من اي صلة بالناس أو علاقة بالحياة الاجتماعية.

حقيقة لا جدال فيها: وهي انه ليس ثم أسهل من هزّ عقول الناس وافقادها التوازن والصواب بكلمة مدح أو قرح تقال لها. إلا اذا كانت الأحكام المتخذة والغايات المنشودة مبنية على قاعدة الفلسفة والوعي، فتحوز صفتي الثبات والمتانة. وليس يكفي في العمل أن يكون عادلاً ممدوحاً بحد ذاته. بل يجب أن ينشأ من دوافع مكينة ومبدأ راسخ، وسيظلّ اذ ذاك جميلاً في اعيننا. ونبقى راضين عنه رضاً تاماً لا يتزعزع. فإن لم يكن العمل كذلك، فسيسلمنا ضعفنا الى القلق والاضطراب عندما يدبّ في مظهري الصلاح والجمال اللذين زينا

= السوق، ثارت ثائرة المواطنين وهاج هائجهم فلاجل تهدئة الخواطر التأمّت الجمعية العامة وفي حمى النقاش وصل سفراء صقلية وطلبوا جنرالاً. فصار الإجماع على تيموليون إلا أنهم حذروه قائلين: «إن أديت واجبك بنجاح فستعامل معاملة من قضى على طاغية. وان أخفقت فستعامل كمجرم قتل اخاه. إلا ان رواية پلوتارخ قد تكون ارجح وقد ايدتها مراجع أخرى.

لنا العمل، دببَ البلى وتُخلق جدته في خيالنا، كالناس النهمين، فهم يتهافتون على الذّ ما في الصفحة من اللقّم، ثم ما يلبثون أن يعافوها عندما تتخم بطونهم بالأكل فيحسون بالضيق والتعب مما كانوا شديدي الاشتهاء له،

إن الكره الذي يعقب الحبّ، يفسد خير الأعمال، والندم يجعل اروع الأعمال وأحسنها تأديةً، وضيقاً حافلاً بالخطأ. في حين لا يتغير الاختيار المبني على أسس المعرفة والتحكيم العقلي، بعوامل الخيبة والإخفاق، ولا يُسلمنا الى الندامة. وقد يتفق أن يكون عملنا عند انحازه، أقل نجاحاً من المأمول، وفي هذا الصدد أذكر قولاً مأثوراً [لفوكيون Phocion]. كان هذا قد وقف من تدابير [لوسثينيس Leosthenes] موقف المعارضة الشديدة المستمرة. وعندما رأى علائم النجاح تتوالى وقومه مغتبطين بها، يقدمون القرايين بمناسبة الانتصار، قال لهم:

- إن السرور الذي قد ينتابني فيما لو كنت أنا الذي حققت لكم انتصار ليوسثينيس بدلاً منه، يعادل سروري لكوني أنا الذي أدلى برأي ضده.

ولدينا جواب آخر أشدّ من هذا وأوقع. عندما طلب [ديونيسيوس] الأكبر الزواج من إحدى بنات [اريسثيدس] اللوكري Locria صاحب افلاطون. ردّ عليه بما يأتي:

- أفضل أن أرى العذراء تدرج في قبرها، على أن اراها في قصر طاغية!

وفي سورة غضب [ديونيسيوس] لهذه الإهانة، عمد الى قتل ابناء [اريسثيدس]، ثم عاد يسأله بوقاحة: أما زال مصراً على رأيه السابق في مصائر بناته، فأجابه اريسثيدس:

- لا يسعني إلا أن أتألم، لوحشية اعمالك، إلا اني لست بأسف على حرية كلماتي.

على أن الآلام التي استولت على [تيموليون] لما فعله، حطمت عزيمته وسحقت روحه، وسواء كان مأتاها تعاسة مصير أخيه، أو الأحرار الذي يكته لأمه فقد بقي زهاء عشرين عاماً عازفاً عن شرف المساهمة في حياة بلاده السياسية، ولما قدّم اسمه مرشحاً لمنصب الجنرال وايد الترشيح إقبال الجمهور بكل سرور على الاقتراع له، قصده [تيلكليدس Teleclides] وكان في حينه أقوى وأبرز رجل في كورنث وبدأ يحضه على القبول بقوله، أن الواجب يحتم عليه الآن أن يتصرف كما يتصرف الرجل الشجاع الجدير بالاحترام...

- لأنك إن أظهرت في مهمتك هذه تفانياً وبطولة فسنجمع على أنك أنقذتنا من طاغية حقاً. وإلا كنت قاتل أخيك في نظرنا.

وفيما كان يستعدّ للإبحار، ويجنّد المحاربين، وصلت الكورنثيين رسائل من [هيسثيس] توضح تمرده وخيانتته. اذ ما أن توجه سفراؤه الى كورنث حتى ألقى بحظه الى جانب

القرطاجيين، وفاوضهم في معاونته على ازاحة [ديونيسيوس] وحلوله محلّه في [سيراقوز]. ولما كان يخشى على خطته الفشل في حالة وصول جيش وقائد من كورنث قبل تنفيذها، فقد بعث بكتاب على جناح السرعة ليحول دون ذلك، قائلاً بالأحجية حاجة تدعوهم الى تكبدهم العناء والنقبات والتعرض لأخطار حملة الى صقلية، فقد اضطره تباطؤهم في ارسال النجدة الى قبول التحالف مع القرطاجيين ضدّ [ديونيسيوس]، وان هؤلاء سيتربصون بحملتهم، وبهاجمونها في عرض البحر باسطول ضخم. وازالت تلاوة هذا الخطاب على الجمهور كل تردد في النفوس، حتى البارد غير المكتثر بالحملة منهم، وثار كوامن سخطهم على [هيسيتيس] واضطرت نفوسهم غيظاً وأقبلوا جميعاً على تجهيز حملة تيموليون بحماسة واخذوا يستعجلونه في الرحيل.

لما جُهزت السفن، وكملت أهبة الجنود من كل النواحي. حدث أن حملت كاهنة الرية [پروسپينا: رية الخصب] حلاًماً أو نزلت عليها رؤيا، خلاصتها إن هذه الرية وأمها [سيريس: آلهة الزراعة] ظهرنا في عدة السفن، وقالتا للكورنثيين انهما ستبحران الى صقلية مع [تيموليون]. وعندما قام الكورنثيون ببناء سفينة مقدسة اسمها «سفينة الربّات» وكرسوها لهما. ثم أن تيموليون رحل الى [دلقي] بنفسه وضحّى لاپوللو، ثم نزل الى موضع الوحي من المعبد، ليفجأ بالرؤى الخارقة الآتية: انزلت عصابة رأس مطرزة بالتيجان وصور النصر من بين الهدايا المقدمة وطارت في فضاء المعبد ثم سقطت مباشرة على رأسه، وهكذا بدأ وكان ابوللو يتوجّه بالنجاح مقدماً ويرسله الى هناك للفتح والنصر. وأنطلق في عرض البحر بعشر سفن فقط: سبع منها كورنثية، واثنان من [كوركيرا] (٧) وواحدة تبرع بها الليوكاديون Leuca-dia، ودخل أحشاء البحر ليلاً تدفعه ریح رخاء وعلى حين غرة انشقت السماء وخرج منها لهبٌ ساطع مُتشر واخذ يحوم فوق سفينته، ثم تجمّع اللهب ليغدو مشعلاً شبيهاً بالمشاعل ملازماً جانبها، ليديها بنوره الى الجزء الايطالي الذي قرروا النزول فيه وايد السحرة أن هذه المعجزة تؤيد حلم الكاهنة، لأن الريتين ترافقان الحملة فعلاً. وقد ارسلنا هذا النور من السماء ليتقدمهما: ذلك لأن صقلية مكرّسة [لپروسپينا] لزعم الشعراء أن حادثة الخطف وقعت هناك وان الجزيرة أعطيت مهراً لها (٨) عندما تزوجت [پلوتو]: آله الموتى وجهنم.

شجعت هذه الخوارق الآلهية أفراد الحملة كثيراً. فانطلقوا باقصى سرعتهم في رحلتهم

(٧) هي كورفو وقد عرفت ايام هوميروس موطناً للفاكيين. وليكاديا هي شبه جزيرة مجاورة. اشتهرت بلسانها المشهور باسم «قفزة الحب».

(٨) في اليوم الثالث من الزفاف أعطت العروس هدية للعريس عند ظهورها لأول مرة دون برقع بحسب عادات ذلك الزمان. ولهذا السبب يطلق عليها اليونان كلمة «أناكالويسوريون».

يشقون عباب الاوقيانوس حتى وجدوا أنفسهم بعد زمن قصير يجرون على طول الساحل الايطالي. إلا أن الانباء التي وردت تيموليون من صقلية أقلقته كثيراً وثبتت عزائم جنوده. فقد تغلب [أكيتيس] (٩) على [ديونيسيوس] في ساحة القتال وأخضع لسلطانه معظم أحياء مدينة سيراقوز نفسها، وهو في تلك اللحظة يطوقه ويحاصره في قلعتها وفي ما يسمى بالجزيرة حيث هرب وجعلها ملجأه الأخيرة. في حين كان على القرطاجيين حسب الاتفاق، ان يحولوا دون نزول [تيموليون] في أي ثغر من ثغور صقلية. فبطرده وطرده اتباعه، يمكنهم على هونهم وهواهم تقسيم الجزيرة فيما بينهما. وعلى هذا الأساس بعث القرطاجيون بعشرين من بوارجهم الى [ريجيموم] (١٠) ومعها سفراء من [هيسيتيس] الى تيموليون، وقد حملهم تعليمات مناسبة لخطته هذه ومقترحات خادعة للإلهاء وحكايات ظاهرها معقول، لستر وتزويق غايات غير شريفة. أمروا أن يقدموا اقتراحاً يتضمن الطلب من تيموليون ان يحضر الى [هيسيتيس] ان شاء ويشاركة كل فتوحاته بعد ارساله السفن والجنود الى كورنث لأن الحرب تكاد تكون في حكم المنتهية. والقرطاجيون قد أغلقوا المدخل وعزموا على صدّهم اذا حاولوا اقتحام سبيلهم عنوة الى الساحل، وعندما التقى الكورنثيون بالوفد في [ريجيموم] ووعوا رسالتهم وشاهدوا السفن الفينيقية راسية في الخليج ثارت كرامتهم للانهاء وسادهم سخط عام على [هيسيتيس] ومثلّكهم خوف شديد على جيرانهم الصقليين Sicalites، الذين سيكونون ثمناً وتعويضاً [لهيسيتيس] على غدره من جهة، وغنيمة للقرطاجيين بسبب ما يمارسونه من سلطان على [هيسيتيس] من جهة أخرى.

كان أشبه بالمستحيل هزم السفن القرطاجية التي تقع عليهم الطريق وعددها ضعف عدد سفنهم. كذلك كانت مسألة دحر الجنود الظافرة التي يقودها [هيسيتيس] في سيراقوز وأخذ زمام المبادرة منه بأولئك الجنود الذين ابحروا في الحملة.

ذلكم هو الموقف برمته. فبعد أن تحدث [تيموليون] برهة مع وفد [هيسيتيس] ورؤساء القرطاجيين قال لهم: إنه موافق بكل سرور على مقترحهم (واي جدوى في رفضه؟) لكنه يرغب قبل عودته الى [كورنث] أن يكون أهالي [ريجيموم] على بيّنة تامة بكل ما دار من مفاوضات بينهما وان تداع لهم بشكل علني لأن المدينة اغريقية، وتربطها بالجانيين صلة الصداقة، وهذا

(٩) وجد اكيتيس نفسه بحاجة الى ارزاق فانسحب كم حصار سيراقوز متجهاً الى بلاده فخرج عليه (ديونيسيوس) وهاجم مؤخرته إلا ان (اكيتيس) استدار وواجه وقتل ثلاثة آلاف من رجاله ثم تعقبه الى داخل المدينة وأحتل جزءاً منها. ويذكر پلوتارخ أن المدينة التي قُسمت بأسوار قوية بدت وكأنها مجموعة من المدن.

(١٠) (من أعمال كالابريا) تقع في مضيق مسينا.

التدبير سيكون ذا أثر كبير على سلامة عودته، كما سيجعلهم متمسكين وملتزمين بشروط الاتفاق لمصلحة أهالي سيراكوز حيث كانوا أشهدوا على أنفسهم علناً بمساعدتهم.

كان هدف [تيموليون] من كل هذا تحويل الأنظار عما بيته، وهو اهتبال فرصة للإنسلاسل باسطوله من بين سفنهم، ولم يكن سراة المدينة واعيانها يجهلون غرضه، بل عمدوا الى مساعدته في تنفيذه، تحذوهم رغبتهم الشديدة في تولي الكورنثيين زمام الأمور في صقلية، ويدفعهم خوفهم العظيم من مغبة مجاورة البرابرة لهم. ولذلك دُعي الى عقد اجتماع عام وأغلقت ابواب المدينة لثلا ينشغل المواطنون عنه بشؤونهم الخاصة، وتعاقب الخطباء على المنبر كل بدوره لشرح الموضوع للشعب، ينتهي واحد ليبتديء آخر وهكذا دون التوصل الى نتيجة، يتعمدون تبديد الوقت بالكلام الفارغ حتى تخرج السفن الكورنثية من المرفأ. وكان ربانة السفن القرطاجنية قد عوقوا في المدينة لهذا الغرض، ولم ينتبهم اي شك، لأن [تيموليون] بقي معهم، وكان يبدي اشارات من يحاول التهيؤ للقاء خطاب. ثم وردته اشارة سرية تعلمه بخروج بوارجه كلها الى عرض البحر^(١١)، خلا سفينة التي كانت بانتظاره، وتمكن بالتخفي ومساعدة [الريجيين القرييين في المنصة، من النزول عنها سراً والتسلل بين الحشود وأسرع الى الميناء ليجر فوراً ويدرك باقي السفن؛ ووصل الاسطول كله الى [تارومينيوم - Tauromeni um] المدينة الصقلية. وكان حاكمها المدعو [أندروماخوس Andromachus] قد دعاهم قبلاً، فاستقبلهم ورحب بهم أحسن ترحيب. كان اندروماخوس هذا، والد المؤرخ [طيمائوس]، وهو بلا جدال أو مقارنة خير حكام صقلية آنذاك. فقد نشر العدل في المدينة. وجعل الكلمة العليا للقانون، وكان يمتك الطغاة مقتناً شديداً، ويعاديهم عداءً صريحاً. لذلك سمح [لتيموليون] بانزال جنوده هناك، واتخاذ مدينته مقراً لادارة دفعة الحرب، وأقنع السكان بالانضواء الى صفوف الحملة الكورنثية ومساعدة [تيموليون] في أنجاز مهمته.

بعيد إرفضااض اجتماع [ريجيوم] أدرك القرطاجنيون المتخلفون هناك ان تيموليون أفلت منهم، فثار ثائرههم. وسخطوا لانطلاق الحملة عليهم^(١٢). قدر ما أفعم الريجيين سروراً. ولم يسعهم الا الابتسام والضحك عندما راح الفينيقيون يتشاكون الغش والخديعة. ثم انهم بعثوا برسول الى [تارومينيوم] على ظهر إحدى سفنهم. وهناك أخذ يتوعد ويستفز بأسلوبه البربري الوقح، ثم التفت الى [اندروماخوس] وصار يتهدده بالويل والثبور إن لم يبادر الى

(١١) خيل القرطاجيين ان اقلع السفن التسع الى كورنث انما هو نتيجة انفاق تم بين قادة الفريقين وان السفينة العاشرة انما ابقيت لنقل (تيموليون) الى (اكتيس).

(١٢) اي «الحيلة الفينيقية» وقد جرت مثلاً: Fraus Punica.

اخراج الكورنثيين من مدينته فوراً. ثم مد يده مقلوبة الكفّ وقلبها الى فوق قائلاً انه سيعمل هكذا بمدينته، أي يقلب عاليها سافلها في غمضة عين ويكلّ سهولة، فقلد [اندروماخوس] حركة يده ساخراً وأمره بالانصراف حالاً إلا اذا اراد ان تطبق لعبته هذه البارعة على السفينة التي أقلته.

وبلغ [ايكتيس] نجاح تيموليون في خرق الحصار ونزوله البر، فأستولى عليه خوف عظيم من النتائج، وأرسل يطلب من القرطاجنيين تخصيص عدد كبير من سفنهم لخفارة الساحل والسهل عليه، ويؤس السيراكوزيون من سلامة ارواحهم. فالقرطاجنيون سادة الميناء^(١٣)، و[ايكتيس] مطلق السلطان على المدينة. و[ديونيسيوس] متحصن في القلعة. بينما لايسيطر تيموليون في صقلية الا على هامش أو حافة منها وهي بلدة [تاورومينيوم] الصغيرة. وقواته لا تذكر، وأمله ضعيف. كان تحت أمرته ألف جندي على اكثر تقدير. ولا يملك من القمح ما بقيته به، ولا من المال لدفع المرتبات حتى لهذا العدد الضئيل. ولم تسعفه المدن الأخرى بشيء من الإمداد، اذ لم تكن لها ثقة به، بعد الارهاب والإضطهاد الذي ذاقتته على ايدي قادة الجيش سابقين، وخصوصاً غدر [كاليپوس Callipus] الاثيني، واللقيديموني [فاراكس Phraxus]. فبعد أن أوضح أن مجيئها يهدف الى استنقاذ حريتهما من يد الطغيان والقضاء على المستبدين، وضمنا العون من أهاليها؛ بلغ طغيانها حداً عدّ معه العهد المباد عصرأ ذهبياً، وأعتبر الصقليون من مات في عهد الطغيان السالف أسعد حظاً ممن عاش ليرى تلك الحرية المزهقة للأنفاس. ولهذا ما كانوا يتوقعون خيراً من القائد الكورنثي وتصوّروا انها المهزلة عينها يعاد تمثيلها ثانية، ورأوا فيه سيدياً جديداً مليئاً بالادعاءات الخادعة، والعهود الكاذبة يعمل على اجتذابهم الآمال العراض، والأمانى البراقة. فأعلنوا شكهم في اقواله، ورفضوا العروض التي قدمت اليهم باسمه، إلا أهالي [دارانوم Adranum]. وهي مدينة صغيرة مكرّسة للرب [ادرانوس]^(١٤) الذي يُجلّ كثيراً في صقلية. فهؤلاء دبّ فيهم الخلاف وأنقسموا حزبين أحدهما اتصل [بهسيتيس] وحلفائه القرطاجنيين لإرسال نجدة له. والآخر فاض [تيموليون]. وحكمت الصدف أن تصل النجدتان في وقت واحد، رغم الجهود العظيمة التي بذلها الجانبان لاستتباق الوصول. زحف [ايكتيس] على رأس جيش قوامه خمسة آلاف بينما خرج [تيموليون] من [تارومينيوم] وليس معه أكثر من ألف ومائتين. وتارومينيوم

(١٣) عبأ القرطاجيون مائة وخمسين سفينة حرب، وستين ألف رجل وثلاثمائة مركبة حربية [ديودوروس ١٦:٦٧].

(١٤) من الشعار الذي جاء في النصّ بعددّ يجب أن يكون مارس وهيكله محروساً بمائة كلب. والمدينة نفسها تقع في أسفل جبل (إتنا) على نهر بعين الأسم يصدر من الجبل.

تبعد من ادرانوم بحوالي ٣٤٠ فُرلُغ [٩٣ ميلاً حديثاً تقريباً] وكانت مسيرته في اليوم الأول تمتاز بالبطء، ويكثر التعسكر في غضون مراحل سير قصيرة. إلا أنه غدَّ السير في اليوم التالي ويعد أن أجتاز أرضاً شديدة الوعوثة بلغه وقت المساء أن [هسييتيس] وصل [ادرانوم] وهو يقوم بضرب خيامه امامه، واذ ذاك هرع ضباطه ورؤساء عسكره الى وقف تقدم حرس المقدمة ليرتاح الجيش ويكون في حالة نشاط واستجمام عند التحامه بالعدو. إلا أن تيموليون خرج اليهم مسرعاً وأوقفهم عند حدّهم وامرهم باستيناف التقدم واستخدام كل همّة ممكنة لمفاجأة العدو الذي سيكون في حالة فوضى واضطراب، لأنه باشر بضرب خيامه واعداد وجبة عشائه حال انتهاء مسيرته. ثم ان تيموليون حمل ترسه ووضع نفسه في مقدمة الرتل، وبهذا قادم الى نصرٍ أكيدٍ ان بسالته ارغمت كل جنوده على السير خلفه بالشجاعة والعزيمة نفسها حتى باتوا على بُعد لايزيد عن ثلاثين فُرلُغ [١٦٠٠ يارد] وقطعوا هذه المسافة بسرعة خاطفة وحملوا على العدو الذي كانت الفوضى تسوده فتقهقر في أول التحام. ثم وبعد مقاومة ضعيفة ومناوشة قصيرة انقلب التقهقر الى هزيمة عامة خسر فيها العدو ما لايزيد عن ثلاثمائة قتيل وضعف العدد من الأسرى. ووقع معسكره وكل ما فيه من عفش غنيمة في يد تيموليون. وكان من أثر هذا الهجوم أنه فتحت [ادرانوم] ابوابها لاستقبال المنتصر والانصواء تحت رايته وحدثه بمزيج من الإعجاب والذعر كيف انفتحت ابواب معبدهم من تلقاء ذاتها ساعة بدء الهجوم. كما لوحظ أيضاً أن الرمح الذي يمسه تمثال الآله راح يهتز في يده، وشوهدت حبّات من العرق تنحدر على وجهه. والظاهر ان هذه الخوارق لم تكن قاصرة على التنين بل بالنصر المنجز بل هي البشير بانتصارات [تيموليون] المقبلة ايضاً. وكان النصر الأول هو السبب لظهورها.

وبادرت المدن المجاورة والحكّام بارسال موفدين اليه يلتمسون صداقته، ويعرضون عليه الخدمات. ومنهم [مامرقوس Mamercus] (١٥) طاغية [كتانا Catana] وهو محارب ذو مراسٍ وامير ثري، عرض عليه التحالف. علن أن الأهم من كلّ هذا هو ان [ديونيوسيوس] الذي ركبه اليأس وبلغ شفا الاستسلام، ويدافع من أحتقاره [لهسييتيس] على اثر هزيمته النكراء المخزية، وأعجابه بشجاعة [تيموليون]. حقق الاتصال بالقائد الكورنثي وببني قومه، وأعلن لهم رغبته في تسليم نفسه والنزول عن القلعة اليهم، فسرّ [تيموليون] وقبل فوراً بهذه العروض غير المتوقعة وبعث بالقائدين الكورنثيين [اقليدس، وتيليماخوس] على رأس فوج من جيشه قوامه اربعمائة مقاتل لاحتلال القلعة والاحتفاظ بها. وأمّرهماً بالأيدخلوا بكلّ

(١٥) يثبت «ماركوس» [ديودورس: المرجع السالف].

جنودهما حالاً أو على مرأى من الناس لما في ذلك من محذور ومادامت حراسة العدو يقظة، بل أن يتسللوا الى الداخل بفصائل قليلة العدد. وهكذا تم احتلال القلعة وقصر [ديونيوسيوس] ووضعوا ايديهم على كل الارزاق والمؤون التي كان قد استحضرها وأدخرها لتمكينه من مواصلة الحرب. كما وجدوا عدداً لا بأس به من الخيل ومختلف الآت الحرب والحصار ومقادير لا تحصى من الأسلحة والأسنة تكفي لتسليح جيش قوامه سبعون ألفاً، في مستودع أعدّ لأختزانها منذ عصر سحيق. كذلك وجدوا ألفي جندي من اتباع ديونيوسيوس فضمّوا الى قوات [تيموليون]. أما الطاغية فقد نقل كنوزه ونفائسه الى سفينة ابحرت به سراً مع قليل من اصحابه دون ان يفتن اليها [هسييتيس]، حتى بلغت به معسكر [تيموليون] فدخل بثياب عادية مما يرتديه عامة الناس لأول مرة في حياته (١٦). وبعد ذلك بقليل أرسل الى كورنث في سفينة واحدة، ومعه مبلغ يسير من المال.

ولد [ديونيوسيوس] ورُبي في افخم بلاط ملكي. وكان أشدّ الحكام استبداداً وطغياناً. قبض على ناصية السلطان وظلّ يمارسه عشر سنين بعد وفاة ابيه وقضى بعد حملة [ديون] اثنتي عشرة سنة أخرى في حروب طاحنة، وفتن دائمة وتقلبت به حظوظه فيها ولبست ازياء شتى. وجوزي في اثناها بنكبات ومصائب تزيد كثيراً على ما اقترفه من آثام وزرعه من شرور خلال فترة ملكه الأولى. وعاش ليشهد بعينه موت ابنائه وهم في عزّ رجولتهم. وهتك اعراض بناته وهن في زهرة عُدّرتهن ورأى الانتهاك الشنيع لستر اخته التي هي امرأته (١٧)، فبعد أن تعرضت هذه لشتى الإهانات الوقحة من الجنود قتلت مع أولادها والقيت جثتها في البحر.

بنزول [ديونيوسيوس] برّ كورنث تقاطر الاغريق من كل انحاء البلاد لمشاهدة ذلك الطاغية الرهيب الأسبق يدفعهم حبّ الاستطلاع، ولتوجيه بعض القول له. أمّا الفريق الذي دفعه خالص الكره والاحتقار للتشفي بمصيبته فقد جاؤوا ليطاؤا انقاض حظّه المحطم الزائل على حدّ شائع القول، إلا ان الفريق الذي كان إهتمامه وعطفه منصرفاً الى التأمل في تقلبات حياته والزعازع التي عصفت بها، فلم يسعهم إلا ان يجدوا فيها دليلاً على قوة وجبروت العالم الآلهي غير المنظور على الضعف البشري والأشياء المنظورة.

لم تضع يد الطبيعة أو يد الفن (١٨) في ذلك الحين، أمراً يمكن مضاهاته بما عملته الاقدار

(١٦) كان الوحيد الذي ولد وهو طاغية. في حين أن جميع الطغاة الآخرين ولدوا من أصول خاملة ليرتقوا ان هذا المنصب.

(١٧) سوفراسينه بنت ابيه من زوجه ارسطوماخه.

(١٨) باضافة عبارة «يد الفن يريد بلوتارخ القول ان الشعراء التراجيدين الذين يعالجون على الأغلب موضوع سوء طوالع الملوك والأمراء لم يصوروا مثيلاً لمصيبة فرد كهذه المصيبة.

وإدعاه الحظّ في معجزة [ديونيسيوس]. فهذا الذي كان قبل فترة ليست طويلة حاكم صقلية الأعلى تراه الآن يتسكع في سوق السمك، أو يجلس في دكان عطار، يحتسي شراب الخمرات الرخيص المشعشع بالماء، أو يخاصم امرأة من الإوشاب في قارعة الطريق، أو يتظاهر بارشاد مغنيات المسرح، ويستترسل معهن في جدالٍ عنيف حول هارمونية المقطوعات الغنائية، وإيقاعاتها وسلامها الموسيقية، مما يؤديه هناك. وكان سلوكه هذا موضع انتقاد مختلف الناس. وطنّ كثيرون ان تصرفاته هذه متأتية من ضعف طبعه، ومزاحه الشكس، أمّا الناس الأبعد منهم نظراً وتفكيراً فقد عللوا ذلك بأنه يؤدي به دوراً سياسياً، القصد منه تعويد الكورنثيين على الإستهانة بشخصه وصرف النظر عن خطورته فلا يعودون يشعرون بأيّ شكّ في نواياه ولا يحاذرون من ردود فعل حظه العاثر فيه، أو تبينوا رغبة منه لتغيير حاله. واجتنباً لما يأتي به هذا الشكّ، تعمد الظهور بمظهر يخالف طبعه الحقيقي، بتقمص مظهر الرقاعة والحمق في حياته الخاصّة وأوقات فراغه.

مع هذا فقد سجلّ التاريخ له أقوالاً ورووداً على أسئلة، يبدو منها رجلاً كيف نفسه لوضعه الجديد تكييفاً خسيساً وضيعاً. ويتجلى بعض هذا من اعتراف ادلى به عند وصوله الى [ليوكاديا Leucadia] وهي من مستعمرات كورنث كسيراكوز، إذ قال لسكانها: انه وجد نفسه شبيهاً بالأولاد المذنبين الذين لايتخرجون في الكلام امام إخوتهم، إلا أن الخجل يعرفهم إذ يواجهوا آباءهم، وأنه ليسرّه العيش بينهم في جزيرتهم هذه، بينما يشعر بنوع من التهيّب والرهبية، فيه كره وصدود لكورنث التي هي أمّ لكليهما، ويظهر الأمر أكثر وضوحاً في اجابة له على سؤال اجنبيّ لقيسه في كورنث، هزأ بأسلوب فظّ مهين وتعرض بالقدهح والزراية للاحاديث التي اعتاد [ديونيسيوس] تبادلها مع الفلاسفة والحكماء، (كانت صحبتهم مصدراً من مصادر سروره) عندما كان ملكاً، وتساءل بالنتيجة ما الذي افاده كلّ هذه الأحاديث الفلسفية الحكيمة من أفلاطون فأجابه: «أو تظنني لم أنتفع بفلسفته، وها أنت تراني تحمل عثار حظّي على خير وجه؟». وعندما رغب منه [ارسطوكرينس Aristoxenus] الموسيقي وعدد آخر أن يفسر لهم كيف اضرت به تعاليم افلاطون، واين هو موطن استيائه منها، أجابهم:

- من بين الشرور العديدة التي ترافق الحكم الاستبدادي المطلق، يبرز في مقدمتها انه لايعود واحد من الاصدقاء المعتمدين والموثوق بهم، يجرأ على الكلام بحريّة، أو قول الحقيقة الصريحة. وبهذا حرمتُ افضل تعاليم افلاطون.

وفي مناسبة أخرى كان من بين أصحاب الفكهين، رجل يريد دوماً أن يظهر بمظهر الفطنة

ودقّة النكته، فعلى سبيل التندر [ديونيسيوس] قام بنفض طيّات ثيابه عند دخوله الحجرة التي كان يوجد فيها [ديونيسيوس] إشارة الى أنه لا يخفى بينها سلاحاً - كأن ديونيسيوس ما زال طاغيةً، فعلق هذا رداً على عمله بقوله: انه يفضل أن يراه وهو يقوم بعمله هذا عند تركه الغرفة اثباتاً بأنه لم يخف حاجةً ويخرج بها...»

وعندما بدأ [فيليب المقدوني] يتحدث في مجلس شرابٍ على سبيل المزاح معه عن القصائد والتمثيلات التراجيدية التي خلفها ابوه [ديونيسيوس الأكبر] وتظاهر بالعجب من توفر الوقت له لتأليف هذه القطع الرائعة الفريدة^(١٩) رغم اشغاله الكثيرة اجابه ديونيسيوس اجابة مضمومة.

- انه الفها في ساعات الفراغ هذه التي نبدها أنا وأنت وأولئك الذين يسمّون بالمحظوظين ونحن عاكفون على الرّاح والأقداح.

لم يتيسر لأفلاطون الفيلسوف لقاء [ديونيسيوس] في كورنث فقد طواه الردى قبل قدمه. إلا أن [ديوجينس] [السينوبي Sinope] سلّم عليه عند أول لقاء معه في الشارع موجّها اليه هذه العبارة الغامضة:

- هيه يا ديونيسيوس! ما أقل ما تستأهل من عيشك الحالي!

فوقف [ديونيسيوس] وأجاب:

- شكراً لك على التعزية يا ديوجينس.

فقال ديوجينس:

- على تعزيتك؟ ألسنت تظنّ اني أقصد خلاف ذلك. واني لناقم لأنّ عبداً مثلك لو نال ما يستحقّ فعلاً لوجب ان تترك وحيداً تهرم وتموت وانت طاغية كما كان شأن ابيك من قبلك. بينمت تستمع الآن برحاء عيش بسطاء الناس، وتمرح وتعبث في مجتمعنا؟

ولهذا لما أتامل حكايات [فيلستوس Philistus] المحزنة حول بنات [لپستينس Lep-

(١٩) عن ديودورس الصقلي [١٤:١٠٩، ١٥:٦] كان ديونيسيوس الكبير يعتزّ كثيراً بما ينظمه من الشعر وان كان يدرك انه من اسوء الشعر. وحاول الشاعر الملقب [فيلوكزينس] مصارحته بالحقيقة. متحاشياً خداعه بفكرة طيبة يظنها عن قابليته. لكنه ارسله للعمل في المناجم بسبب ذلك. ثم أعادة في اليوم التالي الى مكانته الأولى التي كان يحتلها ثم راح يردد على مسامعه قصائد بذل مجهوداً كبيراً في نظمها على يسمع منه اطراءً. إلا أن الشاعر بدلاً من اطرائها نظر الى الحرس وخاطبهما وهو يبتسم «اعيدوني الى المناج الحجرية» ومع ذلك كله فقد شارك ديونيسيوس في مباراة الشعر اثناء الالعاب الاولمبية فسخر السامعون وصفروا له وحطموا السرادق الفخم الذي نصبه تحطيماً تاماً. لكنه نجح في الفوز بجائزة في أثينا نتيجة تحيز واضح من المحكمين. وقد عبّ كثيراً من الخمر بهذه المناسبة، وفجر وفسق حتى ركتبه آلام عظيمة فاعطاه الأطباء منوماً لم يفق منه قطّ.

[tines] (٢٠) حين تجده يطلق الزفرة الاليمة عليهن لسقوطهن من علياء السلطان ونعمائه في هاوية البؤس وحياة الذل، لا أرى زفرته تلك أكثر من بكاء امرأة على فقد صندوق ادهانها أو ثيابها الارجوانية، أو حلّيتها الذهبية الزهيدة. وفي اعتقادي ان حكايات كهذه قد لا تُعدّ متقحمةً على أهدافي من كتابة السير، أو تعتبر غير مفيدة بحدّ ذاتها في نظر القراء غير المستعجلين كثيراً، أو من تشغلهم عنها أمور أخرى.

وعلى كل، فإذا بدت نكبة [ديونيسيوس] غريبة أو استثنائية، فلا شك في أن حظّ تيموليون أغرب ودهشتنا منه لن تكون بأقل من استغرابنا من الأول. فقد تمكن في ظرف خمسين يوماً لنزوله صقلية من الاستيلاء على قلعة [سيراكوز] وارسال [ديونيسيوس] الى منفاه في الپلپوننيسوس، هذه البداية المحمودة رفعت من معنويات الكورنثيين في بلادهم حتى أمروا له بنجدة قوامها الفان من الرجالة ومائتان من الخيالة. فنزلت في [ثوري Thuri] ومرامها العبور منها الى صقلية. إلا ان البحر كان يعجّ بسفن القرطاجيين مما جعل عبورها متعذراً فأضطرت الى البقاء فيها متربصة بفرصة. إلا أنها لم تضيع وقتها سدى فقد قامت بعمل نبيل عندما خرج الثوريون لقتال اعدائهم [البروتيين] ودفعوا مدينتهم الى يد الحملة الكورنثية للدفاع عنها والسهر على حراستها ففعلت كأنها مدينتها، ثم سلمتها لأهلها بكلّ امانة.

في اثناء ذلك كان [ايكيتيس] مثابراً على حصار قلعة [سيراكوز] ومنع كل أمداد من الوصول اليها بحراً لإلحاد الكورنثيين الذين يدافعون عنها. وفي الوقت نفسه استأجر اثنين من الأجانب المجهولي الهوية وارسلها الى [ادرانوم] لاغتيا ل [تيموليون]، الذي لم يكن قطّ يحيط شخصه باي حرس. وكان في تلك المدينة أمناً مطمئناً على سلامته يختلط بالسكان غير محاذر، والأيام أيام اعياد لألهتهم. وتشاء الصدفة أن يعلم الرجلان أن [تيموليون] سيقوم بتقديم القران فأسرعا الى المعبد وقد أخفى كل منهما خنجراً تحت معطفه، وشقا طريقهما خلال الجمع الحاشد مقترين شيئاً فشيئاً من المذبح. وفيما كان أحدهما يتطلع الى الآخر منتظراً إشارة الوثوب على الضحية، هجم رجل ثالث على واحد منهما وضربه بالسيف على رأسه فخرّ صريعاً في الحال. ورح القاتل وزميل القتل مكانيهما حالاً. الأول شق طريقه شاهراً سيفه الدامي وهرب لايلوى حتى لاذ بقمة صخرية عالية تشرف على هاوية. أما الثاني

(٢٠) طاغية «ابولونيا» وهي مدينة صقلية قرب رأس پاكينوس. كتب فيلپس تاريخ مصر باثني عشر مجلداً، وتاريخ صقلية بأحد عشر وتاريخ الطاغية ديونيسيوس بخمسة. ويفضّل شيشرون (الخطابة ٢:٣) ثالثها على الاثنین الأولین.

فقد تشبث باركان المذبح وراح يتوسل [تيموليون] ليصفح عنه ويمنحه الحياة، وسيفضي اليه بتفاصيل الموأمة، فأمنه وغفر له، فاعترف بالمهمة التي كلّف بها هو وزميله، وبينما كانت هذه الحقيقة تنجلي قبض على القاتل وانتزع من ملاذه الصخري واقتيد وهو يصرخ ويحتج قائلاً انهم يرتكبون ظلماً في القبض عليه، لأنه أخذ بثأر حق عن دم أبيه الذي كان القتل قد فتك به في مدينة [ليونتيني Leontini]. وأيد قوله هذا عدد كبير من الحاضرين، الذين لم يسعهم الا يبدوا عجبهم من افاعيل الأقدار الغريبة والطرائق المدهشة التي تسلكها والسهولة التي تدفع حدثاً من الأحداث لتحرك به حدثاً آخر يختلف اختلافاً بيناً عن باعته وان كان منبثقاً منه فتراها توحد ما بين الحدتين المفترقين، وتجمع الدقائق والتفاصيل المتباعدة وتصل الأعمال المنفصلة واحداً بالآخر تحقيقاً لمآربها. فإذا بالاشياء المتنافرة ظاهراً، والتي لايربطها رابط، تغدو في كفّ القدر نهاية وبداية بعضها لبعض» على حدّ ما يقال.

وتأكد للكورنثيين أن عمل الرجل لا جناح عليه فضلاً عن وقوعه في أحسن ظرف فأكرموا صاحبه ووصلوه بما يعادل عشرة جنيهاً بعملتهم لقد أعار خدمات حقه العادل للروح الحارسة التي كانت تحمي [تيموليون] وظلّ مدةً طويلة لايشفي غلة حقه الذي يضطغنه وأجل الأخذ بثأره بتدخل الأقدار، حتى يُنقذ به [تيموليون].

إن هذه النجاة التي رسمها حسن الحظّ تعدت آثارها ونتائجها الحاضر الى المستقبل. فقد زرعت أعلى الأمان والامال في النفوس، ورفعت درجة الاعتماد على [تيموليون] ودفعت الناس الى احترامه وإجلاله قدر إجلالهم لمقدساتهم. وأعتبروه رسولاً بعثت به السماء لتحرير صقلية والانتصاف لها من طغاتها. ولما وجد [هيسيتيس] فشل موآمرته، وانتقاض كثيرين من اتباعه عليه وانحيازهم الى [تيموليون]، بدأ يُنحي على نفسه باللائمة لاقتصاده الأحمق في قواته الكبيرة. فقد كان تحت تصرفه جحافل القرطاجيين كلها مستعدة للعمل رهن اشارته وهو لا يستخدم منها إلا اقساطاً ووحداً صغيرة بحذر وتوجس حتى لكأنه يختلسها اختلاساً، أو يخجل من زجها في القتال. فقرر أن يطرح هذا التردد وبعث يستقدم [ماغو Mago] أمير بحرهم وكل اسطوله، فأقنع هذا القائد بعمارة بحرية جبارة لايقبل عدد بوارجها عن مائة وخمسين، وأستولى على ميناء سيراكوز، وأنزل ستين ألفاً من الرجالة عسكروا جميعاً داخل المدينة. فصدق ما قيل منذ أقدم العصور وما تناقلته الناس حتى يومها، بأن صقلية ستقع غنيمة في يد البرابرة. وكان هذا الإنزال ختام النبوءة فالقرطاجيون قبل هذا لم يفلحوا في الاستيلاء عليها طوال حروبهم وصداماتهم الدموية الماضية مع أهاليها وها هوذا [هيسيتيس] يهد لهم السبيل ويضع كل شيء في ايديهم، ويجعل المدينة معسكراً للبرابرة.

وبهذا وجد جنود الكورنثيين في القلعة الخطر العظيم يحرق بهم وأشدت بهم الضيق. وأنقلب شح قواتهم الى حاجة ماسة لأن المواني محروسة حراسة دقيقة، وقد أقفلها العدو ببوارجه وهو دائم التعرض لهم بالمناوشات وقتال الأسوار، لا يترك لهم سبيلاً للراحة، أو ساعة واحدة لنزع سلاحهم. ويضطرهم الى توزيع قواتهم لصدّ مختلف أنواع الهجمات من جميع الجهات.

وأحتال [تيموليون] على هذه الورطة بارسال كميات من القمح بقوارب صيد وزوارق صغيرة من [كتانا]، وسهل على هذه ان تتسلل عبر السفن القرطاجنية وقت هبوب العاصفة فتمرق مروقاً عندما يرغم هياج البحر سفن الحصار على الابتعاد أحداها عن الأخرى، ولما اتضح [لهيسيتيس وماغو] تدبير العدو في اغاثة قواه المحصورة، قررا مهاجمة [كتانا] قاعدة التموين، وخرجا من [سيراقوز] يقودان خيرة وحدات الجيش، ورأى قائد القلعة الكورنثي [نيون Neon] أن بقية الجيش في [سيراقوز] تتراخى في حصار القلعة وتهمل رصد مزاغلها ومدخلها أعتداداً منها بنفسها واطمئناناً الى ضعف المحصورين، فلم يلبث أن فاجأها بهجوم كاسح منتهزاً فرصة تفرق وحداتها فقتل منها وهزم البقية ووفق في الاستيلاء على منطقة [اكرادينا Acradina] وهي منطقة من سيراقوز عرفت بمناعتها وقوة تحصينها. والحقيقة هي أن سيراقوز تألفت من اجتماع واتصال عدة مدن كانت متقاربة^(٢١). وقد غنم [نيون] منها مقادير كبيرة من المال والقمح، ولم يجل عنها الى القلعة بل عمد الى تقوية تحصيناتها، ووصلها بالقلعة بسور محكم رغير ذلك من التحكيمات. وأخذ على عاتقه الدفاع عن الاثنتين.

عندما بلغ [ماغر رايسكيتس] مشارف كتانا، ادركهما فارس مُرسلاً من سيراقوز لإبلاغهما نبأ سقوط [أكرادينا]. فقفلا عائدين بقواتهما على جناح السرعة، والفوضى والاضطراب يسود صفوفها، وهكذا عجزا عن أخذ المدينة التي خرجا اليها، وخسرا ما كان تحت سيطرتهم.

هذه الانتصارات التي لا يمكن نكران عنصر الشجاعة والمهارة فيها، اسهم الحظ ومحاسن الصدف بدور رئيس فيها، إلا أنه يصعب جداً أن يعزى الحادث التالي الى شيء غير حسن الحظ ومحاباة الأقدار: فلنا أن الاحتياطي من جنود الكورنثيين ظلوا معسكرين في [ثوري]

(٢١) هناك رابع منها وهي: الجزيرة أو القلعة التي هي بين المينائين. الاخراديا وهي على مسافة قصيرة من الأولى. وتيخه وقد أطلق عليها هذا الاسم من هيكل الهة الخط ونيابوليس أو المدينة الجديدة [انظر ليثي ٢٤:٢٥ وقارن بديودورس ٧:١٣] والى هذه المدن يضيف بعض الكتاب ومنهم پلوتارخ مدينة خامسة يسمونها إيبولي.

لايستطيعون الابحار الى صقلية خوفاً من بوارج القرطاجيين التي كانت لهم بالمرصاد بقيادة [هانو Hanno]، ومن غوائل البحر الذي اجتاحه النوء واهاجته العواصف أياماً عدة فبات من الخطر ركوبه. ولهذا قرروا الوصول الى مدينة [ريجسيوم] براً فأخترقوا بلاد [البروتيين] معتمدين على قوتهم وحذرهم وبلغوا هدفهم والبحر ما يزال هائجاً صحاباً. وفي تلك الاثناء توصل [هانو] الى فكرة خالها مجدية. لم يتوقع أن يغامر الكورنثيون في الابحار، ورأى من العبت الانتظار أكثر مما أنتظر، وكان يتوهم في نفسه أبرع ستراتيجي، وأمهر خبير في التمويه على العدو ونصب الفخاخ له. بناء على هذا أمر بحارته بضفر أكاليل الزهر على رؤوسهم، وتزيين السفن بالنورس الاغريقية والقرطاجنية، وألق متجهاً الى [سيراقوز] بمظاهر النصر هذه مستخدماً كل المجاذيف عند مروره تحت القلعة وبكثير من الهتاف والضجيج قاصداً بث الهلع في قلوب المحصورين والإيحاء لهم بأنه لم يجيء إلا بعد ان قضى على النجدة الكورنثية وهي في عرض البحر متجهة نحو صقلية. وفيما هو يواصل لعبته هذه امام سيراقوز، كانت النجدة الكورنثية في [ريجسيوم]، وامامها الساحل خالٍ من سفن العدو، والريح ساكنة والبحر هاديء كأنما حدث بمعجزة. فأسرعوا يركبون كل ما وقعوا عليه من زوارق صيد ومراكب خفيفة، وأقلعوا ليلبغوا ساحل صقلية بسلام وهدوء لا مثيل لهما. حتى انهم انزلوا خيولهم وأخذوا يقودونها من اعنتها سباحةً وزوارقهم متجهة الى الساحل.

نزلت الحملة كلها واستقبلها تيموليون، ويفضلها تمكن من أحتلال [مسينا Messina] فوراً، ومنها تقدم بنظام بديع نحو [سيراقوز] واضعاً اعظم ثقته في نجاحه الأخير، لا بما لديه من قوات. اذ لم يكن مجموع جيشه الكلي يزيد عن أربعة آلاف. ومع هذا فقد انتاب [ماغو] القلق والاضطراب عندما ابنيء بمقدم [تيموليون]. وزاد وضعه سوءاً وتعاضم خوفه بالحادثة التالية:

تحيط بسيراقوز مستنقعات مترامية^(٢٢)، تستمد ماءها العذب الكثير من الينابيع فضلاً عن البحيرات والأنهار التي تصب في البحر ويتكاثر في هذه المياه السمك الجري (الحنكليس) حتى لتعج بها، ويتقاطر الناس على صيدها. فكان الجنود المرتزقة الذين يستخدمهم الفریقان يقضون أوقات فراغهم في ممارسة هذه الرياضة معاً، فيجتمعون في كل فترة هدنة او وقف قتال ويتبادلون احاديث الود فيما بينهم، اذ كانوا كلهم من الأغرقي ليس بينهم عداً شخصي (على شجاعتهم وبلاتهم في الحرب). وفيما كانوا يوماً يصطادون أخذوا باسباب الحديث

(٢٢) هناك مستنق يدعي ليسميلا [ثوكيديدس ٧:٥٣] وآخر يعرف ب(سيراكو). ومن هذا الأخير أخذت المدينة اسمها. وهذان المستنقعان يجعلان هواء المدينة فاسداً وغير صحي بالمرة.

فأعلن هذا عن أعجابه بالبحر القريب، ولهج آخر بالثناء على ما يجده المرء من راحة ورفاهة في بنايات سيراكوز ومحلّاتها العامّة. فتدخل أحد الكورنثيين قائلاً:

- وانتم الذين جئتم من بلاد الأغرقي كافة^(٢٣). الا تشفقون على هذه المدينة الرائعة الجليلة، لتدعوها فريسة للربايرة، باذلين الجهود، لتثبيت قدم القرطاجنيين في بلادٍ قريبة جداً من بلادنا. وهم شرّ الخلق وأشدّهم وحشية، بينما كان جديراً بكم أن تجعلوا بين بلادنا وهؤلاء القرطاجنيين، سداً من الأقوام، أمنع وأقوى من هؤلاء الصقليين. إلى هذا الحدّ بلغت بكم قلة الفطنة لتعتقدوا بأن القرطاجنيين جاؤوا من «اعمدة هرقل» والمحيط الاطلنطي متحشمين كلّ هذه المخاطر لتثبيت ملك [هيسيتيس] فحسب؟ هذا الرجل الذي لو اقام وزناً للاعتبارات واتصف بما يليق بالقائد، لما تنكّر لأرومته وأسلافه وجاء باعداد بلاده في محلهم. في حين كان يستطيع التمتع بالمكانة والقيادة المناسبة برضى من تيموليون وبقية الكورنثيين.»

راح مرتزقة [ايكيتس] من الاغريق يرددون هذه الأقوال في معسكرهم مما زوّد [ماغو] بأسباب للشك في وجود مؤامرة تحاك ضده، فتمسك بها وتعلّل. واتخذها حجة للرحيل الذي كان قد اعتزمه منذ أمدٍ. ولم يعر اذا صاغية لتوسلات [هيسيتيس] والحاحه عليه بالبقاء لإظهار مدى تفوقهما على العدو. على أن [ماغو] كان يدرك انهما أدنى من تيموليون بكثير لأن البسالة والحظّ الى جانبه ولا قيمة لتفوقهما العددي ازاء هذين العاملين. فأسرع يركب سفنه ويقلعه بها الى افريقيا وترك صقلية تفلت من يده بصورة لا تشرفه. ولدوافع موهومة صورتها مخيلته يعيا العقل السويّ عن تبرير اتخاذها سبباً وجيهاً للرحيل.

وبعد إقلاعه بيوم واحد تقدم [تيموليون] نحو المدينة بنسق المعركة. ولما سمع هو واركبان حربه بالفرار الفجائي وشاهدوا ارضفة الميناء خالية تماماً لم يمسكوا أنفسهم عن الضحك والتندر والتنديد بجن [ماغو] وعلى سبيل السخرية والمزاح اذاعوا في المدينة بياناً يعلن عن استعدادهم لدفع مكافأة لكلّ من يستطيع ان يأتيهم نبأ مغادرة الاسطول القرطاجنيّ ديارهم! على أن [هيسيتيس] قرر خوض المعركة وحيداً، وعدم ارجاء قبضته عن المدينة بل الصمود في المناطق التي يسيطر عليها والثبات في المواضع الجيدة التحصين الصعبة الاقتحام. وقسم تيموليون قواته الى ثلاثة جحافل. وحمل بنفسه على الجبهة التي يجرى فيها نهر [اناباس Anapas] وهي جبهة منيعة صعبة التحمق وأمر الجحفل الذي يقوده الضابط الكورنثي [ايسياس Isias] بالهجوم من موقع [اكرادينا] في حين يحاول [دينارخوس Dinarchus]

(٢٣) المرتزقة الاغريق في جيش هذا الأخير.

[ديماريتوس] اللذان جاءا بالنجدات من كورنث، الاستيلاء على منطقة [ايبولي Epipol-ae] بالجحفل الثالث وحمل الجيش كله حملة شديدة في وقت واحد من جميع الجبهات، فانهارت مقاومة [هيسيتيس] وفر جنوده. وعلينا هنا أن نعزو أخذ المدينة عنوة وسقوطها السريع بعد اندحار العدو - إلى بسالة المهاجمين وحكمة قائدهم دون جدال. ولكن الأمر الذي لا يجعلنا ننكر دور حظّ تيموليون هو أن الكورنثيين لم يخسروا رجلاً واحداً أقتيلاً كان أم جريحاً حتى لكأن ثم مباراة وتحدياً بين حظّه وعمل حظّه اعني وجود نوع من المنافسة في مجالات أعماله نفسه بحيث جعل الحظ هدفه أن يتفوق ويطمس على كل ما يُقدم عليه من أعمالٍ وينبغي لمن يسمع الثناء عليه لمآثره الجليلة أن يعجب بمحاباة الحظّ لها أكثر مما يعجب بالجهد الشخصي فيها. وتعدت انباء نجاحه صقلية وملأت ايطاليا دهشةً. حتى بلاد الاغريق فقد أتهزت من اقصاها الى ادناها حبوراً وفخراً بجلائل أعماله بعد بضعة ايام فقط من وقوعها، حتى ان الكورنثيين الذين لم يعرفوا بنزول نجاتهم في الجزيرة، واذ بانباة نزولها وانتصارها ترددهم في آن واحدٍ بهذا السبيل المفلح كانت عجلة الأمور تدرج، وبهذه السرعة والنشاط كان الحظّ يطلق سناد الكفاءة الطبيعية، كمفخرة جديدة من مخافرها.

بعد أن سيطر [تيموليون] على القلعة، تجنّب الخطأ الذي وقع فيه [ديون] قبله. فلم يضنّ على البلد بشيء في سبيل فخامة ابنتها وجمالها. ولكي يجتنب مظنة السوء التي أدت أولاً الى بغض [ديون] وسببت أخيراً في سقوطه، أمر أن يدور المنادي مُعلنًا لأهالي سيراكوز بأن كلّ من يرغب في المساهمة بالعمل، فعليه أن يأتي ومعه فأس ومجرفة وغيرها من الأدوات ليعاون في هدم التحصينات التي اقامها الطغاة. فتقدموا للعمل جميعاً كرجل واحدٍ معتبرين الإعلان واليوم الذي أذيع فيه، أقوى دعامة لحرياتهم، وانقضوا على القلعة فهدموها، وقوضوا القصور والأنصاب التذكارية وكلّ ما يمت الى ذكرى الطغاة السالفين، ونقضوها حجراً على حجر، وبعد أن سوّى ارضها بنى فوقها دوراً للقضاء لتوزيع العدل بين الأهالي وبنى أيضاً دوائر للحكومة الجمهورية التي أقامها على انقاض الحكم المستبد.

وكانت المدينة عندما دخلها خالية من السكان تقريباً. بعضهم قضى نحبه بسبب الحروب الأهلية والفتن والثورات، وآخرون هربوا من الطغيان. وبلغت قلة السكان فيها حدّاً أن ساحة السوق العامة في سيراكوز وكانت تمتاز بسعتها تكاثر فيها العشب ونما وغطّاه فأصبحت مرعى للخيل يتطرح سائسوها على العُشب بينما هي ترعى الكلا. كذلك هجرت مدن أخرى تماماً باستثناء القليل. فصارت مرتعاً وماؤى للخنازير البرية والإيائل، فكان المتعطلون يرتادونها للصيد فيجدون فرائسهم في مشارفها وبالقرب من أسوارها. وتعذر أقناع من لا ذ

بالريف أو التجأ إلى القلاع، بترك مستقره أو قبول دعوة للعودة إلى المدينة، فقد بلغت كراحتهم من مجرد اسم المجامع، والاجتماعات وأنواع الحكومات والخطب العامة حدًا عظيمًا لأنها هي التي انجبت معظم المستبدين الذين تعاقبوا على حكمهم واضطهادهم. وفكر تيموليون مع السيراكوزيين في المعضلة، وتأمل الخراب الشامل، وضعف الأمل في محاولة الاقتاع التي ارتأها. ثم فضل الكتابة إلى بلاده، بطلب إرسال جالية أغريقية لتأهيل سيراكوز. والأبقيت أراضيها المتاخمة بوراً. كذلك ذكر أنه يتوقع حرباً أعظم من سابقتها مصدرها إفريقيا لأن الأنبياء التي وصلته تشير إلى أن [ماغوا] بخر نفسه وأن القرطاجنيين الساخطين على تصرفه في الحملة الأخيرة، أمروا أن تُسَمَّر جثته على صليب، وهم الآن عاكفون على تهيئة قوات جبارة للهجوم على صقلية في الصيف القادم.

وصلت رسائل تيموليون إلى كورنث. وفي الوقت نفسه عرض وفد سيراكوز رجاء أهلها إليها بأن يولوا مدينتهم البائسة رعايتهم وأن يصيروا مرة أخرى مؤسسين لها. ولم يغر الكورنثيين الطمع بفائدة من هذه العروض، ولا كانوا يريدون الاستيلاء على المدينة واستغلالها. لذلك قصدوا بالاول دورة الألعاب التي كان الاغريق يضعونها في منزلة القداسة ثم إلى مختلف الاجتماعات الدينية المعقودة وأطلقوا المنادين يعلنون قائلين: إن الكورنثيين الذين قضاوا إلى الاستبداد في سيراكوز وطردها الطاغية، يدعون بهذا كل المبعدين والمنفيين السيراكوزيين وأيا من الصقليين إلى العودة لسكنى المدينة، مع تمتعهم الكامل بالحرية بموجب قوانينهم الخاصة. وأن الأراضي ستوزع عليهم بانصبة عادلة متساوية. ثم انهم ارسلوا مبعوثين إلى آسيا وعدة جزر يسكنها كثير من اللاجئين المتفرقين، وطلبوا منهم السفر إلى كورنث، وهناك سيزودون بسفن وربانة وقافلة حراسة لتأخذهم إلى سيراكوز على نفقة الكورنثيين. وكان من أثر هذه العروض الكريمة التي انتشرت انبائها وشاعت، أن أرتفعت مكانة الكورنثيين ونالوا الكثير من الثناء والمديح تعويضاً لسخائهم وشهامتهم وانقاذهم تلك البلاد من جور الظالمين، وتخليصها من يد البرابرة، واعادتها بالاخير إلى أصحابها أهل الحق من السكان. فأجتمع هؤلاء في كورنث، ولما وجدوا عددهم قليلاً طلبوا من الكورنثيين أن يزودهم بعدد آخر منهم ومن سائر بلاد الأغرريق لينضموا اليهم كنازحين مشاركين. فأرتفع عددهم إلى عشرة آلاف واجر الجميع إلى [سيراكوز]، وفي غضون هذه الفترة تقاطر على تيموليون من ايطاليا وصقلية حشود عظيمة بلغ رجالها على قول (اثانيس Athanis) ستين ألفاً. فقسم بينهم الأراضي كلها. وباع المنازل بألف تالنت. وبهذه الطريقة مكّن السيراكوزيين الأصليين من استعادة بيوتهم، كما توسّل بها إلى جمع المال للمصلحة العامة، واملاء الخزانة التي خلت تماماً

وعجزت عن سدّ أي نفقات، لاسيما مصاريف الحرب، حتى أنهم لجأوا إلى عرض تماثيلهم للبيع. واتبعت في هذا طريقة نظامية. وكان يرسو قرار الزيادة على أي منها بأغلبية الاصوات. كأنما تجري مرافعة لعدد كبير من المجرمين. وقيل أن تمثال المستبد القديم [جيلو Gelo] قد استثنى اثناء النطق باللعان على التماثيل الأخرى تكريماً له وأعجاباً به، وبسبب الانتصار^(٢٤) الذي حازه على القوات القرطاجنية في نهر [هيميرا Himera].

وهكذا تمّ بعث الحياة السعيدة في [سيراكوز] وأكتظت بالسكان لنزوح الناس إليها من كل الأمصار. ورغب [تيموليون] بعدئذ في تحرير مدن أخرى من عبودية ماثلة، والقضاء قضاءً مبرماً على الحكم المستبد وازالته من صقلية. فزحف على البلاد التي كانت ترزح تحته، وأرغم [هيسيتيس] أولاً على التخلي عن مصالح القرطاجنيين وهدم القلاع التي كان يسيطر عليها واعتزل الحكم ليعيش بين [الليونتينين] فرداً عادياً. وحذا حذوه [لپتينس] طاغية [ابولونيا Apollinia] وكثير من المدن الصغيرة الأخرى، بعد ابدائه بعض المقاومة، ورؤيته الخطر الذي يكمن في هزيمة عسكرية، فاستسلم. فأبقى [تيموليون] عليه وارسله إلى كورنث، معتبراً قيام المدينة الأم بعرض هؤلاء الطغاة الصقليين على الأغرريق في المنفى وبحالة بائسة، من قبيل الأعمال المجيدة ومن دواعي الفخر. وبعد هذا عاد إلى سيراكوز حتى يتفرغ إلى سنّ دستورٍ جديد^(٢٥)، وليساعد [كيفالوس Cephalus] و[ديونيسيوس] اللذين بعثت بهما كورنث لوضع القوانين، في تشييت أهم موادّه واحكامه. ورغب في الوقت نفسه أن لا يبقى جنوده المأجورون عاطلين، وإن يغنموا لأنفسهم شيئاً من العدو بالأخرى، فبعث بقسم منهم تحت قيادة [دينارخوس] و[ديماريتوس] إلى ناحية من الجزيرة ما زالت تحت السيطرة القرطاجنيين. فاستنفروا عدة مدن للثورة على البرابرة. وغنموا ما أمّن لهم الحياة الباذخة فضلاً عن توفيرهم من اسلابهم ما يكفي لمواصله الحرب. في تلك الاثناء نزل القرطاجنيون في ساحل [ليليبيوم Lilybaeum] الصخري بجيش قوامه سبعون ألفاً نقلتهم مائتا سفينة ضخمة، فضلاً عن ألف سفينة أخرى موسقة بآلات الحصار والثغر، والعجلات الحربية، والقمح وغير ذلك من المهمات الحربية. وكل هذا يدل على ان نيتهم شنّ حربٍ طاحنة هدفها طرد الاغريق كافةً وبصورة نهائية من صقلية لا حرباً متقطعة متدرجة كالسابق.

(٢٤) هُزم هملقار الذين انزل قواته في صقلية وكانت تبلغ ثلاثمائة ألف مقاتل في السنة الثانية من الولىباد الخامس والسبعين [ديودوروس].

(٢٥) من الأنظمة الحكيمة التي قررها انتخاب رئيس قضاة كل سنة يطلق عليه أهالي سيراكوز لقب «امفيبولس جويتير اوليبوس» وبهذا أضفي عليه شخصية مقدسة وكان أول من تولى المنصب (كومينس) ومنها جاءت عادة السيراكوزيين في حساب سنينهم بحكم هؤلاء القضاة.

كانت في الواقع قوة كافية للتغلب على الصقليين حتى ولو كانوا قلباً واحداً متحدين فيما بينهم لم تضعفهم النزاعات الحادة. ويسماع القرطاجنيين ما حلّ من دمار بمستعمرتهم، زحفوا على الكورنثيين ونار الغيظ تآكل افئدتهم، بقيادة الجنرالين [هسدروبيل Asdrubal] و[هميلقار Hamilcar].

ووصلت الانباء عن عدوهم وقوتهم الى سيراكوز فجأة، فذبّ الفرع في الاهلين حتى انه لم ينضم للجيش من عشرات الألوف فيها غير ثلاثة آلاف أو أقل. أمّا الجنود الاجانب الذين يتقاضون أجراً فكان عددهم اربعة آلاف فقط، دبّ الهلع في قلوب ألف منهم فتحلوا عن [تيموليون] وهو في مسيرته الى العدو وتركوا صفوف الجيش، فبدأ عليه الاهتياج والذهول وذهبت المفاجأة بلبّه وشتتت خاطره وهو أمر لم يكن منتظراً منه في هذه الساعة الحرجة من حياته أن يحاول الاشتباك بجيش قوامه سبعون ألفاً، وليس معه غير خمسة آلاف من الرجالة والفر من الخيالة في حين كان المنطق يقضي بابقاء هذه القوات من للدفاع عن المدينة، إختار ان يحركها من [سيراكوز] ويكبدها مسيرة أيام ثمانية. فإن هُزموا في ميدان القتال فلا موضع يتقهقرون اليه ولا قبور تضم رفاتهم أن سقطوا قتلى في المعركة. على ان [تيموليون] وجد في كشف الجبناء عن أنفسهم قبل المعركة فألاً حسناً وحدثاً لا يخلو من فائدة. وانصرف الى تقوية معنوية الباقين وتشجيعهم. وأسرع بهم الى نهر [كريميسوس Crimesus] (٢٦) حيث بلغه ان القرطاجنيين قد حشدوا قواتهم.

وفيما كانت قواته تتوقل مرتفعاً لتستطلع من قمته جيش العدو وقواه المحشودة إذ بها تلتقي بقطارٍ من البغال المحملة بأعشاب البقدونس. فعده الجنود فأل سوءٍ وطالع نحس، فهذا النبات كثيراً ما تزين به اضرحة الموتى. وهناك مثل سائر مشتق من هذه العادة فيقال عن المريض مرضاً عضالاً، انه ليس بحاجة الى شيء غير البقدونس. ولأجل ان يهديء تيموليون من روعهم ويطمئن خواطرهم ويحرر اذهانهم من كل الخرافات ونذر الشر؛ توقف وارتجل خطبة مناسبة للحال قال فيها «ان الحظ اسعدهم الآن بأكاليل النصر التي جاءتهم منقاداً من تلقاء نفسها ووقعت في ايديهم كبشير من بشائر الظفر: فهذا النبات يتوجّ به الكورنثيون ابطالهم الفائزين في الالعاب الاستيمية. مُعتبرين البقدونس في ذلك العصر شعار الفوز في الالعاب الاستيمية كما هو الآن شعار الرياضة [النيمية Nemean] ولم يبدأ استعمال أغصان الصنوبر بديلاً عنه إلا في زمن ليس ببعيد جداً عن عصرنا هذا.

وختم تيموليون كلمته بتناول مقدار من البقدونس وعمل إكليلا منه لنفسه وحذا حذوه

(٢٦) نهير في صقلية يشير اسمه الى عشب البقدونس الذي ينمو على ضفافه بكثرة.

ضباط جيشه وسائر قطعاته. وفي تلك الاثناء لاحظ العرافون عقابين يطيران نحوهم. أحدهما مُنشب مخالبه في أفعى. والآخر يطلق وهو طائر صيحة عالية تدل على الجرأة والتحدي. فوجهوا اليهما انظار الجنود الذين جثوا كافةً وتوجهوا الى الآلهة بالصلاة ودعوها الى شدّ ازهرهم كان الوقت أوّل الصيف، ونهاية الشهر المسمى [تارجيليون] غير البعيد كثيراً عن الانقلاب الفصلي: Solstic. وكان النهر يُصعدّ ضباباً كثيفاً ينتشر فيسدل على السهل كلّه ستاراً من الظلام. لذلك تعذر عليهم لفترة من الزمن ان يستوضحوا شيئاً من معسكر العدو. خلا اللغظ والمزيج غير الواضح من الأصوات التي تتناهى الى المرتفع، مما ينشأ عادة من حركات بعيدة وضجيج جموع غفيرة. بعد أن اتمّ الكورنثيون صعود المرتفع وبلغوا القمة، والقوا بتروسهم جانباً ليصيبوا شيئاً من الراحة، أرتفعت الشمس في كبد السماء وأصعدت معها الانجرة من الاسفل وتجمّع الهواء المثقل بالضباب وتكاثف عالياً وكونّ سحباً فوق الجبال وانقشع الضباب عن الأراضي الواطئة فأضت الرؤية واضحة، وبدأ نهر [كريميسوس] لهم ثانية والاعداء يعبرونه أولاً بعجلاتهم الحربية الضخمة التي تجر واحدتها اربعة خيول، وتلاها عشرة آلاف مقاتل راجل يحملون اتراساً بيضاً وتدل نفاسة أسلحتهم وبطء مشيتهم وأسلوب خطوهم أنهم قرطاجنيون. ثم جاءت في أعقابهم حشود متدافعة من مختلف الأقوام تتسابق على العبور متزاحمة دون نظام وادرك تيموليون أن النهر يتيح لهم فرصة في الانفراد بقتال اي عدد من الاعداء يقررون الاشتباك معه الاشتباك معه فوراً ووجه انتباه جنوده الى انقسام قواتهم الى قسمين منفصلين بمجرد النهر فبعضهم اتمّ العبور في حين كان يهيم الآخرون بعبوره. واعطى اشارة [لديماريتوس] ليهجم بخيالاته على القرطاجنيين حتى يوقع الخلل في صفوفهم قبل ان يلمّوا شعثهم وينتظموا في نسق المعركة. ثم انحدر بنفسه الى السهل واضعاً السيراكوزيين في القلب مع أقوى وأصلب الجنود المرتزقة يحيطون بشخصه ثم أنتظر قليلاً ليرى ما يحققه هجوم خيالاته. وتبين له أن العجلات الحربية التي كانت تجرى ذاهبة آيبة امام الجيش، لم يقتصر عملها هذا على منع الخيالة من الالتحام بالقرطاجنيين، بل كانت ترغمهم على الدوران لئلا تخترق صفوفهم وتزقها، ثم يعودون فيصلون مجدداً. فما كان منه إلا أن قبض على ترسه وصاح بالمشاة أن يتبعوه بثقة وشجاعة وبدا وكأنه يكلمهم بلهجة لا بشرية، وبصوت أقوى من الاصوات الاعتيادية. والأمر سواء أكان صوته قد ارتفع تلقائياً بالحماسة والحمية اللتين ابتعثهما تصميمه على قتال العدو، أو أن ربّاً من الأرباب كل تحت لسانه - كما خيل لكثيرين، فإن جنوده رودوا صدى صيحته وطلبوا أن يدفع بهم الى قلب المعركة فوراً فأعطى الخيالة اشارة الانسحاب من الجبهة الأمامية حيث توجد العجلات وكرّ على الأعداء

من الزاوية ليكون الهجوم من المجنبية. وثبت قدمه جيشه الأمامية برص الرجال ووضع الترس لصق الترس. وأمر بأن ينفخ في النفير وهجم.

تلقي القرطاجيون الهجمة الأولى وثبتوا لها. فان جسامهم كانت مغطاة بالزرد الحديدية ورؤوسهم محمية بالخوذ النحاسية، فضلاً عن تروسهم الكبيرة التي كانت ترد عنهم طعنات الرماح اليونانية. لكن لما احتكم الجمعان الى السيوف، والتفوق فيها يعتمد على البراعة لا القوة وحدها. ولما سمع هزم رعدو قاصفة مصدرها قمم الجبال، تخللتها ومضات بروق تخطف الأبصار، وأعقبها حلول ظلام داجن حام برهة فوق المرتفعات وذرى الجبال ثم هبط لنشر جناحيه على ميدان القتال حاملاً معه عاصفة مطر وريح ويرد. اندفعت هذه العاصفة الى الاغريق ومست ظهورهم مساً ثم مضت واناخت بكلكلها على وجوه البرابرة. وانشال المطر عليها وبهر البرق الاعين، فصعب الأمر على القرطاجيين وأسقط في يدهم، شأنهم في هذا شأن كل مستجد في هذه العوارض لأنهم لم يتعودوها، لاسيما هزيم الرعد ودوي زخات المطر، والضجة التي تنشأ عن اصطدام البرد بالأسلحة والدروع المعدنية مما حال دون سماعهم أوامر ضباطهم والى جانب هذا كان الطين من أصعب العوائق للقرطاجيين. لأن تجهيزاتهم لم تكن بالخفيفة، فقد أرهقوا أنفسهم كما ذكرت بالدروع الثقيلة. ثم أن قمصانهم الداخلية أشبعت بالماء، كما امتلأت به ثيابات صدرهم فأثقلتهم وأعاقت حركتهم في القتال، وسهلت على الأغرريق أن يطرحوهم ارضاً فلا تقوم لهم قائمة اذ يتعذر عليهم القيام وأسلحتهم بأيديهم من فرط ثقل الحديد. وارتفعت مياه [كريميسوس] أيضاً بفعل الأمطار، والحاجز الذي اعترض مجراه من أعداد العابرين الوفيرة. فطغى على الضفاف وانساح في السهول المجاورة التي تشقها الأخاديد والسواقي النازلة من سفوح المرتفعات، وملئت ماءً فأضت مجاري ونهيرات لا مسالك معينة لها، فتعثر فيها القرطاجيون وتاهوا في شبكتها ووجدوا أنفسهم في أخطر مأزق. ويمختصر القول العاصفة تصب عليهم جام غضبها والأغرريق أموا اباداة اربعمائة مقاتل من خطوطهم المتقدمة. وانكفأ الجيش على الأعقاب وراح ينهزم، فلحق المنتصرون باعداد كبيرة منه واعملوا فيها حدّ السيّف أما البقية فقد أجهت الى النهر وأخذت تعبر الى الضفة الأخرى فأصطدم جنودها بالوحدات القادمة من وسط النهر فجرفهم التيار وأغررقهم. ولكن القسم الكبير منهم حاولوا الصعود الى المرتفعات والإحتماء بها. فأدركتهم وحدات العدو الخفيفة وقضت عليهم. وقيل أن ثلاثة آلاف^(٢٧) من بين عشرة آلاف قتيل كانوا من المواطنين القرطاجيين، خسارة فادحة ونكبة عظيمة لقومهم! فهؤلاء القتلى كانوا من خيرة مواطنيهم

(٢٧) يقول [ديودوروس ١٥: ٨] ان عدد القتلى بلغ الفين وخمسمائة.

حسباً وثروة وجاهاً. ولم يسجل تاريخهم قطّ مثل هذا العدد من القتلى القرطاجيين في اي معركة لهم قبل هذه لأنهم عادةً يستخدمون الأفارقة والاسبان والنوميديين في حروبهم، فاذا هزموا فإن العُرم والأذى يقع على عاتق الأقوام الأخرى.

واتضح للاغريق حالاً مكانة القتلى وحالتهم الاجتماعية من نفاسة الغنائم لأنهم عندما بدأوا بجمعها - لم يأبهوا لا بالحديد ولا بالنحاس، فالمعادن الأكثر نفاسةً كانت كثيرة، وكانت رؤية الفضة والذهب أمراً اعتيادياً. وأمّا عن الأسرى فقد سُرق الجنود عدداً كبيراً منهم وبيع خلسةً، ومع هذا فقد جيء بحوالي خمسة آلاف وسلّموا للمسؤولين للمنفعة العامة. وأغتنم مائتا عربة حربية أيضاً. وبدت خيمة [تيموليون] بأفخم وازهى منظر فقد ملئت بشتى أنواع الأسلاب وعلقت في جوانبها مختلف التذكارات الحربية والزينات منها ألف درع صدي ذي صنعة دقيقة وجمالٍ أخاذ، وتروس يبلغ عددها عشرة آلاف. ولم يكف عدد المنتصرين لعملية تجريد القتلى من سلاحهم. ولنفاسة الغنائم وكثيرتها تأخرت اقامة النصب التذكاري للمعركة، ثلاثة ايام. ويعث [تيموليون] ببناء انتصاره الى كورنث مع أفضل وابدع الأسلحة المغتنمة، شاهداً واثباتاً. ورفع اسم بلاده عالياً في ارجاء الدنيا. ولهج الناس بالثناء عليها اذ يروا معابدها وحدها دون سائر المدن اليونانية الأخرى. مزدانة مكتظة بما انتزع من البرابرة أعداء الشعب الأغرريقي عنوةً واقتداراً لا بغنائم وتقدمات سلبوها من بني الأغرريق الآخرين. نتيجة سفك دماء اخوانهم والاعتزاز عندما يرون امثال هذه الأقوال مكتوبة عليها: لقد انتشل الكورنثيون وقائدهم تيموليون أغريق صقليه من عبودية القرطاجيين، ولهذا فانهم يقدمون الى الأرباب هذه القرابين اعترافاً بجميل فضلهم وامتناناً منهم وهي عبارات تنم عن عدالة الفاتحين فضلاً عن شجاعتهم.

بعد أن أكمل تيموليون عمله هذا، أبقى الجنود المرتزقة في اراضي العدو لمصادرة وحمل كل ما يجدونه في المناطق الخاضعة لقرطاجنة وساق بقية الجيش عائداً الى [سيراكوزا] وأصدر ساعة وصوله أمراً بنفي الجنود المرتزقة الألف الذين تخللوا عنه بدناءة، وانفصلوا عن جيشه قبيل المعركة. وأرغمهم على مغادرة المدينة قبل مغيب الشمس. فابحروا الى ايطاليا وهناك ابادهم [البروتيون] الى آخر نفر رغم عهد الأمان الذي قطعوه لهم. وهكذا لا قوا جزاءهم العادل من القسوى الالهية على خستهم وغدرهم. على أن [ماميرقوس] ومن بعده [هيسيتيس] جددا حلفهما مع القرطاجيين ربما بدافع الغيظ من انتصارات تيموليون، أو لتأكدهما بأنه ممن لا يمكن التفاهم معه ولا المهادنة وان لا وجه للقاء بينه وبين الطغاة. وأشدت الحاحهما على حليفتهما بارسال جيش وقائدٍ جديدين الى صقلية. إلا اذا قاموا بخسارة كل

هذه التروس^(٣٠) المزدانة بالذهب والأرجوان والعاج

أما غنماناً من حرينا مع أناس فقراء!

ثم عندما زحف تيموليون الى كالاوريا [Calauria]، بادر [ايكيتس] بالاغارة على تخوم سيراكوز فضم مقداراً كبيراً من الأسلاب وعات فيها فساداً وأحدث كثيراً من التخريب ثم قفل عائداً الى [كالاوريا] مستخفاً بتيموليون وقوته الضعيفة التي كانت معه اذ ذلك. فلم يعترضه بل تركه يتقدمه مسافةً، ثم لحق به بفرسانه مشاته الخفيفة، ولما أدرك [هيسيتيس] ان العدو يتابعه بادر الى عبور نهر [داميرياس Damyras]^(٣١) وتوقف وصفاً جنود للقائه وكانت مواضعه جيدةً منيعة اشاعت في نفسه الثقة فقد أفاد من وعورة الممر وارتفاع الضفتين وشدة انحدارهما. وفي تلك الاثناء وقعت مشادة غريبة بين الضباط على اسبقية الهجوم، اذ لم يكن واحد منهم يرغب أن يكون زميله سباقاً عليه والجميع يدعون بحق التقدم على سائرهم في القتال. وكان من المحتمل جداً أن يغدو عبورهم النهر فوضى تامة ويختل حبل النظام بتكاليهم وتزاحمهم. لذلك قرر تيموليون تسوية الأمر بالقرعة وأخذ من كل مطالب بالحق خاتماً وجمعها في ذيل عباءته وهزها، وشاء القدر أن يكون أول خاتم أخرجه ذا نقش يمثل نصباً تذكاريماً لانتصار على شكل ختم. فهتف الضباط فرحاً ولم ينتظروا حكم الخط في البقية وإنما مضى كل منهم لطيطته وعبروا النهر بأسرع ما يمكن وحملوا حملة واحدة على العدو الذي لم يحتمل عنف الهجوم وأطلق السيقان للريح تاركاً سلاحه مع ألف قتيل في ميدان القتال.

واستعجل تيموليون الزمن، فزحف على مدينة [الليونتينيين] وأخذ هيسيتيس وابنه [يوليموس Eupolemus] وقائد خيالاته [يوثيموس] أحياء. اذ ان جنودهم انفسهم قدموهم الى تيموليون مقيدتين بالحبال. وقتل [هيسيتيس] وابنه لكونهما من الطغاة والخونة، ولم يجد [يوثيموس] رحمة ولا غفراناً ولم تشفع له شجاعته الذائعة الصيت. لأنه متهماً بسب الكورنثيين وإهانتهم عند أول نزول لهم في صقلية. فقد أثر عنه انه قال لأهالي [ليونتينيين] في خطاب له حول نزول القوات الكورنثية: إن الأنبياء ليست مخيفة. ولا خطر يحسب حسابه من جراء: «خروج نساء الكورنثيات من منازلهن!»

حقاً إن التعريض المهين والكلام البذيء الفاضح أشدّ وخزاً وأبعث على الحقد في نفوس الرجال من اعتداء اليد واعمال السوء أن الناس لا يعبرون على الإهانة بقدر ما يعبرون على الجراح. والضرر والأذى الفعلي الذي يوقعه الخصم قد يمكن اغتفاره ففي حالة الحرب لا يتوقع

(٣٠) وهي التروس التي أخذت من معبد دلفي.

(٣١) أو «لاميرياس» فالفرق بين نطق A الاغريقية و A اللاتينية خفيف جداً.

شيء. أو في حالة تخليهم نهائياً عن الجزيرة. فبعثوا بالقائد [غيسكو Gisco] على رأس عمارة بحرية قوامها سبعون بارجة. تحمل عدداً كبيراً من جنود الأغرقي المرتزقة. وكان هذا اول تطوع لهم في خدمة القرطاجيين. والظاهر أن مستأجرهم كانوا معجبين بهم يعلقون آمالاً جساماً على بأسهم وشدة مراسهم. وتمّ توحيد قوات الحلف في [مسينا]. وفي تلك المناطق تمكنوا من الفتك باربعمائة من مرتزقة تيموليون. ونصبوا كميناً أيضاً لجميع المرتزقة الآخرين الذين كانوا بقيادة [يوثيموس Euthymus] [الليوقادي Leucadian] في موضع من المستعمرة القرطاجية يقال له [هيراي Hierae]^(٢٨) وافنؤهم. كانت هذه الحادثة أقوى دليل على رعاية الحظ لتيموليون فهؤلاء القتلَى وكانوا من جماعة [فيلومليس Philomelus] وفوكيس Phocis وانومارخوس Onomarchus] الذين أقتحموا معبد ابوللو في دلفي وشاركوهم في الكفر والتجديف^(٢٩). فجفاهم الكلّ ونبذوهم كما ينبذ الملاعين فأضطروا الى التجوال في أرجاء الپلويونيسوس بلا هدف أو عمل حتى ضمهم تيموليون الى حملة صقلية بسبب حاجته الى الجنود وحالفهم النجاح في كل المعارك التي خاضوها تحت أمرته. حتى زالت الأخطار الجسيمة. فاذا بأجالهم تحين عند ارساله اياهم لإسناد قطعته الأخرى، فيهلكوا جميعاً وتذهب ريحهم بعيداً عن تيموليون، بجماعات وشرادم صغيرة هنا وهناك، وبهذا تحقق الانتقام الالهي الذي كتب عليهم وكان خادماً طبعاً للحظ الذي ما برح يحرس تيموليون مانعاً كل أذى واحجاف عن أخيار الرجال اثر عقاب ينزل بالأشرار، إن حرص الآلهة على رعاية البركات والنعم التي أدخرتها لتيموليون كان عظيماً في حالتي النجاح والفشل والسعد والنكد.

كان التحقير والاهانات التي عاناها السيراكوزيون من الطغاة، أشدّ وقعاً عليهم من كل الاضطهادات الأخرى. خذ مثلاً [ماميرقوس]، كان هذا الطاغية الكثير الزهو بنفسه والاعتداد بموهبته في نظم الشعر والتراجيديا انتهز فرصة تقديمه للآلهة تروس الجنود المرتزقة الذين فتك بهم، ليفخر بانتصاره في هذين البيتين البديين:

(٢٨) ليس ثم موضع في صقلية بهذا الاسم. وربما كان المقصود (هيتي) وهي قلعة ذكرها الكتاب الاقدمون.

(٢٩) بدأت في السنة الأولى من الاولپياد المائة والثمانية. وكانت اسباب نشوبها كما يلي: فرض أهالي امفكيتون على أهالي فوكيس غرامة ثقيلة بسبب اجتياحهم ونهبهم أراضي [كيرا الموقوفة على ابوللو]. فعجز هؤلاء عن دفعها فصودرت اراضيهم كلها وأوقفت على ابوللو. فجمع [فيلونيلوس] الأهالي وحرصهم على نهب كنوز معبد دلفي واستخدامها لاستتجار جنود للدفاع عن انفسهم. وقد جرّ هذا الى حرب السنوات الست. هلك خلالها معظم من حلّت عليه لعنة ابوللو حسب تعبير ديودورس ١٦:١٥ و ٢٧ و ٦٠. فقد هوى فيلوميلوس من منحدر فهلك. واتومارخوس الذي خلفه في القيادة قتله جنوده وعلقوه على صليب. واخوه فايالوس مات باكلة داء الصدر. ولم تخلص نسوتهم من اللعنة لأنهن لبسن الحلى التي نهبت من المعبد.

أقلّ من هذا. في حين ان قارص الكلام وفاحشه قد يبدو مظهر كره وحقد لا ضرورة له، نابغ عن الافراط في الحقد والتماذي في الاضطغان.

لما عاد تيموليون الى سيراقوز دفع المواطنين بزوجات هيسيتيس وبناته وابنه الى المحاكمة الشعبية وحكموا على الجميع بالموت. ويبدو أن هذا العمل كان أقل أعمال تيموليون تشريعاً في حياته فلو انه تدخل، لحفظ حياة هؤلاء النسوة التاعسات. وظاهر الحال يؤيد انه لم يقيم للأمر وزناً وسلمهم للجماهير التي كانت متحرقة لأخذ ثار [ديون] الذي طرد ديونيسوس، فان [هيسيتيس] قبض على زوجه [أريته Arete] وأخته [اريستوماخه Aristomache] وابنه الذي لم يتعد دور الحداثه والقاهم في البيم وهم أحياء، كما فصلنا ذلك في سيرة [ديون]. ثم توجه الى [كتانا] لقتال [ما ميريوس] والتحم معه في معركة قرب نهر [ابولوس Abolus] (٣٢) وهزمه فهرب من وجهه بعد أن خلف أكثر من ألفي قتيل منهم عدد كبير من الفينيقيين الذين أرسلهم [غيسكو] نجدةً له، وعلى أثر ذلك طلب القرطاجيون عقد الصلح فأجيب طلبهم واتفق الجانبان على الشروط التالية: أن يكون نفوذ القرطاجيين قاصراً على الحدود التي يرسمها مجرى نهر [ليكوس Lycus] (٣٣)، وان لا يمنع السكان الراغبون في النزوح الى اراضي سيراقوز من الرحيل مع ذويهم وأموالهم. وان تتعهد قرطاجنة بقطع كل ارتباط والغاء كل اتفاق لها مع الطغاة. ولم يجد [ماميرقوس] اليأس المنبوذ إلا أن يستقل سفينة للبحار الى ايطاليا، مستهدفاً حضراً [اللوكانيين Lucanians] على حرب تيموليون وسيراقوز. إلا أن بحارة السفينة عادوا بها من حيث أتت وسلموا مدينة [كتانا] الى تيموليون، فاضطر [ماميرقوس] الى الفرار خوفاً على حياته واللجوء الى [مسينا] حيث يحكم [هيو Hippo] الطاغية. فتقدم تيموليون والقى الحصار على المدينة من البر والبحر وخشي [هيو] سوء العاقبة وحاول الافلات خلسة من طوق العدو باحد السفن إلا أن أهالي [مسينا] فاجأوها قبل اقلعها وامسكوا بالطاغية، ثم جمعوا أولادهم من المدارس كافةً وجأوا بهم الى الملعب ليشاهدوا منظر انزال العقوبة بالطاغية المتجير. ضربه أولاً بالسياط، ثم قتلوه علناً. واستسلم [ماميرقوس] الى تيموليون بعد أن تعهد له هذا بأن تجري محاكمته في سيراقوز، وان لا يشارك تيموليون في الاتهام. فاقتيده الى المحاكمة بناء على ذلك ووقف ليحجب عن التهم امام الشعب المحتشد وياشر في القاء خطبة أعدها من قبل تتضمن الدفاع

(٣٢) بطليموس وآخرون يسمونه Alabus او Alabis او Alabon وهو قريب من [هيبله] بين [كاتاتا] و[سيراقوز].

(٣٣) ربما نقل پلوتارخ الاسم كما وجده عند [ديودورس ١٦: ٨٢] إلا ان المؤرخين الآخرين يطلقون عليه أليكوس أو هاليكوس. ولعل القرطاجيين أضافوا اليه «أل» أو «ها» التعريف الخاصة بلغتهم.

عن نفسه. فقوطع بالضجيج والهتاف العدائي. ولاحظ من سلوك العامة واشكالهم أن لا أمل فيهم فألقى عباءته جانباً وأسرع يعدو في أرجاء الملعب باقصى ما يطيق. ثم نطح صخرة في أسفل المقاعد قاصداً القضاء على حياته، إلا أنه لم يفلح واخطأ الموت الذي اراده، فقبض عليه واذيق ميتة اللصوص وقطاع الطرق.

بهذا قطع [تيموليون] أعصاب الطغيان ووضع حداً للحروب. كانت صقلية في أوّل نزوله تسبح في بحر من الفوضى، وكانت أمورها قد أختلت الى حدّ كره أهلها السكنى فيها ونزوحا عنها تخلصاً من الشرّ والبؤس. فما لبث تيموليون أن أصلح من شأنها. وأعاد اليها مظاهر الحضارة والمدنية وجعلها قبلة انظار الجميع، ومطمحهم، وتقاطر اليها الاجانب من شتى الامصار للسكنى في المدن والبلدان التي تركها أهلها قفراً يباباً. وأكتظت مدينتا [اكريگنتوم Agrigentum] و[غيليا Gela] الشهيرتان بالسكان ثانية وكان القرطاجيون قد خربوهما وهدموهما بعد الحروب الآتيكية. عمّر الأولى منهما [ميجيللوس Megellus] و[فيرستوس Phirestus] الايبائيان. وعمر الثانية [غرغس Gorgus] السبوسيّ. وأجتمع فيهما سكانهما الأصليون الذين أعيد جمعهم من شتى الانحاء، ونازحون جدد من الخارج. ولم تكن مهمة تيموليون قاصرة على تأمين العيش الآمن المستقرّ للجميع بعد هذه الحرب الضروس، وانما تعداه الى بذل المعونة ومديد المساعدة لهم. ولذلك لُقّب بمؤسس البلاد. وكان هذا الشعور يسود أهل صقلية كافةً. وأستولى عليهم اعتقاد وهو انه لا سبيل للسلم يسلك ولا اصلاح للقوانين ولا توزيع للأراضي الزراعية ولا اعادة لبناء اجهزة للحكم يتم بل ولا اي شيء حسن يتحقق إلا اذا كان تيموليون طرفاً فيه أو كان مهندسه الأول. ليقوم على انجازها واحكام صنعها. أو هندمته بلمسات دقيقة أخيرة من يده ليغدو جميلاً في عين الله والانسان.

ان بلاد اليونان أنجبت في ذلك العهد عدداً من عظماء الرجال وعباقرتهم. وأشتهروا كثيراً بجلاتل الأعمال من الامثال [تيموتيسوس Timotheus] و[أغيسيلوس Agesilaus] و[پيلوپيداس Pelopidas] و[پامنداس] (النموذج المحتذى الأول لتيموليون). إلا أن جلال خير أعمالهم تضاعل بالشدة والجهد العسير الذي بذل فيها (باستثناء الضرورة التي الجأتها الى قتل أخيه) إلا وينطبق عليه شعر [سوفوكليس] كما لاحظ طيماؤوس:

ايتها الآلهة! ماذا فعلت فينوس بل ماذا فعلت النعمة الالهية، باجتماعهما معاً في الأعمال البشرية!؟».

فكما يظهر الجهد والتعب والزخرفة في شعر انتيماخوس Antimachus (٣٤)، ورسوم

(٣٤) شاعر ملحمي. من كولوفون وهي مدينة أيونية. نبغ أيام سقراط وأفلاطون ونظم قصائد حملت اسم =

[ديونيسيوس]^(٣٥) وتُحْفُ [كولوفون Colophon] مع انها تزخر بالحركة والقوة، اذا ما قورنت باشعار [هوميروس] ورسوم نيقوماخوس^(٣٦) التي تتضمن سحراً عجيباً الى جانب قوتها وجمالها العام - ذلك السحر الغريب المتأني من سهولة عملها وبداهته كما يظهر للمتأمل لأول وهلة، كذلك كانت أعمال وحملات [پامنداس واغيسيلاوس] العسكرية، يظهر فيها الجهد الكبير والمشقة اذا ما قورنت باعمال [تيموليون] السهلة الانجاز المنقادة طبيعياً... والنبيلة الاهداف أخيراً. وهذا ما يُرغم اجتهادنا العادل غير المتحيز على الحكم بأن اعمال [تيموليون] ليس مبعثها الحظ وانما هي نجاحات للمؤهلات المحظوظة، وان كان هو بالذات يعزو ذلك النجاح الى محاباة الآلهة له ليس إلا. ولذلك تجده يقول في رسالته الى اصدقائه الكورنثيين وخطبه في أهالي سيراكوز: انه ليشكر الآلهة الذي خلص صقلية، وشاءت ارادته أن يشرفه باسم ولقب «المنقذ» الذي تلتف عليه به. ولهذا بنى في منزله هيكلًا يضحي فيه لآلهة الحظ التي حبته بعطفها. وأوقف المنزل نفسه على «الروح القدس».

كان المنزل قد اختاره السيراكوزيون له هديةً وصرحاً تذكاريًا لماثره وبطولاته. كما منحه قطعة أرض من أفضل وأجمل الاراضي في البلاد. وكان يقضي فيهما جل أيامه مستمتعاً بحياة خاصة هادئة مع زوجته وأولاده الذين استقدمهم من كورنث، لأنه لم يعد الى وطنه قط لعزوفه عن اضطرابات بلاد اليونان ونزاعاتها، أو لأنفته من تعريض نفسه للغيرة العامة (وهو أخطر الأذى الذي يتعرض له كبار القادة عادةً ويتأتى من شهوتهم الى الرفعة والسلطان التي لا تقف عند حد)، وكان حكيماً في اختياره قضاء بقية أيامه في صقلية لينعم بقسط من آثار أعماله. وأعظمها طُراً مشاهدته ذلك العدد الكبير من المدن تنمو وتزدهر وتعمر بالألوف العديدة من الناس. وهم يحيون حياة راضية بجهوده ومساعدته.

وعلى كل حال فان قول [سيمونيدس] «لا مفر من قيام عرف على رأس كل قبرة» ليس قاصراً على هذا المثل وحده، بل ينطبق على كل نظام ديمقراطي، فلا بد أن يبرز فيه معارض مزيف ومتهم كذاب. وكذلك كان الأمر في [سيراكوز] اذ انبرى اثنان من الخطباء الجماهيريين

= مدينة ثيبه Thebiad.

(٣٥) كان رسماً. ولذلك سمي بالانثروبيوكرافوس (يلين ١٠:٣٥). ويخبرنا ان نيقوماخس كان يرسم بيد سريعة ماهرة وان لوحاته كانت تباع بما يعادل ثمن بلدة! اتفق معه اريستراتوس طاغيه سيراكوز على رسم صورة ولم يكن يبدو أنها ستحتاج الى كثير من الوقت. إلا أن نيقوماخس تباطأ ولم يقدم إلا بعد ايام موافقاً على القيام بالرسم. إلا ان الطاغية نغم عليه لامبالاته وفكر في عقابه. لكن الرسام اكمل عمله خلال المدة المتفق عليها وبلغ فيه الابداع بحيث نال رضى الطاغية.

(٣٦) توفي في العام ٣٢٧ ق.م بعد أن حكم صقلية ثمان سنوات [ديودورس ١٥:٩٠].

وهما [لافيستيسوس Laphystius وديميانوس Demaenetus] وأنشأ يفتران على تيموليون ويشوهان سمعته وطلب أولهما منه أن يتعهد بالإجابة على التهم التي ستوجه اليه. وأبى تيموليون أن يتدخل الجمهور في الاجراءات القضائية أو يعمل على ايقافها مدفوعاً بسخطه واستنكاره وحجته في ذلك أنه ما خاض هذه الحروب الطاحنة، وتكبد تلك المشاق والأخطار إلا للوصول الى هذه الغاية اي ان يكون لكل مواطن الحق في الرجوع الى القانون بكل حرية عندما يشاء. وعرض [ريمينيسوس] للشعب لائحة بعدد من التهم ضده عن أعمال عزاها اليه عندما كان قائداً للجيش. فلم يجب تيموليون بشيء خلا قوله انه مدين بالكثير للآلهة لانها حققت له رجاءً طالما ناشدها انجازه. وأعني به أن يعيش ليرى السيراكوزيين وهم يتمتعون بحرية القول، وهي تبدو الآن وكأنها ملك يمينهم.

وهكذا اعترف الجميع انه قام بأشرف ما قام به أي أغريقي معاصر له وأشتهر وحده وبرز في تلك الأعمال التي أعتاد فلاسفه الأغرقي وخطباؤهم سردها ليحمسوا ويرفعوا بها معنويات ابناء جلدتهم في سائر خطبتهم وتقاريرهم التي يلقونها في الاجتماعات الدينية القومية. وقدم دليلاً دامغاً على حكمة ادارته وشجاعته بمواجهة البرابرة وبانسحابه المسبق من مصائب الحروب الأهلية التي ما لبثت أن أجتاحت بلاد اليونان، وتجنيب صقلية الدماء دون أن يلحقها عيب أو أن تلوث سمعته، يقابل ذلك عطفه على الأغرقي وعلى اصدقائه بصورة عامة. كذلك تقديمه تلك التذكارات التي غنمها في معارك لم يسفك في أغلبها دم كورنثي أو سيراكوزي واحد. فجنبهم ذرف الدموع ولبس الحداد، زد على ذلك انه انتشل صقلية في غضون أقل من ثماني سنوات من عللهم المتأصلة وفسادهم الداخلي ودفع بها حرّة الى ايدي أهلها.

وطعن في السنّ وبدأ يشعر بضعف في بصره لينتفيء تماماً بعد زمن قصير، لم يحرم الرؤية لازرار الحظّ عنه ولا لإقدامه على عمل كانت نتيجة تلك العاهة، بل هو ضعف وراثي داخليّ ظهر بشكل طبيعيّ فيه بمرور الزمن. فلقد قيل أن عدداً كبيراً من اقربائه وافراد اسرته تعرضوا لهذا الضعف الذي تفاقم بهم، حتى فقدوا ابصارهم مثله في أواخر حياتهم. ويحدثنا [اثانيس] المؤرخ ان بقعة بيضاء صغيرة نزلت على انسان عينه ايام كان يقود الحرب ضدّ [هيو وماميرقوس] ومنها أمكن الجميع ان يتكهنوا باقتراب العمى منه. إلا أن ذلك لم يمنعه من مواصلة الحصار وادارة دفعة الحرب حتى وقع الطاغيتان في قبضته إلا أنه أعتزل منصب القائد الأعلى حال رجوعه الى سيراكوز وطلب من المواطنين اعفاءه من أي تكليف آخر. ولاسيما بعد تحسّن الأحوال وسيادة الأمن والاستقرار. ولم يكن ثم ما يدعو الى العجب لإحتماله مصيبتته برحابة صدر ودون ان تبدر منه اشارة الى نفاذ الصبر أو الضيق. إلا ان

[ديمتريوس] أعلى المنادين صوتاً، يقرأ البيان العام التالي:

«أصدر أهل سيراقوز مرسوماً يقضي بدفن [تيموليون ابن تيمودوريوس الكورنثي] على نفقة الخزينة العامة وخصص مبلغ مائتي مينا لذلك. ووضع جوائز سنوية تخليداً لذكوره، تمنح للفائزين في مباريات الموسيقى وسباق الخيل وغيرها من الرياضات البدنية، لأنه كسر شوكة الطغاة وهزم البرابرة وعمر المدن الرئيسية بسكان جدد بعد أن هجرها أهلها. وأعاد للأغريق الصقليين نعمة الحياة الحرة وميزة العيش وفق شرائعهم الخاصة».

وقادوا في تكريمه وتخليد ذاكره، فبنوا له ضريحاً في الساحة العامة. وأحاطوه فيما بعد بصفوف من الأعمدة، ثم الحقوا به معاهد رياضية للشباب، يمارسون فيها مختلف الألعاب البدنية، وأطلقوا عليها اسم [تيموليونتيموم Timoleonteum]. وظلوا يحافظون على شكل الإدارة والنظام الحكومي^(٣٧) والقوانين والدساتير التي وضعها لهم وعاشوا زمناً طويلاً يرفلون في بحبوحة من الرخاء والدعة^(٣٨).

(٣٧) من قوانينهم التي صاغها ديوقليس، بقي بعضها يمارس وتتعلق بصورة خاصة بالوصايا والعقود. أما بخصوص الواجبات والحقوق المدنية التي غيرها الطغاة أو صادروها فقد صححها أو أعادها. وقد طلب في هذا الصدد معاونة كيفالوس [ديودوروس ١٦: ٨٢].
(٣٨) انقطع هذا الازدهار بعد ٢٠ سنة تقريباً بالفظائع التي ارتكبها اغاتوكلس الذي نصب نفسه طاغية على سيراقوز.

الاحترام والاعتراف بالجميل الذي أظهره له السيراقوزيون بعد فقدته بصره - يستحق اعجابنا والحق يقال. اذ اتخذوا لهم عادة في زيارته أفواجاً وجماعات وكانوا يصحبون الاجانب من الزائرين الى منزله ومزرعته ليسرّوا أيضاً بمشاهدة منقذهم النبيل. وكان حجّهم هذا مصدرراً من مصادر سعادتهم وغبظتهم. لقد تعلق هو الآخر بالأرض التي حررها، وأبى إن يستمتع بعودة الظافر الى اليونان بعد بطولاته وانتصاراته ولم يقيم وزناً للاستعدادات الفخمة التي اتخذت في الوطن لاستقباله، وأثر البقاء حيث هو وانهاه حياته فيها. وأسمى ما أكرم به تيموليون وأكبرها دليلاً على منزلته في نفوس السيراقوزيين، أنهم اصدروا قانوناً يحتم عليهم الا يستعيروا الأخدمات جنرال كورنثي في حالة اشتباكهم بحرب مع بلاد أجنبية. ومن مظاهر التشريف النبيلة التي اتبعوها في مجالس اداراتهم العامة مما يقوم شاهداً على مدى احترامهم له، أنهم كانوا ينشدون ابدأً مشورته في الأمور الهامة المعقدة، ولايستغنون عن رأيه في الأزمات، أما المسائل الصغرى فكانوا يعالجونها بأنفسهم. وفي تلك المناسبات كان ينقل الى الملعب محمولاً على محفة وهو جالس. فيمر في الساحة العمومية وعندما يستقر في الملعب يحييه الجمور كله باسمه المجرد، فيرد على تحيتهم ويصمت برهة لتنتقطع هتافاتهم وتمنياتهم الطيبة له. ثم يرهف اذنه الى مواضيع المناقشة ويدلي برأيه، وبعد أن يوضع في الاقتراع العام وتتم الموافقة يرفعه الخدم الى المحفة ويخترقون به المواطنين المجتمعين خارجاً وهتافهم وتهليلهم تدوي من الجانبين. وبعد انصرافه يعودون الى النظر في الأمور الثانوية. كذا كان حبه متأصلاً في النفوس وهو على حافة قبره. كان حياً مشبعاً بالاحترام والحنان الواجب للأب الذي والد الكل.

ثم ان وعكة جدّ بسيطة انتابته إلا انها كانت كافية لانهاه حياته بمعونة الزمن. وأعلن عن تخصيص ايام معينة يتفرغ السيراقوزيون في أثنائها الى تهيئة كل ما هو واجب وضروري لتشييعه، ولافساح المجال أيضاً لمشاركة السكان المجاورين والاجانب في المراسيم. وكان يحفّ بالجنّازة كل مظاهر العظمة والأبهة والروعة وزين النعش بتذكارات الحرب وغيرها من الحلى وحملته نخبة من الشبان ووضعوه على البقعة التي كان [ديونيسوس] قد شيد فوقها قلعته فجاء هو وقوضهما. وحضرت المراسيم ألوف مؤلفة من الرجال والنساء وقد ضفروا اكاليل الزهر على رؤوسهم وارتدوا الثياب الجديدة النظيفة حتى بدأ التشييع وكأنه عيد شعبي. وكانت كلماتهم ودموعهم التي تمتزج بالمديح والدعوات لتيموليون الراحل، تظهر أن لاءهم لم يكن مجالمةً وتكريمهم ليس ارغاماً وجبراً بل هو تعبير عن حزن حقيقي وأظهار لحبهم الصادق. أخيراً وضع النعش فوق كومة من الخشب وأشعلت فيه النار. وفي أثناء ذلك بدأ

إيميلوس باولوس
AEMILIUS PAULUS

في ترجمة لونغهورن وترجمة كوليز وردت المقدمة التي صدرها بلوتارخ لسيرة تيموليون هنا.

عند الرومان أن يراقبوا ويسجلوا النبوءات المستخلصة من مسار الطير، أو معجزات الفضاء ولذلك تفرغ الى دراسة عادات بلاده القديمة دراسة دقيقة، وتمكن من أسرار دين اسلافه حتى ارتقى بوظيفته التي كانت مجرد لقب شرف يُطلب لنفسه، الى مرتبة من الصناعة والفن عالية جداً بمجهوده الخاص واثبت صحة التعريف الذي وصفه الفلاسفة للدين بوصفه «علم عبادة الآلهة»^(٣) وكان يحرص عند قيامه باي واجب ديني على الدقة والمهارة، ويتفانى فيها كأنما لا يشغله في الدنيا غيرها. وهو لا يحذف من الشعائر جزءاً مهماً ضوئاً ولا يضيف شيئاً مهماً قللاً بل كان يشدد على زملائه من الطائفة أن يلتزموا حتى بما قد يبدو تافهاً ويشدد في توصيتهم بأن توهمهم بسهولة تهدئة غضب رب من الأرباب واستعداداه للصفح عن الأخطاء غير المقصودة، لا ينفي كون اي تراخ واهمال هو خطر شديد على السلامة العامة اذ لم يبدأ أي شخص قط في الاخلال سلامة بلاده بخرق شرائعها خرقاً شنيعاً. وان من يهمل في الجزئيات يوجد سابقة وتعلم للإهمال في الكلليات والواجبات الهامة. ولم يكن أقل من هذا تشدداً في تطلبه مراعاة النظام الروماني القديم في الأمور العسكرية. وعندما تولى القيادة لم يبذل اي مجهود في تعزيز مكانته بين الجنود^(٤) والتحجب اليهم بخطب ودّهم ومجاملتهم في حين كان هذا عادة جرى عليها كثير من القادة في ذلك الزمن. ففي فترة قيادتهم الأولى يظهرن المحاباة والتردد للمادون كي يضمّنوا لأنفسهم فترة ثانية. على انه استعداد لبلاده عظمتها الغابرة وسؤددها بتلقين الرومان قوانين الضبط العسكري بالعناية والدقة التي يستخدمها الكاهن في تدريسه اصول الشعائر والأسرار المرعبة. وبصرامته في معالجة أمر كل من يخرق تلك القوانين أو يعتدى عليها مقداراً ان النصر على الأعداء هو بحد ذاته نتيجة لاحقة للتدريب الصحيح، والنظام الدقيق.

بينما كان الرومان مشتبكين في حرب مع أنطيوخوس الأكبر^(٥)، مستخدمين ضده عدداً من خيرة قادتهم وأكثرهم تجارب، نشبت حرب أخرى في الغرب، وضجت أسبانيا بقعقة السلاح^(٦). أرسلوا اليها [اميلوس] برتبة [پريتورا] لا بستة فؤوس، وهو العدد الذي يتقدم

= الانصراف الى العمل السياسي.

(٣) انظر افلاطون «افثيرون».

(٤) الجنود الرومان يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية ولهم أن يدلوا باصواتهم في كل الشؤون المدنية والعسكرية ذات الشأن.

(٦) بدأت الحرب مع انطيوخوس الكبير ملك سورية في حدود العام ١٩٢ ق.م اي بعد معركة كاني باربع عشرة سنة. وكان يقود الجيوش الرومانية كلابريو ثم الأخوان سكيبيو بعده. وقد ارتضى أكبرهما أن يكون مجرد معاون لأخيه [ليني] ١٠:٣٧.

أجمع المؤرخون كافة أن أسرة «إميلي Aemilii» هي أحد الأسر الرومانية البارتريشية العريقة. ويخبرنا أولئك المؤرخون الذين يؤكدون بأن [نوما] الملك كان تلميذاً [لفيشاغورس] أن أول من خلف اسماً لذريته هو [ماميرقوس] ابن [فيثاغورس] الفيلسوف الذي كان يلقب «إميليوس» ارشاقته ولياقته في الكلام. وا قبل الحظ أيضاً على معظم سلالته الذين ارتفعوا الى مصاف العظماء لكفاءاتهم وقابلياتهم. حتى سوء الحظ الذي لازم [لوشيووس پاولوس] في معركة [كائني]^(١) فهو دليل على حكمته وبسالته. فبعد أن عجز عن أقناع زميله بالعدول عن المجازفة في معركة، شارك معه في الهجوم إلا انه لم يكن زميله في الفرار، بالعكس فقد صمد في الميدان وقتل وهو يحارب في حين تخلى عنه من كان شديد العزم على الاشتباك، وكان [لاميلوس] هذا، بنت اسمها [اميليا] تزوجت [سكيبيو الكبير]، وابن اسمه [پاولوس] وهو موضوع سيرتي هذه.

في مطلع رجولته التي صادفت عهداً اشتهرت فيه روما بنشاهير الشخصيات، تميز اميلوس، بابتعاده عن العلوم والدراسات التي اعتاد تلقيها الشبان الوجها، ولم يسلك الى الشهرة السبل نفسها. لأنه لم يمارس الخطابة لكي يمتن المرافعة في قضايا الناس، ولم يؤثر عنه الانحنا عند التحية أو العناق أو مصاحبة الدهماء تزلفاً لهم. وهذا كله من الوسائل المعتادة للتقرب الى الناس وخطب ودّهم، لا لأنه قاصر عنها، بل لكونه اختار الاستئثار بمجد البطولة والاستقامة والصلاح وهي اسمى الأمجاد وأكثرها خلوداً وفي هذه الفضائل ما لبث أن بز كل أقرانه. وكانت وظيفة [الايديل] الكريمة أول ما تقلده. فقد تنافس عليها ضد اثني عشر مرشحاً بلغت كفاءاتهم ومؤهلاتهم حدّاً انهم تسنموا فيما بعد منصب القنصلية كافة بالتعاقب. ثم أنتخب فيما بعد الى صنف الكهنة الذين يعرفون [بالاوغورا]^(٢)، ووظائفهم

(١) إعتباراً من لوشيووس اميلوس الذي كان قنصلاً في ٤٨٣ ق.م وهزم الفولسكيين حتى لوشيووس پاولوس والد پاولوس اميلوس الذي قتل في كاني ٢١٥ ق.م كان قد اشتهر عدد كبير من أفراد هذه الأسرة بانتصاراتهم ونجاحهم الاداري.

(٢) كان بإمكان الاوگور (العراف) ان يحبط اي عمل من الاعمال العامة أو ان يجيزه بزعم بزعم ان الاستخارة موآتية أو غير موآتية. وفي معهد الاوگور هذا يدخل معظم البارتريشيين الذين يرغبون في =

اصحاب هذه الرتبة عادة، إنما بأثني عشر فأساً، لذلك كان في منصبه الپريتوري يتمتع بمظاهر سلطان القنصل. وهزم البرابرة في معركتين^(٧) وقتل منهم ثلاثين ألفاً: ويعزى نجاحه هذا أساساً الى حكمة القائد وإدارته. فبمهارته العظيمة في اختيار أصلح ارضٍ ومباشرة الهجوم في معبر أحد الأنهار حقق لجنوده نصراً سهلاً. وبعد ان سيطر على مائتين وخمسين مدينة وبلدة خضع له أهاليها تلقائياً وربطوا أنفسهم بقسمٍ على الطاعة والولاء، غادر الاقليم والسلم يخيم عليه وعاد الى روما دون أن يضيف الى ما يملك درهماً واحداً من الحرب وكان في الواقع وبصورة عامة لا يكثر جمع المال وان كان يعيش دوماً عيشة باذخة مسرفة على ما يملك وهو ليس بالكثير، حتى انه لم يخلف حين وفاته ما يكاد يفي بصدقات امرأته.

كانت [پاپيريا Papiria] أولى زوجيه. وهي بنت [ماسو Maso] الذي كان قنصلاً فيما مضى. عاش معها زمناً طويلاً في رباط الزوجية ثم طلقها مع أنها نجبت له ابنين من انبل الابناء، فهي أم [سكيبو] الشهير، و[فابيو] ماكسيموس. ونحن لا ندري سبب انفصالهما هذا. إلا أن جانب الحق الذي يبدو في حكاية ذلك الروماني الذي طلق زوجته قد يفسر لنا السبب في قضيتنا هنا: كان هذا الروماني موضع لومٍ شديدٍ من اصدقائه، وراحوا يسألونه: أليست هي عفيفة؟ أليست هي جميلة أليست هي ولوداً؟ « فرجع نعله وسألهم « أليس هو جديداً؟ أليس هو جيد الصنع؟ ومع هذا فلا أحد منكم يدري اين يؤذيني. » وما هو مؤكد أن الاخطاء الكبيرة والفاضحة لا تؤدي الى انفصال الزوجين في كثير من الأحيان. في حين يكون مجرد المضايقة الخفيفة المتكررة الناجمة عن التنافر في الطبع أو سبباً للفرقة. ففي هذه الحالة يتعذر على الرجل والمرأة العيش معاً في أي درجة من الوئام.

وبعد أن ترك [اميليو] [پاپيريا] بنى بزوجه الثانية فأنجبت له ولدين رباهما في منزله. وحوّل الولدين الآخرين إلى أعظم وأشرف أسرتين في روما. فالأكبر^(٨) تبناه [فابيو] ماكسيموس الذي تقلد منصب القنصلية خمس مرات ورباه في بيته. والثاني كفله ابن [سكيبو افريقانوس] وهو ابن عمته، فسماه [سكيبو].

وأعن بنيته فإحادهن تزوجت ابن [كاتو Cato] والثانية تزوجت [ايوليو] توييرو Aelius Tubero وهو رجل فاضلٌ جداً ويعد بين الرومان خير من جمع بين الجود والفقر. وكان لديه

(٧) يتكلم ليفي (المرجع السالف ٥٧) عن معركة واحدة ناجحة. فيها أخترق ايميلوس پاولوس الاستحكامات الاسبانية وقتل بثمانية عشر ألفاً وأسر ثلاثمائة.

(٨) اتخذ له اسم كوينتس فابيو اميليانوس. وهو اب الخطيب الشهير [كوينتس فابيو] وكذلك أخوه افريقانوس الأصغر أو الثاني الذي ازال قرطاجة من الوجود في ١٠٥ ق.م. فقد اتخذ هو الآخر اسم اميليانوس.

سنة عشر قريباً كلهم صلبيون من أسرة [ايلى Aelii] لا يملكون غير حقل واحدٍ كان يكتفونهم العيش، ويسكنون في بيت صغير واحدٍ أو كوخٍ بالأحرى يأويهم مع ذريتهم الكثيرة وزوجاتهم، ومن بينهن بنت [اميليو] صاحبنا. ولم تكن تخجل من فقر زوجها مع ان اباهما تقلد منصب القنصل مرتين، وأستقبل استقبال الفاتحين مرتين. بل كانت تفخر وتعزز بسجايها التي ابقتة فقيراً والأمر يختلف اختلافاً بيناً عند الأخوة والأقارب في مثل سنه. فان لم تفصل ما بين ميراثهم ارض واسعة أو أنهار وجدران على الأقل فتجعلهم بعيدين بعضهم عن بعض، فإن الشجار والخصام لا ينقطع فيما بينهم. إن التاريخ - والشئ بالشئ - يذكر - يقدم نماذج من هذا النوع لأولئك الذين يعتبرون ويرغبون في التعلم والصالح.

ونعود الى موضوعنا فتقول: بعد أن أختير [اميليو] قنصلاً خرج الى حرب [الليغوريين Ligurians]^(٩) أو [الليغوستيين Ligustines] وهم قوم يسكنون بالقرب من جبال الألب، أشتهروا بالإقدام وكثرة الحروب بدأ يكسبهم جوارهم من الرومان مهارة في فنون الحرب. وكانوا يشغلون القسم الأقصى من ايطاليا المنتهي بسفوح الألب وتلك الأجزاء من الألب التي تلامس مياه بحر التوسكان وتواجه افريقيا يساكنهم على الساحل الغاليون والاييريون. وكانوا في ذلك الزمن قد وجهوا إهتمامهم الى البحار ووصلوا في ملاحظتهم حتى «اعمدة هرقل» - بسفن خفيفة تناسب أغراضهم وهي القرصنة ونهب وتدمير كل ما يمر بهم في تلك الأنحاء. هؤلاء انتظروا قدوم [اميليو] بجيش قوامه اربعون ألفاً، أي خمسة أضعاف الجيش الروماني الزاحف إلا ان اميليو تغلب عليهم والجأهم الى الفرار واضطروهم الى الاحتماء بأسوار مدنهم. وعرض عليهم وهم في وضعهم هذا، شروط صلح كريم. اذ كان من سياسة الرومان أن لا يقضوا قضاءً تاماً على الليغوريين لأنهم أشبه بحرس أو سدٍّ يحول دون مختلف محاولات الغالين التوغل في ايطاليا. وبثقة تامة من [اميليو] سلموا اليه مدنهم وسفنهم. فأبقى على الأولى، ولم يتعرض بالهدم إلا لتحصيناتها واعادها اليهم إلا انه صادر السفن ونقلها معه تاركاً فحسب، تلك المراكب التي لا يزيد عدد مجاذيفها عن ثلاثة، وأطلق سراح عدد كبيرٍ من الأسرى الذين استولوا عليهم براً وبحراً رومانين وأجانب. تلك هي أجدر أعماله بالذكر في فترة قنصليته الأولى.

وبعد هذا ألمح كثيراً الى رغبته في تجديد قنصلية فترة ثانية، ورشح مرة وعندما قوبل ترشيحه بالرفض، وتخطاه الناخبون صرف النظر عن الرغبة بصورة باتة وتفرد لواجبات كهانته وتشقيف أولاده الذين لم يكتف بتنشئتهم كما نشأ هو على أصول التربية الرومانية القديمة،

(٩) ليفي [٢٥:٤٠] كان ذلك في السنة التي تلت انتخابه قنصلاً.

وإنما بتعليمهم على الأصول اليوناني، وأبدى في ذلك إهتماماً فائقاً للعادة. فجاء باساتذة لتعليمهم النحو والمنطق والبلاغة، فضلاً عن معلمين للرسم وضع التماثيل، ومدرسين في الفروسيّة والكلاب، وأساتذة لرياضة الساحة والميدان، كلهم من بلاد اليونان. ولو لم تعقه شؤون الدولة لانضم إليهم في دراساتهم وأشرف على إنجازهم تمارينهم، لقد كان خير أب في روما وأشدهم حباً بأولاده.

في المحيط السياسي لتلك الفترة من الزمن كانت الحرب بين الرومان وبين [بيرسيوس Per-seus] (١٠) ملك مقدونيا، تحتل مركز الصدارة. وكانت الأصوات في روما تجار بالشكوى والتذمر الشديدين من قوادهم (١١). فهؤلاء كانوا يديرون أمور الحرب بشكل يبعث الأسى والحجل. لإفتقارهم الى الحنكة والشجاعة حتى أن الخسارة التي يلحقونها بالعدو كانت أقل بكثير مما ينالون منها على يده. أولئك الذين أرغموا منذ زمن غير بعيد - انطيوخوس الأكبر على الجلاء عن بقية آسيا (١٢) والانسحاب الى ما وراء جبال طوروس، والاقتصار على سورية مسروراً لشرائه الصلح بخمسة عشر الف تالنت (١٣). أولئك الذين لم يمر زمن طويل على انتصارهم على [فيليب] الملك في [ثسالي] وتحرير الاغريق من النير المقدوني (١٤) لا بل انتصارهم على [هنبيعل] نفسه ذلك الذي فاق كل الملوك في البأس والسلطان بمدى بعيد، وأعتبر الرومان سبباً وعاراً عليهم أن يجد [بيرسيوس] نفسه نداءً للرومان وقريناً قادراً على شنّ حرب ضدهم على قدم المساواة لمدة طويلة بما تبقى فقط من قوات أبيه المدحورة. جاهلين ان فيليب بعد هزيمته قد رفع كثيراً من مستوى الجيش المقدوني قوةً ونظاماً.

أخذ [انتيفغونوس Antigonos] (١٥) لنفسه ولعقبه لقب ملك وهو أقوى وأبرز قادة [الاسكندر] وخلفائه. وكان له ابن يدعى [ديمتريوس]، أنجب ابناً سماه [انتيفغونوس] عرف بلقب [غوناطاس Gonatas] وخلف هذا بدوره ابناء دعاه [ديمتريوس] مات بعد ان حكم فترة قصيرة واورث الملك لابنه الصغير [فيليب] ولخوف رؤساء المقدونيين من وقوع فوضى عظيمة

(١٠) كانت الحرب المقدونية الثانية مع [برسيوس] قد بدأت في العام ١٧٨ ق.م.

(١١) هؤلاء القادة هم: باولوس ليجينيوس كراسوس، تلاه اميليو هو ستيليو مانجيتوس، ثم كونيست مارشيو فيليوس الذي مدّ في أجل الحرب طويلاً. من خلال سنوات قنصلياتهم الثلاثة.

(١٢) قبل ذلك بسبع عشرة سنة.

(١٣) يقول ليفي بل اثنا عشر الفاً تدفع باقساط متساوية خلال اثني عشر عاماً [المرجع السالف ٣٨: ٣٨].

(١٤) نهض فلامينيوس (انظر سيرته) بهذه المهمة. فأهلك ثمانية آلاف من رجال فيليب في ساحة القتال وأسر خمسة آلاف. بعدها أرسل منادياً يبشر بنبأ عودة الحرية الى بلاد الاغريق.

(١٥) انتيفغونوس هذا فتك بـ[أقمينس] وانتزع (بابل) من يد (سلوقوس) وبعد ان دحر ابنه ديمتريوس اسطول بطليموس كان أول من لبس التاج من بين خلفاء الاسكندر وأخذ لقب ملك.

في البلاد، جرأء حادثته، استدعوا ابن عم لاييه المتوفى يدعى [انتيفغونوس] أيضاً وزوجوه بالأرملة والدة [فيليب]، وجعلوه أول الأمر وصياً وقائداً للجيش فحسب. ولما وجدوا بالتجربة أنه يحكم المملكة بعدلٍ ويحقق لها الخير منحوه لقب ملك. وهذا هو الذي عُرف بلقب [دوسون Doson] (*) كأنما كان واعداً جيداً ومُنجزاً شيئاً. وخلفه [فيليب] في الملك وكان في شبابه قد أظهر ما يبشر بآمال كبيرة في أنه سيضاهي خير الملوك. وانه سيعيد لمقدونيا يوماً ما منزلتها وعظمتها السالفة. وسيثبت انه الرجل الوحيد القادر على الحدّ من السلطان الروماني الذي قويت شوكته وارتفع وامتد ليشمل الدنيا. إلا أن نيته خابت عندما حلت به الهزيمة أمام [تيطس فلامينيوس] في معركة حاسمة بالقرب من [سكوتونيا Scotussa]، ووضع نفسه وكلّ ما يملك تحت رحمة الرومان، مغتطباً لتمكنه من الخلاص بدفع غرامة زهيدة. ولكن ما لبث أن ضاقت نفسه ذرعاً بالأمر ولم يطق عليه صبراً فبعد أن راحت السكره وجاءت الفكرة - وجد نفسه يعيش أكثر شبهاً بالعبد المستسلم للراحة، من الحرّ الشجاع العاقل، يحكم مملكته وفق إهداء الفاتحين وبحسب مشيئتهم، فترك كل افكاره في الحرب ودفعته الى الاستعداد لها بكلّ ما وسعه من حيلة وخفاء. ولهذا ترك مدنه الواقعة على الطرق الخارجية دون حاميات، وجرّد سواحل بلاده البحرية من الحراسة حتى بدت مهجورة، إظهاراً لعدم اهتمامه بها. بينما راح في الوقت نفسه يحشد قوات كبيرة في المناطق العليا من البلاد، ويمدّ نقاطه العسكرية الداخلية وقلاعه ومدنه بالمال والسلاح والرجال القادرين على حمل السلاح يُعدّ بها عدته للحرب. إلا انه أبقى استعداداته هذا سراً. وكان قد اختزن في مستودعاته الحربية ما يكفي لتسليح ثلاثين ألفاً. وفي اهرائه ومواقعة الحصينة أحتكر ثمانية ملايين بوشلاً من القمح. ومبالغ ظائلة من المال تكفي لصرف رواتب ونفقات عشرة آلاف من الجنود المرتزقة يدافعون عن البلاد لمدة عشر سنوات. وقبل أن يضع فكرته هذه موضع التنفيذ أو يفيد من استعداداته العسكرية قضى نحبه حزناً وتأنيبَ ضمير، بعد أن أدرك هول ما فعل بقتله ابنه البريء [ديمتريوس] بسبب وشاية شخص أكثر اجراماً، أو أورث ابنه الثاني [بيرسيوس] الذي خلفه على العرش، كرهه للرومان، إلا انه لم يكن كفوءاً لتحقيق مأربه لافتقاره الى الشجاعة ولسوء طباعه. وكان الطمع في مقدمة امراض نفسه وأخطائها. وهناك أيضاً رواية تتضمن طعناً في نسبه. خلاصتها أن امرأة فيليب الملك أخذته من أمّه الحقيقية [غناثينيون Gna-thaenion] (وهي امرأة أرغوسية تعيش على مهنة الخياطة) فور وضعه، وقدمته لزوجها على انه ابنه، وربما كان هذا السبب الرئيسي لدسه على [ديمتريوس] وموته اذ كان لا شكّ

(*) دوسون معناها ذلك الذي سيعطي.

يخشى أن ينكشف عن ميلاده الوضع طالما يوجد خلف شرعي في الأسرة.

وبصرف النظر عن هذا، ورغم خلقه الوضع وطباعه الدينية فقد وضع ثقته في قوة موارده وشن حرباً على الرومان واستمر بها سجلاً وقتاً طويلاً يصدّ خلالها الهجمات، بل حتى يهزم بعض القادة من ذوي الرتب القنصلية وبعض الجيوش والاساطيل الكبيرة. وهزم [پوبليوس ليجينينوس Publius Licinius] أول من غزا مقدونيا، في معركة خيالة^(١٦) وقتل الفين وخمسائة من الجنود المدربين واسر ستمائة. وباعت اسطولهم وهو ملق مراسيه امام [اوريوم Oreum]^(١٧) فاستولى على عشرين سفينة حمل موسقة بحملها وحطم ما كان محملاً بالقمح واستولى على أربع بوارج ذوات طبقات مجاذيف اربع. وخاض معركة ثانية ضد هوستيلوس وهو قنصل عسكري، اثناء توغله في البلاد وأجبره على التقهقر بعد قتال ضار بالقرب من [اليميائي Elimiae]. وتحداه مرة أخرى للقتال عندما دبر غارة تسللية على (تسالي) فخاف هوستيلوس النتيجة وأبى القتال. ومضى أبعد من هذا أظهراراً لازدرائه بالرومان ورغبة في اشغال نفسه خلال فترات وقف الحرب معهم، فحمل على الدردانيين Dardanians وقتل من هذا الشعب البربري عشرة آلاف وحمل عنهم غنائم كثيرة. وتماذى، ففاوض الفالين ويسمون أيضاً باستيرني: Basternae] سراً وعقد معهم حلفاً. وهؤلاء شعب محارب أشتهر بالفروسيّة كان يسكن مشارف الدانوب. واستمال (الألييريين Illyrians) بوساطة ملكهم [گنتيوس Gentius]. لإلتصام اليه في الحرب. وذكرت الأخبار أيضاً أن البرابرة يهيمون بغزو ايطاليا من بلاد الغال الجنوبية القريبة من ساحل الأدرياتي^(١٨)، باغرائهم بالوعود والمكافآت.

وعند ما أحيط الرومان علماً بهذه الأمور وجدوا ان الضرورة تقضي بالأى يتم اختيار قادتهم بعامل المحاباة والرجاء والتوسط. بل المبادرة الى انتخاب جنرال ذي كفاءة وحكمة للتصرف في الأمور الجسام. وكذلك كان پاولوس اميلوس. فمع تقدمه في السن ومشارفته على الستين، فقد ظل قوي البدن، غنياً بأولاده وأختانه الشجعان، فضلاً عن العدد الكبير من أقرائه واصدقائه المتنفيين وكلهم اجتمعوا عليه يلحون لكي يستجيب الى رغبة الشعب الذي

(١٦) قدم لنا ليفي وصفاً لهذه المعركة في آخر كتابه الثاني والاربعين. عرض (پرسوس) الصلح على المنحدرين بشروط سهلة كأنما هو المغلوب. إلا ان الرومان رفضوها. اذ كان من مبادئ الرومان أن لا يعقدوا صلحاً وهم مغلوبون.

(١٧) في اقبويا.

(١٨) انظر پوليبيوس. وهو كاتب معاصر. يروي عما حصل في السفارة التي بعث بها [پرسوس] لقد حاول ايضاً مع [يومينيس] ملك بثينيا وأرسل وفداً الى انطيوخوس ملك سورية قائلاً ان الرومان اعداء جميع الملوك على حد سواء إلا أن يومينيس طلب الفأ وخمسائة تالنت فتوقفت المفاوضات. وقد أحدثت المفاوضات بحد ذاتها جفوة بين الرومان وبين صديقهم يومينيس ولم يستنفذ منها پرسوس.

دعاه لقبول منصب القنصل. فأبدى في أول الأمر اجاماً وخجلاً من الشعب واراد أن يتخلص من الحاحهم مظهرأ تردده في تولي المنصب. ولكنهم ظلوا يتوافدون على منزله يومياً ويقفون على بابيه طالبين منه الخروج والذهاب الى مقر الانتخاب، ويشتدون في الالحاف عليه بالصياح والتهاتف، حتى نزل الى رغبتهم. وعندما بدا بين المرشحين، بدا وكأن ظهوره ليس للادعاء بالمنصب بل ليجيئهم بالنصر والنجاح، هكذا بدا عندما دخل مخيم الاجتماع. فأستقبله الجميع بالأمل والغبطة العظيمين وأختاروه بالاجماع قنصلاً للمرة الثانية ولم يصبروا على اجراء الاقتراع كالعادة حول الاقليم الذي سيكون من نصيبه وانما أعلنوه في الحال، قائداً للحرب المقدونية. وقيل أنه بعد صدور الأمر بتعيينه قائداً ضد [پرسوس] وتكريم الجمهور العظيم برفاقته الى منزله وجد بنته الطفلة [ترتيا Tartia] تبكى فجذبها اليه وسألها عن سبب بكائها فطوقت عنقه بذراعيها وقالت وهي تقبله:

- الا تدري يا أبي أن پرسوس مات؟

تقصد كلباً صغيراً بهذا الاسم ربي معها في الدار. فأجاب اميلوس:

- فأل حسن يا ابنتي، واني لأتقبلها كما أتقبل نبوءة!

لقد ذكر شيشرون Cicero الخطيب هذه الحكاية في كتابه عن «النبوءات»^(١٩).

جرت العادة أن يرتقى القناصل الذين تم انتخابهم منصّة معدة لذلك الغرض والقاء خطبة على الجمهور يضمونها شكرهم وامتنانهم لما حبوهم به من الثقة. وهكذا اجتمع لاميلوس جمهور لسماعه فكان مما قاله:

- عندما رشحت نفسي لمنصب القنصل أول مرة فاني كنت في حاجة الى التكريم انا نفسي. أما الترشيح للمرة الثانية فلأنكم كنتم فعلاً في حاجة الى جنرال، ولهذا لا أرى ما يدعوني الى تقديم الشكر لكم.

فاذا حكمتكم بأن في مقدوري ادارة شؤون الحرب بصورة أكثر فائدة ونجاحاً، بشخص آخر غيري فاني متنازل له عن طيب خاطر. واذا وضعتم ثقثكم الكاملة بي فعليكم ألا تنصبوا من أنفسكم زملاء لي تشاطرونني الوظيفة أو تنتقدون أعمالي أو تقدموا تقارير، بل عليكم أن تعملوا بدون كلام - على إمدادي بالوسائل الضرورية والمعونة الواجبة للاستمرار في الحرب. أو لو كان قصدكم أن تتولوا قيادة قائدكم فان هذه الحملة ستكون أخيب من سالفتها.

(١٩) يقول ليفي [١٧:٤٤] بعكس ذلك.

وأشاع بهذه الخطبة إحتراماً عميقاً له في نفوس المواطنين، كما بعث آمالاً عراضاً في النجاح المقبل. وسرَّ الجميع لأنهم تخطوا الطامحين الى المنصب والباحثين عنه بالتملق والمداهنة، ليستقر قرارهم على قائد له من الحكمة والشجاعة ما يكفل قوله الحقيقية والمصارحة مهما كانت مؤلمة. الى هذا القدر كان الرومان يحنون هماماتهم في طاعة القنصلية والمعقولات، ولولا ذلك لما حكموا الدنيا وغدوا أسيادها.

ويم اميلبيوس وجهه شطر الحرب فوراً. وأنطلق مسرعاً الى معسكر جيشه في رحلة موفقة خالية من الأخطار رعاه خلالها طالع سعوده؛ على اني حين أتأمل بحسن نهاية الحرب تحت قيادته، فلا يسعني إلا استبعاد الحظّ من تلك الاعمال المجيدة والمآثر السامية. (لا مثلما عزوت اليه أعمال قادة آخرين) وأن كان قد أشتهر للغاية بحسن الحظّ. إن انتصاراته كانت حصيلة جرأته الفائقة، واصالة افكاره، وتوجيهه الحازم لأتباعه واصدقائه وحضور بديهته، ومهارته في اختيار أصلح الآراء وأجدر المشورات في اخرج ساعات الضيق والخطر العظيم. هذا ان لم يذهب بي الرأي الى أن جشع [پرسیوس] وحبه الشديد للمال كان بمثابة مطلع بين لأميلبيوس. والحق يقال أن حرص [پرسیوس] على ماله قضى بالدمار والخراب التام على كل الاستعداد الحربي العظيم الرائع الذي أصدع آمال المقدونيين الى درجة الايمان بكسب الحرب لا محالة. فقد دعا عشرة آلاف من [الباستيرني] وكل واحد منهم يلازمه واحد من المشاة^(٢٠) وكانوا كلهم جنوداً محترفين لا يعرفون غير القتال صناعة وتجارة، ولا غرض لهم إلا التغلب على من يقاومهم. ولا يفقهون شيئاً من الزراعة أو ملاحاة السفن أو الرعي. وصل هؤلاء مديكا^(٢١) وضربوا خيامهم فيها وأمتزجوا بجنود الملك. وكانوا ضخام الأجسام يمارسون تمارين عجيبية، كثيري المباهاة، يوقع اصواتهم الجهيرة الرعب في قلوب العدو. وكل هذا رفع معنويات المقدونيين الذين اعتقدوا حالاً بأن الرومان لن يصمدوا أمامهم، وسيصابون بذعر وهلع لمنظرهم الغريب وحركاتهم المتسمة بطابع القوة والعنف. بعد أن بث [پرسیوس] الحماسة في نفوس جنوده وانعش آمالهم. تقدم رؤساء الجيش الحليف يطلبون من [پرسیوس] ألف قطعة ذهبية لكل واحد فذهل وطار صوابه لجسامة المبلغ. وما لبث أن انسحب عنهم وحرّم

(٢٠) وصف ليفي [٢٦:٤٤] هذه الخيالة وصفاً جيداً الى جانب جندي المشاة المرافق إذ يقول «أقبل عشرة آلاف خيالاً ومثلهم من المشاة يسايرون الخيالة خطوة بخطوة. ما ان يفقد احد الخيالة حصانه حتى ينضم الى المشاة» وقد تبنى الرومان هذا التنظيم في صنف الوحدات الخفيفة وأطلقوا عليه اسم Velites بناء على اقتراح السنطوريون [كوينتوس نافيوس] اثناء حصار [كاپوا] في الحرب الفينونية الثانية [ليفي ٤:٢٦]. ما ان علم پرسسيوس بقدم الباسكرناي حتى ارسل انتيغونس لاستقبال ملكهم كلودنديقوس فقال هذا ان الغاليين لن يخطوا خطوة واحدة دون ان يدفع لهم المال. فرفض پرسسيوس ذلك لفرط بخله وقصر نظره.

(٢١) منطقة مديكو في تراقيا تقع بين نهري ستريمون ونيسوس (أونستوس).

نفسه من معونتهم. وكان بهذا أشبه شيء بوكيل أملاك للرومان لا عدواً لهم. وكيل عليه أن يقدم حساباً بنفقات الحرب لمن شنّ عليهم الحرب، بل وكأن خصومه اساتذة يلقن على ايديهم ما يفعل، وهم الذين حشدوا له مائة ألف مقاتل دفعةً واحدة، ناهيك باستعداداتهم الأخرى. لقد كان يواجه هذا الجيش اللجب في حرب عظيمة تضمّ هذا العدد الضخم من المحاربين، ومع هذا لم يبذل شيئاً من ماله بل ختم على خزائنه. وأستبد به الخوف من مسّها حتى لكأنها ملكٌ لغيره. هذا ما فعله رجل لا هو بالليدي ولا بالفنيقي، بل رجل له حق الادعاء بالانتماء الى [الاسكندر] و[فيليب]، وتصله بهما وشائج النسب. إن الرجال الذين فتحوا العالم كانوا يرون أن الامبراطوريات يجب أن تشرى بالمال، لا أن يُشرى المال بالامبراطوريات. ومما جرى مجرى الامثال قولهم: «إن مدن اليونان لم يفتحها [فيليب] بل فتحها المال». ولما زحف الاسكندر بجيشه على الهند، ولاحظ بطناً في مسيرة المقدونيين لما أتقلا به أنفسهم من غنائم الفرس بدأ فأشعل النار في عرباته، وحمل الآخرين على احتذاء حذوه. وبتخلصهم من هذه الأثقال أمكنهم الانطلاق الى المعركة دون عائق. أمّا [پرسیوس] فلم يدفع الغائلة عن نفسه وأولاده ومملكته بجانب صغير من أمواله وكنوزه الطائلة، وأختار أن يحمل أسيراً مع عدد آخر من مواطنيه بأسم «الأسرى الاغنياء»، لئري الرومان الأموال الطائلة التي جمعها وادّخرها لهم. إنه لم يكتف بمخاتلة الغاليين، واعادتهم من حيث أتوا. بل بعد أن أشبع [گنثيوس] ملك الاليليرين بالوعود ومناه بثلاثمائة تالنت لقاء مساعدته في الحرب، أمر أن يحصى المبلغ بحضور رسّله وان تختم حقائبها. وعندها ظنّ [گنثيوس] ان المال أصبح ملكاً له، فبادر الى ارتكاب عمل قبيح مخجل بقبضه على سفراء روما وحبسهم. فاطمأن [پرسیوس] ورأى انه لم يعد بعد بحاجة الى دفع المال [لگنثيوس] لشراء عدائه للرومان بعد أن صنع بسفرائهم ما ولد عداءً ابدياً وورطه في حرب لا مناص منها بهذا الغدر الفاضح. وهكذا احتال على الملك البائس فسلبه تالنتاته الثلاثمائة، دون اي وازع من ضمير. وشاهد طرده هو وزوجه وأولاده من مملكته كما تطرد الطيور من عشها - بالجيش الذي ساقه الرومان عليه تحت قيادة [لوشيوس أنيبيوس]^(٢٢).

لم يتهوّل اميلبيوس خصمه بل لم يقيم له وزناً في الواقع، إلا أنه أعجب باستعداداته وقوته. اذ كان قد عبأ أربعة آلاف من الخيالة وما يناهز أو يكاد اربعين ألف راجل. بشكك سلاح كاملة للكراديس المقدونية المعروفة بالفلانكس Phalanx نشرهم في مواقع تحاذي الساحل

(٢٢) أنظر ليفي [٤٤: ٣٠ و٣١] دامت الحملة ثلاثين يوماً فقط ووصلت انبواها روماً قبل ان عرفت التفاصيل. ومن اسم غيتوس هذا اشتق اسم عشب الجنطيانا لأنه أوّل من أكتشف مرارته المفيدة [پليني ١٧:٢٧].

على سفح جبل الأولمب في أرض لا منفذ اليها من كل الجهات، أحكم تحصينها بالمواقع والعوائق الخشبية فأضت منيعة يصعب اقتحامها. وكان [پرسیوس] يأمل أن يغلب خصمه اليأس والتعب بالتأخير. وكثرة الإنفاق. إلا أن ايمليوس كان في هذا الوقت بالذات يعمل الفكر ويزن الآراء ويقلب في ذهنه إمكانات الهجوم ووسائله. ولقد وجد جنوده ناقلين متدمرين من تأخير الهجوم، بسبب إفتقارهم الى الضبط والربط العسكري وهم يهتبلون كل فرصة للتدخل وتعليم قائدهم واجباته! فانحى عليهم تقريباً وتوبيخاً، وحظر عليهم التدخل فيما لايعنيهم، ونبههم الى الاهتمام فحسب باليقظة والاستعدادهم وسلاحهم بصورة مستمرة. وان لا يستعملوا سيوفهم. بوصفهم رومانيين إلا عندما يرى قائدهم ذلك. كما أنه منع الحرس الليلي من اصطحاب رماحهم الثقيلة عند قيامهم بنوبات خفارتهم، ليكونوا أكثر انتباهاً، وأقوى على مغالبة النوم حين لا يوجد سلاح فعّال في يدهم يدافعون به عن أنفسهم اذا فاجأهم العدو.

وكان شحّ الماء مصدر ضيق الجيش الرئيس. فما توفر منه وهو نزر مجّ يصدر أو بالأحرى ينزل بقطرات من ينبوع قريب للبحر. ورأى اميلليوس أن يعسكر فوق سفح جبل اولمب الشاهق المشجر. ومن نمو الغابات الكثيف وازدهارها استنتج وجود مياه جوفية ذات مجار باطنية فحفر عدداً كبيراً من الآبار والحفر على طول قدمة الجبل ما لبث الماء أن نبط منها نقياً عذباً وفاض منها الى السواقي التي حفرت لها والاحواض التي رتبت لاستقبالها. في الواقع هناك بعض من ينكر وجود صهاريج ماء ممتلئة في باطن الأرض في المواضع التي تنبثق منها الينابيع وانها عندما تنبثق يسيل ماؤها ويتحدّر ليس إلا. انهم ينكرون ذلك ويزعمون أن هذا المخزون من الماء انما يكون أول تكوينه واجتماعه من تجميع المواد المحيطة به وأن هذا التغيير يتم بالضغط والبرودة، عندما تتبخر الرطوبة ويشتد الضغط على البخار يصبح ماءً. مثل اثناء النساء فهي لا تشبه الأوعية المملأ بالحليب معدّ ومهيأ دائماً للسيلان. وإنما يتغير غذاؤهن في اثناءهن، الى حليب ويسيل خارجاً بالضغط. وكذلك الحال في المواضع الباردة الغنيّة بالينابيع، فهي لا تحوي أي مياه جوفية أو صهاريج لتزويد كل البحيرات والانهار العميقة الغور كأنما تستمدّ الماء من مصادر لا تنضب قط. إلا أنها تكثف الأبخرة والاهوية وتضغطها وتحيلها الى تلك المادة المائية. ولذلك تجد الماء يندفع بهذا الضغط في الأمكنة التي تحفر وتفتح، وتعطي من الماء بقدر ما يترطب البخار ويتميع (مثل ما تحتلب اثناء النساء عند الضغط عليها) في حين ان الاراضي المهجورة التي لا تحفر، تعجز عن انباط الماء لأنها تحتاج الى الحركة التي هي سبب التميع. إلا أن أصحاب هذا الرأي يتيحون الفرصة للمرتابين بقولهم

- يجب والحالة هذه وللأسباب نفسها ألا يوجد دم في الأجسام الحية وان الدماء يجب أن تتكون بالجراح اي أن نوعاً من الروح أو اللحم يتحول الى مائع أو مادة سائلة! زد على ذلك أن تعليلهم تدحضه الوقائع العملية فالناس الذين يحفرون انفاقاً سواء في أوقات الحصار أو بحثاً عن المعادن، قد يصادفون انهاراً لم تجمع ماءها شيئاً فشيئاً (كما يقضي التعليل، أي اذا كان تكوينها يتم في اللحظة التي تنغر الأرض) بل تتدفق فجأة باندفاع كميات عظيمة من الماء بعنف ثم يقف التدفق فجأة كما يرى كثيراً عند قطع صخرة. ولنترك هذه المسألة.

ظلّ اميلليوس ساكناً عدة أيام. وقيل لم يحدث أن جيشين عظيمين كانا متقاربين بهذه الدرجة، هادئين ساكنين بهذه الدرجة. وعندما استنفذ تجربة كل شيء، وقلب وجوه النظر في كل الانباء والمعلومات. أبلغ بوجود مر واحد فقط ترك دون حراسة^(٢٣) يقع في [پيريا Per-rhabia] بالقرب من بشيوم وپترا. وتغلب فيه عامل الأمل بترك العدو هذا الموضع من غير دفاع على عامل التخوف من وعورة المرّ وصعوبة اجتيازه فأمر بعقد مجلس حرب للتداول في الأمر، وكان من بين الحاضرين [سكيبسيو] الملقب [ناسيكا Nasica] ختن [سكيبسيو افريقانوس]، (نال أعظم النفوذ فيما بعد في مجلس الشيوخ)، وعرض نفسه لقيادة الجيش الذي تقرر إرساله للاحاطة بقوات العدو، وتلاه [فابيوس ماكسيموس] ابن اميلليوس البكر وكان في شرح شبابه، فاشاع اندفاعه وحماسه الشديدين السرور في نفس أبيه، وأمرهما على قطعات عسكرية أختلف في عددها [پوليبيوس Polybius] مع ما ذكره لنا [ناسيكا] نفسه. قال هذا في رسالة مقتضبة بعثها الى أحد الملوك^(٢٤) بخصوص الحملة أن الجيش الذي قاده كان يضم ثلاثة آلاف مقاتل ايطالي غير روماني. وأن ميمنته قوامها خمسة آلاف والحق به مائة وعشرين فارساً مع سرية مختلطة قوامها مائتان من التراقيين والكريتيين ارسلها [هرپالوس Harpalus].

اتجه [ناسيكا] بقطعاته نحو البحر وعسكر بالقرب من «هراقليوم»^(٢٥)، موهماً العدو بأنه يريد ركوب البحر والاقلاع للاحاطة بالعدو من جهة البحر. وعندما انهى الجنود وجبة عشائهم

(٢٣) من تاجرلين في پيرينيا في تساليا [ليفي ٣٥:٤٤] وبيثيوم أو بيثوم هي مدينة في مقدونيا، وپترا قلعة في البلاد نفسها.

(٢٤) لا وجود لا لرسالة [ناسكا] ولا لتقرير [پوليبيوس].

(٢٥) اذا ع القنصل أنهم سيستقلون الاسطول الذي كان قد أمر بالارساء بعيداً عن الساحل بقيادة الپريتور أوكتافيوس، موهماً العدو بأنه يقصد أجتياح سواحل مقدونيا. لكن القصد الحقيقي كان اخراج [پرسیوس] من معسكره [ليفي ٣٥:٤٤]. وهذه المدينة (هراكليوم) وهي واحدة من أكثر من أربعين مدينة بهذا الاسم منتشرة في ارجاء العالم القديم - تقع في لسننتس وهو من اقاليم مقدونيا لاتبعد كثيراً عن غرب خليج (ثيرما).

وخيم الظلام، جمع الضباط وأبلغهم بالخطة الأصلية. وأطلق يسري طوال الليل في الاتجاه المضاد مبتعداً عن البحر حتى بلغ به السرى الى موضع يشرف عليه معبد اپوللو وفيه اراح عسكره برهة.

يرتفع جبل الاولمپ في هذا الموضع الى ما يزيد عن عشرة فرلنغات (حوالي الفي يارد) كما يظهر من ابيات نظمها الشخص الذي قاس ارتفاعه واليك هي:

إن قمة الأولمپ من الموقع الذي يقوم عليه
معبد اپوللو، يبلغ ارتفاعها عشرة فرلنغات كاملة
بخط عمودي. وقد تزيد عن عشرة فرلنغات
بمئة قدم إلا أربع. وإن كزيناغوراس
Xenagoras ابن يوميوس Eumelus بلغ هذا الموضع
فالى الملتقى أيها الملك، وقم بحجك المبرور

يقول علماء الهندسة - ليس بين الجبال ما يزيد ارتفاعه عن ألفي يارد وليس بين البحار ما ينزل عمقه الى أكثر من هذه المسافة ومع هذا فيبدو ان [كزيناغوراس] لم يقم بقياساته تلك اعتباراً وإنما بحسب قواعد العلم وبآلات وافية بالمرام.

هنا قضى ناسيكا ليلته، وكان أحد الجنود الكريتيين قد فر في اثناء المسيرة ولجأ الى العدو، وهناك أفضى الى [پرسیوس] بفحوى الخطة التي رسمها الرومان لتطويقهم. وكان پرسیوس خالي الذهن تماماً من احتمال قيام اميلبيوس بمثل هذه المحاولة، وهو جاثم لا يحرك ساكناً أمامه. فصعق للنبأ، إلا أنه لم يضع جيشه في الإنذار ولم يتم بتحريكه. بل أكتفى بوضع عشرة آلاف من المرتزقة والفين من المقدونيين تحت أمرة [میلو Milo] وأمره بمسك كل الشعب والمسالك وتشبيث اقدامه فيها. ويحدثنا [پوليبیوس] ان الرومان فاجأوا هؤلاء وهم نائمون. لكن [ناسيكا] يقول أن المعركة كانت ضارية والصدام دمويًا على القمة. وانه هو نفسه نازل تراقياً من المرتزقة واصماه بطعنة رمح نجلاء فأرداه قتيلاً وان العدو أرغم على التقهقر وألقى بمعاطفه وفر فراراً مخزياً تاركاً سلاحه ودروعه في الميدان. واستأنف [ناسيكا] تقدمه وهبط بالجيش سالماً الى السهل.

وملك الخوف [پرسیوس] بعد هذه الموقعة، وهبطت آماله الى الحضيض فبادر الى نقل معسكره بأسرع ما أمكنه. وكان عليه أن يختار أحد أمرين، أما التوقف أمام [پیدنا Pyd-

na] وهذا يؤدي به الى المخاطرة بمعركة حتماً. وأما أن يقوم بتوزيع قطعات جيشه على المدن المقدونية وينتظر قدوم الحرب الى عقر داره. حرب إن وجدت سبيلها الى بلاده صعب الخلاص منها دون سفك دماء ثرة وهلاك أنفوس كثيرة. إلا أن ما أحيأ في نفسه الشجاعة هو قول اصدقائه له، بانه متفوق على العدو عددياً. وان عزيمة الرجال تشتد ويسالتهم تتضاعف لما يدافعون عن أولادهم وزوجاتهم، سيماً اذا كانت بمحضر ومرأى من ملكهم المعرض الى الاخطار نفسها. فضرب خيامه حيث هو وأخذ يتأهب للقتال. فأستطلع الأرض ووزع القيادات والأوامر كأنما قرر أن يحمل على الرومان حالما تبدو له طلائعهم وكان الموقع صالحاً لحركات الفلانكس التعبوية ومناوراتها، لأنها تتطلب ارضاً مستوية، وميداناً خالياً من العوائق. وكان فيها أيضاً آكام لا تحصى تتصل أحداها بالأخرى وتفيد في حركات الكرّ والفرّ للقطعات الخفيفة والاشتباكات الجانبية، ويخترق وسطها [ايسوت Aeson وليوكس Leucus] وهما نهران قليلا العمق في ذلك الوقت من آخر الصيف. إلا انه كان المحتمل أن يخلقا للرومان بعض المتاعب.

في اللحظة التي انضم اميلبيوس الى [ناسيكا] اتخذ نسق المعركة وتقدماً نحو العدو. واستعرض اميلبيوس صفوفه المنتظمة في أسلوب رائع فلم يسعه إلا الاعجاب والدهشة واصدر امره بالوقوف. وأخذ يفكر في الأمر ملياً. وراح صغار الضباط المتحمسين للقتال يلحون عليه وهم راكبون الى جانبه - ببدء المعركة فوراً وكان ناسيكا المنتشي بخمرة نجاحه الأخير في الأولمپ أشدهم الحاحاً ولجاجة. فرد عليه اميلبيوس باسماً

- كذلك كنت أفعل وانا في مثل سنك يا صديقي، إلا ان الانتصارات المتعددة هدتني الى السبل التي يمكن ان تؤدي بالرجال الى الهزيمة، وهي التي تمنعني من القاء الجنود في خضم المعركة وقد اعيابهم السير الطويل^(٢٦) ضد جيش مستعد منتظم الصفوف.

ثم انه أصدر أمراً بأن تنتظم طلائع الجيش وقطعاته التي يشاهدها العدو بنسق المعركة لتبدو وكأنها مستعدة للصولة. أما الباقي فعليه أن يخندق ويقيم التحكيمات لحماية المعسكر. حتى ينفسح مجال للمؤخرة القصى أن تدور على نفسها شيئاً فشيئاً وتنسحب بالتعاقب وتحلّ صفوفها بحيث لا يشعر بها العدو. وبهذا تتم عسكرة الجيش دونما ضجة أو عائق.

عندما جنّ الليل وانهى الجنود وجبة العشاء وتهيأوا للراحة والنوم، زحف الظلام فجأة على وجه القمر وكان بداراً ثماً، مرتفعاً في كبد السماء، وراح نوره يتضاءل بالتدريج متخذاً ألوانا

(٢٦) ليثي [٣٦:٤٤ - ٢٨] انظر خطبة (ناسكا) وجوابي اميلبيوس عنها (احداها انية، والثانية صدرت في اليوم التالي) فضلاً عن تفاصيل أخرى.

مختلفة، ثم حُجِب تماماً بخسوف كليّ. فأنشأ الرومان على جاري عاداتهم يقرعون الأواني النحاسية ويرفعون المشاعل والاختشاب المتهبة في الهواء. ليحتثوا النور اليه^(٢٧)، وكان ردّ الفعل عند المقدونيين عكس ذلك تماماً فقد استولى عليهم ذهولٌ ورعب عام، وسرت الشائعة في المعسكر من اقصاه الى ادناه، بأن هذا الخسوف هو نذير سوء حتى للملك نفسه. أمّا [أميلIOS] فقد كان خبيراً في هذه الظاهرة غير جاهل بأسباب هذا الشذوذ في الطبيعة، فحقيقة الأمر: ان القمر في مسراه يدخل ظلّ الأرض في دورة معينة من دورات الزمن ويظلّ مستتراً حتى يجتاز منطقة الظلام. وبعدها تلقى الشمس عليه نورها فيشع ضياءً. وكان [أميلIOS] انساناً ورعاً تقياً حريصاً على مراسم القرابين. واقفاً على علوم النبوءات، فما أن لحظ القمر يستعيد نوره حتى قرب له إحدى عشرة بقرة من الأبقار، وعند انبلاج الفجر ضحّى بعشرين منها متعاقبة للربّ [هرقل] دون أن يظهر ما يشير الى قبوله الأضاحي وعندما قدم القران الحادي والعشرين وردت الاشارة بأن النصر سيكون حليف من يقف موقف الدفاع. فنذر [أميلIOS] قرباناً عظيماً عمومياً ل: (هيكاتومب Hecatomb) وألعباً رسمياً لهرقل. وامر رؤساء العسكر بالاستعداد للمعركة. وقدر لهم أن تبدأ عندما تتحول الشمس الى الغرب وتميل الى المغرب لثلاث تبهير أشعتها عيون الجنود إن دارت رحى المعركة صباحاً. اما هو فقد أمضى تلك الفترة في خيمته التي كانت مفتوحة نحو السهل حيث معسكر العدو.

يذكر بعض المؤرخين أن أميلIOS أستخدم عند حلول المساء لحمل العدو على المبادأة بالقتال حتى يتخذ هو موقف الدفاع تحقيقاً للنبوءة. فأطلق حصاناً بدون سرج نحو العدو وأرسل وراءه بعض الرومان ليتظاهروا بطرده، وهكذا بدأت المعركة. ويقول آخرون أن [الثراقيين] هاجموا بقيادة المدعو [الكساندر] قطار حيوانات نقلية للرومان كانت تحمل علفاً للمعسكر. فدفع أميلIOS بسبعمائة من الليغوريين لإسناد القافلة. وبدأت النجذات تتوالى تباعاً على الفريقين، حتى آل الأمر الى التهام الجيشين الرئيسين.

وكالربان البعيد النظر، استنتج أميلIOS بفكره الثاقب، مبلغ ما في العاصفة القادمة من هول، لشدة اندفاع الجيشين والموجات التي كانت تتعاقب على الميدان، فخرج من خيمته ليمرّ بين صفوف فرقه مشجعاً ومحسّساً. كما تبين [ناسيكا] الذي اندمج بالمشتبكين وهو على جواده، ان قوات العدو كلها قد دخلت ميدان القتال وهي توشك على الالتحام. برز التراقيون

في المقدمة أولاً، وأوقع منظرهم الهلع في نفسه كما أخبرنا بشخصه. فقد كانوا ضخاماً عتلاً يحملون تروساً صقيلة كالمراة تبرق بريقاً، ويشتملون بمعاطف سوداء، وتكسو سيقانهم طماقات معدنيّة راقية، وقد اردفوا وهم يتقدمون رماحهم المستقيمة المثقلة بالحديد، على أكتافهم اليمنى. وأعقبهم الجنود المرتزة يحملون مختلف انواع الأسلحة، مختلطين بحاربي (پايونيا Paonia) ثم تلتهم صفوة من المقدونيين، تم انتقاؤها ممن عرفوا بالقوة والشجاعة وعنفوان الشباب تلمع أجسامهم بما عليها من الدروع الصقيلة وتبهر العيون معاطفها الارجوانية. وفيما كان هؤلاء يتخذون مواقعهم تحركت من المعسكر على أثرهم القطعات المعروفة باسم «التروس البرونزية» وهي معبأة وفق نظام [الفلانكس] حتى بدأ السهل كله متوهجاً بالنحاس المجلّو ساطعاً بالفولاذ المصقول، ورددت الأكام صدى هتافهم يحمسون به بعضهم بعضاً. ويحثونهم على القتال. وصالوا صولة سريعة جريئة بترتيبهم هذا، فوقع أول القتلى منهم على مسافة لا تبعد عن معسكر الرومان أكثر من أربعمئة يارد. ونشب القتال حامياً، وبرز أميلIOS الى الميدان ليجد أن الفصائل المقدونية المتقدمة قد أتمت غرز أسنة رماحها في تروس الرومان وسمرتهم وحالت دونهم ودون اعمال سيوفهم فيهم، لما رأى ذلك، ولما شاهد بقية المقدونيين يتناولون درقاتهم المعلقة في أكتافهم اليسرى ويضعونها أمامهم درءً ثم يوجهون أسنة حراهم الى تروس أعدائهم، راعته قوة هذا الجدار من التروس المنيعة ومظاهر الإلتحام في تلك الجبهة الزاخرة بالسلح فانتابه قلقٌ وذهول. لم تقع عينه من قبل على شيء كهذا ولقد ظلّ المنظر راسخاً في ذهنه بعد المعركة، كثيراً ما تحدث عنه ووصف الشعور الذي تملكه وقتئذ. وعلى أية حال نفّض عن نفسه الوجع، وأطلق على صهوة جواده يجول في صفوف جيشه دون درع يحمي صدره، ولا خوذة تقي رأسه والهدوء والبشاشة تضيئان أساريه.

ويحدثنا [پوليبIOS] أن ما جرى في معسكر المقدونيين كان خلاف ما فعله اميلIOS. اذ ما أن حمي وطيس المعركة حتى سارع ملك المقدونيين في الابتعاد بدناءة وخسة ميمماً شطر مدينة پيدنا^(٢٨) بحجة تقديم قربان [لهرقل]، ذلك الآله الذي أنف عن قبول قربان الجبناء التافهة وترفع عن تحقيق شروط النذور التي لاترضى السماء عنها. فالحق يقال انه لضرب من المحال أن يقبل الأرباب بفوز الخائر بالجائزة، أو انتصار المنسلّ من المعركة أو نجاح من لم يتعبه الوصول الى النجاح، أو أن يظفر الأشرار بما يتمنون. ولقد استجيب دعاء أميلIOS،

(٢٨) [پيدنا] هي بلدة من مقاطعة پيريا في إقليم مقدونيا قرب رأس ثيرما أمّا بللاً التي هرب اليها فيما بعد فهي تبعد عنها بمسافة قليلة الى الشمال وقد أشتهرت بكونها مسقط رأس الاسكندر الكبير.

(٢٧) يخبرنا ليفي أن (سولپجيوس كالوس) وهو تربيون روماني قد تنبأ بالخسوف وأخبر القنصل ثم أنهى الأمر للجيش باذن منه ولذلك لم تبد الظاهرة مفاجأة للجيش الروماني ولم تشع الخوف فيهم كما هو شأن الناس ازاء هذه الظاهرة. وبهذا زادت ثقة الجنود الرومان بضباطهم ودخلوا المعركة وهم في أفضل حالٍ نفسيّ.

لأنه صُلِّيَ للنصر والسيف في يده، وقاتل وهو يطلب عون الآلهة.

وتم مؤرخ ما، يدعى [پوسيدونيوس Posidonius] (٢٩) الذي يزعم انه عاش في ذلك الوقت كان قد دون تاريخاً مفصلاً لپرسیوس، وشهد تلك الأحداث وضرب سهماً فيها، هذا المؤرخ ينفي ترك [پرسیوس] الميدان خوفاً أو بحجة تقديم القرابين ويقول أنه أصيب بضربة من ساق حصان في فخذه قبل المعركة بيوم واحد، وكانت اصابة خطيرة أعجزته تماساً، إلا أنه أمر أن يؤتى له بأحد خيول الركوب وبرز الى الميدان وهو أعزل رغم الحاح اصدقائه جميعاً؛ وبات هدفاً لما يحصى من الحراب يرشق بها من كل جهة، فإخطأته جميعاً إلا واحداً مرق من جنبه الأيسر بقوة عظيمة فمزق ثيابه وأحدث في لحمه جرحاً سطحياً ظلت ندبته مدة طويلة. هذا ما أثبتته [پوسيدونوس] في صدد الدفاع عن پرسیوس.

عجز الرومان عن فتح ثغرة في [الفلاتنكس]. فما كان من [ساليوس Salius] أحد قواد الپليغنيين Pelignians إلا وأختطف علم كتيبته وقذف به في وسط الأعداء. (عند الایطاليين كان يعتبر التخلي عن الراية عاراً كبيراً وتلماً للشرف مهما كانت الظروف)، فاندفع الپليغنيون بجنون ووحشية لاستعادتها، ووقعت مذبحه مربعة في صفوف الجانبين هؤلاء كانوا ينزلون الضربان بسيوفهم على قنا العدو ليقطعوها تقطيعاً أو يعملون على دفعهم الى الخلف بتروسهم أو إزاحتهم الى جانب بأيديهم وكان المقدونيون قابضين على قنطارياتهم الطويلة بكلتا اليدين يخرقون بأسنتها اجسام من تعترض سبيلها فتشقب دروعهم. وليس ثم درعٌ أوزرد يصمد لهذا السلاح. لقد سار الپليغنيون والمارسيون Marrucians (٣٠) الى حتوفهم الأكيدة دون أعتبارٍ بشيء وبحالة من الهياج الوحشي لاتوصف فخرؤا صرعى في ساحة الوغى. أبعد اول خطٍ منهم اباده تامة وأضطر من يليهم الى التقهقر بشكل لا يمكن وصفه بالهزيمة. وانسحبوا الى اكمة [أولوكروس Olocrus].

يقول [پوسيدونيوس]، لما شاهد [أميلیوس] ما حصل مزق ثوبه عن جسمه، وهم بعض جنوده بالفرار، واحجم الباقي عن الاشتباك مع الفلاتنكس، فقد اصابهم يأس من فتح ثغرة فيه والتوغل في داخله فلقد كان وايم الحق سداً منيعاً لايمكن الدتو منه ولا اقتحامه بخط قنطارياته الطويلة متلاحماً متقارباً يواجه المهاجمين انى تولوا، على أن طبيعة الأرض

(٢٩) قد يكون المقصود [پوسيدونيوس] الأیامي الذي كتب تكملة لتاريخ پولیبیو. اذ انه كان في روما زمن قنصلية [مارچلوس] وبعد هذه المعركة بمائة وثمانين عاماً. وقد اعتبره پلوتارخ على ما يظهر مؤرخاً متطفلاً أو قليل الأهمية عندما ذكره بعبارة تنم عن ذلك.

(٣٠) من هذه الأقوام الایطالية كان المارسيون أول من سكن هناك وأصلهم من [السابين] وقد عاش هؤلاء في منطقة معينة على ساحل البحر الأدریاتي.

المتعادية لم تكن تسمح للفلاتنكس بنشر جبهة طويلة تظل فيها التروس متلاحمةً أخذاً بعضها بحجزٍ بعض على امتدادها ولاحت لأسيلیوس ثغرات وفراغات كثيرة فيه واستفاد مما يحصل عادة في اشتباكات الجيوش الكبيرة حيث يقوم المحاربون بمناورات وجهود متباينة. ففي موضع يشدد ضغطهم على العدو ويستमितون في التقدم. وفي موضع آخر يتقهقرون. إذ أسرع الى حل صفوف فرقتهم وأعادهم الى تنظيم الكوهورت Cohort الروماني المعتاد، وأصدر اليهم أمراً بأن يحملوا حملات متقطعة وبفترات متتالية هدفهم منها فتح ثغرات في جبهة العدو. وحظر عليهم أن يقوموا بهجوم شامل عليه بكل القوات، بل ان يشتبكوا معه في معارك جانبية ثانوية. أبلغ أميلیوس هذه الأمر الى قواد الفرق، فنشروها بدورهم على الجنود. ثم بدأوا يطبقون الخطة فما يكادون يلدجون الثغرات ويتخللون الفراغات ويفصلون كتائب العدو بعضها عن بعض حتى يبدأوا بهجماتهم الموضعية، بعضهم يتعرض له من الجوانب حيث يكون مكشوفاً لا يستتره سلاح. وبعضهم يلتف عليه ليهاجمه من الخلف. وبهذه الخطة نجحوا في تحطيم الفلاتنكس المقدوني وكانت قوته تكمن في العمل الموحد والوحدة المتلاحمة. وآلت المعركة العامة بالنتيجة الى قتال الفرد للفرد، أو الفصائل الصغيرة للفصائل الصغيرة حيث ضربات سيوف المقدونيين القصيرة لاتنال مآرباً من تروس الرومان الطويلة، في حين لا تصمد دروعهم الخفيفة لطعنات سيوف الرومان القوية الثقيلة، فكانت تخترقها وتنفذ الى الأبدان. ولا تطيل القول، ما لبث المقدونيون ان انكفأوا على الأعقاب وولوا الأدبار.

في زخم القتال، سقط سيف [ماركوس] ختن اميلیوس وابن [كاتو] من يده وكان قد أبلى خير بلاء وأظهر من الشجاعة ما لا زيادة عليه. فحز ذلك في نفسه، ولا غرو فهو شاب فائر الدم واين رجل شهير، ربي على أسمى المبادئ الخلقية وأشدها صرامة، فكانت تدفعه دائماً الى ابداء الشجاعة التي تجعله قُدوةً. ولهذا هانت الدنيا في عينه وعدّ حياته عبئاً عليه أن عاش ليرى اعداءه يغنمون سلاحه فأخذ يركض هنا وهناك، مستوضحاً الوجوه وكلما تبين له في احدهما صديقاً أو زميلاً أنهى اليه بمصيبتته ورجا منه العون حتى اجتمع له عدد كبير من الشجعان فشقوا طريقهم كتلة واحدة وهو في مقدمتهم بين صفوف جيشهم وحملوا على الموقع فهزموا من فيه بعد معركة ضارية وكثير من الجرحى وأكثر منهم قتلى واثموا احتلاله وأنطلقوا يبحثون فيه عن سيف [ماركوس] حتى استخلصوه من أكداس الأسلحة والقتلى. فطاروا فرحاً بنجاحهم وارتفعت اصواتهم بنشيد النصر، ثم واصلوا هجومهم وقد تضاعفت حماستهم - على من بقي صامداً في مواقع العدو. أخيراً تم القضاء على ثلاثة آلاف مقدوني ثبتوا الى آخر لحظة وواصلوا القتال بشجاعة مذهلة حتى النهاية. ووقعت مقتلة عظيمة بالغارين أيضاً

حتى أمتلاً السهل وسفوح التلال بجثثهم وصبغت الدماء مياه نهر [ليوكوس] الذي لم يعبره الرومان الا في اليوم التالي للمعركة. وقيل أنه قتل ما يزيد عن خمسة وعشرين ألفاً من جنود العدو. في حين يذكر [پوسيدنيوس] أن قتل الرومان لم يزيد عن المائة ويقول [ناسيكا] انه ثمانون ليس غير. لقد تقرر مصير هذه المعركة في فترة وجيزة جداً على سعتها وأهميتها وضخامة الجيوش التي خاضتها فقد بدأ الاشتباك في الساعة الثالثة بعد الظهر وما أن أزفت الرابعة حتى كان العدو يولى الأدبار. وقضى المنتصرون بقية النهار في مطاردة الفارين فقطعوا في هذا، حوالي ثلاثة عشر وأربعة عشر ميلاً. ولما تابوا الى المعسكر كان الليل قد تقدم بهم كثيراً. وأستقبلهم خدمهم بالمشاعل وجاؤوا بهم الى خيامهم التي كانت مضاعة ومزدانة بأكاليل الغار واللبلاب^(٣١)، وهم يهتفون لهم ويهللون فرحين. لكن القائد العام كان حزيناً لأن أصغر ابنه اللذين جاء معه الى الحرب، لم يعد مع المنتصرين. كان أحب ابنائيه الى قلبه لعلمه بتفوقه على كل أخوته في الشجاعة والحصل الحميدة فهو جريء، ركاب خطر طمأحا الى المجد، ما زال في مطلع شبابه يافعاً^(٣٢). ولم يكن لاميلوس من سبيل الا ان يعتبره من الهالكين في حين أن قلّة تجربته في الحرب جعلته يتوغل كثيراً في صفوف الأعداء ويتأخر. ترك الجنود عشاءهم وحملوا المشاعل والمصابيح وتوجه فريق الى خيمة اميلوس بينما خرج فريق الى الخنادق يبحثون عنه بين قتلى أول الهجوم. وران الأسى والوجوم على المعسكر كله وضجّ السهل باصوات الرجال وهي تنادي [سكيبويو]. فهو على يفاعته موضع حبّ وأعجاب الكلّ لأنه بزّ اقارنه باخلاقه الرفيعة التي كانت تؤهله للقيادة والمشورة. وانصرم الليل أغلبه وكاد اليأس يستولى على الباحثين، واذا به يعود والدماء الجديدة تملوه لقد افرط في استثماره نصره الأول وقمادى في الاستمتاع بفوزه مثل كلب أصيل. ذلكم هو [سكيبويو] الذي دوخ قرطاجنة [ونومانتيًا] Numantia وقوضهما، وكان بلا مماراة أعظم من يستحق الاجلال والتعظيم بين كلّ الرومان، وأكبرهم سلطاناً ومكانة بينهم. هكذا أرجات آلهة الحظّ استياءها وغيرتها من النجاح العظيم الى مناسبة أخرى وتركت أميلوس يستمتع بهذا النصر دون أن تشويه شائبة أو يخالطه اذى.

(٣١) الغار هو النبات المقدس عند ابوللو واللبلاب هو النبات المقدس عند باخوس. إن باخوس يخلط أحياناً بينه وبين هراقليوس، كان محارباً. واننا لنقرأ في الاساطير عن حملاته في الهند. الا ان العادة التي درج عليها الرومان بتزيين خيم المنتصرين بنبات اللبلاب - ربما نشأت من سبب أكثر بساطة. يقول يوليوس قيصر انه وجد في معسكر پومبي خيمة لتتولس وغيره من القادة مُزدانة باللبلاب اذ كانوا قد وثقوا أنفسهم بالنصر.

(٣٢) كان يبلغ السابعة عشرة من العمر اذ ذاك.

أما عن [پرسیوس]، فقد بادر الى الفرار من [پيدنا] بخيالته التي لم تلحقها خسارة تذكر، وبلغ [پللاً Pella] وهنا أنضمت اليه فلول الرجال الذين أخذوا ينحون باللائمة والتفريع على الخيالة ويصمونها بالخيانة والجبن وامتدت ايديهم لانتزاعهم من فوق سروجهم والقائهم على الأرض فتشابكوا بالأيدي وتضاربوا وخشي [پرسیوس] عاقبة الخلاف فحاد في سيره عن الطريق العام ونزع عنه ثياب الأرجوان لئلا تُعرف هويته، ووضعها امامه ونزع تاجه وحمله بيده ثم نزل عن صهوة جواده ليسهل عليه تبادل الكلام مع اتباعه، وظلّ يقوده من الزمام ثم توقف أحد الجنود متظاهراً بشدّ سير نعله، وتبعه آخر متعللاً بارواء حصانه، وأحتج ثالث بشرب الماء وهكذا بداؤا ينفضون من حوله متباطئين متسكعين بالتدريج. ولم يكن يدفعهم الى هذا خوفهم من العدو قدر ما كانوا يخشون بطش [پرسیوس]، فقد دفعه اضطرابه واختلال عقله بسبب ما أصابه، الى محاولة تبرئة نفسه بالقاء وزر الهزيمة على كل شخص. وبلغ مدينة [پللاً] ليلاً فقصدته [يوكتوس Euctus] و[يودئوس Edæus] أمينا بيت المال وأثارا سخطه بتعدادهما له اخطاءه الماضية، وبالجراءة التي أظهرها، واللوم الذي أختارا له وقتاً غير مناسبٍ فطعنهما بخنجره وقتلها. وبعد هذا تخلى عنه الجميع خلا [ايقاندرا] الكريتي، و[ارخيديموس الايتولي] و[نيون] البويوسي. أما من الجنود العاديين فلم يتخلف غير الكريتين لا بدافع من أخلاص بل لطمع في ثروته الطائلة التي حرصوا عليها كما يحرس النحل على فقيره. فوزع عليهم منها بعض الاقداح والأواني الذهبية والفضية وغيرها مما بلغت قيمته خمسين تالنتاً^(٣٣). لكن عندما خرج من مدينة [امفيبوليس Amphipolis] الى [غاليسوس Galipsus]^(٣٤) وهدأت مخاوفه بعض الشيء عاد اليه داؤه القديم المعروف «الجشع» فراح يتظلم الى اصدقائه قائلاً انه اضطر بحكم الظروف القاسية الى النزول للكريتين عما يخصّ الاسكندر الكبير، وأخذ يتوسل الى من كانت في حوزتهم والدموع تجول في عينيه، بأن يسمحوا له بافتدائها بالمال. وأدرك الخبيرون بنفسيته أنه يريد أن يلعب بالكريتي على الكريتي. اما من صدقّه واعاد اليه فقد خرج بصفقة المغبون، اذ لم يدفع لهم شيئاً مما وعدهم. بل وتمكن بالحيلة ان يبتزّ من اصدقائه ثلاثين تالنتاً (كله وقع في يد العدو بعد زمن وجيز). ثم انه ابحر بما معه من أموال الى [ساموثراكي Samothrace] وهناك لجأ الى معبد [كاستور وپوللوكس]^(٣٥).

(٣٣) كان يخشى ان يدفع بها اليهم لئلا يثير المقدونيون حقد الآخرين [ليقي المرجع نفسه ٤٥].

(٣٤) في إحدى المخطوطات كتبت Alpsus.

(٣٥) حمل معه مبلغاً قدره (٢٠٠٠) تالنت. كان الخوف مستولياً على پرسيسوس عند وصوله [امفيبوليس] لئلا يسلمه الأهلون الى الرومان خرج يحمل فيليب الابن الوحيد الذي صحبه فصعد المنبر وحاول الكلام إلا =

عُرف المقدونيون دائماً بحبهم للموكهم وشدة إخلاصهم لهم. والآن بعد أن أن تحطم قطبهم الرئيس أنهارت معنوياتهم وأعلنوا الطاعة لاميلوس، ومكنوه من بلادهم في غضون يومين ليس غير. وهذا يؤيد الرأي القائل بمخالفة الحظ له على ما يبدو. إن العلامة السماوية التي نزلت عليه في [امفيلوليس] كانت من قبيل الخوارق الطبيعية.

فعندما كان يقرب هناك وقبل بدء الشعائر المقدسة نزل من السماء برق على الهيكل بصورة مباغتة وأشعل النار في الخشب فأكمل حرق القربان وعلى أية حال فإن أجلى المظاهر الخارقة للطبيعة التي حصلت بمشيئة من السماء - يبدو من حكاية الاشاعة التي أنتشرت في روما عن نصره. ففي اليوم الرابع لهزيمة [برسيوس] في [بيدنا] وبينما كان أهالي روما يشاهدون سباق خيل^(٣٦). بدأت فجأة اشاعة من مدخل الملعب مؤداها ان [اميلوس] قد هزم [برسيوس] في معركة عظيمة. وانه يقوم الآن بإخضاع مقدونيا كلها لسلطانه. وسرى هذا النبأ بين الناس ليخلق فرحة عامة فتعالت الهتافات والتهليل، وضجت المدينة به طوال اليوم. وعندما لم يتعين مصدر النبأ وظهر أن كل شخص كان ينقله الى الآخر على علته، صرف عنه النظر مؤقتاً واسقط من الحساب الى أن وصلت الأخبار المؤيدة بعد أيام قليلة^(٣٧). فعدت الاشاعة الأولى من قبيل الخوارق. لاحتوائها على الواقع والحقيقة تحت مظاهر الخيال. وقيل أيضاً أن انباء المعركة التي جرت قرب نهر [سارغا Sarga] في ايطاليا، أنتقلت الى ايلويونيسوس في اليوم بالذات. كذلك معركة الميديين في [ميغال] فقد وصلت انباؤها الى [پلاتيا Plataea] في فترة يوم واحد أيضاً. وعندما هزم الرومان اتباع [تاركوين] وحلفاءهم اللاتين شوهد في روما بعدها بقليل، شخصان طويلا القامة مهيبا الطلعة زعماء انهما يحملان انباءً من المعسكر، ورجح انهما [كاستور وپولوكس] وكان أول حديث لهما قرب النافورة. فأبدى عجبه لما سمح منهما وقيل انهما ابتسما ومساً لحية الرجل مساً رقيقاً فتحول شعرها

= ان العبرة خنقته ولم يساعفه اللسان بعد عدة محاولات فطلب من [ايفاندر] أن يتكلم عنه إلا ان الأهالي الذين كانوا له من الكارهين رفضوا الاستماع اليه وهتفوا «إذهب، اذهب لقد قر رأينا أن لانعرض أنفسنا وزوجاتنا وأطفالنا للخطر بسببكم، فالهرب الهرب وأتركنا لعلنا ننال أفضل ما يمكن الحصول عليه من شروط الغالب». وكان ايفاندر الشخصية الرئيسة في عملية اغتيال [يومينيس] وقد فتك برسسيوس بايفاندر بعد ذلك في [ساموثراكي] خشية أن يكشف دوره في الاغتيال.

(٣٦) فاليريوس ماكسيموس [٨: ١، ٨]. يقول ان مصدر الاشاعة هو شخص يدعي [فاتينيوس] وهذا نقلها عن شابين يمتطيان جوادين اشبهين [كاستور وپولوكس... طبعاً!].

(٣٧) تأيد الأمر بوصول كوينتوس فابيوس ماكسيموس ابن ايميلوس، ولوكولوس لينتولوس، وكوينتوس ميتلوس الذين أرسلهم [ابيلوس] فبلغوا روما في اليوم العشرين الذي عقب المعركة.

(٣٨) في [ماغناريا] وهي ليست بالبعيدة عن [ريحيوم].

من الأسود الفاحم الى الاشقر الذهبي، وهذا ما أيد صحة اخبارهما. وألصق بالرجل لقب [اهينوباروس Ahenobarbus]^(٣٩): اي ذا اللحية الصفراء. وفي زمننا هذا وقع حدث يجعل كل ما اتينا الى ذكره قابلاً للتصديق. فعندما شق [انطونيوس] عصا الطاعة على [دوميتيان] أعتري روما غمّ عظيم اذ توقعت حروباً طاحنة تأيتها من ناحية جرمانيا. وعلى حين غرة سرت اشاعة النصر على افواه الناس دفعة واحدة، دون أن يدري أحد مصدرها، وضجت المدينة كلها بانباء تشير الى مقتل انطونيوس، وابادة عسكره عن بكرة ابيه إلا شردمة^(٤٠). وقوي الاعتقاد ورسخ في النفوس حتى عدداً كبيراً من الحكام أخذوا يقدمون القربان. وعندما حُقق عن المصدر ولم يعثر عليه تضاءلت الاشاعة وأخذ كل امرء يزيجها عن عاتقه ليلقيها على الآخر، وأخيراً ضاعت في الجمّ الغفير كأنما غيبها البحر الاوقيانوس ولم يعد أحد يذكرها بكلمة في المدينة لانها لم تجد حقيقة تدعمها. ومع هذا زحف [دوميتيان] بقواته الى ميدان القتال. فالتقى بالسعاة القادمين وسلموه رسائل تبئته بالنصر وعند التأمل وجد أن ظهور الاشاعة كان يوافق اليوم الذي تحققت فيه الغلبة، مع العلم ان المسافة بين منطلق الاشاعة وميدان المعركة كانت تزيد عن الفين وخمسمائة ميل. في الواقع ان اموراً كهذه لا تجد معاصرنا تعليلاً أو تفسيراً.

ولنعد الآن الى موضوعنا، وصل الى [ساموثراكي]، القائد الروماني [كيبينوس أوكتافيوس Cnaeus Octavius] وألقى مراسي اسطوله تحتها. وسمح [لبرسيوس] أن يبقى متمتعاً بحق اللجوء إكراماً منه واجلالاً للأرباب^(٤١). إلا أنه اتخذ كل الاحتياطات للحيلولة دون هروبه بحراً. على أن [برسيوس] لم يبق وزناً لهذا وانما أتصل [باورواندس Oroandes] الكريتي وهو صاحب سفينة صغيرة، واقنعه بان ينقله هو وأمواله بحراً. وبرهن هذا على انه نموذج صادق للكريتيين فقد نقل المال الى السفينة وأوصى برسسيوس أن يكون هو وأولاده وأقرب خدمه وأكثرهم ضرورة مجتمعين علي الرصيف القريب من معبد [سيريس] ليركبوا السفينة. لكن اورواندس أفلح بغنيمته من المال في مساء ذلك اليوم دون أن يأخذ برسسيوس. كان يكفي هذا بؤساً وعاراً أن يضطر الى الهبوط هو وزوجه وأولاده من نافذة ضيقة في الجدار وهم الذين لم يعرفوا في حياتهم معنى الضيق أو الفرار. وها هو الآن يطلق الزفرات من قلبه الذي أثقله الألم والشقاء، عندما استوقفه أحدهم وهو يدور في ارجاء الساحل هائماً يبحث

(٣٩) اسمه [لوشيبوس دوميتيوس] ومن نسله نيرون الامبراطور.

(٤٠) شبت هذه الثورة في جرمانيا العليا في العام ٩٢ ق.م.

(٤١) كانت آلهة ساموثراكي تتمتع باحترام ومهابة خاصين عند سائر الاقدمين ديودورس.

عن السفينة. وأبلغه أن [ارواندس] هو الآن في عرض البحر. كان الوقت فجراً، فلم يبق له أي أمل بالفرار^(٤٢) وقفل راجعاً مع زوجته فبلغا الجدار ركضاً وإن كان الرومان قد لمحوهما قبل أن يصلوهما بزمان. وكان هو نفسه قد وضع أولاده وديعةً عند [ايون] أخلص ندمائه في الماضي، واحد الغادرين به في الحاضر. وهذا ما حمله بالدرجة الأولى على تسليم نفسه لأولئك الذين كان أولاده تحت رحمتهم (الحيوانات نفسها قد تقدم على ذلك عندما ينزع منها صغارها). وكان قد وضع أكبر ثقتة في [ناسيكا] فقصدته ولم يجده هناك، فلم يسعه إلا أن يندب سوء حظه وإن يسلم نفسه إلى [اوكتافيوس] بعد أن سُدَّت أمامه كل السبل. وهنا تبين أنه مبتلى برذيلةٍ أخطَّ من الجشع وأعني بها التهالك على الحياة، وكانت سبباً في حرمانه العطف وهو الشيء الوحيد الذي يأبى الحظَّ عن استلابه حتى من أخطَّ الناس وأعظمهم شراً، فقد طلب أن يؤخذ إلى [اميلوس]^(٤٣)، فنهض هذا من مقعده وتقدم لاستقباله يحفُّ به اصداقاه وأدمعت عيناه لمنظر رجل كبير المقام هوى إلى الحضيض عندما غضبت عليه الآلهة وعثر به حظه. وهنا بدأ [پرسیوس] في أخزي موقف وأدعاه إلى الاشمزاز، إذ ألقى بنفسه تحت قدمي أميلوس وأخذ يقبل ركبته ويولول ويصرخ مستجيراً صرخات لا تمت إلى الرجولة بصلة. فلم يحتمل اميلوس ذلك ولم يطق سماعه وخزره بنظرات يشيع فيها الأسى والغضب وقال له:

- لماذا تتعب نفسك أيها الشقي في تيرئة الحظِّ من أشدِّ ملامك له بسلوئك هذا الذي يظهر بمظهر المستحق لهذه النكبة ويجعل سعادتك الزائلة تبدو وكأنها أكثر مما تستحق، لاحتالك الحاضرة؟ ثم لماذا تحطُّ من قيمة انتصاري وتجعل فتوحاتي تافهة بالكشف عن جنبك والبرهنة على أن خصومتك تحط من قدر الرومان. إن البسالة المنكوبة تستندر الاحترام العظيم حتى من قلوب الاعداء، لكن الجبن وإن لم يكن كثير النجاح، إلا أن الرومان لا يجابهونه إلا بالاحتقار.

ومع هذا فقد أنهضه ومد اليه يده، وأوصى [توبيرو] أن يبقيه عنده. ثم أنه دعا ولديه وختنيه، وطائفة من وجهاء الرومان الشبان إلى دخول خيمته معه. وظلَّ جالساً مدة طويلة وهو مطرق لا ينطبق بحرفٍ حتى اعجبوا لأمره، وأخيراً راح يحدثهم عن الحظوظ وأحوال البشر فقال:

(٤٢) يقول ليقي انه أخفى نفسه في إحدى زوايا معبد (كاستور وبولوكس) لا تلفت النظر.

(٤٣) ما أن صار الملك في امفيبولس تحت رحمة (اوكتافيوس) حتى وضعه في سفينة القيادة وحمل كل أمواله وكنوزه ثم أرسل ساعياً سريعاً إلى اميلوس يعلمه بالأمر. فأرسل هذا (توبيرو) خنته مع آخرين من علية القوم ووجهائهم لاستقبال [پرسیوس] وكذلك أمر بنحر الذبائح وكأنه نال نصراً جديداً. وخرج كل من كان في المعسكر لمشاهدة الملك الأمير الذي توجه وحيداً نحو خيمة اميلوس وهو مشتمل بمعطف أسود.

- مما قدر لذلك الذي يعلم جيداً بأنه بشرٌ لا أكثر، أن يعتز بنفسه ويصعّر خده وهي في أحسن حال من الرخاء والرفاه، وإن يتيهه عجباً وخيلاء عندما يفتح مدينة أو بلداً أو مملكة، لا أن يفكر في تغيير حظه هذا تفكيراً متزنأ. فعلى كل المحاربين أن يجدوا فيه عبرة، ويتخذونه مثلاً لضعفٍ قد ينتابهم، واحتمال تعرضهم للخطأ بصورة عامة، وإن يتعلموا منه درساً وهو أن لا ثبات ولا دوام لحالٍ وإلى كم يستطيع المرء أن يضمن السلامة لنفسه؟ في حين أن النصر والنجاح هو في مقدمة ما يوجب علينا التخوف من انقلاب حظوظنا. وتأملنا القليل في جوهر الأشياء، وملاحظتنا دوران المقادير السريع، وعرضة أحوال المرء إلى التبدل أن يشعروا بالترحم ونحن في وسط الفرح العظيم. عندما ترون سليل الاسكندر نفسه الذي بلغ أعلى درجة من السلطان وحكم أعظم امبراطورية يوطأ بالأقدام في فترة من الزمن وجيزة، لا تزيد عن ساعة واحدة. عندما ترون ملكاً يحيطه جيش جرار وما هي لحظة إلا وهو يتسلم قوت حياته من أيدي المنتصرين عليه. أقول ايسعكم الايمان بثبات وخلود ما نملكه في ايدينا مع وجود ما يدعى بتقلبات الحظِّ؟ كلاً أيها الشبان، دعوا جانباً كبرياءكم الباطلة وزهوكم الفارغ بالنصر، وأجلسوا جلسة التواضع ولا تحولوا أنظاركم عمّا سيأتي به الزمن، وما كتب لكم في لوح المستقبل يحمل أن يعكس ما قد يجعله غضب الآلهة الأخير نهايةً وختاماً لسعادتنا الحاضرة».

وقيل أن [اميلوس] أسهب في هذا وتلكم كثيراً، وبعدها صرف الشبان فخرجوا وهم يشعرون باتضاع كبير، وإن خيلاءهم وزهوهم قد استؤصلا من نفوسهم تماماً.

بعد هذا، وزع [اميلوس] قطعات جيشه على المقرات في المدن ليصيبوا الراحة. وخرج هو في زيارة لبلاد الأغرقيق. وقضى هو الآخر فترة راحة مفيدة مشرفة له ذات طابع انساني لا تقلَّ خطراً عن أعماله الحربية، فقد خفف من ضيقة الناس أثناء رحلته وأصلح حكوماتهم ووزع الهبات والعطايا على المحتاجين، من القمح والزيت وما شاكلها مما أكتظت به مستودعات الملك المغلوب. فقد قيل انه أختزن كميات لم تنضب. حتى بعد أن أنتهى تحقيق جميع الطلبات وتوزيع كل الهبات. ووجد في دلفي عموداً عظيم الجرم مربع الشكل من الرخام الأبيض أعد ليكون قاعدةً لتمثال الملك الذهبي فأمر ان ينصب فوقه تمثاله قائلاً أن العدل يقضي بأن يُخلى المغلوب مكانه للغالب وذكر أنه نطق في [اولمبيا Olympia] القول الذي سمعه الجميع: «إن [فيدياس] نحت جويتر [هوميرس]» وعندما وصل المفوضون الرومان العشرة من روما^(٤٤)، أعاد إلى المقدونيين مدنهم وأراضيهم، ومنحهم حق العيش في حرية

(٤٤) هؤلاء الموفدون العشرة كانوا من درجة قنصل. وقد قدموا لمساعدة اميلوس في وضع أسس لحكم =

يمارسون شرائعهم الخاصة دونما تدخل وأكتفى باستيفاء غرامة للرومان قدرها مائة تالنت وهي ضعف ما كانوا يدفعونه للملوكهم. ثم احياء مختلف حفلات التمثيل والالعاب الرياضية، وقدم القربان للآرباب وأقام الولائم وضروب الملاهي، وقد سددت نفقاتها كلها من خزائن الملك. ولم يبخل بشيء من المال في احيائها. وأظهر فيها مبلغ علمه بالمقامات وأماكن الضيوف في تلك المناسبات، وبأي أسلوب يستقبل كل واحد وفقاً لمنزلته وقيمته. وانجز ذلك بدقة جميلة انتزعت الأعجاب من الأغريق فقد وجدوا أنه قوي الملاحظة في ما يتعلق بأصول الدعوات والحفلات، دقيق الذوق حتى في هذه الصغائر رغم انشغاله في الأمور العظيمة. ولم يكن بما يشينه أن يبدو هو نفسه بين كل هذه المظاهر الفخمة الرائعة أبهى المشاهد وادعاها الى الإعجاب ومصدر أعظم السرور لمدعويه. ولقد قال لاولئك الذين بدوا مشدوهين من اهتمامه ومواظبته: إن ما يظهره من دقة في تنظيمه وليمة لا يقل عما يظهره في تنظيم وادارة جيش والثاني منهما يجعله مرهوب الجانب في نظر العدو. والاول يجعل الوليمة مقبولة من الضيفان ولم يكن ثناء الخلق على كرمه وسمو روحه بأقل من ثنائهم على سجاياه وشجاعته. لم يطق صبراً على المقادير العظيمة من الفضة والذهب التي كدست أكداً في قصور الملك، ودفع بها الى أيدي أمناء بيت المال الكويستورية Quæstor لتودع الخزانة العامة. وسمح فحسب لابنيه اللذين عرفا بحبهما للعلم أن يستأثرا بكتب الملك. وعندما جرى توزيع جوائز البسالة النادرة منح [إيلوس تويبرو] ختته، انا ذهبياً بزن خمسة ارطال، وهذا هو [تويبرو] الذي نوهنا سابقاً به، وقلنا أنه كان واحداً من ستة عشر قريباً يعيشون معاً في بيت واحد ولا يملكون إلا حقلاً صغيراً. ولقد قيل أنه الاناء الوحيد الذي دخل منزل آل [إيلي] ليس عن طريق الشراء بل المكافأة للشجاعة وتكريماً ولم يكونوا قبل هذا قد استعملوا ذهباً أو فضة لا هم ولا زوجاتهم.

بعد أن أعاد أميلوس الأمور الى نصابها^(٤٥) غادر اليونان. وفي مقدونيا نصح المقدونيين بألا يقرطوا في الحرية التي نالوها بمساعى الرومان وان يحرسوا عليها باطاعتهم القانون والمحافظه على وحدتهم وتماسكهم^(٤٦). ثم انه توجه الى [إيروس]. وكان قد تسلّم أوامر من

= جديد. وعن مهمتهم واسمائهم أنظر ليفي [١٧:٤٥ و ١٨] لم يفهم الأغريق المقصود بالحرية التي جاءهم بها الرومان لاسيما وقد أقرتت بغرامة مقدارها مائة تالنت! كما وجدوا تناقضاً في البيان نفسه فقد تحدث عن تركهم يمارسون تطبيق قوانينهم الخاصة في حين فرضت عليهم في الوقت عينه قوانين جديدة وانذروا بغرض الزيد. وما كان يقلقهم أشد القلق هو تقطيع اوصال مملكتهم ووضع نهاية لوحدهم الوطنية.

(٤٥) بنهاية هذه الاجراءات أمر بتنفيذ حكم الموت بـ[اندرونيكوس] من اتيوليا، وبـ[نيون] من بويوتيا فقد كانا صديقي (برسيوس) دائماً ولم يتخليا عنه.

(٤٦) هذه الامتيازات التي حُبب بها المقدونيون من الرومان لم تكن بالأمر الفائق العادة. فقد قسمت بلادهم =

مجلس الشيوخ تقضي أن يمكن جنوده الذين حاربوا [برسيوس] تحت امرته، من نهب مدن تلك البلاد، ولكي ينجز تنفيذ الأمر بصورة مفاجئة ويأخذ السكان على حين غرة، بعث يستقدم عشرة من رؤساء كل مدينة وعند حضورهم أمرهم أن يهسيئوا له كل ما يوجد من المنازل الخاصة والمعابد من الذهب والفضة ويأتوا به اليه في يوم حدده لهم. وأرسلهم وبرفقة كل وفد نقيباً [ستوريون = قائد مائة] مع سرية جنود بحجة التفتيش عن الذهب وتسلّمه. ولكن لما حل اليوم المتفق عليه هبوا في كل المدن وأنطلقوا لتنفيذ قرار النهب والسلب، وساقوا في ساعة واحدة مائة وخمسين ألف عبد رقيق من أهاليها. ونهبت سبعون مدينة. على أن كل ما أعطي من هذا الخراب الشامل والدمار التام، لم يكن ليزيد عن أحد عشر دراخماً للجندي الواحد. وبعد هذا كان الناس يرتعدون من سماع كلمة اعلان حرب بعد أن عادت ثروة أمة بكاملها، بهذه الفائدة التافهة والريح الضئيل على كل فرد عند توزيعها.

بعد أن أجز أميلوس هذا العمل الذي كان يتنافى تماماً مع طبعه الرقيق وخلقه السمع، أنحدر الى [اوريكوس Oricus]^(٤٧) ومنها أركب جنوده السفن مبحراً الى ايطاليا، ومخر عباب التيبير على ظهر سفينة الملك، وهي ذات ستة عشر رصيف تجذيف. وكانت قد تزينت زينة مفرطة بغنائم الأسلحة وأقمشة الأرجوان والقرمز. حتى أن الرومان المحتشدين على الضفاف لاستقباله أخذوا يتلمضون مسبقاً بحلاوة موكب نصره القادم، وهم يرقبون سفينته تشق الماء متهادية ضد التيار. إلا أن الجنود الذين اثار ت كنوز برسيوس الجشع في نفوسهم ولم يحصلوا على ما توهموه حقاً لهم، كانوا يبطنون سخطاً وحنقاً على اميلوس، وظهر سخطهم هذا على شكل شكوى من صرامة قيادته وطغيانه. وأشارت الدلائل الى انهم راغبون عن منحه موكب نصر. وعلم بوجهة نظر الجنود هذه، [سرفيوس غالبا Servius Galba] عدو اميلوس. وكان يخدم تحت أمرته بمنصب [تريبون]، فخرج يعلن بكل جرأة ان اميلوس لا يستحق موكب نصر، ودخل بين الجنود يبذر الفتنة ويحرض عليه فزاد من صدودهم عن اميلوس، وتقادى في هجومه بأن طلب من مفوضي (تريبونات) الشعب أن يسمحوا له بارجاء سرد اتهاماته وحججه الى اليوم التالي لأن الساعات الاربع الباقية من النهار لا تكفي. لكنهم ابوا عليه ذلك وأمره بالكلام فوراً دون تأجيل إن كان لديه شيء. فبدأ يلقي خطبة طويلة عريضة مألها بشتى المفتريات وصنوف الملام حتى أنتهى الوقت وزحف الظلام،

= الى اربعة اقاليم وحرّم بحكم القانون على أي شخص أن يتزوج أو يتأجر أو يبيع عقاراً لآخر ليس من سكنه للأجانب وأوجب على كل نبلائهم وأطفال هؤلاء الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة عشرة بان ينقلوا فوراً الى ايطاليا كما وضعت السلطة العليا في سائر مقدونيا بأيدي شيوخ رومانيين معينين.

(٤٧) ميناء في مقدونيا.

ففض التريبيونات الاجتماع. وأشدت ثورة الجنود واحدقوا [بغالبا] وعقدوا الخناصر على مؤامرة، وفي صباح اليوم الباكر حاصروا [الكابتول] وهو الموضع الذي عينه التريبيونات لعقد الاجتماع الثاني.

وفي ساعة الصباح الأولى وضعت قضية موكب النصر في التصويت، وياشرت القبيلة الأولى بالتصويت ضده، فانتشر النبا بين الأهالي حتى بلغ مجلس الشيوخ. كان الجمهور والحق يقال، شديد الألم لما يلاقه اميلوس من نكران وسوء معاملة، لكن هذا الألم لن يتعد حد الكلام ولم يخلف أثراً. وأستنكر رؤساء المجلس هذا العمل ووصفوه بالحطة والنذالة وأخذوا يحضون بعضهم بعضاً على وضع حد لتمرد الجنود ووقاحتهم، والأ فلن يلبثوا أن يخرجوا عن طورهم، واذ ذاك يتعذر ضبطهم ويلجأون الى أعمال العنف اذا ما ترك لهم أمر حرمان اميلوس من موكب النصر.

ثم أنهم ساروا بعدد كبير يشقون لأنفسهم طريقاً بين الجموع الحاشدة الى محل الاجتماع وطلبوا من [مفوضي الشعب] تأجيل التصويت الى أن يتكلموا بما في ضميرهم امام الشعب. فأوقف التصويت وبعد أن ساد الصمت نهض [ماركوس سرفيلوس Marcus Servilius] الحائر درجة القنصل، وكان قد أشتهر بفتكه بثلاثة وعشرين خصماً تحدوه كلهم في معركة واحدة، ووجه الكلام الى الجمهور قائلاً:

- لقد وضع لي الآن أكثر من أي وقت مضى، كم كان عزيزنا اميلوس پاولوس قائداً عظيماً، واني لأعجب حقاً اذ أرى كيف استطاع تحقيق هذه الانتصارات العظيمة بجيش ساد التمرد وركبته الحطة والدناءة. كما اني لا أجد في نفسي قدراً من الدهشة يكفي شعباً فخر بالانتصارات على الايليريين والليغوريين وأبي الآن، حقداً وحسداً، أن يستمتع بمنظر الملك المقدوني يقاد الى الأسر حياً بقوة الرومان وسوددهم، ويخف به كل تراث فيليب وأمجاد الاسكندر. وانتم الذين تقدمتم الى الأرياب بالقرايين فور سماعكم بأصغر أشاعة نصر أنتشرت في المدينة بمحض الصدفة، وتوجهتم اليها بالدعاء ليكون النبا حقيقياً، أليس غريباً منكم أن تخذعوا الآلهة وتحرموها الاكرام الواجب وتخذعوا انفسكم بحرمانها فرصة النصر، بعد أن عاد القائد يحمل لكم فتوحات لا شك فيها ولا شبهة. وكأني بكم لا تطيقون رؤية ثمرة مجهوده العسكري، أو كأني بكم عازمين على الصفع عن عدوكم! ومن هذين البديلين يجمل بكم أن تحرموه موكب النصر خير لكم من حبسه عنه حسداً له وحقداً! الى هذا الحد بلغ بكم سوء النية، حتى تعيروا أذنناً صاغية لرجل ليس في جسده الأملس الطري من فرط الراحة والعناية البيتيية الزائدة - أثر ما لندبة

حين يقف أمامنا هنا منتقاصاً من قيمة جزال ومطالباً بالحد من حقوقه، جنرال علمته جراحنا كيف يحكم على بسالة القادة وجبنهم».

قال هذا ونضا عنه ثوبه وعرض صدره العاري الذي ازدحمت فيه الندوب ثم دار على عقبيه ليكشف عن أجزاء أخرى من جسمه جرت العادة سترها. قم توجه بالخطاب الى [غالبا] قائلاً: - لعلك تسخر بي لما أفخر به الآن أمام أخواني المواطنين؛ اني ما أصبت بها إلا في مجال خدمتهم التي اثبتتني على صهوات الخيل ليلاً ونهاراً. ولكن، اذهب فاجمع الأصوات وانا في أثرك، وكن منتبها الى الوضع وناكر الجميل، والى من أثر الملق والمداهنة على اطاعة أمر قائده.

قيل إن هذه الخطبة افحمت الخصوم والجمت أسنة الجنود، وقلبت آراءهم رأساً على عقب فبادرت القبائل الى اعلان موكب نصر لاميلوس وقد تم تنظيمه على الشكل التالي:

نصبت الجماهير منصات ومنابر في الفورم وفي ملاعب السركس Circus (وهو الأسم الذي يطلقونه على محلات سباق الخيل) وفي كل المواضيع التي يمكن رؤية المواكب منها. وأرتدى المتفرجون ثياباً بيضاء وفتحت ابواب المعابد جميعاً وكانت مزدانة بالاكاليل يفوح منها البخور والعطور. واخليت الطرق ومنع المرور فيها وعين عدد كبير من ضباط الشرطة لحفظ النظام فكان يدفعون الناس الى الخلف ويمنعون احتشادهم في الطرق وعبورهم في الشوارع الرئيسية. ودام الموكب ثلاثة أيام كاملة. ولم يتسع اليوم الأول لكل ما خصص له، وقد شاهد المتفرجون التماثيل والصور والمنحوتات الضخمة التي غنمت من العدو وهي تمثل مختلف الآلهة؛ حملت على مائتين وخمسين عربة ومرت تباعاً.

وفي اليوم الثاني شاهد الجمهور رتلاً من عربات النقل أثقلت بأبدع الدروع المقدونية، الفولاذية منها والنحاسية. وكانت قد صقلت بهذه المناسبة فأخذت ترسل بريقاً يخطف البصر. وكانت قطع السلاح مكدسة كدساً ظاهره الاهمال وباطنه تدبير متعمد ينطوي على براعة. والقصد منها أن تبدو مكدسة كيفما أتفق فألقيت اللآمات والخوذ فوق الثروس، والزرد فوق طماقات الساق وطرحت الدرقات الكريتيية بعضها على بعض، والقويت دروع الصدر وكنانات النشاب التراقية بين جُم الخيل. وبرزت من كل هذا ذبابات السيوف عارية عن اغمادها، مختلطة بالحراب المقدونية الطويلة. كانت هذه الأسلحة قد شدت وحزمت بقدر من الرخاوة يسمح لها أن تصنطق وتحتك فيخرج منها رنين حاد وضجة مزعجة رهيبية، تبعث الخوف والرعدة في أوصال الناظر اليها، وان كانت غنائم من عدو مغلوب.

بعد هذه العربات أقبل ثلاثة آلاف رجل يحملون فضة مصكوكة نقداً، في سبعمائه وخمسين وعاءً كل واحد منها يزن ثلاثة تالنتات. ويحمله أربعة رجال، وتقدم آخرون يحملون أنية وأكواباً من الفضة رتبت بنظام دقيق ليجعل منها منظراً بديعاً، وهي من التحف العجيبة من ناحية احجامها ودقة صنعتها وغرابة نقشها.

وفي الصباح الباكر لليوم الأخير تقدم الموكب نافخو الأبواق، يوقعون اللحن الذي يضره الرومان لتحريض الجنود على القتال، وليس الحان الموكب والاحتفالات الدينية والاستقبالات الرسمية. ثم تلتهم ارهاط من الشباب وعليهم معاطف سوداء مزركشة الحواف يقودون مائة وعشرين ثوراً مسنماً مطلية القرون رؤوسها مزدانة بالشرائط وأكاليل الزهر، ولحق بهم صبيان أيفاع يحملون أوعية ذهبية وفضية، تحوي القرابين السائلة. وأعقبها رتل يحمل العملة الذهبية في أوعية يزن الواحد منها ثلاثة تالنتات وعددها سبعة وسبعون^(٤٨). ثم تلاهم حملة الوعاء المكرس للآلهة الذي أمر أميلبيوس بصنعه وزنته عشر تالنتات^(٤٩)، وهو مكفّت بالاحجار الكريمة. ثم مرت أكواب [انتيفغونس] و[سلوقوس Seleucuse]، والاكواب المصنوعة في تراقيا وصحاف الذهب التي كانت تستعمل في مائدة [پرسيسوس] وضع فوقها سلاحه ودروعه وعلاها تاجه. ثم انقضت فترة، بعدها أقتيد أولاد الملك الأسرى تحف بهم بطانة من خدمهم وحشمهم ومعلميهم وكلهم منخرطون في البكاء يرفعون الى المتفرجين أيدي الضراعة. وكانوا يحثون الأولاد على احتذائهم في التوسل لاسترداد العطف وكان بينهم إبنان وبنات. حال صغر سنهم دون شعورهم بمقدار بؤسهم. وعدم الشعور هذا جعل حالهم أدعى الى الألم والرتاء. فشخصت عيون الرومان المشفقة الى الأحداث وسمرت فيهم بحيث لم يشعروا بپرسيسوس عندما مر، ولم يقو كثيرون على مغالبة دموعهم. تابع الجميع هذا المشهد بمزيج من الأسى والفرح حتى غاب الولد عن النظر.

ثم مرّ [پرسيسوس] وهو متشح بالسواد وفي قدميه حذاء مقدونيّ. وبدأ ذاهلاً شارد الذهن لعظم بلواه، وتبعه رهط كبير من أصدقائه وندمائه وقد قلب الغمّ سحناتهم، وحملوا المتفرجين على الاستنتاج من بكائهم ومن دوام تطلعهم الى [پرسيسوس] بأنهم يحملون حظه العاثر معظم شكواهم، وانهم لا يكتثرت بمصائرهم - وكان پرسيسوس قد رجا في اميلبيوس أن يجنبه هذا

(٤٨) بحساب پلوتارخ كان ثم ما وزنته ٢٢٥٠ تالنت من العملة الفضية، و٢٢١ تالنت من العملة الذهبية. وبحسب ما أورده فاليريوس أنتياس فان الكمية تزيد عن ذلك. ويقول فيليبوس پاتروكولوس أنها ضعف هذا المبلغ. وربما كان قوله أصبح من تقديرات غيره. لأن النقود التي جلبت من مقدونيا حررت الرومان من دفع الضرائب لمدة (١٢٥) سنة.

(٤٩) هذا الاناء يزن ستمائة پاوند، لأن زنة التالنت الواحد تساوي ستين پاوند. وقد كُرس ل(چوپتر).

الموقف ولا يدخله في مسيرة الموكب. فبعث اليه اميلبيوس الذي سبق له ان احتقر جنبه وتهالكه على الحياة - بجواب مفاده ان الأمر منوط به الآن كما كان منوطاً به في الماضي - وقصده أن يقول له أن هذا العار يمكن تفاديه بالموت، وهو ما لا قبل لهذا الرجل الخائر القلب به. فظهر مختئاً جباناً لأمل ما يساوره، وسمح لنفسه أن يعرض كجزء من غنائمه!

بعد هذا عرض اربعمائة تاج من الذهب الخالص قدمتها لاميلبيوس وفود المدن تكريماً لنصره. ثم لاح [اميلبيوس] وهو جالس في عجلة حربية فخمة الزينة (رجل قمين بالنظر حتى وهو مجرد عن شارات السلطة) وكان متسربلاً بالأجوان المنسوج بخيوط الذهب. وفي يده اليمنى غصن من الغار، ومرّت خلفه قطعات الجيش كلها يحمل افرادها جميعاً أغصان الغار وهم في نظام الكتائب والسرايا. وكان بعضهم ينشد القصائد التي تتخللها النكات التعليقات اللاذعة جرياً على العادة الرومانية في هذه المناسبات^(٥٠)، وراح بعضهم ينشد أغاني النصر، ومشيداً ببطولات [اميلبيوس] الذي كان محط اعجاب كل الرجال وتقديرهم. وأما الطيبون منهم فما كانوا يشعرون نحوه بأي حسدٍ، إلا قدر ما قد تشاء ارادة أحد الأرباب التقليل من سعادة عظيمة جداً ومفرطة فيعمد الى تعقيد شؤون الحياة البشرية بحيث لا يعود يخلص أحد من النوائب والمصائب. وقد صدق [هوميروس] وأجاد في قوله «إن الذين يعتبرون أنفسهم موضع بين وبركة، هم كل من كان حظّه من الخير والشر متساوياً»^(٥١).

كان لاميلبيوس اربعة ابناء، اثنان منهما تبنتهما أسرتان كما أسلفت وهما [سكيبسيو] و[فابيوس] أما الباقيان اللذان انجبهما من قرينته الثانية فقد نشأ في بيته. وتوفياً في مقتبل العمر. الأول مات قبل دخول ابيه ظافراً بخمسة ايام وله من العمر اربعة عشر عاماً ومات الثاني بعد تمام موكب النصر بثلاثة ايام وله من العمر اثنا عشر عاماً. ولم يبق روماني واحد الا وهو عميق الشعور بما اعتلج في نفس اميلبيوس من آلام. ولم يبق من لم ترتعد فرائصه من قسوة الحظّ. وعدم ترده في صبّ هذا القدر الكبير من الزح على بيت، كان ممتلئاً بالسعادة والبشر، حافلاً بالقرابين. وفي مزجه الدموع والحسرات بأناشيد النصر والظفر.

واهتدى أميلبيوس بتفكيره المجرد الى أن الشجاعة والاقدام ليسا مجرد الثبات امام السلاح والرمح، بل الصمود في وجه صدمات الحظّ ونوائبه. ولهذا ثبت وكيف نفسه لهذه الاضداد والمتناقضات في أحواله، بتوجيهه الخير على الشرّ، وموازنة شؤونه الخاصة بشؤونه العامة،

(٥٠) اورد سوتونيوس في السيرة التي كتبها ليوليوس قيصر نماذج من أناشيد انشدت بمناسبة النصر الذي حققه على الغالين.

(٥١) يشير هنا الى فقرة من خطبة أخيل الموجهة لبريام [الايادة ٥٢٦:٢٤].

ولم يترك اي مجال لاستلاب شيءٍ من عظمة انتصاره، والحطّ من شأنه. فما أن فرغ من مواراة ابنه الأول التراب حتى دخل في موكب النصر. وما أن أكمل مراسيم دفن موت الثاني بعد تمام الموكب حتى يادر الى عقد اجتماعٍ عامٍ وخطب في المواطنين خطبة رجل لا يحتاج الى تعزية الآخرين، بل الأخذ على نفسه معونة أخوانه المواطنين في الضراء التي عاناها هو نفسه. قال:

- أنا الذي ما كنت أخشى قطّ كل ما هو بشريّ، ظللت دائماً أشعر برهبة وتخوفٍ من تقلبات الحظ وغدره، ولهذا السبب بالذات كان الحظ في هذه الحرب يساير كلّ أموري مثلما تسير الريحُ الرخاءُ السفينة، وهو ما جعلني اتوقع تغييراً وتحولاً. لقد قطعت البحر الآيوني في يومٍ واحدٍ وبلغت [كوركسيرا] مبحراً من [برنديزيوم Brundisium]. ومن هناك وصلت [دلفي] بعد خمسة ايام وضحيت فيه. وفي خمسة ايام أخرى كنت بين عساكري في مقدونيا. وبعد أن أنجزت قربان تطهير الجيش المعتاد، باشرت واجباتي فوراً وفي غضون خمسة عشر يوماً وضعت نهاية مشرفة للحرب. لكنني بقيت هدفاً لانقلاب الحظّ عليّ، وأنا ماض في سبيل تصريف شؤوني السبيل المهد العظيم اليُسر. كنت أخشى أكثر ما أخشى ربة الحظّ عليّ وأنا آمن بعبيد عن غائلة اي عدوّ. وانتابني الشعور نفسه وانا في عرض البحر انقل جيشي المظفر الى ارض الوطن مع غنائم هائلة وملك أسير. والواقع أن الشكّ لم يبرحني حتى بعد عودتي اليكم سالماً ورؤيتي المدينة ترفل باثواب البهجة وتعمها الفرحة والبشائر وتفطر في تقديم القرابين وبقيت غير مطمئن، وانا العالم الخبير بان ربة الحظّ لا تغدق النعم العظيمة إلا اذا ما زجتها النعمة وشابها الترح. ولم أستطع أن احررّ ذهني من الخوف. وبقي فكري يكدر ويجاهد كشأنه دوماً ليتكهن بما سيحلّ من سوءٍ بهذه المدينة، حتى سقطت هذه البلية عليّ بين اسرتي، وحملت الى القبر جثمانني اعز وأغلى ابنين، هما خلفاي الشرعيين واحداً اثر الآخر وليس لي ثالث بعدهما - جرى ذلك في وسط الاحتفالات بالنصر. وانا الآن شخصياً مطمئن، آمن من الخطر على الأقلّ فيما يحظى عندي باهتمام. واني في الواقع واثق ومقتنع بأن ربة الحظّ ستبقى من الآن فصاعداً الى جانبكم ولن تلحق بكم اي أذى بعد أن شفت غليل حسدها كاملاً من نجاحنا الأعظم بما فعلته به وأخذته مني. لقد جعلت الفاتح مضرب المثل في تغيير حال البشر كما جعلت الأسير الذي قاده في موكب النصر، مع فاروق واحدٍ وهو ان [پرسوس] وان كان مغلوباً - ما زال يتمتع باولاده، بينما حرم المنصر عليه من هذا.

تلك هي الخطبة القيمة الرفيعة التي قيل ان اميلبيوس وجّهها الى الشعب نابعةً من قلب

مخلص، ليس فيه تصنع أو افتعال.

ومع اشفاق اميلبيوس على حال [پرسوس] ورغبته في بذل ما يمكنه من عون بما هو في حدود سلطته، إلا أنه لم يفلح في أكثر من العمل على نقله من السجن العمومي [الكورچير Corcer] الى مكان أكثر نظافة وأحفل بالراحة واليق بالبر. وذكروا أن [پرسوس] أُضرب عن تناول الطعام حتى الموت اثناء ما كان تحت الحراسة. وقال بعضهم أن موته كان من أعجب وأغرب ما حدث: فقد حفظ له حراسه الجنود ضغينه وبغضاً شديداً لسبب ما، ولم يجدوا طريقة لازعاجه ومضايقته أجدى من حرمانه النوم باقلاقه كلما اراد ان يخلد الى الراحة واستنبطوا حياً ووسائل لابقائه مستيقظاً على الدوام، فرق جسمه ونحل حتى مات^(٥٢).

ولحق به اثنان من ابناؤه بعد زمن قصير، وقيل ان ابناً ثالثاً له اسمه [الاسكندر] أصبح فتاناً بارعاً في تحت وحفر التماثيل الصغيرة. واتقن اللغة الرومانية قراءة وكتابةً مما أهله الى وظيفة كاتبٍ قضائية كان فيها مثلاً للنزاهة وقدوة في الاخلاص للعمل.

وعزوا الى اميلبيوس منفعة طيبة للشعب من جراء فتحه مقدونيا وهي المبالغ الطائلة التي صبّها في الخزانة العامة مما جلبه فأعفي الناس من اداء الضرائب الى عهد قنصلية [هروتوس Hirtius] و[پانسا Pansa] ويصادف ذلك أول الحرب بين [قيصر] و[انطوني].

ولوحظ أمر غريب عجيب في حياة [اميلبيوس] وهو انحيازه الدائم الى طبقة الاشراف رغم تعلق الشعب الشديد به وأجلالهم له ولم يؤثر عنه أنه قال أو عمل شيئاً ينطوي على تودد للجماهير، أو أستجلاب ارضائها، بل كان دوماً يقف في صف الأشراف في كلّ المسائل السياسية. وهذه هي المثلية التي قذف بها اپيوس [Appius] في وجه [سكيبيو افريقانوس] ابنه بعد زمن. كان هذان أقوى رجلين في روما وقتذاك، متنافساً على منصب الرقيب العام Censor أولهما يعضده الاشراف ومجلس الشيوخ وهو الحزب الذي لم يتخلّ عنه آل آبي Ap-pii مطلقاً. أما الثاني فقد ركن الى نفوذ عامة الشعب وتعلقه وعلى منزلته الرفيعة، وفي ذات يوم لمح [آبيوس] قادماً الى الساحة العامة يحفّ به أخلاط من الدهماء وعامة الناس ورهط ممن لم يمرّ على عتقه وحرّيته زمن طويل. إلا أنهم كانوا يمتازون بكفاءة تهم في دخول أي حوار يعمل على جمع كلمة العامة واستخدامهم في تحقيق كل ما يطلبون بالضحج والالحاف. فناده بصوت جهير قائلاً:

- ايه يا اميلبيوس پاولوس! لو عرفت ما يحدث فوق الأرض، لما وسعك إلا اطلاق الزفرات في

(٥٢) أورد هذا [ديودورس الصقلي ٢٦]. وقيل ان [فيليب] توفي قبل ابيه، لكن لا يعرف متى كان ذلك واين؟ لأن كتب ليقي وديودورس التي تعالج هذه الفقرة - مفقودة.

قبرك! فهاهذا ابنك يطمح الى وظيفة المراقب العام بمعاونة [اميلوس] الدلال العمومي
[ليچينيوس فيلونيكوس Licinius Philonicus]!

لقد كان [سكيبو] أبداً موضع ثقة الشعب لأن سيل فضله لم يكن ينقطع عنهم، ولكن
[اميلوس] اباه رغم بقائه في صف الاشراف، كان يتمتع بمنزلة شعبية لا تقل باية حال عن
أكثر الناس أطلاقاً لثقة الشعب، وسعيًا وراء حبه بمختلف الوسائل. لقد أظهرت الجماهير ذلك
عندما وجدته لائقاً لمنصب المراقب العام^(٥٣) فأثرته به دون كل الشخصيات الرفيعة التي
سعت اليه، وهي ثقة تعدد في أعلى درجات القدسيّة لما تتضمن من سلطة عظيمة ناهيك
بتدخلها في شؤون أخرى. فللمراقب العام سلطة طرد اي عضو في مجلس الشيوخ وتعيين من
يراه لائقاً، بدلاً منه. وله أن يفرض عقوبة فضح الشبان المتعطلين بمصادرة خيولهم. ومن
سلطته أن يقوم اموال كل فرد لأغراض دفع الضريبة، وان يقوم باحصاء النفوس العام [بلغ
عدد رجال في الاحصاء الذي اجراه اميلوس عندما كان يمارس الوظيفة: ٤٥٢, ٣٤٧ رجلاً
بالغاً. وأعلن إسناد زعامة مجلس الشيوخ الى (ماركوس لبيديوس) الذي أكرم بهذا المنصب
اربع مرات قبلها، ورفع عن مقعد المجلس ثلاثة هم أقل الشيوخ منزلة وأهمية وأجرى مثل هذه
التعديلات في احصاء طبقة فرسان الجيش الروماني بمعاونة زميله في الوظيفة (مارشيوس
فيلبوس).

فيما كان اميلوس منشغلاً في كثير من الأمور الخطيرة، ابتلي بداءٍ دلت اعراضه الأولى
على الخطورة، ثم تبين بعد زمن أنه ليس كذلك، على انه كان مزعجاً مستعصياً. فابحر الى
[فيلبا Velia]^(٥٤) في جنوب ايطاليا للاستشفاء نزولاً عند نصح اطبائه، وبقي قريباً من
البحر مدة طويلة مستمتعاً بكل ما اتيح له من هدوء وراحة. في حين ظلّ الرومان يشناقون
الى عودته، وكثيراً ما عبروا عن مشاعرهم ورغبتهم في قدومه جهراً في الملاعب والمحلات
العامة. ثم انه دنا موعد تقديم قربان ديني دعت الضرورة اليه، وخيل لأميلوس أن جسمه
يقوى على المشاركة فيه، فعاد الى روما. وأنجز المراسيم الدينية مع بقية الكهنة. وكان الشعب
في اثناء ذلك يتكالب عليه ويحيط به حشوده لتهنئة بسلامة العود وطيّب المقام، وفي اليوم
التالي قرب الى الآلهة اعترافاً بفضلها في شفائه. وبعد انتهائه من ذلك عاد الى منزله وجلس
الى الطاولة ليتناول غداءه واذا بنوبة مفاجئة تعتربه فراح يهذي، ثم غاب عن الوعي تماماً وفي

(٥٣) أنتخب لوظيفة الجنسور مع [كوينتوس مارشيوس فيليبوس] بعد قنصليته الثانية باربع سنوات. ومما
يذكر ان هذا المنصب استحدث في العام ٤٤١ ق.م.

(٥٤) يكتب بليوتارخ «إليا Elea» هنا تقريباً لها عن (فيلبا) ويقول انها مدينة ايطالية لئلا يخلط بينها وبين
سميتها في بلاد الاغريق.

اليوم الثالث^(٥٥) لفظ انفاسه الأخيرة. وبذلك انتهت حياة لم تجد في اي نمط أو أسلوب من
الأشياء سبيلاً قد يؤدي بها الى السعادة، حتى أن روعة جنازته كان فيها من الغرابة ما
يستوقف النظر ويدعو الى العجب. فلقد كُرمت فضائله وسجاياه بالجليل المهيب من المراسيم
عند مواراته التراب اذ انها خلت من الذهب والعاج ومظاهر الفخفخة المعتادة في تلك
المناسبات وحفلت بالحب والثقة والاحترام لا من ابناء وطنه وحدهم بل من الاعداء الذين قاتلهم
أيضاً فقد تعاون على حمل نعشه والسير به كل الشبان الاشداء من الاسبان والليغوريين
والمقدونيين^(٥٦)، وسار خلفه الطاعنون في السنّ منهم، ينادونه بالمحسن اليهم والمحافظ على
أوطانهم. لأنه كان يعامل المغلوبين بالعطف والتسامح، ولا ينفك في كل أدوار حياته يهتم
بشؤونهم ويواصل بذل الخير لهم ويقضى لهم حاجاتهم كأنهم من ذويه وأقربائه. وذكروا
المؤرخون أن تركته لم تزد عن ثلاثمائة وسبعين ألف دراهماً خلفها لابنيه بالتساوي الا أن
أصغرهما [سكيبو] نزل عن حصته لأخيه لأن أسرة [افريقانوس] التي تبنته كانت ذات ثراء
عريض.

هذا ما جاءنا عن حياة وسيرة أميلوس^(٥٧).

(٥٥) في ١٥٩ ق.م.

(٥٦) بعض النبلاء المقدونيين الذين كانوا آنذاك في روما. ويقول فاليريوس ماكسيموس [٣:٤:٢] انه كان أشبه
بموكب نصر ثان فقد حمل هؤلاء نعشه وهو مثقل برسوم وأشكال تمثل مناظر من هزيمة بلادهم.

(٥٧) هناك قولة واحدة وجهها لابنه (سكيبو) تستأهل الذكر هنا: «الجنرال الكفو لا يبده معركة الا عندما
يدفع اليها كضرورة لا بد منها».

نظام ملكي هناك، وفق النظام اللقيديموني. ويكتب [طيمائوس] أن سوء الحال أدى بالسيراقوزيين حتى الى اخراج [غيليبوس Gylippus] من البلاد بصورة غير مشرفة له بعد أن دمر سمعته الذي لم يقف عند حدا ما ظهر منه عندما كان قائداً للجيش، ويورد كثير من المؤرخين حكايات عن الاعمال الشريرة القذرة التي ارتكبتها [فاراكس] السبارطي، وكاليبوس Gallippus الآثيني لغرض نصب نفسيهما ملكين في صقلية. من هما هذا الرجلان؟ ماذا كانا يملكان من قوة ليندفعنا الى تحقيق فكرتهما هذه؟ كان أولهما تابعاً لديونسيوس عند طرد الطاغية من صقلية. وكان ثانيهما أمر سرية مشاة مأجور، من مرتزقة [ديون] جاء معه الى صقلية. لكن تيموليون أرسل نزولاً عند رجاء السيراقوزيين والحاحهم وجاء مزوداً بسلطة قائد ولم يكن بحاجة الى من يؤمره لأن سلطة جاءت منقادة اليه برجاءٍ وطلب. إلا أنه مع هذا تنازل عن سلطانه بملء رغبته فور اتمامه تحرير صقلية من الغاضبين المضطهدين.

وما يستحق أعجابنا هو أن اميليبوس فتح مملكة مقدونيا الواسعة الفنية دون أن يلمس أو ينظر الى مال، ولم يفد منها فلساً واحداً في حين عُرف بالكرم وسخاء اليد على الآخرين بكل ما يملك. وليس قصدي أن أضع علامة استفهام على تيموليون لأنه قبل منزلاً ومزرعة ثمينة في الريف، هدية من السيراقوزيين فليس قبولها مما يخلّ بقواعد الشرف، على أنه يكون أعظم شائناً ومجداً في رفضه لها. واسمى ما ترتفع اليه النفس هو عزوفها عن شيء لا غبار على أخذه، وبما أن أقوى الاجسام واصحها هي التي تستطيع احتمال صبارة الشتاء، وحمارة الصيف وقت تغيير الفصول الفجائي بكامل اليسر، وبما أن أصح العتود وأشدها ثباتاً هي التي لا تتورم بالرخاء والعيش الهنيء، ولا تذوى وتضممر بالنوائب والملمات، لذلك نجد خلق اميليبوس بقي ثابتاً بارزاً على سلوكه وتصرفاته، ظلّ سامياً رفيعاً حتى عندما فقد ابنين عزيزين مثلما كان عندما حقق أعظم انتصاراته وفتوحه. في حين أن تيموليون بعد أن أنزل العقاب العادل باخيه وهو عمل بطولي لا جدال فيه، استسلم لحزن لا مبرر له وحط من قدر نفسه بالغم والكآبة وحرّم نفسه عشرين سنة، من الظهور في المحلات العامة أو ممارسة اي عمل سياسي.

والحق يقال أن من الحسن والجميل جداً أن يُشجب أي عملٍ ضيع، ويقابل بالكره والاحتقار، أما أن يظلّ المرء عرضةً للخوف من اي شكل من أشكال الملام، أو التقريع، فهذا يدل على قلب رقيق سليم الطوية، ولا يدل على قلب باسل شجاع.

أوجه المقارنة بين تيموليون وباميليبوس باولوس

تلكما قصتا حياة هذين الرجلين العظيمين، وهما عند المقارنة متشابهتان بدون شكٍ باستثناء اختلاف بسيطٍ للغاية. فقد حاربا عدوين قويين: حارب أحدهما المقدونيين ونازل ثانيهما القرطاجيين. وكان نصرهما مجيداً. الاول انتزع مقدونيا من خليفة [انتيفونس] السادس في الملك. والثاني حرّر صقلية من الطغاة المغتصبين وأعاد الى الجزيرة حريتها السالفة. إلا اذا كان سجلنا لاميليبوس ميزة على صاحبه، وذلك باشتياكه مع جيش [پرسيسوس] الكامل العدة والعدد، المؤلف من رجال كثيرًا ما تغلبوا على الرومان في سوح القتال. في حين كان تيموليون قد وجد خصمه [ديونسيوس] في أسوأ حال، وأكثره بأساً. وبطريق المعادلة تقدّم تيموليون اميليبوس لأنه قضى على حكم طغاة عديدين، وسحق جيشاً قرطاجياً جراراً، بعدد تافه لا يذكر من الرجال الذين جمعهم من كل صقع وبلد وليس كجيش اميليبوس المتجانس المؤلف من جنود نظاميين حسني الضبط عجم القتال عودهم وتعودوا الطاعة. خلافاً لجيش تيموليون الذي جمعهم اليه أمل الكسب والريح لا خبرة ولا مراس لهم في القتال تحكمت فيهم الفوضى وتعذر قيادهم.

عندما تتكلم خاتمة الحروب بالنجاح، وتكون وسائل بلوغها غير متساوية فان أعظم التقدير هو بالتأكيد، للقائد الذي حقق انتصاره بقوات أقل عدداً.

وكلا الرجلين عرفا برصانة الخلق، وحسن المسلك في معالجتهم كل ما عَنّ لهما من مهامٍ وواجبات إلا أن اميليبوس انفرد عن صاحبة بأن لشرائع وعادات بلاده التي ربي عليها وثقف منذ نعومة اظفاره يداً في صلاحه لتولى الشؤون العامة وتصريفها، في حين أن تيموليون كوّن شخصية بمجهوده وسعيه الخاص وهذا واضح: لأن الرومان في ذلك العصر كانوا على حدٍ سواء شعباً منظماً طائعاً يحترم القانون، ويتبادل أفراد الخضوع والانصياع بعضهم لبعض، بينما نرى والدهشة تأخذ بلبنا أنه لم يخلص قائد واحد من قواد اليونان في صقلية من الفساد والتفسيح باستثناء [ديون]، ولهذا كان الكثير يحقدون عليه، ويتهمونه كذباً بعمله على اقامة

پیلوپیداس

PELOPIDAS

364 _ 420 ق.م

والمجاهدة في اجتناب الردى ليس موضع لومٍ إن لم يكن الغرض من الحياة العيش الدنيء
الذليل. وليست الرغبة في الموت من الخصال الحميدة إن كان الدافع إليها أحتقار الحياة. ولهذا
نجد [هوميرس] يحرص دوماً على أن يدفع باشجع ابطاله وأكثرهم أقداماً - الى ميدان
المعركة وهم مدججون بالسلاح الجيد. ولذلك كان المشترعون اليونانيون ينزلون العقوبات
بأولئك الذين يتركون دروعهم ولا يعاقبون من يفقد رمحه أو سيفه، ففي عرفهم أن الدفاع عن
النفس هو أقرب الصفات الى الرجولة من الهجوم في المعركة. وهذا يصدق خصوصاً على حاكم
المدينة أو القائد العسكري. وبحسب تصنيف [إفيقراطس Iphicrates]^(٢) إذا كانت القطعات
الخفيفة بمثابة اليمين للجيش وإذا كانت الخيالة بمثابة قدميه والمشاة بمثابة صدره، فإن القائد
هو الرأس. وعندما يقتحم القائد مواطن الخطر، لا يخاطر بحياته وحدها بل بكل من تعتمد
سلامتهم على سلامته، والعكس بالعكس. لقد كان [كاليكراتيداس Callicratidas] عظيماً
في كل شيء سوى الخطأ الذي تضمن جوابه لكاهنٍ نصحه بأن ينتبه لسلامته لما بدأ في قربانه
من دلائل غير طيبة. فقد قال «في هذه الحالة لن تفقد سيارطاً رجلاً واحداً». الحق يقال أن
[كاليكراتيداس] ليس غير فردٍ واحدٍ عندما يشارك في معركة برية أو بحرية، أنا بوصفه
جنرالاً فهو يجمع في حياته حياة الكل، ويصعب أن يعتبر فرداً واحداً إذا أدى موته الى هلاك
عدد كبير. وخير من هذا الجواب، جواب [انتيفونس] الشيخ عندما اضطر الى القتال في
[اندروس]. فقد قال له أحدهم «ان سفن الاعداء تزيد سفننا عدداً» فأجابه قائلاً «وأنا؟ بكم
من السفن تعدني؟» يقصد بهذا أن القائد المجرب الباسل تقويمه بالكثير. ومن الواجبات
الأولى التي تحتتمها وظيفته هو المحافظة على نفسه فبانقاذاها من الخطر انقاذ من تعتمد
سلامتهم على سلامته. وانه لا يسعني إلا الاشارة [تيموثيوس Timotheus] الذي قال
ل[خاريس Chares] عندما كشف له عن الجراح التي اصابته وترسه المخروق بسنان رمح:

- على أنني كنت أشعر بالخزي والعار في اثناء حصار ساموس عندما سقط رمحٌ بالقرب مني،
لأنني انكشفت للعدو مثل صبيٍ غريب وانا جنرال أقود جيشاً عرمرماً.

الحق يقال ان مخاطرة الجنرال بحياته لا غبار عليها إن كانت تصل الى حدٍ تقرير نتيجة
فاصلة. فهنا ينبغي عليه أن يقاتل بنفسه ويقامر بحياته غير مبالٍ بالعواقب الحتمية التي قد
تجعل قائداً يموت في اراذل الشبخوخة على الأقل، إن تجعله يموت بسبب الشبخوخة. أمّا إذا
كانت الفائدة من اقدمه قليلة، والخسارة من سقوطه كبيرة، فمن يرغب في أن يخاطر بحياة
جنرال، لأجل الحصول على نجاح جزئي يستطيع ان يحزره اي جندي بسيط؟

(٢) جنرال أثيني شهير. كان مغموراً إلا أن أعماله رفعت في صيته.

سمع [كاتو الأكبر Cato Major] أحدهم يثني على آخر بالاقدام والجرأة التي لا حدود لها
في المعركة فقال: «هناك فرق كبير بين التقدير الواجب للبسالة وبين الاستهانة بالحياة». وهو
قول في غاية الصواب. فنحن نعلم على أقل تقدير أنه كان [لأنتيفونس] جندياً مقداماً لا حدَّ
لجرأته وكان يشكو علةً وسقم بدنٍ، فسأله عن سبب سوء حاله ولما علم بدائه أمر اطباءه ببذل
جهدهم في شفائه. وما أن شفي البطل المغوار، حتى زایلته الجرأة وطلق ركوب الاخطار طلاقاً
لا رجعة فيه ولم يعد يظهر ذلك الاندفاع الاهوج في المعارك. فعجب [انتيفونس] لأمره وأخذ
يلومه على تبدل حاله، فلم يخف الجندي عنه السبب اذ قال:

- سبب جسني أنت يا مولاي! بانقاذي من ذلك البؤس والشقاء الذي كان يدفعني الى
الاستهانة بالحياة.

وهذا الشعور نفسه كان يحذو السيباريتي Sybarite^(١) في قولهم عن السيبارطين: إن
استسهالهم الموت في الحرب، ليس مما يستوجب الاعجاب والتقدير، مادام ذلك يحررهم من
عملهم الشاق وحياتهم البائسة. في حين كان الواقع يقضي على [السيباريت] وهم شعبٌ
رقيق خانع أن يكرهوا الحياة، لأنهم لم يكونوا يخشون الموت في اطلابهم المجد وشوقهم الى
السؤدد. لكن اللقيديمونيين وجدوا أن سجاياهم تحقق لهم سعادة في الحياة وفي الممات سواءً
بسواءٍ. كما نجد في قول القائل:

ماتوا، لا استهانةً منهم بدمائهم وارتخاضاً لارواحهم

ولا بتوهمهم أن الموت هو شيء حسن بذاته.

لم يكن من رغبتهم أن يعيشوا لا أن يموتوا،

بل أن ينهضوا باعبائهما، بصورة تستحق الثناء.

(١) مستعمرة يونانية أسست منذ زمن قديم في خليج تارنتوم. كان موقع المستعمرة الجغرافي وغنى أهلها
وقوتهم قد وصل بهم حتى الترف الذي ضرب به المثل. كانت عاصمتهم تدعى أولاً [سيباريس] من اسم
النهر الذي يجري قريبها. ثم أبدل الاسم بـ(بيثوريوم) أو (بيثوري).

هذا، حسب اعتقادي، ما يجدر بي أن أوطيء به لسيرة كلٍّ من [پيلوپيداس، ومارچلوس] وكلاهما من عظماء الرجال، وكلاهما سقطا بسبب اقدامهما ويسالتهما. كانا من الشجعان المعدودين وكسباً لبلاديهما انتصارات عظيمة ورفعاً من شأنها لحسن بلاتهما في الحرب ضدّ عدوين رهيبين. فالتاريخ يذكر عن ثانيهما دحره [لهنيبعل] وهو في أوج قوته. وأولهما هزم اللقيديميين في معركة فاصلة حينما كان هؤلاء سادة البحر والبر. إلا أنهما خرقاً كلّ حدفي تهورهما وارتخصا الحياة بطيش لا مثيل له في حين كان الحاجة الى أمثالهما من القادة ماسه جداً. إن الشبه الذي يجمع بين خصالهما، وأتفاق ميّتتيهما دفعني الى أن أقرن ما بين سيرتيهما.

انحدر پيلوپيداس ابن [هيپوكلس Hippocles] من أسرة شريفة في [ثيبه]، مثل [إپامنداس]. ونشأ في خفض من العيش ورغد وورث وهو صغير مالاً كثيراً. فجعل همّه التفرّج عن ضيق المستحقين الطيبين من الفقراء، مبرهنًا على أنه سيد ماله لا عبداً له. وقد رأى افلاطون «أن من الرجال فريفاً ضاق عقله عن استعمال ثروته، وفريفاً من السفهاء اساء استخدامهما، فالأول يعيشون عبيداً مخلدين لأرباحهم، والأخرون يظلون دوماً عبيداً للملاذم وشهواتهم». وهناك فريق ثالث من قبيل من سمح لنفسه أن يتنعم بجمود پيلوپيداس شاكرًا كرمه وعطفه ألا [إپامنداس] صديقه، فانه لن يستطع اقتناعه بشيء مما يملك من دون سائر اصدقائه، فلم يرُ بدأً من النزول الى مستوى فقره، وجدان الرضى في لبس الثياب الرثة مثله، وتناول طعامه التافه واحتمال للمشاق لا يهن، وأبداء جرأة لا تعرف احجاماً في ميدان الحرب. وكان مثل [كپانيوس Capaneus] في يورپيدس: «ملك ثروة طائلة، ولا تراه يفخر بها»

اذ يدركه الخجل ويفضل حياة إپانداس المنفردة وتفلسفه، أصبح فقره العتيد الموروث أخفّ وأسهل حملاً. إلا أن [پولپيداس] تزوج امرأة من أسرة رفيعة وأنجب أولاداً، ومع هذا فقد بقي لا يفكر في مصالحه الخاصة إلا تفكيراً ثانوياً، وانصرف انصرافاً تاماً الى معالجة المسائل العامة، فضيع ثروته. فلما توجه اصدقاؤه بلومه، والتأكيد على ضرورة المال الذي أهمل شأنه، أجابهم قائلاً:

- أجل، فهو ضروري لنيقوديموس Nicodemus. مشيراً الى رجل مقعدٍ ضريب.

وبدأ كلاهما مؤهلين بطبعهما لكل أسباب المعالي والبروز. على أن [پيلوپيداس] فضّل الرياضات البدنية بينما شغل [إپامنداس] بالدراسة والعلم. وكان أولهما يقضي ساعات فراغه في الصيد والاختلاف الى الپالسترا Palaestra (مدرسة المصارعة)، والثاني كان

يداوم سماع المحاضرات وممارسة التفلسف؛ ومن آلاف المزايا الجديرة بالثناء فيهما، التقدير المعقول الذي لا يوازيه شيء، لتلك الرغبة الدائمة في عمل الخير والصدقة التي صانها من كل ما يشينها في حملاتهما العسكرية، وأعمالهما العامة، وفي فترة حكمهما الجمهورية. فلو نظر أي شخص الى حكم [اريسستيديس مع تموستوكلس]، و[اسيمون مع پيركلس] و[نيسياس مع الكيبيداس] لهالة الفوضى والحقد، والتباغض الذي كان يسود علاقة كل زميلين. ولو تحول بنظره الى [پولپييداس وإپامنداس] وتأمل العطف والاحترام الذي كان يظهره أولهما للثاني، لما وسعه إلا الاقرار بأنهما أفضل قرينين وأكثرهما انسجاماً في الحكم والقيادة، وأحق وأحفى بالتجلة من الآخرين الذين كانوا أكثر انشغالاً في مناصبة العداة بعضهم لبعض، من مناجزتهم لاعداة البلاد. ويعود السبب الحقيقي في هذا الى خصالهما الحميدة وأخلاقهما العالية، فهما لم يجعلا الثروة والجاه هدف مساعيهما - وهو هدف لا بدّ يؤدي الى الشنآن المنطوي على التنافس والخصام - بل كانا من البداية موطني النفس بدافع سامٍ على أن يريا بلادهما تنعم بامجاد أعمالهما. ولهذه الغاية جنّد الواحد منهما مؤهلات الآخر واستخدم كما لو كان واستخدمها مؤهلاتهما معاً ويرى كثيرون أن جبل الودّ المتين هذا قد شدّهما منذ معركة [مانتينيا] (٣) التي شاركها فيها جنباً الى جنب. اذ كانا بين افراد النجدة التي ارسلتها [ثيبه] لتعزيز صفوف اللقيديميين اصدقائها وحلفائها في ذلك الحين. فقد وضعاً في صنف المشاة معاً واشتبكا مع الاركاديين. فانكفأ الجناح اللقيديموني على اعقابه وفرّ عدد كبير. فما كان منهما إلا أن ضمّا ترسيهما وصمدا في وجه المهاجمين. فأصيب [پيلوپيداس] بسبعة جراح امامية، وخرّ صريعاً فوق كومة من قتلى الجانبيين. ومع أن إپامنداس عدّه في حكم الميت، فقد تقدم للدفاع عن سلاحه وجثته، وحارب جمهرة كبيرة من الاعداة بمفرده. مفضلاً موته على التفريط بصديقه البائس. وخارت قواه لاصابته بطعنة رمح في صدره وضربة سيف في ذراعه، فخفّ ملك السپارطين [آغيسپوليس Agesipolis] من الجناح الثاني الى نجدته وأنقذهما في آخر لحظة.

بقي اللقيديمونيون بعد هذا، يظهرن الصداقة (الثيبه) (٤)، وهم في الواقع ينظرون نظرات

(٣) علينا أن لا نخلط بين [إپامنداس] فتلك كانت عزمًا على اللقيديميين وهذه كانت غنماً. وربما وقعت المعركة موضوع حديثنا في السنة الثالثة من الاولبياد الثامن والتسعين [ديودورس ٥:٢٥].

(٤) وجدت سپارطا طوال حروب الپلويونيسي حليفاً مخلصاً في الثيبين. وبمساعدة سپارطا استعاد هؤلاء حكمهم على بويوتيا التي كانوا قد فقدوها بسبب هزيمتهم امام الفرس. وبالأخير تعاضمت قوتهم وجبروتهم حتى انهم رفضوا عقد معاهدة سلام مع انتلقداس ولم يقبلوا إلا بعد أن ارغموا. وعلمنا من [پولبيوس] ان اللقيديميين خلال فترة الساعة تلك لم يسحبوا حامياتهم من أية مدينة أغريقية رغم انهم أعلنوا حرية تلك المدن.

الشكّ الحاقدا الى تنظيمات المدينة وقوتها. وكان بعضهم منصباً بالدرجة الأولى على حزب (ايسمنياس [Ismenias] و[اندروقليدس Androclides] الذي ينتمي اليه بيلوبيداس، وهو حزب ينهج منهج التقدم ويعمل على ارساء دعائم الحريات لمواطني المدينة. ولذلك استمر به كلّ من [ارخياس Archias] و[ليونتيديس وفيليب] وهم من الاثرياء ذوي المطامع الاشعبية الذين ارادوا إحلال النظام الاوليفارشي، فطلبوا من [فيووبيداس Phoepeidas] القائد السپارطي وكان ماراً بالمدينة بقوات كبيرة^(٥)، أن يفاجي [قادمية Cadmea] ويشنت شمل الحزب المعارض لهم ويبعد اعضاءه عن البلاد لاقامة نظام حكم اوليفارشي، وبهذه الوسيلة يتم اخضاع المدينة لسلطان السپارطيين. فقبل باقتراحهم، وفأجاء الثيبينيين في عيد [كسيرييس]^(٦) من حيث لا يتوقعون واستولى على القلعة. وقبض على [ايسكنياس] وحمل الى سپارطا وهناك قتل بعد زمن وجيز. لكن بليوبيداس، وفيرينيكوس واندروقليدس وعدداً كبيراً آخر تمكنوا من الفرار، فأعلنوا رسمياً بأنهم خارجون على القانون. وبقي ايامنداس في البلاد اذ لم يكن الطلب عليه شديداً فقد جعلته الفلسفة خاملاً، وأحاله الفقر عاجزاً.

وعزل اللقيديميون [فيووبيداس] وفرضوا عليه غرامة قدرها مائة وخمسون ألف دراخما، إلا انهم لم يسحبوا حاميتهم من ألقاديميا وابقوها. فراح كل الأغرقي يعجبون للتناقض بعد أن عاقبوا الفاعل، ووافقوا على الفعل. ومع أن الثيبينيين الذين فقدوا استقلالهم، وأضوا عبيداً لأرخياس وليونتيديس لم يعد لديهم اي أمل في التحرر من هذا الطغيان الذي وجدوا كلّ قوة سپارطا العسكرية تحرسه، ولا وسيلة عندهم لكسر النير إلا إذا أمكن ازاحة هؤلاء من سيطرتهم على البحر والبر، فإن ليونتيديس وعصابته، علموا أن المبعدين يعيشون في اثينا مقدرين من الأهالي ويحترمهم كلّ الأخيار والطيبين فبادروا الى الائتثار سراً بحياتهم وأغروا بعض الاشخاص المجهولين فنجحوا في اغتيال [اندروقليدس] إلا أنهم لم يفلحوا في الباقيين. وبعثوا ايضاً برسائل من سپارطا الى الآثينيين، حذروهم فيها من ايواء المبعدين أو تشجيعهم باية صورة. بل أن يعمدوا الى طردهم بوصفهم اعداء الداء للإتحاد الاغريقي. إلا أن الآثينيين لم يلحقوا اي أذى بالثيبينيين اللاجئين تدفعهم الى ذلك ميولهم الطبيعية الموروثة الى العطف ومجازاة الثيبينيين عن جميلهم في الماضي فقد ساعدتهم هؤلاء كثيراً في المحافظة على نظامهم

(٥) كان [فوبيداس] يزحف على مدينة [اولينثوس] في الوقت الذي أخذه أخوه [اقيدميداس] يضيق عليها الخناق بجيشه اللقيديمي وبعدها قام ليونتيديس أو ليونتيديس أحد البوليمارخين - بتسليم مدينة ثيبته وقلعتها [كزينفون: الهلينيون ٥].

(٦) أو عيد تسموفوريا. يحتفل النساء بهذا العيد في كارميا. وهو أكبر أعياد كيريس التي تقيمها الاغريقيات ويحيين فيه أيضاً ذكرى أعظم بركتين خصّ بهما البشر وهما الزراعة وسن القوانين.

الديمقراطي وأصدروا مرسوماً عاماً بما مفاده كلّ آثيني يجتاز [بويوسيا] مسلحاً لغرض مقاتلة الطغاة، على أي بويوسي أن يتغاضى عنه كأنه لم يره ولم يسمع به».

ومع أن بيلوبيداس كان من أصغر أعضاء الحزب سناً، إلا انه كان من انشطهم، لأيني الاتصال بكلّ مبعد على حدة سراً فيشير حماسته، وكثيراً ما كان يخطب في اجتماعاتهم قائلاً انه لمن العار والحقارة إهمال بلادهم المستعبدة المحتلة والقناعة بالعيش هكذا عيشة التعطل والأمان والكسل معتمدين على مراسيم الحكومة الآثينية، متبصصين بدافع الخوف لأي خطيب معسول اللسان، قادر على استحالة الجمهور: كلاً أبدأ، بل ينبغي عليهم أن يخاطروا في سبيل هذا الهدف العظيم ويتخذوا لهم مثلاً وقدوة من شجاعة [تراسيبولوس Thrasylus] النادرة. وكما أنه زحف من [ثيبه] وكسر شوكة الطغاة الآثينيين، فعليهم أن يزحفوا من آثينا ويحرروا [ثيبه]. ونجح في اقناعهم بهذه الطرائق والأساليب فبعثوا سراً الى ثيبه ببعض الاشخاص الى جملة من الاصدقاء ما زالوا في المدينة، وكشفوا لهم عن خططهم، فتمت الموافقة عليها وعرض [خارون Charon] وهو شخصية بارزة جداً - منزله لاستقبال المؤتمرين. واحتال أحدهم المدعو [فيلليداس Phillidas] على أن يُعين بمنصب كاتم سرّ لكلّ من [ارجناس وفيليب] وكانا في ذلك الحين يملآن وظيفة [البوليمارخ] أو القائد العام. وكان ايامنداس قد نجح في اثاره حماسة الشباب. اذ كان يشجعهم في اثناء التمارين الرياضية على تحدي السپارطيين والدخول معهم في حلبة المصارعة. فاذا ما وجدهم يترنحون بنشوة انتصاراتهم وفوزهم. خاطبهم بحدّة وقسوة بقوله أنه لمن العار الكبير أن يصل بهم الجبن الى الحدّ الذي لا يتورعون عن خدمة من لا يفوقهم بالقوة.

وحُدّد يوم التنفيذ وأتفق المبعدون على أن يمكث [فيرينيكوس] في السهل الثرياسي Thria-sian^(٧)، في حين يتقحم أولّ الخطر فئة قليلة من الشباب بمحاولة دخول المدينة. فاذا فاجأهم العدو وقضى عليهم فعلى الآخرين أن يُعنوا بأولادهم والأبوين. وعرض بيلوبيداس نفسه أولاً، وتبعه [ميلون Melon] و[داموقليدس Damocles] و[ثيويومپوس]، رجال من أسر عريقة المحتد يحبّ ويخلص لبعضهم لبعض إلا في اطلاب المجد واطهار الشجاعة فهم خصوم دائمون ينافس أحدهم الآخر. وكانوا اثني عشر فقط، ودعوا صحبهم الباقيين وبعثوا برسول الى [خارون]، ثم انطلقوا في سبيلهم يرتدون معاطف قصاراً ويحملون عصي صيد ويجرون كلاب صيد ليبدووا بمظهر صيادين يتجولون في الحقول بحثاً وراء صيد، وبذلك يبعدون عنهم شبهة كل من يلقاه. ووصل رسولهم الى [خارون] وأخبره بأن أصحابه سيصلون وشبكاً فلم يثن

(٧) ثرياسيوم هي مدينة بالقرب من جبل [كثيرون].

الخطر [خارون] عما اعتزمه وبقي محافظاً على كلمة الشرف التي قطعها مقدماً منزله لايواء المؤقرين القادمين. على أنه كان يوجد شخص اسمه [هيبوستينيدياس Hipposthenidas]. وهو رجل ذو مبادئ قوية لا غبار عليها، محب لوطنه، صديق للمباعدين، إلا أنه كان يفتقر الى العزم والارادة التي تتطلبها طبيعة العمل المفروض وقصر الوقت. ولذلك تهوّل المغامرة الوشيكة وبدأ الآن لأول مرة يتحسب للأمر: فوجد القضية تنحصر في الاعتماد على تلك القوة الضعيفة التي سيقدمها المبعدون للقيام بعمل لا يقل عن الاطاحة بالحكومة والتغلب على كل قوة سبارطا، فانسلّ الى منزله وبعث بصديق له الى [ميلون وپيلوبيدياس] ينصحهم بالعدول عن المغامرة مؤقتاً والعودة الى اثينا تربصاً بفرصة أفضل، فعاد الرسول المدعو (خليدون Chlidon) الى بيته مسرعاً وأخرج جواده وسأل عن السرج. ولما كانت زوجه تجهل موضعه، ولم يظهر له أثر منذ أذعت أنها اعارته لصديق فبدأ يتلاومان ثم انتقلا الى التلاعن ودعت عليه زوجته أن تكون سفرته نحسة له ولكل من أرسله وهكذا أمتدّ الخصام بهما حتى وجد [خليدون] أن عاطفته ضيّعت عليه الجزء الأكبر من يومه. وعندها رأى في ذلك نذير شؤم فعدل عن التفكير في الرحلة، وانصرف الى شأن آخر. فتأمل كيف كاد الفشل يحيق بهذه المشاريع المجيدة والعظيمة في ساعة مولدها الأولى.

وأنقسم [پيلوبيدياس] وصحبه الى قسمين، وكانت الدنيا نهاراً عندما دخلا المدينة من طريقين مختلفين وهم مرتدون ثياب الريفيين. وكان اليوم عاصفاً ثم أخذ الثلج يسقط وهذا ما ساعد في اخفائهم كثيراً لأن معظم الناس أووا الى بيوتهم بسبب سوء الطقس. وأستقبلهم شركاؤهم في الداخل، حال وصولهم وقادوهم الى منزل [خارون] فأجتمع فيه من المعبدین وغيرهم ثمانية واربعون لا غير. وكان خطة القضاء على الطاغية بهذا الشكل: ذكرت قبلاً أن كاتم السرّ [فيلليدياس] هو شريك للمباعدين ومطلع على كل تدابيرهم، وقد دعا ليلة التنفيذ الى داره [ارخياس] وآخرين الى وليمة مجلس وشراب وأستقدم بعض نسوة المدينة لهذا الغرض. حتى اذا لعبت الخمرة بالرؤوس وانصرف المدعوون الى ملاذهم أعطيت الاشارة الى المؤقرين للايقاع بهم، وتم ذلك كما رسم ولكن قبل أن تسري نشوتها في اوصال [ارخياس] تماماً أبلغ بأن المباعدین قد دخلوا المدينة سراً. وكان بلاغاً صحيحاً طبعاً لكنه غامض غير مؤكد تماماً: ومع ذلك بذل [فيلليدياس] مجهوده في تحويل مجرى الحديث الى موضوع آخر، إلا أن [ارخياس] أرسل أحد حراسه الى [خارون] يطلب حضوره فوراً وكان الوقت ليلاً وپيلوبيدياس واصحابه قد أكملوا التأهب للعمل وهم في المنزل بعد. ودق الباب فجأة بعد أن اتوا لبس دروع الصدر وشدوا انطقة السيوف، فتقدم أحدهم من الباب ليسأل عن الأمر، ولما علم من

الحرس أن [الپوليمارخ] طلب احضار [خارون] عاد في غاية الاضطراب ليطلع الآخرين، فتوهموا حالاً أن المؤامرة كلها قد افتضحت، وانهم سيمزقون إرباً قبل يتمكنوا من تحقيق أي عمل يثبت بسالتهم على الأقل: على انهم اتفقوا جميعاً، بوجود اطاعة خارون للأمر والذهاب الى [الپوليمارخ] دفعاً للشك. وكان [خارون] والحق يقال شجاعاً جميع القلب ثبت الجنان في وجه الخطر، إلا انه كان في هذا الموقف شديد القلق لئلا يظنّ به اصحابه المؤتمرون، ويوصم بالخيانة ويحمل وزر موت هذا العدد الكبير من أبسل المواطنين. لذلك عمد الى احضار ابنه بعد أن استعدّ للرحيل - فجيء به من جناح النساء وكان صبيّاً حدثاً لكنه بدأ أجمل وأقوى كل من هم سنّه. فأخذ ودفع به الى [پيلوبيدياس] قائلاً:

- إن وجدتموني خائناً، فعاملوا هذا الصبيّ معاملة عدو لا يستحق اي رحمة!

إن هذا الحرص الذي ابداه [خارون] استندّر الدمع من عيون الكثيرين. واحتجّ الكلّ بشدة على وصول الأمر به الى حدّ افتراض سوء النية والحطة باي واحد منهم عند ظهور الخطر الداني الى درجة اللوم والشكّ في أخلاصه وابوا عليه أن يدخل ابنه في المسألة، وان يبقيه بعيداً عن مكامن الأذى: فلعله يخلص من غائلة الطاغية ويعيش ليشار للمدينة واصدقائه؟ على أن [خارون] رفض نقله الى محل أمين وتساءل قائلاً:

- أي حياة وأي سلامة تكون أشرف من الموت مع أبيه ومع مثل هؤلاء الصحب الكرام بشجاعة واقدام؟

وبعد أن دعا الآلهة لحمايته، وحيّاهم جميعاً وشجعهم، انصرف وهو يعمل الفكر ويقلب وجوه النظر، مخفّظاً من صوته وساتراً من سيمائه ما من شأنه ان يفضح، ومظهراً أقل ما أمكنه مما يضره في نفسه.

وعندما بلغ الباب خرج اليه [ارخياس] مع [فيلليدياس]، وقال له:

- سمعت يا خارون بقدوم بعض الرجال الى المدينة قبل قليل، وانهم يتجولون في انحائها وأن بعض الناس ينضمون اليهم.

فانتاب [خارون] الاضطراب، إلا انه سأل:

- من هم؟ من يخفيهم؟

ولما وجد أن [ارخياس] ليس على علم تامّ بالقضية استنتج أن المؤامرة لم تنكشف، وان المعلومات التي وصلته لم يكن مصدرها ايّ مساهم مطلع، وعندئذ قال له

- لاتزعج نفسك بهذه الاشاعات الفارغة: وعلى اية حال فسوف اتحقق منها بنفسي إذ ينبغي

الأ يهمل أيّ خبر من هذا القبيل.

فما كان من [فيلليداس] الواقف إلاّ وطفق يشني عليه ثم أعاد ارخياس الى مجلسه وسقاه حتى اثمله، ومد من أجل الوليمة ليكون ختامها صحية النساء. وعندما عاد [خارون] وجد الرجال مستعدين لا كالمؤمل بالسلامة والفلاح، بل كالمتهاب للموت بشجاعة بعد أن يوقع مذبحه بالاعداء. فأبلغ [پيلوپيداس] والآخرين بجلية الأمر، لكنه ادعى امام آل بيته بأن [ارخياس] طلبه لشأن آخر وأخترع حكاية مناسبة ولكن ما ان أوشكت هذه العاصفة على الختام حتى دفع «الحظّ» بأخرى فقد اقبل رسول الى [ارخياس] يحمل اليه رسالة من سميّه [ارخياس] كاهن الأسرار [الهيروفانت Hierophant] في اثينا. وكان صديقاً له ومستضيفاً. ولم يكن مضمون الرسالة مجرد شكوك غامضة عابرة، بل حقائق ثابتة كشفت عن تفاصيل الخطة كلها كما تبين ذلك فيما بعد. فجيء بالرسول أمام [ارخياس] الذي كان في حالة سكرٍ شديد فسلمه الخطاب قائلاً:

- يرغب المرسل ان يقرأ خطابه فوراً. إنه يتعلق بموضوع هام جداً.

فأجابه [ارخياس] باسمًا:

- الأمور الهامة غداً!

وتناول الخطاب ودسّه تحت الفراش، وعاد يستأنف ما انقطع من حديث مع [فيلليداس]. وذهبت كلماته هذه مثلاً عند الأغريق حتى يومنا هذا.

عندما بدت الفرصة مناسبة للعمل انطلق المؤتمرون بفرقتين، واتجه [پيلوپيداس] وداموقليدس] وجماعتهم المداهمة [ليونتيدياس وهيپاتيس Hypates] (٨) وكان منزلاهما متجاورين. وأنطلق [خارون وميلون] الى حيث [ارخياس وفيليب] وقد غطى جميعهم دروع صورهم بثياب النساء ووضعوا قلائد كثة من الصنوبر والشربين أخفاء لمعالم وجوهم. وما وصلوا الباب حتى أخذ المدعوون يصفقون ويهللون، متصورين انهم النسوة اللاتي كانوا يتوقعونهنّ. ودخل المؤتمرون وأجالوا بصرهم في الغرفة ليتشبهوا من كل الموجودين، ثم انتضوا سيوفهم وتقدموا من [ارخياس وفيليب] بين الموائد وكشفوا عن هوياتهم. وأقنع [فيلليداس] فئة قليلة من المدعوين بالهدوء. أما الذين حاولوا مساعدة [الپوليمارخ] فقد سهل قتلهم لحالة السكر فيهم إلاّ أن مهمة [پيلوپيداس] ورهطه، كانت اصعب من مهمة زملائهم. فقد

(٨) لم يدع هؤلاء للحفل لأن [ارخياس] الذي كان يتوقع لقاء امرأة رفيعة المقام، لم يختار أن يرى ليونتيدياس هناك.

قصدوا [ليونتيدياس] وهو رجل عظيم القوة أريب، ووجدوا باب منزله مغلقاً وقد آوى الى فراشه، فطرقوه زمناً طويلاً دون مجيب وأخيراً سمعهم أحد الخدم فجاء ورفع المزلاج فأندفعوا الى الداخل فور فتحه، وأزاحوا الخادم جانباً وأسرعوا الى حجرة [ليونتيدياس]، وأدرك من الضجة والركض، حقيقة ما يقع فهبّ من فراشه قائماً وأشهر خنجره إلاّ انه نسي إطفاء النور ليعرفلهم ويجعل المهاجمين تائهين يقع أحدهم على الآخر في الظلمة. وهكذا استقبلهم في غرفته المضيئة وهو بالباب وطعن اول الداخلين وكان [سكفيسودورس Cephisodorus] وعند سقوطه التحم بالثاني وهو پيلوپيداس، وكان الممر ضيقاً وجسد سفسودورس يعترض السبيل، وتلا ذلك صراع عنيف وحشيّ، وأخيراً تغلب پيلوپيداس وبعد أن قتل [ليونتيدياس] خرج وجماعته يريدون هيپاتس وأقتحموا بيته بالطريقة نفسها، فعرف مما هو مبيت له وهرب الى الجيران، إلاّ انهم لحقوا وادركوه وقتلوه.

وبعد ذلك انضموا الى [ميلون]. وبعثوا يستعجلون المنفيين الذين تركوهم في [آتيكا]. وأعلنوا حرية المواطنين الثيبين (٩)، وانزلوا الغنائم من الأروقة. وكسروا ابواب مخازن صانعي الاسلحة القريبة وسلّحوها من جاء لنصرتهم. وأقبل [أپامننداس وغورغيداس Gorgidad] وهما شاكياً السلاح يقودان جمهرة من الشباب المندفع الملتهب حماسة، ومن خيرة كبار السنّ، وساد المدينة هياج عظيم وضربت الفوضى اطناها، وامتلأت ضجيجاً وحركة، وأشعلت الأنوار في كلّ بيت، وراح الناس يتراكمون هنا وهناك، على أن الأهلين لم يجتمعوا كتلة واحدة فقد صعقوا لما حدث، وجهلوا حقيقة ما يجري بالضبط. وفضلوا التريث وانتظار ما سيأتي به الغد. ولذلك اتجه الاعتقاد بان الضباط السپارطيين أخطأوا بوقوفهم موقف المتردد وعدم مهاجمة المؤتمرين بينما كان تحت امرتهم حامية تتألف من الف وخمسائة مقاتل فضلاً عن كثير من الأهلين الذين لجأوا الى القلعة، إلاّ أنهم يتحركوا من القلعة وهم قلقون للضجة والحرائق، وتراكم الناس. وما أن انبلج الصبح حتى كان المبعدون القادمون من آتيكا، داخل المدينة وكلهم شاكو السلاح. وعقد اجتماع شعبي عام بمسعى من [أپامننداس وجورجيداس] وقدموا الى الشعب [پيلوپيداس] ورهطه يحفّ بهم الكهنة وبايديهم قلائد الزهر، وانثى هؤلاء يحضون الشعب على القتال في سبيل الوطن والآلهة، فهبّ المجتمعون دفعة واحدة عندما بدوا لهم واستقبلوهم بالهتاف والتهليل، ورحبوا بهم كما يرحبون بالمنقذين.

وما أن تقررّ انتخاب [پيلوپيداس] قائداً عاماً [لبويوثيا]، حتى باشر بالتعاون مع [خارون

(٩) وكذلك قام پيلوپيداس بارسال [فيلليداس] الى جميع سجون المدينة لأطلاق سراح شجعان الثيبين الذين اعتقلهم الطغاة السپارطيون وكبلوهم بالاعلال.

وميلون] بالقاء الحصار على القلعة ومداهمتها بهجومٍ من كلِّ الجهات لتحريرها، وكان مستعجلاً في ذلك لثلا يخرج جيش من سبارطا لانجاذ من فيها^(١٠٠). وقد نجح في مسعاة بعد أن كان على قاب قوسين من الفشل، إذ وافق على شروط خروج السبارطيين ورحيلهم عن البلاد، وفيما هم في طريق العودة التقوا عند [ميغارا] بكليومبروتوس Cleombrotus الزاحف على [ثيبية] بقوات كبيرة. وادان السبارطيون كلاً من [هريبيداس Herppidas] و[ارسيسوس Arcissus] حاكميهما في [ثيبية] و نفذوا فيهما حكم الموت. أما الحاكم الثالث [ليسانوريداس Lysanoridas] فقد فرضوا عليه غرامة فادحة ففرَّ الى [پلوپونيسوس]^(١١١). هذه المأثرة كانت أشبهه بمأثرة [ثراسيبولوس Thrasylbulus]، من ناحية بأس القائمين بها، وأخطارها، وتطوراتها ونهايتها الناجحة، حتى وصفها الأغرقي بالأخت التوأم لها. أذ يندر ان تجد أمثلة أخرى لها، حيث فئة صغيرة ضعيفة جداً تتغلب باقدامها الحارق على عدوٍ وفير العدد عظيم السلطان، وينجم عن انتصارها مثل هذا القدر من النفع والخير للبلاد. إلا أن الأحوال التي طرأت نتيجة هذا، زادت من شهرة النصر ورفعته. فقد بدأت في تلك الليلة بالذات الحربُ التي قضت القضاء المبرم على كل ادعاء لسبارطا في الزعامة، وانتهت الى الأبد تلك السيادة التي كانت تمارسها آنذاك على البر والبحر معاً. في تلك الليلة لم يداهم [پيلوپيداس] قلعة أو حصناً أو مدينة محصنة وإنما كان الرجل الثاني عشر الذي دخل بيتاً خاصاً، فحلَّ وكسر سلاسل الحكم السبارطي - (ان عبّرنا عن الحقيقة بالمجاز) وكان يبدو قبل ذاك محكماً لا فكاك منه.

وغزا اللقيديميون [بويوتيا] بجيش عرم. وتخوف الآثينيون من الأخطار، فأعلنوا انهم ليسوا بحلفاءٍ [لثيبية] وضيّقوا على كل منحازٍ الى قضية البويوتيين. و نفذوا حكم الموت ببعض، ونفوا وغرموا آخرين: وبدت قضية [ثيبية] يائسةً لا أمل منها لفقدتها النصير والحليف. على أن پيلوپيداس وجورجيداس اللذان تسلما زعامة [بويوتيا] دبّرا خلق نزاع بين اللقيديميين والآثينيين فاهتديا الى الحيلة الآتية: كان المدعو [سفودرياس Sphodrias] قد ترك في [ثسپايي Thespieae] على رأس جيش سبارطي لاستقبال ونجدة الثيبيين المنشقين.

(١٠٠) لما لم يكن محتملاً احتلال موقع منيع كهذا خلال يوم واحدٍ وبالقوة القليلة العدد التي كان يقودها پيلوپيداس آنذاك. فعلياً ان نرجع الى ديودورس ١٦:٢٥ وكزينفون: الهلينيون ٥، ليخبرانا بأن الآثينيين في فجر اليوم التالي الذي تم فيه احتلال المدينة. قاموا بارسال خمسة آلاف من الرجاله والفين من الخيالة بقيادة كزينفون ووصلت من مدن بويوثيا تعزيزات أخرى قواتها سبعة آلاف أو أكثر فشارك قوات پيلوپيداس بالحصار. إلا ان المدينة صمدت عدة أيام ثم استسلمت بعد أن نفذت ارزاقها. (١١١) من التقاليد التي درج عليها المقاتلون السبارطيون ان يموتوا والسيف بيدهم دفاعاً عن الموضع الذي أوكل اليهم أمر الدفاع عنه.

وهو في الحقيقة قائد مشهور بشجاعته في ميدان القتال إلا انه مأفون العقل، مليء بآمال خيالية، ومطامح رفيعة. إن هذا الرجل أرسل پيلوپيداس وزملاؤه تاجراً من أصدقائهم يحمل اليه بالسرّ مبلغاً من المال... ونصيحةً - كانت أقوى أثراً من المال. قال له انه ليجدر برجل في مثل منزلته أن يسعى وراء مغامرة عظيمة، وانه لن يجد خيراً من غزو الآثينيين وهم في غفلةٍ من أمرهم، وبياعت ميناءهم [پيريوس] اذ ليس ما يسرّ سبارطا أكثر من الاستيلاء على آثينا، كما أن الثيبيين لن ينبروا طبعاً لمساعدة أناس يبغضونهم ويعتبرونهم خونةً في الوقت الحاضر. وظل يضرب فيه على هذا الوتر حتى اقتنعه، فزحف ليلاً عن آتيكا وتوغل بجيشه حتى بلغ [اليوسيس]^(١١٢)، وعند هذه المرحلة من مغامراته اصيبت قلوب رجاله بالتردد فأنسحب الى [ثسپايي] ولكن بعد أن أنكشفت نواياه وورط قومه في حرب خطيرة. بعد هذه الحادثة أخذ الآثينيون يعثون بالمساعدات الى ثيبية وهبوا ساخطين الى البحر مبحرين الى عدة أمكنة ومقدمين المعونة الى كل بلد يوناني يرغب التخلص من نفوذ السبارطيين.

وفي تلك الفترة خاض الثيبسيون بمفردهم عدة معارك مع السبارطيين في [بويوتيا]، وأشتبكوا كثيراً بالعدو، ولم تكن تلك المعارك بالكبيرة لكنها مهمة في تدريبها وتلقينها أيهم فنون القتال، وبهذا انصرفت اذهانهم الى الحرب، وتعودت ابدانهم المشاق فكسبوا الخبرة والشجاعة بهذه الصدامات المتعددة، مما يفصح عنه قول [انتالكيداس Antalcidas] لاغيسيلوس بعد عودته جريحاً من [بويوتيا]:

- لقد أجزل لك البويوتيون العطاء حقاً، مكافأة لك على تلقينهم فنون الحرب رغماً عنهم وكرهاً بها.

وإن شئت الحقيقة، فان [اغيسيلوس] لم يكن استاذهم في هذا. بل أولئك الذين أطلقوهم بذكاء وبعد نظر على أعدائهم كما تطلق صغار الكلاب، وعادوا بهم سالمين جميعاً بعد أن اذاقوهم حلاوة النصر، وقوة العزيمة. وپيلوپيداس يستأهل أعظم التكريم من بين كل هؤلاء الزعماء: اذ ما أن أنتخب جنرالاً لأول مرة، حتى بقي يقود الرجال سنة بعد أخرى طوال حياته إما بمنصب قائد «الكتيبة المقدسة» أو قائداً عاماً للجيش البويوتي وهو أكثر المنصبين لصوقاً به. هُزم السبارطيون بالقرب من [پلاطيا Plataea] و[ثسپايي] ولاذوا بالفرار. وقتل [فيوبيداس] الذي أحتل القلعة [قاداميا]. وفي [تاناغرا] ابيدت قوة كبيرة وقتل قائدها

(١٢) كان أملهم أن يبلغوا [پيريوس] ليلاً، لكنهم وعندما أصبح الصباح وجدوا انهم لم يتقدموا أكثر من [البفسيس]. وادرك [سفودرياس] أن أمره انكشف فاجتاح في رجعتة ضواحي آثينا. وأستدعى اللقيديميون [سفودرياس] وأخذ الايغوري الاجراءات القضائية ضده. إلا ان [اغيسيلوس] بشفاعة والحاح من ابته الذي كان صديقاً لابن سفوردياس - عمل على انقاذه [كزينفون المرجع السالف ه].

[پانثيودس Panthoides]. إلا أن هذه الإشتباكات وغيرها لم تصب المنهزمين بيأس تام، وان رفعت من معنويات المنتصرين إذ لم تقع بين الفريقين معركة فاصلة، أو قتال منظم، وإنما مجرد غزوات مفاجئة تملئها الفرص والمناسبات ويسودها الكرّ والفرّ، ثم الهجوم ثم الانسحاب وهكذا. إلا أن معركة [تيجيري Tegyrae] التي كانت مقدّمة وتمهيداً [لليكوترا] رفعت من سمعة بيلوبيداس كثيراً. إذ لم يكن لأيّ من القادة الآخرين أي فضل فيها، ولم يظهر العدو أي دعوى بنصر بها. كانت مدينة [الاورخومينيين] منحازة الى جانب السپارطيين، وقد عززت الحماية فيها بكتيبتين، وكان [بيلوبيداس] شاخصاً إليها ينتظر فرضته فلما سمع أن الحامية انتقلت الى [لوكريس Locris] وان [اورخومينيس Orchomenes] (١٣) باتت بلا حماية زحف عليها بكتيبتته المقدسة وكوكبة من الخيالة، وعند وصوله مشارفها وجد التعزيزات القادمة من سپارطا تتقدم نحوها. فقام بدورة حول قدمات الجبال وانسحب بجيشه الصغير عبر [ميجيري] وهو السبيل الوحيد الذي يمكن مروره منه لأن نهر [ميلاس Melas] تنتشر مياهه حال فيضانه ويكوّن مستنقعات وبركاً صالحة للملاحة، ويجعل كل الأرض السهلة التي تتخللها غير صالحة للسيّر. والى اسفل المستنقعات بمسافة قصيرة يقوم معبد ومهبط وحي [اپوللو تيجيريوس] المهجور قبل زمن ليس بالطويل، وكان مزدهراً حتى الحروب الميديّة، بكاونه [ايخيقراطس Echebrates]. ويزعمون أن هذا الرب ولد هناك. والجبل المجاور يسمى [ديلوس Delos]، وهنا أيضاً يعود نهر [ميلاس] الى مجراه، ومن خلف المعبد يجري ماء نبعين عجيب بحلاوته وكثرته وبرودته. نبع يسمى [فيونكس Phoenix] ونبع يسمى [ايلويا Elöea] الى يومنا هذا. حتى لكأن [لوچينا Lucina] لم تولد بين شجرتين بل بين ينبوعين. وثم موقع قريب ظاهر يدعى [پتاوم Ptoum] يقال أنها روّعت اثناء وجودها فيه بظهور خنزير بريّ. وتتصل حكايات [پيثون Python] و[تيطيوس Tityus] بهذه المواقع أيضاً على المنوال نفسه. واني لأضرب صفحاً عن كثير من النقاط التي يمكن استخدامها موضع نقاش. لأن اساطيرنا لا تضع هذا الرب في مصاف الأرباب المولودين ثم تحولوا الى الآلهة خالدين، مثل [هرقل]، [باخوس] اللذين رفعتهم فضائلهم فوق طبقة البشر وقابلية الفناء إلا أن اپوللو آله خالد غير مولود من بشر (١٤)، اذا استندنا في حكمنا هذا على أي حقيقة مما أنحدر اليها من أقدم الواقفين على هذا الموضوع، وأوفرهم حكماً.

(١٣) واحدة من أكبر وأهم مدن بويوثيا. وكان فيها حامية لقيديمة وقتذاك.

(١٤) هذه فقرة تستدعي تأملاً عظيماً: يؤمن الحكماء والفلاسفة القدماء امثال فيثاغوراس وأفلاطون وغيرها. إن الله ينجب ابناءهم مثله خالدين. وانهم لم يولدوا من رحم امرأة وهم يساوونه في جوهره ان هذه الفكرة انحدرت اليهم من أقدم العصور وما ورد عنها من مآثر كان ينوّه بآب الله الخالد مع الأب.

وبينما كان [الثيبين] يتقهقرون من [اورخومينوس] نحو [تيجيري] كان السپارطيون يتقدمون من [لوكريس] في الوقت نفسه. واذا بهما يلتقيان. ولما بات هؤلاء على مرأى من الثيبين يتقدمون عبر المضيق قال أحدهم لبيلوبيداس:

- لقد وقعنا في يد العدو؟

فاجابه:

- ولم لا يكون هم الذين وقعوا في ايدينا؟

وأمر خيالاته فوراً بترك المؤخرة والهجوم. بينما جمع مشاته كتلة واحدة وكانوا ثلاثمائة (١٥)، مؤملاً بهذه الطريقة أن يفتح ثغرة لنفسه في تشكيل عدوه الأكثر عدداً منه، من أي جهة يقوم بالهجوم. وكانت قوة السپارطيين تتألف من كتيبتين (الكتيبة قوامها خمسمائة على ما يذكر [يفوروس]، أو سبعمائة على ما يقول [كالليستينس Callis-thenes]، ويزعم آخرون ومنهم [پوليبيوس] أنها تسعمائة). بقيادة [جورجوليون Gorgoleon] و[ثيومپوپوس]. فقررا التقدم لمهاجمة الثيبين وهما واثقان من النصر والتحم الفريقان، وكان زخم القتال على أشده حيث يقف القادة. ووقع القائدان السپارطيان قتيلين أولاً ولحقت بالقوة التي تحيط بهما خسارة فادحة فما لبثت القوة كلها أن خارت معنوياتها وفتحت طريقاً للثيبين كأنها تريد مرورهم ونجاتهم. لكن بيلوبيداس دخل الثغرة دون أن يفكر في الافلات بل استدار نحو الصامدين من الاعداء وأوقع بهم قتلاً وذبحاً، عقبه فراراً من صفوف السپارطيين. ولم تستمر المطاردة مسافة طويلة لخوف المنتصرين من الاورخومينيين المجاورين، ومن نجات لقيديميون. مهما يكن فقد نجحوا في شق طريقهم عنوةً بين أعدائهم وتغلبوا على قوتهم كلها. لذلك عمدوا الى اقامة نصب تذكاري لنصرهم ونزعوا أسلحة القتلى ثم قفلوا راجعين الى مقرهم مزهوين بما حققوا. لم يهزم السپارطيون في كل حروبهم العظيمة التي خاضوها ضدّ الاغريق أو البرابرة أمام قوة أصغر من قوتهم قبل هذا. ولم يندحروا في معركة فاصلة وكان عددهم فيها مساوياً لعدد خصمهم. ومن هذا ساد الاعتقاد بأن شجاعته لا يقف أمامها شيء، وان سمعتهم الداوية كانت توقع الرعب في قلوب أعدائهم فيخسروا المعركة قبل دخولها. لأنهم لا يجدون أنفسهم أكفاء لرجال سپارطا حتى عند تساوي الفرص. على أن هذه الواقعة علمت الاغريق في المقام الأول أن الشجاعة والعزيمة وشدة المراس ليست قاصرة على

(١٥) هذا العدد القليل كان زهرة الجيش الثيبين. وقد خلع عليه لقب «الكتيبة المقدسة» أو «عصبة المحبين» تكريماً لأفراد الوحدة وقد عرفوا جميعاً وبلا استثناء، بولائهم وأخلاصهم لدولتهم الثيبية وبمفاداتهم بعضهم لبعض [انظر افلاطون: المحاورات].

رجال [يوروتاس] والبلاد الواقعة ما بين [بايبس Babyce] و[كناصيون Cnacion] بل عندما يشور الشباب خجلاً من الدناءة والحطة، ويكونون مستعدين للمغامرة في سبيل قضية عادلة، عندما يخشون العار أكثر مما يخشون الخطر، فاذا ذك تجرد أمامك أشجع الخصوم، وأشدهم بأساً، أياً كانت البلاد التي انجبتهم.

كان [غورغيداس] على ما يزعمون، أول من ألف الكتيبة المقدسة من ثلاثمائة رجل مختارين. وكانت مهمتهم حراسة القلعة ولذلك كانت الدولة تنفق عليهم وتزودهم بكل ما هو ضروري لتدريبهم، ومن هنا جاء اسم «كتيبة المدينة». لأن الحصون كان يطلق عليها اسم المدينة عادةً، ويقول آخرون أنها تألفت من شبان ارتبط بعضهم ببعض برباط الودّ الخاص. وهناك قول فكه شهير [ليومينوس Pommenes] «هو» إن [نسطور] شاعر هوميروس، لم يكن بارعاً في قيادة الجيش حين نصح الأغرقيق أن يضاعوا قبيلة في صف قبيلة وأسرة لُصق أسرة حتى «تساعد القبيلة القبيلة، ويعاون القريب قريبه!» بل كان عليه أن يضع المحبّ الى جنب حبيبه». لأن الرجال الذين ينتمون الى عشيرة واحدة، وينحدرون من أسرة واحدة، قليلاً ما يهتم احدهم بالآخر عندما يتأزم الموقف. ولكن عصبية شددت عراها الصداقة المنيبة على الحب، لا يُفلّ غرابها ولا تنفصم أصرتها. لأن المحبوبين يدركهم العار اذا أظهروا خسةً وجناً أمام محبوبيهم، فتراهم يندفعون الى ركوب الخطر بكل سرور لانجاذ بعضهم بعضاً. وليس هذا بالذي يدعو الى العجب مادام اهتمامهم بمحبيهم الغائبين يزيد عن اهتمامهم بالحاضرين منهم. كقصة ذلك الذي هم عدوه بقتله، فكان رجاءه الحار منه أن يقضي عليه بطعنة في صدره لثلاث يدرك حبيبه الخجل لدن يراه جريحاً في ظهره. ومن الاساطير المتداولة، أن [ايولاووس] 10- [Iaus] الذي عاون [هرقل] في أعماله وقاتل الى جانبه، كان حبيباً له. وذكر [ارسطو] أن تلك المتحابين كانوا يقسمون على الوفاء فوق تربة [ايولاووس]. فمن المحتمل والحالة هذه أن تلك الكتيبة سميت «مقدسة» بسبب ذلك، لان [افلاطون] يُسمي المحبّ «الصديق الملهم الهيبا»^(١٦)، وقيل أنها لم تخسر معركة قطّ، حتى الموقعة التي جرت قرب [خيرونيا]: شخّص [فيليب] الى ميدان القتال بعد نهايته ليتنقد جثث القتلى فبلغ الموضع الذي سقط فيه «الثلاثمائة» صرعى معاً. اثناء اشتباكهم مع [فلانسكه] فادركه عجب شديد، ولما علم انهم «كتيبة المحبين» بكى وقال:

- لا كان ذلك الرجل الذي يشكّ في أن هؤلاء الرجال أقدموا على أي فعل دنيء، أو عانوا منه.

(١٦) افلاطون المحاورات.

لم تكن نكبة [لايوس Laius]^(١٧) سبب نشوء هذا الشكل من العلاقة ما بين الشيبين كما خيل للشعراء؛ فإن أول نشوئها كان على يد المشتريين وهدفهم منها تطرية الطباع الجامحة اثناء الصغر. فجعلوا للعب بالناي مقاماً جلياً في مناسبتني اللهو والجدّ على السواء. وأهتموا كثيراً بتشجيع هذا اللون من الصداقة في مدارس المصارعة، لترق امزجة الشباب وتلين طباعهم، وحداهم هذا الى افضل عمل وهو جعل الربة [هارموني Harmony] بنت [مارس] و[فينس] ربتهم المفضلة. لأن التحام القوة والشجاعة، بالرفقة وحسن السلوك الى «انسجام» يجمع كل عناصر العشرة والاجتماع في نظام تامٍ توافقي.

وزّع [غورغيداس] افراد هذه الكتيبة على الصفوف الامامية من المشاة، فتضاءلت بسالتهم، لأن تفرقهم وانفراط عقدهم، واختلاطهم بمن يقلّ عنهم عزيمة وبأساً حرمهم فرصتهم العادلة لإظهار كفاءتهم كاملةً. على أن [بيلوپيداس] الذي عجم بأسهم وخبره في [تيجري] حيث قاتلوا بمفردهم ملتفين حول شخصه، لم يفرّق ما بينهم قطّ. وأبقى قوام الكتيبة على حاله. وكان يسند اليهم الواجب الأول في أعظم المعارك. اذ كما يكون عدو الجياد المشدودة الى العجلة أشدّ وأسرع من عدوها منفردةً (لا لأن قوتها المتحدة تشق الهواء بسهولة بل لأن مغالبتها بعضها بعضاً وتنافسها على السبق يذكي حماستها، ويلهب روحها بالإقدام) كذلك فكر [بيلوپيداس] أن ذوي البأس والعزم - باستفزازهم أحدهم الآخر الى أشرف الأعمال، سيكون أكثر نفعاً وأشدّ مراساً وأقداماً إن اتحدوا معاً.

بادر اللقيديميونيون الى مسالمة كلّ الاغرقيق، ثم وحدوا كلّ قواتهم ضدّ الشيبين. وأخترق ملكهم [كليومبروتوس] الحدود بجيش قوامه عشرة آلاف راجلٍ وألف فارس. الى ما قبل هذا كانت [بويوتيا] مهددة بالاحتلال فحسب، أما الآن فان شبح الفناء التام والدمار العام يخيم عليهم. واستولى على البلاد رعبٌ لم تعرف له مثيلاً من قبل. وترك [بيلوپيداس] منزله الى الحرب فلحقت به زوجته وتوسلت به باكية أن يكون حذراً على حياته فأجابها قائلاً:

- الجنود البسطاء يُنصحون بالحذر على حياتهم يا زوجي العزيزة. أمّا القادة فيُنصحون بالحرص على سلامة الآخرين.

ولما بلغ المعسكر ووجد امراء الجيش منقسمين الى رأيين فيبادر ينحاز بدهة الى جانب [إيامننداس] الذي كان من رأيه الاشتباك مع العدو. ولم يكن [بيلوپيداس] وقتذاك قائداً عاماً لبويوتيا، بل أمر الكتيبة المقدسة، واهلاً لتلك الثقة التي تناسب مثله رجلاً قدم لبلاده الكثير في مجال حرصه على حريتها واستقلالها. فكان له القول الفصل واتفق على القتال،

(١٧) او لاکوس Lacus.

وعسكروا في [ليوكترا] أمام السپارطيين. وهنا رأى [پيلوپيداس] رؤيا أسلمته الى قلق عظيم: في السهل الممتد امامه كانت ترقد جنث بنات [سكيداسوس Scedalus]، ويطلق على المرقد [ليوكتريدي Leuctridae] نسبة الى شهرة الموضوع. وقد تمّ دفنهن هناك بعد أن اغتصبهن وقتلهن جماعة من السپارطيين الأغرّاب. بعد ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء راح الأب يطلب الانتصاف في لقيديمون فلم يفز بطائل وعاد ليبيع نفسه على قبر بناته وهو يرسل أهول اللعنات والدعوات بالشرّ الى السپارطيين. ومنذ ذلك الحين والنبوءات والعرافة تترى منذرة قوم الجناح بالحذر الشديد من الانتقام الآلهي في [ليوكترا] وأغلق الأمر على الكثيرين ولم يفهموا المقصود بطبيعة الحال، وكان الغموض ناجحاً عن الموقع فهناك بليدة لاكونيا Laconia الواقعة على ساحل البحر، هي الأخرى تدعى [ليوكترون]، ثم موضع قريب من مدينة [ميفغابوليس] في [اركايا] يدعى [ليوكترا]، كما ان هذا الحادث وقع قبل المعركة بزمان سحيق.

خيل لپيلوپيداس وهو نائم في الخيمة أنه رأى هاته العذارى يبكين على قبرهن ويلعنّ السپارطيين. ورأى [سكيداسوس] يقول: اذا رغبوا في النصر فعليهم أن يضحوا لبناته بعذراء ذات شعر كستنائي. وعدّه [پيلوپيداس] أمراً ينطوي على قسوة والحاد، إلا أنه نهض وقصّ الحلم على العرافين وأمراء الجيش، فكان من رأي بعضهم أن الأمر صحيح واجب الطاعة. وضربوا امثلة من التاريخ القديم تبريراً لوجهة نظرهم. فذكروا [مينيوكيوس Menœceus] ابن [كريون Creon] و[ماركاريا Marcaria] بنت [هرقل]. واوردوا امثلة من الأرمنة المتأخرة فذكروا [فركيديدس Pherecydes] الفيلسوف الذي ضحاه اللقيديميون، وما زال جلده محفوظاً عند ملوكهم تنفيذاً لما قضت به النبوءات. و[ليونيداس] الذي انذرت النبوءة فنفذ ما أمرته وضحّى بنفسه لمصلحة البلاد الاغريقية. و[ثيموستوكلس] الذي قدم اضاحي بشرية الى [ياخوس أو ميستوس] قبيل خوضه معركة [سلاميس] وكل هؤلاء برهن نجاحهم على صواب أعمالهم. وعلى الضدّ من ذلك فعل [آغيسيلاوس] فقد خرج من الموضع نفسه لقتال الأعداء الذين قاتلهم [اغاسمنون] في ما مضى، وأمر في حلم جاءه في [أوليس Aulis] ان يضحي بابنته قرباناً فحال ضعفه دون ذلك، وكانت نتيجة حملته الفشل والخيبة الذليلة^(١٨).

(١٨) كزينفون: الهلينيون ٧: يعلمنا ان پيلوپيداس في اثناء سفارته الى ملك الفرس شرح له بان الكره الذي حفظه اللقيديميون لأهل ثيبه سببه انهم لم ينضموا الى قوات اغيسيلاوس عند خروجه لحرب الفرس. ولأنهم منعه من التضحية بابنته في [اوليس] عندما طلبتها [ديانا] ولو فعل ذلك لضمن النجاح في حربه.

على أن الفريق الآخر وجدته فريضةً بربريةً لا يمكن أن يكون محل رضى الكائنات العليا، وقالوا أن الجبابة والأعاصير ليست هي التي تحكم العالم، بل هو الأب الكليّ الأسمى، للآلهة وللبشر، ومن السخف أن يتصور سرور آله من الآلهة أو قوة من القوى العليا. بقتل البشر وتضحيتهم وان وجد بينهم من كانت صفته هذه، فعلينا ألا نعتد بهم، لضعفهم هذا الذي يجعلهم أعجز عن أسداء العون لأحد، فمثل هذه النزوة القاسية اللامعقولة لا تحيا لا تصدر إلا من عقول ضعيفة مأفونة.

وفيما كان امراء الجيش بين أخذٍ وردّ، و[پيلوپيداس] يعاني أعظم الحيرة، اذ بمهرة تتغلت من قطع وتروح تعدو في ارجاء المعسكر، حتى وصلت موضع اجتماعهم فوجت فجأة بلا حراك. وبينما أخذ بعضهم يبيدي عجبه لونها الكستنائي الفاتح، وبعضهم يعجب برشاقة تكوينها، أو بقوة صهيلها وشدّته، أستغرق الكاهن العراف [ثيوقريطس Theocritus] في التفكير، ثم هتف بپيلوپيداس:

- دونك يا صاحبي الطيب فأنظرا! ها هي الضحية قد أقبلت فلا تنتظر عذراء أخرى سواها. وخذ ما بعثت به الآلهة لك.

فوثبوا على المهرة واقتادوها الى قبر العذارى بالمراسيم الدينية والصلوات المعتادة، وضحوا بها منشرحي الخاطر، واذاعوا بين صفوف الجيش حكاية رؤيا [پيلوپيداس]، وكيفية تقديمهم القربان المطلوب منه.

وعند بدء المعركة عمل [إپامنداس] على إمالة [فلانكسه] الى جهة اليسار محاولاً قدر استطاعته فصل الميمنة المؤلفة من السپارطيين عن بقية الوحدات الاغريقية، ومبادهة [كليومبروتوس] بهجوم عنيف وفق نظام الرتل ضدّ ذلك الجناح. فأدرك العدو الخطأ، وبدأ بتغيير نظام اصطفاfe بفتح ونشر ميمنته على جبهة واسعة للالتفاف حول [إپامنداس] وتطويقه مستفدين من تفوقهم العدديّ الساحق. إلا أن [پيلوپيداس] اسرع يقود كتيبة الثلاثمائة الى الميدان كالريح العاصف قبل أن يفلح [كليومبروتوس] في مدّ خطّه وسدّ الثلمات فيه، وهكذا وثب عليهم وصفوفهم مختلفة. كان الجنود اللقيديميون يعدون أعظم الجنود في الدنيا خبرة وأحسنهم تدريباً. ولم يتعودوا شيئاً أو يتمزقوا عليه قدر ما تعودوا المحافظة على نظامهم عند انتقالهم من وضع الى وضع في المعركة فلا يقع في صفوفهم أي خلل، ولا يترددون في السير وراء اي قائد أو مساعد قائد، بتشكيلات منتظمة. ويندفعون الى اي موضع يكون الخطر على اشده. وفي هذه المعركة تجاهل [إپامنداس] سائر القوات الاغريقية وحصر همّه بالسپارطيين، فصكّهم بفلانكسه وأقبل [پيلوپيداس] باندفاع وسرعة لا

تصدق. فهدد شجاعته، وأوقع البلبل في خطتهم التعبوية، وبدأ الفرار الأعظم ثم المقتلة الكبرى فيهم مما لم يعرف مثله من قبل^(١٩). ونال [پيلوييداس] وهو بمنصب قائد كتيبة صغيرة لا جنراً رفيع القيادة، شهرةً ومجداً من هذا النصر لا يقل عنا ناله إيامنداس الذي كان يشغل منصب القائد العام لبيوتيا.

مهما يكن، فقد تقدم كلاهما نحو البيلوپونيوسوس زميلين في القيادة العليا وحصلوا من الحلف السبارطي على أكبر جزء من البلاد المتحالفة، وهي [إيليس Elis]، [وارغوس] و[اركاديا]، ومعظم [لاكونيا]. وكان الوقت أقسى الشتاء، ولم يبق من الشهر الأخير غير أيام قلائل. وفي بداية الشهر التالي كان من المقرر أن يعين الضباط الجدد ومن يتأخر من الضباط القدماء في تسليم وحداته يقطع رأسه. فأشار قادة الجيش بالانسحاب خوفاً من حكم القانون، وإجتنباً لشدة برد الشتاء. إلا أن [پيلوييداس] انضم إلى [إيامنداس] في حث بني قومه وتشجيعهم على القتال، وزحف بهم على سبارطا وعبروا [يورناس] واستولوا على مدن عديدة وأجتاحوا البلاد وتوغلوا حتى بلغوا البحر.

كان الجيش الذي جرده الثيبيون يبلغ سبعين ألفاً من الأغرقي، وتبلغ نسبتهم فيه واحداً إلى اثني عشر إلا أن سمعة الرجال رغبت كل حلفائهم في الانضواء تحت لوائهم واتخاذهم زعماء، بدون اتفاق أو معاهدة تنص على هذا، ولا شك في أن أرفع القوانين وأولها هو أن يكون من في حاجة إلى الحماية مطيعاً للقادر على الدفاع عنه. وكالبحارة الذين يظهرون الوقاحة والعنجهية في الطقس الهاديء والبحر الساكن وفي أثناء مكوثهم في الميناء يتظاولون حتى على الربان، فاذا ما أقبل النوء وعصفت العاصفة وبات الخطر ماثلاً رأيتهم يتصاغرون للربان ويتسابقون إلى خدمته معلقين عليه كل آمالهم، كذلك كان الأرغوسيون والاليائيون والاركاديون، تراهم في مؤتمراتهم العامة ينازعون الثيبين على القيادة العليا، فاذا جاءت المعركة، أو داهمهم الخطر العظيم، واحتنوا بقادتهم الثيبين طوعاً، وتأثروا خطاهم دون تردد. وقد وفق الثيبيون في هذه الحملة فوحدوا بلاد [اركاديا] وطردوا السبارطيين الذين كانوا قد

(١٩) لم يكن الجيش الثيبي يزيد عن ستة آلاف مقاتل باي حال من الأحوال [ديودورس ٥٥:١٥ وكرينفون: ٦] في حين كان جيش خصمه مع خيالاته التي كانت أفضل تدريباً وكفاءة في حين لم يكن يمتطي الخيل من المحاربين اللقيديمين إلا أغنياءم الأمر الذي جعل هذا الصنف سيء النظام سيء التغذية بفرسان تنقصهم البراعة والدراية. كما انه سد عجزه العددي بترتيب وحداته بعمق خمسين مقاتلاً في حين كان العمق السبارطي اثني عشر. ولما استظهر الثيبيون وقتلوا [كليرمريتس] استمات السبارطيون وهدفهم استنقاذ جثة ملكهم فأشفع الجنرال الثيبي انتصاره الأول بانتصاراته تسبب عن مغامرة السبارطيين بهجوم ثان. ولم يصدق حلفاء سبارطا معهم في القتال إذ كانوا يتوقعون نصراً دون أن يسبقه قتال أما الثيبيون فقد خاضوا المعركة وحدهم دون حلفاء [ديودورس وكرينفون]. نشبت هذه المعركة في العام ٣٧١ ق.م.

أستعمروا [ميسينيا Messenia] وسكنوها. ثم استدعوا الميسينيين القدماء وأسكنوهم جميعاً في [ايتوم Ithome] وفي [كنجرايه: Cenchreae]^(٢٠) عند رجوعهم، شتتوا شمل القوات الآثينية التي كانت تريد الايقاع بهم اثناء عبور المضيق، لعرقلة سيرهم.

وازداد الحب والاعجاب بشجاعتهما في نفوس سائر الاغريق لما ابدياه من بسالة وحقاقه من انتصارات. في حين زاد حسد مواطنيهم لهما لصعود نجمهما، فاعدوا لهما استقبالاً شائناً مخجلاً. وحوكما بتهمة عقابها الموت، لأنهما لم يسلما قيادتهما في أول شهر [بوكاتيس Buvatius] كما يحتمه القانون، بل احتفظا بها اربعة أشهر أخرى فوق مدتهما، وانجزا خلالها تلك الاعمال الباهرة في [ميسينيا واركاديا ولاقونيا] وحوكم [پيلوييداس] أولاً، وتعرضت حياته لأعظم الخطر، إلا أنهما برئا. وتحمل [إيامنداس] الاتهام والمحاكمة بصدر رحب وصبر جميل، وعد هذه المحنة جزءاً هاماً من فضيلتي الشجاعة والسماحة اللتين تعلمانه بأن الأذى الذي يصيبه في حياته السياسية لا يبرر له أن يحمل موجدة!. أما پيلوييداس فكان حاد الطبع عاطفياً وقد اثاره اصداقائه وحثوه على الانتقام للإهانة، فاهبتل المناسبة الآتية: كان [مينيقليداس Meneclidas] الخطيب أحد أولئك الذين وحدوا جهودهم مع [ميلون] و[پيلوييداس] في منزل [خارون] لتدبير الانقلاب ضد الطغاة. إلا انه لم يقيم بمآثر توازي ما قاما به، وكان خطيباً مصقلاً ذرب اللسان، إلا انه متحلل الخلق، سيء الطبع. وحصر همه في النيل من پيلوييداس والخط من قدر مآثره واستمر في ذلك حتى بعد المحاكمة. وهدفه الانتقاص ممن علوه قدرأ وفضله، والصاق الاتهامات بهما. وتمكن من إبعاد [إيامنداس] عن منصب القيادة العامة. وظل مدة طويلة صاحب اليد الطولى. إلا أن نفوذه لم يبلغ به حد نزع حب [پيلوييداس] من قلوب الشعب وحرمانه عطفهم. فعمد إلى خلق خصومة بينه وبين [خارون]. إن الحاسدين من طرازه يجدون لذتهم وراحتهم في الانتقاص ممن عجزوا عن التفوق عليهم، واطهارهم بمظهر أسوء من الآخرين، لذلك دأب في مبالغته بتعظيم أعمال [خارون] في خطبه العامة، وفعدقا المديح على حملاته وانتصاراته، وحاول تخليد النصر الذي احرزته الخيالة التي قادها في [پلاطيا Plataea] (قبل معركة ليوكترا)، بالشكل التالي: كان [اندروكسيدس Androcydes] الكيزيكيي Cyzicenean الرسام قد استؤجر لتصوير معركة سابقة، فانصرف إلى العمل بها في ثيبه. ثم قامت الثورة وأستعرت نيران الحرب، فحفظ الثيبيون الصورة وهي تكاد تكمل. فأخذ [مينيقليداس] يعمل على اقناع الثيبين بتكريسها

(٢٠) حصل هذا بسبب خطأ من ايفيقراطس وهو قائد أشتهر بالحكمة والدهاء فقد نسي ان يضع جنوداً في ممر كنجريسي في حين وضعهم في مركز أقل أهمية وخطراً.

لخارون ونقش اسمه عليها. وقصده من هذا أن يطمس مآثر [پيلوپيداس وپامنداس]. وكانت دعوى سخيقة، واقتراحاً غير معقول، معناه وضع نصر منفرد لم يقتل فيه إلا سبارطي مغمور الأسمه [جيرانداس Gerandas] مع أربعين من جنوده، في موضع أعلى من كل تلك المعارك الهامة العديدة، ولذلك انبرى [پيلوپيداس] يعارض الاقتراح بوصفه مخالفاً للقانون قائلاً أن العرف الذي جرى الآثيبيون عليه، يقضي بالا يخلد رجلٌ منفرد أياً كان. بل أن تعزى الانتصارات كلها للشعب. غير انه ظلّ طوال المناقشات يثني على خارون أجمل الثناء، وحصر همّه في محاولة الكشف عن خبيثة [مينيقليدس] وأظهاره على حقيقته، شخصاً دساساً حاقداً، وطلب من الثيبيين إن ارادوا الاقدام على عمل ممتاز ان يعاملوه بما حقيق به وأقنعهم الى أن فرضوا على [مينيقليدس] غرامة فادحة عجز عن دفعها، وحاول بعد ذلك أن يثير القلاقل في الحكومة. هذه الأمور تنير لنا بعض الجوانب من حياة [پيلوپيداس].

عندما أعلن [الاسكندر] طاغية [فييري Pheræ] (٢١) الحرب على قسم من مدن الثساليين، وبيت السوء للجميع، بعثت المدن بسفارة الى [ثيبه] تطلب عونها. وكان [پيلوپيداس] يعلم أن انشغال [پامنداس] في شؤون [الپيلوپونيسوس] يمنعه من المساهمة فعرض نفسه لقيادة الثساليين في كفاحهم، لأنه لم يكن يريد ان تستسلم شجاعته ومهارته للكسل والبطالة، فضلاً عن ان انسحاب [پامنداس] من واجبه لا ينطوى على حكمة أو فائدة. وما أن وصل [ثساليا] بجيشه حتى استولى على [لاريسا Larissa]، ثم حاول اصلاح سلوك [الاسكندر] الذي أعلن ولاءه - واجتهد في حمله على نبذ أسلوب حكمه المستبد، واحترام القانون والحكم بعدلٍ ورفقٍ، لكنه وجد فيه وحشاً ضارياً عنيداً لا تلين فئاته، وبلغته عدة شكاوى عن جوره ويطشه، فضيق عليه الخناق حتى اضطره الى الانسلا سراً من المدينة هو وحرسه.

وعلى أثر ذلك ترك [پيلوپيداس] الثساليين آمينين. وقد زال عنهم كل خوف من الطاغية، وحل ما بينهم الصفاء والوثام، وانحدر الى [مقدونيا] (٢٢): وكان [بظليموس Ptoimy] اذ ذاك في حرب مع الاسكندر ملكها. وقد بعث الفريقان المختصمان بطلبه ليستمع الى خلافهما وليحكم فيما بينهما ويعاون الجانب المهضوم حقه. فقدم وصالحهما، ودعا المنفيين الى العودة وأخذ [فيليب] أخوا الملك وثلثين من أولاد الأشرف بمثابة رهائن، وجاء بهم الى [ثيبه]،

(٢١) دس لعمه پوليفرون السّم بعد ذلك وجعل نفسه طاغيةً في مكانه. وكان پوليقرون نفسه قد فتك باخيه پوليدوروس والد الكساندر. لقد غصب هؤلاء تساليا وكانت دولة حرّة [ديودورس ٢٥-٦١، كزينفون ٦].

(٢٢) خلف أمتاس الثاني ثلاثة أولاد شرعيين هم الكساندر، وپردكاس، وفيليب، كما خلف ابنا غير شرعي هو [بظليموس] الذي حارب الكساندر وقتله غدراً وكان حكمه ثلاث سنوات.

مبرهنا للاغريق على مبلغ الثقة والسمعة التي نالها الثيبيون بفضل نزاهتهم (٢٣) وجراءتهم، وفيليب هذا (٢٤)، هو الذي حاول فيما بعد أن يستعبد الاغريق، ولم يكن في حينه يتعدى الصبّا، يعيش مع [پامينس Pammenes] في [ثيبه]. ومن هنا ظنّ انه اقتدى في اعماله التالية بپامنداس ورجّح انه اتخذ من براعته في الحرب وخفته مثلاً يحتذيه. وهذا على كل حال جانب يسير من سجايا [پامنداس] أمّا عن دماثته ونزاهته وكرمه وطيبة التي برز فيها حقاً، فلم يتصف [فيليب] بواحدة منها لا طبعاً ولا تطبعاً.

وبعد فترة من الزمن عاد الثساليون يشكون [الاسكندر] الفييري لإثارته الفتق في المدن. فخرج [پيلوپيداس] مع [اسميناس Ismenias] في سفارة اليه من [ثيبه] بدون جيش لأنهما ما كانا يتوقعان قتالاً، على أن يستخدم الثساليين عندما تضطرهما الحاجة. ودبّ الاضطراب في الوقت نفسه - في احوال مقدونيا مرةً ثانية بعد أن عمد [بظليموس] الى اغتيال الملك، وتسلم زمام الحكم. فبعث اصداقاً الملك يستدعون [پيلوپيداس] فلم يرفض التدخل في الأمر إلا أنه كان مفتقراً الى جيش خاص به، جنّد بعض المرتزقة من البلد وتقدم بهم لمواجهة [بظليموس]، ولما تقابلت القوات عمد بظليموس الى افساد مرتزقة پيلوپيداس بالمال واغرائهم بعصيانه. ومع هذا فقد كانت اوصاله ترتعد خوفاً من مجرد اسم خصمه وشهرته، فأقبل عليه كما يقبل التابع على متبوعه وأعلن الولاء وطلب الصّح معذراً بأنه ما مارس الحكم إلا ليحفظه لأخوة الملك الميت، وانه مستعد لتقديم الدليل على كونه صديقاً لأصداقاً [ثيبه] وعدواً لأعدائها. وضماناً لهذا وضع ابنه [فيلوكزينوس Philoxenus] وثلثين من لداته بمثابة رهائن فارسلهم [پيلوپيداس] الى [ثيبه]. على انه حنق بصورة خاصة على مرتزقته لما أظهره من غدرٍ وخيانة. ولما علم أن معظم أموالهم وزوجاتهم وأولادهم في [فارسالوس Pharsalus]، فكر أنه يصيب منه انتقامه كاملاً لو تمكن من الاستيلاء عليها. فجمع حوله عدداً من الثساليين وزحف بهم على [فارسالوس] ولم يكذب يدخلها حتى ظهر [الاسكندر] الطاغية بجيش على أبوابها. وحسب [پيلوپيداس] انه جاء لتبرئة نفسه من الجرائم التي عزيت اليه، فخرجا اليه، متصورين ان سلطة [ثيبه]، ومنزلتهما وسمعتهما تقيهما اي اعتداء، مع علمهما التام بقسوته وتهوره. ولما وجد الطاغية انهما وحيدان اعزلان بادر بالقبض عليهما وأحتلال [فارسالوس]، فاستولى على رعيته خوف عظيم، وساد

(٢٣) في هذا العهد كانت كل دويلات الاغريق قد نسيت إهتمامها بقضية الحرية. ولم يعد من بين كل هذه الحكومات من طبق النظام الجمهوري ويهتم بأمور المستضعفين والمظلومين ويشعر بالوطنية غير جمهورية

ثيبة. ديودورس ١٥: ٦٠.

(٢٤) هو والد الاسكندر الكبير.

الاعتقاد عندهم - بعد هذا الاعتداء الدنيء الصارخ - ان لا أحد سيسلم من بطشه، وان تصرفه ازاء الجميع وفي كل الأمور سيكون كسلوك اليائس من الحياة.

ولما بلغت الثيبين هذه الانباء ثار ثائرهم وتميزوا غيظاً ويعثوا بجيش يقوده آخرون غير [إپامنداس] الذي كان مغضوباً عليه وقتذاك. وكان الطاغية قد سمح للناس كافة ان يتصلوا [بپيلوپيداس] (٢٥) أول ما نقله الى [فيري]، متصوراً ان نكبته هذه ستحطم معنوياته، وتجعله يبدو موضع مهانة واستصغار، ولكن [بپيلوپيداس] راح ينصح أهل [فيري] أن يتجملوا بالصبر فبعده فرج حتى لكأنه مطمئن الى أن الطاغية لن يعتم ان يدفع ثمن الإهانات التي الحقها به، ويعث للطاغية بمن يخبره «انه من السخف والعبث أن يعذب يوماً رعاياه الابرياء ويوقع بهم ذبحاً وتقتيلاً ويُبقي عليه وهو يعلم جيداً بأنه سينتقم منه انتقاماً هائلاً لو نال حرته». فيهت الطاغية لجراته، وحرته في الكلام وأجاب: «لماذا يستعجل [بپيلوپيداس] موته الى هذا الحد؟»، فرد پيلوپيداس عليه بما يأتي:

- لكي تكون أسرع الى منيتك. اد ستصبح بعد قتلي ابغض الى الآلهة مما أنت عليه.

وبعد هذا منع الطاغية محادثته منعاً باتاً، إلا أن [ثيبي Thebe] زوجته، التي هي بنت [جاسون Jason] تملكته رغبة شديدة في رؤيته ومكاملته بعد أن سمعت من الحراس عن نبل سلوكه وجراته، فأقبلت عليه في السجن. ولكونها امرأة، لم تفلح لأول وهلة في ادراك عظمتة وهو في وسط نكبته وانما حكمت بأنه عومل معاملة فظة دنيئة لا تليق بشهرته، من رثاة ثيابه ومظهره العام، فيكت، وكان [بپيلوپيداس] يجهل هويتها. فتسمر في مكانه مبهوراً، وعندما علم صفتها اقرأها التحية منادياً اياها بلقب ابيها (فقد كان وجاسون صديقين وعشيرين ودودين). قالت له

- إني لأشفق على زوجك يا سيدي.

فأجابها:

- أمّا أنا فاشفق عليك لأنك تستطيعين احتمال [الاسكندر] مع أنك غير مقيدة به بسلاسل! ومست عبارته من المرأة وترّاً حساساً فلطالما ابغضت زوجها لقسوته وظلمه وفجوره الذي فاق كل حد، ولاعتدائه الشنيع على أخيها الاصغر وتعددت زياراتها له وكاشفته بما تجرعت من إهانات على يده، وأظهرت مزيداً من الحقد والكراهة لزوجها الطاغية.

(٢٥) كانوا قد غضبوا عليه لأنه لم يمض في مطاردة العدو بعد المعركة الأخيرة مع اللقيديمين قرب كورنث، واستثمار نصره هذا بقتله وأسره الكثير من الاعداء. فعزل وتحي عن الحكم في بويوتيا وجعلوه يخدم كجندي بسيط في الجيش [ديودورس ١٥:٧٢].

إن الجنرالية الثيبين الذين أرسلوا الى [ثساليا] لم يفعلوا شيئاً، الا قيامهم بانسحاب مخجلٍ منها لقصر باعهم في القيادة، أو لسوء حظوظهم (٢٦). ففرضت المدينة على كل منهم غرامة قدرها عشرة آلاف دراخما، وبعثت باپامنداس على رأس قواتها نفسها. فانتعشت آمال التساليين بشهرة القائد الجديد وانتفضوا ورفعوا حالاً لواء الثورة. وكانت أحوال الطاغية تسير به الى الخراب سيراً حثيثاً. وبلغ الخوف بقيادة جيشه وانصاره مبلغاً شديداً وأشتدت رغبة الرعية في الانتقاص عليه أملاً في عقاب عاجل ينزل به، إلا أن [إپامنداس] كان أكثر إهتماماً بسلامة [بپيلوپيداس] من أي مجدٍ يحزره. ولخوفه من استيلاء القنوط على الاسكندر اذا ضيق عليه الخناق، فيندفع كالوحش الهائج لينهش ويعض. لم يشنها عليه حرباً ضارية وانما ظلّ يحوم فوقه بجيشه كالباشق المستعد للانفضاض حتى اتلف أعصابه وحطم ثقته ولكنه لم يدفعه الى اليأس والهياج. كان [إپامنداس] يعلم مبلغ وحشيته، واستهانته التامة بكل ما هو عدل وحق. فلطالما دفن الناس أحياء والبس الابرياء جلود الدببة والخنازير وأطلق عليهم كلابه الشرسة ينهشونهم، أو جعلهم هدفاً لنباله واسنة حرايه! وفي [ميليبوا Meli-boea] و[سكرتوسا] المدينتين الخليفتين (٢٧) له، دعا السكان جميعاً الى اجتماع عام ثم أمر حراسه فأحاطوا بهم وأعملوا السيف فيهم كافة. وكرّس الرمح الذي اردى به عمه [پوليفرون Polyphron]، وزينه بقلائد الزهر يضحي له ويقدم القرابين كما لو كان رباً، مطلقاً عليه اسم [تيخون Tychon] (٢٨)، ومرة شاهد ممثلاً تراجيديا يمثل مسرحية «الطرواديين Troades» ليوربيدس فخرج من الملعب، وأرسل بطلب الممثل فلما حضر طلب منه ألاّ يتعض من خروجه اثناء التمثيل وان ينصرف الى إكمال دوره لأنه لم يترك الملعب تحقيراً له بل لخدله من رعاياه إن رأوه يبكي لمشهد ما تعانیه [هيكوبا Hecuba] و[اندروماخه Andromache] في سياق التمثيلية، وهو الذي لم يدركه أسف على اي شخص فتك به! هذا المستبد انتابه القلق لأسم ونبأ وقدوم حملة بقيادة إپامنداس وسرعان ما «خفض جناحيه المقهورين، كالديك الجبان» وأرسل وفداً يعرض ويرجو ترضية، ورفض [إپامنداس] أن يقبل مثل هذا الرجل ضمن حلفاء [ثيبه] على انه منحه هُدنةً أمدها ثلاثون يوماً، تم خلالها إطلاق سراح [بپيلوپيداس] واسميناس فعادا الى الوطن.

وعلم الثيبيون ان السپارطيين والآثينيين أرسلوا وفداً الى مملكة الفرس، بطلب العون.

(٢٦) عقبهم الكساندر وانزل بهم خسائر جسيمة اثناء المطاردة. ويعود الفضل في سلامة البقية الباقية الى كفاءة [إپامنداس] الذي اجبره الجنود على أن يتسلم القيادة [ديودورس ١٥:٧١].

(٢٧) هي من مدن مغنيزيا. ومغنيزيا إقليم يقع جنوب مقدونيا.

(٢٨) معنى الكلمة «نو الحظ السعيد» أو «المحظوظ».

فانتدبوا هم أيضاً [پيلوپيداس] لسفارة مماثلة، فكانت صدفة ممتازة لرفع مقامه وزيادة شهرته. إذ لم يسبق أن مرّ في بلاد ملك فارس شخصية جليدة القدر شهيرة الصيت. لأن المجد الذي ناله من انتصاراته على السپارطيين لم يزحف كالسلفاء ببطء وخمول بل انتشر كالنار في الهشيم بعد أن تردد في البلاد صدى الموقعة الأولى في [ليوكترا] ثم عقبته انباء الانتصارات الجديدة تباعاً. فزادت كثيراً في شهرته وصيته ونشرته على القاصي والداني. وكان موضع أعجاب وتقدير كل جنرال أو قائد أو ساتراب فارسي يلقاه، وموضوع أحاديثهم. فقالوا مشيرين اليه:

- هذا هو الرجل الذي طرد اللقيديمونيين من البحر والبر، وحبس سپارطا بين نهري [تاغيبتوس] و[يورتاس]، وكانت قبلها بزمن قصير قد اشتبكت في حرب ضروس مع الملك العظيم تحت قيادة [اغيسيلوس]، حوالي [صوصه] و[اكتانا].

ولقد أشاع هذا، السرور في أعطاف [ارتخششتا Artaxerxes] وزاد من رغبته في أن يُظهر [لپيلوپيداس] التفاتاً ورعاية، فقد كان يحب أن يرى نفسه كعبة القصاد من عظماء الرجال، وموضع تبجيلهم وأرتفعت منزلة السفير الشيبّي عندما لقيه وسمع حديثه الذي كان أكثر رزانة من حديث السپارطيين، وأدّى له من الاحترام ما يليق بامثاله الملوك. الامر الذي لم تفت السفراء الآخرين ملاحظته وكان الاعتقاد سائداً أن [انتالسيدياس] الاغريق هو من نال أعظم الخظوة لديه من سائر الاغريق^(٢٩)، فقد بعث اليه بتلك القلادة المغموسة بالزيت التي كان قد أحاط بها عنقه في وليمة من الولائم. والحق يقال انه لم يعامل پيلوپيداس بمثل هذه المعاملة الرقيقة، على أنه تحفه بأنفس وأعلى الهدايا حسب العادة المتبعة. وحقق سؤله وطلباته (وهي عدم التعرض لحرية الاغريق، واعمار [ميسينيا] بالسكان، ونشوء صداقة متوارثة بين الملك والشيبين). ويعد أن نال ذلك قفلاً راجعاً معتذراً عن قبول كل الهدايا إلا ما اعتبره رمزاً لحسن النية ودليلاً على التعاطف. وكان نجاح [پيلوپيداس] سبباً من خراب السفراء الآخرين. فقد أذان الآثينيون سفيرهم [تيماغوراس Timagoras] ونفذوا به حكم الموت، ولو أنهم فعلوا ذلك بسبب قبوله مقداراً كبيراً من هدايا الملك^(٣٠)، فحكمهم هذا عادل

(٢٩) إن كان پلوتارخ يقصد السفير السپارطي فهو يختلف عن كزينفون الذي يثبت اسمه بـ(يوثيكس Euthy-cles) كذلك يعلمنا أن [تيماغوراس] هو الرجل الذي كان الملك يرفع من قدره ويكرمه بعد پيلوپيداس. وربما كان ذلك في فترة سابقة عندما كان (انتالقيدياس) في البلاط الفارسي. ان عادة ارسال العطور والروائح الزكية عنواناً للتقدير والمحبة، ما زالت سائدة في الشرق.

(٣٠) وعن كزينفون (المرجع السالف ٧٠) ان جريمة تيماغوراس الحقيقية هي ما زعمه زميله الموفد معه (ليون من أنه كان على اتصال دائم بـ[پيلوپيداس] مؤيداً كل شيء أقترحه لمصلحة أهل ثيبه.

وصحيح. إذ لم يقبل ذهباً وفضة فحسب بل قبل سريراً فاخراً وعبيداً للعناية به، [كأن الاغريق لا يفقهون هذا الفن!] فضلاً عن ثمانين بقرةً مع رعاتها، متعللاً بأنه حليب البقر ضروري لداة ابتلي واخيراً كان قد حمل بمحفة الى ساحل البحر مع هبة لخدمه قدرها أربعة تالنتات. ولكن من المحتمل جداً ان لا يكون جشعه هو السبب في سخط الآثينيين، لأن [ايپقريطس Epicrates] ناقل الامتعة، لم يكتف بالاعتراف للجمهور، بأنه تسلّم هدايا من الملك. بل تقدم باقتراح يقضي أن ينتخب بدلاً من «الأراخنة» التسعة، فقراء تسعة من أشدّ المواطنين إملاقاً وان يرسلوا بمثابة سفراء الى الملك ليغنيهم بهداياه. فضحك الجمهور فحسب على هذه النكتة. على انهم في الحقيقة كانوا ساخطين ناقلين لفشل سفرائهم وحصول الشيبين على كل ما سعو اليه، دون أن يحسبوا حساب شهرة [پيلوپيداس] التي كانت أقوى أثراً من فصاحة الآثينيين ومقدرتهم الخطابية. مع رجل ما زال قلبه يميل الى المنتصر بقوة السلاح. إن هذه السفارة التي أعادت ميسينيا الى أهلها الشرعيين وضمنت حرية بلاد الاغريق الأخرى. حصلت لپيلوپيداس على قدر كبير من حسن الثقة عند عودته.

في ذلك الزمن عاد [الاسكندر] الفيري الى طبعه الأول من العدوان فاستولى على كثير من المدن الثسالية ووضع حاميات في بلاد آخائيي Achaen فيوتيس Phthiotis، والمغيزيين، ولما سمعت المدن بعودة پيلوپيداس أرسلت الى ثيبية وفداً مستنجداً، يطلب معونة بقيادة [پيلوپيداس] نفسه. فأجاب الشيبيون سؤلهم بطيبة خاطر. وعندما تم تجهيز كل شيء لما وبدأ الجنرال في مسيرته كسفت الشمس وساد الظلام المدينة ظهراً. فبهت [پيلوپيداس] للظاهرة العجيبة ولم ير من اللاتق أن يرغم الرجال الخائفين الخائري العزيمة على الرحيل، ولا أن يخاطر بمصائر سبعة آلاف من مواطنيه، ولذلك انطلق بثلاثمائة فقط من الخيالة المتطوعين - في الطريق الى ثساليا خلافاً لرغبة العرافين واخوانه المواطنين عموماً. وكانوا كلهم يرون في الظاهرة نذير شؤم يستهدف هذا الرجل العظيم إلا أنه كان يتميز غيظاً من الاسكندر وينقم عليه لما اصابه منه. كما كان يأمل أيضاً - مما سمعه قبلاً من حديث [ثيبين]، أن أسرته الآن منقسمة على نفسها وعلى خلاف كبير. إلا أن انتصار الحملة كان أكثر اثاره له من اي دافع آخر، ففي هذا الوقت كان اللقيديمونيون يرسلون الضباط العسكريين لمساعدة [ديونييسيوس] الطاغية الصقلي. والآثينيون يتفاضون الأموال من الاسكندر ويعظمونه باقامة تمثال برونزي له باعتباره محسناً لهم. فكان شديد الرغبة في أن يظهر الشيبين للناس بأنهم هم وحدهم بين الاغريق، يتبنون قضية المستضعفين الذين يضطهدهم الطغاة، ولا يترددون في القضاء على اي شكل من أشكال الحكومات المستبدة غير الشرعية في كل بلاد الاغريق.

عندما وصل بيلوبيداس مدينة [فارسالوس] جمع جيشاً وتقدم به لملاقاة الاسكندر، وعلم هذا ان الثيبين في جيش خصمه قليلون، وأن مشاته ضعف مشاة التساليين فسعى اليه في [ثيتيديوم Thetidium] وقال أحدهم لبيلوبيداس:

- الطاغية يواجهنا بجيش جرار.

فأجابه:

- وهذا أفضل لنا، إذ سنتغلب والحالة هذه على الكثرة.

وكان يمتد بين الجيشين سلسلة من التلال العالية الشديدة الانحدار بالقرب من مدينة [سينوسكفالي Cynoscephalæ] التي حاول الفريقان الاستيلاء عليها بمشاتهم. وقاد بيلوبيداس خيالته الجيدة الكثيرة العدد في هجوم على خيالة العدو فهزموها ولاحقوها في السهل. لكن الاسكندر احتل التلال في تلك الاثناء وهاجم المشاة التساليين الذين تقدموا بعد ذلك وحاولوا أن يشقوا طريقهم صعوداً في المرتفع الوعر الصخري. فقتل طلاتهم وعجز الآخرون عن الحاق أي ضررٍ بقواته لما أصابهم من انهك شديدٍ، فلما تبين لبيلوبيداس ذلك نفخ بوق التراجع لخيالته وأمرها بمهاجمة وحدات العدو الصامدة في مواقعها. وتناول ترسه والتحق فوراً بالوحدات التي كانت تقاتل حول التلال وتقدم الى الصفوف الأمامية وملاً رحاله بالشجاعة والحماسة حتى خيل للاعداء أنهم يصلون عليهم بأرواح وأجسام أخرى غير تلك التي يملكونها؛ وصدوا هجومين أو ثلاثة لهم ولكنهم وجدوا اندفاعهم كاسحاً عنيفاً، كما أطبقت عليهم الخيالة العائدة من المطاردة فانكفأوا الى الوراء بنظامٍ. وأدرك بيلوبيداس بثاقب نظره ومن الأرض المرتفعة ان جيش العدو تسوده الفوضى ويعمه الاضطراب وان لم تلحق به الهزيمة بعد، فأخذ يبحث عن الاسكندر ولما رآه على الجناح الأيمن يشجع مرتزقته ويصدر اليهم الأوامر، لم يتمالك شعور الغضب الذي اجتاحه لمراه. وانساق وراء عاطفته كالأعمى غير مقيم وزناً لا لحياته ولا لمسؤوليته القيادية فتقدم كثيراً عن جنوده وهو يصرخ متحدياً ويدعو الطاغية للنزال فلم يجب هذا وتقهقر وأخفى نفسه بين حرسه. وصد [بيلوبيداس] طلائع المرتزقة التي التحمت معه عن قرب وقتل بعضها إلا ان كثيراً منهم صوبوا استنهم الى دروعه من بعيد وخرقوها فجرح حتى اذا أسرع التساليون وقد استبد بهم الفلق من النتيجة يهبطون التل لنجدته، وجدوه قد فارق الحياة. ووصلت الخيالة أيضاً ودحروا الفلانكس وطاردوا العدو المقهور مسافة طويلة وملاً الميدان بجثث القتلى الذين انافوا على الثلاثة آلاف.

ما كان لأحد ان يدهش للحزن العميق الذي استولى على الثيبين الحاضرين، لمصرع [بيلوبيداس]، فقد راحوا بندبونه وينادونه بالأب والمنقذ والمعلم لكل ما هو حسنٌ وأهل للثناء. ولكن التساليين والحلفاء يزوهم في ذلك بما اصدروا من مراسيم بتكريمه غاية التكريم الحربي بالتقديم للشجاعة البشرية. وقدموا شواهد أقوى من هذا، على الود الذي يحفظونه له ابداً مشاعرهم الخاصة. وذكر أن الجنود اذ علموا بمصرعه - لم يفكروا في نزع دروعهم أو رفع السروج عن ظهورهم خيولهم أو معالجة جروحهم، بل أسرعوا وهم لاهثون بحرارة القتال وبايديهم السلاح، الى حيث جثته مسجاة وراحوا يكدسون الغنائم الحربية عليه كأنه ما يزال في قيد الحياة يرى ما يصنعون. ثم قصوا أعراف خيلهم وجزوا نواصيهم^(٣١)، وامتنع أكثرهم عن ايقاد النار في خيامهم، وعافوا وجبة عشائهم، وران الأسى والصمت على الجيش برمته. كأنهم لم يربحوا أعظم معركة وأخطرها، بل كأن الطاغية هزمهم وأخذهم عبيداً. وما ان علمت المدن بالفاجعة حتى خرج حكامها وشبابها واحداثها وكهنتها لاستقبال الجثمان وأخذوا معهم تذكارات حرب وتيجاناً ودروعاً ذهبية. وعندما حان موعد الدفن تقدم شيوخ التساليين طالبين من الثيبين أن يتولوا عنهم مراسيم التشييع وقال واحد منهم:

- ايها الاصدقاء، نحن نطلب منكم فضلاً به تشريف لنا وراحة معاً في فاجعتنا العظمى هذه. إن التساليين لن يتيسر لهم بعد الآن أن يقوموا على خدمة [بيلوبيداس] الحي، ولن تتاح لهم فرصة تكريمه تكريماً يشعر به. ولو سمحتم لنا بجثمانه، وبتزيين جنازته وتشيعه الى مقره الأخير، فاننا نأمل أن نشبث بهذا، الحقيقة الواقعة وهي ان خسارة التساليين به، أعظم من خسارة الثيبين. انكم فقدتم به جنراً حاداً فحسب، اما نحن ففقدنا جنرالنا وحريتنا. اذ كيف سنتجرأ على طلب قائد آخر منكم مادامنا لا نقوى على اعادة بيلوبيداس؟

وأجابهم الثيبون الى طلبهم. فعملوا له تشييعاً فخماً لا يساويه تشييع، كما كان رأي أولئك الذين لا يرون الفخامة في المواكب التي يزينها الذهب والعاج والارجوان، كما فعل [فيليبستوس Philistus]^(٣٢) الذي أنفق ببذخٍ واسراف جنوني على جنازة [ديونيسيوس] فحتم بها طغيانه مثل خاتمة فخمة لمسرحية تراجيدية عظيمة. ولم يكتف [الاسكندر الكبير] عند وفاة [هيفيستيون Hephæstion] بجزء أعراف خيله وبغاله، بل عمد الى هدم دعائم اسوار المدينة لتظهر أيضاً بمظهر الحداد وتبدو عند تشييعه كاسفة كئيبة عاطلة عن شكلها

(٣١) من تقاليد الحداد عند الاغريق.

(٣٢) هذا الكاتب خدم بالتتابع الديونيسييين جميعاً. وبعد ان هزم ديون آخر طاغية منهم قام بقتل نفسه.

الجميل. إلا أن مثل هذا التكريم الذي يجبر عليه الناس ويؤمرون به، إنما يشاركون فيه بمشاعر الحسد والغیظ ممن خصصت لهم وبمشاعر السخط والكراهية لمن فرضها عليهم. فهذه ليست ادلة على الحب والاحترام وإنما مظاهر ترفٍ ومباهاة قوم البرابرة وغطرسة أولئك الذين يغدقون ثروتهم على هذا العبث المقيت. وهذا رجل من طبقة العامة، يموت في بلاد العُربة ولا زوج أو ولد أو اقرباء بجانبه. تتنافس المدن فيما بينها دون ارغامٍ أو طلب بالخدمة والتشييع والدفن، على استباق أحداها الأخرى في إظهار ما تكنه من حبٍ. إن هذا ليبدو خلاصةً وختاماً لحظّ سعيد. «فموت الرجل السعيد ليس أعظم فاجعة، بل أعظم بركة» كما قال [ايسوب Ae-sop] لأنه يضمن سعادتهم العظمى ويجعلها بمنأى عن متناول يد القدر. وأنها وايم الحق لنعم النصيحة، تلك التي نقدم بها ذلك السپارطي الذي عانق [دياغوراس Diagoras] (٣٣) المتوج بالغار في الالعب الالومبية، وعاش ليرى أولاده واحفاده يفوزون فيها ويتوجون، قال له:

- ألا مت يا [دياغوراس] لأنك لا تستطيع أن يكون إلهًا!

ومع هذا لو وضعت انتصارات كل الالعب البيثية والالومبية معاً، فمن ذا الذي يضاهيها بانتصارٍ واحدٍ من انتصارات بيلوپيداس وكا أكثر ما حققه! لقد انفق حياته كلها في أعمال تقسّم بالنبل والبسالة ومات بالأخير وهو القائد العام لقوات [بويوتيا] المسلحة للمرة الثالثة عشرة، وخرّ صريعاً وهو يقاتل بأس لتقويض حكم طاغيةٍ دفاعاً عن حرية الثساليين.

وكما أن موته أورث حزناً شاملاً، فانه عاد بالنفع أيضاً للحلفاء إذ لم يتأخر البيثيون ساعةً عن الثأر له ما أن سمعوا بمصرعه ودفنوا بسبعة آلاف من الرجال وسبعمئة من الخيالة تحت قيادة [مالسيطاس Malcitas] و[ديوجيتون Diogiton]. فوجدا [الاسكندر] ضعيفاً لا يملك قواتٍ فارغماه على إعادة المدن التي استولى عليها. وسحب حاميته من بلاد المغنيزيين، وآخائيي فثيوتيس، وأعطائه عهداً بمساعدة الثيبين ضد أي عدوٍ يشاؤون. وقد أرضى هذا التدبير الثيبين إلا أن العقاب ادرك الطاغية للشر الذي عمله، وانتقمت السماء لموت [بيلوپيداس] بالطريقة التالية: كان [بيلوپيداس] قد علم [ثيبي] زوج الطاغية بالأ تخاف المظهر الخارجي لقوة دفاع الطاغية واحتياطاته ما دامت تعيش هي بينها ولا تمنع من ولوجها. كما أنها كانت تخشى هي الأخرى تقلبات مزاجه، وتكره قسوته ولذلك ائتمرت به مع أختها الثلاثة [طيسفونوس Tisiphonus] و[پيشولوس Pytholous] و[ليوكوفرون Lycophron]

(٣٣) دياغوراس هذا، انحدر من نسل هيراقليوس من خطّ [تليپوليموس] الذي كان حاكماً لرووس. وقد قتل أمام اسوار طروادة. وكان موضوع النشيد الالومبي السابع الذي نظمه الشاعر (پندار) ونقشه الرودسيون بماء الذهب فوق هيكل منيرفاً في ليندوس Lindus.

فقاموا بالمحاولة التالية لقتله: كانت كل الأجنحة تملأ بحرس الطاغية ليلاً. إلا أن غرفة نوعهما كانت في طابق علوي، وامام الباب كلب مقيد بسلسلة يقوم على حراستها وهو يهاجم كل انسان إلا الطاغية وزوجه والخدام الذي يطعمه. فلما قررت [ثيبي] اغتيال زوجها، عمدت الى اخفاء أختها طوال اليوم المقرر للعملية - في حجرة مجاورة. ودخلت هي على عادتها الى حجرة الاسكندر بمفردها وكان نائماً، وبعد قليل خرجت وطلبت من الخادم المختص أن يأخذ الكلب ويروح به لأن زوجها يريد أن يصيب نوماً هادئاً ثم انها القت صوفاً على الدرج لثلاث تصدراصوات من أقدام أختها اثناء صعودهم، ثم قادت أختها الى أعلى وهم شاكوا السلاح وتركتهم عند باب الحجرة ودخلت، ثم رجعت اليهم ويدها سيف الطاغية وكان معلقاً فوق رأسه، تأكيداً بأنه مستغرق في نومه. ولكن الخوف بدأ على الشبان، وظهر منهم صدود عن القتل. فتملكتها سورة من الغيظ وراحت تقرعهم وأقسمت بأنها ستوقظ الاسكندر وتكشف له عن المؤامرة. وهكذا تقدمتهم والمصباح في يدها الى الداخل، وكانوا يشعرون بمزيج من الخوف والعار، وادانتهم من السرير فاسك أحدهم بقدميه وسحبه الآخر من شعره الى الخلف وطعنه الثالث طعنة قاتلة. ربما كان موته أسرع مما يجب. إلا أنه كان أول طاغية يقتل بمؤامرة وزوجه. واهينت جثته وطرحت الى الخارج وأصبحت موطئ اقدم أهل [فيريا].

يبدو أنه تجرّع ما تستحقه جرائمه الشنعاء.

مارسيلوس

MARCELLUS

(Marcus Claudius)

268 _ 208

وكان [مارچلوس] خبيراً في كل نوع من أنواع القتال، إلا أن تفوقه الأعظم هو في النزال الفردي، ولم يعلم عنه انه رفض تحدياً، أو قتل تحدياً إلا وقتل متحديه. وفي صقلية حمى أخاه [اوتاسيلوس Otacilius] وأنقذ حياته عندما طوقه الاعداء في إحدى المعارك. وقضى على كل من دانه. وبسبب هذه البطولة أهدى اليه قادة الجيش، وهو بعد صغير - تيجاناً وما ليها من جوائز التقدير. وبدأت سجايه تتكشف أكثر فأكثر، حتى نصبه الشعب رئيس شرطة [كورول ايديل Curule Ædile] ^(٤) وعينه الكهنة بمنصب [عراف: Augur]، وهي طبقة من الكهانة أودع لها الشرع أساساً مهمة مراقبة دلائل النبوءات. وفي فترة توليه الشرطة الجأته حادثة مؤسفة الى رفع شكوى امام مجلس الشيوخ: كان ابنه [ماركوس] يتمتع بجمالٍ أخاذ، وهو في زهرة شبابه، وكان الاعجاب بذلك منه لا يقل عن الاعجاب بحسن اخلاقه. حاول زميل [مارچلوس] في الوظيفة الاعتداء على الشاب. وكان يدعى [كاپيتولينس Capitoli-nus] وهو رجل سيء الطباع وقح، فصدته الشاب عن نفسه أولاً، فلم يكفّ وتحرش به ثانية، فأبلغ اباه بالأمر. فأحتدم مارچلوس غضباً وسخطاً وشكاه الى مجلس الشيوخ: فاستأنف المتهم الشكوى الى مفوضي [تريبونات] الشعب محاولاً بشتى الحيل والمساعي أسقاط التهمة عنه. فلم يقبل هؤلاء بسط حمايتهم عليه، وعمد هو الى جبّ التهمة عن نفسه بالإنكار التام، ولما لم يكن في القضية شاهد عيان فقد وجد الشيوخ من اللازم احضار الشاب أمامهم. ولما رأوا خجله ودموعه، واحساسه بالعار، مقرونة بالسخط والقرف لم يعودوا بحاجة الى دليل آخر لأثبات الواقعة، وادانوا [كاپيتولينوس] وحكموا عليه بغرامة يدفعها للمشتكي. فصنع مارچلوس بها وعاء تقديم فضي وأهداه للآلهة.

بعد أن وضعت الحرب البونوية Punie ^(٥) أوزارها، وكانت قد امتدت عشرين سنةً، ذرّ قرن

(٤) تشمل وظيفة الإيديل في عهد الجمهورية واجبات كثيرة وخطيرة فهو فضلاً عن مسؤولية في الإشراف على الألعاب العامة، يقوم بوظائف مدير الاشغال العامة كما انه يراقب الأسواق وهو مسؤول عن ثبات الأسعار وتأمين الفصح الكافي والمحافظة على المعابد. وتأتي هذه الوظيفة الرابعة في سلم المناصب الكبيرة التنفيذية [قنصل. پريتور. چنصور]. وقد استحدثت في العام ٣٦٦ ق.م كما تنقله التواريخ. وهي نوعان فما يدعى بـ Curulian Aedile. وما يدعى بـ Plebian Aedile ومدة الخدمة هي سنة واحدة.

(٥) يخطيء پلوتارخ هنا في سرده الوقائع. فالجرب الفيونية الأولى دامت ٢٢ عاماً. اذ بدأت في ٢٦٢ ق.م وانتهت في ٢٤٩ ق.م. وفي أثناء ذلك بقي الغاليون ساكنين لا يتأتون بحركة ثم تحركوا بعد اربع سنوات وزحفوا نحو [ارمينيوم] إلا ان البوني Boii الذين تمردوا على زعمائهم، أقدموا على قتل الملكين آتيس Ates وكالاتيس Galates. وعلى أثر ذلك انقضّ الغاليون بعضهم على بعض فهلك عدد كبير، وقفل الباقيون عائدين الى بلادهم. وبعد خمس سنوات بدأوا يعدون لحرب جديدة بسبب التقسيم الذي أحدثه فلامينيوس في أراضي البيجننتس Pecintines التي انتزعت الغاليين السنين الذي يقطنون ما وراء الألب وقد استمرت الاستعدادات مدة طويلة. وبدأت الحرب بعد التقسيم بثماني سنين. وكان يقود الغاليين كل من =

قالوا أن [ماركوس كلوديوس] الذي تولى منصب قنصل الرومان خمس مرات، كان ابن [ماركوس] وهو الاول الذي لُقّب [مارچلوس] في أسرته وهو من لفظ Martial ^(١): «عسكري» كما يؤكد [پوسيدونيوس Posidonius] وكان الحق يقال متمرساً في فنون الحرب لخبرته العسكرية الطويلة، قوي البدن، باطش الكف، ميلاً بطبعه الى مزاوله صناعة الحرب. ولا يبدو مزاجه الناري وطبعه العنيف إلا في المعركة وبصورة بارزة، وإلا فهو متواضع رقيق الشمائل لين العريكة. واما وقوفه على العلوم اليونانية. والتهديب العقلي، فلا يرتفع الى أكثر من اعجابه وتقديره لمن ترمسوا فيها وبرعوا، ولم يكن هو بالذات قد أصاب منها حظاً يشبع به رغبته اليها، بسبب انصرافه الى مشاغله الأخرى العسكرية - فلو وجد في الدنيا اي من الرجال الذين قال عنهم هوميروس ^(٢) بأن السماء قد -

قدرت عليهم أن يخوضوا حروباً طاحنة ضروراً

منذ شرح الشباب حتى اراذل العمرا»

فهم على وجه التأكيد كبار الرومان في ذلك العصر. ففي مطالع شبابهم خاضوا الحرب ضدّ القرطاجيين في صقلية. وفي ابان كهولتهم قاتلوا الغالين دفاعاً عن أراضي ايطاليا الاصلية. وأخيراً لما بلغوا سنّ الشيخوخة قادوا الكفاح ضدّ هنيبعل والقرطاجيين ^(٣). وارادوا في أواخر سني حياتهم ما كان مضموناً لمعظم الناس - أي الخلاص من متاعب الحرب ومشاقها، إلا ان مراتبهم ومواهبهم العظيمة كانت دوماً تستدعي انتدابهم للقيادة.

(١) الرومان مغرمون باتخاذ أسماء آلهتهم الكبار أسماء لهم ومن هنا جاءت أسماء: ماركوس، مارشيوس، ماميروس، مامركوس الخ...

(٢) الايلاذة ١٤:٨٦.

(٣) سنّ الخدمة العسكرية عند الرومان بمقتضى قانون [سرفيوس توليوس] يتراوح بين السابعة عشرة والسادسة والاربعين. وبعدها يعفى الروماني من أية خدمة عسكرية ولم يخرق هذا القانون إلا في الحرب الغالية كما ذكر فيما بعد. أما اللقيديمي فيظلّ خاضعاً للخدمة العسكرية حتى سنّ الستين. وتبدأ الخدمة العسكرية عند الاثنيين في الثامنة عشرة حتى الاربعين. ويقضي الاثيني السنين الأوليين في الدفاع عن المدينة. والخدمة في حاميات قلاع آتيكا.

الخطر الغاليّ، وبدأ يقلق روما ثانيةً. وكان الاينسوبريون Insubrians^(٦) الأقوياء الذين يسكنون اصقاع الألب الدنيا من ايطاليا قد جندوا من الغاليين مرتزقةً عرفوا باسم [كيساتي Gaesatae]^(٧)، وكان من قبيل المعجزة وحسن الحظّ النادر لروما، ان الحروب الغالية لم تتفق زمنياً والحرب البونية. وان يظلّ الغاليون ساكنين بكلّ اخلاصٍ. يقفون كالمتفرجين بينما كانت نار الحرب البونية مستعرةً. كأما تعهدوا لروما بالألّا يحركوا ساكناً، وان ينتظروا المنتصرين لهاجمتهم! ولأنّ وبعد ختام تلك الحرب لم يعد ثم ما ينعمهم من الظهور على المسرح. على أنّ الوضع السياسي السائد، وشهرة الغاليين السالفة، أشاعت خوفاً ليس بالقليل في نفوس الرومان. لأنهم كانوا في سبيل خوض حرب قريبة الميدان من أرض الوطن، بل ضمن حدود البلاد. كما كانوا ينظرون الى القوم نظرة حذرٍ وتوجّسٍ يفوق توجسهم من أي قوم آخرين، فذكرى استيلائهم مرة على عاصمتهم ما زالت ماثلة لأذهانهم. وبدأ خوفهم هذا واضحاً من القانون الذي استنوه وقتذاك وهو ينصّ على اعفاء الكهنة من كلّ الواجبات العسكرية إلاّ عندما تهدد البلاد بغزوات [غالية].

وبلغت الاستعدادات الرومان لهذه الحرب أقصى درجة (لم يؤثر سابقاً أو لاحقاً أن عبأ الرومان مثل هذا العدد من الفرق الكاملة السلاح كما عبأوا الآن). وكان هذا وقرابينهم الفائقة للعادة دلائل واضحة على مبلغ خوفهم. فمع أنهم كالأغريق يفتنون الطقوس البربرية القاسية مقتناً شديداً، ويمتازون على سائر الشعوب الأخرى بمشاعرهم الوادعة المفصحة عن احترامهم للآلهة، لم يترددوا عندما داهمتهم هذه الحرب - في تطبيق نبوءات معينة وجدوها في «أسفار كسبيل» فعمدوا الى دفن رجل وامرأة يونانيين وهم أحياء^(٨). واتبعوهما بذكر وأنثى غاليين - في سوق يدعى «سوق الوحوش». وأستمروا الى يومنا هذا يقدمون الى هؤلاء الارباب الضحايا الأريع خلال مراسيم دينية معينة في شهر تشرين الثاني من كل سنة.

وكانت الحرب سجلاً بين الفريقين في مبدئها. يحرز الرومان أحياناً انتصارات باهرة، ويصابون أحياناً بهزائم منكرة. ولم يتقرر النصر التام لأحدٍ في هذا الكفاح حتى نصب [فلامينيوس Flaminius] و[فيرويوس Furius] قنصلين، فساقا جيشاً لجباً على [الانيسوبريين]. وشوهد النهر الذي يجري في إقليم [پيسنوم Picenum] عند رحيلهما -

= كونكوليتانس و أنيرويتس اثناء تولي [ايميليو پاپوس وايتليوس ريگولوس منصب القنصلية في العام ١٢٤ ق.م. [انظر پوليبوس ٩٠٢ وليفي ٢٥:٢٢].

(٦) اي الميلاتيون.

(٧) ربما لقبوا بهذا من نوع اسلحتهم.

(٨) فعلوا مثل هذا ثانيةً في الحرب الفونية الثانية [ليفي ٥٧:٢٢].

وهو طافح بالدم. وذكر انه شوهدت اقمراً ثلاثة دفعةً واحدةً في [ارمينيوم Ariminum]. وفي اجتماع قنصلي روما اعلن الكهنة العرافون أن انتخاب القنصلين لم يكن شرعياً، وليس مما يتفق والنبوءات التي تنذر بشؤم تنصيبهما. فعجّل مجلس الشيوخ برسال كتب الى المعسكر باستدعاء القنصلين الى روما بأسرع ما يمكن وأمرهما بالامتناع عن الاشتباك مع العدو، والتنازل عن منصبهما القنصلي وفي أوّل فرصة جيء بهذه الكتب الى [فلامينيوس] فأرجأ فضتها، حتى كسر العدو^(٩) وطارد قواتهم وتوغل وراء حدودهم وأجتاح بلادهم وعاث فيها سلباً. إلا أن الشعب لم يخرج لاستقباله عند عودته مثقلاً بمقادير ضخمة من الغنائم. لأنه لم يُطع في الحال الأمر الذي ورد بالعودة، بل لم يكثر به وازدراه. وكادوا ينكرون عليه حقه بموكب النصر. ولم نيته الاحتفال به حتى عزلوه هو زميله عن الحكم وانزلوهما الى مرتبة المواطن العاديّ. هكذا كانت تصرف كلّ الأمور في روما، بالاعتماد الكليّ على الدين. فلا يسمحون بأي استصغار يوجه الى العرافة وطقوس القدماء، مهما كانت تصيب الامور المنهي عنها - من النجاح الكبير. وراح بهم الوهم الى أن احترام الحكام لارادة الآلهة هو أهم واجدى للسلامة الوطنية من قهر الاعداء. كان [طيباريوس سمپرونوس Tiberius Sempronius] الذي وضع الجمهور سجاياه وأستقامته في أرفع منزلة، قد نصب [سيبيو ناسيكا] و[كايوس مارشيوس Caius Marcius] قنصلين ليخلفاه، فخرجا كلّ الى الاقليم الذي عين فيه. ثم أن [طيباريوس] هذا بينما كان ينقّب في كتب الطقوس الدينية اذابه يقع على شيء كان يجله وهو هذا: عندما يريد أي قنصل ان يقوم باستخارة، فانه يجلس في بيت أو خيمة تكترى له خارج المدينة، فاذا استدعاه أمر عاجل الى المدينة قبل ان يشاهد علامة ما، فعليه أن ينتقل الى خيمة أو بناء آخر عند عودته ليتابع منه المراقبة. ويظهر أن [طيباريوس] جهلاً منه، استخدم البيت نفسه مرتين قبل اعلانه تعيين القنصلين الجديدين.

ولما أدرك خطأ فاتح به مجلس الشيوخ، ولم يمرّ المجلس بهذه الهفوة البسيطة مرور الكرام بل عجلّ بالكتابة عنها لكلّ من [سيكپيو ناسيكا] و[كايوس مارشيوس]، فتركا اقليميهما وعادا فوراً الى روما ونزلا عن منصبيهما. حصل هذا في فترة متأخرة^(١٠)، وفي حدود ذلك الزمن أيضاً سحبت وظيفة الكهنوت من رجلين ذوي مكانة رفيعة جداً هما [كورنيليو كورنيليو] و[كونيتوس سولپيشيوس Quintus Sulpicius]. عزّل

(٩) لا يعود الفضل له بالنصر [ليفي ٢١:٦٣] فقد دخل المعركة والنهر وراءه ولم يكن للجنود مهرب غير العمل على دحر العدو. ويعود الفضل بالحقيقة الى التريبيونات الذين لجأوا الى فنون عسكرية يشرحها ليقي بتفصيل. لقد اندحر [فلامينيوس] هذا أيام هنييل في معركة تريبيا Trebia العام ٢١٦ ق.م. (١٠) ستون سنة.

أولهما لأنه لم يرفع احشاه اضحية مذبوحة، بصورة صحيحة. ونُحي الثاني لأن الطاقية المهذبة التي يلبسها كهنة الأرباب أمثاله [فلامين Flamen] سقط من رأسه اثناء قيامه بذبح الأضحية. و[مينوشوس] الدكتاتور الذي كان قد عين [كايوس فلامينوس] أمراً للخياله عزله هو ومن عينه عن القيادة لأن صوصأة فأرة سُمعت! وبصرف النظر عن اهتمامهم الشديد بمثل هذه الصغائر التافهة، فإن هذا الحرص لم يؤد بهم الى الشعبذات والاهام لأنهم لم ينحرفوا بها أو يغالوا عن أسلافهم في تطبيقها.

ما أن استقال [فلامينيوس] وصاحبه من منصب القنصلية، حتى قام الضباط المترسسون المعروفون باسم [انترركس Interrex] ^(١١) باعلان [مارچلوس] قنصلاً وما ان تسلم مقاليد السلطة حتى أختار [كنيوس كورنيليوس Cnaeus Cornelius] زميلاً له. وقيل أن الغالين اقترحوا عقد صلح، وكان مجلس الشيوخ ميالاً الى السلم كذلك، لكن [مارچلوس] حمس الشعب للحرب. على أن الظواهر تشير الى ان الطرفين اتفقا على الصلح لكن مرتزقة الگيساتي، نقضوه بعبورهم الألب واثارتهم الاينسوريين (كان عدد الگيساتي، ثلاثين ألفاً فقط، بينما تجاوزهم الاينسوريون بكثير) وزحفوا وهم معتدون بقوتهم - نحو [أجيراى Acerrae] ^(١٢) وهي مدينة تقع شمال نهر الپو، ومنها أندفع ملكهم [بريتومارتوس Brito-martus] بعشرة آلاف منهم يجتاح الاراضي المحيطة بها. فبلغت الانبياء [مارچلوس] فخلف زميله عند [اسيري] تاركاً معه المشاة وكل الأسلحة الثقيلة وثلت وحدات الخيالة وأخذ بقيتها وستمائة من المشاة الخفيفة وراح يغذ السير ليلاً ونهاراً دون استراحة ولم يقف حتى أدرك هؤلاء العشرة آلاف بالقرب من قرية غالية تدعى [كلاستيديوم Clastidium] ^(١٣) كانت قد ضمت الى ملك الرومان منذ وقت قصير. ولم يتسن له فاصل زمني لإراحة جنوده واستجمامهم الا ان البرابرة انتهبوا اليه حالاً واستخفوا به لقله مشاته. وكان الغالين أهدق من ركب من امتطى الخيل - لذلك ايقنوا بالغلبة والاسيما وان تفوقهم العددي على مارچلوس كبير جداً فلم يأبها وعاجلوه الهجوم، وملكهم على رأسهم كأنما يريدون وطئه تحت سنابك

(١١) أو [انترريگيس Interreges] وهؤلاء هم ضباط يتم تعيينهم في فترة خلو الدولة من الموظفين الاجرائيين كما يدل عليه معنى الكلمة اللاتينية المركبة «بين الحاكمين». ويكون واجبهم دعوة الجمعية العامة لانتخاب الحكام الجدد من قناصل وهلم جرأ. وقد استحدث المنصب زمن الملكية وبقي في عهد الجمهورية ولم يلغ. (١٢) بلدة ما بين مدينتي ميلان وپلاجنيتا. قريبة من نقطة اتحاد نهري (ادأ) و(پو) كان الرومان يحاصرونها في حين زحف الغالين لفق الحصار عنها. لكن ما لبثوا ان تبنوا عجزهم فعبروا نهر الپو بجزء من عسكريهم والقوا الحصار على (كلاستيديوم) لتحويل الضغط وتخفيفه عن اجيري. [پوليبيوس، ليفي ٥٢:٢٠].

(١٣) يضعها ليفي في ليگوريا مونتانا.

خيالهم، وهم يهددون بما سيرتكبون من الفظائع والوحشية. عمد [مارچلوس] الى نشر جناحي خيالته وركب الى المشاة ومد في جناحيهم طولاً حتى بلغ جبهة العدو، وقد لجأ الى هذا بسبب قلة جنوده وخوفاً في حركة التفاف يقوم بها العدو يستهدف بها الهجوم عليهم من سائر الجهات. وفيما هو يهيم بالدوران لمواجهة العدو، أجفل حصانه لمنظر الغالين المرعب وصيحاتهم، ونكص على عقبيه مرغماً راكبه على التنحي الى جانب، وخشي [مارچلوس] أن يفسر جنوده الحادثة تفسيراً سيئاً ويتخذوها فالاً نحساً فتثبط عزائمهم، أسرع يدير حصانه ليووجه العدو.

وأتى بحركة بدأ فيها وكأنه يصلي للشمس وانه لم ينكص دائراً على عقبيه بمحض الصدفة بل لغرض الدعاء. اذ كان من عادة الرومان أن يدوروا على أعقابهم عندما يرفعون الصلاة للآلهة. وفي هذه اللحظة التي كان سيصطدم فيها بالعدو قيل انه نذر خير السلاح [لچوپتر فيريترىوس Jupiter Fertrius].

تطلع ملك الغال الى [مارچلوس] فخمن أنه الجنرال، من شعار السلطة الذي يتقلده فتقدم مسافة عن جيشه المهياً للالتحام وتحداه للنزال بصوت عال ملوحاً برمحه وهمز جواده فأنطلق به نحوه كالعاصفة، وكان أفرع هامة من سائر الغالين وبرزهم بدروعه المحلاة بالذهب والفضة ومختلف الألوان وهي تلمع كالبرق الخاطف. وبدت هذه الدروع لمارچلوس وهو يستعرض جيش العدو المصطف للمعركة، خير دروع وأجملها وحسبها تلك التي نذرها لچوپتر، فأسرع نحو الملك وخرق درع صدره بطعنة رمح ثم أخذ يشد عليه بثقل حصانه حتى القاه على الأرض وعاجله بضريتين أو ثلاث أخرى فقتله. وترجل في الحال ووضع يده على سلاح القتيل وشخص بصره الى السماء وتكلم بالآتي:

- يا [چوپتر فيريترىوس]، يا حكماً في بطولات القادة، وأعمال الجنرالات في الحرب وفي المعارك، كن شاهداً بأنني أنا جنرال، قتلت جنراً. أنا فنصل قتلت ملكاً بيدي هاتين، فكنت الثالث من الرومان في هذا. واليك أقدم أول وأفضل الغنائم؛ هب لنا القدرة على انها بقية هذه الحرب بهذا الحظ المواتي نفسه.

ثم زجت الخيالة نفسها في المعركة ضد فرسان العدو ومشاتهم الذين هاجموا ونالوا نصراً فريداً لم يسمع بمثله. إذ لم يحدث من قبل ومن بعد ان هزمت فئة قليلة من الخيالة هذا العدد الكبير من المشاة والفرسان معاً. لقد قتل من العدو عدد كثير. وجمعت الغنائم، وعاد [مارچلوس] الى زميله ^(١٤) الذي كان يدير الحرب بدون توفيق ضد العدو وبالقرب من

(١٤) في غياب مارچلوس اتم زميله سكيبيو الاستيلاء على (اجيري) ثم زحف على ميديولانوم والقي عليها =

[ميلان Milan] أعظم مدن الغاليين وأحفلها بالسكان، وكانت عاصمتهم ولذلك راحوا يدافعون عنها باستماتة وبسالة، حتى بدأ وكأنهم يحاصرون [كورنيلوس] أكثر مما يحاصره هو. ويعودة مارچلوس وانسحاب الكيساتي فور سماعهم بمصرع ملكهم واندهار جيشه، انقلبت الآية وتم الاستيلاء على ميلان^(١٥). ونزل الغاليون عن بقية بلدانهم وكل ما يملكون طواعيةً. وعقد صلح بين الطرفين بشروط عادلة.

وأعطى [مارچلوس] وحده حق الدخول بموكب النصر بمرسوم صادر من مجلس الشيوخ. وكان الاحتفال فخماً، باذخاً، مدهشاً بغنائم الحرب واجسام الأسرى الجبارة وهم يقادون. إلا أن المنظر الأروع والأندر كان الجنرال نفسه وهو يحمل سلاح الملك البريري إلى الرب الذي نذر لها. أتخذ عموداً خشبياً طويلاً مستقيماً من البلوط وهذبه وشذبه على هيئة نصبٍ وعلق عليه دروع الملك والبسه وسلاحه واضعاً كل قطعة منها في مكانها المناسب، وسار به الموكب مهيباً وهو يحمل النصب وصعد العجلة ودخل المدينة ليبدو صورة لأروع نصر، ومشى خلفه الجيش وفق النظام العسكري وهو مزدان بدروع براققة صقيلة. ينشد قصائد نظمت بالمناسبة ويترنم بأغاني الظفر أشادة بمدح چوپتر، وجرالهم، ثم دخل [مارچلوس] معبد [چوپتر فيريترىوس] وقدم هويته وهو على ما نعلم ثالث من فعل هذا وآخرهم. الأول كان [رومولوس] بعد قتله [كرون] ملك [الكينينيين] والثاني كان [كورنيلوس كوسوس] الذي قتل [طولميوس] الاتروسكاني، وثالثهم مارچلوس الذي صرع [بريتومارتوس] ملك الغال، وكان فيه مسك الختام، ان الرب الذي قدمت له هذه الغنائم يدعى [چوپتر فيريترىوس] ومن الغنائم التي حملت على القطب: Feretrum. وهي إحدى الكلمات اليونانية التي كثر استعمالها في ذلك الزمن في اللغة اللاتينية. أو هي كما يقول بعضهم لقب «چوپتر ذي الرعود» مشتقاً من كلمة «Ferire». أي «الضرب» وهناك من يقول أنها مشتقة من «الضربات» التي تكال في القتال. ففي اثناء المعارك حتى يومنا هذا - ينادى المشتبكون في القتال أحدهم الآخر عند ضغطهم على العدو: «أضرب» وهي باللاتينية Feri. وبالغنائم يطلقون عليها عموماً اسم Spolia، وبصورة خصوصية: «Opima»، وان يقولوا أن [نوما پومپليوس] ينوّه في تعليقاته بصنف أول وثان وثالث من الغنائم التي يسميها Spolia Opima. ويذكر الصنف الأول الذي يتم أغتنامه موقوف على [چوپتر فيريترىوس] والثاني مخصص [لمارس] والثالث [كويرينوس]. وان المكافأة عن الأول ثلاثمائة أسّي Asses، وعن الثاني مائتان وعن ثالث

= الحصار [پوليبوس المرجع نفسه، لفي ٥٤:٢٠].

(١٥) استسلمت كونوم وهي مدينة هامة. وبذلك غدت كل ايطاليا رومانية صرفة من جبال الالب الى البحر الأيوني.

مائة. والمفهوم العام السائد على كل - هو ان تلکم الغنائم لا تكون «أوبيما» إلا اذا وقعت في يد القائد العام أول غنيمة في معركة حاسمة ويشترط أن تسلب من القائد العام للعدو على أن يُصرع بيد قائد العدو.

ارتاح الرومان بالنصر وختام الحرب أيما ارتياح. وبلغ بهم السرور الى حدّ ارسالهم دليل امتنانهم من [پوللو دلفي] كأساً ذهبية زمنتها مائة پاوند على سبيل الهدية ووزعوا جانباً كبيراً من الغنائم على حليفاتهم من المدن. وحرصوا على ارسال عددٍ كبير من الهدايا الى [هيرو Hiroe] ملك السيراكوزيين صديقهم وحليفهم.

لما غزا [هنيبعل] ايطاليا، أرسل [مارچلوس] الى صقلية على رأس عمارة بحرية. ولما هُزم الجيش الروماني البري في كاني Cannæ وهلك من جنوده بضعة آلاف، ونجّت القلة منهم بالفرار الى كاموزيوم Canusium وخشي الجميع أن يقدم هنيبعل على الزحف نحو روما فوراً بعد سحقه الجيش الروماني، وبعث مارچلوس أولاً الفأ وخمسائة من جنوده لحماية البلدة ثم سار الى [كانوزيوم] بأمر صدر اليه من مجلس الشيوخ، بعد أن بلغه تجمع كثير من الجنود الغارين وفلول الجيش المهزوم داخل تلك المدينة، ونجح في سحبهم خارج الاستحكامات واتقاذهم حائلاً دون قيام العدو بنهب تلك الانحاء. وكان معظم جنرالية الرومان قد صرعوا في ساحة القتال وفي اثناء المعارك، وارتفعت شكوى الأهالي من طريقة ادارة الحرب، قائلين ان حذر [فايبوس ماكسيموس] المتناهي هو أشبه بالجمود والاحجام، وان كان بُعد نظره وصواب احكامه مما رفعه الى اسمى درجة من التقدير عند المواطنين، وكانت تقتهم في ابعاد الخطر عنهم لأحد لها، إلا أنهم ما كانوا يتوقعون منه أن يرد الكيل بكيل، ولذلك اتجهوا بافكارهم الى مارسلوس، يحدوهم الأمل في أن تقرن جرأته وعزيمته وفورية اجراءاته بحذر فايبوس وفطنته، وأن يُطعم أحدهما بالآخر. فراحوا يدفعون بهما الى العدو معاً أحياناً بسلطة القنصل القائد لكليهما، وأحياناً بوظيفة [قنصل] لأحدهما، وبمنصب [پروقنصل] للآخر. وذكر [پوسيدونيوس] أن [فايبوس] لُقّب بدرع روما، ولقّب [مارچلوس] بسيفها. ومما هو ثابت أن هنيبعل أقر بأنه يخشى فايبوس كما يخشى معلماً. ويخشى مارچلوس كما يخشى خصماً، يخاف من الأول لئلا يردعه عن خلق تشويش وفوضى، ويخاف الثاني لئلا يلحق به أذى.

في مبدأ الأمر بينما كان جنود هانيبال ثملين بخمرة انتصاراتهم، لا يقيمون اي وزن لقوة العدو، وقد بلغ اعتدادهم بأنفسهم حدّاً كبيراً، راح [مارچلوس] يهاجم فصائل السلب المغيرة التي كان يطلقها العدو، ويغير على ساقته في المؤخرة فيبيدها واحدة بعد الأخرى، وبهذا كان يُنقص من قوات خصمه شيئاً فشيئاً. ثم قدّم العون الى [الناپوليين Neapolitans] وأهالي

وحماية داخل المدينة، ووضع أمتعة الجيش في أمكنة قريبة من ابواب المدينة. وأصدر أمراً رسمياً يحظر اقتراب النولان من الأسوار. وبهذا لم يعد يرى سلاح في المدينة من الخارج. وهكذا استدرج هنيبعل للتحرك نحو المدينة بجيشه الذي كان يتخلله بعض الفوضى، متوهماً أن المدينة توج بالاضطراب. وعندئذ أمر مارچلوس بفتح أقرب باب وخرج للهجوم بنخبة من خياله من الامام، وتبعه المشاة بالهجوم من باب ثانٍ^(١٨) وهم يصيحون. ثم فتح الباب الثالث اثناء ما كان هنيبعل يصدّ الهجومين بجزء من جيشه، واندفعت منه بقية قوات [مارچلوس]، ووثبوا من جميع الجهات على العدو الذي خارت عزائمهم بفعل المباغتة وكانت مقاومتهم ضعيفة لمن هاجمهم بالأول بسبب عنف الهجوم التالي عليهم من القوات الأخيرة. وهنا هُزم جنود هنيبعل وطوردوا حتى معسكرهم بعد أن خسروا كثيراً من القتلى والجرحى وهي أول مرة يولون أديارهم للرومان. وقيل أن أكثر من خمسة آلاف منهم سقطوا صرعاً في هذه العملية، بينما لم يتجاوز خسائر الرومان خمسمائة قتيل، على أن المؤرخ ليفي لا يؤيد أن نصر الرومان كان كبيراً ولا الخسارة التي مني بها العدو بلغت هذا المبلغ. ومهما يكن فلا جدال في أن هذه المعركة رفعت كثيراً من منزلة مارچلوس وأنعشت معنويات الرومان بعد النكبات السالفة، وأحييت الثقة في أنفسهم بدرجة كبيرة إذ أبدأ الأمل يداعبهم في أن العدو الذي يكافحونه من الممكن أن يغلب، وانه عرضة للهزيمة مثلهم.

ولذلك استدعى الرومان [مارچلوس] إثر وفاة القنصل الآخر^(١٩) ليعملوا على نصبه في محلّه، وتمكنوا رغم معارضة الحكام في ارجاء الانتخابات حين قدومه^(٢٠)، وفعلاً ثمّ انتخابه باجماع الأصوات، ولكن اتفق أن أرعدت الدنيا في تلك الساعة، فأفتى الكهنة العرافون بأن انتخابه لم يكن شرعياً، فهو باطلٌ ألاّ انهم لم يجروا على إعلان قرارهم رسمياً، خوفاً من الشعب^(٢١)، فنزل [مارچلوس] عن القنصلية من تلقاء نفسه مستبقياً قيادته على كل، ثم

(١٨) عن هذه الهجمات وأثرها يزودنا ليفي [١٦:٢٣] بمعلومات متواضعة هي أقرب الى المنطق والمعقول.
(١٩) القنصل المتوفى هو [پوستيموس الينوس] الذي قضى عليه قوم بويي Boii وكل جيشه البالغ خمسة وعشرين ألفاً داخل غابة واسعة الرحاب يطلق عليها الغاليون اسم (ليتانان). ويبدو انهم قطعوا كل الأشجار القريبة من الطريق الذي كان الجيش الروماني سيسلكه، وبشكل يمكنهم معه من مباغتة دون أن يتوقع ذلك (ليفى ٢٤:٢٣). وقد جعل الغاليون من جمجمة القنصل وعاء للشراب يستخدمونها في أعيادهم. وقع ذلم بعد معركة (كاني) بأشهر قليلة.

(٢٠) شك العامة بأنه ازيج عن الطريق عمداً بفعل مجلس الشيوخ.
(٢١) كان مارچلوس من الطبقة العامة (الپليبيان) الذين يقال لهم باللاتينية Terra Pili abناء الأرض، وكذلك كان القنصل المزمال (سمپرونيوس) ولم يكن الپاتريشي مرتاحين لوجود قنصلين من الطبقة العامة انكرت صحة النبوءة. لكن مارچلوس أظهر نفسه رجلاً حريصاً على النظام الجمهوري فرفض شرفاً لم يجمع عليه المواطنون كافة.

[نولا Nola]. فاستقرت أحوال الأولين الذين كانوا مخلصين في حلفهم مع الرومان في الواقع، لكنه وجد النولانيين مختلفين منقسمين على أنفسهم ولم يكن الشيوخ قادرين على ممارسة الحكم ومباشرة العامة، لأن هؤلاء كانوا بصورة عامة منحازين الى جانب هنيبعل. وكان في المدينة شخص يُدعى [بانتيوس Bantius]^(١٦) وهو رجل مشهود له بالبأس وشرف المحتد، أبلى بلاءً مرّاً في معركة [كاني] وفتك بعدد كبير من الاعداء، ثم وجد مدفوناً تحت اكداس من جثث القتلى تغطّي جسده الرماح والأسنة فجيء به الى هنيبعل فأحتفى به واكرامه غاية الإكرام ولم يكتف باخلاء سبيله دون فدية، بل آخاه واستضافه، فأنقلب نصيراً من أقوى انصار [هنيبعل] عرفاناً منه بجميله الكبير. وأنشأ يحرض الناس للانتفاض على الرومان، وراحت المساعي المبذولة لحمل [مارچلوس] على قتله عبثاً نظراً لما يتمتع به من مكانة وشهرة، ولاحتماله شتى الأخطار في القتال الى جانب الروما. وكان مارچلوس شديد الثقة بقدرته على استمالة شخصية كهذه جبلت بمعدن الشرف، بما طبع عليه من مزاج رقيق وسحرٍ وجاذبية في حديثه وفي ذات يوم التقى [بيانتيسوس] فحيّاه هذا، فسأله [مارچلوس] متجاهلاً عنم يكون؟ ليس لأنه لا يعرفه، بل ليتخذ من ذلك ذريعة لمجاذبته اطراف الحديث. فأفصح [بانتيوس] عن اسمه وكنيته فافتعل [مارچلوس] الدهشة المشوبة بالسرور والاعجاب^(١٧) وقال:

- أفانت هو [بانتيوس] الذي لهج الرومان بمديحه، وخصوه بثناء فاق ثناءهم على كل من حارب في [كاني]، بوصفه البطل الذي ظلّ ملازماً [پاولوس اميليو] ولم يتخلّ عنه، لا بل تلقّى بصدرة الرماح التي كانت موجهة اليه؟

فأقرّ [بانتيوس] بأنه هو بعينه وكشف عن ندويه. فقال له [مارچلوس]

- فلماذا إذن تشرفني بزيارة عند أول قدومي؛ وتلك هي براهينك على محبتك بنا؟ اترانا نحجم عن ردّ الفضل لمن يستحقونه ولاسيما أولئك الذين أكرمهم اعداؤنا بالذات؟

واتبع مجاملته هذه باهدائه حسان قتال ومبلغاً قدره خمسمائة دراخما. فانقلب [بانتيوس] لساعتها نصيراً من أخلص انصار مارچلوس. ونشط في الكشف عن كل من يعمل على الدس والفتنة.

وكان هؤلاء الدساسون من الكثرة بحيث دبروا مؤامرة واسعة تهدف الى سلب ائصال الجيش الروماني وامتعته حال قيام هؤلاء بحملة على العدو، لذلك قام [مارچلوس] بتدابير أمنٍ

(١٦) أو بانديوس Bandius.

(١٧) أنظر سيرة [قايوس ماكسيموس].

يستقبل هذه القوة، بادر عدد من الجنود الرومانيين الى القاء انفسهم على قدميه مستعظفين، هذا العمل كان يمت بصلة الى النكبة التي سنورد وقائعها فيما يلي:

كان من نتائج معركة [كاني] أن عدداً من الجنود نجوا بفرارهم، ووقع عدد آخر في اسر العدو. وكانت الخسارة فادحة والعدد كبيراً حتى ظن أنه لم يبق ما يكفي من الرومان للدفاع عن سور المدينة.

ومع هذا فقد أبت كبرياء المدينة، ورسوخ عزمها أن تفتدي أسرى الرومان من هنيبعل رغم تفاهة مبلغ الفدية، وصدر قرار من مجلس الشيوخ يحظر ذلك مفضلاً أن يقتلهم العدو أو يبيعهم رقيقاً خارج إيطاليا، كما أمر أن ينفي الى صقلية كل من فرّ ناجياً بنفسه ولا يسمح لهم بالعودة الى إيطاليا حتى نهاية الحرب مع هنيبعل، هؤلاء الفارون المبعدون توجهوا الى مارچلوس فور وصوله صقلية والقوا بانفسهم على قدميه، طالبين منه، بكثير من التوسل والبكاء أن يعيد اليهم شرفهم بقبولهم في الخدمة ووعده أن يثبتوا باخلاصهم وتفانيهم وحسن بلائهم في المستقبل بأن الهزيمة التي حلت بهم كانت اليد الطولي فيها الى معاندة الحظّ وليس مبعثها جبنهم. وكان عددهم كبيراً، فأشفق عليهم مارچلوس وعرض مسألتهم على مجلس الشيوخ مقترحاً أن يمنح صلاحية غير مشروطة بزمان أو مكان بقبول تطوعهم وتأليف فرقة منهم. وبعد أخذ وردّ طويلين، أصدر المجلس قراراً مفاده أنه لا يرى خيراً للجمهور في خدمة جنود جبناء. أمّا اذا رأى [مارچلوس] خلاف هذا فلا بأس أن يطوعهم، شريطة ألا يحظى أحد منهم بأيّ تكريم في أية مناسبة، ولا يعطى تاجاً أو جائزة عسكرية أو مكافأة عن اي عمل بطولي أو شجاعة يبدونها. وقد حزّ هذا القرار في نفس [مارچلوس] حزاً. حتى انه انبّ مجلس الشيوخ عند عودته الى روما بعد انتهاء الحروب الصقلية. وعاتبهم لأنهم انكروا عليه حرية التصرف في التفريج عن كربة المواطنين العظيمة، وهو الرجل الذي يستأهل الكثير من الجمهورية.

واراد [هيبوقريطس] قائد السيراكوزيين أن يقدم برهاناً على ولائه للقرطاجيين، ولينصب من نفسه حاكماً مستبداً على البلاد، فعمد الى قتل عدد من الرومان في مدينة [ليونيتني]. فشارت ثائرة [مارچلوس] وحاصر المدينة واستولى عليها عنوة. ولم يتعرض لأي من سكانها بسوء، إلا أنه قبض على الفارين من الجيش، وأوقع بهم عقوبة «العصي والفأس». فما كان من هيبوقريطس إلا ونشر نبأ كاذباً في سيراكوز، زعم فيه أن مارچلوس أعمل السيف في رقاب كل البالغين من سكان المدينة. ثم انه جاء الى سيراكوز التي كانت تضجّ بالويل والثبور وتتلظى سخطاً لما أشيع عن مارچلوس فبادرت الى نصبه سيّداً لها. فتحرك مارچلوس بكلّ قواته نحو المدينة وعسكر بالقرب من أسوارها وبعث بوفد الى سكانها ليكشفوا لهم عن

نُصب [پروقتلاً] وعاد الى مقرّ قيادته في [نولا]. وراح يضيق الخناق على الموالين^(٢٢) للقرطاجيين ولما أقبل هؤلاء مسرعين لنجدتهم أبى مارچلوس قبول تحديهم والدخول في معركة فاصلة، ولكن عندما أرسل هنيبعل جماعات للسلب وزايه كل توقع للقتال^(٢٣)، باغته [مارچلوس] بجيشه، وكان قد زدّ جنوده المشاة برماح طويلة مما يستعمل عادة في قتال البحر ودرهم على قذفها بقوة عظيمة الى مسافات مناسبة نحو العدو الذي لم يكن لديه اية خبرة بهذا الأسلوب في القذف وتعود القتال بسيوف قصيرة، ملتحمًا بعدوه التحام اليد باليد^(٢٤). والمعتقد أن هذا هو السبب الذي أدى الى اندحار القرطاجيين المشاركين في المعركة اندحاراً تاماً وفرارهم أثر ذلك وتركهم خمسة آلاف قتيل^(٢٥)، وموت أربعة فيلة وغنيمة اثنين؛ لكن أعظم انتصار له، كان بعد ثلاثة ايام من هذه المعركة، حين أقبل أكثر من ثلاثمائة فارس إسباني ونوميدي يعلنون انفصالهم^(٢٦) عن جيش العدو والانضمام اليه، وهي ضربة موجعة لهنيبعل لم يتلق مثلها حتى ذلك اليوم، فقد عرف دوماً بمقدرته الفائقة في تحقيق الانسجام والوثام بين جيشه البربري المؤلف من أقوام مختلفة ذات طبائع متنافرة، وأفاد مارچلوس وخلفاؤه^(٢٧) فبهذه الكتيبة خدمات جليلة مخصصة في الحروب التالية.

وأختير قسلاً للمرة الثالثة، وأرسل بحراً الى صقلية^(٢٨) لأن نجاح هنيبعل شجع القرطاجيين على الادعاء بالجزيرة كلها. والسبب الرئيس في ذلك، هو ان الفوضى والاضطراب عمّا سيراكوز بعد قتل [هيريونيموس]^(٢٩) طاغيتها، فألجأ الرومان في الوقت نفسه الى ارسال قوة برية نحو المدينة بقيادة [ايبوس]^(٣٠) الپريتور. وبينما كان مارچلوس

(٢٢) وهم الهيرپيني Hirpini والسامني Samnite. (المرجع السالف ٤٢).

(٢٣) قبل هذا بأربعة ايام كان ثم معركة طاحنة أمام اسوار مدينة (تولا) كادت تكون من الحواسم الفواصل لولا أن حالت العاصفة بين الفريقين فانكفأ بعض عن بعض (المرجع نفسه ٤٤).

(٢٤) كانت سيوف المقاتلين الأقدمين قصيرة بصورة عامة ويشمل ذلك سيوف الرومان والسيارطيين والقرطاجيين والغالين... الخ.

(٢٥) وأكثر من هذا. فضلاً عن اسر ستمائة منهم. وخسارة تسعة عشر لواءً. اما الجانب الروماني فلم تزد خسائره عن الألف [ليني ٢٣-٤٦].

(٢٦) يجعلهم ليني ١٢٧٢، لذلك قمن المحتمل اننا نستطيع قراءة هذه العبارة بزيادة لفظة ألف.

(٢٧) هزم مارچلوس [هنيبعل] امام تولا للمرة الثالثة. ولو ان كلوديوس نيرو الذي بعث به لمهاجمة القرطاجيين من الخلف وصل في الوقت المناسب لعضّ عن الخسارة التي الحقت به في (كاني).

(٢٨) في ٢١٢ ق.م.

(٢٩) وثب رعية (هيريونيموس) عليه ففتكوا به في [ليونتيوم]. وهذا هو ابن گيلو Gelo وحفيد هيريو. توفي (هيريو) قبل ابيه الذي عمّر تسعين عاماً. وهيريونيموس الذي لم يتم الخامسة عشرة عند وفاة جدّه، قتل بعد بضعة أشهر. وهذه الوفيات الثلاث وقعت في نهاية السنة السابقة لقتل مارچلوس الثالثة (ليني ٢٤، ٤-٧).

(٣٠) ارسل [ايبوس كلوديوس] قبل مقتل هيريونيموس.

حقيقة الأمور في [ليونستنبي]، فلم يتوصلوا الى تفاهم لأن السلطة كانت مركزة بيد [هيپوقريطس] (٣١) ولا شأن للأهالي بها. فباشر هجومه على المدينة من البرّ ومن البحر. وكان لواء القوات البرية معقوداً [لأبيوس]، أمّا هو، فشرع يهاجم الأسوار من جهة البحر بستين بارجة من ذوات الاطناف الخمسة. وكانت مجهزة بكلّ أنواع السلاح والقاذفات وبجسر ضخم من الألواح مركب على ثمانى سفن مشدودة بعضها الى بعض، وقد نُصب فوق هذا الجسر آلة المنجنيق لقذف الحجارة والحراب، إضافة الى استعداده الضخم هذا، كان معتمداً على شهرته وماضيه العسكري؛ إلا أن هذا كله لم يعد شيئاً مذكوراً امام [ارخميدس - Archi-medes] وآلته، كما سنوضح.

صممت هذه الآلات ورُكبت بناءً على طلب ورغبة الملك [هيرو] بوصفها ادوات تسليية وتجريب في علوم الهندسة (جيومطريا)، ولم يقصد بها غايات مهمّة، وتم صنعها قبل زمن وجيز، لأن الملك العالم كان يريد أن يخرج بعض جوانب ابحاثه العلمية العجيبة الى حيز التطبيق العملي. ويخضع الحقائق النظرية الى عالم الحسّ، وينزلها الى ميدان العمل، ليستثار اهتمام الناس بهذا العلم ويرتفع تقديرهم له عموماً. وكان [يدوكسسوس Eudoxus] و[آرخيتاس Archtas] (٣٢) أوّل من عالجا هذا العلم الشريف الجليل القدر، علم الحيل (الميكانيكا)، واستخدماه تفسيراً رائعاً عجباً للحقائق الهندسة (الجومطرية)، ووسيلة تجريبية لاقتناع الحواس والبرهنة العملية على نتائج الشديدة التعقيد، والصعبة على الفهم بمجرد الرسوم والكلمات التي لاتفي بالغرض مهما كانت واضحة فمثلاً كثيراً ما يتطلب لحلّ مسألة من المسائل فرض اشكال هندسية يتعين فيها ابعاد الحديين في التناسب لايجاد أقصر خطين وتشبث هؤلاء الهندسيون بادواتهم، واتخذوا لأغراضهم خطوطاً معينة من منحنيات وقطوع. فأنبى [افلاطون] (٣٣) يندّد بها ويستنكر تعاطيها لأنها «افساد بل قضاء مبرم على علم الهندسة الصالح المجدي، يعزوفها المخجل عن كل ما لا يدخل في عداد المعقولات المجردة حيزاً ومادّة، ولنحوها منحى الحسّ واستنادها التام الى المادة. وهو ما لا يتمّ تحقيقه إلا

(٣١) على أثر أعتيالي هيرونيموس عاد الحكم جمهورياً. وتمكن كلّ من [ايپوقريطس] و[بيكيدس] وهما عميلان لهيبيل من أصول صقلية، أن يصبحا پريتورين. وكان نتيجة ذلك أن لجأ الى وسائل لبدز بذور الشقاق بين صقلية وروما دون القاء بال على معارضة زملائهما الباقيين الحريصين على مصلحة البلاد.

(٣٢) [افدركسيس] فلكي وهندسى شهير من [كيندوس]. ويعزى اليه وضع السنة الاغريقية. كتب سيرته [ديوغينس لائيريتوس] اما [ارخيتاس] فقد نبغ في ايام حكم ديونيسيوس الأب قبل حصار سيراقوز بأكثر من مائة وستين عاماً.

(٣٣) لا يجد افلاطون شيئاً ذا جدوى في غير ما هو عامل ثقافة. ولذلك نراه لا يقرّ أن يشغل الفيلسوف نفسه في علوم الطبيعة إلا لتكون مادة للتسليية وتزجية الوقت فحسب.

بخسارة ودناءة». وهذا ما أدّى الى انفصال علم (الحيل) الميكانيكا عن الهندسة، فاهمله الفلاسفة وانكروه وأحتقروه، فاحتل مكانة بين الفنون العسكرية. على أن [ارخميدس] ذكر في رسالته التي كتبها لصديقه وقريبه [هيرو] الملك، انه يمكن رفع وتحويل اي ثقل بالغ ما بلغ اذا توفرت قوة معينة. وقيل لنا أن الأمر بلغ به حدّ الفخر اذ قال: انه بالاستناد الى قوّة مركزة، وفي حالة وجود ارض أخرى غير ارضنا هذه. فهو يستطيع بالذهاب اليها، أن يرفع هذه الارض من مكانها! فبهت [هيرو] وصُعق وطلب منه أن يبرهن على هذه المسألة بالتجارب، ويثبت كيف يتسنّى لآلة صغيرة الجرم أن ترفع ثقلاً عظيماً. فأخذ ارخميدس سفينة نقل من أحواض الملك موضعاً لتجربته، لا يمكن سحبها الى اليابسة دون استخدام مجهود عدد كبير من الرجال. فأركب فيها المسافرين حتى ضاقت بهم. وملاها بالأمّتعة. وابتعد عنها مسافة كبيرة وجلس وامسك برؤوس جبال مشدودة ببيكرات وانشأ يسحب عدداً منها بصورة تدريجية فتحرّكت السفينة اليه وتقدمت سحوية بخطّ مستقيم وبسهولة ويسرّ كأنما تسيير على سطح البحر دون أن يستدعي ذلك منه مجهوداً عظيماً. فعجب الملك غاية العجب ووأقتنع بجدوى هذا العلم وسلطانه والحّ على ارخميدس أن يصنع له الآت تصلح لكلّ اغراض الحصار الهجومية والدفاعية، فحقق [ارخميدس] طلبه إلا أن الظروف لم تلجئه الى استخدامها لأنه قضى جُلّ حياته في سلام ودعة ورخاء. وبقيت تلكم الآلات مهيأة لأستعمال السيراقوزيين ومعها مخترعها وصانعها بشخصه.

وأوّل ما هاجم الرومان الأسوار من جهتين في آن واحد استولى الرعب على السيراقوزيين حتى شلّ حركتهم، إذ خيل لهم الأ قبل لهم قط بهذه القوات. وهنا بدأ [ارخميدس] يستخدم آلته، وراح يطرّ القوات البريّة بكلّ أنواع المقذوفات من الأسلحة وكتل الصخر العظيمة التي كانت تسقط بقوة هائلة وضجيج يصمّ الأذان، فلا يقف أمامها أحد إلا قضت عليه فصرعت من المهاجمين أكداً مكدسة. وحطمت صفوفهم تحطيماً غير مستثنية ضابطاً من جندي، ثم برزت من الأسوار في الوقت نفسه - اعمدة في غاية الضخامة والطول، أمتدت الى السفن وأخذت تفرقها بنزولها عليها بقوة هائلة وتحطيمها. أو برفعها في الفضاء بكلاية (٣٤) حديدية في رأسها تشبه منقار الكروان تنزل الى السفينة وتقبض عليها من قيودها وترتفع بها

(٣٤) الأذى الأعظم الذي حلّ بالرومان هو آلة حربية على شكل غراب ذي مخليين أو خطافين. مشدود الى سلسلة طويلة تتدلى من أعلى بواسطة عتلة. ان ثقل الحديد يجعلها تهوى بسرعة هائلة فترطم السفن وتحطمها. ويحملها المدافعون رصاصاً من النهاية الثانية ويرفعون الغراب مع القيدوم الذي يمسك به فتتميل المؤخرة وتغرق في الماء في عين الوقت ثم يغلب الغراب قنيصته اي السفينة - بصورة مفاجئة فيسقط القيدوم في البحر بقوة عظيمة وتمتلئ السفينة بالماء وتغرق.

منكوسة تم تطلعها ليبتلعها البحر. أو كانت تسحب السفن بقوة آلة منصوبة داخل السور فتدور على نفسها ثم تصطدم بصخور الجرف النافرة في أسفل السور، فتتخطم ويهلك من عليها. وكثيراً ما كانت الرافعة ترتفع بالسفينة الى علو كبير في الفضاء (وهو منظر مهول للرائي)، وتهزها الى أمام وخلف، وتورجحها حتى تقذف منها بحارتها ثم تطلقها من حالقٍ لتتخطم فوق الصخور.

أمّا عن الآلة التي جاء بها [مارجلوس] محمولة فوق جسرٍ عائِمٍ، فتدعى [سامبوكا Sam-buca] لوجود وجه شبه بينها وبين آلة من الآت الطرب. وفيما كانت تقترب من السور، سقطت عليها كتلة صخرية تزن عشرة أطنان^(٣٥)، ثم ثانية وثالثة تباعاً هوت ظهرها بقوة خارقة وصوت أشبه بهزيم الرعد فقصمت دعائمها وفتتتها تفتيتاً، وقلقت الاحزمة التي تربطها بالجسر وفصلتها عنه. وأستولت الحيرة على [مارجلوس] ولم يدر اي سبيل يسلك. ثم عمد الى سحب كل سفنه الى مسافة تكون معها بمنجى من تلك الآلات. وأصدر أمراً بالتقهقر العام لجميع قواته البرية. ثم نفذ خطة أخرى وهو الدنو من الأسوار ليلاً أن امكن، يحدوه ظنّه بأن اقتربهم الشديد من الأسوار سيحمي الجنود من غائلة [ارخميدس] الذي كان يستعمل الاقطاب المحدودة الى مسافات طويلة، في ادارة آلاته. ويكون الجنود في هذه الحالة تحت القاذف وستطير الحراب فوق رؤوسهم ولا تؤثر فيهم، بخروجهم من دائرة التصويب. والظاهر ان [ارخميدس] كان قد احتاط لهذا أيضاً منذ زمن بعيد فصنع آلات توافق اية مسافة. وتناسب المقذوفات ذات المدى القصير. وفتح ما لا يحصى من المزاغل الضيقة في الأسوار وراح يوجه منها للمهاجمين ضربات غير متوقعة بالآت ذات مديات قصيرة. وهكذا بينما كان الأمل يراودهم بنجاح حيلتهم، ما رأوا إلا ورشقات من الحراب تنثال عليهم مع مقذوفات أخرى، وعندما بدأت الصخور تهوي على رؤوسهم عمودياً وانطلقت السهام كالمنزلج من الأسوار كافة، لم يروا بداً من الانسحاب، وفيما هم يتقهقرون عادت الآلات من النوع الأول تمطرهم بوابل من النشاب والرماح ذات المدى البعيد وأوقعت بهم مقتلعة عظيمة. وأخذت سفنهم تصدم إحداها الأخرى بفعل آلاته، وهم عاجزون عن الردّ باي شكل كان. فقد ثبت

(٣٥) ليس سهلاً علينا أن نستوعب أو نكوّن فكرة عن عمل آلات ارخميدس وكيف يتم لها قذف كتلة صخرية عظيمة زنتها (١٢٥٠) باوندا على سفن مارجلوس وهن على مسافة كبيرة من الأسوار. ان الشرح الذي يقدمه [بوليبوس ٨] أقرب الى المعقول هنا. ان يقرر بان الصخرة التي قذفتها آلات أرخميدس تبلغ زنتها خمس باوندات ويظهر ان (ليفي) يتفق معه في هذا. واذا نحن افترضنا بأن بليوتارخ إنما يقصد التالنت الصقلي لا الروماني وهو يزن ٢٥ باونداً على قول بعضهم و ١٠ باوندات على قول بعض، فإن زعمه يكون أقرب الى الحقيقة والمعقول.

[ارخميدس] معظم آلاته فيما يلي السور مباشرة من الداخل ولذلك لم يكن بمقدور الرومان مشاهدتها ولا معرفة الجهة التي يأتيهم البلاء منها، بلا رفقٍ ولا نهاية حتى خيل اليهم أنهم لا يقاتلون البشر بل الآلهة.

وكتبت السلامة [مارجلوس] في هذه المعمة. وراح يسخر بمهندسيه وصناعه قائلاً:
- ماذا؟ الا سبيل لنا إلا أن نكفّ عن قتال هذا الغول الهندسي المتعدد الأيدي [برياروس: Briareus] الذي يلعب بسفننا لعبة «الرفع والقذف»، ويمطرننا بآلاف مؤلفة من الحراب في كل دقيقة! انه لعمرى يفوق جبابرة الأساطير ذوي الأيادي المائة!

ومما لا ريب فيه أن السيراكوزيين لم يكونوا غير وعاء لمخترعات [ارخميدس] حلت فيه روح واحدة تحرك الجميع وتحكمهم. فنبذوا جانباً كل اسلحةٍ وراحوا يلقون الرعب في نفوس الرومان بهذه الآلات وحدها. وآمنوا لأنفسهم الحماية. ولا نطيل، فقد كان الفرق يستولى على الرومان كلما شاهدوا حبالاً صغيراً أو قطعة خشب تخرج من السور، فيصرخون:
- ها انها تعود ثانية!

متوهمين أن [ارخميدس] يهم باطلاق آلة من آلاته عليهم، فيطلقون سيقانهم للريح لا يلوون على شيء، وكف [مارجلوس] عن القتال والهجمات المتكررة وأودع كل آماله في الحصار الطويل الأمد.

على أن [ارخميدس] كان ذات نفس سامية، وروح عميقة، وأودعت كنوزاً لاحصر لها من المعارف العلمية، حتى انه لم ير من المناسب أن يترك مذكرات، أو أي كتابة في هذه المواضيع، رغم أن مخترعاته هذه، وضعته في أعلى درجات الشهرة، وفوقته على كل الحكمة البشرية. فقد انكر صناعة الميكانيكا كلها، وعدّها من العلوم التافهة التي لا جدوى منها وصدّت نفسه عن هذا الفن الذي ليس وراءه إلا الريح والاستعمال المادي الرخيص. وأوقف كل مطمح له وحصر همه في الابحاث والتتبعات التي تطهرت من كل علاقة بحاجات الحياة الدنيا. وأنصرف الى الدراسات التي لا مجال لإنكار سموها أو الشك في علو مقامها إلا بدرجة احتواء جمال وعظمة المواضيع المبحوثة على الدقة وقوة الاقتناع من ناحية طرائقها ووسائل برهانها. تلك هي الدراسات الجديرة منا بأكثر الاعجاب والاحترام، وفي عالم الهندسة افي الامكان حلّ مسائل أكثر صعوبة وتعقيداً مما حلّه؟ أو ايجاد تفسيرات أكثر وضوحاً وبساطة من تفسيراته؟ بعضهم يعزو مقدرة الفذة الى (جنيّه) الملازم له. في حين يعزو بعضهم الى الدأب المتواصل والجهود المدهشة التي بذلها ليصل الى نتائج بدأ ظاهر حالها يسيرة سهلة في

حين يتعذر عليك ان تجد لها اي تعليل أو سبب مهما بذلت من جهد للتحري عنها. ومع هذا فما يقع نظرك عليها حتى يستولى عليك أعتقاد بأن لا شيء يحول دون كشفك عن سرّها. وهكذا يستدرجك بسبيل مُمهد قصير الى النتيجة المطلوبة، وبهذا لا تعود ترى مخترعاته من قبيل المعجزات أو الخوارق. ولقد شاع قول الناس فيه «إن سحر عروسة بحره [سيرين Siren] الأليفة المحبوبة هذه كانت تنسيه طعامه، وتجعله يهمل نفسه ولا يحسّ لها وجوداً حتى انه كان يحمل الى الحمام قسراً ليُغسل جسمه ويدهن بالزيت وهناك يقوم بمتابعة الاشكال الهندسية في رماد النار، ويرسم مخططات هندسية في الزيت المنتشر على جسمه، وينقلب الى حالة انجذاب تام يصرفه عن عالم المواقع. وبأصدق التعابير يكون في حالة الوحي الألهي مع حبّه وتعلقه بالعلم. وكانت مكتشفاته عديدة وعجيبة، وقيل انه أوصى اصدقائه والأقربين أن يضعوا على القبر الذي يحوى رفاتة، كرة تحتوي على اسطوانة وينقشون هذا «الجسم الذي يغمر في سائل يفقد من وزنه بقدر حجمه فيه» (٣٦).

هكذا كان ارخميدس الذي برز الآن مع مدينته كائنين لا يقهران بسعيه ومجهوده. وأستمر الحصار، إلا أن مارچلوس استولى في غضون ذلك على [ميغارا] وهي من أوائل المدن التي بناها الاغريق في صقلية، كما احتل أيضاً معسكر [هيپوقريطس] في أكيلي [Acilæ] وفتك بما يزيد على ثمانية آلاف من رجاله (٣٧)، اذ فاجأهم وهم منصرفون الى اقامة استحكاماتهم. ثم أجتاح قسماً كبيراً من الجزيرة وحقق الغلبة على كل من اشتبك معه. وفي اثناء الحصار وقع بيد الرومان لقيديموني يدعى [داميپوس Damippus] (٣٨) كان قد رحل عن سيراكوز في

(٣٦) أكتشف هذا النصب شيشرون عندما كان يشغل وظيفة الكويستور في صقلية وهو بشكل عمود صغير. عرضه على السيراكوزيين فلم يفيدوه بشيء عنه. ويقول هو انه وجد أبياتاً شعرية محفورة عليه تكاد أعجازها تكون متاكلة بفعل الزمن. وكان يبدو فيه - وهو ما تؤيده بقايا الإبيات الشعرية - صوراً الاسطوانة والكرة وهما الشكلان الهندسيان اللذان أكتشف ارخميدس النسبة بين مساحتهما [انظر شيشرون ٢٢:٥] ويضيف قائلاً انه قبر ارخميدس كاد يختفي تماماً فلا بلغت النظر بسبب العشب الذي نما حوله فغطاه، لولا الجهود التي بذلها الرجل الايريوني فأدت الى العثور عليه.

(٣٧) دخل همليكو ميناء هراكليا على رأس اسطول ضخم ارسل من قرطاجنة فأنزل عشرين ألف راجل وثلاثة آلاف خيال وأثنى عشر فيلاً. ما ان أكمل الانزال حتى زحف بجيشه هذا على أكرنتم وانتزعها من الرومان مع عدة مدن أخرى كان مارچلوس قد أستولى عليها. عندئذ قررت حامية سيراكوزة التي ظلت سالمة ان تعزز قوات (همليكو) بعشرة آلاف راجل وخمسمائة خيال تحت قيادة [هيپوقريطس]. وعاد مارچلوس الى سيراكوزة بعد ان فشل في استعادة اكرنتوم وفيما هو على مقربة من (اكريلي) انتبه فجأة الى (هيپوقريطس) وهو مشغول في تحكيم معسكره فأنقض عليه دون ان يدع له فرصة تجريد قواته أو تنظيم صفوفه ونثر ثمانية آلاف من مرتباته اشلاءً. [ليفي ٣٥:٢٤ و ٣٦].

(٣٨) طالباً نجدة من الملك فيليب [ليفي ٢٣:٥].

أحدى السفن، وأظهر السيراكوزيون لهفة شديدة في افتدائه، فجرت لهذا الغرض عدة لقاءات ومداولات بين مارسلوس وبينهم واتيحت له الفرصة خلال ذلك ان يتأمل برجاً من الابراج كان في الامكان ادخال مجموعة من الجنود اليه سرّاً. وفي غفلة عن العيون. لأن الجدار المجاور له لم يكن صعب المرتقى كما كان العدو مهملأ حراسة البرج بشكل يدل على عدم الاهتمام، وتردد الى موقعه كثيراً ودرس ارتفاع السور اثناء المداولات حول فدية [داميپوس] حتى تأكد منه وأمر بتهئية سلالم لتسلفه، وفي يوم ما أحتفل السيراكوزيون بعيد [ديانا] فلما أخذت الحمر مأخذها منهم وانصرفوا تماماً الى اللهو والقصف، تمكن [مارچلوس] من البرج ولكنه لم يكتف بذلك بل ملأ الجدار القريب منه جنوداً قبل أن ينبلع الصبح. ثم شق طريقه الى [الهكساپيلوم Hexapylum]. فانتبه السيراكوزيون من غفلتهم وأقلقتهم الضجة. وهنا أمر [مارچلوس] بنفخ الأبواق في كل مكان فاستولى عليهم رعب شديد وأطلقوا سيقانهم للريح، وهم يظنون ان الرومان سيظروا على المدينة بأسرها في حين كانت أمتع منطقة فيها واجملها وأكثرها غنى بعيدة عن متناول المهاجم. هذه المنطقة تعرف باسم [اقرادينا Acradina] ويفصلها عن سائر المدينة الخارجية جدار شاهق وهي تتألف من حيين: [نيابوليس Neapo-] [lis] و[تايا Tycha] استولى مارچلوس على هذين، وعبر فجراً [الهكساپيلوم]، فأقبل عليه ضباطه يهنئونه بالنصر (٣٩)، إلا انه شخص ببصره الى المدينة الجميلة الممتدة تحته وهو واقف على مرتفع. وقيل أن الألم أبكاه (٤٠) للفاجعة التي توشك أن تحل بها. اذ تمثلت لذنه صورة المدينة كيف سينقلب شأنها بعد ساعات معدودات، حين يعيث الجنود بها سلباً ونهباً، لم يكن ثم ضابط واحد من كل ضباطه يجراً على معارضة مطلب الجنود. كان عدد كبير في الواقع بصر على اشعال النار فيها. وهدمها حجراً على حجر وتسويتها بالقاع. لكن [مارچلوس] لم يعر أذناً صاغيةً لمثل هذا. وسمح بكثير من الاحجام وهو كاره، ان يكون النهب قاصراً على النقود والعبيد. وأصدر أمراً جازماً بخطر الاعتداء على اي مواطن حرّ أو قتل أو استرقاق أو اذية أي سيراكوزي. ومع كل لينه هذا، فقد ظل يرى ان حالة المدينة تدعو الى الرثاء حقاً. ولم يكتف مشاعره القوية وهو في بحران التهاني والفرح. وعبر عن حزنه واشفاقه عندما شاهد كل تلك النفائس ومظاهر الترف التي جمعت بعضاً على بعض في حقبة طويلة من سنوات الرخاء والاستقرار، تغدو خلال ساعة واحدة فقط فهي أثر بعد عين فقد ذكر

(٣٩) دخل مدينة [ايبپولي] ليلاً، ودخل [تيخه] صباح اليوم التالي وكان يحيط بالأولى سور هو صورة طبق الأصل من سور اورتيگيا والاخرادينا وتيخه ونيابوليس لكنها أمتازت عن البقية بقلعتها المسماة يوريانوم وهي مقامة على صخرة كبيرة ذات جوانب شديدة الانحدار. لتبدو وكأنها مدينة قائمة بذاتها. (٤٠) [ليفي ٢٤:٢٥].

ان ما نهب منها لم يكن باقل مما نهب من قرطاجنة^(٤١) فيما بعد. اذ ما عتم الجنود ان حصلوا على أمرٍ ينهب الاحياء الأخرى من مدينة التي تم الاستيلاء عليها بالخدوية. ولم يتركوا شيئاً إلا أخذوه إلا اموال الملك فقد حُملت الى بيت المال، ولم يحزن [مارچلوس] لشيئٍ قدر ما احزنه قتل [ارخميدس]. فقد شاءت الأقدار ان يكون منصرفاً وقتئذ، الى الاشتغال بمسألةٍ في شكل هندسي مركزاً ذهنه وعينييه في موضوع شغله فلم ينتبه الى هجوم الرومان واقتحامهم المدينة. وفي حالة لاوعيه هذا دنا منه جنديٌ على غير انتظار وأمره ان يتبعه الى مارچلوس، فأبى إلا بعد اهتدائه الى حلٍّ للمسألة التي يفكر فيها، فثار بالجندي الغضب وانتضى سيفه وعاجله بطعنة نجلاء. وكتب آخرون أن جندياً رومانياً أسرع نحوه مشهوراً سيفه يريد قتله فالتفت اليه [ارخميدس] واستأذنه متوسلاً بان يمسك يده عنه ريثما ينتهي بما بين يديه من مسألة الى حلٍّ ونتيجة. إلا ان الجندي قتله حالاً دون أن ينيله رجاءه. وحدثنا آخرون أن [ارخميدس] وهو يقصد [مارچلوس] التقى ببعض الجنود حاملاً ادوات حاسبة ومزولات، وزوايا وكُرات وهي ما يقاس به حجم الشمس بالنظر المجرد، فظنوه يحمل ذهباً في اوعية فقتلوه. ومن الثابت أن موته كان شديد الوقع على مارسلوس وظلَّ يعد الجندي الذي فتك به مجرمًا قاتلاً. وأستدعى اقرباء العالم وذويه وأجزل لهم الهبات ووصلهم بكثير من المال.

كانت الشعوب والحق يقال، تعتبر الرومان من حيزة الجنود في ساحات القتال. لكن لم يشتهر عنهم في ذلك الحين ما يكشف فيهم عن انسانية وتهذيب ورقة قلب، والظاهر ان مارچلوس كان أول روماني أظهر للاغريق حرص بني قومه على العدل والقسط. فقد بات تساهله ولينه مما يضرب به الأمثال تجاه اي من كانت له صلة به وعطفه الكبير على المدن الكثيرة والاشخاص، حتى اذا أصدر أمراً فيه صرامة أو قسوة بحق أهل [امنا Emna] أو [ميغارا] أو [سيراكوز] فيجب ان ينصرف الذهن حتماً الى لوم من هبت عليه العاصفة، لا من ارسلها. وسأورد مثلاً واحداً من عدة أمثلة:

في صقلية بلدة تدعى [انجيوم Engyom] ليست كبيرة ولكنها عتيقة تتمتع بمنزلة محترمة بوجود معبدٍ لرَباتٍ يسمين «الأمهات»^(٤٢) ويقال ان الكريتيين هم الذين بنوه، إلا ان أهاليها يعرضون بعض الحراب وخوذ الحرب، نقش عليها اسماً [مريونيس Meriones] (تهجئته اليونانية لا تختلف عن اللاتينية) و[يوليسيس] اللذين قدماها هدية للربات، ومهما يكن،

(٤١) دام حصار سيراكوزة ثلاث سنوات كوامل. وپلوتارخ لم يورد تفاصيل عما جرى خلال تلك الفترة. وما تلاها اي بعد اقتحام المدينة، ولكن ثم وصفاً دقيقاً مسهباً يقدمه لنا ليقى ٢٥ : ١٣ - ٣١].

(٤٢) المقصود: كيبيله، جونو، كيريس. وينوه شيشرون هم وجود معبد للأولى في انجيوم فحسب [٤٤:٤].

فهذه البلدة انتصرت للقرطاجيين وعدَّ أهلها من أخلص اشياعهم. ونصحهم [نيسياس] وهو أبرز مواطن فيهما أن يعدلوا عن ذلك ويعلنوا ولاءهم للرومان، وبشرَّ برأيه في خطبه وإجتماعاتهم ووصف سبيلهم الأولى بالجنون والخرق. فقرررو القاء القبض عليه وتسليمه للقرطاجيين موثقاً، خشية نفوذه وتأثيره على النفوس. فادرك نيتهم المبيتة. ولما وجد الرقابة قد أحكمت عليه راح يجذف على [الأمهات] ويقذفهن بهجر القول، وأظهر استحقاقه لهنَّ وبدأ كالناكر المجاهد للرأي المتواتر بوجود هاته الراهبات. فطرب خصومه لما حلَّ به وايقنوا انه كالساعي الى حتفه بظلفه أو كالباحث عن خرابه المعلق فوق رأسه وفيما كانوا في سبيل الامسك به عقد اجتماع عام، فقام [نيسياس] لالقاء خطبة على الناس تتعلق بأحد المواضيع التي يجرى البحث فيها، وفيما هو مسترسل، توقف فجأة والقى بنفسه على الأرض - ثم أسرع بالنهوض والناس مذهولون، لا يأتون حراكاً. (كما يحصل عادة على أثر مثل هذه المفاجآت) ودار برأسه وأستأنف الكلام بصوت راعش ونبرة عميقة أخذ يرفعها بالتدرج حتى وصل حدَّ الزعيق. ولما ايقن ان كل من في الملعب قد صعقه الرعب والجمه، ألقى بمعطفه جانباً وشق ثوبه ووثب مسرعاً نحو الباب وهو شبه عارٍ يصرخ قائلاً ان «الأمهات» يدفعنه خارجاً. ولم يجراً انسان أن يضع يده عليه أو يوقفه، تزمناً وخشوعاً دينياً، بل أفسحوا له الى الباب، فأسرع غير باخلٍ عليهم بأي صرخة أو حركة تجعله من صنف المجاذيب أو المجانين. وكانت زوجته على علم بما يفتعله وما هو غرضه. فأخذت أولادها وقصدت أولاً معبد [الربات] وانطرحت متوسلة، ثم تظاهرت ببحثها زوجها الذي هام على وجهه فلم يعترضها أحد وهكذا خرجت من المدينة بسلام ووصلت الأسرة كلها الى [مارچلوس] في سيراكوز، ولما ازدادت الإهانات من أهل [انجيوم] وكثر تطاولهم على [مارچلوس] القى القبض على رجالها وكبلهم بالاغلال، وأوشك أن ينفذ فيهم القصاص الاكبر أنبرى [نيسياس] ملقياً بنفسه على قدميه والدموع تنحدر من عينيه، راجياً العفو عن بني قومه، وأشدت في رجائه حياتهم لاسيما خصومه منهم حتى رقَّ [مارچلوس] وأطلق الجميع ومنح [نيسياس] ضياعاً واسعة ونفائس من الصلات والجوائز. هذه الرواية اوردها [پوسيدونيوس] الفيلسوف.

أخيراً، أستدعى الشعب [مارچلوس] الى روما^(٤٣) لادارة دفة الحرب في أرض الوطن. فحمل معه مقداراً كبيراً من أجمل آثار سيراكوز الفنية، يريد أن يزيد من موكب نصره روعة وجلالاً، ويزين عاصمة بلاده بها. كانت روما عاطلة عن مثل هذه الآثار الفنية والزخارف

(٤٣) حقق انتصاراً كبيراً على [إبيكيدس وهانوا] قبل عودته الى روما واهلك فيه عدداً كبيراً واستولى على أسرى كثيرين وغنم ثمانية من الفيلة [ليقي ٤٠:٢٥].

الرائعة ولم تكن تتذوق منتوج الفنانين أو تبتهج بالنظر اليه مهما كان صنعه دقيقاً. لقد اتخمت بأسلحة البرابرة والغنائم الحربية التي تلتخها الدماء، وهي ليست بالمنظر الذي يشرح الخاطر ويسر العين، ويفتح قلب المتفرج المهذب الوديع المسالم، فكما سميّ إيامنداس حقول [ابويوتيا] «بمرسح مارس»، وكما أطلق [كزينفون] على [أفسس] اسم «مصنع الحرب»، كذلك يصحّ في رأيي أن تسمي روما ذلك العهد بعبارة الشاعر [پندار] «مقرّ مارس الذي لا يعرف سلاماً» ولذلك أحبّ الشعب [مارچلوس] لأنه زين المدينة بآثار مؤتلفة أنيقة فيها سحر كلّ التناسق والرشاقة الاغريقية، على أن [فابيروس ماكسيموس] الذي لم يمّس شيئاً من آثار [تارنتوم] عند استيلائه عليها، ولم ينقل منها حجراً الى روما، كان موضع إكبار ورضى من كبار السنّ، أكثر من [مارچلوس]، لقد أكتفى بأخذ النقود والحاجات الثمينة ولم يسمح بنقل التماثيل. متعللاً بقوله [كما قيل لنا]: «الا فلنترك للتارنتيين هذه الآلهة الساخطة».

وعتبا على [مارچلوس] أولاً لأنه وضع روما موضع المتناول اذ جعلها تبدو وكأنها تحتفل بانتصارات وتحيّ مواكب ظفر نالتها لا من بني البشر وحدهم بل من الآلهة أيضاً بعرضها تماثيلها كالأسرى.

أما اللوم الآخر الموجه له، فهو صرف اتجاه الشعب الى التعطل والهأه بعث الكلام حول الفنون الجميلة والفنانين. وهو الذي نشأ على الحرب والفلاحة ولم يتذوق طعم الترف والنعيم كما وصف پوربيدس هرقل:

«انه فظّ خشن، لا يصلح الألعظائم الأمور».

وانقلبوا لبيدوا جُلّ أوقاتهم في تفقد وانتقاد التوافه من الأشياء. وبصرف النظر عن لوم [مارچلوس] في هذا المجال، فانه رفع من قدر الاغريق أنفسهم بتعليمه بني قومه الجهلة احترام نتاجهم العجيب الجميل وتقديرهم له.

وعندما عارض خصومه في دخوله بموكب الظفر بحجة وجود بقية حرب في صقلية، ولأن منحه موكباً ثالثاً قد يزيد من الحاقدين عليه، بادر هو الى صرف النظر عنه مكتفياً باحتفاله بالنصر فوق جبل [ألبان]، ثم دخل المدينة «بمهرجان شعبي» وهو ما يطلق عليه باللاتينية «Ovation» وبالليونانية «eua». ولم يركب في هذا المهرجان عجلة ولم يكلل بالغار، ولم يعلن دخوله بنفخ الابواق، وانما دخل ماشياً منتعلاً حذاءه، وانطلقت أصوات عدد كبير من من النايات والسرنايات في وقت واحد، وكان وهو مطوق بقلائد اللبلاب بمظهر سلميّ يشير في النفوس احتراماً وحباً أكثر من الخوف. وهو ما يجعلني استنتج ان الاختلاف بين

«المهرجان الشعبي» وبين موكب النصر لا يعتمد على عظمة العمل بل على أسلوب انجازه. فأولئك الذين خاضوا معركة طاحنة وفتكوا بكثير من الاعداء وعادوا منتصرين، حقّ لهم ان يتقدموا ذلك الموكب العسكري المرعب. ثم أن العادة المتبعة آنذاك قضت بتطهير الجيش كله عن طريق تقديم القرابين، وبتزيين الجنود وأسلحتهم بكثير من نبات الغار. أما أولئك القادة الذين انجزوا ما كلفوا به عن طريق المفاوضة والمنطق دون استخدام أية قوة فان العرف كان يقضي بمنحهم شرف «المهرجان الشعبي الحافل» الخالي من المظاهر العسكرية، فالناي هو شعار السلام، واللبلاب هو نبتة [ثينوس]، تلك الربة التي تبغض القوة والحرب أكثر من كل الآلهة الآخرين. وكلمة Ovation ليست مأخوذة في اللفظة اليونانية «إفاسموس Evasmus» كما تظنّ الأغلبية بسبب ما يتخلل المهرجان من هتاف وصياح بكلمة «Eua!» فهذا ما يسمع أيضاً في مواكب النصر. لقد ادخل اليونانيون هذه الكلمة الى لغتهم مصحفةً، لتوهمهم أن هذا التكريم لا يبدّ وان يكون له بعض علاقة هو الآخر [بباخوس] الذي يلقبه اليونانيون [اييوس Euius] و[ثريامبوس Thriambus]. على أن الأمر خلاف ذلك، فقد جرت العادة في مواكب النصر ان يضحي القادة بثور، وفي المهرجانات الشعبية ان يضحو بشاةٍ ومن هنا جاءت لفظة «Ovation» المأخوذة من الكلمة اللاتينية «أفيس Ovis». والشيء بالشيء يذكر أن قرابين السبارطين المشرعة قانوناً، كانت بعكس العادة الرومانية، فالعسكري اللقيديوني الذي ينج ما كلف به بالدهاء والمكر أو بالتفاهم والطيبة يقوم بتضحية ثور عند تنحيه عن قيادته، واما اذا انجز مهمته بطريق القوة والحرب، فانه يضحيّ بديك. من هذا ترى ان اللقيديونيين - رغم كونهم شبواً على الحرب وشابوا، يعتبرون المهمة التي تنجز بالحكمة والعقل أليق بمقام الرجل وأشرف له من استخدام قوته وشجاعته المجردتين. وأني لأترك الحكم لغيري في أفضلية هاتين الطريقتين.

وانتخب [مارچلوس] قنصلاً للمرة الرابعة، فقام السيراقوزيون بتحريض خصومه، يلفقون تهمةً عليه ويعرضون شكواهم في روما، وزعموا فيها انهم لاقوا اضطهاداً وأذىً على يده خلافاً للعهد المنوح لهم^(٤٤). وأتفق أن مارچلوس كان وقت تقديم الشكوى، في الكاپيتول يقدم قرباناً. فمكث في المجلس ليستريح لهم فرصة عرض الشكوى والظلامة وحاول زميل [مارچلوس] صرفهم ليحمي زميله في غيابه، لكن أقبل حال سماعه بالأمر وجلس على

(٤٤) ما ان أستقر المقام بالسيراقوزيين في روما. حتى بدء القنصلان بسحب القرعة على توزيع الاقاليم بينهما. ووقعت (صقلية) من سهم مارچلوس فكانت ضربة شديدة وقعت على هؤلاء المندوبين ولم يجروا على الاحتجاج والتظلم لو لم يعرض مارچلوس استبدال صقلية باقليم آخر [ليفي ٢٦: ٢٩ و ٣٠].

كرسي الرئاسة وبدأ أولاً يعرض على المجلس المسائل العاجلة والشؤون الأخرى لتصرفها. وما انتهى من ذلك حتى ترك معقده ويمّ شطر المحلّ المخصص للمتهمين عند تقديم دفاعهم، كأي شخصٍ عاديّ. وافسح الحرية التامة للسيراقوزيين حتى يدلّوا بشكاواهم. فوهت عزائمهم من موقفه الجليل ومن فرط ثقته بنفسه وتسمّروا في الأرض مذهولين وبدأ تأثير وجوده في المجلس وهو مرتدّ ثوب السلطة أشدّ مهابة وصرامة وهو في دروعه وشكّة سلاحه على أنهم باثروا بتعداد التهم حين وجدوا تشجيعاً وتحريضاً من خصومه. والقوا خطبةً مزجوا فيها التهم القضائية بظلماتهم وشكاواهم، قالوا أنهم ذاقوا على يده ما احجم قادة آخرون من ايقاعه باعدائهم، مع كونهم حلفاء وأصدقاء للرومان، فردّ عليهم [مارچلوس] (٤٥) أن السيراقوزيين ارتكبوا أعمال عدوان كثيرة ضد شعب روما. وانهم لم يعانون شيئاً يزيد عمّا لا مفر للعدو المغلوب الأسير من تذوقه. وانهم جنوا على أنفسهم وأن أعمالهم هي التي جعلتهم يرسفون في أغلال الأسر لأنهم رفضوا الانصياع الى محاولات الاقناع بالحسنى واللين التي بذلها كثيراً، وهذه الحرب التي شنوها لم يرغمهم عليها الطغاة أبداً، وأما عمدوا الى خلق طغاة لغرض اثاره الحرب فحسب. ثم ختمت الخطب. وغادر المشتكون قاعة المجلس كما يقضي به العرف. كما ترك [مارچلوس] زملاءه منسحباً مع السيراقوزيين، وبقي خارج الباب ينتظر قرار الحكم (٤٦). ولم يبد عليه انشغال بال من التهم، ولا سخطاً من متهميه. بل ظلّ ينتظر النتيجة بهدوء تام ووقار. أخيراً توصل المجلس الى قرار اجماعي صدر بموجبه مرسوم يقضي بجبّ كل التهم عن [مارچلوس] (٤٧) والإشادة بافعاله، وبراءته.

فإلقى السيراقوزيون بأنفسهم على قدميه وعيونهم مخصلة بالدموع، يرجون صفحه وغفرانه عن الحاضرين، وعطفه على شقاء سائر أهل المدينة وسيبقون دائماً أبداً أسرى فضله شاكرين. فرق لهم قلبه ولان لدموعهم وآلامهم ولم يكتف بصفحه عن الوفد بل وعدهم خيراً وظلّ أبداً ينتهز الفرص ليخص السيراقوزيين بالتفاته ويشملهم بعطفه. وايدّ مجلس الشيوخ استقلالهم

(٤٥) عندما فرغ السيراقوزيون من عرض اتهاماتهم ضد مارچلوس أمرهم زميله القنصل ليفينيوس Lavinus بالانسحاب. إلا أن مارچلوس أصرّ على ان يبقوا ليسمعوا دفاعه.

(٤٦) في اثناء ما كان القضاة يتداولون في الحكم. خرج هو الى الكابتول لتسجيل اسماء المجندين الجدد [ليفي المرجع نفسه ٣١ و ٣٢].

(٤٧) لم يحض سلوك مارچلوس بالموافقة التامة من مجلس الشيوخ حين استيلائه على سيراقوز. فبعض الاعضاء أخذ يتذكروا التعلق الشديد بالجمهورية الذي عبّر عنه (هيرو) في كثير من المناسبات ولم يسعهم إلا أن ينحوا باللانتم على جنرالهم الذي استباح المدينة. ولم يكن السيراقوزيون في وضع يستطيعون به اظهار شعورهم الحقيقي حيال وجود جيش من المرتزقة بين ظهرانيهم فأضطروا للنزول عند حكم الظروف واطاعة أوامر ضباط (هنيبعل) الذين كانوا يسيطرون على سائر قطعات الجيش.

وحريتهم التي أعيدت اليهم، وأقرّ حقوقهم وقوانينهم وثبت لهم ما بقي من ممتلكاتهم الخاصّة. ورداً لهذا الجميل أصدر السيراقوزيون قانوناً ينصّ على أن يطوق المواطنون اعناقهم بقلائد الزهر ويقدموا القرابين للألهة كلما وطئت قدم [مارچلوس] أو واحد من ذريته، فضلاً عن ضروب أخرى من التكريم.

بعد هذا، تحرك [مارچلوس] نحو [هانيبيل]. كاد كل قنصل الرومان وجزالاتهم منذ هزيمة [كاني] يطبقون خطة واحدة ضدّ هنيبعل لم يحيدوا عنها أبداً وهي اجتناب الالتحام معه في معركة كيفما كان. ولم يجد أحد منهم شجاعة كافية تدفعه الى الاشتباك معه في قتال، وتحكيم السيف وحده. إلا أن [مارچلوس] تبنّى الخطة المعاكسة. فقد رأى ان ايطاليا سيحقيق بها البوار بالتأخير الذي أملوا منه انهاك [هنيبعل]. وكان [فابيوس] الذي تمسك بسياسة الحذر، ينتظر أن تنطفيء نار الحرب من تلقاء نفسها في حين كانت حال روما تتردّد وتساءل باطراد. وبأبى الأخذ بهذا السبيل الصحيح لعلاج داء البلاد، فموقفه يشبه موقف الطبيب المتردد الذي يخشى إعطاء الدواء للمريض، ويبقى منتظراً مؤمناً أن ضعف قوى المريض وانتكاسته هو ضعف المرض وزواله.

وكانت حصيلة خطة [مارچلوس] الأولى، سيطرته على مدن السامنيين Samnites الكبيرة التي انتقضت على العدو، ووجد فيها مقادير كبيرة من القمح والأموال، وثلاثة آلاف جندي قرطاجني تركهم هنيبعل فيها لأغراض الدفاع. ثم على أثر مقتل البروقنصل [كنيوس فلوفيرس Canæus Fluvius] وأحد عشر تربيوناً (مفوضاً) عسكرياً وإبادة معظم الجيش الذي يقوده. في [ابوليا Apulia]، بعث [مارچلوس] برسائل الى روما يطلب فيها من الشعب ان يتحلّى بالصبر والشجاعة، لأنه سيزحف فوراً للاصطدام بهنيبعل ليقلب نصره مائماً (٤٨). ويحدثنا [ليفي] انه عندما قرئت رسائله لم تحدث الأثر المأمول ولم ترفع من معنويات الشعب، وانما هبطت بها كثيراً. فقد تبينوا فراحة الخطب لأن [مارچلوس] كان في نظرهم اثن من [فلوفيرس]. ولكن هذا ما كان قد قرره وتقدم نحو بلاد اللوكانيين. والتقى بخصمه في [نومبسترو] وكان قد سبقه الى احتلال المرتفعات، فضرب خيامه في السهل المنبسط وفي اليوم التالي وضع فرقه في نسق المعركة فقبل [هنيبعل] التحدي والتحم الجمعان واستمر القتال سجلاً بين الفريقين دون أن يستظهر أحدهما، وأقبل الليل ففصلهم مرغمين. ولم تكذب شمس اليوم التالي الا وجيش [مارچلوس] متأهب الاستئناف القتال. وقد خرج من معسكره، ونشر صفوفه بين جثث قتلى الأمس يتحدى هنيبعل لانهاه النزاع بمعركة أخرى،

(٤٨) في الساعة التاسعة صباحاً.

فأبى التحدي وانسحب بجيشه، حتى أسرع الى اللحاق به. وكان في كل الاشتباكات الموضوعية، والتعرضات الجانبية التي حصلت اثناء المطاردة، هو الجانب المتفوق ابداً، مما زاد من شهرته كثيراً، حتى انه لما أرف موعده عقد الكوميتيا Gomitia في روما فضل مجلس الشيوخ استدعاء القنصل الثاني من صقلية^(٤٩)، على سحب [مارچلوس] من جبهة القتال. ولما وصل زميله طلب منه أن يعين [كوينتوس فلوقسوس] بمنصب الدكتاتور، لأن الدكتاتور لا يعينه الشعب أو مجلس الشيوخ بل القنصل الپريتور بحضور الجمعية العمومية أذ سمي مرشحاً الذي يختار ويقده المنصب علناً. ومن هنا جاء لقبه «دكتاتور»، فهو من لفظة «ديكيري Decere» اي «تسمية». ويقول آخرون إنه ما سمي دكتاتوراً إلا لأن كلمته هي بحكم القانون، وأن أوامره التي يصدرها لاتوضع في التصويت، ولذلك كان الرومان يسمون قرارات الحكام «اديكات».

كان زميل [مارچلوس] القادم من صقلية، يريد تعيين رجل آخر لهذا المنصب^(٥٠)، ولم يكن ليرضى بالتحويل عن رأيه مرغماً، فغادر روما ليلاً عائداً الى صقلية. فما كان من عامة الشعب إلا أن أصدر قراراً إجماعاً باختيار [كوينتوس فلوقسوس] وأرسل مجلس الشيوخ رسولاً عاجلاً الى [مارچلوس] يأمره بتسمية مرشح الشعب، فأطاع وأعلمه دكتاتوراً حسب رغبة الشعب، مستبقياً منصب الپروقتل لنفسه مدة سنة أخرى. ثم أتفق مع [فابيوس ماكسيموس] بأن يضرب الحصار على [تارنتوم] بينما يقوم هو باستدراج هنيبعل ومشاعلته لتعويقه عن نجدة المدينة. وهكذا ادركه في [كانوزيوم] وحاول الالتحام به إلا أن [هنيبعل] راح يروغ منه ويرفض الدخول معه في معركة بكثرة تغييره لمعسكره، الى أن باغته وهو يعسكر فاستفزه باشتباكات خفيفة موضعية حتى جرّه جرّاً الى معركة طاحنة، لكن الليل حاجزهما والقتال على أشده. وفي اليوم التالي خرج مارچلوس للقتال ونشر عسكره بنسق الهجوم، وهنا أمر [هنيبعل] باجتماع عام للقوات القرطاجية وقام يخطب فيهم وقد اثقله الهم، راجياً بحرارة أن يقاتلوا قتالاً جديراً بانتصاراتهم الماضية ومما جاء فيها «انتم ترون كيف تعز علينا الراحة، وكيف يحال بيننا وبين الاستجمام بعد كل الانتصارات التي احرزناها. لا سبيل لنا الى ذلك إلا اذا الحقنا الهزيمة بهذا الرجل».

(٤٩) بناء على اقتراح مارچلوس نفسه الذي شرح لهم كتابة أهمية استمراره في الضغط على هنيبعل. ولهذا قام مجلس الشيوخ باستدعاء [ليفيوس] [ليفي ٤٧:٤].

(٥٠) كان [ليفيوس] يرغب في تسمية [ماركوس فاليريوس ميسالا] دكتاتوراً. ولما ترك روما فجأة موصياً نائبه الپرينور بان لا يرشح [فلوقسوس] قام تربيونات الشعب بالاضطلاع بالمسؤولية. وحمل المجلس مارچلوس على مصادقة الترشيح [ليفي المرجع نفسه].

ثم التقى الجيشان في قتالٍ مرّ عنيف. وأتى [مارچلوس] بحركة تعبوية غير مناسبة أدت الى ارتكابه خطأ^(٥١): كانت الميمنة تزح تحت ضغط شديد فأمر إحدى فرقة الاحتياط بأن تتقدم الى خط القتال. هذه الحركة أحدثت خللاً في صفوف الفرق المقاتلة وترتيبها الهجومي، ودفعت بالنصر الى يد العدو، وسقط ألفان وسبعمئة من الرومان. فأنسحب [مارچلوس] الى معسكره وجمع الجنود وخطب فيهم. ومما قاله:

- اني أرى كثيراً من جثث الرومان وسلاحهم، ولا أرى رومانيا واحداً.

ورفض رفضاً قاطعاً أن يقبل رجاءهم بالصفح عنهم، طالما هم مغلوبون، إلا أنه وعدهم بالصفح عند انتصارهم. وقرر أن يخرج بهم الى الميدان في اليوم التالي، لتصل انباء انتصارهم فيها الى روما قبل وصول انباء هزيمة الأمس. ثم أمرهم بالانصراف، وأشار بتوزيع جارية شعير عوضاً عن القمح^(٥٢) على كل الوحدات التي أولت ظهرها للعدو. فكان لهذا التقرير وقع أليم في نفوس الجنود، وقيل أنه رغم اصابة أغليبتهم بجراح بليغة فلم يكن بينهم أحد إلا وشعر أن خطبة الجنرال أشد ألماً له من جراحه نفسها.

وانبلج الصبح وارتفع الوشاح القرمزي على خيمة القائد، اشارة للقتال الفوري. وطلبت السرايا التي وصمت بالجبن وسوء التصرف أن يكون ترتيبها في الصف الأمامي، فنالت مبتغاهن، ثم قدّم التربيونات العسكريون بقية القطعات ووضعوها في نسق الهجوم، ولما أبلغ [هنيبعل] بتيهو العدو هتف قائلاً:

- يا للعجب! ما حيلتنا بهذا الرجل الذي لا قبل له بتحمل حسن الحظ ولا بسوءه؟ انه الرجل الوحيد الذي لا يدعنا في راحة عندما يكون منتصراً، ولا يدع نفسه ترتاح عندما يصاب بهزيمة. ويبدو إلا مناص لنا من قتاله أبداً. فالثقة التي يبثها نجاحه الباهر في نفسه، تدفعه الى البحث عن مغامرة أخرى كذلك عاره لفشل ذريع اصيب به يدفعه الى مغامرة مماثلة.

ثم اشتبك الجيشان. وظلت النتيجة غامضة. فأمر [هنيبعل] بنقل الفيلة الى اللواء الأول المتقدم وأن تساق نحو وحدات الرومان الأمامية، فتم ذلك وأحدث اندفاعها ووطئها كثيراً من الجنود فوضى خطيرة في صفوف الرومان فأسرع التربيون العسكري [فلافيوس] يختطف راية

(٥١) لم تكن الحركة غير معقولة. لكن أسيء تنفيذها. ويقول ليفي ان الميمنة تراجعت بأسرع مما كان يجب عليها وان الفرقة الثامنة عشرة التي أمرت بالتقدم من المؤخرة الى الطليعة كانت حركتها بطيئة جداً وهذا ما خلق فوضى.

(٥٢) تلك هي العقوبة الشاملة. والى جانب هذا أمر ضباط السرايا ان يظلوا اليوم بطوله ممتشي السيوف بدون احزمة [المرجع نفسه ١٣].

الرومان، وبعد أن أنهى الخطاب. خُذع المدعي بآماله في الإدانة، ولم يُكتف بتبرئه مارچلوس
انما أعيد انتخابه قنصلاً للمرة الخامسة.

وعند أول مباشرته الوظيفة زار مدن اتروريا^(٥٥) قمع فيها فتنة خطيرة كادت تؤدي الى
ثورة. وزار مدنها وطيب الخواطر فيها. وعارض الكهنة في شرعية تكريس معبد كان قد نذره
للربيين «الشرف» و«الفضيلة» من الأموال التي غنمت في صقلية، زاعمين أنه لا يجوز
تكريس معبد واحد لربيين اثنين^(٥٦)، فما لبث أن لحقه بشان، وهو شديد السخط لتلك المعارضة
التي كاد يفسرها بنذير شؤم. والحق يقال أن الخوارق التي تعاقبت حينذاك، اشاعت الخوف في
نفسه. فقد سقطت صواعق على بعض المعابد. وفي معبد [جوبيتر] قرضت الفيران الذهب،
وتنقل ايضاً ان ثوراً أخذ يتكلم، وان طفلاً ولد برأس يشبه رأس الفيل. لقد عولج أمر هذه
الخوارق كلها بطبيعة الحال، ولكن الآلهة لم تعلن عن رضاها كما ينبغي. وعلى هذا اضطرت
استخارة الطير الى البقاء في روما وهو يحرق الإرم غيضاً ويتلهب شوقاً للقتال، ولم يكن أحد
مثله يضطرم بالرغبة في خوض معركة مع [هنيبعل] فهي مدار أحلامه في الليل، وهي
موضوع كل أحاديثه مع أصدقائه واصحابه، وهي رجاؤه الوحيد الذي يتقدم به الى الآلهة.
كانت امنيته الكبرى ان يلاقي [هنيبعل] في ساحة الوغى، بل يخيل لي أنه سيكون مغتبطاً
جداً بالهجوم عليه والجيشان ضمن معسكر واحد. ولو لم يكن [مارچلوس] مثقلاً بالتكريم،
متخماً بالشهرة، ولو لم يقدم البراهين بشتى الطرق على نضوج احكام وبعد نظر لايدانيه
فيهما اي قائد محنك، لقلنا أن نرق الشباب الذي لا يليق برجل في مثل سنه، هو عامل
الإثارة والتحمس فيه. وكان قد تجاوز الستين عندما بدأ فترة قنصليته الخامسة.

بعد أن قدمت القرابين، وتم كل ما يتعلق بارضاء الآلهة وتهديئة خاطرها حسبما أوصى به
العرافون، خرج مع زميله^(٥٧) لمواصلة الحرب وأخذ يحاول بشتى الوسائل استفزاز [هنيبعل]
الذي كان وقتذاك قد ضرب معسكره الدائم في موضع يقع ما بين [بانتييا Bantia]
و[فينوسيا Venusia]، إلا انه أبى القتال، على أن استخباراته أعلمته بأن بعض الوحدات

(٥٥) قبل ذلك. بحسب رواية ليقي.

(٥٦) كانت حجتهم في ذلك انه اذا نزلت بالهيكل صاعقة أو أرعدت الدنيا أو ابرقت أو حلت به أية ظاهرة
تستدعي تقديم الكفارة فانهم لن يعرفوا لأي من الالهين يجب تقديم الاضحية؟ وعلى هذا الاساس قام
(مارچلوس) ببناء معبد ثانٍ لالهة الفضيلة Virtue ارضاءً لهم. ولم تطل به الحياة ليقوم بتكريسه إلا ان
ابنه قام بتكريس المعبد بعد اربع سنوات من وفاته.

(٥٧) انظم اليه زميله قادماً من موضع آخر.

من يد حاملها. وتقدم من أحد الفيلة واصابه بجرح من السنان المثبت في عقب قناة الراية،
وحمله على الفرار. وباصابته بطعنة ثانية استدار وانسحب وتبعته الفيلة الأخرى، وبمشاهدة
[مارچلوس] ذلك أسرع يدفع خيالاته بهجوم عنيف عليها وعلى العدو خلفها. ففرت وأوقعت
الخلل في صفوف القرطاجيين. وأستمرت الخيالة تشد شداً عنيفاً وراحت تطارد العدو حتى
دفعت به الى معسكره هارباً. والفيلة تصول وتجول فيهم وتهلك منهم الكثير. وقيل ان عدد
قتلاهم أناف على ثمانية آلاف. ووقع من الرومان ثلاثة آلاف قتيل ولم يسلم واحد بلا جراح.
وهذا ما اتاح [لهنيبعل] مجالاً للانسحاب في هدأة الليل، واضعاً بينه وبين خصمه مسافة
بعيدة. وكان عدد الجرحى من جنود [مارچلوس] سبباً في عجزه عن مطاردة العدو؛ وانتقل
بمسيرات بطيئة هيئة الى [كمپانيا] وقضى فصل الصيف في [سينويسا Sinuessa] (٥٣)
منشغلاً في تضييد جراح جيشه واعادة تنظيم فرقه.

لكن ما أن انتزع [هنيبعل] نفسه من مخالِب [مارچلوس] حتى راح يتنقل بجيشه في
ارحاء ايطاليا بحيث سالباً غاضباً ناهباً لا يخشى أحداً. وارتفعت الأصوات في روما تهاجم
[مارچلوس] وتنتقد سلوكه. وتوصل منتقدوه الى اقناع [پوبليشوس بيبولوس Publicius
Bibulus] أحد مفوضي [تريبليون] الشعب، وهو رجل عنيف المزاج وخطيب مقوّه الى
الاضطلاع بتوجيه الاتهام له. فتمكن هذا بخطبه المتواصلة الملحاحه من حمل الشعب على
سحب قيادة الجيش من يد [مارچلوس] لأنه «انسحب بعد عملية عسكرية صغيرة، من
ميدان القتال، ليستجم ويتنعم بالحمامات الحارة هناك على حدّ قوله^(٥٤).

ولما بلغ مارچلوس بهذا، عين عدداً من مساعديه الضباط الادارة معسكره وأسرع الى روما
لتفنيذ التهم الملتصقة به. ووجد في انتظاره لائحة تتضمن قائمة كاملة بالتهم. واجتمع الشعب
في الملعب الفلاميني، يوم المرافعة، فنهض [بيبولوس] من مجلسه ووجه التهمة اليه، فلقى
[مارچلوس] بردود مختصرة بسيطة، وتبعه رؤساء المدينة وافاضلها يتكلمون بقوة عارضة
وبلاغة واسهاب، يعيبون على الشعب موقفه ويتحدونه أن يكون أسوأ حكماً على مارچلوس
من اعدائه بادانته بالتردد والجبن وهو القائد الوحيد بين كل قادتهم الذي صفع العدو في
وجهه، بينما كان هذا يتحاماه ويروغ منه بقدر ما كان يرغب في الاشتباك مع غيره من قادة

(٥٣) ليقي [المرجع السالف ٢٠ يقول «بل من (فينوسيا) فهي أقرب بكثير من كانوسيوم وأسهل سبيلاً لايسال
الجرحى.

(٥٤) هناك حمامات حارة بالقرب من سنيوساً. كما يحدثنا سترابو(٥) ولا يوجد في (فينوسيا). فان كان
مارچلوس قد قصد المدينة الأخيرة. فالشعر الساخر الذي قيل بحقه لا مبرر له أو مناسبة. لذلك أهمل
ليقي ذكره. لكن أورد عين ما قاله (لبيبولوس) من «أن مارچلوس قضى الصيف في مقره».

الرومانية تتجه نحو مدينة [لوكري أو ايبيفيري الغرب [Locri, Epiyephyri] (٥٨) فكمن لهما تحت جبيل يدعي [بتليا Petelia] وقتل منهما ألفين وخمسائة جندي، فاستشيط مارچلوس غيظاً وعصفت بنفسه ربح الانتقام وتحرك مقترباً من هنيبعل. وكان بين المعسكرين أكمة ذات مناعة تغطيها الغابات، والمرتقى اليها صعب من الجهتين وفيها ينابيع ينحدر ماؤها الى أسفل. وكان الموقع ممتازاً ذا فائدة عسكرية كبيرة، حتى عجب الرومان لأن هنيبعل أهمل احتلاله وتركه يقع بيد عدوه مع انه كان اسبق اليه منه. اما الحقيقة في الأمر فلم تكن كما تصور الرومان ففائدة الأكمة لم تغب عن [هنيبعل]، إلا أنه وجده أصلح لنصب كمين ولهذا تركه في الظاهر وأخفى في غاباته وغاره أعداداً من الرماة بالنشاب والرماح. وكان واثقاً أن صلاح الموقع سيُعري به الرومان، ولم يكن مخطئاً في حدسه. فقد أخذ الرومان يبحثون في أمره، ويتناقشون حوله فيما بينهم حتى كان الكلّ ضباط وقادة وقرّ الرأي على احتلاله والاستفادة منه للنييل من العدو. ولاسيما اذا نقلوا معسكرهم اليه ومتمنوه بحصن. فقرر مارچلوس الخروج بسرية خيالة لاستطلاع واستدعى عرافاً وياشر في التقريب للآلهة. وفي الضحية الأولى أخرج الكاهن [الاروسپكس Aruspex] الكبس من دون رأس، وفي الضحية الثانية ظهر الرأس بحجم اعتيادي. وكانت العلامات الأخرى فيها، مشجعة مبشرة بالخير. ويظهر كفاية هذه العلاقات لتبديد الخوف من علامات النحاس الأولى، أعلن العرافون انهم يخشون الثانية أكثر من الأولى. لأن الاحشاء الحسنة جداً والمبشرة بالخير، اذا تلت أحشاءً ضحية أخرى مشوهة مخيفة، يكون التغيير موضع شك، والدليل منذراً بشؤم. لكن...

« لا يفلح في صدّ القدر المحتوم، لا النار ولا جدار من البرونز » كما يقول [پندار]. وهكذا خرج [مارچلوس] الى الأكمة يصحبه زميله [كرسپينوس Crispinus] وابنه وهو [تريبينوس] عسكري، مع مائتين وعشرين فارساً على أكثر تقدير. ليس بينهم روماني واحد، وهم من الاتروسكيين، مع اربعين من [الفريجلائان Fregellan]، لطالما قدموا لقائدهم الدليل على بأسهم وأخلاصهم في كل الظروف.

كان التلّ مكسوّاً بالغابات تماماً. وعلى قمته جلس أحد كشافه العدو، مستتراً عن اعيان الرومان، في حين كان معسكرهم مكشوفاً له برّمته. فلما دنا [مارچلوس] وجماعته من الكمين أعطى الكشاف اشارة لهم فبرزوا من حفائهم وخباياهم وباغتوه دفعة واحدة وأحاطوا به من كل جهة وراحوا يقذفونه بوابل من الرماح فاصابت فريقاً، وأدركت ظهور الفارين. ثم

(٥٨) لم تكن هذه وحدات من وحدات الجيش الروماني المرتبطة بأمره القنصلين. بل هي قطع عسكرية سحبت من صقلية ومن حامية [تارنتوم] المرجع نفسه.

حملوا بشدة على من صمد وهم الفريجلائيون الأربعون (الذين عملوا حلقة بعد هروب الاتروسكيين عند بدء الهجوم). وأستمروا يدافعون عن القنصلين ببسالة حتى أصيب [كرسپينوس] برمحين فالوى بعنان جواده هارباً. وأصيب مارچلوس في خاصرته بطعنة حربة عريضة السنان، وعندها ترك الاحياء القلة من الفريجلائيين قنصلها صريعاً وهربت [مارچلوس الاصغر] الذي اصيب هو الآخر، حتى بلغت المعسكر. ولم يزد عدد القتلى عن الأربعين، ووقع في الأسر خمسة من [اللكتورا] وثمانية عشر فارساً. وتوفي [كرسپينوس] متأثراً بجراحه بعد بضعة ايام (٥٩). كانت خسارة قنصلين في اشتباك واحد نكبة لم يمن بها الرومان بمثلها من قبل.

ما أن انبىء [هنيبعل] بمصرع مارچلوس حتى ترك كل ما يشغله وهرع الى الأكمة. وهناك وقف ينظر الى الجسد الهامد، ويتأمل طويلاً في شكله ومتانة بنيانه، ولم تخرج من فمه كلمة واحدة تعبر عن زهو أو تباه كما كان يحق لغيره أن يفعل حين يتخلص من عدوٍ عنيدٍ محرج. على أن النهاية اذهلته تماماً. ولم يأخذ من خصمه الصريع غير خاتمه (٦٠). وأمر بكسائه ثياباً لاثقة وتزيينه وحرقه بغاية الاحترام ثم وضع بقايا الجثة في دعاء فضيّ مغطى بتاج ذهبي، ويعث به الى ابنه. إلا أن بعض النوميديين من عسكره، سطوا على حامله وأنتزعوه منهم والقوا بالعظام. فبلغ ذلك هنيبعل فقال:

- اذن فمن المستحيل أن نعانده ارادة الله!

وأنزل بالنوميديين اللصوص عقاباً، إلا أنه لم يتخذ اي اجراء لجمع العظام واعادتها. مدركاً أن القدر المحتوم حكم على مارچلوس أن يخسر صريعاً هكذا، وان يظلّ ملقى على ظهر الأرض هكذا.

هذا ما دونّه لنا [كورنيلوس نپوس Cornelius Nepos] و[فايريوس ماكسيموس Vari-us Maximus] عن الحادث، إلا أن [ليفي] (٦١) و[اغسطس قيصر] يؤكدان أن الوعاء بلغ

(٥٩) لم تدركه الوفاة الآ في آخر السنة وذلك بعد ترشيحه [تليوس مانليوس توسكواتوس] دكتاتوراً من أجل عقد الجمعية العامة. ويقوم بعضهم انه توفي في [تارنتوم] وبعضهم يقول لا بل في كامبانيا (المرجع نفسه) (٣٣).

(٦٠) خيل لهنيبعل انه سيفيد كثيراً من خاتم مارچلوس الرسمي إلا ان [كرسپينوس] بادر على الفور باذاعة نبأ وفاته بين سائر المدن مع التحذير بأن خاتمه الرسمي قد وقع في يد هنيبعل وعليهم ان لا يصدقوا من يعرضه عليهم. وقد انقذ هذا التحذير (سالابيو) في (ابوليا) وان انطلت الخدعة على رسلة الذين جاؤا بالخاتم وأدخلوهم المدينة وذبحوهم عن بكرة ابيهم وكانوا حوالي الستمائة من الرومان الهاربين من الخدمة اما الباقون فقد تمكنوا من الهرب.

(٦١) يحدثنا بان [هنيبعل] قام بدفن [مارچلوس] في التلّ الذي سقط فيه. اما عن أثر [اغسطس قيصر] =

الإبن، فشيعت رفاتة بجزارة فخمة. وأقيم له نصب تذكاري في روما. وخذ اسمهم بميدان مصارعة واسع في [كاتانا] بصقلية. ونصبت تماثيل وصور مما غنمه من سيراقوز، في معبد الآلهة المسماة [كابيري Cabiri] بساموثراس، وفي معبد منيرفا بـ [ليندس Lindus] حيث أقيم أيضاً تمثال له. نقشت عليه الابيات التالية (على ما يذكر بوسيدونيوس).

أيها ذا الغريب! كان هذا نجم روما الالهي يوماً. انه «كلوديوس مارچلوس» الكريم النسب، الذي حارب حروبها ونصب قنصلاً عليها سبع مرات. وبذراعه المرعدة ذبحت الألوف!

اضاف ناظم هذه الابيات فترة توليه منصب البيروقنصل مرتين الى قنصلياته الخمس. وظلّ نسله موضع اكرامٍ وأجلال حتى [مارچلوس] ابن [اوكتافيا] شقيقة [اوغسطس قيصر] (٦٢) التي انجبت له زوجها [كايوس مارچلوس]، وتوفي هذا الابن في شرح الشباب عام توليه منصب [ايديل] وهو حديث عهد بالزواج من بنت [قيصر] فأوقفت امه [اوكتافيا] (٦٣) مكتبة على روحه تخليداً لذكراه، وأوقف [قيصر] الملعب الذي يحمل اسمه.



اغسطس

= فلا وجود له.

(٦٢) استمر النسل على الانجاب بعد موته زهاء مائة وخمس وثمانين سنة. اذ انه قتل في ٢٠٦ ق.م ومات مارچلوس الشاب آخر السلالة في ٢١ ق.م.
(٦٣) يقول (سويتونيوس) ان اغسطس هو الذي أوقف المكتبة باسم اوكتافيا. [اغسطس ٢٩] و [ديون ٥٣:١].

وثاب الروح. إلا أن ثم اختلافاً جزئياً في نقطة واحدة. وهي أن [مارچلوس] فتك بارواح الكثير في المدن العديدة التي استولى عليها، أما [پيلوپيداس وپامنداس] فلم يؤثر عنهما أنهما قتلا أو استرقا شخصاً واحداً عقب اي نصر حازه. وقيل لنا أيضاً أن الثيبين انفسهم ما كانوا ليقدموا على عمل كهذا ضدّ [الاورخمينيين] لو وجد هذان القائدان في حينه. كانت انتصارات [مارچلوس] على الغالين باهرة رائعة، فقد قهر وهزم عدداً هائلاً من الخيالة والمشاة، بعدد ضئيل من الفرسان - (وهو عمل لا تجد له نظيراً فيما سجله المؤرخون عن قائد آخر غيره) وأخذ ملكهم أسيراً. وكان پيلوپيداس يطمح الى مثل هذا المجد إلا أنه لم يبلغه وقتله الطاغية في اثناء محاولته. على أن في امكانك ان تضع مقابل ذلك معركتي [ليوكترا وتيجري] المجيدتين. ونحن لا نجد في وقائع مارچلوس، واقعةً تمتاز بالحيلة والتأمر الخفي، كما فعل [پيلوپيداس] عند عودته من المنفى ففضى على الطغاة في [ثيبه]. مما يمكن اعتباره في مقدمة الأعمال الباهرة التي استعمل فيها المكر والكتمان. ولا نكران في أن [هنيبعل] كان أخطر خصوم روما واقواهم ولكن اللقيديونيين ما كانوا ليقبلوا عنه خطراً بالنسبة للثيبين ومن المسلم به انهم ذاقوا مرارة الهزيمة والفرار على يد [پيلوپيداس] في [ليوكترا وتيجري] في حين يذكر [پوليبوس] ان هنيبعل لم يذق طعم الهزيمة إلا مرة واحدة على يد [مارچلوس]. وبقي النصر معقوداً له في كل المعارك حتى مجيء [سكيبيو] وقد ملت أنا نفسي الى الأخذ بأقوال [ليفي] و[قيصر] و[كورنيلوس نيبوس]، وأقوال [يوبا Juba] الملك، من الأغرقي، في زعمهم أن جنود هنيبعل، عانوا الاندحار والهزيمة امام [مارچلوس] في بعض المعارك. إلا انها معارك لم تؤثر في مجرى الحرب العام بلا شك، حتى بدت وكأنها مجرد اشتباكات خادعة يقصد بها القرطاجنيون نوعاً من المشاغلة والالهاء. وأروع ما في الأمر هو معنوية الرومان، فبعد اندحار عدد كبير من جيوشهم ومقتل العديد من قوادهم وبمختصر القول - بعد الفوضى التي عمت امبراطوريتهم، ظلوا يظهرن من الشجاعة ما يوازي خسائرهم، ولم تفارقهم رغبتهم في خوض غمرات معارك جديدة، قدر رغبة اعدائهم فيها. وكان [مارچلوس] الوحيد الذي حقق المغلبة على الرهبة والخوف العظيمين المتأصلين. فأحيا معنويات الجنود، ورفع منها، وثبت كيانها، لتنقلب الى بسالة وحماسة جعلتهم لا يتخلون بسهولة عن النصر، بل يناضلون في سبيله الى آخر رمق. كان هؤلاء الرجال قد عودتهم هزائمهم المستمرة على اعتبار أنفسهم سعداء لو نجحوا بالفرار من وجه [هنيبعل]، فجاء مارچلوس ليعلمهم بأن الإقرار بانهم نكصوا خطوة واحدة في مشار النقع وزخم القتال، وان يركبهم الهّم الناصب اذا فاتهم النصر.

أوجه المقارنة بين پيلوپيداس ومارچلوس

ذلكم هو أهم وابرز ما وجدته عند المؤرخين عن [مارچلوس وپيلوپيداس]، والشبه قريب جداً بين هذين الرجلين العظمين في طباعهما وأخلاقهما، فكلاهما كان باسلاً مقداماً، حازماً وثاب الروح. إلا أن ثم اختلافاً جزئياً في نقطة واحدة. وهي أن [مارچلوس] فتك بارواح الكثير في المدن العديدة التي استولى عليها، أما [پيلوپيداس وپامنداس] فلم يؤثر عنهما أنهما قتلا أو استرقا شخصاً واحداً عقب اي نصر حازه. وقيل لنا أيضاً أن الثيبين انفسهم ما كانوا ليقدموا على عمل كهذا ضدّ [الاورخمينيين] لو وجد هذان القائدان في حينه. كانت انتصارات [مارچلوس] على الغالين باهرة رائعة، فقد قهر وهزم عدداً هائلاً من الخيالة والمشاة، بعدد ضئيل من الفرسان - (وهو عمل لا تجد له نظيراً فيما سجله المؤرخون عن قائد آخر غيره) وأخذ ملكهم أسيراً. وكان پيلوپيداس يطمح الى مثل هذا المجد إلا أنه لم يبلغه وقتله الطاغية في اثناء محاولته. على أن في امكانك ان تضع مقابل ذلك معركتي [ليوكترا وتيجري] المجيدتين. ونحن لا نجد في وقائع مارچلوس، واقعةً تمتاز بالحيلة والتأمر الخفي، كما فعل [پيلوپيداس] عند عودته من المنفى ففضى على الطغاة في [ثيبه]. مما يمكن اعتباره في مقدمة الأعمال الباهرة التي استعمل فيها المكر والكتمان. ولا نكران في أن [هنيبعل] كان أخطر خصوم روما واقواهم ولكن اللقيديونيين ما كانوا ليقبلوا عنه خطراً بالنسبة للثيبين ومن المسلم به انهم ذاقوا مرارة الهزيمة والفرار على يد [پيلوپيداس] في [ليوكترا وتيجري] في حين يذكر [پوليبوس] ان هنيبعل لم يذق طعم الهزيمة إلا مرة واحدة على يد [مارچلوس]. وبقي النصر معقوداً له في كل المعارك حتى مجيء [سكيبيو] وقد ملت أنا نفسي الى الأخذ بأقوال [ليفي] و[قيصر] و[كورنيلوس نيبوس]، وأقوال [يوبا Juba] الملك، من الأغرقي، في زعمهم أن جنود هنيبعل، عانوا الاندحار والهزيمة امام [مارچلوس] ذلكم هو أهم وابرز ما وجدته عند المؤرخين عن [مارچلوس وپيلوپيداس]، والشبه قريب جداً بين هذين الرجلين العظمين في طباعهما وأخلاقهما، فكلاهما كان باسلاً مقداماً، حازماً

وبمختصر القول: لم يغلب [پيلوپيداس] قط في اية معركة كان هو قائدها العام، وموجوداً فيها، وفاز [مارچلوس] بمعارك تزيد عن اي عدد فاز به قائد معاصر له. والحق يقضي أن يوضع الشخص الذي يصعب قهره، (مع الأخذ بنظر الاعتبار بطولاته العديدة) على قدم المساواة مع ذلك الذي لم يُقهر قط.

لقد استولى [مارچلوس] على سيراكوز عنوةً، في حين أخفقت آمال [پيلوپيداس] في الاستيلاء على سبارطا. واني لأرى في رفع رايته الى جدران سبارطا وطموحه الى أن يكون أول من يعبر نهر يورتاس بقوة السلاح، عملاً أصعب بكثير من اخضاع صقلية، إلا إذا اعتبرنا [أپامنداس] أحق وأولى بنسبة هذه المأثرة اليه كما كانت معركة ليوكترا أيضاً، في حين بنى مارچلوس شهرته وعظمة أعماله البطولية على معارك تفرد بها وحده ولم يكن لغيره سهمٌ فيها. فهو وحده استولى على سيراكوز ودحر الغالبيين دون معونة من زميله وانبرى للملاقة [هنيبعل] في ساحة القتال بمفرده ودون زميل، عندما أحجم الآخرون عن ذلك. ويتغيره في أسلوب حرب الخصم قدّم أوّل مثلٍ من أمثلة الجرأة على التعرض له.

وليس بوسعي الاشادة بمقتل أيّ من هذين العظيمين. فعامل الغرابة والفجاءة في نهاية حياتهما يشيع في نفسي شعوراً بالألم والحسرة. ويستأثر هنيبعل باعجابي لأنه لم يصب بخدش واحد في سائر المعارك العديدة الطاحنة التي لا يكفي يوم واحد لإحصائها.

وانني لأجلّ [خريسانتيس Chrysanthes] (الذي ورد ذكره في كيروبيديا Cyropædia كزيفون) فقد رفع سيفه ليهوى به على خصمه، حين نفع بنفير الانسحاب فتركه وتقهر بملء الطاعة والسكينة، على أنه قد يمكن أغتقار ثورة الغضب التي دفعت [پيلوپيداس] الى ملاحقة ثأرة في زخم المعركة، وكما يقول [يوربيدس]:

أولى صفات القائد أن يحرز نصراً مضموناً.

وثاني صفاته، أن يموت ميتة الشرف».

ففي هذه الحالة لا يمكن القول ان القائد «عاني» موتاً، والحريّ أن يقال: عاني معركة. إن عزم [پيلوپيداس] على قتل الطاغية وهو ماثل امام عينيه، لم يفقده رشاده ويسلمه الى جموع العاطفة الى الحدّ الذي ينسيه الهدف المتوخى من النصر، على انه ما كان ليتوقع أن تسنح له فرصة ثانية مساوية لهذه الفرصة في يسرها ومجدها وخلوها وبنضال في قضية عادلة شريفة كهذه. لكن مارچلوس أوقع نفسه في الخطر وسقط في كمين ليس الحسبان في سبيل هدف لا يعود عليه بفائدة كبيرة، وعندما لم تستدع اليه ضرورة ماسة أو وجود خطرٍ ماثل يسلمه الى

نزف العاطفة، وهو الذي تولى القنصلية خمس مرات، ودخل في مواكب نصر ثلاثة وغنم أسلاب ونفائس ملوك، وأحرز الانتصارات، تراه ينزل الى مرتبة كشّاف أو ديدبان فيعرض كل امجاده لتُداس باقدام المرتزقة الاسپان والنوميديين الذين باعوا أنفسهم للقرطاجيين حتى شعروا هم أنفسهم بأصغر من ان يستحقوا مثل هذا النجاح، وكادوا ينكرون على أنفسهم هذا النصر غير المنتظر بقتلهم أشجع وأكفاً وأشهر الرومان مع قليل من الفريجلان.

ولا يتوهمن أحد أننا ما قلنا هذا إلا ونحن نقصد انتقاد هذين الرجلين العظيمين أو انتقاصهما، فالحقيقة هي أننا نريد أن نعبر بهذا عن سخطنا الصريح وألنا لأنهما اضاعاً كلّ فضائلهما على مذبح شجاعتهم وانفقاً حياتيهما كأن خسارتها قاصرة على شخصيهما، لا على بلادهما وحلفاء بلادهما واصدقائهما.

بعد مصرع [پيلوپيداس] قام بتشجيعه اصدقاؤه الذين ضحى بحياته في سبيلهم. أمّا [مارچلوس] فإن اعداءه هم الذين قاموا بهذا. وكان حظاً سعيداً كريماً لأولهما. إلا انه كان يوجد شيء أسمى واروع في التكريم والإجلال الذي ابداه العدو لفضائل وشخصية كانت عقبتهم الكأداء، من اقرار الاصدقاء بالفضل. ففي الواحدة يكون الدافع الى التكريم والتقدير الفضيلة وحدها. وفي الأخرى تكون مصلحة الناس الشخصية وفائدتهم هي الأصل فيما ينتهجون.